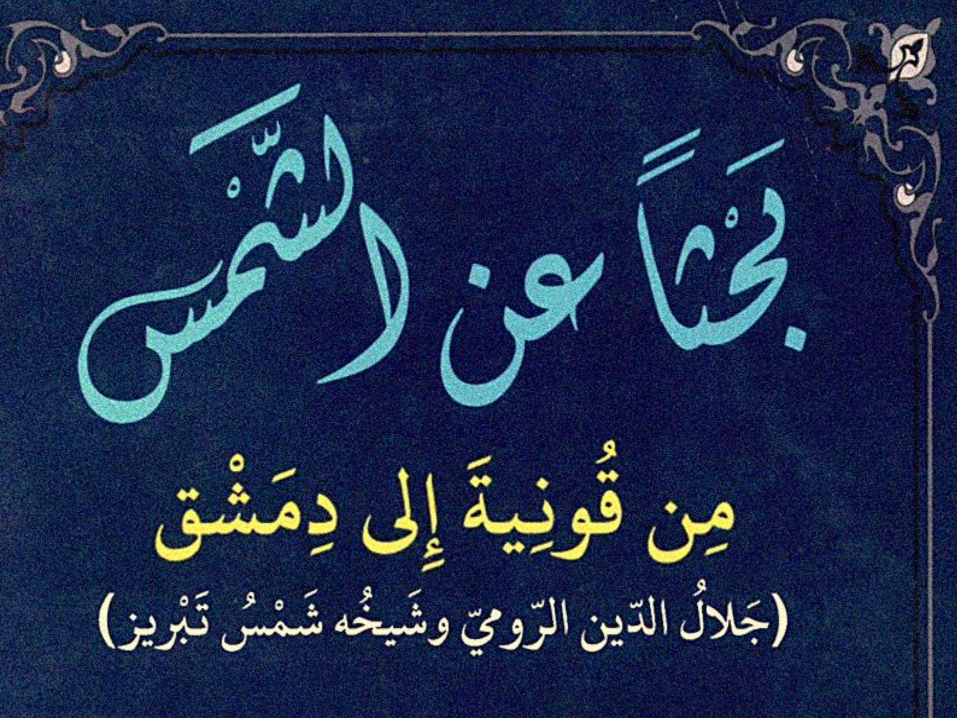


مِن قُونِيةَ إِلى دِمَشْق

(جَلالُ الدّين الرّوميّ وشَيخُه شَمْسُ تَبْريز)

أَلّفه بالفارسيّة: عَطاءُ الله تَدَيُّن

تَرجَمه إِلى العربيّة وقدَّمَ له

أ. د. عيسى علي العاكوب



بَحْثًا عَنِ الشَّمْس

مِن قُونِيةَ إلى دِمَشق

(جَلالُ الدّين الرّوميّ وشَيخُه شَمسُ تَبْرِيز)

بَحْثًا عَنِ الشَّمْس

مِن قُونِيةَ إِلى دِمَشْق

(جَلالُ الدّين الرّوميّ وشَيخُه شَمْسُ تَبْريز)

أَلّفَه بالفارسيّة

عَطاءُ الله تَدَيُّن

ترجمَه إِلى العربيّة وقدَّمَ له

أ. د. عيسى علي العاكوب

عنوان الكتـــاب: بَحْثاً عن الشَّمْس من قُونيةَ إلى دمَشْق
(جلالُ الدّين الروميّ وَشيخه شمَسُ تَبْريز)
اســم المؤلـــف: عَطاءُ الله تَدَيُّن
اســم المترجـــم: أ. د. عيسى علي العاكوب
المـوضـــــــوع: تصوّف
عدد الصفحات: 608 ص
القيـــــــاس: 17 ❖ 24 سم
الطبعــة الأولى: 1000 / 2015 م - 1436 هـ
ISBN: 978-9933-509-98-9

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: 2314511 11 963+
هاتـــف: 2326985 11 963+
E-mail: info@ninawa.org - ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

فِهْرِسْتُ مُحتَويات الكتاب



تقديمُ المترجِم

الحمدُ لِلّهِ رَبِّ العالمين، الذي لا يُعبَدُ سِواهُ ولا يُستعانُ إلّا به، الذي يبعثُ في نفوسِ المخلوقينَ المؤيَّدين الفِكَرَ الجميلةَ، ويولّدُ في قلوبهم الأشواقَ إلى تطهيرها وتَخْليقها في وجودٍ تتناهبُه أعينُ المتأمّلين، وتندهشُ له بَصائرُ المعجَبين بالخَلْق والتّكوين، الذين يَرَونَ في إبداعِ الخَلْقِ آياتٍ دالّاتٍ على عظَمة الخالِقِ المُبين.

وأعظَمُ قَدْرٍ مِن الصّلاةِ والسّلامِ عَلَى نبيّه محمّدٍ المبعوثِ رحمةً للعالمين. فاللهُ سبحانَه رَبُّ العالمين، أي خالقُهم ومُربِّيهم ومدبِّرُ أمرهم، ونبيُّه رَحْمةٌ لهم في تعيُّناتهم المختلفة في الزّمانِ والمكان. وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسَلين، وعلى آله الكرامِ وصَحابته الأعلام. وعلى كلّ مَن دَعا إلى سبيل ربّه بالحِكْمةِ الحكيمة والموعظةِ الحَسَنة البليغة.

فقد هيّأ لنا، سُبحانَه، أن ننقلَ هذا الكتابَ مِن لُغته الأصليّة إلى اللّغة العربيّة المكرَّمة بِكَونها لُغةَ هُدى الله سُبحانَه لِلْبَشر، ولُغةَ خاتَمِ النّبيّينَ الهادينَ، ولُغةَ البشَريّةِ الرّحيمة العاقلة المحِبّة التي تَرى النّاسَ جميعًا أبناءً لآدَمَ، علَيه السّلامُ، ولا فَضْلَ لِأَحدٍ منهم إلّا بالتقوى؛ أي إدراكِ عَظَمة الخالِقِ وتلمّسِ أسباب رِضاهُ ومحبّته.

أمّا بعْدُ، فموضوعُ هذا الكتابِ هو تفاصيلُ العلاقةِ الرّوحيّة والفِكْريّة الخاصّة التي نشأت بينَ الشّاعِرِ الصّوفيّ الكبير جلالِ الدّين الرّوميّ (٦٠٤ ـ ٦٧٢ هـ)، ومُرْشِدِه شَمْسِ الدّين التَّبْريزيّ (٥٨٢ ـ ٦٤٥هـ تقريبًا). فقد كان جلالُ الدّين الرّوميّ فقيهًا حَنَفيًّا

ذا شأنٍ في مدينة قُونِيَةَ التّركيّة، التي كانت في عَصْر الرّجلَيْنِ عاصمةَ سلاجقة الرّوم، وكان يدرّسُ العلومَ الإسلاميّة الأساسيّة في عَصْره، عُلومَ القرآنِ والحديث والمباحثَ المتّصِلة بهما، وكان يتتلمذُ عليه عددٌ كبيرٌ مِن طُلّاب العِلْم. لكنّه بعْدَ لقائه شَمْسًا التَّبْريزيَّ عاش حالًا مِن تغيّر طريقةِ التفكير والنّظَر إلى الوجود، فنهَجَ نهجًا مختلفًا تمامًا عن النّهج الذي ترسَّمَه قبْلَ هذا اللّقاء. وأظهَرُ ما جدّ في تفكيره وسُلوكه وحياته أنّه تعلّقَ بشَمْسٍ التَّبْريزيّ تعلّقًا مَلَك عليه أقطارَ نفسه، وتحوّلَ إلى شاعرٍ عارِفٍ فاقَ ما أنتجَهُ مِن الشِّعْر ما أنتجه أيُّ شاعِرٍ آخَر في العالَم. ومثْلَما كان لِقاءُ شَمْسٍ إيّاهُ متلفّعًا بغِلالةٍ مِن الإبهام، كان فِراقُه إيّاه أكثرَ غموضًا وإبهامًا.

وقد تحدّثَ كثيرون فيما مضى عن لِقاء الرَّجُلَيْنِ، وما زالت أقلامُ الكاتِبينَ في الشّرق والغرب تتحدّثُ عن هذا الأمر، وعن الفضاءِ الفِكْريّ العميق والواسع الذي قدّمَه الرُّجُلانِ، وقد شَمِلَ ذلك العالَمَ كلَّه في العقود الأخيرة، على نحوٍ يكون فيه جلالُ الدّين الرّوميّ مَحَلَّ اهتمامٍ مُشترَكٍ في الثّقافة الإنسانيّة كلّها. ومثْلُ هذا يجعلُنا نَصُوغُ مِعْيارًا جديدًا في تقويم الجماليّة الفِكْريّة الأدبيّة بالتحدّث عنَ المفكّرِ الأديب الذي يقدِّمُ للبشريّة حُداءً للرّوح إلى فِرْدَوسِه المفقود، ودعوةً للإنسان إلى معرفةِ المكانِ الذي جاء منه إلى هذه الدّنيا، والهدفِ الذي جاء من أَجْله، والسُّلوكِ الذي يلزَمُه أن يأخذَ نفسَه به، والمصيرِ الذي سينتهي إليه. وكلُّ ذلك ببيانٍ تألفُه النّفوسُ كلُّها وتستجيبُ لِأَدواته وتِقْنيّاتِ توصيله. حتّى إنّه غدا ممكنًا أن تتحدّث في جلالِ الدّين الرّوميّ عن أديبٍ للرّوح الإنسانيّ الشّامل، وفي أدَبه عن أدَبٍ يجدُ فيه الأفرادُ المختلفونَ تَلْبياتٍ لحاجاتِ نفوسهم، ونكَهَاتٍ مناسبةً لأذواقهم وطِباعهم. وهذا ما عبّر عنه المرحومُ الأستاذ الدّكتور محمّد عبد السّلام كفافي، حين قال قبْلَ ما يقربُ من

خمسين عامًا: «قُوبِلَ أدَبُ جلالِ الدّين عندَ كلّ مَن عرفوه بما هو جديرٌ به مِن التقدير والإعجاب. فأمّا أهلُ المشْرِق فقد مَجّدوه على صورةٍ لم يسبق لها مِثالٌ. وقد يُدْهَش بعضُنا إذا عَلِمَ أنّ شاعرًا إسلاميًّا كبيرًا كعَبْد الرّحمن الجامي قد وصفَه بقوله: «إنّه لم يكنْ نَبيًّا، ولكنّه أُوتيَ الكتابَ».. وأمّا أهلُ الغرب فقد أُعجبوا به إعجابًا شديدًا، ونشَروا عنه الكثيرَ مِن الأعمال العلميّة باللّغات الأوربّيّة المختلفة، سَواءٌ منه ما هو ترجمةٌ لبعضِ أعماله أو دراسةٌ لها»[1].

ويجدُ المرءُ في نفسه حاجةً إلى القول إنّه إذا كان جَلالُ الدّين الرّوميّ كتبَ آثارَه التي وصلت إلينا بالفارسيّة، التي كانت لغةَ بيته وحَيّه وإقليمه، فإنّه كان ينظِمُ ويؤلِّفُ بروح الثّقافة الإسلاميّة العامّ الشّامل للإنسانيّة كلّها. وإذا كانت أقوامٌ مختلفةٌ تتنازعُ نَسَبَه في بلادٍ تمتدّ مِن أفغانستان الحاليّة إلى غربيّ آسية الوُسْطى والأناضول، فإنّ انتماءه الحقيقيّ لم يكن إلّا للإسلامِ وعظمته وإشراقه.

والكتابُ الذي نضعُ بينَ يَدَي القارئ الكريم ترجمتَه العربيّة هذه اتّخذَ في أَصْله الفارسيّ هذا العنوانَ:

بدُنبالِ آفتاب ـ از قونيه تا دمشق

وهو من تأليف السيّد الأستاذ عطاء الله تديّن، الذي أعدَّ مجموعةً مِن الكتب في شأن جلال الدّين الرّوميّ وفِكْره وأدبه وسلوكه.

وصدرت الطّبعةُ الأولى منه عن دار نَشْر «انتشارات تهران» في طهران، سنة ١٣٧٦ هـ.ش / ١٩٩٧م.

---

١ ـ مقدّمة «مثنويّ جلال الدّين الرّوميّ»، المكتبة العصريّة، صيدا ـ بيروت، ١٩٦٦م، الجزء الأوّل، ص ٤٢ ـ ٤٣.

وقد جَعَلْنا العنوانَ العربيّ للتّرجمة: «**بَحْثًا عَنِ الشّمس ـ مِن قُونيةَ إلى دِمَشْقَ**». ويُشيرُ هذا العنوانُ إلى حالةِ الاشتياقِ والاهتياجِ والولَه التي انتابت جلالَ الدّين عندَ تَرْكِ شَمْسٍ قُونِيةَ وفراقِه إيّاه، وذهابِ جلال الدّين للبَحْث عنه في الطريق مِن قُونِيةَ إلى دِمَشْق.

وابتغاءَ إيضاحِ موضوعِ الكتاب للقارئ الكريم ألحقنا بالمقابل العربيّ للعنوان الأصليّ عبارةَ: (جَلالُ الدّين الرّوميّ وشيخُه شَمْسُ تَبْريز).

والحقيقةُ أنّ المؤلِّفَ بذلَ جُهْدًا كبيرًا في إعداد تصوّرٍ مقبولٍ لِمايمكن أن يكونَ طبيعةَ الصّلة بين جلال الدّين وشَمْس، والطّبيعةَ الشّخصيّة لكلٍّ مِن هاتَين الشّخصيّتين، والنّتاجَ الفِكْريّ والعَقَديّ لكلّ منهما، وأبعادَ الصّراعِ الذي أحدثَه تحوّلُ جلال الدّين من فقيهٍ رصينٍ وقورٍ، أكثرُ اعتمادِه على الرّواية والمنقول، إلى عارفٍ غارقٍ في بحار المحبّة الإلهيّة، هائمٍ بمعشوقِه الجديد، شَمْس تَبْريز، متلاشٍ فيه، ملتمسٍ كلّ وسيلةٍ لِمَدْحِه والثّناء على آلائه، مُنهمِكٍ في رَسْم تصاوير نَعمائه. وقد عُنِي الكتابُ عنايةً خاصّةً بتقديم تصوّرٍ لأمْرَيْنِ اثنَيْن:

١ ـ ما كان يدورُ بينَ الرّجُلَين مِن أحاديثَ أفضَتْ في النّهاية إلى صَيرورةِ جلال الدّين عارفًا عاشقًا مِن القَبيل الذي تقدّمه لنا سيرةُ حياته التي وصلت إلينا، وتعبِّر عنه مؤلَّفاتُه الشّعْريّةُ: المثنويّ وديوانُ شَمْس تَبريز، والرُّباعيات؛ والنّثريّةُ: فيه ما فيه، والمجالسُ السّبعة، والرّسائل (*).

٢ ـ الرَّفْضُ والإنكار الذي أحدثَه تحوّلُ جلال الدّين في نفوس مُريديه ومُحِبّيه في قُونِيةَ، وتَبلْوَرَ في صُورةِ حَرْبٍ شَعْواءَ شُنّت على شَمْسٍ، وتُهَمٍ له تجاوزت الحدودَ

* ـ ترجَمْنا هذه الثّلاثةَ الأخيرةَ إلى العربيّة، وصدرت طبعاتُها الأولى عن دار الفِكْر في دمشق، كما ترجَمْنا مئتَي غزَليّة مِن ديوان شَمْس تَبْريز، والرّباعيّات كاملةً [المترجم].

المعقولة، وفي صُورةِ جِدالٍ وتشنيعٍ وخصومةٍ لَقِيَ منها جلالُ الدّين ما لقي. ومعظمُ مادّةِ الكتاب في هذا الموضوع، وفي دفاعِ جلال الدّين عن شَمْسٍ وعن الفَهْمِ الجديد الذي تبنّاه، وسَعى إلى بَيانه وإشاعته بين النّاس. ونتركُ للقارئ الكريم أن يقفَ بنفسه على ذلك في تضاعيف الكتاب.

ويحسُنُ هنا أن نُعْلِمَ القارئ أنّ فِكَرَ الكتاب مستنبَطةٌ مِن مواقفَ وأوضاعٍ وأمورٍ انطوتْ عليها المصادرُ التي تحدّثَتْ عن جلال الدّين، ومِن معلوماتٍ مستنبَطةٍ مِن أشعارِ جلال الدّين في ديوان شَمْس تَبْريز، والمثْنَويّ، والرّباعيّات؛ ومن آثاره النّثْريّة التي وصلت إلينا. وقد نهَجَ المؤلِّفُ نهجًا خاصًّا في تقديم المعلومات والأخبار و«الماجَرَيات»؛ وذلك بأن يتكلّمَ بألسنةِ الشّخصيّات بطريقة التكلُّمِ والخطاب والأخْذِ والرّدّ؛ الأمرُ الذي أضفى طابعًا من الحَيَويّة والواقعيّة على مادّة الكتاب. ونرى ضرورةَ الإشارة إلى أمرَين في شأن المؤلّف:

١ ـ أنّه كان قَوِيَّ الإصرار على إظهار ما اعتقدَ أنّه طبيعةٌ فارسيّةٌ خاصّةٌ في شخصيّتَي جلالِ الدّين وشَمْس، ورُوحٌ إيرانيٌّ خالِصٌ في المحبّة الإلهيّة والمعرفة المتّصلة بحقيقة الوجود. ويبدو لنا، نحنُ، أنّ الشّخصيّات التي مِن هذا القَبيل يكون تميّزُها وتفوّقُها في تفرُّدِها وانعتاقِها مِن إسار الموجود المتعارَف. ونحسَبُ أنّ العبقريّاتِ في الأممِ كلّها، والأزمانِ كلّها، وثيقةُ الصّلة بالأبعادِ الإنسانيّة الشّاملة، والفضاءات التي تسمحُ بتبادل الأنسام والأنغام والأحلام.

٢ ـ أنّه لَمْ يَزِنْ كثيرًا من الرّوايات والأخبار بميزان العقل والعَدْل؛ الأمرُ الذي زاد في حَجْم مادّة الكتاب، وفي الاحتفاءِ بأخبارٍ تبدو متضادّةً أحيانًا.

ومعَ ذلك كلّه يَظلُّ الكتابُ في جُملته يلبّي حاجاتِ قُرّاءٍ كثيرين، وطَلَبةِ عِلْمٍ مهتمّين بهذا اللّون من المعرفة.

وابتغاءَ رَفْدِ القارئ بقَدْرٍ مِن المعرفة لا بدّ منه في شأن جلال الدّين الرّوميّ وشَمْسِ التَّبْريزيّ قبْلَ مباشرة فُصُولِ الكتاب، ترجَمْنا له شَطْرًا مهمًّا مِن مقدّمةٍ أعدّها البحّاثةُ الإيرانيُّ الأستاذُ الدّكتور محمّد رضا شفيعي كَدْكَني لكتابه المعنّن بـ «مَوْلانا جلال الدّين محمّد بلخي: غزَليّات شَمْس تَبْريز» . وهذا الكتابُ اختيارٌ جيّد لِقَدْرٍ من غزَليّاتِ ديوان شَمْس تَبْريز، الذي نظمَهُ جلالُ الدّين تحتَ وَقْعِ فراق شيخِه التَّبْريزيّ، ونَسَبه إليه في العنوان الذي اختاره له: «ديوان شَمْس تَبْريز»؛ أي ديوانُ غزَليّاتِ جَلال الدّين الرّوميّ التي نَظَمَها في مَحبّة شيخِه، شَمْسِ التَّبْريزيّ. ويقدِّمُ هذا الشّطْرُ تمهيدًا جيّدًا يُدخِلُ القارئَ في عالَمِ الكتاب، الذي هو جوهريًّا اندهاشُ جلال الدّين بشيخه شَمْس تَبْريز، الذي يعبِّرُ عنه هذا البيتُ:

يا شَمْسَ تَبْريزَ، أنتَ الشّمْسُ، فكيفَ أمدحُكَ؟!

إنّ لي أَلْفَ لِسانٍ صارمٍ كالسّيف، لكنّني في وَصْفِكَ أَلْكَنُ

ولم تكن ترجمتُنا هذا الأثَرَ مُمهَّدةَ السّبيل دائمًا، لكنْ ثمّةَ رغائبُ تُسهِّلُ على النّفسِ النّصَبَ، وتهوِّنُ عليها المشقّةَ والتّعَب؛ فإنّ نَشْوةَ إشراكِ الآخرين بالبهجة كأنّها غريزةٌ راسخةُ الجذور في الطّباع، وحَقَّ أَهْلِ الفِكْر بعضِهم على بعضٍ كأنّه دَينٌ مُسْتحِقُّ الأداء، كما أنّ مِن ميراث الحِكْمة النّبويّة النّفيس: «الرّائدُ لا يكذِبُ أهْلَه»، وأهْلُ العِلْمِ والثّقافة رُوّادٌ لِأَهلهم.

ولا بدّ في هذا المقام مِن تقديمِ الشّكر للأخ الكريم الأستاذ محمّد رشيد الذي

تحمّلَ عَناءَ طباعةِ هذا الأثَر، وتصحيحِ تجاربه، وإعداده للنّشر، إلى أن أخذَ هذه الصّورةَ التي تشخَصُ أمامَ القارئ الكريم.

واللهُ، سُبحانَه، هو الهادي إلى سَواء السّبيل، وهو وحْدَه المؤمَّلَ في المكافأةِ والثّواب الجَزيل.

حلب المحفوظة بالعناية،

يومَ الخميس، الثّامن عشر من شهر شعبان ١٤٣٤هـ،

السّابع والعشرين من شهر حزيران ٢٠١٣م

و«إنّي عبدُ الله»

عيسى بن علي بن عيسى العاكوب

مقدّمةٌ في شأن:
الرّوميّ وشَمْس الدّين التّبْريزيّ وقُونِية(*)

إعداد أ.د. محمّد رضا شفيعي كَدْكَني

إنّ جلالَ الدّين محمّدًا، الذي اشتهَرَ بألقاب خُداوندْگار، ومَوْلانا، ومولوي، بين المتحدّثينَ بالفارسيّة، وباسْمِ الرّوميّ Rumi في بلاد الغرب، واحِدٌ مِن أعظمِ مفكِّري العالَم، واحِدٌ مِن أعاجيبِ الجنس البشَريّ. هذه النارُ المضطَرِمةُ في هَشيمِ الفِكَر[1]، بلغَتْ في مجالَي التفكير والإحساس ـ اللذَيْنِ لا انسجامَ بينَهما تقريبًا ـ مرحلةً مِن تعالي الشّخصيّة وانبساطها إلى حيثُ يمكنُ بصعوبةٍ وَضْعُ العظماءِ الآخَرين في تاريخ الأدَب والثقافة البشَريّة إلى جانبه، وموازنتُهم معَه. وههنا أيضًا نقطةٌ غامضةٌ وذاتُ تناقُضٍ ظاهريّ Paradoxical في حياته ووجوده، وهي من التّناقضِ في الأوج. فهو مِن ناحيةٍ مفكِّرٌ كبيرٌ، ومِن ناحيةٍ أخرى مجنونٌ عظيمٌ من مجانين العِشق ومُخبَّلٌ. مِن ناحيةٍ يصوِّرُ أعقدَ قَوانينِ الوجود بأبسطِ بيانٍ، ومِن ناحيةٍ أخرى لا يَعُدّ أيَّ قانونٍ ونظامٍ في الدّنيا ثابتًا لا يتغيّر، ولا يقولُ بأبَديّة أيّةِ سُنّةٍ (في رُؤيته الجِداليّة). وما نكتبُه ونقولُه في مَدْح البَحْر، لِشَخصٍ لا يكونُ رأى البحرَ، لا نعبِّرُ فيه إلّا عن محدوديّة ذلك الذي لا حدودَ له، وعن الاعترافِ بقصور عباراتنا. ويظَلُّ أفضلَ لنا بدلًا مِن الحديث عنه، أن نستعينَ به ونُمسِكَ بيَدِ القارئ أو

---

* ـ إدراكًا منّا لِضرورة وضْع القارئ الكريم أمامَ العناصر الأساسيّة لمادّة الكتاب، رأينا أن نترجمَ له هذا الاختيارَ من المقدّمة الرّصينة التي أعدّها المفكّرُ الإيرانيّ الشهير في عصرنا الأستاذ الدّكتُر محمّد رضا شفيعي كَدْكَني لكتابه: «غزليّات شَمْسِ تَبريز ـ مقدّمه واختيار وتفسير»، نَشْر دار نَشْر سخن في طهران، الطّبعة الرّابعة ١٣٨٧هـش/ ٢٠٠٨م [المترجم].

١ ـ من تعبيرات مولانا نفسِه.

السّامعِ، ونصِلَ به إلى ساحِلِ ذلك البَحْرِ المائجِ الذي لا ضفافَ له، لكي ينظُرَ مِن طريقِ اللّقاءِ والشّهود، ويُشاهِدَ البَحْرَ بكُلّ أمواجه وتماسيحه وزَبَده وصَخَبه. مع أنّ بَحْرَ وجوده ليس مِن نوعِ الأبحر التي يمكن مِن ساحلها قياسُ عُمْقِها وسَعَتِها. ولا بدّ من أن تغدو العَينُ أُذنًا والأُذُنُ عَيْنًا لكي تحصُلَ مشاهدةُ وجودِه الذي لا حدودَ له، في حالاته ولَحَظاته:

أنـا مِـرْآةٌ أنـا مِـرْآةٌ، لَـسْتُ رَجُـلَ مَقـالاتٍ

تُـرى حـالي حـينَ تغـدو آذانُكـم أَعْيُنًـا[١]

وما يقالُ في شأن عَظَمة رُوحِه وتعالي مَقامه الإنسانيّ في هذه المقدّمة، لَنْ يكونَ عندَ شخصٍ له تعاملٌ معَ مَتْنِ الكتاب إلّا مجموعةً مِن العبارات الأدبيّة أو الشّعْريّة. وقبْلَ هذه المقدّمة نُشِرت كتاباتٌ متفرّقةٌ في هذا الشّأن، يستطيعُ الباحثون أن يعودوا إليها بسُهولة، ولا يتّسعُ هذا الموجَزُ لِنَقْل كلّ هذه الكتابات والخُطَب[٢]، ولَيسَ لَدَى المؤلِّفِ مَيْلٌ ورغبةٌ في هذا الصّنف من التأليف. ولهذا السّبب، بَدَلًا مِن كتابة هذا النّوع من الإنشاءات والقِطَع الأدبيّة، يسعى المؤلِّفُ إلى أن يضَعَ القارئَ في جَوٍّ مِن المعرفةِ الضروريّة والاطّلاعِ اللّازم في شأن حياة مَوْلانا وخصائص أسلوبه في نَظْم الغزليّات[٣].

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٢٣ من اختيار كَدْكَني.

٢ ـ في شأن مِثالٍ لهذا الصّنف مِن الكتابات والخُطَب، يُرْجَع إلى: أغلب الخُطَب والمقالات في كتاب «يادنامهٔ مولوى» [بالفارسيّة بمعنى: كتابُ ذِكْرى مولانا] نَشْر المكتب الإقليميّ لليونسكو في إيران، طهران ١٣٣٧هـ.ش [الأصل].

٣ ـ ما سيأتي في شأن حياة مولانا ـ إلّا في النقاط التي يصرّحُ فيها المؤلّفُ بغير ذلك ـ مَبْنيٌّ كلّه على تحقيقاتِ المرحوم الأستاذ العلّامة بديع الزّمان فُروزانْفَر (ت ١٣٤٩هـ.ش/١٩٧٠م). ولا بدّ مِن الاعتراف بأنّنا في مجال سِيرة مولانا لا نمتلكُ أثَرًا عظيمًا غيرَ تحقيقاته [الأصل].

اسْمُ مَوْلانا ونَسَبُه وأُسْرتُه:

ذكَرَ أكثَرُ الذين كتبوا في سِيرة حياته أنّ اسْمَه محمّدٌ، وليس ثمّةَ شكٌّ في هذا الشأن. وكَوْنُ لَقَبه «جلالَ الدّين» أيضًا أمرٌ مُسَلَّمٌ. وألقابُ «خُداوَنْدْگار» و«مَوْلانا»[١] مِن التعابير التي دَرَج إطلاقُها عليه في حياته. أمّا لَقَبُ «مَوْلَوي» فهو مِن الألقاب التي أُطلقتْ عليه في القُرون اللّاحقة، وربّما لأوّلِ مَرّة في القرن الثّامن أو التّاسِعِ الهِجْريَّيْن.

وُلِدَ مَوْلانا في مدينة بَلْخ، في السّادس مِن ربيعِ الأوّل عامَ ٦٠٤هـ، وكان أجدادُه جميعًا مِن أهل خُراسان. وهو نفسُه أيضًا لم ينسَ كَوْنَه خُراسانيًّا. ومعَ أنّه أمضى حياتَه في قُونِيةَ، ظلّ دائمًا يتذكّر خُراسانَ، وكان يخاطبُ الخُراسانيّين في تلك البلاد بـ: مُواطِنِيَّ أو بَلَدِيِّيَّ. وقد أوصَلَ بعضُهم نَسَبَه إلى أبي بَكْرٍ الصِّدّيق، صاحبِ النّبي المعروف وأوّلِ خليفةٍ لحضرة النّبي، لكنّ ذلك يفتقرُ إلى الأساسِ الصّحيح[٢].

والِدُه بَهاءُ الدّين وَلَد (٥٤٣ ـ ٦٢٨هـ)، اسْمُه محمّدٌ أيضًا، كما لُقِّبَ بـ «سُلْطان العُلَماء». وقد عاش في بَلْخ مُرتاحًا، ولم يكن مِن دون ثَرْوة[٣]. واشتهَرَ بينَ أهل بَلْخ بِلَقب «وَلَد». كان بهاءُ وَلَد رَجُلًا عَذْبَ الحديث، وفي مدينة بَلْخ كان دائمًا يتحدَّثُ في المجالس، وكان في قُلوب النّاسِ محبّةٌ كبيرةٌ له، حتّى إنّ هذا التعلّقَ وهذه المحبّةَ بناءً على بعض الرّوايات الضعيفة كانا سببًا لهجرته من بَلْخ إلى قُونِيةَ؛ ذلك لأنّ محمّدًا

---

١ ـ فُرُوزانْفَر ـ رساله در أحوال مولانا، ٣.[الأصل]. وقد ترجمتُ هذا الكتاب التفيس إلى العربيّة، وصدرَ عن دار الفكر في دمشق عامَ ٢٠٠٦م، بعنوان: «منْ بَلْخ إلى قُونِية ـ سيرةُ حياة مولانا جلال الدّين الرّوميّ» [المترجم].

٢ ـ السابق نفسه، ويُقارَن بـ: مجتبى مينوي (باسْمٍ مستعار هو علي نقي شَريعتمداري) في مجلّة يغما، السّنة ١٣٣٨هـ.ش(السّنة ١٢)، الأعداد ٤ ـ ٧، حيثُ حقّق هذا النّسَبَ؛ وكذلك: گلبينارلي، مولانا جلال الدّين، ٨١ ـ ٨٤.

٣ ـ معارف بهاءَ وَلَد، مقدّمة الجزء الثاني، الصفحة ح.

خُوارِزْمْشاه (٥٩٦ ـ ٦١٧هـ) كانت لَدَيه خشيةٌ مِن هذه المحبّة التي كانَتْ له بينَ النّاس. ومِن وجهةٍ أخرى، كان حكيمٌ بارعٌ، مِثْلُ فخرِ الدّين الرّازيّ (٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ)، في بَلْخ يخالِفُ جمهورَ الصّوفيّةِ وأصحابَ المعارف غير الاستدلاليّة، الذين كان بهاءُ وَلَد رئيسَهم، مخالفةً صريحةً، وكان بما لَدَيه من نفوذٍ عند الخُوارِزْمْشاه يَسْعى لإثارته عليه.

بهاءُ وَلَد أيضًا كان يخالفُ أهلَ الحِكْمة وأصحابَ الاستدلال، وكان يَعُدّ الخُوارِزْمْشاهَ وفخرَ الدّين الرّازيّ مُبتَدِعَيْنِ[١] وخارجَيْنِ عن سُلْطان الشّريعة[٢].

والحقيقةُ أنّه لا بدّ من البَحْث عن السَّبب الأصليّ لِهجْرته في الأوضاعِ السّياسيّة لِشَرْقيِّ إيران في ذلك العصر، وفي الخوفِ مِن حَمْلة التّتار، التي دفعَتْ كثيرين مِن أهل الفَضْل والنّاس الآخَرين إلى الهجرةِ إلى أصقاعٍ بعيدة عن متناول التّتار، خاصّة إلى الشّام وآسية الصُّغرى.

محمّدُ بنُ الحُسَيْن الخَطيبيّ، الملقَّبُ بسُلْطان العُلَماء، والِدُ مَوْلانا، كان هو نفسُه عالِمًا كبيرًا وخطيبًا مِصْقَعًا وعارفًا حديثَ التفكير. وإنّه فقط مِن خلال الأثَرِ الباقي له بين أيدينا الآنَ، وهو الكتابُ المسمَّى «**معارف بَهاء وَلَد**»[٣]، يمكن وصْفُه على هذا النّحو: في مجال العقائد الكَلاميّة قريبٌ من الماتُريديّة والأشاعرة، لكنّه يصعُبُ وَضْعُه في القوالب التي عرَفَها عَصْرُه. وكتابُه «**المعارفُ**» هذا مجموعةٌ مِن مباحِثِ عِلْم الكَلامِ والفِقْه والتصوّف، التي يغلِبُ عليها شَطْرُها العِرْفانيّ، وعَينُ المَلْمحِ مِن شخصيّته الذي

١ ـ فُرُوزانْفَر، السّابق، ص ١١؛ و: بهاء وَلَد، تأليف فريتس ماير، ترجمة د. مريم مشرّف، ٢٧ ـ ٢٨.

٢ ـ السّابق.

٣ ـ في شأن بهاء وَلَد، أُنجِزَ تحقيقٌ ممتاز بعناية المستشرق فريتس ماير (١٩١٢ ـ ١٩٩٨م)، المحقِّق السّويسريّ، كان لِحُسنِ الحظّ قد تُرجِم إلى الفارسيّة ترجمتَين: إحداهما بعناية السّيّدة الدّكتر مريم مُشَرّف (نشر دانشگاهى)، والأُخرى بعناية السيّدة الدكتر مهر آفاق بايبوردي (انتشارات سروش).

يبدو نَضِرًا ومُشْرِقًا جدًّا هو تصويُر صفاتِه الشّخصيّة، والتّأمّلاتِ التي يُبديها في آفاقِ الوجود بِلُغةٍ شِعْريّة ولَطيفة. وهذا الكتابُ واحِدٌ مِن المصادر الأساسيّة لِفِكَر مَوْلانا، والظّاهِرُ أنّ مَوْلانا ظَلَّ يطالِعُ هذا الكتابَ على نحوٍ متواصِل.

طُفولةُ مَوْلانا، في ظلّ الوالِد:

وفقًا لبعض المصادر، خرجَ بهاءُ وَلَد من بَلْخ بقَصْد الحجّ، ثم في مدينة نَيْسابور انطلقَ معَ ابنه الصّغير السّن، جَلالِ الدّين محمّد، إلى لِقاء الشّيخ فريد الدّين العطّار (٥٥٣ ـ ٦٢٧هـ). وإنّ التقاءَ هؤلاء الثلاثة، الذي ذَكَر حكايتَه بعضُ كُتّاب التّراجم، هو مِن الوجهة التّاريخيّة أمرٌ طبيعيّ. وبناءً على أقوالِ كُتّاب التّراجم هؤلاء، أهدى الشّيخُ العطّارُ كتابَه المثْنَويّ المعروفَ، المسمَّى «**أسرار نامه**» [بالفارسيّة بمعنى: كتاب الأسرار]، لِجلال الدّين محمّد، الذي كان آنئذٍ صغيرَ السِّنّ. وفي شأن سبب هذا اللّقاء، وبصَرْف النّظَر عن شُهْرة العطّار وذُيوع صيته في ذلك العَصْر، وإضافةً إلى العادة المتّبعة عندَ الصّوفيّة في مُسارعتهم إلى لِقاء المشايخ في كُلّ حاضرةٍ يَفِدونَ إليها، يذكرُ المرحومُ الأستاذُ بديعُ الزّمان فُرُوزانْفَر، في التّحقيقِ الجامع الذي أعَدّه في شأن مَوْلانا وحياته، عامِلًا آخَرَ، وذلكم هو الاشتراكُ في الطّريقة الصّوفيّة بينَ بهاء وَلَد والشّيخ العطّار، إذ ينتسبُ الاثنانِ إلى الطّريقة الكُبْرَويّة (المنسوبة إلى الشّيخ نَجْم الدّين كُبْرى، المتوفّى عام ٦١٨هـ)، هذا معَ أنّ ذلك الأستاذَ الفقيدَ شكّكَ فيما بعْدُ، في موضعٍ آخَر، في مسألة انتساب هذَين الرّجلَين إلى الطّريقة الكُبْرَويّة[1]. ومعَ الشّكّ في هذه الأمور، لا يبتعدُ التقاءُ هؤلاء الأشخاص الثلاثة

---

١ ـ شرح احوال ونقد وتحليل آثار شيخ فريد الدّين عطّار نيشابورى، بديع الزمان فُرُوزانْفَر، تهران، انجمن آثار ملى، ١٣٣٩ ـ ١٣٤٠، ص ٧٠؛ ويُقارن بمبحث «نسب نامۀ معنوى عطّار»، لكاتب هذا التعليق، في مقدّمة منطق الطّير، انتشارات سخن، الصفحات ٦٣ ـ ٧١. [الأصل].

عن أن يكون أمرًا عاديًّا ومعقولًا.

هذا السَّفَرُ الذي بدَأَ مِن بَلْخ، يجبُ أن يكون قد حصَلَ في حدود ٦١٨هـ، أو ٦١٧هـ، أو ٦١٦هـ[1]. وبناءً على ذلك، كان جلالُ الدّين محمّد في هذه السّنوات صغيرَ السّنّ، في الثالثةَ عَشْرةَ، أو الرّابعةَ عَشْرةَ. وفي الطّريق إلى مكّةَ ذهب بهاءُ وَلَد إلى بغداد، وأقامَ في تلك المدينة عدّةَ أيّام. ثمّ بعْدَ ذلك، مضى إلى الحجّ، وبعْدَ أداء فريضة الحجّ يمّمَ شَطْرَ الشّام، ثمّ مِن هناك قصَدَ آسِية الصُّغرى. ولأنّ نارَ فتنةِ التّتار كانت تتأجّجُ يومًا إِثْرَ يومٍ، ولأنّ مَسْقَطَ رأسِه ووطنَه المحبَّبَ صار مِن أكثر نواحي ديار الإسلام اضطرابًا في ذلك العصر، لم يَعُدْ إلى الوطن الأمّ، وآثَرَ السُّكْنى في المِنطَقة التي انتهى إليها، وغدا مَحَلَّ اهتمامِ سَلاطينِ تلك البلاد، مِن قَبيلِ فخرِ الدّين بَهْرامْ شاه، سُلْطان أَرْزَنْجان[*] (مدينة في أَرْمِينِيَةَ التّركيّة)، وعلاءِ الدّين داوود شاه (٦٢٢ ـ ٦٢٥هـ) ابنه، ثمّ بعْدَ مدّةٍ طلَبَ إليه عَلاءُ الدّين كَيْقُباذ (٦١٧ ـ ٦٣٤هـ)، السُّلْطانُ السّلجوقي في الرّوم الشّرقيّة، المجيءَ إلى قُونِيةَ، فقَبِلَ ذلك، وصار مَحَلَّ اهتمامِ ذلك السّلطان.

ووَفْقًا لبعض الرّوايات، تزوّجَ جلالُ الدّين محمّد في مدينة لارندةَ، بأَمْرِ والدِه، مِن السّيدة جَوْهَر خاتون، ابنةِ السيّد لالا السَّمَرْقَنْديّ، الذي كان مِن أهل الفضل المعتبرين، وقد حدَثَ هذا الزّواجُ عندَما كان في سِنّ الثّامنةَ عَشْرةَ، في حدود ٦٢٢هـ.

---

١ ـ زندگا نى مولانا جلال الدّين محمّد، بديع الزّمان فُروزانْفَر، الطّبعة الثانية، دار نشر زوّار، طهران ١٣٣٣، ص ١٧، وشرح احوال عطّار، ص ٦٩ [الأصل].

* ـ يقول ياقوت عنها: «بَلْدةٌ طَيّبةٌ مشهورةٌ نَزِهةٌ، كثيرةُ الخيرات والأهل، من بلاد إرْمِنِيَة، بينَ بلاد الرّوم وخَلاط». معجم البلدان ١٥٠/١ [المترجم].

حركةُ الأُسْرة مِن خُراسان:

كان والِدُ مَوْلانا، أي بهاءُ الدّين وَلَد الذي اشتهَرَ بلَقَب سُلطان العُلَماء، يعيش في ناحيةِ وَخ أو وَخْش، قُرْبَ مدينة بَلْخ، في أفغانستان الحاليّة التي كانت تُعَدُّ جزءًا مِن خُراسان في ذلك الوقت. وقد كان سُلْطانُ العُلَماء في مدينته عالِمًا بارزًا، وواعظًا عَذْبَ الحديث وممتازًا. وخيرُ شاهدٍ على ذلك كتابُه «**معارف بهاء وَلَد**»، الذي طُبِعَ اليومَ، وصار في متناوَل القُرّاء.. كذلك كان جَدُّ مَوْلانا، الذي كان اسْمُه حُسَين بن أحمد الخطيبيّ، عالِمًا كبيرًا، وكان يحضرُ حَلْقةَ دَرْسِه كُبَراءُ مِثْلُ رَضِيّ الدّين النَّيسابوريّ (ت ٥٩٨هـ). وتوجَدُ بعضُ الأدلّة على أنّ والِدَةَ بهاء وَلَد كانت مِن أُسْرةِ الخُوارِزْمْشاهيّين [سلاطين خُوارزْم]. ولا توجَدُ أَدِلّةٌ كثيرة لِرَدّ هذا الكَلام، كما أنّ نَفْيَه وإثباتَه لا يؤثّران كثيرًا في أُسس التّعريف بمَوْلانا وأسرته[١].

أمّا كَوْنُ سُلْطانِ العُلَماء قدِ اضطُرّ إلى تَرْك بَلْخ، بسبب مسائلَ عَقَديّة وجِدالاتٍ دينيّة ومذهبيّة، فأمرٌ مشكوكٌ فيه. والوثائقُ التي تذهَبُ إلى أنّ اختلافَه معَ الخُوارِزْمْشاه، ومعَ فخر الدّين الرّازيّ، هو سببُ تَرْكه بَلْخَ غيرُ مقبولة. وكَوْنُ سببِ اختلافه معَ فخر الدّين الرّازيّ مخالفةَ الفَخْر الرّازيّ لِلصّوفيّة، مَحَلُّ شكّ وتردّد. فصحيحٌ أنّ مَوْلانا في آثاره ينتقدُ دائمًا الفخرَ الرّازيّ، ويستهزئ به بوَصْفه ممثِّلًا لِلْعقلانيّة الفلسفيّة، لكنّ الفخرَ الرّازيّ نفسَه في آثاره وتصانيفه لا ينكرُ كُلّيّاتِ مسائلِ التصوّف، وهو واحِدٌ مِن أبرز شخصيّات عِلْم الكَلام الأشعريّ، وجارٌ بَيتَ بَيتٍ لِنَظْرة مَوْلانا إلى العالَم، إلّا إذا استطعنا أن نفصِلَ

١ ـ انظر: بهاء وَلَد، تحقيق فريتس ماير، ترجمة مريم مشرّف، مركز نشر دانشگاهی، تهران، ١٣٨٢، الصفحات ١٩ ـ ٢٢.

السّاحةَ الفلسفيّةَ لِوجودِ الفخر الرّازيّ، مِن حيث هو شارِحُ «الإشارات»[١]، عن الجانب الكَلاميّ لشخصيّته، إذ هو مفكّرٌ أشعريٌّ تقريبًا، وهذا أمرٌ غير ممكن.

ولا بدّ من البحثِ عن أسبابٍ أقوى، والعُثورِ على جذور هذه المسائل في أمور اجتماعيّة وسياسيّة أُخرى. والقَدْرُ المسلَّمُ في هذا الشّأن، هو أنّ بهاءَ وَلَد لِأسبابٍ أهمُّها خوفُ التّتار غادرَ مدينتَه، وانطلقَ نحْوَ نَيْسابور والرَّيّ ثمّ بغداد والحجاز. وفي هذا التّرحال، كان مَوْلانا صبيًّا في حدود الرابعةَ عشْرةَ.

مَسيرُ أُسرة مَوْلانا مِن بَلْخ إلى قُونِية:

كان خطُّ سَيْرِ سَفَرِ أُسْرة مَوْلانا إلى قُونِيةَ إجمالًا على هذا النّحْو: عندَما ترَكَ بهاءُ وَلَد وأُسْرتُه بَلْخَ، تحرّكوا في طريق نَيْسابورَ والرَّيّ وبغداد، وقد توقّفوا في بغداد لِأمَدٍ غيرِ محدَّدٍ على نحوٍ دقيق، لكنّه كان بالقَدْر الذي استطاع فيه بهاءُ وَلَد أن يلتقيَ ويتحدّثَ معَ بعض أعلامِ العصر في تلك الحاضِرة. وقد ذكَرَ بعضُهم أنّ ذلك امتدّ لثلاثة أيّام أو أربعة.

ومِن بغدادَ، يمّمَ بهاءُ وَلَد وأُسرتُه شطْرَ الحجاز، بنيّة أداء فريضة الحجّ، ثمّ بعْدَ أداء مناسك الحجّ قصدوا إلى دِمَشْق، ثمّ مِن هناك ذهبوا إلى أَرْزَنجانَ التي كانت في تلك السّنين تنعَمُ بالأَمْن والهدوء. وكان سَلاطينُ آل مَنكُوجَكْ، الذين كانوا يحكمون تلك البلادَ، مِن المحبّين لِأَهل الفضل[٢]. امتدّ توقُّفُ بهاء وَلَد وأُسْرتِه في ناحية أَرْزَنجان وفي

---

١ ـ يشير هنا إلى شَرْح الإمام الفَخْر الرّازيّ كتابَ ابن سينا المسمّى: «الإشارات والتّنبيهات في المنطق والحكمة». يُنظَر: كشف الظّنون لحاجي خليفة ٩٤/١ [المترجِم].

٢ ـ آل منكوجَك فَرْعٌ من حكّام السّلاجقة في آسية الصّغرى، مِن أواسط القرن السّادس إلى أواسط القرن السّابع. يُنظَر: مرموزات اسدى، ص ١٩٢؛ وكذا: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلاميّ، ص ٢٢٠ [الأصل].

مدينة لارندة[١] طويلًا، وربمّا أقاموا لما يقرُب من سَبْع سنين في قَرَمان. وفي هذا المكان تزوّجَ مَوْلانا، ابنُ الثامنةَ عَشْرةَ، مِن كريمة السّيّد شَرَف الدّين لالا السَّمَرْقَنْديّ ـ الذي كان من ذوي الشّأن ـ ووُلِدَ وَلَداه بهاءُ وَلَد وعلاءُ الدّين كلاهما في المدينة نفسِها، في فاصِلٍ مقدارُه سنتان تقريبًا[٢]. كان اسْمُ زَوْجِ مَوْلانا گوهر خاتون. وفيما بعْدُ، وبعْدَ وفاةِ گوهر خاتون، تزوّج مَوْلانا من امرأةٍ اسْمُها كِرّا خاتون يبدو أنّها كانَتْ قبْلُ زوجًا لِشَخْصٍ آخَرَ اسْمُه محمّد شاه، وكان لها مِن ذلك الزّوج وَلَدٌ اسْمُه أميرْ شَمْس الدّين يحيى، صار يُعَدُّ أخًا بالتّبنّي لِأَولاد مَوْلانا. والظّاهرُ أنّه عَينُ أميرِ شَمْس المدفونِ في «مَقام شَمْس»، وعُرِفَ مَزارُه باسْمِ شَمْسٍ التّبْريزيّ في قُونِيةَ وصار مبعثًا للخطأ[٣].

مَوْلانا وفريدُ الدّين العَطّار:

عاديٌّ جدًّا أنّه في حدود عام ٦١٨هـ حينَ كانت أُسرةُ مَوْلانا تتقدّمُ مِن بَلْخَ نحْوَ وسَط إيران، ثمّ مِن هناك نَحْوَ بغداد والحجاز، يكون لهذه الأسرة توقّفٌ في مدينة نَيْسابور، أي إنهم كانوا مضطرّينَ إلى ذلك. ولهذا السّبب لَيسَ لدينا أيُّ سَببٍ لِرَدّ الحكاية التي ذكَرَها بعضُ كُتب التّراجم في شأن لقاء سُلْطان العلماءِ والعطّار في نَيْسابور. ووَفْقًا لهذه الرّوايات، عندَما مضى بهاءُ وَلَد في نَيْسابور لزيارة العطّار كان ابنُه ذو الأربعةَ عَشَرَ ربيعًا، مَوْلانا جلالُ الدّين محمّد، في صُحبته أيضًا، وأهدى العطّارُ كتابَه «**أسرار نامه**» إلى هذا الصّبيّ. ومنذُ ذلك الوقت، بدأ إعجابُ مَوْلانا بشِعْر العطّار وكلامه. وقد أشار إلى ذلك مِرارًا في

١ ـ تُسمّى اليومَ قَرَمان **Karaman** ، وهي مدينةٌ في جنوب شرقيّ ولاية قُونِيةَ، في تركية.

٢ ـ فُروزانْفَر، رساله در احوال مولانا، ص ١٧١.

٣ ـ گلبينارلي، مولانا جلال الدين، ١٤٦ ـ ١٤٧.

تضاعيفِ المثْنَويّ وديوان شَمْس وآثاره الأُخَر. ويُقالُ إنّ العَطّار خاطبَ والِدَ مَوْلانا بالقَوْل: «لَنْ يمضيَ وقتٌ طويلٌ حتّى يُضْرِمَ وَلَدُكَ هذا النّارَ في محترقي العالَم»[١].

مرحلةُ الشَّباب والتّعلُّم:

كان مَوْلانا في الرّابعةِ والعشرين مِن عُمره حينَ وافتِ المنيّةُ أباه (٦٢٨هـ)، واستجابةً لِطَلَب المريدين، أو بناءً عَلَى وَصِيّة والِدِه، تابعَ عَمَلَ والِدِه وانشغَلَ بالوَعْظ والإرشاد، وفي المدة نفسِها خضَعَ لتعاليمِ سَيِّد بُرهان محقّق التِّرْمِذِيّ (ت ٦٣٨هـ)، الذي كان أحَدَ مُريدي والِدِه. ولعلّ برهان الدّين مُحَقِّق التِّرمِذيّ جاء إلى الرّوم في سنة ٦٢٩هـ.

وبتَشْويقٍ مِنْ بُرهان الدّين، أو بتأثيرِ انجذابٍ داخليّ كان يُحِسّ به، سافرَ مَوْلانا مِنْ قُونِيةَ إلى حَلَبَ لِكي يُكْمِلَ تحصيلَه في فرُوعِ عُلومِ ذلك العصر. مدّةُ إقامتِه في حَلَبَ غيرُ واضحةٍ على نحو دقيق. وكأنّه في هذه المدينة اكتسبَ نصيبًا في مجال الفِقْه الحَنَفيّ بحضور دُروس كمالِ الدّين ابن العَديم (ت ٦٦٠هـ). بعْدَ ذلك يمّمَ شَطْرَ دِمَشْق، وأقامَ فيها لما يقرُبُ من أربع سنوات. وبناءً على بعضِ الرّوايات، ظَفِرَ في هذه المدينة بلقاءِ مُحْيي الدّين ابن عَربيّ (٥٦٠ ـ ٦٣٨هـ)، العارفِ والمفكّر البارز في ذلك العَصْر. ولا يتجاوزُ مجموعُ مُدّة إقامته في حَلَبَ ودِمَشْقَ سَبْعَ سنين. وبعْدَ هذه المدّة عاد مَوْلانا إلى قُونِيةَ، وأيضًا بإشارةٍ من سَيِّد برهان الدّين محقّق انشغَلَ بالرّياضة والمجاهَدة لِكَي يكونَ له، إلى جانب عُلوم الظّاهر، نَصيبٌ مِن معرفة الحقيقة والشُّهود. وبعْدَ وفاة محقّق التِّرمِذيّ، انشغَلَ مَوْلانا لِما يقرُبُ مِن خمس سنين، من ٦٣٨هـ إلى ٦٤٣، بتدريس عُلوم الدّين

---

١ ـ تذكرة دولتشاه، ص ١٤٥.

والفِقْه. وقد ذُكِرَ أنّ عدَدَ التّلاميذ في حَلْقة دَرْسه بَلَغ الأربعَ مئةٍ، وذُكِر أيضًا أنّه عَلَى طريقة عُلَماء الدّين «كان يلُفُّ عِمامتَه، ويرسِلُ عَذَباتِها مِن خَلْف، ويرتدي رِداءً واسِعَ الكُمَّيْنِ، كما كانَتْ عادةُ العُلَماء الصّادقين» وقد طار صيتُه في آفاق ذلك العصر، وعُرِف بينَ النّاس بأنّه إمامُ الدّين وعَمودُ الشّريعة الأحمديّة.

بُرْهانُ الدّين مُحَقِّق التِّرْمِذيّ:

كان سَيِّد بُرهان الدّين مُحَقِّق التِّرْمِذيّ (ت ٦٣٨هـ) مِن السّادات الحُسَينيّينَ في تِرْمِذ، ويمكنُ اليومَ مِن طريقِ كتابِه المختصر، النَّفيسِ في الوقت نفسِه، المسَمَّى «**معارف**»، تعرُّفُ منزلته الرّوحيّة، إلى حَدٍّ ما. ويبدو أنّه في زمانِ إقامة والِدِ مَوْلانا في بَلْخ، كان في عِداد مُريدي بهاء وَلَد، ثمّ بعْدَ تَرْكِ بهاء وَلَد بَلْخَ انقطعَ الاتّصالُ بين الرَّجُلَين، إلى أن نهضَ برهانُ محقّق في سنة ٦٢٩هـ لِلْبَحْث عن شَيخِه ومُرادِه، فوصَلَ إلى مدينة قُونِيَةَ التي كانَتْ مَحَلَّ سُكْنَى بهاء وَلَد وأُسرته. وقد حدَثَ ذلك بعْدَ مُضيٍّ ما يقرُبُ من سنةٍ على وفاة بهاء وَلَد. ولأنّه كان مُريدًا سابقًا لبَهاء وَلَد، ونَظَرًا إلى منزلته الرّوحيّة الخاصّة، نشأَ بينَه وبينَ مَوْلانا ـ الذي كان إذ ذاكَ شابًّا في الخامسة والعشرين من عمره ـ ضَرْبٌ من علاقة الأستاذِ والتّلميذ، أو المُرادِ والمُريد، علاقةٌ كانَتْ سببًا لِنُضْج مَوْلانا روحيًّا، وحَدّدَتْ بقَدْرٍ ما مَسيرَ مستقبله. وعندَما وَصَلَ سَيِّد برهان الدّين مُحَقِّق التِّرْمِذيّ إلى قُونِيَةَ، أي قريبًا مِن سنة ٦٢٩هـ، صار مَوْلانا عاشقًا لِروحانيّته ومَعْنَويّته؛ وإلى زمانِ وفاة بُرْهان مُحَقِّق (سنة ٦٣٨هـ) استضاءَ بشُعاعِ رُوحانيّته وإرشادِه، وما يذكُرُه في المثْنَويّ، في تضاعيفِ الحديث عن تأثير الشّيخ والاستسلام أمامَ الشّيخ، مِن مظْهَرَي الكمالِ الرّوحانيّ المتمثِّلَيْنِ في بُرهان محقّق وصلاح الدّين زَرْكوب، هو نفسُه مُشيرٌ إلى هذا المَعْنَى:

فَــابْلُغِ النُّــضْجَ، وابتعِــدْ بنفــسِكَ عــن التّغيّــر

اذهَــبْ، واغْــدُ نُــورًا مِثْــلَ بُرهــان المحقِّــق

فإنّكَ إنْ خَلَصْتَ مِن ذاتيّتِكَ غدَوْتَ كُلُّكَ بُرهانا

ولِأنّــكَ لــم تَعُــدْ عَبْــدًا، غَــدَوْتَ سُــلْطانا

وإنْ أردتَّ العِيــانَ، فقــد أظهــرَه صَــلاحُ الــدّين

فقــد جَعَــلَ الأعْــيُنَ مُبــصِرةً، وجَلاهــا[1]

الذي هو نفسُه دليلٌ قويٌّ على هذا التّعلُّقِ والاستسلام. وفي الغزَليّات أيضًا يشيرُ إلى حالته هذه بالقَوْل:

فهــاتِ ناطقًــا كُلِّيًّــا، وقُــلْ أنــتَ البــاقي

حَــرِّرْني مِــنَ الكَــلامِ، فأنــا صــامِتُ بُرْهــان[2]

أو بالقَوْل:

جَفّفْتَ أنتَ الدّماغَ من طَلَبِ البَحْثِ والدّليل

فحرِّرْ نفسَكَ مِن الفِكْر، وانظُرْ إلى لُمَع برهان[3]

في دُور العِلْم في دِمَشْق:

لم يقنَعْ مَوْلانا بما تعلَّمَه من مجالِسِ عِلْم والِدِه والآخَرين، وظلَّ دائمًا يبحَثُ عن الأساتذة الذين يتعلَّمُ منهم معارفَ عَصْره كاملةً. وقد تهيّأ له هذا عندَما وافَتِ المنيّةُ والِدَه، وأشار عليه بُرهانُ الدّين مُحَقِّق التِّرْمِذيّ، الذي كان شيخَه ومُرادَه، بالسَّفَر في

---

١ ـ المثنَويّ: ٢/ ١٣٢٣ ـ ٢٥.

٢ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٧٤١.

٣ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٢٠٠٣.

طريق العِلْم، فقصَدَ مَوْلانا إلى الشّام التي كانَتْ في ذلك الوقت أكثَرَ مراكزِ العِلْم إشراقًا في الإسلام؛ ذلك لأنّ دُورَ العِلْم الإسلاميّةَ الأُخرى، مِن مِثْل بُخارى ومَرْوْ ونَيْسابور والرَّيّ وبغداد، إمّا أنّها خُرِّبَتْ تمامًا في هجوم التّتار، وإمّا أنّه لَحِقَها أذًى كبير.

وما نعلَمُه في شأن التّحصيل العِلْميّ لِمَوْلانا في حَلَبَ ودِمَشْقَ قليلٌ جدًّا. والقَدْرُ المتّفَقُ عليه في هذا الشأن أنّه قضى في الشّام سِنينَ في تحصيل العلوم، سَواءٌ أكان ذلك في حَلَبَ أم في دِمَشْق. وكان أكثرُ إقامته في دِمَشْق. وفي هذه الحاضِرةِ، وَفْقًا لِرواية الخُوارزميّ[1]، لَقِيَ ابنَ عَربيّ، وسَعْدَ الدّين الحَمَويّ، وصَدْرَ الدّين القُونَويّ، وأَوْحَدَ الدّين الكَرْمانيّ، والشّيخَ عثْمانَ الرّوميّ. وكذلك في حَلَبَ كان يحضُرُ مجالِسَ دَرْسِ كَمالِ الدّين ابن العَديم، في المدرسة الحَلاويّة. ثمّ بعْدَ عودته إلى قُونِيةَ درّسَ مجموعَ تحصيلاته لِطُلّاب العِلْم في تلك المدينة. ويُستفادُ من تصريح ابن مَوْلانا، سُلْطان وَلَد، أنّ أباه درّسَ في مدرسةٍ اسمُها «مدرسة آقنجي»، وأنّ سُلْطان وَلَد هذا قد دَرَسَ كتابَ «الهِداية» لِلْمَرْغينانيّ - الذي هو واحِدٌ مِن أهمّ مُتُونِ الفِقْه الحنَفيّ - على أبيه في المدْرَسة نفسِها.

في الغزَليّة التي تحملُ الرَّقْمَ ١٤٩٣ في الدّيوان الكبير، ومطْلَعُها: «ما عاشِقِ وسَرْگشته وشيداي دمشقيم»[2]، وقد أنشدَها مَوْلانا تعبيرًا عن اشتياقه إلى شَمْس تَبْريز في أثناء ذهاب شَمْسٍ إلى دِمَشْق، يتحدّثُ مَوْلانا عن مَحالِّ ومواضِعَ في هذه المدينة على نَحْو يُشير إلى أنّه عاش سنينَ غير قليلة في تلك المدينة، وكان له أُنْسٌ وألفةٌ معَ تلك المحالِّ والمواضع.

---

١ ـ جواهر الاسرار، چاب نول كشور، ٥٢؛ مأخوذًا من «رساله» لِسپهسالار، ٢١، ويُقارَن بـ: الأستاذ فُرُوزانْفَر، شرح حال مولانا، ٤٣، الحاشية.

٢ ـ معناهُ: أنا عاشِقٌ ومُندَهِشٌ ومجنونٌ بدِمَشْق.

بَدْءُ الوَجْد والوَلَه:

كُنْــتُ زاهــدًا فجعَلْتَنــي منــشِدًا للغزَلِيّــات
جعَلْتَني رئيسَ مَجْلِس الأُنْسِ، طالبًا لِلشَّراب
كُنْــتُ مُلازمًــا لِــسَجّادةِ الــصّلاة، ذا وقــارٍ
فجعَلْتَنــــي لُعْبــــةً لِأطفــــالِ الحَــــيّ

وقد بيّنَ مَوْلانا هذا التّغيُّر في حاله ـ مِن مَقامِ فَقيهٍ وواعظٍ إلى شَخْصٍ لا شُغْلَ له إلّا الموسيقا والشّعر والسَّماع ـ في تضاعيفِ غزَليّاته، مرّاتٍ كثيرةً:

كُنْـتُ رَجُـلًا مُجاهِـدًا، كُنْـتُ عـاقِلًا وزاهِـدًا
عافانـا اللهُ! فقُـلْ لـي: لِمـاذا طِرْتَ كالطّـائر؟!

وكذا في غزَلٍ آخَر:

أَيُّهــــا الــــسّاقي، أدِرِ الكــــأسَ فإنّنــــا
ثَمِلُــــون مــــن شَــــرابِ اللّيــــل
وأضِــفْ إليهــا مــاءً؛ لِأنّ نــارَ القَلْــب
تظــــلُّ تــــضْطَرِمُ فــــوقَ الفَلَــــك
كــــان المــــصْحَفُ في يــــدي دائمًــــا
وبــسبب العِــشْقِ أمــسَكْتُ بالــصّغانة(*)
وفي الفَــمِ الــذي كــان فيــه التّــسبيحُ
شِــــعْرٌ ودُوبَيــــتٌ وغَــــزَلٌ

*ـ آلة موسيقية، والاسْمُ هنا تعريبٌ لـ«چغانه» الفارسيّة.

وبعْدَ هذا التّغيّر يعترفُ مَوْلانا بأنّه حصلَتْ له وِلادةٌ جديدة:

انتهى مولوديَ الأوّلُ، وأنا مولودٌ لِلْعِشق في هذه اللّحظة

أنـا زائـدٌ علـى نَفْـسي؛ لِأنّـي وُلـدتُ مـرّتَيْن

وِلادةٌ جديدةٌ:

قبْلَ أن تبدأ حياةُ مَوْلانا الجديدةُ، ومرحلةُ خَلْقه وإبداعه، أي قبْلَ مرحلة الوَجْد والوَلَه، كان رَجُلًا من طِرازٍ خاصّ مِن رجال عَصْره، وربّما لو قُدِّرَ أنّ هذه الصّاعقةَ لم تقَعْ في بَيْدَرِ رُوحِه في يومٍ مِن الأيّام لَظَلّ له اسْمٌ في الذّاكرة إلى جانب العُلَماء والفقهاء مِن الدّرجة الأولى أو الثانية في تاريخ الثّقافة الإسلاميّة لذلك العصر، وربّما لم يكن له ذلك أيضًا. فلِماذا أسْدَلَ الدّهرُ سِتارَ النّسيانِ على كثيرين من مُشابهيه ومُعاصريه في مجال التّفقُّه والوَعْظ، ولم يبقَ منهم حتّى اسْمٌ؟ لكنّه منذُ اللّحظةِ التي بدأتْ فيها ولادتُه الجديدة، أي لَحْظةِ تعرُّفِه شَمْسًا، غدا رَجُلًا مِنْ أَرْفَعِ طِرازٍ عرفَتْه القِمَمُ الرّوحانيّةُ البشَريّةُ والأساطينُ المعرفيّةُ الإنسانيّة، إذ لم يأتِ إلى ساحةِ الحضارة الإسلاميّة الواسعة، وإلى عالَم المعارف في الثّقافة الإسلاميّة، تقريبًا شَخْصٌ في عَظَمته. وبنَظْرةٍ أشْملَ، يمكن عَدُّه ضِمْنَ عَدَدٍ غير كبير من المفكِّرين الكبار في تاريخ البشَريّة.

شَمْسٌ التّبْريزيّ:

كان شَمْسُ الدّين محمّدُ بنُ عَلِيّ بن مُلْك داذْ (٥٨٢ ـ ٦٤٥هـ تقريبًا)، وهو مِنْ أهل تَبْريزَ، مجذوبًا مُذْهَبًا مِنْ مجاذيب العالَم، ومن أولئك المتمرِّدين المُحْرِقينَ لِلْعالَم، الذين كانوا يتوسَّدون آجُرّةً ولَهُمْ قَدَمٌ فوق قِمّة الأفلاك التّسعة، ويمكنُ في كُلّ أَلْفِ سنةٍ أو مئة سنةٍ أن يظهرَ واحِدٌ منهم في زاويةٍ من زوايا الأرض. أَلْغازُ وجودِه لا يمكنُ حَلُّها

من خلال توضيحاتِ كُتّابِ التّراجم، أمّا انعكاسُ هذه الشَّمْس في مرآةِ شِعْر مَوْلانا فلألاءٌ ومُشْرِقٌ على نَحْوٍ يُغْني عن الأساطير والرّوايات المصنوعة لأصحاب التّراجم ومُحِبِّي القَصّ والأساطير. وخيرُ ممثّلٍ واقعيٍّ لوجوده العَمَليّ هو غَزَليّاتُ مَوْلانا نفسُها، التي سَجّلَت اسْمَه في تاريخ رُؤساءِ مجاذيب العِشْق في العالَم بلَقَب «إمام متمرّدي العِشْق» في ذلك العصر، وفي مواضِعَ كثيرة جِدًّا في مقدورنا أن نرى انعكاسَ وجوده في صفحاتِ هذا الدّيوان(*).

ومِثْلَما كانت حياةُ مَوْلانا، قبْلَ لقائه شَمْسًا، حياةً عاديّةً مألوفةً، ومن هذه الوِجْهة يجبُ اعتبارُ تغيّرِه وولادتِه الثانية نتيجةً لِلِقائه شَمْسًا، كان خُلودُ اسْمِ شَمْسٍ وعُمرُه الثاني على امتداد التاريخ نتيجةً لِلِقائه مَوْلانا، ويُعَدُّ وجودُ كلٍّ من هذَين الشّخصَين متمّمًا لِوجود الآخَر. وكثيرًا ما يَعِنّ في الذّهن هذا السّؤالُ: لو أنّ شَمْسًا ومَوْلانا لم يَلْقَ واحِدٌ منهما الآخَرَ، كيف كان مصيرُهما؟[1] هَلْ كان سيوجَدُ مَوْلانا في التّاريخ بهذه الخاصّيّات نفسِها، ويكونُ لَدَينا اليومَ شاعِرٌ مفكِّرٌ متمرِّدٌ بهذا البَحْرِ من الحِسّ والفِكْر، أَو لا؟ ثمّ، مِن وِجْهة أخرى، لَوْ أنّ هذا اللّقاء لم يحصُلْ هَلْ كان سيبقى اسْمٌ لِشَمْسٍ تَبْريزيّ في العالَم اليومَ؟ ولِأَفترِضْ أنّه مِن وجهة نَظَر شَمْسٍ بَقاءُ اسْمِه وعَدَمُ بقائه أمرٌ

---

* ـ يشير إلى ديوان شَمْس تَبريز لمَولانا جلال الدّين، الذي تتجاوزُ عِدّةُ أبياته الأربعينَ أَلْفَ بيتٍ، والذي نَظَمه مولانا تعبيرًا عن محبّته لشَيخه شمس تَبْريز، وسَمّاه باسْمِه [المترجم].

١ ـ منذُ القديم عُرِضَ هذا السُّؤالُ عَلَى أهل الأدب والعِرْفان، وقد أجاب عنه كمالُ الخُجَنْديّ (ت٨٠٣هـ) على هذا النّحو:

لا تقُلْ إنّ أربابَ القلْبِ ذَهبوا، وخَلَتْ مدينةُ العِشْق
صَحيفةُ قَلْبي مملوءةٌ بشَمْس التّبريزيّ، أينَ رجلٌ مِثْلُ مولانا؟

ديوان كمال خُجَندى، نَشْر عزيز دولَتْ آبادي، ١٠.

غير مُهِمٌّ، وأنّه مِن صنف الذين يعتقدون بمدلول القَوْل: قُلْ: لَنْ يبقَى لي هذا الاسْمُ، فماذا سيكونُ؟ ـ الجوابُ صَعْبٌ. أمّا ما يأتي إلى الذّهن فهو أنّ تصوّرَ هذَيْنِ الرَّجُلَين منفصِلًا أَحَدُهما عن الآخَر أمرٌ في الغاية من الصّعوبة.

وقد صُنِعَتْ حِكاياتٌ في شأن طريقة لقاء هذَين الرَّجُلَين. والمقبولُ هو أنّ شَمْسًا في السّابعِ والعشرين من شَهْرِ جُمادَى الآخِرة سنةَ ٦٤٢هـ وَصَلَ إلى قُونِيةَ، أمّا تاريخُ لِقاءِ الشّخصَين وكيفيّةُ هذه الواقعة فأمرٌ غيرُ واضح. ومِن وِجْهةٍ أخرى، نعْلَمُ أنّ شَمْسًا شَدّ رِحالَ السَّفَر مِن قُونِيةَ في الحادي والعشرين من شوّال سَنةَ ٦٤٢هـ. وتَبَعًا لذلك، لا تتجاوزُ مُدّةُ لقائهما في المرحلة الأولى السّتّةَ عَشَرَ شَهْرًا. عِلّةُ تَرْكِ شَمْسٍ قُونِيةَ غيرُ معلومةٍ بدقّة. لكنّه مِن الواضح أنّ تغيُّرَ حالِ مَوْلانا وسُلُوكِه ـ الذي كان في أنظار أهلِ قُونِيةَ والمتعصِّبين في ذلك الزّمان أمرًا مُنكَرًا ومرفوضًا ـ هو نفسَه كان من العوامل القويّة لذلك؛ لِأنّ شَمْسًا لم يستطعْ أن يتحمّلَ تشنيعَ مُريدي مَوْلانا وملامةَ أهل زمانه، وفي غَوغاءِ العَوامِّ هؤلاء الذين عَدُّوه ساحِرًا كان رُوحُه في خَطَر؛ ولهذا السَّبب هاجَرَ مِن قُونِيةَ إلى دِمَشْق. وفي شِعْر مَوْلانا انعكاسٌ واضحٌ جدًّا لهذه اللّحظاتِ مِن ابتعادِه عن شَمْس والنُّواحِ في طَلَبه، ولوضوحِه وقُوّته لا يحتاجُ إلى تقديم شاهد. وصحيفةُ قَلْبه، الممتدّةُ إلى الأَبَد، هي الطُّومارُ الذي كُتِبَ عليه مِن أوّله إلى آخِره: «لا تَذْهَبْ»[1]، وهو لا يستطيعُ تحمُّلَ عِبْءِ الفِراق هذا. ولعلّ مَوْلانا ظَلَّ مُدّةً بعْدَ هذه الحادثة غيرَ عالِم بمَحَلِّ إقامةِ شَمْسٍ، ثمّ بعْدَ شَهْرٍ أتاه نَبأٌ بأنّ شَمْسًا في دِمَشْق. وقد أرسَلَ رسائلَ كثيرة. وفي هذه المدّة تضاعَفَ مَلالُ خاطِرِ مَوْلانا حتّى إنّه أخذَ يوزّعُ

١ـ طُومارُ قلبي بطُولِ الأبَد   مكتوبٌ من أوّله إلى منتهاه: لا تَذهَبْ

العذابَ والألَمَ عَلَى أرواح المُريدين والأصحاب أيضًا، واضطرَّهم بذلك إلى أن يندَموا على فَعْلتهم ويعتذروا لِجَناب مَوْلانا عن إساءتهم لمَقامِ شَمْس. ونتيجةً لهذه الأوضاع بعَثَ مَوْلانا ابنَه، سُلْطانَ وَلَد، إلى دِمَشْقَ لِلْبَحْث عن شَمْس. بقي شَمْسٌ هناك خمسةَ عَشَرَ شَهْرًا تقريبًا، ثمّ في سنة ٦٤٤هـ، وعلى أَثَرِ تَوْقِ مَوْلانا واشتياقِه الذي لا حدودَ له وبعْدَ رسائله العِشْقيّة الكثيرة، قَبِلَ دَعْوةَ سُلْطان وَلَد، الذي كان قد جاء إلى دِمَشْقَ بصُحْبة جَمْعٍ مِن أصحاب مَوْلانا يُقدَّرُ بعِشرين شَخْصًا، وعاد إلى قُونِيةَ. وفي هذه المرّة أيضًا، كَرّرَتِ العوامِلُ السّابقةُ الحادثةَ التي حدَثَتْ قبْلُ، على نَحْوٍ آخَر، وأثارتْ ثَوْرةَ العَوامِّ وأهلِ العَصَبيّة؛ فاضطرّ شَمْسٌ إلى تَرْك قُونِية، ولَمْ يُعْلَم إلى أينَ ذهبَ، وما مَصيرُه. وقد ذهَبَ بعضُ كُتّاب التّراجِم إلى أنّ أهلَ التّعصُّب وعُلَماءَ الظّاهر دفعوا وَلَدًا من أولادِ مَوْلانا إلى أن يَهْدِمَ جدارًا فوقَه، ولُفِّقَتْ حِكاياتٌ أُخَرُ أيضًا في شأن غَيبته لا سَنَدَ لها البتّةَ، لكنّ الثابتَ أنّ غَيبتَه حدثَتْ سنةَ ٦٤٥هـ. ثمّ بعْدَ بَحْثٍ كثير، أعلَنَ مَوْلانا الهُيامَ والوَلَهَ والانجذابَ، وذَهبَ من يده زِمامُ الاختيار، وقَدْرٌ وافِرٌ مِن أشعار منظومته «ديوان شَمْس تَبْريز» تصويرٌ لهذه اللّحظات والأيّام. وكُلُّ مَن كان يأتيه بخَبَرٍ عن شَمْس، حتّى إن كان كاذبًا، كان في الحال يقدِّمُ له لِباسَه بِشارةً ونِثارًا. وعلى أَثَر سَماعِ هذه الأخبار، شدَّ مَوْلانا الرِّحالَ إلى دِمَشْق، وهناك بحَثَ عنه لبعض الوقت، وفي النّهايةِ عاد إلى قُونِيةَ يائسًا. لكنّ نارَ ذلك الوَجْد والوَلَه كانت تضطرِمُ في داخله، ومن جديدٍ أخذَ يبحث عنه، إلى أن يمّمَ مرّةً أخرى شَطْرَ دِمَشْق، لكنّه في هذه المرّة تحوّلَ ذلك الأمَلُ إلى يأسٍ كُلّيّةً، واستيقنَ أنّ لِقاءً آخَرَ ظاهريًّا يجمعُه بشَمْسٍ أمرٌ غيرُ مُيَسَّر. ووَفْقًا لتحقيقات المرحوم الأستاذ فُرُوزانْفَر، حدثَت الأسفارُ التي قام بها

مَوْلانا بَحْثًا عن شَمْس في المدّة من ٦٤٥ إلى ٦٤٧هـ. ثمّ بعْدَ هذه المدّة، كان مُحَرِّكُ عِشْق مَوْلانا، وباعِثُ وَجْدِه ووَلَهه، وذريعةُ تَرَنُّمه وإنشاده، صَلاحَ الدّين زَرْكُوب.

وباستثناءِ ما يُعْلَمُ مِن غزَليّات مَوْلانا وبعض أشعاره، يمكن قولُ القليلِ مِن الكَلامِ القاطِع المسلَّم في شأن شَمْس. حَتّى تعيينُ حَدٍّ لِشَخصيّته أمرٌ غيرُ ممكن، فإذا وُجِدَ طوفانٌ عظيمٌ هَلْ كان ذلك من قوّة هبوب الرّيح وقدرتها على التّدمير، أو لأنّ هذا البَحْرَ واسِعٌ وعظيمٌ جدًّا فجعَلَتْه أصغرُ موجةٍ طوفانًا؟ وإذا اضطرمَتْ نارٌ اضطرامًا عظيمًا هل كان ذلك لأنّ عامِلَ الحريق كان قويًّا، أو لأنّ الغابةَ الممتدّة لَدَيها استعدادٌ زائدٌ عَلَى الحدّ؟ الذي يبدو للنّظر، وتشهَدُ له القرائنُ، أنّ البَحْرَ كان بحرًا لا ضفافَ له، وأنّ الغابةَ كانت مترامِيةَ الأطراف، فصارا قابلَين للطّوفان والحريق. وهذه هي حالُ شَمْسٍ مع مَوْلانا. وفي هذه الوِجْهة، رُوي أنّه في يومٍ من الأيّام كان حضرةُ مَوْلانا في بُسْتان حُسام الدّين يتحدّثُ عن شَمْسٍ التَّبْريزيّ، وفي هذا الشّأن تجاوزَ الحَدَّ في الثّناء وأفرطَ في المَدْح، فما كان مِن أحد الأصحاب إلّا أن تأوّهَ مِن أعماق قلبه متمنّيًا لو أنّه كان زار شَمْسًا، وقال: «يا لَلْخسارة!». فقال مَوْلانا في إجابته: «لِماذا الخسارةُ، وما الخسارةُ، وهذه الخسارةُ ما مَحَلُّها، وما مُوجِبُ الخسارة، وأيُّ شأنٍ لِلْخسارة بينَنا»، فخجِلَ ذلك الصّاحِبُ وقال: «خَسارتي مِنْ أَجْل أَنّني لم أُدرِكْ مَوْلانا شَمْسَ الدّين التَّبْريزيّ». فصَمَتَ مَوْلانا لِلَحْظةٍ ثمّ قال: «إذا كنتَ لم تُدرِكْ حضرةَ مَوْلانا شَمْسَ الدّين التَّبْريزيّ، أُقسِمُ بِرُوحِ والدي الطّاهر، إنّكَ أدركتَ شخصًا في كُلّ طَيّةِ شَعْرةٍ منه معَلَّقٌ أَلْفُ شَمْسِ الدّين، وهم حَيارَى في إدراكِ سِرِّ سِرّه!»، وبعْدَ ذلك بدَأ بإنشادِ هذا الغزَل:

ذكَرَتْ شَفتي بَغْتةً اسْمَ الوَرْدِ رَوْضِ والوَرْد

فجاءَ ذلك الوَرْدِيُّ العِذار فضرَبَني على فَمي

وقال: أنا السُّلْطانُ، أنا رُوحُ رَوْضِ الوَرْد

تكونُ في حَضْرةِ مَلِكٍ مِثْلي ثمّ تذكُرُ فُلانًا؟[1]

ومعَ هذا كُلّه، لا ينبغي نسيانُ أنّ الدّيوانَ الكبير، أي أعظمَ ديوانٍ في موضوع الوَجْدِ والهُيام في العالَم كُلّه، قد حَصَلَ من شَرَرِ تلك اللّقاءات عَيْنِها، وإذا أرادَتْ كُلُّ الذّهنيّات الموجودة أيضًا تَصَوُّرَ شَمْسٍ شخصيّةً عاديّةً ومتوسّطةً فإنّ التصوُّرَ الذي يقدّمُه مَوْلانا له تصوُّرٌ غيرُ عاديّ ومُدْهش.

لم تتبَلْوَرْ شخصيّةُ شَمْسِ تَبْريزَ وترتقِ إلى آفاقٍ عالية جدًّا في الدّيوان الكبير فقط، بَلْ في الأساطير أيضًا، وحَتّى الأساطيرُ المتأخِّرة جدًّا والجديدةُ رَسَمَتْ له شخصيّةً عجيبةً فوقَ إمكانيّات البَشَر. وهذه الأسطورةُ المأخوذةُ مِن «عقائد أهلِ الحقّ» واحِدٌ مِن تلك التصوّرات عَينِها:

«عندَما عُلِّقَ منصورٌ الحَلّاجُ على المشنقة، وحُرِقَ جَسَدُه، وأُسْلِمَ رَمادُه إلى ماء البَحْر، ظلّ ذلك الرّمادُ طافيًا ومتحرِّكًا فوقَ ماءِ البَحْر، إلى أن أخذَ مَوْلانا زُجاجةً مملوءةً من ذلك الماء وحَمَلَها إلى بيته. وهناك سألَتْه ابنتُه: ما هذا؟ ـ فقال: ابنتي، هذا سمُّ حَيّة. حَذارِ أن تذكري ذلك لِأَحَد. ثمّ انقضى وقتٌ على هذه الواقعة، وأُصيبَتْ ابنةُ مَوْلانا بمَرَضٍ شديدٍ مؤلمٍ، حتّى نال منها الضّعْفُ والوهنُ وغَسَلت يدَها مِن الحياة. وابتغاءَ أن تُريحَ نفسَها مِنْ حياتها المؤلمة، عمَدَتْ في يومٍ مِن الأيّامِ وفي غيابِ والدها إلى شُرْب سمّ الحيّة الموجود في الزّجاجة، لِكَي تقتلَ نفسَها. ولكنْ حدَثَ عَكْسُ التّصوُّرِ

١ ـ مناقب العارفين: ١٠٢/١.

الذي كان لدَيها، ولم يقتصرِ الأمرُ على أنّ ذلك السّمَّ لم يكن قاتلًا، بَلْ في لحظةٍ واحدة شُفِيت مِنْ مَرَضها، ولكنّها أصبحَتْ حاملًا، وكانَ ما كان حتّى انتشرَ نَبأُ حَمْلِها بينَ النّاس، وانشغَلَ النّاسُ بمَلامة مَوْلانا وتقريعه. وبدأ مَوْلانا بسؤالِ الفتاة، وأخذَ ينشُدُ الحقيقة. وقد بيّنتِ الفتاةُ أصْلَ الموضوع، فسُرَّ مَوْلانا. وعندَما وضعَتِ الفتاةُ حَمْلَها، وَضَعَ مَوْلانا ذلك المولودَ في صُندوق، ووَضَعَ إلى جانبه مقدارًا مِن الذّهَب والجوهر، وأسْلَمَ الصّندوقَ لِلْماء. حَمَلَ الماءُ الصّندوقَ من مكان إلى مكانٍ، حَتّى وَصَلَ إلى حيثُ يوجَدُ بُستانيٌّ كان يَسْقي بُستانَه، فوقعَتْ عينُ البستانيّ على ذلك الصّندوق. فانتشلَ الصّندوقَ من الماء وحَمَلَه إلى بيته، وتَبنّى ذلك الوَلَدَ واعتنى به حتّى كَبِر. وعندَما بلَغَ الطّفلُ سِنَّ الرُّشْد أَحَسّ بأنّه مِن الناحية الرّوحيّة والجِسْميّة لَيْسَ لديه أيُّ انسجامٍ وتوافُقٍ مع جَوّ حياة البُستانيّ. فكان في يومٍ مِن الأيّام أن سألَ البُستانيَّ: ما الحقيقةُ، ومِن أيّ مكانٍ أنا، ومَنْ أنا؟ فاضطرَّ البُستانيّ إلى إعلامه بواقع الأمر، وفي النّهاية خرَجَ مِن عند البُستانيّ، وأخَذَ يبحثُ حَتّى وَصَلَ إلى مَوْلانا (والِدِ أمّه)، فعقَدَ مَوْلانا نطاقَ الخِدْمة أمامَه كالعَبْد، وصار محبوبًا جدًّا لَدَيه»[1].

وهذه القضيّةُ يمكن أن تكون نَموذجًا لكثيرٍ مِن النّكات في شأن شَمْسٍ ومَوْلانا، وارتباطِ أَحَدِهما بالآخَر رُوحيًّا. أليسَ المقصودُ الإشارةَ إلى حقيقةِ أنّ شَمْسًا لم يكن إلّا انعكاسًا لِرُوحِ مَوْلانا، أو مِرْآةً كان مَوْلانا يُشاهِدُ فيها تجلّياتِه العاطفيّةَ والرّوحيّة. معَ أنّه هو نفسَه في الظّاهر صورةٌ في مِرْآة، وإذا ما رَفَعْنا جَمالَه مِن أَمامِ المرآة بقيتِ المرآةُ وحْدَها وذهبَتْ تلك الصّورةُ المعنَويّة:

١ـ شاهنامة حقيقت (التّاريخُ المنظومُ لعُظَماءِ أهل الحقّ)، تأليف الحاج نعمت الله جيحون آبادي مُكْري، نَشْرة الدّكتُر محمّد مُكْري، القسمُ الأوّل، طهران ١٣٤٥ هـ ش، المعهد الإيراني الفرنسيّ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٥.

مـــــا شَـــــمْسُ تَبْريـــــزَ إلّا ذريعــــــةٌ

أمّا في جَمالِ اللُّطْف فنَحْنُ أصحابُ الشأن، نَحْنُ(١)

وغيرُ معلومٍ أبدًا أنّه لو أنّ شَمْسًا التَّبْريزيّ لم يكن موجودًا، أو أنّ اللّقاءَ بينَه وبينَ مَوْلانا لم يحصُلْ، أكان يمكنُ كُلَّ هذه الأشعارِ اللّألاءةِ والغزَليّات الممتازة أن تفيضَ مِن طبْع مَوْلانا، ويُكتَبَ لها الظُّهورُ؟ إجابةُ سؤالٍ كهذا أمرٌ صعبٌ. والقَدْرُ المسَلَّمُ هو أنّ الشّطْرَ الأعظَمَ مِن ديوان شَمْسٍ في صورته الموجودة هو أثَرٌ مِن آثار هذا اللّقاء والافتتان:

يا مفخَرَ التَّبْريزيّينَ، يا شَـمْسَ الحقّ والـدّين، تحـدَّثْ

لَعلّ كَلامي هذا كلَّه يكـون صـدَى لِكلامِـك(٢)

ولكن مَنْ كان شَمْسٌ؟ مَعارفُنا عن الهُوِيَّة التّاريخيّة لِشَمْسٍ ضئيلة جدًّا. انعكاسُ شخصيّته في سِيَر حياة مَوْلانا، وفي غزَليّات شَمْس، يشتملُ على ذلك الجزء مِن حياته الذي أُثبِتَ في سنواتِ ظهورِه المحدودة في قُونِيَةَ وامتزاجِ أحواله بأحوال مَوْلانا. والقَدْرُ الثّابتُ هو أنّ شَمْسًا جاء إلى قُونِيَةَ في ٢٦ مِن جُمادَى الآخِرة سنةَ ٦٤٢هـ، ثمّ بعْدَ ستّة عَشَرَ شَهْرًا تقريبًا تَرَكَ قُونِيَةَ في ٢١ شوّال سنةَ ٦٤٣هـ، ثمّ بعْدَ ذلك عادَ مرّةً أخرى إليها في سنة ٦٤٤هـ، ثمّ في سنة ٦٤٥هـ تَوارى عن الأنظار نهائيًّا. هذه جُمْلةُ معارفنا في شأنه. وقبْلَ هذه التّواريخ وبعْدَها، أينَ كان؟ ـ وماذا كان يفعلُ؟ أمورٌ غيرُ معلومةٍ البتّةَ.

يقالُ إنّ شَمْسًا كان في مدينة تَبْريز مُريدًا لِواحدٍ مِن العارفين المجهولين في ذلك العصر، واسْمُه الشّيخُ أبو بكر سَلّه بافْ أو زَنْبيل بافْ [فارسيّة، بمَعْنَى ناسِج السِّلال أو ناسِج الزّنابيل]، وهو رَجُلٌ لَيْسَ لَدَينا أيُّ اطّلاعٍ آخَر على هُوِيَّته التّاريخيّة. في تضاعيف

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٥٧٦.

٢ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٢٠٥٦.

«مقالات شَمْس»[*] تقعُ العَينُ أحيانًا على إشاراتٍ إلى مَن يُسَمَّى الشّيخَ أبا بَكْر، كما في قولِه مثَلًا: «لَيْسَ لذلك الشّيخِ أبي بَكْر عادةُ تَسْليم الخِرْقة الصوفيّة». فإذا كان مقصودُه هنا الشّيخَ أبا بَكْر زَنْبيل باف نفسَه فإنّ قرينةَ العبارة تُشير إلى أنّه في هذا التاريخ (٦٤٢ ـ ٦٤٥هـ تقريبًا) كان ما يزالُ حَيًّا، ولولا ذلك لَكان قال: لم تكُنْ له عادةُ تَسْليم الخِرْقة الصّوفية. أو قولِه في موضعٍ آخَر: «لِذلكَ الشّيخِ، أبي بَكْر، سُكْرٌ مِن الله، ولكن لَيسَ له ذلكَ الصَّحْوُ الذي بعْدَه. وهذا مِن جِهة العِلْم معلومٌ عندَ هذا العَبْد».[1]

مَقالاتُ شَمْس:

في الحِقْبة القصيرة التي كان لِشَمْسٍ ومَوْلانا فيها لقاءاتٌ لمدّة ثلاث سنوات تقريبًا، في السّنوات ٦٤٢ ـ ٦٤٥هـ، وحيثُ كان شَمْسٌ يتحدّثُ في جَمْعِ أصحابِ مَوْلانا وفي حضرته، حَفِظ بعضُ أصحاب مَوْلانا أجزاءً مِن كَلامه، حِينًا بعَيْنِ عبارته وحِينًا بتغييرٍ يُحْدثونَه في عبارته تَبَعًا لفهمهم إيّاها، ودَوّنوها، وهو ما بقي لنا اليومَ باسْمِ «مقالات شَمْس تَبْريزي». الإنسانُ الذي ينظُرُ في هذا الكتاب بتأمّلٍ يتذكّرُ البروقَ المتفرِّقة في ليالي الرّبيع، في لحظةٍ واحدة يُضاءُ الفضاءُ بكَلامِه ومن جديد يصْمُت. مَرّةً ضِياءٌ ومَرّةً صَمْتٌ. كان خَصْلةً ذاتيّةً له أنّه لم يكن يمتلكُ في الأحوال كلّها الاستعدادَ للخَطابة والكلام المنظَّم. ومعَ هذا كلّه، ما بقيَ مِن كلامه يُعَدُّ مِن أَنْفَسِ أجزاء الميراث الفِكْريّ والإبداع البَشَريّ في الثّقافة الإيرانيّة. وعندَما كان شَمْسٌ يرى هذه المدوَّناتِ التي يُثْبتُها المريدون مِن كلامه هو، كان يسمِّيها «الجُذاذاتِ» أو القُراضات، على سبيل السُّخْرية والاستهزاء.

---

* ـ كتابٌ كبير يتضمّنُ كلامًا لِشَمْس تَبريز، يبدو أساسًا لكثيرٍ من فِكْر مولانا.

١ ـ مقالات شَمْس، ص ١٥٣.

نهايةُ شَمْس:

في المرّةِ الثّانية، إذ غاب شَمْسٌ عن قُونِيةَ سنةَ ٦٤٥هـ، لا نعودُ نمتلكُ أصغرَ إشارةٍ منه. تحدّثَ بعضُهم عن قَتْله، وتحدّث آخرون عن غيابه. وتظلّ نهايتُه سِرًّا مِن أسرار تاريخ الثّقافة الإيرانيّة. ومعَ هذا كُلّه، احتمالُ أن يكون شَمْسٌ تَرَكَ قُونِيةَ قاصدًا إلى وطنه تَبْريز، وتُوفِّيَ في مدينة خُوي في خُمولٍ للذّكْر ومن دون ضَجيج، ودُفِنَ في عَيْنِ المكان المشهور باسْم مَزاره، لا يمكنُ أن يكون بعيدًا كثيرًا عن الحقيقة، خاصّةً أنّ وثائقَ جديرةً بالملاحظة في هذا الشّأن في مُتناول اليد[١].

ويُعلَمُ مِن تصريحاته في تضاعيفِ «المقالات» أنّه حَظِيَ مِن العلوم الرّائجة في عَصْره كالفِقْه[٢] وآداب العرب بنصيبٍ وافٍ[٣].

مذهبُ شَمْس الفِقْهيُّ:

كان المذهَبُ الفِقْهيّ لِشَمسٍ التَّبريزيّ مذهبَ الإمامِ الشافعيّ، وهو نفسُه يصرِّحُ بأنّه في أثناء دراستِه الفِقْهَ كان يُدْعَى لدِراسة كتاب «التّنبيه في فُروع الشّافعيّة» لِأَبي إسحاق الشّيرازيّ (٣٩٣ ـ ٤٧٦هـ)، وهذا هو المجالُ الذي يفترقُ فيه «منهجُه» عن «منهج» مَوْلانا. وكان مَوْلانا في مجال الفِقْه على مذهب الإمامِ أبي حَنيفة. لكنّ شَمْسًا يعْلِنُ أنّه لم يكنْ لديه البتّةَ تعصّبٌ لِمَذْهب الإمام الشّافعيّ، وكان إذا ما استحسَنَ شيئًا على مذْهَبِ أبي

---

١ ـ لَدَى الدّكتُر محمّد أمين رياحي في هذا الشّأن تحقيقٌ دقيقٌ، مُحصَّلُه أصالةُ فِكْرةِ أنّ شَمْسًا التَّبْريزيّ تُوفّيَ في مدينة «خُوي»، وأنّ مزارَه في المدينة نفسها. پايداري حماسى، ٢١٣ ـ ٢٢٥. وانظُرْ أيضًا هذه المقدّمة، فقرة «مَسير أُسْرة مولانا مِن بَلْخ إلى قُونيَةَ» [الأصْل].

٢ ـ مقالات شَمْس، ٢/٨٧.

٣ ـ مقالات شَمْس، ١/١٨٥.

حَنيفةَ في شأنٍ من الشّؤون قَبلَه، ولم يكن مِن أصحاب اللّجاج والجدال.

ولا نعلَمُ ما إذا كان شَمْسٌ التَّبْريزيّ، بما تمتّعَ به مِن ذَوْقٍ متعالٍ ولَألاءٍ، قد نظَمَ شعرًا، أو لم ينظِمْ. ولا شكّ البتّةَ في عِلْمه بالشِّعْر. الشّعراءُ الذين كان يستجيدُ شعْرَهم، ويذكُرُ أسماءهم، سَنائي وخاقاني ونِظامي والعطّار. استشهادُه بشِعْر سَنائي يشيرُ إلى أنّ حافظتَه طافحةٌ بأشعاره. وله أيضًا تأمّلاتٌ في أحوالِ سَنائي، وبعضٌ مِن أهمّ نِكاتِ حياةِ سَنائي هي تلك التي في مُتناوَلنا اليومَ ببركة رِوايات شَمْس.

وقد نسَبَ المتأخِّرون إليه نَموذجًا من النّظْم يبدو بعيدًا جدًّا عن فَضاءِ خبرته في الفنّ وذَوقه المتعالي.

طِباعُ شَمْسٍ وخصالُه:

كان شَمْسٌ امرَأً بطيءَ الغضَب، قليلَ التحمُّل، لا يقيم وَزْنًا لكلّ الموازين التي تَضبِطُ عُرْفَ أهلِ زمانه وعاداتهم: أينَ نجدُ غريبًا مِثْلَ شَمْسٍ في العالَم؟ مِن صِنْفِ الرّجال الذين يتوسّدون آجُرّةً ولهم قَدَمٌ فوقَ قمّة الأفلاك السّبعة، ولا يشترون سُلطانَ خَلْقِ العالَم بِشَرْوَى نَقير. ونظْرةُ شَمْسٍ إلى مسائل عَصْره، في مجال الدّين والأخلاق والتصوّف، نَظْرةٌ قاسيةٌ وحادّةٌ وغيرُ مبالية. كثيرون مِن عُظَماء عصره لم يكن يقيمُ لهم أيَّ وَزْن، وأحيانًا كان يُثني على أشخاصٍ مغمورين، معَ كلّ ما كان لديهم مِن خُروجٍ على المعايير الأخلاقيّة والدّينيّة لِعَصْرهم، وكان يأنَسُ بهم: «أُحِبُّ الكافرين، مِن جهة أنّهم لا يدّعون المحبّةَ..» أو: «الشّخصُ الذي رآنا إمّا أن يغدوَ مُسْلِمًا مُسْلِمًا، وإمّا أن يغدوَ مُلْحِدًا مُلْحِدًا..». طريقةُ كلامه كانَتْ على نَحْوٍ حَمَلَ مَنْ لَيسَ لديهم معرفةٌ به على اتّهامه بالادّعاء، كالذي نجدُه في قَوله: «كلامي كُلُّه يأتي على وَجْه الكِبْرياء، كُلُّه

يُظْهِر الادّعاء». وحتّى في عمَله كان معقَّدًا: «مِثْل ذلك الخَطّاط الذي كتبَ خطًّا بثلاثة أشكال: واحِدٌ يقرؤه هو ولا يقرؤه غيرُه، وواحِدٌ يقرؤه هو ويقرؤه غيرُه، وواحِدٌ لا يقرؤه هو ولا يقرؤه غيرُه. وذلكم أنا الذي أتحدّثُ. لا أنا أعلَمُ، ولا غيري».

شَمْسٌ التَّبْريزيُّ في نظَرِ مَوْلانا مَظْهَرٌ لكَمالِ «الإنسانيّة»، ومَظْهَرٌ لكَمالِ «العِشْق»، وعندَ مَوْلانا أنّ هذَين المفهومَيْن مرتبطٌ أحَدُهما بالآخَر ارتباطًا قويًّا، إذ كلّما اكتملَتِ «الإنسانيّةُ» تمتّعَ العِشْقُ بقَدْرٍ أكبرَ من الكمال؛ ذلك لأنّ العِشْقَ أمانةٌ إلهيّةٌ أُسلِمَتْ للإنسان فقط:

إذا كانَتِ السّماواتُ لا قدرةَ لها على حَمْلِ أماناتِ الحقّ

فكيفَ نثَرَها شَمْسُ التَّبْريزيّ في الأرض؟[1]

ويقولُ في موضعٍ آخَر:

يا شَمْسَ تَبْريز، العِشْقُ هو الذي يعرفُك، لا العَقْل[2].

الوَحْدةُ الرّوحانيّةُ التي توجَدُ بينَ رجالِ الله، لا تُفهَمُ إلّا بصعوبةٍ عندَ الأشخاص الذين هم بعيدون عن هذه التّجربة المعنَويّة. وعندَما يقولُ شَمْسٌ: «كنتُ أنشُدُ إنسانًا من جِنْسي؛ لِأجعلَه قِبْلةً لي» (مقالات شَمْس ١/٢١٩)، يكون مبعَثَ ذلك كمالُ الصّدْق، ثمّ إنّه يتقدّمُ في صِدْق اللّهجة هذا إلى قَدْرٍ يفْنَى فيه مَوْلانا ولا يبقى إلّا الحقُّ سُبحانَه، فإذا سألَ أحَدٌ عن مَوْلانا أُجيبَ بذِكْر صفاتِ الحقّ تعالى الباقية: «إذا سُئلْتَ: كيفَ عرَفْتَ مَوْلانا؟ ـ فقُلْ: إن تسألْ عن قولِه فاقرَأ: «إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٩٧٢.

٢ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٢٣٨٧.

فَيَكُونُ» (٣٦ /٨٢)، وإن تسألْ عن فعله فاقرَأْ: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ» (٥٥/ ٢٩)، وإن تَسألْ عن صفته فاقرَأْ: «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ» (١١٢ /١)، وإن تَسألْ عن اسْمه فاقرَأْ: «هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ» (٥٩ /٢٢)، وإن تَسألْ عن ذاته فاقرَأْ: «لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ» (٤٢ /١١).

أنتَ شَمْسُ تَبْريزَ الذي استوطنَ الرّوحَ

الوطَنُ هو رُوحُ الأرواح، فكيف تكون وطَنًا للرّوح؟[1]

والأجملُ والأعمقُ مِن هذا كلّه هذه الأبياتُ التي لا يبقى فيها مكانٌ لِـ«أنا» و«هو» في المَحْو:

شَمْسُ تَبْريزَ نفسُه ذَريعةٌ

ونَحْنُ الموجودونَ بِحُسْن اللُّطْف، نحنُ الموجودون

فقلْ للنّاس مِن أجْلِ التّمويه:

إنّه مَلِكٌ كريمٌ، ونَحْنُ متسوِّلونَ طالبون

وأيُّ شأنٍ لَنا بالمُلْكِ والتّسوّل

نَحْنُ مسرورون، لأنّنا مستحقّون لِلْمَلِك

نَحْنُ ننمحي بِحُسْنِ شَمْسِ تَبْريز

وفي المَحْوِ لا يكون «هُوَ»، ولا «نَحْنُ»[2]

ويُعْلَمُ مِن أقوال شَمْسٍ، على نحوٍ واضحٍ، أنّه لم يكن يؤمِنُ كثيرًا بمسألة أَخْذِ الخِرْقة الصّوفيّة وإعطائها، وهي المسألةُ التي كانت في عصره تُعَدُّ أرسخَ أُسُسِ نظام

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٢٨٨٤.

٢ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٥٧٦.

الخانِقاه أوِ الزّاوية الصّوفيّة، وما كان مُهمًّا عندَه هو مسألةُ «الصُّحبةِ» واشتراكِ العَوالم الرّوحيّة. ويقال إنّه قد أخذَ خِرْقته مِن يد الرّسول [عليه الصّلاةُ والسّلام] في المنام: «أعطاني الرّسولُ عليه السّلامُ في المنام الخِرْقةَ. ولا أعني تلك الخِرْقةَ التي تتمزّقُ بعْدَ يومَين وتَبْلى وتُلْقى في التّنّور، أو يُستنجَى بها، بل خِرْقةَ الصُّحْبة، الصُّحْبة التي لا يتّسعُ الفهمُ لإدراكها، الصُّحْبة التي لَيسَ لها ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ. أيُّ شأنٍ لِلْعِشْق بالماضي والحاضِرِ والمستقبل؟»[١].

لم يكن معيارُ شَمْسٍ في تقييم أهْلِ «العِشْق» العِلْمَ والفَضْلَ والزّهْدَ والعبادة، حَتّى والِدُه كان ينتقدُه لأنّه لم يكن عالِمًا بـ«العِشْق»: «رَجُلٌ طيّبٌ وذُو كَرَمٍ، وفي الفصاحة كان كلامُه يقطُرُ ماءً ورَوْنَقًا، لكنّه لم يكن عاشقًا. الرَّجُلُ الطّيّبُ شيءٌ، والعاشقُ شيءٌ آخر»[٢]. ونحنُ لا نعلَمُ ماذا كان يُتداوَلُ في الحديث بينَه وبينَ مَوْلانا في الأيّام الأولى، ولكنّ أساسَ الجاذبيّة عندَ الاثنَين تمثَّل يقينًا في مقولةِ «العِشْق»، وامتلاكِ الرّوح العاشق.

ومِن تأمُّلِ معايير الاختيار عندَ شَمْسٍ، يُستفادُ أنّ أبرزَ شخصيّةٍ عندَه في تاريخ عالَم العِرْفان شخصيّةُ أبي يزيدَ البِسْطاميّ: «الفَخْرُ الرّازيّ لا يصِلُ إلى غُبارِ طريقِ أبي يَزيدَ، وهو كالحَلْقة على بابه..». وعَينُ السّؤالِ الذي سألَه مَوْلانا في اليومِ الأوّل لِلقائهما في السُّوق، وأثارَ في نفسه ذلك الاضطرابَ، بدأ بـ«أبي يَزيدَ» وقَولِه: «سُبْحاني».

ويُعْلَمُ مِن أقواله أنّه، ربّما بسبب إمضائه وقتًا طويلًا في مُدُنٍ مِثْل أَرْزَن الرُّوم (أرز رُوم، بَلَدٌ في إِرْمِينِيَةَ التّركيّة)، يعملُ صاحِبَ مدرسةٍ ومُعَلِّمَ أطفالٍ، ومِثْلَما يقولُ

١ ـ مقالات شَمْس: ١/١٣٤.

٢ ـ مقالات شَمْس: ١/١١٩.

هو نفسُه، كان معلِّمًا قاسيًا جِدًّا حَتّى إنّه كان يستطيعُ أن يهدّئ ويهذّبَ أشرسَ الأطفال وأصعبَهم.

ومِن بين الشّعراء الكبار، كان شَمْسٌ مُعْجَبًا جدًّا بسَنائي والعطّار والخاقاني ونِظامي، واللّافتُ للنّظَر أنّ هؤلاء الأربعةَ أنفسَهم كانوا مَحَلّ إعجاب مَوْلانا أيضًا. وكان شَمْسٌ في تضاعيف أقواله يستشهِدُ بشِعْر سَنائي. مَوْلانا أيضًا في مجالسه كان دائمًا يُنشِدُ أشعارَ سَنائي.

والظّاهرُ أنّ مَوْلانا منذ مرحلةِ شَبابه كان ينظِمُ الشّعرَ بين الحِين والآخَر، ومِثْلَما ذكَرَ بعضُ مَن كتبَ سِيرةً له، لَمْ يبدأ نَظْمَ الشِّعر معَ لِقاء شَمْس. وإنّ عددًا كبيرًا مِن المذكِّرينَ والفُقَهاء والمتكلّمينَ البارزين في عَصْره، كانوا أيضًا شُعَراءَ، في العربيّة وفي الفارسيّة، معَ كونهم مُذَكِّرين وفُقَهاءَ ومتكلّمين. وإنّ نَظْرةً واحدةً إلى كتاب «لُباب الألباب» لِعُوفي تضعُ أمامَنا شواهدَ لا حَصْرَ لها في هذا الشأن. وما أهداهُ شَمْسٌ التّبْريزيّ، ولقاؤه، إلى مَوْلانا تمثَّلَ في تغيُّرِ أحوالِ الفقيه الذي كان أحيانًا ينظِمُ شِعْرًا أيضًا على سبيل التّفنُّن، وتحوُّلِه إلى شاعِرٍ عاشِقٍ مضطَرٍّ، له على الفِقْه أيضًا اطّلاعٌ كبير. كأنّ مَوْلانا قبْلَ لِقاء شَمْسٍ لم يكن مِن أرباب السَّماع والرَّقْص، ويُعلَمُ هذا على نَحْوٍ واضحٍ مِن تصريحِ ابنه سُلْطان وَلَد، وكذلك مِن قول فَريدون سِپَهسالار[1].

ما حصَلَ لِمَوْلانا مِن لِقاء شَمْسٍ كانت له نتيجةٌ أساسيّةٌ، هي أنّه غيّرَ معاييرَ التّقييم عندَ مَوْلانا، أي القِيَمَ التي وُجِدَتْ في ذلك الوقت مِنْ أجل الفقيه أو المذكِّر أو الواعِظ، وكانَتْ أحيانًا تُسبّبُ لأصحابه قَدْرًا من القيود. حَرّرَه هذا اللقاءُ من سَطْوة تلك

١ـ رسالة سپهسالار، ص ٥٦.

المعايير. حرّرَ مَوْلانا من سِجْنِ العادات والأعراف ومِن قَيد معايير زمانه. ولعلّ مَوْلانا حتّى ذلك الوقت كان قد أدركَ بنفسه هذه الحقائقَ إدراكًا كاملًا، لكنّه عَمَليًّا لم يشَأْ أن يستسلم لها. مزّقَ شَمْسٌ سِلْسلةَ هذه المعايير وكسَرَ قيودَها، وعلّمَه أنّه بمخالفة هذه الأعرافِ والعادات يمكن أن يعيش في عالَمٍ آخَرَ ومعَ أُناسٍ آخرين. ومِن الممكن أنّ مَوْلانا حتّى ذلك الوقت، كان يُسَرُّ بلِقاء رجالٍ مِثْل صَدْرِ الدّين القُونَويّ ونَجْم الدّين داية وأمثالهما، مِن الذين كانوا في ذلك الوقت مِن أهل النّباهة والشّأن، أمّا بعْدَ لقائه شَمْسًا فإنّ أشخاصًا بُسَطاءَ مِثْلَ صلاحِ الدّين زَرْكوب(*) صاروا عندَه على قَدْرٍ كبير من الأهميّة، حتّى إن كانوا أُمِّيّينَ تمامًا، ولا نصيبَ لهم من القراءة والكتابة. فعندَ مَوْلانا أنّ الشّيخَ هو ذلك الإنسانُ المتّصِفُ بصِفات :

اعلَمْ أنّ الـشّيخَ يكـون متّـصفًا بكُـلِّ صِـفاتِ الحقّ

مـــعَ أنّ الـــشّيخَ يظهَـــرُ بمَظْهَـــرِ البـــشَر(١)

قُونِيةُ في عَصْر مَوْلانا:

كانت قُونِيةُ في ذلك العَصْر مَحَلًّا لالتقاء ثلاثِ الثّقافاتِ الأساسيّة في العالَم القديم: من ناحيةٍ، كان لِلّغة الفارسيّة والشّعر والأدب الفارسيّ في هذه المدينة، بسببِ هجرة الإيرانيّين والعُلَماء الإيرانيّين، وجودٌ ظاهرٌ وتميّزٌ واضح. وعَيْنُ هذا الذي نرى مِن أنّ

---

* ـ شخصٌ بسيطٌ ضئيلُ الحظ من الثقافة، لكنْ يبدو أنّه كان من أهل الصّلاح والتقوى، وكان يعمل في طِلاء الكُتب بالذّهب في دكّان له في مدينة قُونِيةَ. وإثْرَ غياب شَمْسٍ تعلّقَ قلْبُ مولانا به تعلّقًا شديدًا، واستمرّ ذلك لِعَشْر سنواتٍ تقريبًا، حتّى وفاةِ صلاح الدّين سنة ٦٥٧ هـ وقد جاء ذِكْرٌ لصلاح الدّين هذا في أكثرَ من سبعين غَزَليّة لمولانا.

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٣٠٧٣.

رجالًا مِن الأتراك واليونانيّين، الذين لم تكن لُغتُهم اللّغةَ الفارسيّةَ، يُشاركون في مجالسِ التّذكير والوَعْظ التي يحاضِرُ فيها بُرهان محقِّق ومَوْلانا ووالِدُه، وأنّ عالِمًا كبيرًا وعارفًا بارزًا مِثْلَ صَدْرِ الدّين القُونَويّ ـ الذي لم يَمُرّ حتّى لِلَحْظةٍ بالبلاد الناطقة بالفارسيّة ـ كان مُتْقِنًا لهذه اللّغة، ويُعلَمُ ذلك تمامًا مِن رسائله الفارسيّة إلى السّيّد نَصِير الدّين الطّوسيّ، [أقولُ: عَيْنُ هذا] دليلٌ واضحٌ على أنّ لُغةَ الثّقافة في قُونيةَ كانت اللّغةَ الفارسيّة. كما أنّ كُلَّ الوثائقِ والرّسائل المتبادَلة والدّفاترِ الدّيوانيّة كانت باللّغة الفارسيّة أيضًا[١].

وإلى جانب اللّغة الفارسيّة، كانتِ اللّغةُ العربيّةُ ـ التي كانت لُغةَ القرآن الكريم والحديثِ النّبويّ الشّريف ولُغةَ المعارف الدّينيّة ـ في غاية الانتشار والرّواج، وهذا الأمرُ لا يحتاجُ إلى شيءٍ مِن الإيضاح البتّةَ.

ونظَرًا إلى أنّ آسِيةَ الصُّغرى كانت مهْدَ ثقافةِ التمدُّنِ اليونانيّ والرُّوميّ، وأنّ الأقوامَ الذين كانوا يعيشون هناك كانوا يعرفون اللّغةَ اليونانيّة والثّقافةَ اليونانيّة جيّدًا، كان لهذه الثّقافةِ البارزة في العالَم القديم حضورٌ واضحٌ أيضًا في هذه المدينة. وما يُرى مِن ألفاظٍ يونانيّة، وحتّى عباراتٍ يونانيّة، في ديوان شَمْس، أَفترِضُ أنّه لم ينشأ مِن لُغة مَوْلانا وأنّه نَظْمٌ لآخَرين. ومهما يكن الأمرُ، فإنّه دليلٌ واضحٌ على حَياة هذه اللّغة في تلك النّاحية، وبينَ كثيرينَ من أُناسِ هذه المدينة. ولبعضِ أربابِ التّحقيق اعتقادٌ بأنّ مَوْلانا كان يعرفُ اللّغةَ اليونانيّة بقَدْرٍ ما أيضًا[٢].

وفي هذه الحاضِرَة، وُجِدتِ الكنيسةُ إلى جانب المسجد، ولَمْ تُرَ هناك عصبيّاتٌ دينيّةٌ مِن ذلك الصّنف الذي راجَ كثيرًا أحيانًا في وِلايات أُخرى. أمّا مَوْلانا، الذي كان

---

١ ـ مُسامرة الأخبار، ص ٦٤.

٢ ـ گلبينارلي، مولانا جلال الدّين، ٣٩١ ـ ٣٩٥.

هو نفسُه مَظْهَرًا أتمَّ وأكملَ لـ«صُلْحِ كُلٍّ» الفِرَق والمذاهب، فكان له في هذا المحيط معَ الجميع أُنْسٌ وأُلْفةٌ ومخالطة. وفي كتاب «مَناقِبِ العارفين»[١] لِلْأفلاكيّ حكايةٌ تقول إنّه «كان في دَيْرِ أفلاطونَ الحكيم[٢] راهبٌ ذو بَراعاتٍ عظيمة وطاعِنًا في السّن»، وكان هذا الرّاهبُ قدِ ادّعى أنّ مَوْلانا كان يتردّدُ إلى دَيْره، وأنّه مرّةً اختلَى فيه لمدّة أربعين يومًا. ويمكنُ هذه الحكايةَ أيضًا أن تكونَ مِن جِنْسٍ آخَرَ لاصطناعِ كراماتِ المقامات عندَ الكُتَّاب، لكنّها تصوِّرُ بقَدْرٍ مُعيَّنٍ الفضاءَ الاجتماعيّ والدّينيّ للمدينة.

ومعَ أنّ قُونِيةَ، بسبب وجودِ ضريح مَوْلانا فيها، كانت تُعَدّ ضَرْبًا من الحَرَم الآمِن، كانت أحيانًا مقصِدًا لِهجَماتِ الجيوش، ويمكنُ إدراكُ ذلك من شِعْر سُلْطان وَلَد في شأن هذه المدينة:

أَيْ قُونِيــــــةُ المملـــــوءةُ بـــــالجيوش
أنــــتَ في خِطّـــــةِ الـــرّومِ العاصـــــمةُ
كُــــلُّ مدينـــــةٍ كبيـــرةٍ مِثْــــلُ أميــــرٍ
وأنــــتِ فــــوقَ المـــدائنِ كـــالمَلِــــك
وعنـــــدَما اختــــارَكِ حَـــضْرةُ شَـــيخِنا

---

١ ـ مناقب العارفين، ٢٩٤، و٩٠٤.

٢ ـ دَيْرُ أفلاطونَ الحكيم، كان مَحَلًّا في قُونِيةَ في عصر مولانا يُرى تصويرٌ دقيقٌ له في كتاب «شهنامهٔ سلجوق»، تأليف أُنْسي، ص٢. وناظمُ ذلك المتْن يذكُرُ عن هذا المحَلّ الذي يحملُ اسْمَ «جاى افلاطون» [بالفارسيّة بمعنى: مَحَلّ أفلاطون] أنّ فيه عَينَ ماءٍ تتدفّقُ مياهُها مِن ثلاث مئة أُنبوب، وكان فيه بناءٌ منسوبٌ إلى الإسكندر، له اثنا عَشَرَ بُرجًا. القائلُ نفسُه يتحدّثُ في شأنِ قُونِيةَ عن ثلاثِ مئةٍ وستّين زاويةً للصّوفيّة، وعن سبعينَ خانِقاه، وعن ثلاث مئة مسجدٍ، وسبعة جوامع كبيرة، ويُثْني ثَناءً خاصًّا على تكيّة إسحاق خان أيضًا، على أنّها مَحَلٌّ ممتاز، ويتحدّثُ عن قُونِيةَ بوصفها «مَقَرّ العارفين» [الأصل].

كُنـــتِ مِثْـــلَ مكّـــةَ والكعْبـــةِ الإلهيّـــة

كـان لَـكِ مِـن وجـودِ الـشّيخ رَوْنـقٌ وجَمـال

والآنَ أنـــتِ بوجـــود تُربتِــه في حِــرْزٍ وأمــان

أَيْ قُونِيـــــةُ، أنـــــتِ جَنّـــــةُ الوجـــــود

أَيْ قُونِيـــــةُ، أنـــــتِ الدَّولـــــةُ والجـــــاه

أي مِــصْرُ، أنـــتِ أمـــامَ حاضِـــرةٍ كهـــذه

صـــــغيرةٌ جـــــدًّا، وضـــــئيلةٌ كالقَـــــشّة

فـــأقِمْ، أَيْ وَلَـــد، في قُونِيـــةَ قَريـــرَ العَـــيْن

إلـــى أَنْ يـــزولَ عنهـــا الهـــلاكُ والـــدّمار

هذا الشّعْرُ الذي يشيرُ إلى أنّ سُلْطان وَلَد قد نظَمَ هذه الأبياتَ عندَما كانت قُونِيةُ تحتَ حِصارِ جُيوشٍ من الخارج.

العِشْقُ هو تِلكَ الشّعلةُ التي عِندَما اشتعلتْ
أحْرَقَتْ كلَّ شيءٍ ما عدا المعشوقَ،
وأنتَ بسببِ شَوْكةٍ واحِدةٍ تفرّ مِن العِشْق،
فماذا تَعْرِفُ أَنتَ عن العِشْق ما خَلَا الاسْمَ؟
(المثْنَوي: ٥/٥٨٩ ـ ٩٠)

بِاسْمِ الله

ـ تقديمُ المؤلِّف ـ

بَعْدَ انقضاءِ قُرونٍ على لِقاء شَمْس مُلْكداذْ التَّبريزيِّ جَلالَ الدّين محمّدًا البَلْخِيَّ في قُونِيةَ، وحَتّى الآنَ، كثيرًا ما يَسأَلُ عددٌ كبيرٌ مِنَ المفكِّرين أو الشّبّان الذين يشاركونَ في المجالِسِ والمحافِلِ الأدبيّة، خاصّةً ذَوِي الخبرةِ بِمَوْلانا الذين لديهم شَوْقٌ إليه: ماذا حَدثَ، وماذا قالَ شَمْسٌ في مَحْضَر مَوْلانا حتّى قَدِر عَلَى أنْ يغيِّرَ الأستاذَ والفقيهَ الغيرَ المنازَعِ في الرّومِ الشّرقيّة عَلَى نَحْوٍ مفاجئ، ويَنقلَه مِن كُرْسيّ التّدْريسِ والبَحْثِ والاحتجاجِ إلى محافِلِ السَّماع، ويدفعَه إلى الرَّقْص والدّوَران في الأَحْياءِ والأزقّة، بَلْ حتّى في سُوق الصّاغة؟ ـ أيّةَ شَخْصيّةٍ كانَ هذا الرّجلُ حتّى جعَلَ وجودَ العقلِ مَحَلّ تَساؤلٍ، وحَوّلَ الشّيخَ إلى مَدّاحٍ ومتحدِّثٍ بليغٍ عن عِلْمِ العِشْق؟ ـ حَولَ أيّ شيءٍ دارَتْ أَحاديثُ هذَين الرّجُلَين، الشابِّ والشّيخِ، في خَلْوةٍ لِثلاثة أَشْهرٍ أُمضِيَتْ في حُجْرةٍ شِبْهِ مُظلِمةٍ ورَطْبةٍ؟ ـ أيكونُ مِن الممكن، مِن خلالِ الآثار الباقية، كشْفُ النّقاطِ الأساسيّةِ لِفِكَر الدّرويش التّبريزيّ وأساليبه الخاصّة في العَمَلِ والسّلوكِ والحديثِ في قُونِيَةَ، تلكَ التي كانَتْ موضعَ اهتمامِ مَوْلانا؟ ـ لماذا لم تتناغَمْ نَظَراتُ جماعةٍ مِن عُلَماءِ قُونِيةَ معَ مَوْلانا المتغيِّرِ وتَنْسجِمْ معَه؟ ـ لماذا كانَ مَوْلانا في أَثْناءِ إنشاء غَزَليّاته يتأثّرُ ويجري الدّمعُ مِن عَيْنَيه؟ ـ أَلَا تكونُ شَراسةُ ابنِ مَوْلانا الأصْغَرِ، وضِيقُ نَظَرِه،

وطَبْعُه الحاقِدُ سببًا لِهَيْمِ شَمْسٍ عَلَى وَجْهِه أو قَتْلِه ؟ - أَلا يكونُ حُكْمُ بعض المفكّرين وآراؤهم، المصحوبةُ أحيانًا بِالأَهواء وعَدَمِ الإنصاف، مع مُضَيّ [٦] قُرونٍ، متطابقةً معَ الواقع في شَأْن هذه القضيّة؟ - هَلْ صارَ النّقصُ في الإحساسِ والعواطفِ، والتشدّدُ الفكريّ في مُحيطِ قُونِيةَ، سببًا لانفجارٍ رُوحيّ في حَياةِ مَوْلانا؟

ومِنْ دُونِ أَنْ أَعُدَّ نفسي، لا قدّرَ الله، أَفضلَ وأَسْمَى مِن الباحثينَ الآخَرين، أو لَدَيّ جُرأةٌ أكثَرُ عَلَى رَدّ انتقاداتهم في هذا المجال، أَعتقِدُ أَنّني طِبْقًا لِذَوقي الشّخصيّ، الذي ربّما يكونُ تقليديًّا في مصطَلَحِ أَهْلِ عَصْرِنا، وهو يقينًا تقليديٌّ رَحْبٌ وخالٍ مِن أيّ نَوْعٍ مِن التّفكير الجَزْميّ، أُبيّنُ بالكِناية، ورُبّما بِلَا لَوْنٍ وبِلَا عَلامةٍ، أَخطاءَ الأَحْكامِ التي أُصْدِرَتْ في شَأْن لِقاءِ رجُلَي وادي العِلْم والعِرْفان الكبيرَيْنِ، وأُوَجّهُها عَلى نَحْوٍ تكونُ فيه معتَمَدةً وقابلةً لِلتأمّل.

وأَعتقدُ أنّ كثيرينَ مِن الباحثينَ أيضًا، مَثَلُهم كَمَثَلِ جَماعةِ المنتقِدِينَ، مُنْجَذِبون وغَيرُ مَصونينَ مِن الخطَأ، وفي رَأْيي أنّهم لم يَدْرسوا تَمامَ نُبوغِ شَمْسٍ وكلامِه بِعَقْلانيّةٍ وحِيادٍ، أو نَسُوا ثقافةَ شَمْسٍ وفِكْرَه في مُحيطٍ اجتماعيّ مُظْلِمٍ، في القَرْن السّابع الهجريّ، أو لم يهتمُّوا بهما، ولم يَعُدّوا شَمْسًا في مَنزلةِ عارِفٍ بَصيرٍ مُطّلِعٍ وهائمٍ بِالعِشْقِ والحقيقة، أو انطباعيًّا impressionist بتعَبيرِ أَهْلِ عَصْرِنا، وفي مَقامِ منتقِدٍ جادّ لِلْعُلَماء والعارفينَ والمؤرّخين الذين سَبَقوه. وكانَ يَرَى نفسَه شَبيهًا بـ«بروتيوس Proteus»(*) الذي يظهَرُ في كلّ زَمانٍ ومكانٍ مِن دُونِ أَنْ يتّخذَ لِنفسِه سِيماءَ مُشَخِّصةً، وكان يمضي مِن مكانٍ إلى آخَرَ غيرَ مهتمٍّ بالمنزلةِ والجاهِ والتميّز، مُنْشغِلًا باصْطِيادِ أَصْحابِ الفِكْرِ النّفّاذ

---

*-مِن آلهةِ البَحْر في الأساطير اليونانيّة القديمة، أعطاها أبوها - خالِقُ البحار - موهبةَ التّنبُّؤ وتغيير مَلامح الوجه [الأصل].

والشّكّاكينَ الذين يفتّشونَ وَحِيدينَ ضائعين عن حياتهم، لَيْسَ في العِلْم المَدرسيّ ولَيْسَ في قَوانينِ العَقْلِ الجزئي، بَلْ في مكانٍ آخَرَ، ويتابعونَ ذلكَ بِاشْتياق.

ومعَ أنّ شَمْسًا كانَ يعْلَمُ أنّ لَدَيه مُهِمّةً وربّما رسالةً خطيرةً في قُونِيَةَ، ويمكنُ أَنْ يقَعَ في شَرَكِ الخطَر، خاطَرَ مِن دُونِ مُبالاةٍ واهتمام ولم يُعْطِ أهمّيّةً لذلكَ. ومِن خِلالِ لِقاءٍ واحِدٍ قصيرِ الأَمَد وُفّقَ إلى مَعْرفةٍ دقيقةٍ للشّخصيّةِ الدّاخليّةِ لِجَلالِ الدّين، الذي كانَ يبحَثُ عنه كمَنْ يَبحَثُ عن العَنْقاء والكِيمياء. وحِينَ اطْمَأنَّ إلى رُؤيته الذّاتيّة وعِرْفانِه، مثْلَما يزعُمُ في كتابه «المقالات» أنّه شاهدَ آثارًا مِن التجلّي ومَيْلًا متعاليًا إلى إدراكِ الحقيقةِ [٧] والمعرفةِ في كَلامِ جَلالِ الدّين وباطِنِه، ظهَرَ له تمامًا أنّه أَسِيرٌ، أو يعاني في قَيدِ تَوْقٍ إلى مِثالٍ صوفيّ كان يَفْصِلُه عنِ الإِثْبات الواقعيّ... ولكنّه استيقَنَ أنّه يستطيعُ في أمَدٍ قَصيرٍ أَنْ يصطادَه(١) ويُوقِعَه في شَرَكه. كانَ شَمْسٌ عارِفًا، لَدَيه، باعترافِه هو، هَدَفٌ واحِدٌ. كانَ هدَفُه التّغنّي بالعِشْق وتَبيينه لِأَصحابِ النّظَر المشتاقين، وكانَ عِشْقًا للنّاس، وعِشْقًا لِلْموسيقا، وعِشْقًا للعِرْفان. ولَعَلّ مَوْلانا كانَ كذلك أيضًا، وقد بقي أيضًا مدّةً طويلةً مِثْلَ أحمد الغَزالي يشكّكُ بِكُلّ شَيء، ولم يَكُنْ يطلُبُ العِيانيّةَ العِلْميّة والتّجْريب، بَلْ كان يَنشُد بِطَريق معرفة عالَم الباطن أَنْ يَصِل شيئًا فشيئًا إلى حَيثُ لا يَرَى سِوى الله. سأَلَ شَمْسٌ مَوْلانا في الخَلْوة بِهدوء:

عَمَّ تَبحثُ؟ ـ عن منزلةٍ ومَنصِب عالٍ أم عن إدراكِ الحقيقة؟

فيُجيبُ مَوْلانا، أستاذُ دارِ العِلْم في قُونِيَةَ:

١ـ في الدّيوان الكبير لمولانا جاءَ في هذا الشأن ما يأتي:

أَنتَ صَيْدي، يا حبيبي، ومعَ أنّكَ تحرّرتَ من الشَّرَك عُدْ مِنْ جَديدٍ إلى الشَّرَك، وإنْ لم تَعُدْ فسَأَطردُكَ

ـ عن عِلّة خَلْق الكائناتِ والنّاس! لَيْسَ مِن طَريق العِلْم، بَلْ..

قطَعَ شَمْسٌ فورًا كلامَ مَوْلانا، وسَألَ:

ـ هَلْ قَرأتَ الحديثَ: «كُنتُ كَنزًا مَخْفيًّا فأَحْببتُ أَنْ أُعرفَ..» على سَبيلِ الإخلاص؟

ـ نَعَمْ، قَرأتُ، ولكنّني إلى الآنَ لَمْ أظفَرْ مِن شجرة المعرفة بِثَمرةٍ، لَعلّني أكونُ في مُنعطَفِ أوّلِ حَيٍّ مِن أَحْياء معرفةِ النّفس.

ـ أَتعرفُ ثمرةَ المعرفة ما هيَ؟ ـ يَسْكتُ مَوْلانا. دَعْني أَبيّنْ لك؛ لأنّ لديكَ تعلّقًا وإصرارًا وأملًا بِلِقاء الحقيقة... إنّ معرفةَ الحقّ وتجلّي الحقّ يَتيسّرانِ بِمَدَد العِشْق. والحِكْمةُ في خَلْق العالَم وآدمَ أَساسُها العِشْقُ. العِشْقُ في عَقيدةِ العارفين مثْلُ الرّوح، مِن عالَم الأَمْر؛ وبينَ الرّوحِ والعِشْق فيما أَرى ارتباطٌ مَعْنويٌّ ومَلَكوتيّ... العِشْقُ هو الذي يَربِط بينَ التُّرابِ والأَفْلاك، بينَ اللّاهوت والنّاسُوت؛ والبَشَرُ مَزيجٌ من اللّاهوت والنّاسُوت.

يَسْكتُ شَمْسٌ لِكَي يَرى ماذا تَركَ كلامُه مِن آثارٍ في أُستاذ جامِع قُونِيةَ. كانَ يَرى في عَيَني مَوْلانا وَجْدًا مصحوبًا باشتياقٍ إلى مواصلة هذا البَحْث المنعِش للرّوح. كانَ يريدُ أن يدركَ مفهومَ العِشقِ أكثرَ؛ كانَ في انتظار اسْتِمْرار [٨] كلام الأستاذ. وكأنّ شَمْسًا، اعتمادًا على البُعْد الإيهاميّ لِلْعِشْق، لم يكُنْ يُريدُ، أو لم يرَ مُصْلحةً في، أَنْ يزيدَ في إيضاح هذه الأُسْطورة القُدْسيّة والرّوحانيّة في تِلكَ اللّحَظات.

سَألَ شَمْسٌ مَوْلانا:

ـ أَتعرِفُ شِهابَ الدّين السُّهْرَوَرْديّ؟ ـ معَ أنّ عقْلَه كانَ أقلَّ مِن عِلْمه، كانَ يعتقدُ في مجالِ الاتّصالِ بينَ العِشْق والمعرفة، متأثّرًا بِأَقوالِ سُقْراطَ في رِسالة «المأدُبة» وشيءٍ

مِن آثار أَفلاطونَ، أنّه:

«عِنْدَما تَبلغُ المحبّةُ الغايةَ تُسمّى العِشْقَ، والعِشْقُ أَخصُّ مِن المحبّة؛ لِأَنّ كلّ عِشْقٍ محبّة، وليس كلُّ محبّة عشقًا. فالدّرجةُ الأولى هي المعرفةُ، والدّرجةُ الثانيةُ هي المحبّةُ، والدّرجةُ الثالثةُ هي العِشْقُ؛ ولا يُمكِنُ الوصولُ إلى عالَمِ العِشْق الذي هو فوقَ الجميع إلّا بعْدَ اجتيازِ دَرجَتَي المعرفةِ والمحبّة»[١].

وإذا كانَ الشِّبْلِيُّ صاحَ وقالَ: «لَيْسَ في جُبّتي إلّا اللهُ»، وكانَ حُسَينُ بنُ منصورٍ الحلّاجُ البَيْضاويُّ يصرُخُ ويَقرَعُ طَبْلَ «أَنا الحقُّ»، فقد كانَ ذلكَ بسبب تصوّرِهما أنّ البشَرَ مرآةٌ للحَقّ، وكانا ـ على الحقيقة ـ يعتقدانِ أنّ الحقَّ يريدُ أَنْ يَرى الإلهيَّ في البشَرِيّ، ومِن هذه الوجْهةِ خلَقَ الإنسانَ لِيكونَ مرآةَ جَماله. ومَا أجملَ ما قالَ الشّيخُ فَريدُ الدّين العطّار في هذا المعنى:

خلَقَنا الحَقُّ عَلَى صُورَتِه فأَخذَ وَصْفُنا مِن وَصْفِهِ السَّبْقَ
فكلُّ ما يظهرُ فيه هو صُورتُه مِثْلَما تظهرُ صورةُ القَمَرِ في ماءِ النّهْر

وإنّ لِلْعِشْق تأثيرًا فعّالًا وخَلّاقًا في مجالاتِ حَياةِ البشَر كلّها؛ في عالَم المعرفة وفي الطبّ وفي عالَم الموسيقا. وعِنْدَ عَيْنِ القُضاة، شَهيدِ طَريقِ العِشْق، أنّ العِشْقَ صِفةٌ للرّوح، وأنّ العِشْقَ والرّوحَ خُلِقا في لَحظةٍ واحدة. وإذا كان العِشْقُ خاصِّيّةً للرّوح فمَرْجِعُ ذلك أنّه في الأَصْلِ صِفةٌ للذّات أو صفةٌ لِلْحقّ؛ ومِن هذه الوِجْهة تقولُ جمهرةُ مشايخ التصوّف والعِرْفان: «ظَنَنتُ أنّني أنا الذي كُنتُ أُحِبّه، وعِنْدَما تأمّلتُ أَدركْتُ أنّ محبّتَه

---

١ ـ مجموعةُ الآثارِ الفارسيّة للشّيخ شهاب الدّين السُّهْرَوَرْدِيّ (طهران، بعناية د. سيّد حسين نصر وهنري كوربن، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧).

إيّاي كانَتْ سابقةً». وقد قالَ عَينُ القُضاة في كتاب اللّوائح: «إنْ كانَ لِأَحَدٍ طَريقٌ إليه، فذلكَ بِتَجسُّسِ العِشْق؛ المعشوقُ مَلِكٌ، والرّوحُ مَرْكَبٌ، والعِشْقُ صاحبُ الرّكاب».[1]

وكُلّما ازدادَ الإنسانُ عِشْقًا لِلْحقيقة وعَرَفَ خالقَ الكائنات على نَحْوٍ أفضلَ وأكثَرَ عِشْقًا، [٩] ازدادَتْ محبّةُ الله [تعالى] إيّاه؛ لِأنَّ المحبّةَ ثمَرةُ المعرفة، وكُلُّ مَنْ لا يحبّه اللهُ لا يحبُّه لِأَنّه ما عرَفَه تعالى».

وبِالقُدْرة السِّحْريّة لِلْعِشْق غيّرَ شَمْسٌ مَوْلانا، جعَلَه مضطربًا مشتّتَ الذّهن، تَوّاقًا لِلقاءِ المعشوق، لا يعرِفُ اللّيلَ مِن النّهار ولا النّهارَ مِن اللّيل؛ ولهذا السّبب كتبَ [مَوْلانا] بعد لِقائِه شَمْسًا في كتابه «فِيهِ ما فِيهِ»:

«ما يتّجهُ إلى الحقّ تعالى يكونُ له وجودٌ مَجازيٌّ ظِلّيّ، ويُمكِنُ في هذا العالَم المحدود، بِشُعاع العِشْق، أَنْ يُوصِلَ إلى فضاءِ الحقيقةِ الذي لا نهايةَ له».

لِنَعُدْ إلى أساس القضيّة:

يقطَعُ مَوْلانا كلامَ شَمْسٍ ويَسأَلُ: قُل لي: ماذا نالَ مِن معرفة العِشْق أَشْخاصٌ مِثْلُ الحلّاج والإمامِ أحمد الغزاليّ وسَنائي والسُّهْرَوَرْدِيّ والشّيخ العَطّار وعَيْنِ القُضاة الهمذانيّ؟ وإنّ كتابَ «اللَّوائح» لِعَيْن القُضاةِ هو كتابٌ في العِشْق. ويقولُ حُجّةُ الإسلام محمّدٌ الغَزاليّ، الذي كانَ مُرادَ عَينِ القُضاة ومعشوقَه، في كتاب «سَوانِح العُشّاق»:

حِينًا يكونُ العِشْقُ جوهرَ مَنْجَمٍ، وروحَ المَنْجَم، لِكَي يغدُوَ هو جوهرًا رائعًا ومَنْجَمًا عظيمًا؛ وحِينًا يكونُ شَمْسًا في سَماء الرّوحِ لِكي يتلَألأَ أكثر، وحِينًا يكونُ شِهابًا في هواءِ الرّوح لكي يحترقَ أكثرَ، وحِينًا يكونُ سَرْجًا فوقَ جَوادِ الرّوح لكي يعتليَهُ الرّوحُ.

---

١ ـ لوائح، تحقيق رحيم فرمنش، ص ١٣٤.

ويَسأَلُ مَوْلانا شَمْسًا: في مُعجَمِ الأساطير والعِرْفان الإيرانيّ، كيف عُرِّف العِشْقُ؟

فيُجيبُ شَمْسٌ على هذا النَّحْو:

ـ في مُعجَم الخَلْق، بِقَدْر ما تَرامى إلى سَمْعي، اسْمُ الملَكِ الموكَّلِ بِالعِشْق ميترا أو مِهْر، وهو أَمرٌ يصدِّقُه السُّهْرَوَرْدِيُّ شَيخُ الإشراق، وهذا العِشْقُ مُوجِدٌ للارتباطِ بينَ الخَلْق وقُوى الخير. ولاشكّ في أنّ العِشْقَ في أَساطيرِ إيرانَ القديمةِ يختلفُ كثيرًا عن مفهوم إيروس Eros، إله الحبّ عِنْدَ الإغريق. وفي المعْجَم العِرْفانيّ في إيرانَ القديمةِ جاءَ أنّ خَلْقَ العالَمِ وآدمَ سَببُه العِشْقُ والوَحْدةُ؛ ولِلْعِشْقِ منزلةٌ خاصّةٌ لدى الكائنات جميعًا، وهو أساسُ الوجود. وعنْدَ شَيخِ هَراةَ عبد الله الأَنصارِيّ أنّ «الطّريقَ إلى الحبيب حَلْقةٌ يَخرجُ مِنها ويعودُ إليها»[1]. وقد جِئتُ لِأوضحَ لكَ هذه الحقيقةَ إذا شئتَ أَنْ تدركَ الحقيقةَ أو تَلْمسَها فابدَأْ بالسَّماع؛ ذلكَ لِأَنّ بُذورَ كثيرٍ مِن الحقائقِ تُشاهَدُ في السَّماع، وأنا وأنتَ [١٠] والنّاسُ خُلِقْنا مِن أَجْلِ العِشْق.

كانَ مَوْلانا يريدُ مِن شَمْسٍ مَزيدَ بَيانٍ لحقيقةِ السَّماع، وكانَ شَمْسٌ يقولُ: إنّ محمّدًا الغزاليَّ، أخا الإمامِ الغزاليّ، كتبَ في كتاب «**بَحْر الحقيقة**» قائلًا:

«إنّ حقيقةَ السَّماعِ هي الاستماعُ لِخِطاب «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» في يوم الميثاق؛ بمَعْنى أنّ العارفَ في حَالةِ الوَجْدِ والسَّماع يَسْمعُ صَدَى «أَلَسْتُ»، ويقتربُ مِن عهد محبّة الحقّ. وفي هذا السّفرِ المكتنَفِ بِالأَسْرار، كلّما رَأى العاشقُ في عالَم التّراب إشارةً، ـ كالطُّرّةِ والضَّفيرة والخدّ والخال والحاجب، تذكّرَ المعشوقَ، وتذكّرَ وجودَه؛ فغايةُ السَّماعِ إذًا تذكُّرُ المعشوق؛ بِمَعْنى أنّ السَّماعَ يحيي في وجودِ العاشِقِ حالًا كانَ

---

١ ـ سخنان پير هرات، بعناية محمّد جواد شريعت، طهران ١٣٥٦، ص ١٧٥.

الرّوحُ قد جَرّبَها في عالَم الباطن، أي يَسْمعُ صَدَى عالَم اللّاهوت في النّاسُوت.(١)

وبعْدَئذٍ أَضافَ شَمْسٌ، وقد حَمْلَق في عَينَي جَلالِ الدّين المندهشَتَين، قائلًا:

«أَتعْلَمُ أنّ تَجلّيَ الحقّ ورُؤيتَه يزدادانِ عِنْدَ الرّجالِ في أَثْناء السَّماعِ، ففي تلكَ اللّحظات يَخْرجونَ مِن عالَم وجودِهِم(٢).

يخرجُهم السَّماعُ مِن العَوالمِ الأُخرى ويصِلُهم بالحقّ... وإِنْ كانَ لِصاحِبِ سَماعٍ في المشْرِقِ سَماعٌ، كانَ لِصاحِبِ سَماعٍ آخَرَ في المغْرِبِ سَماعٌ أيضًا، ويكونُ لدى كلّ منهما عِلْمٌ بِحَالِ الآخَر.

وفي رسالةِ سِپَهْسالار ذُكِر في هذا الشّأنِ ما يأتي

لم يَكُنْ مَوْلانا يُجري السَّماعَ أبدًا، وعِنْدَما رأى حَضْرةَ مَوْلانا سُلطانَ المحبوبين، مَوْلانا شَمْسَ الحقّ والدّين التَّبريزيَّ بِعَيْن البصيرةِ، امتثلَ بناءً على إشارةٍ منه، وبدَأَ بِإجْراء السَّماع، واستمرّ عَلَى هذا إلى آخِر عُمُره، وجعل ذلكَ طَريقةً ورَسْمًا.

وكتَبَ سُلْطانُ ولَد أيضًا، وأيّدَ وِجْهةَ نَظَرَ سِپَهْسالار هكذا

كانَ بتأثير اتّصالِهِ بِشَمْسِ الدّين مِنْ أَعْماقِ القَلْب

أَسْبَقَ في الطّاعةِ مِنَ الأيّامِ واللّيالي

[١١] وعَلَى امتدادِ السّنينَ والأَشْهر، ظلَّ ذلكَ المليكُ

مُنْشَغِلًا بِالعُلومِ والزُّهْد والدّين

---

١ ـ يقولُ عبدُ الرحمن جامي في كتاب «اللّوامع» «إذا ظهَرَ شُعاعٌ مِن نُورِ جَمال الحقّ في صُورةِ معشوقٍ موزونِ الشّمائل فإنّه شَبيهٌ بالرّائحة مِن حانة العِشْق الحقيقيّ. وإنّ محبّةَ الآثارِ في منزلة شُعاعٍ مِن شَمْسِ محبّة الذّات؛ فإذا لم تشتمَّ هذه الرّائحةَ فلَنْ تصِلَ إلى هذه الحانة، وإذا لم تظفَرْ بهذا الشُّعاعِ فلَنْ تظفرَ مِن هذه الشَّمسِ بنصيب» [الأصل].

٢ ـ مقالات شَمْس بعناية الدكتور موحّد، ص ٧٢ ـ ٧٣.

وعِنْـــــــدَما دَعـــــــاه شَـــــــمْسُ الـــــدّين
إلـى الـسَّماعِ الـذي كـانَ اختـارَه قَبْـلَ معرفتِـه
صـــارَ الـــسَّماعُ لَـــهُ مَـــذْهبًا، واعتقـــادًا صَـــحِيحًا
ومِـــنَ الـسَّماعِ فمـا في قَلْبِـه مِئـةُ بُـسْتان

نعَمْ، كان شَمْسٌ التَّبريزيّ رَجُلَ عِشْقٍ وحقيقة، وفي الرّواياتِ أنّه استطاعَ في مدّةٍ أقلّ مِن ثلاثةِ أَشْهرٍ أَنْ يصْنعَ مِن الفقيهِ والمُدَرّسِ غيرِ المنازَعِ في الرّوم الشّرقيّة عاشقًا ثائرًا وراقصًا، وينقلَه مِن منْصِب التّدريسِ والوَعْظ إلى حَلَقات المغنّين والمنْشِدين؛ وفي هذا الشّأن يعترفُ مَوْلانا:

كـانَ المـصْحَفُ في يَـدِي دائمًـا — وفي العِـشْق أَمْـسكْتُ بالـصَّغانة(*)
وفي الفَـمِ الـذي كـانَ فيـه التّسْبيحُ — شِـــعرٌ ورُبـــاعيٌّ ونَـــشِيد

وكانَتِ التّجَلّياتُ السّحْريّةُ المثيرةُ للاعتبارِ في مَلامِحِ شَمْسٍ تبدو باعثةً عَلَى الدّهشة ومؤثّرةً، ووَفقًا لِروايةِ الأَفْلاكيّ قالَ مَوْلانا لِشَمْسٍ يومًا: «منذُ أَنْ عرفتُكَ صارَتْ هذه الكتبُ في نظَري غَثّةً باردةً». وقد بيّنَ الأستاذُ الدّكتور مُوحِّد في المقدّمة التي كتَبَها لِكتاب «مَقالات شَمْس» أنّ القراءةَ الدّقيقة لِآثارِ مَوْلانا تُطْلِعُنا عَلَى دَورتَيْن في حياته، جاءتا على هذا النّحْو:

«منذُ أَنْ دخلَ شَمْسٌ قُونِيةَ[1] إلى الزّمانِ الذي قُطِعَ فيه بِوَفاته، أَفْنَى مَوْلانا نفسَه في

* ـ آلة موسيقيّة، وهذه الكلمة تعريبٌ للفارسيّة «چغانه» [المترجم].

١ ـ جاء شَمْسٌ التّبْريزيُّ إلى قُونِيةَ في سنة ٦٤٢هـ في السّادس والعشرين من جُمادَى الثانية، وأقامَ فيها ملازِمًا جلالَ الدّين لمدّة ستّةَ عشَرَ شهرًا؛ وفي الحادي والعشرين من شَهْر شوّال سنة ٦٤٣هـ تركَ قُونِيةَ، ثمّ مرّةً أخرى رجَعَ إلى قُونِيةَ بطَلبٍ مِن مولانا في سنة ٦٤٤هـ وتذهَبُ روايةٌ إلى أنّه قُتِلَ في سنة ٦٤٥هـ، وتقولُ روايةٌ أخرى إنّه تركَ المدينةَ ليلًا [المؤلّف].

شَمْسٍ، ومنذُ ذلكَ الأَوانِ دمَجَ شَمْسًا بِنفسِه[١]. وإِنّ غزَليّاتِ شَمْسٍ هي انعكاسٌ للدَّورة الأُولى، إِذْ شَمْسٌ كلُّ شَيءٍ ومَوْلانا لا شيءٌ، وإِنْ كانَ مَوْلانا موجودًا فقد كانَ كالظّلّ وراءَ الشّمْس، بَلْ كخَروفِ العِيد[٢] في عِيد الأَضْحى، الذي يُتبرَّكُ بفِدائه وفَنائه. وقد وصَلَ فَناءُ مَوْلانا في شَمْسٍ في هذه المرحلة إلى مَدًى يرى فيه نفسَه في شُعاعِ خَيالِ شَمْسٍ وفِكْره، وكُلُّ ما يقولُه مَوْلانا كان يَنسُبه إلى شَمْسٍ

[١٢] لِأَنّنـي مُنـدَهِشٌ مِـن لِقائِـكَ وَمِثْـلُ خيـالٍ مِـن خَيالاتِـكَ
فإنّ فِكْـري وتَـصَوُّري مِـن أَنفاسِـكَ كَـأَنّني أَلْفاظُـكَ وعِباراتُـكَ

أمّا المثنويُّ فعاكِسٌ للدّورة الثانية مِن حياة مَوْلانا.

وفي الأَسْطُرِ السّابقة قُلتُ إنّه لو لم يكُنْ جَلالُ الدّين قد سَمِعَ فلسفةَ العِشْق مِن لسان شَمْس لَمَا صارَ راقِصًا ومُنْشِدًا للغزَليّات، وحمَلَه العِشْقُ على الصّياح وأَلْقَى في رُوعه تلقينَ الشّعر[٣]. وإذا أرادَ مَوْلانا أَنْ يصِفَ العشْقَ أو يعرّفَه فلابدّ له مِن أَنْ ينظِمَ أو يكتبَ ما كانَ قد سَمِعَه في شأن هذه المقولةِ مِن شَمْسٍ في الخَلْوة.

والعِشْقُ الذي تحدّثَ عنه شَمْسٌ ومَوْلانا مِرارًا لَيْسَ مُستمَدًّا مِن فِكَر الآخَرين، خاصّةً أفلاطون في أَثَره المُسَمّى «المأدُبة»، بَلْ مِن مَقُولاتٍ جديدة وبديعة. ومِن خاصّيّاتِ فِكَر مَوْلانا الصّافية في شَأن العِشْقَ أنّ العِشْق في ذاته خلّاق، محيطٌ لا يهدَأ خرَجَ من كانون نُورِ أَنوارِ الحقيقة ويسير إليه أيضًا. وقد جاءَ في الكتاب الخامس مِن «المثْنَوِيّ» قولُه

١ـ شَمْسُ تَبْريزَ الذي امتلأتِ مِنه نُورًا دُرْتُ في كُلّ ناحيةٍ كالظلّ وراءَه
٢ـ شمسُ التّبريزيُّ هو العِيدُ الأكبرُ وصِرْتُ أنا القُربانَ الأعظمَ لِلْعيد
٣ـ يا مَنْ تُلقّنُني الشّعرَ في قَلْبِ رُوحي إِنْ صَمَتُّ، وسَكتُّ، خَشِيتُ أَنْ أَعْصيَ الأَمْرَ

العِـــشْقُ بَحْـــرٌ والـــسّماءُ فوقَـــه زَبَـــدٌ

مِثْـــــلُ زَلِيخـــا في هَـــوَى يُوسُـــفَ

فـاعلَمْ أنّ دَوَرانَ الأَفْـلاكِ مِـن مَـوْجِ العِـشْق

ولَـوْ لـم يُوجَـدِ العِـشْقُ لَتَجمّـدَ العـالَم

وعِنْدما يجرِّب كَراماتِ العِشْق يتمسَّكُ بِأَذْيالِ العِشْق، ثمّ عَلَى نَحْوٍ مفاجِئ يدوّي في باطِنِ وجودِه هاتفٌ أو نداءٌ يضطرّه إلى أَنْ يرفعَ صوتَه ويقولَ:

يقتَلِـعُ مِخْلَـبُ العِـشْقِ مِـنَ الجُـذور

كُـلَّ منـزلٍ دخلَـه ضِـياءُ شَـمْسِ العِـشْق

وعِنْدَما رَأى قَلْبي بَحْرَ العِشْقِ عَلَى حِينِ غِرّةٍ

وَثَـبَ مِنّـي إليـهِ وقَـالَ: حَـصِّلْني[1]

وعِنْـدَما صـارَ أَميـرُ الحانَـةِ نَـدِيمًا لِقَلْبـي

صَارَ دَمي شَرابًا مِنَ العِشْقِ، وصَارَ قَلْبي كَبابًا

ويعترفُ مَوْلانا أيضًا، مثلُه في ذلكَ مَثَلُ عددٍ مِن العارِفينَ الذين سَبقُوه، بِتضادِّ العَقْلِ والعِشْق، ووَفْقًا لِمَا يقول الدّكتُر خَليفة عبد الحكيم: «يَرى مَوْلانا أنّ العقلَ الجُزْئيَّ، الذي يَعُدُّ نفسَه بفَخْرٍ عقلًا عِلْميًّا وقادِرًا على إيضاحِ الحوادِث كلّها وعَلَى حَلّ مُعمَّيات العالَم، عنْدَما يواجَهُ بِشُهودِ [١٣] الحياةِ والعِشق يعجِزُ ويَكِلّ..»[2] وقد قرَأْنا في المثْنَوِيّ:

---

١ ـ يعني تعبيرُ «حَصّلْني»: لَنْ تستطيعَ اللّحاقَ بي، كقَطْرةٍ تَوارَتْ في المحيط»، مقدّمة كتاب «الرّوميّ وتفسير المثنويّ» لنيكلسون، ترجمة أوانسيان.

٢ـ مِن المجلّد الثاني مِن كتاب «تاريخ الإسلام»، مقال للدّكتُر خليفة عبد الحكيم، تحتَ عنوان: «مولانا جلال الدّين الرّومي»، ص ٣٤٤.

العَقْلُ الجُزْئيُّ لَيْسَ عَقْلَ استنباطٍ
ومَا هو إلّا قابِلٌ لِلْفَنّ ومحتاجٌ إلى التّعليم
ويكونُ العَقْلُ الجُزْئيُّ مُنْكِرًا لِلْعِشْق
مع أنّهُ يَظْهَرُ صاحِبَ سِرّ

ويصْمُتُ مَوْلانا عن تعريفٍ أكثرَ لِلْعقل الجُزْئيّ، ويأسَفُ لِعَجْز الكلامِ عن وَصْفٍ أكثرَ له في مُقابِلِ العِشْق، ويمضي إلى القَول:

فماذا يكونُ العِشْقُ إذًا، إنّه بَحْرُ العَدَم
وقد كَسَرتِ العقلَ هنا القَدَمُ
ولَيْتَ الوجودَ كانَ لَدَيهِ لِسان
لِكَي يزيحَ الحُجُبَ عن الموجوداتِ والأعْيان

وإنّ سِحْرَ العِشْق أَقْدرُ مِن العقل الجزئيّ على تَقريب الإنسانِ المعتقِدِ والمخْلِص والعاشقِ إلى الشُّهود الكَوْنيّ؛ لِأَنّ العِشْقَ يُزيلُ الحجبَ:

إذا كانَ سَقْفُ البيتِ حِجابًا لِجَمالِ الشَّمْس
فأَزِلْ هذا السّقْفَ سَريعًا بِمِعْوَلِ عِشْقِ الحقّ

ويعتقدُ مَوْلانا أنّه لا تفاوتَ أبدًا بينَ العِشْقِ الكُلّيّ والعَقْلِ الكُلّيّ؛ مِن وِجْهة أنّه لا يمكن اعتبارُ هذا الشّهودِ أو الإحساسِ الكَوْنيّ قَرينًا أو مُطابقًا للإحساسِ الجسمانيّ النّفسانيّ واللّذّةِ والألَم؛ فالعِشْقُ ينتمي إلى مَقُولةٍ أخرى، ولا يعترفُ بِسيماءَ خاصّة لِلْمحبوب[1]:

---

١ ـ مِن كتاب «عِرفان مولوى»، تأليف د. خليفة عبد الحكيم، ترجمة أحمد محمّدي، ص ٦٠.

الـــصّورةُ لَيْـــسَتْ هـــي المعـــشوقَ

سَـــواءٌ أكـــانَ العِـــشْقُ دُنْيَوِيًّـــا أم أُخْرَوِيًّـــا

العِـــشْقُ أَسْـــمَى مِـــن هـــاتَين الحـــالتَين

وهـو أَخـضَرُ وطَـرِيٌّ مِـن دُونِ ربيـعٍ وخَريـف

وإنّ جَيَــشَانَنا لَــيْسَ مِــن الغَــمّ والــسُّرور

ولا يَكــونُ عقْلُنــا رفيقًــا لِلْخَيــالِ والــوَهْم

إنّـــــهُ حالـــــةٌ أُخْـــــرى نـــــادرةٌ

فــلا تُنكِــرْ ذلــكَ؛ لِأَنّ اللهَ قــادرٌ جــدًّا(١)

ويذكُرُ مَوْلانا أنّ هذا الإحساسَ الكَوْنيَّ، لَدَيه، هو حقيقةُ الدّينِ وعُصارتُه. وإنّ شَمْسًا التَّبريزيّ في رِحلته الأُولى التي أقامَ فيها مدّة ستّةَ عشَرَ شهرًا في قُونِيةَ، وأَضْحى مبلِّغًا قويًّا ومندفعًا للعِشْق، سلّمَ جلالَ الدّين مفتاحًا لِكَشْف لُغْزِ الرّوح الذي هو العِشْقُ، مفتاحٌ يرفعُ به الحجُبَ عن أَسْرارِ ماهيّةِ الوجود ودقائقِ الكائنات قدْرَ المستطاع والمُيسَّر. وهذا مبعثُ أَنّ جلالَ الدّين يَعُدّ الضّيفَ التَّبريزيَّ، المدْعُوَّ أو الطُّفَيليَّ، «مَفْخَرَ الآفاق» و«الرّوحَ المُصَوَّر» و«بَحْرَ الرّحمة»، و«شَمْعَ الأَفْلاك التِّسعة» [١٤] و«مَوْلَى موالي الأَسْرار»، ويُنشِد:

في لَحظـةٍ تختـلِطُ بِـالتّرابِ وَفـاءً، وفي لَحظـةٍ

تجتــازُ العَــرْشَ والفَــرْش وحُــدودَ الكــونَينْ

العُقـــولُ والعُلـــومُ كلُّهـــا نُجـــومٌ

وأنــتَ شَــمْسُ الــدّنيا التــي تمــزّقُ الحُجَــب

---

١ ـ المثنوي ٧٠٣/٢، ١٧٩٤/١، ١٨٠٣ ـ ١٨٠٤.

مَـنْ أَنـا، قُـلْ، أَنـا المـسكينُ الـذي أَبْقـى معَـكَ

أَفْنـى أَنـا، ومئـةُ أَنـا، فلِمـاذا تنظـرُ إلـيّ؟

وإنّ النّعـتَ الكامِـلَ لِلْمَـولَى شَـمْسِ التَّبريـزيّ

تَجـاوزَ أَوْهـامَ الجَبْـريِّينَ والقَـدَريّينَ

ويقولُ الأستاذُ جلالُ الدّين هُمائي:

«كُلُّ هذا التّحرُّقِ والذّوبانِ الذي أَحاطَ بِأَقوالِ مَوْلانا وغَمَرَها، ويُعطي لِكُلّ إنسانٍ بِقَدْر ذَوْقِه واستعدادِه تحرّقًا ووَجْدًا، هو أَثرٌ مِن آثار عَيْنِ تَحرُّقِ العِشْقِ والمحبّة وحرارتِهما الدّاخليّة وثَورتِهما ونشاطهما، التي رَسَختْ في أَعْماقِ رُوحِه ولم تنفصِلْ عنه لَحظةً واحدةً حتّى آخِر عُمُره، الذي امتدّ إلى نهاية نَظْمِ المثْنَويّ»[١].

ولَيْتَ الأستاذَ أضافَ: أنّ هذا الحالَ وهذا الاهتياجَ وهذا التّحرُّقَ، التي غدَتْ أساسًا لِجَيَشانِ الطَّبْعِ ولإيجادِ مَطالِبَ عِرْفانيّةٍ جديدة، كانَتْ نِتاجًا لِبلاغة شَمْسِ التَّبريزيّ وعِرْفانِه، وهو الذي أَمسَكَ بِيَدِ مَوْلانا، وبِتَعْريفِه العِشْقَ قادَه إلى مِعْراج الحقائق، وقالَ لَهُ: إنّ الإنسانَ هو مَجْلَى اللّاهُوتِ في النّاسُوت، ومظْهَرُ الرّبوبيّةِ في رِداء البَشَريّة، ومَكانُ سُجُودِ اللّامكانِ في المكان[٢].

وفي شَأْنِ جاذِبيّةِ العِشْقِ والمحبّةِ والسَّيرِ إلى المقْصِد الأعلى، ذَكَر شَمْسٌ

---

١ ـ مولوى نامه، تأليف الأستاذ جلال الدّين همائي، ص ٩٧٥.

٢ ـ قالَ مولانا في خِطاب مِثْل هذا الإنسان في المثنويّ (ج ٦، ٤٥٩٧ ـ ٤٥٩٩):

يا آلافُ مِن أَمْثالِ جبريلَ موجودونَ في البَشَر — يا أَمْثالُ لِلْمَسيح مختفونَ في قَطيعٍ من الحُمُر

يا آلافَ الكعَباتِ المتواريةِ في بِيْعةٍ أو كَنيسٍ — يا مُوقِعُ لِلعِفريتِ وإبليسَ في الخطأ

أَنتَ مَوضِعُ سُجودِ اللّامـكانِ في المكان — ولِلْأَبالِسَة مِنكَ دكّانٌ خرِبٌ

التَّبريزيُّ لِمَوْلانا مطالبَ دقيقةً تذهبُ إلى أنّه لو لم يَكُنِ العِشْقُ كَوْنيًّا لَمَا كان الوجودُ، وأنّ القدرةَ الجاذِبةَ لِلْعِشْق هي وَحْدَها مُشوِّقُه ومُحَرِّكُه إلى إنشادِ الغزَليّات العِشْقِيّة الصّافية، والمشارَكةِ فِي جَلَسات السَّماع.

وفي مَجالِ «المكان» و«اللاّمَكان» و«التّلوين»[1] و«تَوْجيه السّاعة»، كشَفَ شَمْسُ الحجابَ عن كثيرٍ [١٥] مِن الأَسْرار، وقد نَظمَ مَوْلانا أَقوالَ مُرادِه [شَمْس تَبريز] وتوجيهاته شعرًا:

عِنْـدَما يكـونُ فِكْـرُكَ كُلُّـه مـشغولًا بالحـال

مُحــالٌ أَنْ يَطْــرَأَ عَلَــى ذِهْنِــكَ فِكْــرةٌ

والفِكْرةُ تكونُ منبثقةً مِن الماضي والمستقبَل،

فـإذا مـا تحـرّرْتَ مِـنْ هـذَين حُلّـتِ المـشكلةُ

والتَّلْونياتُ كلُّها ظهرَتْ مِن السّاعة [الزّمان]

وقـد نَجَـا مِـن التّلـوينِ مَـنْ نَجَـا مِـن الزّمـان

وعِنْـدَما تتحـرّرُ سَـاعةً مِـن حُكْـمِ الزّمـان

لا يبقَى كَيْفٌ، وتغـدو نَـديمًا لِمَـنْ لا كَيْـف لَـهُ

---

١ ـ يعني «التّلوينُ» تحوّلَ السّالك مِن حالٍ إلى حال؛ وفي هذا يقولُ مؤلّفُ كتاب «اللُّمَع»: «التّلوينُ عَلامةُ الحقيقة؛ لِأَنّ التّلوينَ عبارةٌ عن ظهور القادر»؛ وذكَرَ أبو القاسم القُشَيريّ في «الرّسالة القُشَيريّة»: أنّ «التّلوينَ صِفةُ أَرْبابِ الأَحْوال، والتّمكينَ صِفةُ أَهْل الحقائق؛ فما دام السّالكُ والعبدُ في الطريق فهو صاحبُ تَلْوين؛ لأنّه يترقّى مِن حالٍ إلى حال، ومن وَصْفٍ إلى وَصْفه. وفي قِصّة يُوسُفَ (عليه السّلامُ) أنّ النّسوةَ اللّائي كان حُبُّ يُوسُفَ في قلوبهنّ، بسبب كَثْرةِ اهتمامهنّ بِيوسُفَ وغَلَبةِ انشغالهنّ به، تغيّرتْ أَحْوالُهنّ حتّى صِرْنَ صواحبَ تَلْوينٍ وقطَعْنَ أَيَديَهنّ مِن دون مبالاة؛ لِأَنّ غلَبَةَ انشغالهنّ بِيوسُفَ صارَتْ سببًا لِفِقْدانهنّ الإحساسَ بأنفسهنّ» (فرهنگ لغات واصطلاحات عرفاني، الدكتور سيّد جعفر سجّادي، ص ٣٤).

فاخْرُجْ سَاعةً مِن حُكْمِ الزّمان، أيّها القَلْبُ
لِكَـيْ تتحـرّرَ مِـن «كَيْـفَ؟» ومِـنْ «لمـاذا؟»
ولا عِلْـمَ للزّمـانِ عـن «اللّازَمـان»،
لِأَنّه لا طَريقَ إلى تِلْكَ الناحيةِ سِوَى التّحَيُّر
والإِحْساسُ بِالذّاتِ مَبْعثُه تذكُّرُ ما مَضَى،
ومَاضِيكَ ومُسْتقْبَلُك هما حِجابُكَ عن الله
و«اللّامَكـانُ» الذي فيهِ نُورُ الله
مِن أَيْنَ لَهُ الماضي والمستَقْبَلُ والحال؟
وماضِيهِ ومستَقْبَلُه موجودانِ نِسْبةً إليكَ،
والاثْنانِ شيءٌ واحدٌ، وأَنتَ تَخالُهما اثْنَين
وعِنْدَما يمضي هذانِ كِلاهُما إلى اللّاعَقْل
يَغدُو الوالِدُ والمولودُ هناكَ شَيئًا واحِدًا

ويعتقدُ كثيرٌ مِن العُلَماء بِمَوْلانا، خاصّةً العارِفينَ والمشايخَ الكِبار، أنّ كلامَ شَمْسٍ وسِيماءَه يتجلّيانِ في المثْنَوِيّ كلّه، وفي كثيرٍ مِن الغَزَليّاتِ العِشْقيّة الموزونة الموقَّعة، ولكنّ جَلالَ الدّين لا يريدُ، لِأَسبابٍ معيَّنة، أن يذكُرَ اسْمَ محبوبه صريحًا. ويقولُ الدّكتُر موحِّد: «إنّ مَثْنوِيَّ مَوْلانا هو، على الحقيقة، رِوايةٌ منظومةٌ ومَشْروحةٌ لِكَلام الشّيخ التَّبريزيّ، وشَرْحٌ رَمْزيٌّ لِإنعامِه وفَضْله»[1].

كان شَمْسٌ أيضًا عارِفًا آثارَ كلامِه الشّبيهِ بِالسِّحْر، إذْ يعترفُ في كِتابه

---

١ ـ مقدّمةُ «مقالات شَمْس تَبريزيّ»، بِتحقيق الدّكتور محمّد علي موحِّد.

«مقالات شَمْس» قائلًا:

«مَنْ وَجَدَ طَرِيقًا إلى صُحْبتي عَلامتُه أنّ صُحْبةَ الآخَرينَ تغدُو عِنْدَه باردةً ومُرّةً؛ ولا تغدُو بارِدةً على نَحْوٍ يظَلُّ فيه يصْحَبُهم، بَلْ [١٦] عَلَى نَحْوٍ لا تَبقى له معَهم صُحْبةٌ».

وقد جاءَ في «مَناقب العارِفينَ» [لِلْأَفلاكيّ] أنّ مَوْلانا - في شأن تأثيرِ كَلامِ شَمْسٍ الذي يقولُ عنه:

مِـن جَـواهِرِ بَحْـرِ كَلامِـكَ الـذي لا نِهايـةَ لَـهُ

صارَ الحجَرُ عَقيقًا، وصـارَتِ الأَحْـوالُ مَلَكيّـةً

وأَحْـوالُ الكـامِلينَ الّتــي هِــيَ وراءَ الأَقْــوال

خَجِلةٌ مِن أَلَـقِ ذلـكَ اللّحْـنِ الأَخّـاذِ في الأَقْـوال

- ذكَرَ أنّ نَفَسَه المبارَكَ كان نَجِيًّا لِلْمَسيح، وفي عِلْم الكيمياء لَيْسَ له نظيرٌ، وفي الكَواكبِ والرّياضِيّاتِ والإلهيّات والحِكْميّات والنّجوم والمنطِق والجِدال لَيْسَ له مَثيلٌ، لكنّه عِندَما صاحَبَ رِجالَ الله أهملَ كُلَّ هذه المعارف ومحاها مِن نَفْسه.

وكان مَوْلانا يَعُدّ أكثرَ أَقْوالِ شَمْسٍ مِن الأَسْرار، ورُبّما لم يَسْمَحْ بِأَن يَنقُلَ في آثاره إلّا المطالبَ التي كانَتْ مُجازةً؛ وشَمْسٌ نفسُه أيضًا كان قد قالَ مِرارًا في مجالسه: «أَقولُ أَسْرارًا، لا أَقولُ كلامًا».

وقد قَرَأْنا في دِيوان العِشْق، أوِ الدّيوان الكَبير، ديوانِ شَمْس:

قُــلْ أَسْــرارَ هــذا بِدِقّــةٍ متناهيــةٍ وحَرْفيًّــا

يــا مَــنْ مزجْــتَ في البَيــانِ الحَــرْفَ واللّحْــن

أو:

أنتَ دفترٌ لكُلّ سِرٍّ، يا شَمْسَ الحقّ التَّبريزيّ

يـا مَـنْ جَعَلْتَنا جميعًا طُرْفةَ بغـدادَ

أو:

أنـتَ مَفْخـرُ تَبْريـزَ، يـا شَـمْسُ الـدّين

وكَـشْفُ أَسْـرارِكَ غيـرُ جـائز(١)

والشّيخُ التَّبريزيُّ، الذي امتلكَ في رَأْيِ مؤلِّفِ هذا الكتاب تحقيقاتٍ ومعارفَ كاملةً في الأَديانِ والعقائدِ والمذاهب المختلفة في عَصْره، كان قد قال لِمَوْلانا في رِحْلته الثّانية إلى قُونِيَةَ: إنّ السّالِكَ العاشِقَ والعارفَ المشتاق إذا لم يُصْبحْ دُخانًا مُبدَّدًا فلَنْ يغدُوَ شَمْعةَ حَرَمِ الوجود، ولَنْ يَسْتحقَّ العروجَ به إلى مَدارجِ الكَمال. وشَمْسٌ، على الحقيقة، رَجُلُ وَقْتٍ ومُغْرَمٌ بالعِشْق والموسيقا؛ ووَفْقًا لاعترافه في «**المقالات**» كان «مُزدانًا بِبَراعاتٍ ومهاراتٍ وفنونٍ كثيرة..». وكان يَرَى الإنسانَ بِعَينَيه الرّائيتَين لِلْحقيقة الكاشِفتَين للعِلَل في أَوْجِ العظَمة والجَلال، وكان يريدُ أن يسَيِّرَ مدرِّسَ دارِ العِلْم المشهور في الرّوم الشّرقيّة(*) في مَسيرٍ بديعٍ وجديد، وهو طَريقٌ بِدايتُه [١٧] بِالعِشْق، إذِ «الكائناتُ كلُّها إقليمُ العِشْق»، والرّقْصِ والمشارَكةِ في السَّماع، ونهايتُه بالغَزَليّاتِ الصّافية الغِنائيّة. والأَناشيدُ الخالدةُ أَسْمَى مِن كلّ الفَلْسَفات والمشارِبِ والمنطقيّات.. فهَلْ جَلَا الكلامُ النافِذُ السّاحِرُ عِنْدَ شَمْسٍ، أوِ الاشتراكُ في مَجالِسِ السَّماع، القَريحةَ

١ـ «نحنُ شَخْصانِ عجيبٌ لقاؤنا، وقلّ أَنْ يجتمعَ شَخْصانِ مثلُنا؛ ظاهِرانِ جدًّا، وخَفيّانِ جدًّا؛ ولم يكُنِ الأولياءُ ظاهرِينَ » [الأَصْل].

*ـ يريدُ: مولانا جلالَ الدّين.

الشّعريّةَ والعِرْفانيّة عِنْدَ مَوْلانا، وأَوصلَ عالَمَ كلامِه إلى مستوًى يظلُّ فيه محَلَّ عِنايةِ العُشّاق والهائمين في هذه الدّنيا، حتّى الآنَ بَعْدَ انقضاءِ قُرونٍ وأَعْصار؟

يذهبُ أَحدُ الدّارسينَ إلى القَولِ إنّه يُشاهَدُ في أَشْعارِه كلّها هالةٌ مِن العِشْق، كأنّه كان سَبّاحًا في أَضْواءِ النّجوم، أو يتّخذُ مِن رُوحِ الوجودِ ساحةً، إذ كان يَرَى في كلّ مَكانٍ، حتّى الدّقائقِ الأخيرةِ مِن حياته، وجودَ شَمْسٍ التَّبريزيّ في أُفق مُشاهَداته الخلّاقة، فيصعَدُ سُلّمَ الفَلَك راقصًا. ومِن هذه الوِجْهة، كأنّ مَوْلانا كان دائمًا ينظُرُ إلى أُفق الحياةِ الأخّاذِ الذي لا نهايةَ له بِأَملٍ ورَجاءٍ لَألاءٍ مُشْرِق، فنالَ بقَلْبٍ حَيٍّ، وبِمَدَدِ الكَشْفِ والشّهود، مَيْلًا مثيرًا لِلْحَيرة إلى عَتَبَةِ العَقْل والمعرفةِ والإيمان الرّاسخ.

وإذا ما سَلّمْنا بِأَنّ جَلالَ الدّين البَلْخيّ، بعْدَ لِقاءِ شَمْسٍ أو هِجْرانه، فَقَدَ شخصيّتَه واتّحدَ بِمُرادِه، لابدّ لنا مِن التّسليم بِأَنّ العاشِقَ النَّقِيَّ الطّينةِ في النّهاية كان يَرَى المحبوبَ في نَفْسِه، وأنّ الأَمْرَ كما يقولُ الأستاذُ مُوَحِّد: «إذا كانَ يُنْشِدُ الشِّعْرَ فقد كانَ يَرَى نفسَه نَقّاشًا يُبدعُ نُقوشًا وصُوَرًا على صَحائفِ الوَرَق، فيبعثُ شَمْسٌ الرّوحَ في قَوالِبِ تِلكَ الصُّوَر؛ إذ كان شَمْسٌ معنَى شِعْرِه ومَفْهومَه:

أَفْرُكُ هاتَيْنِ العينَينِ مُتَسائِلًا: أَهُوَ مَنامٌ أم خَيالٌ؟

ولا أُصَدِّقُ، عَجَبًا أيّها الحبيبُ، أنّ هذا هو أَنا!

نَعَمْ، هذا أَنا، لكنّكَ أَخْرجْتَني مِن ذاتي

أَتخلَّقُ مِن بَدْرِكَ نَحيلًا كالهِلال

أنتَ نَفْخُ الصُّورِ يومَ القِيامةِ، وأنا جُثّةٌ هامِدة،

أنتَ رُوحُ الرّبيعِ الجديد، وأَنا السَّرْوُ والسَّوْسَنُ

قُلْتُ نِصْفَ المَطلوب، فقُلْ أنتَ الباقِيَ مِنه

أنـــتَ عقـــلُ العقـــلِ وأنـــا غايـــةٌ في الغَبـــاء

رَسَمْتُ صُورةً، ونَفْخُ الرّوحِ مِنْ شأنكَ أنتَ

أنـــتَ رُوحُ رُوحِ الـــرّوح، وأنـــا قالَـــبُ الجِـــسْم

وابتغاءَ أَنْ يبيّنَ شَمْسٌ قدرتَه الرّوحيّةَ وتأثيرَ كلامه في قُونِيةَ قالَ:

الشّمْسُ التي تُنيرُ العالَمَ كلَّه تَرَى الضِّياءَ الذي يتنزّلُ مِن فَمِي؛ فالنُّورُ يخرجُ مِن كَلامي ويتلألأُ تحتَ الحَرْفِ الأَسْود! ولهذه الشّمْسِ نفسِها ظَهْرٌ مُوَجَّهٌ إليها هي، ووَجْهٌ مَوَجَّهٌ إلى السّماوات، وضِياءُ الأَرَضِينَ مِنها.

وبعْدَ ذلكَ يُضاعِفُ الحديثَ في شَأْن العلاقاتِ القويّةِ جدًّا بينَه وبينَ مَوْلانا، ويخلُصُ إلى هذه النتيجة: «**إنّ وَجْهَ [١٨] الشَّمْسِ مُوَجَّهٌ إلى مَوْلانا؛ لِأَنّ وَجْهَ مَوْلانا مُوَجَّهٌ للشّمس**».

ولاشكّ في أنّ القُرّاءَ قدِ انتبهوا إلى أنّ الشّمْسَ هنا، أو في هذا الكلام، هي شَمْسُ الدّين، والقَمَرَ هو مَوْلانا. لِأَنّ شَمْسًا قالَ في مَوضِعٍ آخَرَ مِن «**المقالات**»:

«**إنّ مَوْلانا هو ضَوءُ القَمَر، لا يَصِلُ النّظَرُ إلى شَمْسِ وُجودي، لا يَصِلُ إلّا إلى القَمَر**».

وفي موضِعٍ آخَر مِن **المقالات**، وابتغاءَ أَنْ يحدّدَ منزلتَه ومنزلةَ جَلال الدّين البَلْخيّ ومَقامَهما الحقيقيّ لَدَى مُريدِيه ومُحِبّيه في قُونِيةَ، كتَبَ يقولُ:

«إذا سُئِلْتَ: كَيفَ عرَفْتَ مَوْلانا فقُلْ:

إذا سأَلْتَ عن قَولِه فاقرَأْ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[١]؛ وإذا سأَلْتَ عن فِعْله فاقرَأْ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[٢]؛ وإذا سأَلْتَ عن صِفته فصِفتُه

١ـ يسٓ، الآية ٨٢.

٢ـ الرّحمن، الآية ٢٩.

هي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[١]؛ وإذا سأَلْتَ عن اسْمِه فاقرأْ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢]، وإذا سأَلْتَ عن ذاته فاقرأْ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٣].

القضايا التي كان شَمْسٌ يتحدّثُ عنها في الرّوم الشّرقيّة، وكَيفيّةُ عَمَلِه وسُلوكِه، حتّمَتْ أَنْ يصمِّمَ المعاندون ويتّحِدوا لِإِخْفاء صَوتِه، وكانَ المخالفونَ المتعصّبونَ المتشدِّدونَ يقولُونَ لِابْنِ جَلال الدّين الأصغر: هذا المغمورُ التَّبريزيُّ شَيْطانٌ مجسَّمٌ، ومبتدِعٌ. بينَما ذكَرَ مَوْلانا في آثاره أنّ فِكَر شَمْسٍ التَّبريزيّ وآراءَه مُسْتَمَدّةٌ مِن يَنبوعِ الدّين، وأنّ لَدَيه إِيمانًا قَلْبيًّا بالقرآن، وهو مفسِّرٌ لِلْقرآن. وإنّ هُيامَ مَوْلانا بِشَمْسٍ، والمعارفَ العجيبةَ التي ظَفِرَ بها في تَحليلِ الفِكَر الدّينيّة والعِرْفانيّة والتّاريخيّة، إضافةً إلى الحِكاياتِ الأخّاذةِ التي قَصَّها في الخَلْوة، يمكِنُ العثورُ علَيها في المثْنَويّ والدّيوانِ الكبير[٤]. وإنّه صَحِيحٌ أنّ فَريقًا مِن الباحثينَ بعْدَ مُطالعةٍ دقيقةٍ لِكتاب «**مقالات شَمْس**» زعَمَ أنّ كثيرًا مِن أَقْوال شَمْسٍ ومواعظِه وحِكاياته قد ظهَرَ ناقصًا أو كاملًا في المثْنَوِيّ، لكنّه لا ينبغي نِسْيانُ مَهارةِ جَلال الدّين وأستاذيّتِه وتمكُّنِه، مَصْحوبةً بِتَصرّفاتٍ سِحْريّة أو إلهامٍ نَشَأ مِن ذِهْنه الوَقّاد في توضيح أكثَرِ القِصَص والحكايات. وهنا، وعَلَى سَبيل المثال، لابدّ مِن أَنْ أنقُلَ شيئًا مما هو مشترَكٌ بينَ «**مقالات**» شَمْسٍ ومنظوماتِ جلالِ الدّين، بِقَدْرِ ما تأذنُ صَفَحاتُ الكتاب؛ لِكَي يطّلعَ عليه القُرّاءُ المحترمون:

---

١ ـ الإخلاص، الآية ١.

٢ـ الحشر، الآية ٢٢.

٣ ـ الشُّورى، الآية ١١.

٤ ـ كان شَمْسٌ قد قالَ: «ينتابني العَجَبُ: كيفَ يَنقلُ كلامي. واللهِ ذي الجلال، إنّ مولانا إذا نَقَلَ كلامي فإنّه ينقُلُه أفضلَ مِن هذا النّقْل، ويثير معانيَ أفضلَ من هذه، أمّا كلامي فلا يُنقل». (مقالات شَمْس، ص ٣٨٤).

١ ـ جاءَ في «مقالات» شَمْس: **كُتِبَ على شاهِدَة قَبرٍ: «كان عُمُرُ هذا ساعةً واحِدةً. الصّوفيُّ ابنُ الوقت»، ولنا تِلْكَ السّاعةُ مِن العُمُر التي لَقِينا فيها حضرةَ مَوْلانا** [جلال الدّين]. **مقالات**، الجزء الثاني، ص ٤٠.

وقد أَنشَدَ مَوْلانا في الجزء الثّالث من المثْنَوِيّ:

الصّوفيُّ ابنُ الوقتِ، أيُّها الرّفيق

ولَيْسَ قولُكَ «غَدًا» مِن شُروط الطّريق

٢ ـ في «**المقالات**»، الجزء الثّاني، ص ٤٤ نجِدُ قولَه: «**قالُوا لِصُوفيّ: ارفَعْ رأسَك، وانظُرْ إلى رحمة الله، فقالَ: تلكَ الآثارُ آثارٌ، أمّا الأزْهارُ والشّقائقُ ففي الدّاخل**».

وقد قالَ مَوْلانا في الجزء الرّابع [مِن المثْنَوِيّ]:

كانَ صُوفيٌّ في حديقةٍ، وانتظارًا لِلْكَشْفِ والمشاهَدة

وضَعَ وجْهَهُ على رُكبته، كما هي عادةُ الصّوفيّة

ثُمّ غابَ في نفسِه، عَلَى نَحْوٍ عميق

فتضايقَ أَحَدُ الفُضوليّين مِن هيئة نَومِه

البَساتينُ والخُضْرةُ في ذاتِ الرُّوح

وما هو خارجَ [الرّوحِ] هي صُورتُها، كأنّها في ماءٍ جارٍ

فذلكَ هُو خَيالُ البُستانِ في الماء

وهو يضطَرِبُ ويرتَجِفُ بسبب رقّةِ الماء ولُطْفه

وهناكَ بَساتينُ وثِمارٌ في القَلْب،

وصُورةُ لُطْفِها مُرتَسِمةٌ على هذا الماء والطّين

٣ ـ مِثْلَما قُلنا قَبْلُ، رَوَى شَمْسُ الحقّ التَّبريزيُّ لمَوْلانا ولِلأصحاب قِصَصًا وحكاياتٍ أخّاذةً في مدّة إقامته، عنْدَ الوَعْظ، وقد جاءَ بعضُها في أَجْزاءِ المثْنَوِيّ السّتّة؛ ومِن ذلكَ مثَلًا حِكاياتُ «الأُمَراء» التي بقيت ناقصةً في الجزء السّادس مِن المثْنَوِيّ لِأسبابٍ مجهولة؛ ولكنّ القُرّاءَ في متناوَلهم أَنْ يقرَؤوا هذه الحكايةَ الجميلةَ كاملةً في «المقالات». ومهما يكُنْ، فإنّه في الجزء الثاني مِن «المقالات» رُوِيَتْ حِكايةٌ تقولُ إنّ «يهوديًّا ومسيحيًّا ومُسْلِمًا جمعَتْهم صُحبةُ الطّريق، وقد وجدُوا ذهَبًا في الطّريق، وأعدّوا حَلْوى، وقالوا: تأخّرَ الوَقْتُ اليومَ، غدًا نأكلُ الحَلْوى، وهذا قليلٌ، ويَأْكُلُ مَن يَرَى مَنامًا جميلًا...

وقد ذكَرَ مَوْلانا في الجزء السّادس من المثْنَوِيّ قَولَه:

إنّ يهوديًّا ومؤمنًا ومَسيحيًّا ترافقوا في سَفَر

٤ ـ في الجزء الثّاني مِن «المقالات» جاء قولُه هكذا: «مَلَأتُ قَدَحًا، لا أَسْتطيعُ الشُّربَ، لا أَستطيعُ الإراقةَ، قَلْبي لا يَشاءُ أن أَتحرّرَ، أذهب»، المقالات: الجزء الثّاني، ص ٥٢.

وقد أَنشدَ مَوْلانا في ديوان شَمْس:

[٢٠] لَـدَيّ قَـدَحٌ في يَـدِي، واللهِ، إن لم تَـأْتِ

فلَـنْ أَشـربَه حتّـى يـومِ القِيامـة، ولَـنْ أُريقَـه

٥ ـ في الجزء الثّاني مِن «المقالات» جاء قولُه: «لعلّ الشّخصَ الذي قالَ هذا لم يكُنْ لَدَيه أيُّ خبرٍ عنه، ولا عن حالِ الفلّاح الرّيفيّ، ولا يَعرِفُ النَّظْمَ ولا النّثْر؛ كان سَنائي ونِظامي وخاقاني والعطّار هم الذين لَدَيهم نصيبٌ مِن هذا القَوْل، الجُبْنُ غِذاءُ كَلْبِ الصّيد. وهَلْ يأكُلُ الأسَدُ الجُبْنَ؟ ـ يأكُلُ الأسَدُ قلْبَ الصّيد وكَبِدَه، لِكُلّ شَخْصٍ غِذاءٌ» المقالات، ص ٥٧.

وقالَ مَوْلانا في الدّيوان الكبير:

لا آكُلُ إلا الكَبِدَ والقَلْبَ؛ لأنّني أَسَدٌ ممزِّقٌ لِلْكَبِد

ولَسْتُ خسيسًا مِثْلَ كِلابِ الصّيد، طعامي الجُبْنُ

٦ - وقد قرَأْنا في **المقالات:**

«بَدَا وصْلُكَ عَزيزًا، واحَسْرَتاهُ، إنّ العُمر لا يفي؛ لابدّ مِن دُنْيا مَليئةٍ بالذّهَب لِكَيْ أَنثُرَ على وَصْلِكَ، عِنْدَنا اللهُ الحَيُّ، إلى متى نَجْعلُ اللهَ مَيْتًا؟

«المعْنَى هو اللهُ» هو عَينُ المعْنَى الذي قُلْناه. وعَهْدُ اللهِ لا يفسُدُ، أمّا هو فيفسُدُ، يكونُ فاسدًا». المقالات، الجزء الثّاني، ص ٦٠.

وقد استفادَ مَوْلانا مِن هذا المَعْنَى، فأَنشدَ في الجزء الأوّل مِن المْثنَوِيّ:

قالَ شَيْخُ الدّين[1]: «إنّ اللهَ هو المعْنَى

بَلْ إنّ رَبَّ العالَمينَ بَحْرُ المعاني!»

وإِنَّ جُمْلَةَ أَطْباقِ الأَرْضِ والسَّماء

مِثْلُ قَشٍّ فوقَ ذلِكَ البَحْرِ الزَّخّار

٧ - وقد جاء في **المقالات:**

أيُّ شَيءٍ أَفْضَلُ عِنْدَ بائعِ التِّين بَيْعُ التِّين، أيّها الأَخُ

«الجزء الثّاني مِن المقالات، ص ٧١»

---

١ - في شأْن «شَيخ الدّين»، حدّدَ كُلٌّ من الباحثينَ والمحقّقينَ ومفسِّري المثْنَوِيّ شخصًا بعَينه، فقالَ بعضُهم: المرادُ به صَدْرُ الدّين القُونَوِيّ، وقالَ آخرون: هو مُحيي الدّين بن عربيّ؛ ويعتقدُ نيكلسون، مترجِمُ المثنويّ وشارحُه بالإنكليزيّة، أنّ مُرادَ مولانا مِن «شيخ الدّين» هو أبو الحسَن الخَرَقانيّ. ولكنّ الباحِثَ التّركيّ المشهورَ عبد الباقي گلبينارلي قرّرَ بعد تَمْحيصٍ وتدقيق أنّ مولانا كان يَعُدّ شمْسَ الدّين التّبْريزيّ «شيخ الدّين» [الأصل].

وقد ضَمّنَ مَوْلانا هذا البيتَ على هذا النَّحْو:

أيُّ شَيءٍ أَفْضَلُ عِنْدَ بائعِ التّين، أَيّها الحبيب

بَيْعُ التِّين، أَيّها الأخُ العزيز

نَحْيا ثَمِلينَ، ونَمُوتُ ثَمِلينَ، أيّها الحبيبُ

وكذلكَ نَجْري ثَمِلينَ إلى المحشَر، أَيّها الحبيبُ(١)

من الدّيوان الكبير، الرّباعيّة ٥٥

مَوْلانا جَلالُ الدّين ونَظْمُ الشّعر:

[٢١] يعتقِدُ بعضُ الباحثينَ والعُلَماءِ بمَوْلانا أنّ إنشادَ جَلالِ الدّين البَلْخيّ الشّعرَ بدَأَ في سِنّ الأربعينَ، إثْرَ لِقائه شَمْسًا. ووَفْقًا لِما يذكُرُ مَوْلانا، ما كانَ في ذلك الزّمان في خُراسانَ الكُبرى شيءٌ أَسْوأُ مِن إنشادِ الشّعر ونَظْمه؛ لكنّه جَلَسَ وَقْتًا مع شَمْسٍ في الخَلْوة، واختبرَهُ سُلْطانُ المعشوقين، الشّيخُ التَّبريزيُّ، في البلاغةِ والخَطابة والدِّراية والكِياسة، ومِن المحتَمَلِ أن يكونَ أَوْصاه بِأَنْ يختبرَ طَبْعَه ويقْرِضَ الشّعرَ، مِثْلَ سَنائي والعَطّار، نَجْمَي سَماءِ العِرْفان الإيرانيّ اللّألاءَيْنِ في الوَقْتِ نفسِه الذي «صارَ فيه الشّيخُ المُفْتي شاعرًا بِفَضْل العِشْق»، مثْلَما يقولُ ابنُه سُلْطانُ وَلَد.

ويعتقدُ الأُستاذُ بَديعُ الزّمانِ فُرُوزَانْفَر أنّ «.. مَوْلانا بدَأَ نَظْمَ الشّعْر في سِنّ الثّامنة والثّلاثينَ تمامًا؛ وبهذا المَعْنى يمكنُ أن نقولَ إنّ مَوْلانا نابغةٌ؛ أي شَخْصٌ نظَمَ الشِّعْرَ عَلَى حِينِ غِرّةٍ ومِن دُون أن يمتلكَ مقدّماتِ الشّعر. والعَجيبُ أنّ هذا الشّخصَ الذي لم يمتلِكْ سابقةً شِعْريّةً، ولم يتدرَّبْ ويتتَلْمَذْ في مدرسة الشِّعر والنَّظْم، نَظَمَ شِعْرًا كثيرًا

١ ـ معظمُ الحكاياتِ التي ذكَرَها مولانا في أجزاء المثْنَويّ الستّة جاء ذِكْرُها في «المقالات».

وأجادَ في هذه الأَشْعارِ الكثيرة كلّها.

انطوَتْ «شاهْنامَةُ» الفِرْدَوسيّ، في أَكبرِ تقديرٍ، عَلَى اثنَين وخمسينَ أَلْفَ بيتٍ، أمّا مَوْلانا فقد أَرْبَى مجموعُ أَشْعارِه على سَبعينَ ألفَ بيتٍ. غَزَليّاتُ مَوْلانا في حَرْف «الياء» وحْدَه ثماني مئة غَزَليّة، ويعادلُ ذلكَ تقريبًا غزليّاتِ سَعْديّ، ومِثْلَي غَزَليّات حافظ. وقد نَظَمَ مَوْلانا الشّعْرَ على خمسةٍ وخمسينَ بَحْرًا شِعْريًّا. وفي اللّغة الفارسيّة، لم يستطِعْ أيٌّ مِن شعرائنا أن يقدّمَ هذا القَدْرَ مِن التوسّع في الأَوزان. وحتّى الأَوزانُ المهْمَلةُ التي وُجِدَت في الشّعر القديم ثمّ تُرِكَتْ استعمَلَها مَوْلانا جميعًا، ونَظَم عَلَيها نَظْمًا فاق النّظْمَ على الأَوزان المستعمَلة[1].

ولكنّ الأستاذ جَلال الدّين هُمائي ذكَرَ في الجزء الثّاني مِن كتابه «مولوى نامه» قولَه: «**ولكنْ لا يمكنُ إنكارُ أنّه بحُكْم قانون الفِطْرة لابدّ أنّ الاستعدادَ لهذا الفنّ كان موجودًا في جِبِلّة مَوْلانا وخليقته الذّاتيّة وَديعةً إلهيّةً؛ وهو شيءٌ اصطدمَ بِشَمْسٍ وتغيُّر أَحْوالِه فأَفضى إلى السُّكْر وضَجيجِ جَذبَات العِشْق... والخلاصةُ أنّني أعتقدُ أنّ القُدرةَ الخلّاقةَ والتمكُّنَ المدهِشَ والطّبْعَ الخِصْب لَدَى مَوْلانا في [٢٢] فنّ الشّعر، والبراعةَ السّاحرة في الفَصاحة واللَّسَن.. كانَتْ جُزْءًا مِن الغَريزة الذّاتيّة والخصائصِ الموروثة ونتاجًا للّغة الفارسيّة الأصليّة، لُغته الأمّ**»[2].

ولا ينبغي إغفالُ لِقائِه العارفَ التّبريزيَّ وصُحبته إيّاه؛ فقد كانَ شَمْسٌ لِجَلال الدّين مِثْلَ شَمْسٍ سَطَعتْ على غُصْنِه المُثْمِر، وصارَتْ مُفتِّحًا لِنَمائه. وقد أشارَ أيضًا إلى الأستاذيّة حَيْثُ أنشَدَ:

---

١ ـ يادنامۀ مولوى، نَشْر المكتب الإقليميّ لليونسكو في إيران، ص ١٤٨ ـ ١٥٦.

٢ ـ من كتاب «**مولوي چه مى گويد**» ـ الجزء الثاني، ص ١٠٠٠ ـ ١٠٠١، مختصَرًا.

تَفـتَّحْ فقَـدْ تفتّحْـتُ؛ وقُـلْ فقَـدْ قُلْـتُ

فإنّ صِفةَ الصَّفاءِ والمـودّةِ مِن جَمـال السَّلْطَنة

أمّا الأَفْلاكيُّ، رَاوِيةُ الحالات الدّقيقة واليوميّة لمَوْلانا وشَمْسِ تَبريز في كتاب «**المناقِب**»، فيذكُرُ في شَأْنِ علاقةِ جَلال الدّين البَلْخيّ بِنَظْم الشّعر والمشارَكةِ في مجالس السَّماع قولَه:

«هكذا واصَلَ حَضْرةُ «مَوْلانا»، متأثّرًا بِجَاذبيّة سُلْطانِ الأَحْرار، الهيجانَ والتوفُّزَ، وداوَمَ على إِنْشادِ المثْنَويّات والغَزَليّات في حالات السَّماعِ والقُعود والقيام والنّهوض والرّاحة، حتّى إنّه كان يُمْلي ذلكَ باستمرارٍ مِن أوّل اللّيل حتّى مطْلَعِ الفجر».

وقدِ استنتجَ المرحومُ الأستاذ مَسْعود فَرْزاد، الذي قدّمَ في موضوعِ أَوْزانِ غَزَليّاتِ مَوْلانا تحقيقاتٍ وبُحوثًا وتَمْحيصاتٍ كثيرةً، أنّ مَوْلانا استَعْمَلَ في أَشْعاره ما لا يَقِلّ عن ثَمانيةٍ وأَربعينَ وَزْنًا مختلفًا؛ وهذا العدَدُ، في مُقابِلِ واحِدٍ وعشرينَ وَزْنًا عَروضيًّا تؤلِّفُ مجموعَ الأَبْحُر الشّعريّة في ديوان حافظ، يُثْبِتُ أنّ تنوّعَ الأَوزان في ديوان مَوْلانا هو عَلَى الحقيقة أمرٌ باعثٌ على الحَيرة. ولا شاعِرَ مِن شُعَراء إيرانَ، وتَبَعًا لِذلكَ مِن شُعَراء العالَم، يُضاهي مَوْلانا في تعدّد الأوزان العَروضيّة، ولا حتّى يُدانيه في ذلك أيضًا. ومِن المصادَفة أنّ مَوْلانا نَظَمَ على بَحْر الرَّجَز المثمَّن المَطْويّ(*)، أي تَكرار «مُفْتَعِلُنْ» أربعَ مرّات في كُلٍّ مِن الصّدر والعَجُز، ثَمَانيًا وخَمسينَ غزليّةً؛ ويُستفادُ مِن هذا أنّ هذا الوَزْنَ كان مَحَلَّ اهتمامِه وتعلّقه.

وكانَ شَمْسٌ يعتقدُ أنّ الشِّعْرَ الممتعَ والمؤثّر، الذي يكونُ مَوْزونًا ومُثيرًا، يؤثّر في

---

* ـ هو ما حُذِف رابعُه السّاكنُ [المترجم].

رُوحِ السّامِعِ وقَلْبه ويَغْمرُه بالتّفكير فوقَ شَريطِ الزّمان المهتزّ. ويذْهَبُ في أَحَدِ أَقْواله إلى أنّه يدفَعُ الرّوحَ إلى الطّيران في عالَم الرُّؤى.

[٢٣] وفي عَقيدةِ مَشَايخِ الطّريقة أنّ «السَّماعَ» له في كلّ سالِكٍ عاشقٍ تأثيرٌ مناسِبٌ لِدَرَجته. ويعتقدُ سَرِيٌّ السَّقَطيُّ(١) أنّ قلوبَ أَهْلِ المحبّة يتنابها الطّرَبُ في أثناء السّماع، وقلوبَ التّائبينَ يتنابها الخوفُ، ونارَ قلوب المشْتاقين تأخُذُ في التأجّج.

وإنّ عِشْقَ مَوْلانا للكائنات، ولِجَرَيانِ الوجود، ولاتّساعِ الوجود، وللإنسانِ الكامِلِ، واحِدٌ مِن أكثرِ العَوامِلِ الدّاخليّة قوّةً لإنشادِ منظوماته. وعِنْدَما كان الهيَجانُ والحالُ في أثْناءِ الرّقص يغيِّبه عن نفْسِه، كانَ يصْرُخُ ويقولُ:

مـا أَجْمـلَ العِـشْقَ، مـا أَجْمـلَ العِشْقَ الـذي لنـا، يـا أَللهُ

كَمْ هو جَميلٌ، كَـمْ هـو لَطيفٌ، كَـمْ هـو رائـعٌ، يـا أَللهُ

وإنّنـا بِـسَببِ مَـاءِ الحيـاةِ هــذا نَـرْقصُ ونَـدُور

لامِـنَ الكَـفّ ولا مِـنَ النّـاي ولا مِـنَ الـدّفّ، يـا أَللهُ

وقَـدْ جعَلَـتْ كفُّـكَ نَـايَ الجَـسَدِ كُلَّـهُ ثُقوبًـا

لِكَي يَظلَّ لَيْلًا ونَهارًا في هذا التّوجُّعِ والاهتياجِ، يا أَللهُ

ومِـنْ أَيـنَ لِلنّـايِ الِمـسْكين أَنْ يعْلَـمَ طَريـقَ اللّحْـنِ والـنّغَم

إنّ نفَـسَ النّـايِ هُـوَ البَـصِيرُ والعَلِـيمُ، يـا أَللهُ

كَمْ نَحْنُ حَارّونَ، كَمْ نَحْنُ حَارّون، مِن هذا العِشْق، كالشَّمْس

---

١ ـ هو سَرِيُّ بنُ المُغَلِّس السَّقَطيّ، الصّوفيُّ الكبيرُ، البغداديُّ ولادةً ووفاةً. كان شيخَ البغداديّينَ في زمانه، وهو خالُ الجُنَيد، وأستاذُه (ت٢٥٣ هـ) [المترجم].

مـــا أَخْفـــاهُ، مـــا أَخْفـــاهُ، مـــا أَظْهَـــرَه، يـــا أَلله

ومِـــنْ شَـــمْسِ الحَـــقّ تَبريـــزَ، القَلْـــبُ والـــرّوحُ والعَينـــانِ

حَـــائرةٌ ومـــضطَّربةٌ في عِـــشْقها، يَـــا أَلله

ولاشَكّ في أنّ مَوْلانا في ذِكْرِه المتكرّر لِشَمْسٍ، سَواءٌ أكانَ ذلكَ في دائرةِ مَعارفِ العِرْفان، «أَجْزاء المثْنَوِيّ السّتّة»، أَمْ في دِيوان العِشْق، «ديوان شَمْس»، أَبرزَ[1] دائمًا وباشتياقٍ مُرادَه التَّبريزيَّ أَمامَ عينَيه المحترفتَين لِلْعِشْق؛ هذا المُرادُ الذي ترَكَ في ذِهنه ورُوحه تأثيرًا عميقًا باقيًا، عَلَى نحوٍ اضطَرّ فيه إنسانًا كانَ مِن أعظَمِ نوابغ الدّين، ومُتحَلّيًا بِكُلّ صُوَر الإدراكِ المعْنَويّ، إلى أَنْ يدْعُوَه «نُورَ ذاتِ الله»، ويقولَ:

مـا أَجْملَـكَ مِـن شَـمْسٍ لا نِهايـةَ لهـا، حَتّـى إِنّ ذَرّاتِـك ناطقـةٌ

أَأَنْـــتَ نُـــورُ ذاتِ الله؟!، أَأَنْـــتَ الله؟!، لا أَعْلَـــمُ

إِنّ آلافَ الأَرْواحِ اليَعْقُوبيّـةِ تحتـرِقُ، كلّهـا، مِـن هـذا الحُسْن

فلِماذا يا يُوسُفَ الحِسَان تَظَلُّ في هـذا الجُبّ؟!، لا أَعْلَمُ

وقد كتبَتِ العالِمَةُ المتخصّصةُ بِمَوْلانا النّافذُة النَّظَر، السيّدةُ الألمانيّة أَنّيماري شِيمَل، التي خصّصَتْ فَصْلًا مِن كتابها [الشّمْسُ المنتصِرة[2]] للصُّوَر الخياليّة المرتبطة بـ«الشَّمْس» في أَشْعارِ مَوْلانا، تقولُ: «**سَيكونُ العِشْقُ المُظْهَرُ لِلشَّمْس مَبْنيًّا عَلَى عِشْق القِيَم التي لا تَفْنى!**».

---

١ ـ جاء في الدّيوان الكبير:

أنا في طَوافٍ، كالظِّلّ، حَولَ نُور الشَّمْس حينًا أَسْجُدُ لها، وحينًا أَقِفُ عَلَى رأْسي

إنّ ظِلَّ النَّفْسِ يَفْنَى في شُعاعِ الشَّمْس فإلى متى تظَلُّ تنظُرُ إلى الظِّلّ؟ ـ انظُرْ إلى نُورِها

٢ ـ أعدّت المرحومةُ السيّدةُ شيمل كتابَها هذا بالألمانيّة والإنكليزيّة، وقد هيّأ المولى سبحانَه أن نترجمه من الإنكليزيّة إلى العربيّة، وأن تُنشَر التّرجمةُ في طهران، عام ٢٠٠٠م [المترجم].

ويعتقدُ نِيكِلْسون، شارحُ المثْنَوِيّ الشّهيرُ بالإنكليزيّة، [٢٤] أنّ عِرْفانَ شَمْسٍ وإِشْراقَه هو المصدرُ لِإلهام جَلالِ الدّين محمّد مَوْلانا؛ وإنّه مِن هذا المنبعِ يتدفّقُ «**المثْنَوِيُّ**» و«**دِيوانُ شَمْس**» مِن مَجْرَيَيْنِ منفصِلَيْنِ؛ أَحَدُهما نهرٌ عظيمٌ وهادئ وعميقٌ، والآخَرُ تدفّقٌ شَبيهٌ بالسَّيْل مفعَمٌ بالحماسة... ففي المثْنَوِيّ مزَجَ جَلالُ الدّين العِلْمَ والطّريقةَ والعِرْفان على نَحْوِ غايةٍ في البراعة، مُحَصِّلتُه ماءٌ زُلالٌ سائغٌ شَرابُه، ملائمٌ لِمَذاقِ عَطْشى العِشْق وطَريقِ السَّير والسّلوك والمعتقِدينَ، ومِزاجِهم.

وقد كتَبَ الأستاذُ جلالُ الدّين هُمائي في المقدّمة التي أَعدّها لِديوانِ شَمْس، يقول: «إذا قَسَمْنا الشّعْرَ الفارسيَّ عَلَى مَدْرَستَي العَقْلِ والعِشْق، أو الحالِ والقال، فإنّ آخِرَ كتابٍ في مَدْرسة العِشْق هو ديوانُ غزَليّاتِ شَمْسٍ نفسُه، ولا يُريدُ هنا إلّا اضْطرابَ الجُنُون، وذُهولَ الوَجْدِ والحالِ والهيَجان والحماسة، أمّا سَداةُ الغزَليّاتِ ولُحْمَتُها مِن أوّلها إلى آخِرها فهو العِشْقُ؛ والحالُ والجَذْبُ والهيَجانُ هي الكَلِماتُ التي في شِدّةِ الاضطرابِ وانقلابِ الحالِ تخرجُ مِن دِماغٍ متلاطِمٍ، ورُوحٍ مفْعَمٍ بالعِشْق، وقد أشارَتْ إلى حالاتِه المختلفة ووَجْدِه وفِراقِه ونشاطه وحُزْنه وأَساه وسَماعِه ورَقْصه؛ ولهذا السّببِ لا تَروقُ إلّا الذّاهلينَ الذين عاشوا نماذجَ مِن هذه الأَحْوال.

بعضُ العُلَماءِ المتخصّصينَ بِمَوْلانا يَعُدّون المثْنَوِيَّ مَنْجَمًا للحقائق، ومنبعًا غَزيرًا لِلْهَيَجانِ والحالِ والعِرْفان؛ ويقولُ المرحومُ الأستاذُ فُروزانْفَر:

«**إنّ مَوْلانا عارِفٌ ثَمِلٌ بعِشْقِ الحقّ، غارِقٌ في أَمْواجِ نُورِ شَمْسِ الرّوح، ورُوحُه مُفْعَمٌ بالتفتّحِ والسُّرورِ، حتّى إنّه يَرَى مظاهرَ العالَم جميعًا لألاءةً من هذا الضّياء**»[١].

١ـ الجزءُ الأوّلُ من كتابه «شَرْح المثنوي».

فمَنْ ذا الذي يقرَأُ هذه الأبياتَ ولا تُدرِكُه حَيرةٌ عظيمة، ومَنِ الذي يَسْمَعُها مُلحَّنةً، أي مَصْحوبةً بِصَوتِ النّاي والرّباب والدّفّ، ولا يحتار عَقْلُه ورُوحُه:

ـ فأَيُّ جَميلٍ لم يَغْدُ قَبيحًا؟ أو أيُّ سَقْفٍ لم يَغْدُ مَفرَشًا [مُساوِيًا للأرض]؟

ـ إلّا أصواتَ [الأَوْلِياء] الأعزّاءِ في صُدورهم؛ أولئكَ الذين يكونُ نَفْخُ الصُّورِ مِن صَدَى أنفاسِهم.

ـ فباطِنُهم هو الذي سَكِرَتْ مِنه البَواطِنُ؛ وفَناؤهم هو الذي استمَدَّ وجودُنا منه الوجودَ.

ـ والوَليُّ هو كهرباءُ الفِكْر وكلّ صوت؛ وهو لَذّةُ الإلهام والوَحْي والأسرار(١).

[٢٥] إنّ عدَدًا مِن مَشاهير المحقِّقين، ومنهم الأستاذُ والشّاعرُ العالِمُ السيّد الدّكتور محمّد رضا شفيعي كَدْكَني، يعتقدُ أنّ جَلالَ الدّين محمّدًا البَلْخيّ عُرِف في تاريخِ الأدب الإيرانيّ مِن طَريق المثْنَوِيّ أكثرَ مِنه مِن غيره؛ والدّيوانُ الكبير، «ديوانُ شَمْس تَبريز»، لم يحظَ بِرَواجٍ كبير في فَضاء الشّعر والأدب. أمّا المثْنَوِيُّ فإنّه، سَواءٌ أكانَ ذلكَ في القُرونِ المنصَرِمة أم في الزّمانِ الرّاهن، كانَ يقرؤه قُرّاءُ المثْنَوِيّ الملحِّنونَ في الزّوايا الصّوفيّة. وكان نَفَرٌ مِن الشّيوخ المطّلِعينَ على الأدب يُفسِّرونَه ويُوضِحونَ معانيَه. ومِن المحتَمَل أنّه في حَلَقاتِ التّصوّف، وفي أَثْناءِ إِنْشادِ(٢) المثْنَوِيّ، كانت

---

١ ـ المثنويّ، ج١، ٢٠٧٨ ـ ٢٠٨١.

٢ ـ جاء المثْنَويّ في ستّة أجزاء، وعدَدُ أبياته، بِحَسَب الرّوايات وكذلكَ بِحَسَب المخطوطات التي طُبعت، مختلفٌ. فقد جعلَها صاحبُ «كشْف الظنون» ٢٦٦٦٠ بيت، وجعلَها دَوْلَتْشاه السَّمَرْقَنديّ ٤٨٠٠٠ بيت، ويجعَلُ نيكلسون عِدّةَ أبياتِ المثنويّ ٢٥٦٣٢ بيت، وعَددَ الأبياتِ في كلّ جُزْء على النّحْو الآتي: الجزءُ الأوّل ٤٠٠٣ بيت، والثاني ٣٨١٠ بيت، والثالثُ ٤٨١٠ بيت، والرّابعُ ٣٨٥٥، والخامسُ ٤٢٣٨ بيت، والسّادس ٤٩١٦ بيت.

ويُطْلَق مصطَلَحُ «المثْنويّ» في الأدب الفارسيّ على الأشعار التي يكونُ لمصراعَي البيت فيها قافيةٌ واحدة، وتكونُ أبياتُها جميعًا متّحِدَةً في الوَزْن. ويقالُ إنّ «المثْنَوِيّ» له سابقةٌ قديمةٌ في الأدب الفارسيّ، منذُ زمانِ رُودَكي=

غَزَلِيّاتٌ مِن ديوان شَمْس تُقرَأ أيضًا، أو أنّها في أَثْناءِ السَّماع وفي ذروةِ الهيَجانِ والوَجْد كانَتْ تَصِلُ إلى أَسْماعِ العُشّاق منبعِثةً مِن حَناجِرِ المغنّين المُجيدين. ومهما يكُنْ، فإنّ المثْنَوِيّ وديوانَ شَمْسٍ قد صدَرَا عن فِكَرِ مَوْلانا الدّائمةِ وأَنْظارِه العِرْفانيّة العميقة الخالدة. وفي أَجْزاء المثْنَوِيّ السّتّة يطّلِعُ العارفونَ، والعُشّاقُ المؤمنونَ المعتقِدُونَ بِالطّريق الصّوفيّ، عَلَى عِلْمِ النّفس. وهنا سيتعرّفُونَ جيّدًا لماذا يحتاجُ السّالكُ في طَريقِ السَّيْر والسُّلوك إلى وليٍّ، أو مُرْشِدٍ وشَيْخٍ موجِّه.

وقد كتَبَ الأستاذُ سُروش في مقالته الجذّابة الخليقة بالقراءة، في أَحَدِ أعداد صَحيفةِ «كَيْهان»، تحتَ عنوان: «المثْنَوِيُّ والدّيوانُ الكبير فاكهتانِ مِن شَجرةٍ واحِدة»، يقول:

«نجِدُ لَدَى مَوْلانا في المثْنَوِيّ سُلْطانًا عجيبًا، إذْ إنّه في عَيْنِ السُّكْر يراعي الأدبَ ويَربِطُ بينَ المعْنَى والصّورة[1]. ومعَ أنّ كلَّ شَيْءٍ كان يدعوه إلى تقطيع [٢٦] سِلْسِلة التّدبير[2] وإتْلافِ اللّفظِ والصّورةِ وتشتّتِ الكَلام[3]، ومعَ أنّ أُصولَ العافيةِ والقافيةِ قد ضاعَتْ منه[4]، وأَسْلَمَه جُنونٌ إلى جُنون لِيجعَلَه مضطرِبًا ومتوفّزًا، ومعَ

= وأبي شَكُور البَلْخيّ، إذ استعْمَلَه الشّعراءُ في نَظْم حِكاياتِ الحرب، وفي وَصْفِ حَفَلات الطّرَب، وفي الموضوعات الأخلاقيّة والعِرْفانيّة؛ وفيما بعْدُ كان الشُّعَراءُ التُّركُ يستفيدون مِن هذا القالَب [الأصل].

١ـ إنّ جَمْعَ الصّورةِ إلى مِثْل هذا المعنى العميق لَيْسَ ممكنًا إلّا لِسُلْطانٍ مَهيبٍ وعظيم،
وفي مِثْلِ هذا السُّكْر لا توجَد مراعاةٌ للأدب فإنْ هي حَصَلَتْ فذلك أمرٌ عجيب
(المثْنويّ، ج٣/١٣٩٤ـ ٩٥)

٢ـ هيّا، ضَعْ على قَدَمي هذا القيدَ فقد حطّمتُ سِلْسَلةَ التدبير
(المثنويّ، ج٦/٦١٥)

٣ـ فلأضْرِبَنِ الحرفَ والصّوتَ والكلامَ بعضَها ببعضٍ لِكَي أستطيعَ الحديثَ معكَ مِن دونِ تلكَ [الوسائل] الثلاث
(المثنوي، ج١/١٧٤٠)

٤ـ كيفَ يأتي النّظمُ لي والقافيَهْ؟ بعْدَما ضاعَتْ أصولُ العافيَهْ
ما جُنونٌ واحِدٌ لي في الشُّجُونْ بَلْ جُنونٌ في جُنونٍ في جُنونْ
(المثنوي، ج٥/١٨٩٥ـ ١٨٩٦)

أنّه شَبعَ مِن الفَضْلِ والذّكاء[١]، ومزّقَ بُرْدَ الحَياء[٢]، وقلّتْ قدرتُه على الصَّبر[٣]، وافتقدَ القُدرةَ على سَماعِ إغْواءِ الهِجْرانِ وأَسْلَمَ بيتَ القَلْب للاحتراق[٤]، [معَ ذلكَ كلّه] يظلُّ طاهِرو الأَنْفاسِ الذين استوطَنوا ضَميرَه[٥] ونُدَماءُ خَلْوةِ الأُنْسِ وعالِمُو أَسْرارِ قِبابِ الغَيرةِ يَدْعُونَه إلى [٢٧] كَتْمِ السّرّ والتستّر، وقائلُ «يا جَميلَ السَّتْر» يأمُره بالصَّمْت[٦]، وهو أيضًا بتدبيرٍ وحِكْمةٍ يضَعُ قُفْلًا على فَمِه[٧] ويحترفُ الصّمتَ، أو بِسببِ الغَيرةِ يُصْدِرُ صَوْتًا جاذِبًا لِلْقُلوب[٨]؛ لِكَي يفتِنَ به المخاطَبينَ ويشغلَهم عن

١ـ إنّني عاشِقٌ لِفَنّ الجُنون مَالٌّ مِن الفَضْلِ والذّكاء

(المثنوي، ج ٦/٥٧٨)

٢ـ فتعالَ، يا عدوَّ الحَياءِ والفِكْر فقَدْ مزّقتُ حُجُبَ الخَجَل والحَياء

(المثنوي، ج ٦/٦١٩)

٣ـ قلّتْ طاقتي مِن هذا الصّبر وصارَتْ واقعتي هذه عِبْرةً لِلعُشّاق

(المثنوي، ج ٦/٤٠٧٠)

٤ـ لَنْ أسمَعَ بعْدَ ذلك إغواءَ الهجران وقد جرّبتُه، فحتّامَ أُجَرّبُه؟

(المثنوي، ج ٦/٦١٣)

٥ـ ومَتَى يَسْعَدُ قلبُه ولم أحترِقْ، يا مَنْ قَلْبُنا أَهْلُه ومنزلُه
وإنّكَ تظلُّ تُحرِقُ منزلَنا، فأَحْرِقْ، فمَنْ ذلكَ الشّخصُ الذي يقولُ: لا يجوز؟

(المثنوي، ج ٦/٦٢٢ ـ ٢٣)

٦ـ إذا أقلَلْتُ لكَ مِن قَولِ هذا الكلامِ الشّبيه بالدرّ الملكيّ فاعذِرْني
فإنّه في داخلي مِئةُ نَجِيّ طاهِر يضَعُ يدَه على فمي قائلًا: كفَى

٧ـ انتبهْ، انتبهْ، وحذارِ أن تُطلِقَ نَفَسًا انهضْ أوّلًا واطلُبْ من سُمح له [بمناجاته]

(المثنوي، ج ٣/٤٧٣٣)

٨ـ ولأنّني صَفيٌّ للهائمين فيه تجدني نهارًا وليلًا أنفخُ في قَفَص
وإنّك، أيُّها الرّوحُ، تَمِلُّ جدًّا وفاقدُ الوعْيَ ومضطربٌ، فعلى أيّ جَنْبٍ كنتَ نائمًا اللّيلةَ الماضية؟
وعنْدَما يتحدّثُ اللّسانُ عن سِرّه ولُطْفه تَدعُو السّماءُ: يا جميلَ السَّتْر

(المثنويّ، ج ٣/٤٧٣٧ وما بعد)

رؤية مَسْتورِي حَرَم الغَيب. ومَوْلانا نفسُه في الدّيوان الكبير مجنونٌ كبير، لَيْسَ إلّا شِعارًا[1] وشُعْلةَ نار[2]، وهو نَديمٌ لشُرّاب جهنّم السُّكارى، ومحترِقُ الرّوحِ الطّالبُ للنار، الذي لا يأخذُ ماءَ الحياة بِشَيء[3].

ومختصَرُ القَولِ أنّ المثْنَوِيَّ، الذي له ارتباطٌ بِمَقالاتِ شَمْس، ينطوي على بَيانٍ لحقائق العِرْفانِ والتصوّفِ، وشَرْحٍ وتفسيرٍ لرموز الآيات القرآنيّة والأخبار النّبويّة. لكنّ مَوْلانا كأنّه كان يَسْعى إلى إفشاءِ قَدْرٍ قليلٍ مِن أَسْرارِ ما حدَثَ بينَه وبينَ شَمْس. أمّا في الدّيوان الكبير، أو ديوانِ العِشْق، فإنّ صِياحَه [٢٨] وضجيجَه يُصِمُّ أُذنَ الفلَك، وبِنغَمِه السّاحِرِ يثيرُ حَسَدَ كوكبِ الزُّهَرة، التي هي رَبُّ الطّرَب. وفي فِراق شَمْسٍ يكشِفُ أَسْرارَ عالَم الباطن بِمَهارةٍ وحِذْق ومِن دون تحفّظ، ومِن دُون مبالاةٍ، حتّى إنّه لَوْ كان الحُسَينُ ابنُ منصورٍ الحلاّجُ، شَهيدُ طَريقِ العِشْق والحقيقة، حَيًّا لأَفتى بِشَنْقه:

إذا كُنتَ أنتَ نفسي، أيّها الحبيبُ، فانظُرْ فإنّني بِلا

ولماذا تَسْأَلُ عنِ الأَسْرار، عِنْدَما أكونُ على هذا الوضوحِ

وأشِرْ إلى الحلاّج، الذي جاء مِن الخَلْقِ إلى المشنقة

ومِنْ قُوّةِ أَسْراري، أبعثُ الحلاّج حَيًّا

وبعضُ أشعارِه العِشْقيّة، لأنّها تَفيضُ مِن قَلْبه المليء بالألَم، تأخذُ لونَ الدّم؛ ومِن

١ـ أخشى إنْ صمتُّ أنّ تلك الشّمسَ تُمزّقُ الحجابَ من ناحيةٍ أخرى

٢ـ ثُوروا، ثُوروا؛ فإنّنا بحرُ الهُتاف وغَيرُ العِشْق، غَيرُ العشق، لا عملَ لنا
وفي هذا التّراب، في هذا التّراب، في هذه المزرعة الطّاهرة، لا نبذرُ إلّا العِشْقَ، إلّا الحبَّ
(ديوان شَمْس، الغَزَليّة ١٤٧٦)

٣ـ أَجْري بسُرعةٍ، أجْري بسُرعةٍ، لكي أصِلَ إلى الفُرسان أغدو عَدَمًا، أغدو عَدَمًا، لكي ألتحق بالأحبّة
طِبْتُ نَفْسًا، طِبْتُ نَفْسًا، صِرْتُ شُعْلةَ نار أَحْرِقُ المنزِلَ، أمضي حتّى أصِلَ إلى الصّحراء

هذه الوِجْهة يقولُ:

عنـدَما يفـورُ الـدّمُ أُعطِيـهِ مِـن الـشِّعْرِ لَوْنًـا

ولكَيْ لا يغدو لِباسي ملطَّخًا بالدّمِ، تكونُ أنتَ مُلَطِّخِي بالدَّم

انظُرْ إلى الدّمِ في نَظْمِ شِعْري، ولا تَنظُرْ إلى الشِّعْر

لِأَنّ لِعَينـي وقَلْبـي مِـن عِـشْقِه تَلَوّثًـا بالـدّم

ومَوْلانا في «الدّيوان الكبير» غارقٌ في بَحْرٍ من النّور، كأنّه غَريبٌ لَيْسَ مِن أَهْلِ هذه الدّنيا؛ والأَفلاكُ السّبعةُ كلُّها ضاقَتْ عليه؛ وهو يعترفُ بِأَنّ صدْرَه السّخيَّ حانةٌ قديمةٌ؛ ومن هذه النّاحيةِ يُخاطِبُ شَمْسًا:

مِنْ كَأْسِ شَرابِك يكونُ رَأْسي مضطَرِبًا ومِن رؤيتكَ يكونُ جِسْمي رُوحًا

تَضيقُ عَلَيَّ الأَقاليمُ السّبعةُ جميعًا عِنْدَما يَدْخُلُ هو في قَميصي

ما أجملَ شَمْسًا، ما أجملَ العِشقَ

وأَيُّ إنسانٍ، ما خَلَا تِلْميذًا ومُريدًا ممتازًا لِشَمْسٍ، يمكِنُ أن يدّعيَ أنّه يصنَعُ رَسَنًا مِن أشعّة النّور اللّألاءة. وبِتَعبير أَحَدِ المتخصّصينَ بِمَوْلانا، كَيفَ يمكِنُ التعبيرُ عن كلّ هذه الجرأةِ والسّخاءِ والتّغافُلِ والاضطراب والهيامِ، معَ كُلّ هذا الضَّبْطِ للنّفس والسَّعةِ والصّمت؛ أيُّ شَخصٍ قادرٌ عَلَى أن يقولَ:

كُنتُ زُهَرةً، صِرْتُ قَمَرًا، صِرْتُ فلكًا مِن مئتي طَيّة

كُنْـتُ يُوسُـفَ، ومِـن الآنَ صِـرْتُ أَلِـدُ أمثـالَ يُوسُـف

ظَفِرَ قَلْبي بِضِياء الرّوح، فانفتحَ قَلْبي وانشَرحَ،

نَسَجَ قَلْبي أَطْلسَ [رِداءً حَريريًّا] جديدًا، صِرْتُ عَدُوًّا لهذه الخِرْقة
ما أَحْلَى شَمْسًا، ما أَبْهى شَمْسًا!

هذا الرّوحانيُّ الكبيرُ، هذا الأستاذُ والفقيهُ غيرُ المنازَع في الرّوم الشّرقيّة، ماذا سمِعَ، أو أيُّ سِرٍّ كُشِفَ له، حتّى سَئِمَ قلْبُه ـ فُجاءةً ـ المدرسةَ وأهلَها وكُتُبَ الدّراسة، وتغيّرَ واضطربَ، واعترفَ:

كانَ المصْحَفُ في يَدِي دائمًا | وفي العِشْقِ أَمسَكْتُ بِالصَّغانة [آلة موسيقيّة]
وفي الفَمِ الذي كانَ فيه تَسْبيحٌ | شِعْرٌ ودُو بَيتٌ ورُباعيّ

[٢٩] أيُّ شَخْصٍ كانَ قادرًا على أن يشوِّقَ جَلالَ الدّين البَلْخيّ إلى السَّماع؟ سُلْطانُ وَلَد، الابنُ الأكبرُ لمَوْلانا، يُنشِدُ في «مَثْنَوِيّه» إجابةَ هذا السّؤال مِن دُون لَبْسٍ، على هذا النَّحْو:

كانَ، بِتأثيرِ اتّصالِه بِشَمْسِ الدّين مِن أَعماقِ القَلْب،
أكثرَ طاعةً مِنَ الأيّامِ واللّيالي
وعَلَى امتدادِ السّنينَ والأَشْهُرِ، ظَلّ ذلكَ المليكُ
مُنْشَغِلًا بِعُلومِ الزُّهْدِ والدّين
وعنْدما دعاهُ شَمْسُ الدّين إلى
السَّماع، الذي كان مُختارًا عِنْدَه قَبلَ معرفته،
صارَ السَّماعُ لَهُ مَذْهَبًا واعتقادًا صَحيحًا،
ومِنَ السَّماعِ نَما في قَلْبِه مِئةُ بُسْتان

وجَلالُ الدّينِ مَسْرورٌ، لِأَنّه بِلِقاء الشّيخِ التّبريزيّ ومُجالَستِهِ وُلِدَ مِن جديد، وتخطّى هذا الحدَّ، ويعترفُ بأنّه اقتربَ مِن محبوبه الجديدِ الوافد، حتّى كأنّ الاثنَينِ لهما ذِهْنٌ واحِدٌ وإدراكٌ واحِدٌ، وقد رَأَى الحَيَّ ووَصَلَ إلى القَيّوم. وَلْنقرَأْ معًا اعترافاتِ مَوْلانا بإخلاص:

مــا أَقْــربَ رُوحَــكَ مِــن رُوحي! حــتّى إنَّ كلَّ مـا تفكّـرُ فيـه أَعْلَمُـه

أو:

نَحْـنُ نـارُ العِشْق، وقـد وَصَـلْنا إلـى الـشَّمْع
ومِثْلَ الـشَّمْعِ وَصَـلْنا إلـى الفَراشـةِ المظلومـة
وقـد طِرْنـا، مَـصْحوبَينِ بآيـةِ الكُرْسـيّ، نَحْـوَ العَرْش
حتّــى رَأَيْنــا الحَــيَّ، ووصَــلْنا إلــى القَيّــوم

أو:

ومـاذا أَقـولُ؟ ـ كُنـتُ مَيتًـا مِـن دُونـكَ تَمامًـا
وقـد خلَقَنـي الحَـقُّ مِـن جديـدٍ مـرّةً أُخـرى
فَــأْذَنْ لــي بِــأَنْ أُقبّــلَ يَــدَكَ وقَــدَمَك
وأَعْطِنــي العِيديّــةَ؛ فـإنّ هــذا اليــومَ عِيـدي

وفي هذه المنظومة المثيرة لِلْبَحْث، يُحتاجُ إلى مَزيد تَدْقيق، خاصّةً أنّ شَمْسًا التَّبريزيَّ قالَ في «المقالات»:

«كانَ هذا الدَّنُّ مِن شَرابٍ ربّانيّ، وُضِعَ السِّرُّ في الطّين، لَيْسَ لِأَحَدٍ اطّلاعٌ عَلَى هذا. وقد أَصْغَيتُ إلى العالَم، فكنتُ أَسْمَعُ، هذا الدّنُّ كُشِفَ بِسبب مَوْلانا؛ وكُلُّ مَنْ تَصِلُ إليه فائدةٌ مِن هذا، يكونُ السّببُ في هذا مَوْلانا».

وجَديرٌ بالذِّكْرِ أنّ مَوْلانا، في نظَرِ الأستاذ الدّكتُر مُوَحِّد، كان يرى أنّ شَمْسًا التَّبريزيّ هو «مَوْلَى مَوالي الأَسْرار» و«سُلْطان المعاني»، وكانَ يَرَى نفسَه في مَقام التّسْليمِ له والضّراعة مِثْلَ الحَمَل الوديعِ في يَدِ الرّاعي، وكانَ يُنْشِد:

مَـــوْلَى مَـــوالي الأَسْـــرار

طائرُ البُلَح(*) الذي يعطي الحظْوَةَ لِأَصْحابِ الحَظّ

مُـستقَرُّ الـرُّوحِ، شَـمْسُ الـدّين التَّبريـزيّ

لا قَـدّرَ اللهُ لِرُوحِـي انفـصالًا عَـنْ رُوحِـه

[٣٠] أو:

يـا مَـنْ جِئـتَ لِـكَي تَـدعُوَني	**يا مَنْ أنتَ صَوْتٌ وصَدًى لِتلْكَ الدّنيا**
فـارجِعْ فأنـتَ رَسـولُ اللّامـكان	**كُنّـا نَنتظِـرُ نفَـسَكَ**
فَـاعْتَنِ بِنـا في الـضّيافة	**نَحْـنُ عِنْـدَكَ أَمانَـةُ شُـعَيب**

ولِأَنّ مَوْلانا جَلالَ الدّين عاشقٌ، ولِأَنّه بِفَضْلِ إرشاداتِ شَمْسٍ متحرّرٌ مِن شَرَك الحوادثِ، ويَسيرُ في داخِلِ عُروقِ ظَواهِرِ الوجود، وكانَ يَسْبَحُ في أَنْوار السّيّارات والمَجَرّات، كانَتِ الغزَليّاتُ والأناشيدُ التي أَثبتَها في «**الدّيوان الكبير**» عَلامةً عَلَى الضّجَر والقلَق والانفعال والوَلَه، ومُفعَمةً بالجَذْب والإلهام، ولها قُدْرةٌ خَلّاقةٌ شَبيهةٌ بالمعجِزة عَلَى إثارةِ العَواطف العِشْقيّة. وبعضُ أَشْعاره أيضًا مَجْلًى للْأَلَم والعذاب الناشئ عن فِراقِ سُلْطانِ المعشوقينَ والبُعْدِ عنه.

وإذا كانَتْ أَجْزاءُ **المَثْنَويّ** السّتّةُ **والدّيوانُ** الكبير، بعْدَ انقضاءِ القُرونِ

* ـ طائرُ البُلَح هو المقابِلُ العربيّ لـ «هُما» أو «هُماى» بالفارسيّة، وهو عنْدَ الإيرانيّين طائرٌ أُسْطوريّ، تذْهَبُ الأسطورةُ إلى أنّ كلّ مَنْ يقَعُ علَيه ظِلُّه يصير مَلِكًا [المترجم].

والأَعْصار، وحتّى هذا الوَقْتِ، مَحَلَّ اهتمامِ أَصْحابِ القُلُوب والعُشّاق المُؤْثِرينَ لهذه الدّنيا، وتَمنحُ قلْبَ القارئ والسّامع لَذّةً رُؤيَوِيّةً وملَكوتيّةً، وتُهدِي سُكْرًا ونَشاطًا، فإنَّ مَرَدَّ ذلكَ إلى أنّ جَلالَ الدّين البَلْخيّ مُرَوِّجٌ لِفِكَرِ شَمْسِ تَبريز المتعالية، المُحِبّة للنّاس؛ ولعلّه مِن شُعَراء الصّوفيّةِ المعدودينَ الذين عَبّروا عن ثَوْراتِ العِشْق بِأَحْلَى صُوَر الكلام؛ ومِن وِجْهَةٍ أُخْرى صوّرَ شِعْرُه سِيماءَ «**مقالات شَمْسٍ**» على نَحْوٍ غايةٍ في البراعة والرّوعة.

ويقدِّمُ مَوْلانا جَلالُ الدّين، في أَجْزاءِ **المثْنَويّ** السّتّةِ وفي **الدّيوان الكبير**، شَمْسًا التّبريزيَّ في صُورةِ مَنْبعِ حياته الجديدة، شَمْسٌ الذي كان بِمُيولٍ محيِّرة وثورةِ كلامٍ وأدلّةٍ قاطعةٍ يَسْخَرُ مِن معظَم آثار العُلَماء والفلاسفة والعارفينَ في الزّمان الماضي وفي زمانه هو؛ وبِكَلامِه الذي يأخُذُ بِمَجامِعِ النّفس أَلْقَى شَرارةً في بَيْدَرِ إحساسِ مَوْلانا وعاطفته، انتهَتْ بِأَن يرقُصَ ويغيبَ عن نفسِه.

فتَحَ شَمْسٌ أمامَ باصِرَتَي جَلالِ الدّين النافذتَين أفقًا جميلًا، وباعثًا على الهيَجانِ، مِن العِرْفانِ العِشْقيّ، وقطَعَ خَيْطَ العُلومِ القديمة الذي كان يُثقِلُ فِكْرَه دَفعةً واحدةً، وعلّمَه أن يصِلَ إلى عالَمه الباطنيّ. وتمثّلَ هذا في أَنْ كانَ جَلالُ الدّين البَلْخيّ يوصي الوالهينَ في طَريقِ العِشْق بِقُوّة: إنْ شئتُم أَنْ يكونَ لكم نصيبٌ مِن مواهب الحياة وجَمالِ الكائنات، وتَسْتحِقَّ أسماؤكم أن تُثبَتَ في دفتر الأيّام مُخلَّدةً باقيةً على الدّوام على نَحْوٍ رائعٍ، فتعلّموا أَسْرارَ العِشْق والسُّكْر:

[٣١] اذهَبْ واغسِلْ صَدْرَكَ مِن الأَحْقادِ سَبْعَ مَرّاتٍ بالماء، مثْلَما تُغسَلُ الصّدور

وصِـرْ عنْدَئـذٍ كأسًـا لـشَرابِ العِـشْقِ، صِـرْ كأسًـا

وأَنشَدَ في المثْنَوِيّ:

- اجعَلْ نفسَكَ نَقيّةً مِن صِفاتِ الإحساسِ بالذّات؛ حتّى تَرى ذاتَكَ الطّاهرةَ الصّافية.

- واخْرُجْ عنِ اللّونِ كما يخرُجُ الحديدُ المصقولُ عن لَونِه، ولتكُنْ بالرّياضةِ مِرآةً لا صَدَأ فيها.

(جـ١ / ٣٤٥٩ ـ ٦٠)

ويروي مَوْلانا أنّ مُرادَه التَّبْريزيَّ قال له: ادخُلْ في ذاتِكَ؛ ابتغاءَ أن تُشاهِدَ حياةً حقيقيّةً لها سَماءٌ أُخْرى وقَمَرٌ آخَر:

- أنتَ حتّى الآنَ خَفِيٌّ، فماذا رَأيتَ مِن جَمالِكَ؟ - وفي وَقْتِ السَّحَر، مِثْلَ الشّمْس، ادخُلْ باطنَ ذاتِك.

فالظفَرُ بِعالَمِ العِشْق المثيرِ غيرُ ممكنٍ مِن طَريق الفَضْل والعِلْم والقِيل والقال في المدرسة؛ ويقولُ العارفونَ والصّوفيّةُ: العِشْقُ قابلٌ للْمَجيء بنفسِه، غيرُ قابلٍ للتعلّم.

وكانَ مَوْلانا الذي أَفْنَى نفسَه في شَمْس، ثمّ بعْدَ هِجْرانِه إيّاه كان يَراه في نفسِه، يوصي أَصحابَه بالقَولِ: إذا شئتُمْ أَنْ تُطْلَقَ أَجْنِحةُ أَرْواحِكم المقَيَّدةُ وتصِلُوا إلى تِلكَ الناحيةِ مِن الزّمانِ والمكان، فعَلَيكم أَنْ تتحرّروا مِن الأَلْوانِ المختلفة وتتّصلوا بالعالَم الذي لا لَونَ له، وفي هذا القَصْد يجبُ أن تنسَوا حتّى دقائقَ الحياةِ الماضية والحاضرة:

- اخرُجْ ساعةً مِن [حُكْم] الزّمان، أيّها القَلْب؛ لِكَيْ تتحرّرَ مِن الكيفيّة والعِلّيّة.

- ولَيْسَ للزّمانِ خَبَرٌ عن اللّازَمان؛ لِأنّه لا طَريقَ إلى تِلكَ الناحية إلّا الحَيرةُ.

- وعنْدَما تخرُجُ لِبُرهةٍ مِن [حُكْم] الزّمانِ لا تبقى هُناكَ «كَيْفَ»، وتغدو مَحْرَمًا لِ «اللّاكيفيّة».

وفي تِلْكَ الحالِ، وذلكَ المقامِ، تطوفُ بإخلاصٍ، مِثْلَ أبي يزيدَ والشّبليّ والحَلّاج، حولَ كَعْبةِ الوجود؛ ويَمْلَأ الطّنينُ الخالِدُ لِهُتافكَ: «ما أعظمَ شأني» و: «وأنا

الحقُّ»، فضاءَ قَلْبِك، وتصيحُ:

- أنا ذلكَ الرّوحُ المختفي مِثْلَ الرّوح؛ أنا ذلكَ القمَرُ في عالَم «اللّامَكان».

- أنا شَمْسُ سَماواتِ اليقينِ، الذي نُورُ القَمَر وضياءُ الشّمس سَمائي.

- أنا ذلكَ المجوسيُّ الذي يَلِدُ منه الإيمان، أنا الكفْرُ ولكنّني الأَمْنُ والأمانُ.

- أنا تلكَ النّفخةُ التي نُفِخَتْ في مَريمَ، أنا ذلك الرّوحُ الذي هو روحٌ لعيسى.

- أَعلَمُ أنّه لا أَحَدَ غيري هو داخلَ الرّوح وخارجَ العالَم.

- يَسجُدُ لي منصورٌ [الحلّاجُ] والشّبليّ في المعنى، وأنا بينَ هذا وذاكَ،

- وقد مضَتْ آلافُ القُرونِ وأنا داخلَ سُتورِ الأُنْسِ والرّوح.

- وإذا كُنتُ أَضَعُ غِطاءً على عَينَيّ، فإنّني ظاهرٌ لِأَعْيُنِ أَهْلِ القلوب.

- [٣٢] لُذْتُ بِالصَّمْتِ بِأَمْر شَمْسِ تَبريز؛ ذلكَ لِأَنّني لِسانٌ في أَفْواهِ الصّامتين.

ويقولُ شَمْسٌ إنّ العِشْقَ هو الأَساسُ لِلْمَعرفةِ والعِلْم؛ وإنّه مِن قَلْبِ العاشِقِ تطْلُعُ الشّمسُ، ويتنبّأُ بِأَنَّ العِشْقَ سَيشْمَلُ العالَمَ كلّه، وسيبلُغُ سَيرُ العارِفِ في طَلَبِ الحقيقةِ ونَيْلِ المعرفة مرحلةً يُشاهِدُ فيها الحقَّ تعالى في مُخْتلَى القَلْبِ بِعَين القَلْب؛ وفي النّهاية يَعودُ في سَيْرِه نحْوَ الكَمال إلى المركزِ الفيّاض الأوّل، الذي هو الوجودُ المطْلَق:

إِذْ أَصيرُ عدَمًا، والعدَمُ كالأُرْغُن (*)، يتغنّى لي قائلًا: «وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ».

ذاتَ مَساءٍ، وفي إِحْدَى الجَمْعيّات الأدبيّة في طَهْرانَ، اقتربَ منّي شابٌّ كانَ يعْلَمُ أنّني قد أَلّفتُ عددًا مِن الكُتُب في موضوعِ حَياةِ مَوْلانا وآثارِه فسأَلَني:

- هَلْ تعتقدُ أنّ مَوْلانا جَلالَ الدّين، الذي اعتقدَ بِشَمْسٍ اعتقادًا قويًّا وكانَ يقولُ عنه

* - الأُرْغُن، والأُرْغَنُون، من آلاتِ الطَرب اليونانيّة [المترجم].

صَراحةً إنّه «رُوحُ رُوحِ الرّوح»، انبثقَتْ أَشعارُه في أَجْزاءِ **المثْنَوِيّ** السّتّة وغزَليّاتُه في **الدّيوان** الكبير مِن مَعين الإلهام والإِشراق، أَوْ مِن تجلّياتِ عَواطِفِ شَمْسٍ وفِكَره؟ هَلْ كانَ ينظِمُ الشّعرَ، حقيقةً، في لَحَظاتِ وَعْيٍ أو في لَحظَاتِ غِيابٍ لِلْوَعْي؟ ـ لماذا كان مَوْلانا يرى نفسَه أمامَ «تَرْجُمانِ الأَسْرار» و«عالَم المعاني» على نَحْوٍ صريحٍ وواضحٍ كالميِّت ويُنشِد:

أنتَ ذلكَ النّورُ الذي كانَ يقولُ لِمُوسى: «أنا الله»، «أنا الله»، «أنا الله»؟

وكانَتْ تلكَ أسئلةً عَجيبةً. وطلَبَ منّي أَنْ أَنهضَ مِن مكاني وأُحاضِرَ في هذا الشّأن، أو أكتُبَ له بالتفصيل. سألتُه: هَلْ لَدَيكَ اطّلاعٌ على التّصوّف والعِرْفان؟ ـ فأجابَ: في مَجالِ العِرْفان والتّصوّف النّظريّ قرأْتُ كُتبًا ومَقالات. سألتُه: أتسَلّم بِأنَّ كلَّ شاعرٍ محتاجٌ إلى مُثيراتٍ تدفعُه إلى النّظْم، وهذه المُثيراتُ هي التي تسوقُ الناظِمَ إلى عالَم الإبداع الذي لا حدودَ له. اعلَمْ أنّ دوافعَ مَوْلانا لم تكُنْ هي نَظْمَ الشّعْر، بَلْ كانَتِ انعكاسَ الهيَجانِ الدّاخليّ، كانَتِ النّارَ الكامنةَ في الذّهول والسُّكْر؛ لم تكُنْ دَوافعُه التخيّلَ الباطلَ والرُّؤيا، بَلِ الإشراقَ والإلهامَ. كانَتْ حكايةَ الولَه والعِشْق، وأَسْرارَ الضجّة المتلفّفة بالصَّيحة[1].

هي أَسْرارٌ من كَرامات السَّماع والموسيقا والعِشْق ومُعجِزاتها. ولَوْلا هَيَجانُ هذا الاضطرابِ العِرْفانيّ لَما استطاعت قوّةُ الإبداعِ والإلهام أن تتركَ تأثيرًا. [٣٣] وأنتَ تعرِفُ أنّ لِسانَ الغَيب، حافِظًا شاعرَ شِيرازَ المحترفَ لِلْعِشْق، لم يستَعْمِل في نَظْم

---

١ ـ عنْدَما أذكُرُ اسمَ الخمرة، تكونُ تلكَ أنتَ ونارَكَ وعنْدَما أَصيحُ تكونُ أنتَ في وَسَطِ الصَّيحة
فتعالَ، أنتَ مفْخَرُ تبريزَ، شَمْسُ التّبريزيّ أنتَ مِثالُ الأَصْلِ؛ لِأَنّكَ أصْلُ الوجودِ والإيجاد

غزَليّاتِه الرّائعة الأَرْبعِ مئةٍ والخَمْسينَ أكثَرَ مِن ثلاثةِ أَبْحُرٍ أو أربعة؛ أمّا جَلالُ الدّين فقدِ استَعْمَلَ مِن الأَبحُرِ الموجودةِ كلّها خمسةً وخمسينَ بَحْرًا، وهو عددٌ مثيرٌ جدًّا للدّهشة وشَبيهٌ بالمعجِزة، واستغلّها جميعًا.

ـ أَعلَمُ أو قرَأْتُ.. وهنا ضَحِكَ الشّابُّ المتفحِّصُ، وكان مَعْلومًا مِن سِيمائه أنّه لم يكُنْ راضيًا عمّا أقولُ ولم يكن مقتنعًا؛ ولهذا السّبب نظَرَ إلى عَينَيّ بِعَدِمِ رِضًا مكتومٍ وقالَ:

ـ إنّ شَمْسَ قَيْس الرّازيّ، المنظِّرَ الأدبيّ المشهورَ الذي أَوضَحَ الأُسسَ الصّحيحةَ لِنَظْمِ الشِّعْر في كتابه [المعْجَم في مَعايير أَشْعارِ العَجَم]، كتَبَ يقولُ:

عَلَى الشّاعِرِ في أَوّلِ الأَمْر أن يختارَ مضمونًا شائعًا، ثمّ وَزْنًا مناسِبًا، وبعْدَئذٍ يطلُبُ القافية.

أمّا مَوْلانا جَلالُ الدّين فقد كانَ في ليالي السَّماع يَدُورُ حَوْلَ عَمودٍ في مَنزِله، أو في صالة پروانَه، الوَزيرِ الأَعْظَم للسُّلْطان كَيْقُباذ السّلجوقيّ، وكانَ في حالِ سُرورِ الجَذْب وبِصُحْبةِ الأَلْحانِ الموسيقيّة والرّقْص يُنشِدُ الغَزَليّاتِ. وفي نَظْمِ أَشْعارِ المثْنَوِيّ أيضًا كانَتْ تستبدُّ به حالٌ خاصّةٌ أيضًا؛ فكَيفَ يتكوّنُ في ذِهْنه شَكْلُ القافيةِ وموضوعُها؛ هَلِ الإلهامُ والإِشْراقُ والشّهودُ والخلودُ تؤلّفُ كُلّيّةَ مَنْظوماتِ مَوْلانا وسَداها ولُحْمتَها؟

ـ قُلْتُ: الإلهامُ رَسُولٌ بَيّنَ مَوْلانا مِن طَريقِه خاصّيّاتِه الرّوحيّةَ ودقائقَه العاطفيّة. ولَوْلا شَمْسٌ لكانَ يمكِنُ مَوْلانا أنْ ينظِمَ الشّعْرَ، لكنّه لَنْ يكُونَ لمنظوماتِه جاذبيّةٌ ووَجْدٌ وهيَجَان. ولاشكّ في أنّ مُحِبّي مَوْلانا ومُريدِيه كانوا بعْدَ انتهاءِ السَّماع يقرؤون علَيه منظوماتِه. ويقالُ إنّ شَيخَ بَلْخ كان إذا انهلّ الدّمعُ مِن عينَيه سكَتَ، وسعَى إلى تَصْحيحِ ما يحتاجُ إلى تَصْحيحٍ مِنها. ولِأَنّه كانَ يستمدُّ الإلهامَ مِن عالَمه الدّاخليّ، ومِنْ شَمْسِ التَّبْريزيّ، ومِن العِشْق، التي لم تكُنْ مَرْئيّةً لَدَى الآخَرين، لم يكُنِ الاضطِرابُ

والهُيامُ يَسْمَحانِ له أن يستمدّ فِكَرَه، وهو في هَيَجانِ السّماع أو ثَوْرةِ الحالِ، مِن أَشْياءَ مُشاهَدةٍ محسوسة. وقد كان العَطّارُ والعِراقيُّ وحافِظٌ على هذا النّحْو؛ فضَعُوا جانِبَ العِشْق في الحِسْبان، ولا تَنسَوُا الإلهامَ، وهذا هو تَمامُ الشّعْرِ العِرْفانيّ وكُلّيّةُ المنظومات العِرْفانيّة. والرّؤيةُ الذّهنيّةُ والشّكْلُ الدّاخليّ لِأَشْعارِ جَلال الدّين في أَوْزانها المختلفة هي أيضًا في السَّماعِ كَرامةٌ، إِشْراقٌ. وقُدْرةُ التّخيّلِ لَدَى الشُّعَراء المحْتَرِفينَ للعِشْقِ، أي الهيَجانِ الذي يشارِكُ في [٣٤] الخَلْق والإبداع، لا تستفيدُ مِن الحافِظة فقط، بَلْ من القَريحةِ الذاتيّة والعِرْفانيّة التي تنبعُ مِن رُوحِ وجودِ جلال الدّين المجبولِ بالعِشْق.

عَرَضَ الشّابُّ سُؤالَه الأخيرَ، إِذْ سأل:

ـ كَيفَ يتدفّقُ الكلامُ على لِسانِ مَوْلانا كالسَّيْل وهو في أَوْجِ الهيَجان والذُّهول، انتَبِهْ إلى صُورةِ الكَلِمات، فهي مِثْلُ فُصوصِ الخاتَم، ذاتُ نَظْمٍ وتَرْتيبٍ عَجيب.

اضطُرِرْتُ أن أتحدّثَ أكثرَ عن حالاتِ العارفينَ، عن التغيُّرِ والاضطِرابِ والهُيام التي كانَتْ تحدُثُ لمَوْلانا في السَّماع، وهي غالبًا مقترِنةٌ بمُكاشَفاتٍ تحصُلُ لِقُلوبِ أَمْثالِ مَوْلانا، وفي الباطِنِ يقَعُ تجلّي الشّوق، وأن آتي بِأَدلّةٍ وأقتبسَ مِن كَلام الشّيخ عبد الله الأَنْصارِيّ[١] في كتابه «الرّسائل»:

«عِنْدَما تَزْدادُ نارُ المحبّة تأجُّجًا، تغدُو المحبّةُ عاجِزةً، ويُصبِحُ الدّاءُ دَواءً وينكشِفُ السّرُّ. السّرُّ ظاهِرٌ والرّجُلُ خَفِيٌّ، ما شَأْنُ العاشِقِ في هذا. في مَحَلّةِ الأَرْواحِ، أيُّ شَيءٍ أجملُ؟ تقديمُ الرّوح؛ فدَعْ عنكَ اليقينَ والظّنّ»[٢].

---

١ ـ هو عبدُ الله بنُ محمّد بن عليّ الأنصاريّ الهَرَويّ. شيخُ خُراسانَ في عصره. من نَسْلِ أبي أيّوب الأنصاريّ. كان عالمًا في اللّغة والحديث والتاريخ والأنساب. له عددٌ من المصنّفات (ت ٤٨١هـ).

٢ ـ رسائل خواجه عبد الله الأنصاري، ص ١٣٢، باختصار.

نعَمْ، الحصولُ على الوَجْد رُوحٌ، رِسالةٌ وكلامٌ مجهولٌ مِن دُنْيا الإلهامِ، لأَنّه عنْدَما تحدُثُ هذه الحالُ تَنْثالُ على اللّسان مِن القَلْب والرّوحِ، في الصُّبْحِ الصّادق، كلماتُ المكاشَفةِ والشّوقِ في مَوْقِعها لائقةً مُناسِبةً. وفيما بَعْدُ أنشَدَ حافظٌ [الشّيرازيُّ] في هذا المقام:

أيَّ لَحْنٍ عزَفَ مُطْرِبُ العِشْق، حَتّى في غِلالة السّماع أَغلَقَ بابَ الصّياحِ عَلَى أَهْلِ الوَجْد والحال؟

كانَ شَمْسُ التَّبْريزيُّ مُصاحِبَ مَوْلانا، ومُوجِدَ الولَه والتغيّر فيه. أمّا الزّيناتُ الكَلاميّةُ والتّراكيبُ العجيبةُ والغزَليّاتُ الموزونةُ في **الدّيوان** الكبير، والقِصَصُ الباعثةُ على الاعتبار في أَجْزاءِ **المثْنَوِيّ** السّتّة التي يعجِزُ القارئُ صاحِبُ النّظَرِ أحيانًا عن إِدْراك معانيها، فهي لمَوْلانا. وسِحْرُ بَيانه مُظهِرٌ لحالِ شاعِرِ بَلْخ وجَذْبه وهيَجان رُوحه، لأنّه يَستمدُّ مِن إلهامِ الغَيب. وفي هذا الشّأن يعترفُ مَوْلانا في **الدّيوان** الكبير:

يـا مَـنْ أنـتَ داخِـلَ رُوحِـي، تُلقّنُنـي الـشّعْر

لَـوْ تحمَّلْـتُ لـصَمَتُّ، أخـافُ أن أعـصيَ لـكَ

أيُّ شَخْصٍ يأخذُه في صَحْوِ ضميرٍ نحْوَ عالَمِ الإلهامِ والهيَجانِ والانفعال، وفي حالٍ من [٣٥] الذّهولِ يضطرُّه إلى البقاءِ في عالَم العَواطف والإحساس؟

أيُّ شَخْصٍ، أو أيّةُ قُوّة تُرغِّبُ مَوْلانا بالاتّجاه نَحْوَ سَفَرٍ خَفِيّ، حتّى يتجاوزَ نطاقَ التّرابِ، ويطْوِيَ المنازلَ منزِلًا منزِلًا، والمُدنَ مَدينةً مَدينةً، فيصِلَ إلى مكانٍ يظفَرُ فيه بِوادي الإنسانيّة والإنسانيّة؟

كُنْتَ في مَقامِ التّراب، فسافرْتَ في خَفاءٍ، وعنْدَما وصلْتَ إلى مَرتبةِ الآدَميّة لا تبقَ هنا.

والهيَجاناتُ الرّوحيّةُ عنْدَ مَوْلانا تَسْمُو على الحدّ النّاسوتيّ المتعارَف؛ وتُظهِرُ أشعارُه، كما يقولُ الأستاذ شفيعي كَدْكَني، جانبًا نفسيًّا؛ ومَوْلانا هو وحْدَه العارِفُ الذي يَدَّعي في منظوماته أنّه مزَجَ العِشْقَ والجُنونَ، واحترقَ بالشُّعَل المحْرِقة لِنار الإحساس دَفْعةً واحدة:

نُضْرِمُ العِشْقَ والجُنونَ، ونَشْربُ في كُلّ لَحظةٍ موجَ الدّم.

إنّنا نُدَماءُ شُرّابِ جهنّمَ الثّمِلينَ، الذين يَشُقّونَ السَّقْفَ الأخضَرَ [السّماء]

وهنا نستطيعُ، مَثَلُنا مَثَلُ بعضِ الباحثينَ خاصّةً الأستاذَ خليفة عبد الحكيم الباكستانيّ، أن نقولَ: إنّ مُرادَ مَوْلانا جَلالِ الدّين الرّوميّ، تَرْجُمانَ الأَسْرار شَمْسَ تَبريز، يجبُ أن يكونَ رَجُلًا ذا قُدراتٍ رُوحيّة خارقةٍ للعادة، لِكَي يستطيعَ أن يؤثّر في ذِهْن أعظَمِ رَجُلٍ في زمانه؛ فهو مُرادٌ خلَعَ على تجربته الدّينيّة صُورةً معقولةً، فنظَمَها في رائعته العظيمة، وأبدعَ منظومةً عِرْفانيّةً خالدةً، وَصَلَ فيها العِشْقُ الخالِدُ والعَقْلُ الكَوْنيّ إلى تَوافُقٍ كامل[1].

فقد كان أساسَ تفكيرِ مَوْلانا، تَبَعًا لِتعاليمِ شَمْسٍ الثابتة المحكَمة، أنّ العِشْقَ في ذاته خَلّاقٌ؛ ولهذا السَّببِ يتحدّثُ في كثيرٍ من أَشْعارِه عنِ التّفتّحِ والنُّموّ في دَولة العِشْق، ويفخَر:

كُنْتُ مَيْتًا صِرْتُ حَيًّا، كُنْتُ باكِيًا صِرْتُ ضاحِكًا،

جاءَتْ دَولةُ العِشْقِ، فصِرْتُ دَولةً راسِخةً

ويعتقدُ المرحومُ الدّكتُر غُلامْحُسين يُوسُفي أنّ:

---

١ ـ تاريخ الفلسفة في الإسلام، الجزء الثاني، ص ٣٣٠.

«... العِشْقَ[١]، عَلَى الحقيقة، هو الجوهرُ الأَصْليُّ والرّوحُ للعِرْفان، ولا أظنُّ أنّه توجَدُ كَلِمةٌ أكثرُ امتلاءً بالمعنى مِن كَلِمة العِشْق هذه في مُعجَم العِرْفان، حتّى إنّنا إذا أَردْنا [٣٦] أن نلخّصَ ونختزنَ كُلَّ المعاني العاليةِ والمفهوماتِ المشْرِقة في كَلِمةٍ واحِدة لم نجِدْ كَلِمةً قادرةً على ذلكَ غيرَ كَلِمة «عِشْق». هذا «العِشْقُ» الذي يتنزّلُ على مَوْلانا مِن العالَم كلّه، ومِثْلَ الشّمْسِ يجعلُ وجودَه حارًّا. وهو في رَأيه أَساسُ الكائناتِ وعالَمِ الوجود؛ ومِن هذه الوِجْهة يَرَى السّماءَ والشّمْسَ والأرضَ والجبالَ والبحارَ عاشقةً، والعِشْقَ «مُعْجَمَ العشَرةِ آلافِ مُعْجَمٍ» ومِعْراجًا نَحْو سُلْطان الجَمال[٢].

وبِناءً على هذا، يمكنُ القولُ، مثْلَما بيّنَ ابنُ سِينا في كتابه «رِسالة في العِشْق» الذي هو تكرارٌ لكتابات أفلاطون في «المأدُبة»، إنّ العِشْقَ شَبيهٌ بقُوّةٍ كَوْنيّة ذاتِ تأثيرٍ شاملٍ في الطّبيعة؛ العِشْقُ شَبيهٌ بِنَهضةٍ وحَرَكةٍ نحْوَ الجَمالِ والحُسْن الذي عُدّ مُطابِقًا للخَيْر والحَقّ، ومَظْهَرٌ لِلكَمال والمثَل الأَعْلى، أو قُلْ: العِشْقُ شَبيهٌ بمَيْلٍ ذاتيّ لِلعَقْل نحْوَ الخلود[٣].

ولَيْسَ غَرضُ المؤلّفِ هنا دراسةَ نظْرةِ مَوْلانا إلى العالَم، بَلْ أُريدُ فقط أن أقدِّمَ، في

---

١ ـ من كتاب «چشمه روشن»، ص ٢١٦.

٢ ـ إنّ أَجْزاءَ العالَمِ جميعًا عاشقةٌ ... وكلُّ جُزْءٍ في العالَمِ ثَمِلٌ بالوِصال
ولو لَمْ تكُنْ هذه السّماءُ عاشقةً، ... لَمَا كان لِصَدْرِها صفاء
ولو لَمْ تكُنِ الشّمْسُ عاشِقةً أيضًا ... لمَا كانَ في جَمالها ضياء
ولو لَمْ تكُنِ الأرضُ والجبالُ عاشِقةً، ... لمَا نبتَ فوقَ قَلْبها عُشْبٌ
ولو لَمْ يكُنْ لَدَى البَحْرِ خَبرٌ عن العِشق ... لَما كانَ له قَرارٌ في مكان

٣ ـ مِن كتاب «تاريخ الفلسفة في الإسلام»، الجزء الثاني، مقالٌ في شأن مَوْلانا جلال الدّين الرّوميّ، أعدّه الأستاذ خليفة عبد الحكيم مِن باكستان، ترجمه إلى الفارسيّة السيّد عبد الحسين آذرنگ.

صُورةٍ إجْماليّةٍ حولَ حَياةِ شَمْسٍ المكتنَفةِ بالأَسْرارِ ومَوْلانا البَلْخيّ، نِكاتًا يطّلعُ عليها القُرّاء. ذلكَ لِأَنّ مشْرَبَ مَوْلانا مشْرَبٌ يحيطُ بالحياة كلّها؛ وفي عقيدتِه أنّ الحياةَ كيمياءُ في حَالِ تحوّلٍ دائم، ولَدَى الإنسانِ أمَلٌ في أن يذْهَبَ إلى المكانِ الذي جاء منه، نحْوَ رِياضِ الاتّحاد بالحقيقة!

أمّا في شَأْنِ مدى انتشارِ هذا الكتاب، فإنّ السيّدَ الصَّديقَ مُديرَ دار نَشْر «انتشارات تهران»، الهائمَ بآثار مَوْلانا جَلالِ الدّين، طلَبَ مِنّي إثْرَ طَبْعِ كتابي «مَوْلانا أُرغَنونُ شَمْسٍ» وتوزيعِه أَنْ أُعِدّ كتابًا آخَرَ في شَأْنِ حَياةِ مَوْلانا، لِكَي يستفيدَ منه مُحِبّو مَوْلانا البَلْخيّ، وقد اختَرْتُ اسْمًا جَميلًا لِلكتاب: «بَحْثًا عن الشّمْس»، عَينِ تِلْكَ الشّمْسِ التي ذهَبَ مَوْلانا إثْرَ غِيابها مرّتَيْن إلى دِمَشْق. وقد جعَلَ عِشْقُ شَمْسٍ، وهِجْرانُ شَمْسٍ، مَوْلانا مضطَرِبًا وقَلِقًا وجَزِعًا؛ ثمّ في النّهاية، [٣٧] في السّفَر الثاني رأى مَوْلانا شَمْسًا في وجودِه، وازدَهى بِذلك؛ فإذا اختفَى شَمْسٌ فإنّ عِشْقَه باقٍ، وإذا ذهَبَ المغنّي فإنّ طَنينَ غِنائه ظلّ يُدْفِئ عقْلَ مَوْلانا وجُمْلةَ وجودِه وكِيانه. وإذا غابَتِ الكَأْسُ، فقد ظَلَّ سُكْرُ جامِ شَمْس. وقد سَكبَ مَوْلانا عظَمةَ عِشْقِه وأَلْقَه في أَجْزاءِ **المثْنَوِيّ** السّتّة وفي **الدّيوان** الكبير. ولا ينبغي أَنْ نَنْسى أنّ مَوْلانا في سَيرِه وسُلُوكِه في العِرْفان العِشْقيّ كان يَرَى نفسَه مُتَوَحِّدًا مع تَرْجُمانِ الأَسْرار «شَمْس»، حتّى إنّه سَمّى الكثيرَ مِن غزَليّاتِه العِشْقيّة باسْمِ شَمْسٍ، مَحبوبِه ومَعْشُوقه؛ لِأَنّ كثيرًا مِن أمورِ الإلهامِ التي كان يَسمعُها مِن قُطْبه الرّوحانيّ أثبتَها في أَشْعارِه باسْمِ رِسالته؛ ابتغاءَ أَنْ يستمرَّ عِشْقُه في الكائناتِ في صُورةِ عِشْقٍ عاصِفٍ ومُحْرِقٍ في التاريخ العِرْفانيّ للعالَم؛ وإنّه مِن حُسْنِ الحظّ أن يبقَى بعْدَ انقضاءِ قُرونٍ وأَعْصار. كانَ مَوْلانا يَرَى أنّ العِشْقَ هو أوّلُ مخلوقٍ، وقد صرَخَ: إنّ العِشْقَ نارٌ مقدَّسةٌ تُحْرِقُ كُلّ ما

خلَا اللهَ [جَلّ وعَلا] وتجعَلُه رَمادًا؛ والأَمْرُ مثْلَما يقولُ حافظ[١]:

طَرِيـقُ العِـشْقِ مملـوءٌ بالاضـطِرابِ والفِتْنـة، أيّهـا القلبُ

ويَـسقُطُ مَـنْ يَمْـضي في هـذا الطّريـق مُـسْرِعًا

ونك، الثاني عشَر مِن شهر دَي ١٣٧٦هـ.ش، ١٩٩٧م

---

١ ـ بعضُ أَقْسامٍ مِن هذا الكتاب نُشِرت في سَنواتٍ ماضية في صُورة إجماليّة في إحْدى مجلّات طهران، ولأنّها لَقيَتْ إقبالًا لدى فئاتٍ مختلفة رأينا أن توضَعَ مجموعةً في متناوَلِ مُشْتاقي مَولانا ومُحِبّيه بعْدَ النّظَر فيها وإكمالها، لعلّها تجدُ القَبول [المؤلّف].

لَيْسَ اضطِرابُنا مِن الحُزْنِ ولا مِنَ السّرور
وليَسَتْ حِكْمَتُنا مِن الخَيال ولا مِنَ الوَهْم
بَلْ إنّ لَنا حالةً أُخرى، وتلكَ نادرةٌ
فلا تُنكِرْ ذلكَ؛ لِأَنَّ الحقَّ واسِعُ المَقْدِرة
صِرْتُ ثَمِلًا، فلأُلْقِ بِنَفْسِي بينَ الغَوغاء،
فما البِئرُ، لِأَضْرِبْ خَيمتي في الخَلاء
(مَوْلانا ـ المثنوي، ١ /١٨١٣ ـ ١٤)

قَلَنْدَرٌ مُشاكِسٌ

[٣٨] في السّاعاتِ الأُولى لِيَومِ سَبْتٍ مشْمِسٍ، في السّادسِ والعشرينَ مِن جُمادَى الثانية عامَ ٦٤٢هـ، كان شَخْصانِ قَلِقان ويَمْشِيانِ بتَبخترٍ يَمُرّانِ بسُوق قُونِيَةَ. مَوْجَتانِ عظيمتان، بَحْرانِ زَخّاران، عالَمانِ عَجيبانِ وخَفِيّان، يَمْضي أَحَدُهما نحْوَ الآخَر. في سَماءِ قَلْبَي هذَينِ الرّجُلَيْن كانَتْ تطلُعُ شَمْسٌ أُخرى أَضْوَأُ وأَشَفُّ مِن وَراء السُّحُب، وفي الأفاقِ البعيدة كانَتْ أَمواجٌ مفعَمةٌ بِالعِطْر بِالتّعاوُنِ معَ النّسيم قد عطَّرتِ الفضاءَ. مَظْهَرانِ لِلفِكْر، كُرَتانِ ناريّتان للعِرْفان الإيرانيّ تقِفُ إِحْداهما أمامَ الأُخْرى على حِين غِرّة في وَسَطِ سُوقِ قُونِيَةَ، كأنّ لَدَيهما قَصْدًا إلى المُشاكَسة. شَمْسٌ التّبْريزيُّ الزّاهِدُ المتشرِّدُ، القَلَنْدَرُ المجهولُ ذُو التّركيبِ الملكوتيّ مِن العِشْق والصّفاء، يضرِبُ بيده على بَغْلِ مَوْلانا. كأنّ كُلَّ إنسانٍ وكُلَّ شيءٍ توقّفَ في تلكَ اللّحظة على حِين غِرّة. الطّوفاناتُ والأَعاصيرُ والبِحارُ التزمَتِ الصّمْتَ أيضًا. كأنّ الأَرْضَ أيضًا في تِلكَ الدّقائقِ العظيمة توقّفت عن الدّوَران. سَحَرَ مُطْرِبُ العِشْقِ ببصَرِه النافِذِ مَوْلانا، نَظَراتُهما النّاريّةُ انعقدَ بعضُها ببعض، صارَتِ الأَعْينُ تَرْجُمانًا لِلقُلوب، ووَصَلَ إلى الأُذُنِ صوتُ شَمْسٍ الأخّاذُ والمهتزّ:

ـ يا عاشِقَ التُّراب، يا مدرّسَ قُونِيَةَ ومُفتيها الكبير، قُلْ لي: أبو يزيدَ(*) أعظَمُ أم محمّدٌ [عليه الصّلاةُ والسّلام]؟

كأنّ صاعقةً نزَلَتْ على رُوحِ مَوْلانا على نَحْوٍ مفاجئ. وفي صَمْتٍ عميقٍ للرّوحِ وفَضاءِ النّبوغ أضْرَمَ شَمْسٌ، الرّثُّ الثّيابِ المغمورُ، بِسُؤاله شُعْلةً في رُوحِ مُدرِّسِ الرّوم الشّرقيّة الكبير. [٣٩] وقد حَانَ أن يُصْمِتَ هذا القَلَنْدرَ الجسورَ المتجبِّرَ، فيما يبدو، أمامَ أصحابِه ومُحِبّيه وتلاميذه؛ ولهذا أجابَ:

ـ محمّدٌ (عليه الصّلاةُ والسّلام) رَسُولُ الله، عظيمُ أَهْلِ الدّنيا وإمامُ البشَر، أيّةُ صِلَةٍ له ومُقايَسةٍ بأبي يزيدَ؟

في وَسَطِ الصّمْتِ المنغِّصِ للرّوح الذي استبدَّ بالحاضرين، شاءَ شَمْسٌ بجُرأةٍ أن يُظهِرَ الهيَجانَ والإيمانَ المنزَوِيَ المفعَمَ بالعِشْق. صاحَ، وبنَبرةِ الأَمْر قالَ:

ـ فلماذا إذَنْ قالَ النّبيُّ الأكْرَمُ: «ما عرَفْناكَ حَقَّ معرفتِكَ»؛ ويقولُ أبو يزيدَ: «سُبْحَاني، ما أَعْظَمَ شاني؟».

كأنّ هذا الرّثَّ الهيئةِ لَدَيه رِسالةٌ، تجعَلُه ينشغِلُ بمَحْقِ المَقاماتِ التي يمتلِكُها مُفتي المدينةِ العظيمُ المقتدِرُ، ويجعَلُ بِكَلامه كُلَّ ذَرّاتِ أَرْكانِ وجودِه ترتجفُ.

انتابَ مَوْلانا اضطِرابٌ مِن هذا الجوابِ العَجيب، فلم يستَطِعِ الاحتفاظَ بِتَوازنه الجِسْميّ والنفسيّ، فسَقَطَ على الأَرْضِ ثَمِلًا ذاهِلًا صامتًا. سارعَ إليه شمسُ الدّين، ومعَ الابتساماتِ الصّفراءِ الغاضِبةِ للمُريدينَ والأَصْحابِ أمسكَ بيَدِ مَوْلانا برِفْقٍ وساعَدَه على أن ينهضَ مِن مكانه. سلّمَ أُستاذُ الجامعةِ في الرّوم الشّرقيّة كالطّفلِ

* ـ يريدُ: أبا يزيدَ البِسْطاميّ، الصّوفيّ المشهور.

المطيع دونما عِناد. فتَحَ عينَيه، وقام بهُدوء. خاطَبَ شَمْسٌ مَوْلانا هَمْسًا: جِئتُ إلى هنا مِن جهة مُرْشِدي وشَيْخي رُكن الدّين السّجاسيّ، وقد قالَ لي: في قُونِيةَ مُحترِقٌ لابدّ مِن إضْرام النّار في طِينته. نظَرَ مَوْلانا إلى شَمْسٍ، فسَمِعَ أنغامَ اشتياقِ قَلْبه مِن لِسانه، فهدَأ رُوحُه وجِسْمُه وارتاحا، كان ثَمِلًا مِن جَرْسِ الكَلام الذي هو مَجْلًى لِآمالِه وأَشْواقِه، ورَأَى أنّه ذَرّةٌ أو ظِلٌّ إلى جانب رَجُلٍ رَثِّ الثّيابِ وغيرِ معروف؛ وأَحسَّ لأَوّلِ مرّة، وهو في مَقام الأستاذِ العظيم، بِأَنّه تحْتَ شُعاعِ إنسانٍ جامِعٍ حدّدَ أمامَه المَصير. وكانَ شَمْسٌ وجَلالُ الدّين يَمْشِيانِ في الطّريق متبخترَيْن ويخطُوانِ، وكان المارّةُ وتَلاميذُ مَوْلانا ينظُرونَ بِتعجّبٍ إلى رَجُلٍ مجهولٍ رَثّ الثّياب. وكان جَلالُ الدّين يَسْعى إلى أن يُظهِر نفسَه، كالسّابق، ذا وَقارٍ وحِشْمة، ولكنّ طَنينَ السّؤال وصَلابتَه حتّى الآنَ يَضِجّ في رُوحِه كقَصْف الرّعد.

وكانَ الرّجُلُ الزّاهدُ التّبْريزيُّ يحْمِلُ جَلالَ الدّين بِأَمواجِ جَذَباته الرّوحيّة إلى حَيثُ يستطيعُ أن يتعرّفَ عالَمَ العِشْق والهيَجان المترامي الأَطْراف. وأَثناءَ عُبورِ جَلال الدّين أمامَ حُجْرته توقّفَ على نَحْوٍ مفاجِئ [٤٠] وأشارَ بيَدِه إلى تلاميذه ومُريديه بِأَنْ ينصَرِفوا، وعانَقَ المجهولَ التّبْريزيَّ، وأخذَه إلى حُجْرته، ثمّ جلَسَ على رُكبتَيه وقبَّلَ يدَه. وفي رِوايةٍ أنّهما أقاما لمدّة أربعينَ يومًا في تِلكَ الزّاوية، ولم يأذَنا لِأَحَدٍ بدُخولِ خَلْوتهما. وكأنّ القَلْبَ الحزينَ لجلال الدّين البَلْخيّ وجَدَ الشّفاءَ في الصّيدليّةِ الباعثة لِلْحياة، المتمثّلةِ في ذلكَ الرّثّ الثّياب المجهول، تدريجيًّا، بما يُشْبِه المُعجِزة. ويعترفُ مَوْلانا في خَلْوة الضّيفِ المجهولِ بالقول: أَحْسَستُ بعْدَ هذا بِأنّني لَستُ شيئًا، لَسْتُ شيئًا، لَسْتُ حتّى ظلَّه. ولا شكّ في أنّ هذا الطّبيبَ سيعالجُ أَحْزاني وآلامي. ولكنّنا

رَجُلانِ يَجْلسانِ في خَلْوةٍ ممتلِئَين بالعِشْق، ولَعلّنا بِسُلْطانِ العِشْق في المستقبل ننتصِرُ على أقوى المصاعب.

على أنّ مَوْلانا الذي اعتادَ على أَنغامِ شَمْسٍ المهيِّجة في عالَم الحال تدريجيًّا، ترَكَ منصِبَ التّدريسِ وكُرسيَّ الوَعْظ وتخلّى عن ضَجيج عالَم المعقول، وودّعَ حياةَ الظّاهر ثَمِلًا بخَمْرةِ الشَّوق والعِشْق. واستبدّ شَمْسٌ، في هذا اللّقاء، بالقَلْبِ والرّوح المفعَم بالفِكَر والرّؤى المختلفة لَدَى فَقيهِ الرّوم الشّرقيّة ومدرّسها الحنَفِيّ. وفي هذا المِعْراجِ ذي العظَمةِ المعْنَويّة أَثبتَ أنّه أُعجوبةُ العِشْق، ومَلّاحُ بَحْرِه الذي لا حدودَ له. والمحورُ الأصليّ لِفِكَره المتعالية العِشْقُ والجَمالُ والكَمالُ والشّوقُ والهيَجان، ونَظْمُ الشّعْر، والسَّماعُ؛ هذا الذي يُبعِد عن ساحة الوجودِ اليأسَ والقُنوطَ... وإنّ لِلْعِشْق تأثيرًا كبيرًا في إثارة جَذَباتِه الرّوحيّة. وقد ذكَرَ لجلال الدّين أنّ الأَسْفارَ البعيدة إلى المُدُن البعيدة قد ساعدَتْه، وأنّه كانَتْ له معَ أَعْلامِ العِلْم وأَقْطابِ السَّيْر والسُّلوك مُباحثاتٌ ومجادَلات، وقد طوّعَ كثيرًا مِنهم مِن طَريقِ اللّطائف العِرْفانيّة الجديدة والأصيلة. كان يحيطُ بالمعارِفِ الإسلاميّة، وتتوارَى في بَيانه قُدرةٌ عظيمةٌ على الإقناع، ويمتلكُ القدرةَ على تصوير البَحْثِ العِرْفانيّ الإنسانيّ في سِيماء العِشْق، ولا يتعاملُ فقط معَ المقولات العِرْفانيّة، ويَرَى لِلْكائناتِ انعكاسًا في مرآة المحبّة والعِشْق، وقد تحرّرَ مِن نفسِه وارتبطَ بالرّوح الأزَليّ. وقد رُويَ أنّه في أثناء سِياحته في بغدادَ التقَى الشّاعرَ والعارفَ الكبير في إيران أَوْحَدَ الدّين الكِرْمانيّ في أَحَدِ الخَوانِقِ [الزّوايا الصّوفيّة]. وفي هذا اللّقاء سَأَلَه:

ـ في بغدادَ، بِأَيّ عَمَلٍ أنتَ مشغولٌ؟ ـ فأجابَه أَوْحَدُ الدّين، الذي لدَيه فِكَرٌ صُوفيّة، على الفَور:

[٤١] أَنظُرُ إلى القَمَر في وَسَط طَسْتِ الماء!

يُضْفي شَمْسٌ على كَلامِه مَلاحةً وعُذوبةً ساحِرةً ويقولُ:

ـ إذا لم يكُنْ في قَفاكَ دُمَّلٌ، فلماذا لا تنظُرُ إليه في السّماء؟

فيهتاجُ أَوْحَدُ الدّين الذي لَدَيه اطّلاعٌ كاملٌ على الرّموز والاستعارات العِرْفانيّة، ويرجُو ويلتمِسُ ويقولُ: منذُ اليومِ أُريدُ أن أكونَ مُريدًا لكَ. فيجيبُ شَمْسٌ بابتسامةٍ: لا تقْدِرُ على صُحْبتنا.

إنّ شَمْسًا، باعترافِ مَوْلانا، أستاذٌ، وكان يجيبُ حتّى عن الأسئلةِ المتّصلةِ بِزَوايا الرّوح والقَلْب بِصَراحةٍ وإيجاز، ولم يتأخّرِ الوَقْتُ حتّى أمسَكَ بيدِه بِجَلال الدّين كالرَّبابِ أو الأُرغُن، أو كالنّاي يضَعُه بينَ شفَتَيه ويعزِفُ عليه، ويحْرِقُ بِشُعَل أنفاسِه المُحْرِقة جَناحَه وريشَه، أو يُسقِطُه.

كان السّاحِرُ التَّبْريزيُّ ـ بِشَهادةِ مَوْلانا ـ متبحِّرًا في عُلومِ زَمانه، وكان يَدْرُس لِسَنواتٍ في دُور العُلومِ في حلَبَ ودِمَشْقَ على مشاهيرَ مِثْلِ ابنِ عَرَبيّ، وانهمَكَ بالرّياضاتِ في حُجْرته. وفي بَيانِ حاله ذَكَر في كتاب «**المقالات**»(*) قَولَه: «كُنتُ طِفْلًا، كُنْتُ أَرى الله [كَشْفًا]، وكنتُ أشاهِدُ الملائكةَ، وكان لَدَيّ اطّلاعٌ على المغيّبات؛ وكُنْتُ أظنُّ أنّ الناسَ جميعًا يَرَون مِثْلي، ثمّ عَلِمتُ فيما بعْدُ أنّهم لم يكونوا يَرونَ مِثْلَ ما أَرَى. كانَ الشّيخُ أبو بَكْر، مُرْشِدي، يمنعُني مِن الإعلام بذلك».

كانَ شَمْسٌ يحترقُ بِشُعَل مُشاهَداته وكان يُعاني، إذْ لم يستطِعْ أن يتلوَ الأنغامَ

* ـ هو كتابٌ لشَمْس تَبريز، وقد حقّقه الدّكتُر محمّد علي موحِّد، ونشَرَه بعنوان: «مقالات شمس تبريزي» وصدرت طبعتاه الأولى والثانية عن دار خوارزمي [المترجم].

الجذّابةَ لِوادي الحقّ والحقيقة والإلهام في عالَمِ الغَيب على مَسامِعِ مَن لَيْسُوا أهلًا لذلك. وما أكثرَ الأيّامَ واللّياليَ التي كان فيها في انتظارِ الظّفَر بِنَجيٍّ يُفْشي له أنّ هناك عالَمًا آخَر ينثُرُ النّورَ ويخلُقُ العِشْقَ. وفي النّهاية أُمِرَ بِأَنْ يُفْشيَ لمَوْلانا أَسْرارَ صَفَحات الملَكوت، ويكشِفَ سِرَّ جَلالِ الأَبديّة بِفَهْمه وفِراسته، على نَحْوٍ خَفِيٍّ، في حُجْرة مَوْلانا في قُونِيةَ. ولم يكُنْ لَدَى شَمْسٍ في تِلك اللّحظاتِ الحسّاسة القُدْرةُ على أن يخزِنَ الأسرارَ في صَدْره. وقد حدَثَ تبادلٌ لِلْحَديث في أكثر المضامين العِرْفانيّة والتحوّلات الرّوحيّة إثارةً وبلاغةً، بَلْ حتّى في سِرّ دَرْبِ الأَسَد في لَون المَجَرّة، في إِحْدَى الرّوايات، في خَلْوة الأربعينَ يومًا، بينَ الحبيبَين والعاشقَين المخلصَين:

ـ إنّ الشّمْسَ هي دَليلُ الشّمْسِ، فإذا كُنتَ في حاجةٍ إلى الاهتداء فلا تُدِرْ وجهَكَ عنها.

ـ وإِنْ كانَ الظّلُّ يقدِّمُ لكَ عَلامةً لهذه الشّمْس، فإنّ الشّمْسَ الخالدةَ تُلقي عليكَ نُورًا روحيًّا(١).

[٤٢] في أَحَد أيّامِ العُزلة والانزِواء سأَلَ مَوْلانا شَمْسًا: أَلا تُبيِّنُ لماذا وكيفَ جِئتَ إلى قُونِيةَ؟ ـ فقالَ: كانَ سَببُ سَفَري إلى قُونِيةَ أنّه في إحدى اللّيالي في المناجاة كُنتُ أتضرّعُ وأقولُ لِلْمَولى تعالى: أَما مِنْ أَحَدٍ من خاصّتِك يقْدِرُ على صُحْبَتي؟ ـ فبشّرَني مَلَكُ عالَم الغَيب أنّه: إِنْ شِئتَ نَديمَ صُحْبةٍ فامْضِ إلى قُونِيةَ. فكانَ أن وصَلْتُ إلى حضْرِتكُم.

وكتبَ أَحَدُ كُتّاب التّذاكِر(٢) المعاصِرين لمَوْلانا قائلًا في شأن شَمْسٍ: شَمْسٌ في

---

١ ـ المثنوي، ج ١/١١٦ ـ ١١٧.

٢ ـ هو الأفلاكيّ في كتاب «مناقب العارفين».

البَيانِ والتقرّب له مَشْرَبُ موسَى (عليه السّلامُ)؛ وفي التّجرّدِ والعُزْلة له سِيرةُ عيسى (عليه السّلامُ)؛ وحتّى زَمانِ مَوْلانا لم يكُنْ لمخلوقٍ اطّلاعٌ على حاله؛ كان دائمًا في غِطاءٍ مِن الكَرامات، وكان يُخفي شُهرتَه على الخَلْق. ومِن هذه الوِجْهة كان جَلالُ الدّين يَعُدّ شَمْسًا عِلاجًا لِلكِبْر والتّعاظُم، وأَسْمَى من جالينوسَ[1].

وفي أَشْعارِ مَوْلانا وأَناشيده، يُظهِرُ شَمْسٌ منزلةً عاليةً، يغدو شَمْسٌ كعبةً لمَوْلانا وشُغْلًا ونارًا وجَنّةً. ومهما يكُنْ فإنّه يمكنُ القولُ إنّ صَيْحاتِه كانَتْ تجذِبُ النّاسَ إليه مِن بَوّابة الرّومِ إلى آفاقِ بَلْخ، إذ كانوا يُصغُونَ على نَحْوٍ أفضلَ إلى كلام مَوْلانا، الذي أتى في دُنيا الأدَبِ والعِرْفان بِعالَمٍ جديد. فلأوّلِ مرّةٍ، كان فقيهٌ كبيرٌ، عابِدٌ زاهِدٌ وَرِعٌ، بيدرَ وجودِ العُشّاق، ويمزِجُ كلّ قِيَمِ الحياة بعضها ببعض، وفي حالٍ من البكاء والأنين يصِفُ معشوقَه على هذا النّحو:

أَعْلَنتُ هذا الكلامَ: إنّه شَمْسي ومعبودي

شَيْخي ومُرِيدي، دَائي ودَوائي

وقد قالَ مَوْلانا: إنّه في أَحَد الأيّام كانَ مالِكُ الجبروت قد أَظْفَرَني بِعَوالِمِ الملَكوت والسُّلوك، وعنْدَما وصَلْتُ إلى السّماء الرّابعة رأيتُ كُرةَ ذلك الفَلَك مظْلِمةً، فسأَلْتُ قُطّانَ ذلكَ الحِمى عن غياب الشّمْسِ، فسَمِعْتُ مِن القُدْسِيّينَ قولَهم: ذهبَتْ شمْسُنا لِزيارةِ سُلْطانِ الفُقَراء شَمْسِ الدّين التّبْريزيّ، وعنْدَما عُدتُّ إلى الفَلَك الرّابع رأيتُ النّيِّرَ الأعظَمَ في مركزه منشغِلًا بِإفاضةِ الأنوار وإشعاعِ الضّياء.

١ـ يا مَنْ هو الدّواءُ لِغُرورنا وكِبْرِنا، يا مَنْ هو لَنا مِثْلُ أَفلاطونَ وجالينوسَ (المثنوي، ٢٤/١)

[٤٣] صارَ مَوْلانا المفتَتَنُ الوالِهُ يَرقُصُ في الأَنوارِ المُبهِرةِ لعَينَي شَمْسِ النّفّاذَتَين. وبِسببِ الافتتانِ بِشَمْسٍ انشغَلَ كثيرًا بِالصّلاة والصّيام، إذ كانَ يَصومُ يومَيْن ويُفطِرُ يومًا. وذلكَ عنْدَما كانَتْ شَمْسُ حقيقةِ شَمْس، كما يقولُ الأستاذُ فُروزانفَر، تسْطَعُ عَلَى مَشْرِق رُوحِه، وصارَ العِشْقُ فَعّالًا في قَلْبِ مَوْلانا، واختارَ شَمْسًا مُرْشِدًا في الطّريق، ثمّ بإشارةٍ منه دخَلَ في السَّماع(١).

وقد انتابَتِ الحَيرةُ أَحبّاءَ مَوْلانا وتلاميذَه والمتعلّقين به بِسببِ الانقلابِ الذي حَدَثَ في الرّوح الهائج لحبيبهم وأستاذهم، وتأثّروا، وكانوا يعترِضونَ على شَمْس، ويقولون عنه إنّه غَيرُ مُبالٍ ومُستَهتَر؛ وكانوا يَزْعُمون أنّ مَوْلانا صارَ عابدًا للشَّمْس. وكان لَومُ النّاس، خاصّةً ذَوي الفِكْر الجافّ الغِلاظِ القلوب، يَزيدُ قوّةَ العِشْق والوَلَع عنْدَ مَوْلانا. أحيانًا كانَتْ جَماعةٌ تسدّ الطّريقَ أمامَ شَمْس، ويقولون عنه إنّه ساحِرٌ وشَيطانٌ كبير، ولم يعودوا يعْلَمونَ أنّ شَمْسًا له قَلْبٌ مُنعَقِدٌ بمَحبّة مَوْلانا. وكان مَوْلانا يطلُبُ إلى محبّيه بعَجْزٍ أن لا يوجّهوا الإهانةَ لِشَمْس، كانَ يقولُ إنّ شَمْسًا مَظْهَرٌ عظيمٌ لِعالَم الخَلْق، شُعاعٌ جاءَ إلى قُونِيةَ مِن ناحية أَفلاكِ العِشْق.

في أَحَدِ الأيّام سأَلَ أَحَدُهم مَوْلانا: أيُّ واحِدٍ مِن أحبّائكَ مَقامُه أرفَعُ وأَسْمى مِن ناحية الأهمّيّة والمعْنَوِيّة؟ - فأجابَ مَوْلانا: «شَمْسٌ هو الشَّمسُ، وصَلاحُ الدّين زَرْكُوب قَمَرٌ، وحُسامُ الدّين نَجْمٌ». ومنذُ ذلكَ اليوم نهَضَ المتعصّبونَ والقِشْرِيّون والحُسّادُ جِهارًا نَهارًا، وفي المجامِعِ المختلفة، لِتقريعِ مَوْلانا وإيذائه، وبدَؤوا العَداوةَ والمخاصَمَةَ لِشَمْس. قالَتْ عنه جَماعةٌ إنّه ساحِرٌ، وقالَ عدَدٌ إنّه فاجِرٌ، وحِينًا كانوا

١ـ يا مُطْرِبَ الرّوح، إذا صارَ الدُّفُّ في اليَدِ — فاعزِفِ اللّحْنَ الذي يُسْكِرُ الحبيبَ
فإنّ ذرّاتِ العالَمِ بسببِ عِشْقِ تلكَ الشّمْس — جاءَتْ راقصةً مِن العَدَمِ إلى الوجود

يَرْمُون شَمْسًا بالحَجَر في الشّوارعِ والأَسْواق، حتّى إنّه في النّهاية لم يَعُدْ شَمْسٌ يتحمّلُ الإهانةَ، واضطُرّ بعْدَ مضيّ ستّة عَشَرَ شَهْرًا، على نَحْوٍ مفاجئ، إلى أن يَتْركَ مَوْلانا ويخرُجَ سَريعًا مِن قُونِيَةَ، أو، في أَحَدِ الأقوال، يفرّ.

وفي فِراقِ شَمْسِ العِشْق والعِرْفان، انشغَلَ مَوْلانا بالبكاء والنُّواح على امتدادِ السّاعات والأيّام، إلّا في اللّحظات التي يَحُلّ فيها الظّلام، لا صاحِبَ عنْدَه، وأحيانًا يَلْجأ إلى السَّماع. وفي اللّيلِ كان ينظُرُ إلى القَمَر والنّجوم، لعلّ شَمْسًا أيضًا ينظر إليها في أَصْقاعٍ [٤٤] بعيدة، فيَلْتقي نظَرُه بنَظَراتِ مَوْلانا في مُلْتقَى القَمَر والنّجوم. كان رُوحُ مَوْلانا، في غَمْرة أَلَمِ اليأس، يُحِسّ أيضًا بصَفاءٍ ملَكوتيّ. ولا شَيءَ مِن الكُتُبِ والأَشْعارِ والمَدارس، ولا أحَدَ مِن الأَصْحاب، كانَتْ لَدَيه جاذبيّةٌ لدَى مَوْلانا. غدا كُلُّ شيء عنْدَ مَوْلانا صامتًا وخاليًا، وكانَ الوجودُ والعَدَمُ عنْدَه سِيَّين. ظَلَّ مَوْلانا باحِثًا عن مَطْلوبه الرُّؤيَويّ، عن أمَله وعِشْقه. وجاءَ الخَبَرُ بِأَنّ شَمْسًا في دِمشْقَ، فأنشأَ مَوْلانا أَشْعارًا عِشْقيّةً ومفعَمةً بالحُرَق والأَشْواق، وبعثَ بها إلى دِمشْقَ، لعلّ شَمْسًا بِتأثيرِ مُطالَعةِ تلك الأَشْعار المُحْرِقة يتلطّفُ ويَرِقّ فيأتي، ويجعَلَ بَيتَ أَحْزانِ مَوْلانا مُضيئًا ومنوَّرًا ومَليئًا بالنّشاط[1]. وقد اضطَرّتِ الخَواطِرُ الباقيةُ مِن الأَمَدِ القصيرِ والسّريعِ لِلمَحبّة

١ـ أيّتُها النّارُ المطفئةُ للنّار، خرِّبي هذا البيتَ

وخُذي مِنّي هذا العقلَ، ومِن جديدٍ، ومنذُ البداية، اجعَليني مجنونًا

واكْسِري بابَ الحانة، وخُذي الكأسَ سريعًا،

وحَطِّمي هذه الخُرافةَ، واجعَلي زُهْدي خُرافةً

وهاتِ، أيُّها السّاقي، تلكَ الكأسَ، وخُذْ مِنّي الهدوءَ،

دَعْ تلكَ الأحْلامَ... ...

أَيْ شَمْسَ تَبْريز، تعالَ، فقَدْ صِرْتُ في عَناءٍ مِن نَفسي

فأَضْرِمِ النّارَ في عَقْلي، ومِن جديدٍ، ومنذُ البداية، اجعَلْني مجنونًا

أو: =

والصُّحْبة بينَ مَوْلانا وشَمْسٍ، سلطانَ العاشِقينَ مَوْلانا جلالَ الدّين محمّدًا أن ينشغلَ بالإنشادِ والتّغريد في عالَم العِرْفان الفسيح. وكان يعرِفُ جيّدًا أكثرَ الأنغامِ تأثيرًا، النّغمةَ التي تُنشَدُ عنْدَ استِحْكامِ اليأس:

ـ ومَتَى يَسْعَدُ قَلبُه وأنا لم أحترق، يا مَنْ قَلْبي أَهْلٌ لـهُ ومَنزِل؟

ـ وتَظَلُّ تُحْرِقُ مَنزلي، أَلا فَلْتُحْرِقْ، فمَنْ ذلكَ الذي يقولُ: لا يجوز؟[1]

= أَيّتُها الشّمْسُ، مَرّةً أُخْرى، املَئِي البيتَ بالنّور سُرّي الأَحِبّاءَ، وأَعْمي الأَعْداء
واطلُعي مِن وَراءِ الجبَل، واجعَلي الحجارةَ عَقيقًا، ومرّةً أُخرى أَنضِجي الحِصْرِمَ واجعَليه عِنَبًا.
(ديوان شَمْس تبريزي، الغَزَلية ١٩٦١)

١ ـ المثنويّ، ٦/٦٢٢ ـ ٢٣.

ـ لابدَّ لي مِن عاشقٍ كلّما قامَ
قامَتْ قِياماتٌ مليئةٌ بالنّار مِن كُلّ ناحية
ـ نُريدُ قَلْبًا مِثْلَ جهنّم، لِكَيْ يُحْرِقَ جهنّم
ويثيرَ منّي بَحْرٍ، ولا يفرّ مِن مَوْج البَحْر
ـ عندَما يمزّقُ بنُوره حُجُبَ القَلْبِ السَّبْعَ مئة،
يأتيه مِن العَرْش هذا النداء: بِاسْم الله، ما شاءَ الله
(ديوان شَمْس، الغزَليّة ٥٧٥)

طوفانٌ في قُونِية

[٤٥] نظَمَ مَوْلانا في أَثْناءِ الفراقِ المُوجِع لِشَمْسٍ أنغامًا على وَزْن أغاني السّماء الخالدة. أَغلقَ البابَ أمامَ المحِبّين والأَصْحاب. أَمسكَ بالقَلَم وأثبتَ على الورَقِ شَرَرًا مُحْرِقًا كانَ ينبعِثُ مِن أَعماقِ رُوحِه في صُورة كلامٍ موزون. ومِن كُلّ كَلِمةٍ لمَوْلانا كانَتْ تنبعثُ رائحةُ الانتظارِ والأمَل والخوف والانجذاب والعِشْق. وكانَ مَوْلانا في غاية اليَأْس يقولُ: لَيتَني امتلكْتُ القُدرةَ على أَنْ أَجْلِسَ فوقَ عَجَلة الزّمانِ، وأَطيرَ نحْوَ الشّمْس (شَمْس تَبْريز) راقِصًا.

كانَتِ اللّحظاتُ تمضي ببطء، ولم يَعُدْ لِلأيّامِ واللّيالي وحتّى لِبيته وحُجْرته وأصدقائه وأحبّائه وأُسْرته أيّةُ جاذبيّةٍ لدَيه. ولم يَعُدْ لِطُلوعِ الشّمْسِ وغُروبها عنْدَ مَوْلانا أيُّ رَوْنقٍ وأَلَق. ولم يَكُنْ يُحِسّ بالبهجة والسّرور عنْدَما لم يكُنْ مطلوبُه الرّوحيُّ موجودًا في قُونِيةَ، هذا المطلوبُ الذي كان يسيرُ معَه في فضاءِ الخُلُود اللّألاء، في نُورِ القَمَر وضِياء الشّمْس. كأنّه قد أُسِر في دُوّامة اليأس والضّياع المُرعِبة.

المَلاذُ الأخيرُ لمَوْلانا كان شَمْسًا. وابتغاءَ وَصْفِ عُمْقِ افتتانه وقوّةِ إيثارِه وإهماله لنفسِه، يكفي أَنْ ننظرَ إلى أشعارِه التي نظَمَها في فِراق مُرادِه وقُطْبه، ونَرى جَذْبَ العِشْق

السَّرْمديّ كامِلًا، في آثاره وفي الحسْرة المكتومة في صَدْره.

[٤٦] وقد ذكَرَ مَوْلانا في أيّامِ الفِراق، في واحِدةٍ مِن غزَليّاته، أنّه كان معَ شَمْسٍ في السّماء ـ نعَمْ، كان زُهَرةً في سَمائه ـ قِبْلَةَ وَجْهِه، بُستانَه وربيعَه، روحَه ودُنياه. وفي نهاية الكَلام، كانَتْ تصِلُ إلى الأُذُن مِن كلّ كَلمةٍ مِن كلماته صَرْخةٌ مجَلْجِلةٌ كالرَّعْد، حَيثُ يقول:

شَـيْخي ومُـرادي، دَائـي ودَوائـي، أَفـشَيْتُ هـذه الكَلِمـةَ: هـو شَمْـسي

وهنا يصْمُتُ كلُّ شَيء، إِذْ أَنزلَ مَوْلانا أفصحَ الكَلماتِ وأبلغَها في أناشيده الغنائيّة، واستطاعَ بمَدَد ذِهْنه المزدَهِر أن يوجِدَ مُستقَرًّا مَليئًا بسِحْر الكلام، وأن يقولَ بِالأوزان شِعْرًا يُطرِبُ ويُظهِرُ عالَمَه الدّاخليّ المضطرِبَ، شعرًا سلسًا ومُنسابًا ومنسَجمًا ومؤثّرًا؛ لِكَي يعْلَمَ الآخَرون، بِقراءته، مَنْ كانَ شَمْسٌ وأيّةَ منزلةٍ احتلّ. بدَأَ طوفانٌ ثائرٌ لا يهدَأ، وكانَ شَرَرُ الفِراقِ الجسورُ يُرسِلُ بالسِّهام إلى رُوحِ مَوْلانا الحسّاس؛ ذلكَ لِأَنّ الآلامَ التي كانَتْ تنبعثُ مِن داخِلِ أغلالِ العِشْق والهُيام كانَتْ تُخرِجُ في صَدْرِه المملوء بالألَم كلامًا ضاجًّا؛ وفي النّهاية أوصلَ مَوْلانا شَمْسًا إلى المنزلةِ التي كانَ يتطلّعُ إليها، وعرّفَه لِلْجميع.

والآنَ يخطُرُ في الذّهْن هذا السّؤالُ: في الأَرْبعينَ يومًا التي خَلا فيها شَمْسٌ معَ مَوْلانا، ماذا علّمَ محبوبَه حتّى سحَرَه وجذَبه؛ فكان يصنَعُ الأنغامَ في مَدْح مُراده، ويقولُ عنه إنّه «رَبّه»، غيرَ وَجِلٍ مِن المتعصِّبينَ ومتحجِّري الفِكْر في قُونيةَ؟

وقد أجابَ سُلطانُ وَلَد، ابنُ مَوْلانا، عن هذا السّؤال على هذا النّحو:

إنّ عِشْقَ مَوْلانا شَمْسًا شَبيهٌ ببَحْثِ موسى عن الخضر؛ فمُوسى، على تَحلّيه بِمَقامِ

النُّبوّة والرّسالة ورُتْبة «كَلِيم الله»، كان يبحَثُ عن رِجال الله. مَوْلانا أيضًا، على كُلّ ما لَهُ مِن كمالٍ وفَضْلٍ وجَلال، كان يُمْضي الأيّامَ في طَلَبِ الأكْمَل، إلى أن ظَفِر بِشَمْسٍ الذي كانَ أحَدَ مَسْتُوري قِباب الغَيرة، فصارَ مُريدًا ووَضَعَ رأسَه على قَدَمه، وفَنِي دَفعةً واحِدةً في أَنْوارِه.وكانَتِ الحالُ في شَأْنِ شَمْسٍ أن يصوِّرَ للنّاسِ صُورةَ مَوْلانا اللّألاةَ والأدبيّةَ ومنزلتَه العِلْميّةَ وبصيرتَه، وأن يبيّنَ: أيَّ مركزٍ في الضّوء احتلّ في دائرة العِرْفان؟

[٤٧] اقرؤوا كتابَ العارِفِ الكبير مَوْلانا شَمْسِ الدّين محمّد بن مُلْكْداد التَّبْريزيّ المُسَمّى «**مَقالات شَمْس**»، فقد تحدّثَ فيه عن مَوْلانا بقَدْرِ ما هو متاحٌ. ففي هذا الكتاب يوصِلُ شَمْسٌ صوتَه السّماويَّ إلى أُذُنِ القارئ البَحّاث قائلًا: إنّ مَوْلانا بحرٌ في العِلْم والفَضْل، لكنْ مِن الكرَمِ أن يسْمَعَ كلامَ المسكين [شَمْس]. وأنا أعلَمُ، والجميعُ يَعْلَمونَ، بأنّه في الفَصاحةِ والفَضْل مشهورٌ. ولا أحَدَ في العالَم يشْبِهُ مَوْلانا إلى هذه السّاعة (بعْدَ خَلْوةِ مَوْلانا وشَمْس)؛ وفي الفُنونِ كلّها، سَواءٌ الأصولُ والفِقْهُ والمنطِقُ والنّحو، يتحدّثُ معَ أربابها بقُوّةِ المَعْنى، ويكونُ حديثُه أفضَلَ مِن حديثهم وأجملَ وأحسَنَ، إنِ اضطُرّ إلى ذلك، وشاءَ قلْبُه، ولم تمنعْه المَلالةُ.

كان شَمْسٌ يَرى مَوْلانا في كُلّيّته محبّةً وإخلاصًا، وكان يريدُ ويؤمِّلُ أن يجِدَ على امتدادِ البسيطةِ إنسانًا يدمِجُ صوتَه بصَوته، ويَسْمَعا معًا بِأُذنٍ واحِدةٍ الصّدَى الرّمزيَّ الذي يثبّتُ السّماواتِ، ولَدَى الأرْضِ أيضًا استعدادٌ لتنفيذ أَوامره. ويُقِرّ شَمْسٌ قائلًا: كنتُ أنشُدُ شَخْصًا مِن جِنسي لِأَجعلَه قِبْلةً، وأَستقبِلَه، إذ مَلَلْتُ مِن نفسي. والآنَ، إذ جعَلْتُه قِبْلتي، صار يفهَمُ ما أقولُه ويدرِكُه.

وفي اللّحظاتِ التي كان فيها شَمْسٌ في مَحضَر مَوْلانا، كان يتلقّى لَحظاتِ العُمر

الحلوةَ. وفي كتابه «**المقالات**» قالَ جِهارًا: «إنّ لي مِن العُمر تلكَ السّاعةَ التي آتي فيها إلى جَناب مَوْلانا».

وعندَما عرَفَ مَوْلانا شَمْسًا في خَلْوة الأربعينَ يومًا معرفةً دقيقةً، صار وجودُه مُعرَّضًا لاضطرابٍ لا حدودَ له. ففي تِلكَ الأيّامِ نفسِها هزّ الخوفُ مِن الفراق، والخَشْيةُ مِن سِعاية المنافقينَ، هدوءَ مَنظومته الرّوحيّة.

وفي أيّامِ إقامةِ شَمْسٍ في قُونِيَةَ، أَعدّ جَلالُ الدّين قَرَطاي، المدرّسُ الكبيرُ، في يومٍ عظيم وبهيج، مجلسًا كبيرًا في مدرسته في قُونِية. وفي ذلك اليومِ، دُعي شَمْسُ الدّين لِأن يحضُرَ ذلك المجلسَ. ذهَبَ شَمْسٌ، وجَلَسَ في نِهاية المجْلِس قُربَ الباب. فسأَلَ الناسُ مَوْلانا: في هذا النّوعِ مِن المجالس، أينَ يكونُ صَدْرُ المجْلِس [متصدِّر المجْلِس]؟. فأجابَ مَوْلانا مِن دُون تردّد: يكونُ صَدْرُ العُلَماء في وسَطِ الصُّفّة، وصَدْرُ العارفينَ في زاوية البيت، وصَدْرُ الصّوفيّة في جانب الصُّفّة؛ وفي مذْهَبِ العاشقين، يكونُ الصّدْرُ إلى جانب الحبيب. وفي اللّحظةِ نفسِها وَثَبَ مَوْلانا مِن مكانه، وجَلَسَ في آخِر المجْلِس، إلى جانب شَمْس.

وفي ذلك الوقتِ، صارتِ النّظَراتُ أكثرَ بَحْثًا وحَمْلقةً واحمرارًا، وتحوّلَتِ الهَمْهماتُ إلى اعتراضاتٍ والاتّهاماتُ إلى شتائم، حدَثَ طُوفانٌ، وتهيّأتِ القَبَضاتُ للضَّرْب. قامَتْ جَماعةٌ متعصّبةٌ وساذَجةٌ وبَلْهاءُ مِن أماكنها، واتّجهَتْ نحْوَ شَمْسٍ قَصْدًا إلى إيذائه. جَماعةٌ أُخرى ساخِطةٌ غادرتِ المجلسَ، على سَبيل الاعتراض. فصاحَ مَوْلانا كالطّوفانِ الذي يهْدِرُ في وَسَط سَحابٍ مظْلمٍ أسودَ، وقالَ:

اسكتُوا، امتنعُوا عنِ الكَلام، الزَموا أماكنكم. إنّ شمْسَ الدّين هو شَمْسي المعنويّةُ

الرّوحيّة. حَيثُ يوجَدُ شَمْسٌ توجَدُ الملائكة أيضًا. حَيثُ يوجَدُ شَمْسٌ توجَدُ آمالُ العارفينَ طائرةً، ويكونُ مِشْعَلُهم متّقِدًا. إنّ آلافَ النّجومِ اللّالاءةِ سارَتْ وراءَ الشّمْسِ التَّبْريزيّ. وكُلُّ مَن يريدُ أن يتقدّمَ نحْوَ محبوبي قَصْدًا إلى إيذائه فستُحْرِقُ شُعْلةُ شَمْسِ الغاضِبةُ كلّيّةَ وجوده.

كُلُّ الأَشْخاصِ الذين كانوا قد نهضوا مِن أماكنهم لِكَيْ يقضُوا على شَمْسٍ بضَرَباتهم وصفَعاتهم جلَسوا في أماكنهم. لم يكُنْ لدى أحَدٍ قُدرةٌ على أن يعترضَ، كأنّ المجْلِسَ أمامَ أَوامِرِ مَوْلانا المُحْكَمةِ والنَّافِذةِ التزمَ الصّمْتَ المُطْبِق. أمّا خارجَ المدرسة فقد بدَأَ الضّجيجُ، وكان الناسُ يقولُون بِأَصْواتٍ مرتفعةٍ: سُحْقًا لِساحِرِ قُونِيةَ. وكان ذلكَ السّاحِرُ، في عقيدة مُبصِري الظّاهر، شَمْسًا التَّبْريزيّ.

فاضطُرّ شَمْسٌ يومَ الخميس، الحادي والعشرين مِن شوّال عامَ ٦٤٣هـ أن يتركَ قُونِيةَ بعْدَ ستّةَ عشَرَ شَهْرًا مِن الإقامة فيها. وعلى قَدْرِ ما كانَ الحاسِدُون اللّؤماءُ مُخالفينَ لِشَمْسٍ وفِكَره، ازدادَتْ علاقةُ مَوْلانا بِمُراده. لم تَعُدِ التُّهَمُ والخصوماتُ والعَدَاوات قادرةً على أن تُسْكِتَ صَوتَ مَوْلانا المجَلْجِل، وكانَ مِن دُون خَوْف وخَشْيةٍ يردِّد:

أنـا عاشِـقٌ بـاذِلٌ لِلـرُّوح، لا أَتحـامَى العِشْقَ،
أنــا ثَمِـلٌ متــرنّحٌ، لا أَفِـرّ مِــن الــسُّكْرِ والعَرْبَـدَة
[٤٩] يقـولُ أَصْـحابي: ألا تَتحـامَى العِـشْقَ؟
أتحامَى العِشْقَ، ولكِنْ بِأَيّ شيءٍ أختلِطُ بعْدَ ذلك
إذا دخَـلَ شـمْسُ الحـقّ التَّبْريـزيُّ العَرَصـاتِ،
فــسَأخْلِطُ تُــرابَ بِدايــةِ حَيّــهِ بالمِــسْك

كانَ مَوْلانا يقولُ لِلنّاس على عِلْمٍ: هذا الرّجُلُ العظيمُ في وادي العِرْفان، الذي تَعُدّونَه أنتُم ساحِرًا ومحتالًا، هو قُطْبي، ومُرادي، ودَواءُ أَدْوائي. والطّريفُ أنّه في كَلامِ

شَمْسٍ المثيرِ، يموجُ الحالُ والجَذْبُ على نَحْوٍ لم أرَه في آثارِ العارفينَ الآخَرين.

وقد سُئلَ مَوْلانا: متَى تَعودُ إلى المدْرَسةِ والمسْجِد؟ ـ فأجابَ: عندما يَعودُ مَجْلَى أَشْواقي وأوجُ قُدْرتي الخلّاقةِ إلى قُونِيةَ. وقِيلَ له: إنّ طلّابَ العِلْم في انتظارِ مجْلِس الدّرْس والعِلْم باشتياقٍ. فأجابَ: قولُوا لهم: إذا لم يعُدْ شَمْسٌ إلى قُونِيةَ، ولَمْ تُضَأْ زاويةُ قَلْبيَ الحزين بِنُور سِيمائه، فلَنْ يكونَ لِكلامي جاذبيّةٌ وحَلاوة[1]، وقد شَدّتْ مُتْعةُ التّدريسِ الرِّحالَ عن وجودي. وقد نَدِمَ أهْلُ قُونِيةَ على ما حصَلَ، خاصّةً أنّهم كانوا يرَون مَوْلانا في فِراق حَبيبه لا قَرارَ له ولا طُمَأنينةَ لَدَيه؛ وقد ذهبَتْ جَماعةٌ مِنهم إلى مَوْلانا باكينَ، وبِرِاوية كتاب «ولَدْنامه»[*] أنّهم:

جاؤوا الشّيخَ باكينَ متضرّعينَ: اعفُ عَنّا، ولا تَهْجُرْنا مَرّةً أُخرى
نظَلُّ نتوبُ، فارحَمْنا ورِقَّ لَنا وإنْ فعَلْنا ذلكَ مرّةً أُخرى فَالْعَنّا

وفي النّهايةِ، وإثْرَ التماسِ هؤلاءِ وضَراعتهم مالَ إلى اللُّطْف، فغفَرَ لهم ذنبَهم، وأَمَرَ سُلْطان وَلَد، ابنَه الكيِّسَ، بأَنْ ينطلقَ إلى دِمَشْقَ بِصُحْبة عشرينَ شَخْصًا مِن أَصْحاب شمسٍ ومُحبّيه حامِلًا رسالةً شعريّة.

---

١ ـ ذلكَ الذي يُسْكِرُ قَلْبي مِن دون شَرابٍ، أينَ هو؟
ذلكَ الذي يظهَرُ مِن رُوحي وقَلْبي ويحتلُّ كِياني، أينَ هو؟
ذلكَ الذي أُقْسِمُ أَنْ لا أُقْسِمَ إلّا بِحياته،
ذلكَ الذي أَحْنَثَني في يميني وكسَرَ تَوبتي، أَينَ هو؟
ومادامَ العَقْلُ صاحِيًا لم يستبدَّ به سُكْرُ العِشْق لَنْ تتلاشى «كيفَ» و«لِماذا»،
وذلكَ الذي سَكِرَ، وتحرّرَ مِن «كيفَ» و«لِماذا»، أينَ هو؟
(ديوان شَمْس تَبريز، الغزَليّة ٤١٢)

* ـ هو منظومةٌ شعريّة على نمط «المثْنَويّ» لسُلطان وَلَد، ابن مولانا جلال الدّين [المترجم].

ـ لَقَدْ أَبعدتُ مَتاعَ النَّفْسِ عَنْ طريقي
وألفيتُ ما سِوَى الحقّ عَدَما
ـ إِنّي ظِلٌّ، ولا سَيِّدَ لي إلّا الشَّمْس،
إِنّني مِنْ حُجّابِ بابه، ولَسْتُ حِجابًا دُونَه
(المثْنَوي، ١/ ١٣٧٩٠ ـ ٩١)

مَوْلانا المُحْيي اللّيلَ

[٥٠] سافرَ سُلْطانُ وَلَد بِصُحْبة عِشْرينَ شَخْصًا مِن مُحبّي مَوْلانا، مُسْرِعينَ مُمتطينَ الجِيادَ إلى دِمَشْق. ومَرّةً أُخرى في اللّيالي، كان الشّمعُ في حُجْرةِ مَوْلانا مشتعِلًا حتّى الفَجْر. وكانَ النّاسُ يَرَونَ أنّ مَوْلانا هو مُحْيي اللّيلِ غيرُ المنازَع في قُونِيَةَ. كان نَجْمُ الأدَبِ الإيرانيّ والثّقافة الإيرانيّة اللّألاءُ في اللّيالي يَغوصُ في حالٍ مِن نَوْمِ اليقَظة تَحتَ أَنوارِ الشُّموع، ويغرَقُ في فِكَره. وفي هَدْأةِ اللّيل، كان كأنّه في تَواصُلٍ ومُناجاةٍ رُوحيّة معَ شَمْس. ولم يكُنْ لَدَى أَحَدٍ الجرأةُ على أَنْ يقولَ له: بِماذا تفكِّرُ؟ ـ لِماذا رَحَلَ الهدوءُ والرّاحة عن وجودِكَ؟ ـ لِأَنّ رابِطَه بِعالَم العِرْفان قد ترَكَه.

كُلُّ فئاتِ النّاسِ في قُونِيَةَ دخَلُوا في ضَجّةٍ وصَخَب متسائلينَ: ماذا حَدَثَ لمَوْلانا؟ وهذا الشّخصُ الغائبُ (شَمْسُ الدّين التَّبْريزيّ) أيُّ شَخْصٍ هو؟ ـ مَنْ هو؟ ـ ومِن أينَ جاءَ حتّى سحَرَ مَوْلانا، الذي كان أكبرَ فَقيهٍ في المدينة، وجذَبَه، حتّى إنّه في غِيابه أيضًا انقطَعَ عن مُحِبّيه القُدَماء، وانشغَلَ بنفسه. ولعلّ مَوْلانا كانَ يريدُ، بانزوائه ونَفادِ صَبْره، أن يُفْهِمَ طبقاتِ النّاس في المدينة تكريمَه شَمْسًا وثَناءَه علَيه، وأن يَدينَ مِزاجَهم العُدْوانيّ وسوءَ ضِيافتهم.

كان شَمْسُ الدّين شَوْكةً في طَريق المتعصِّبينَ والسّطْحيّين؛ وكان يَنشُرُ فِكَره بينَ

الناس بِحُرّيةٍ. وفي يومٍ مِن الأيّام، عُقِدَ اجتماعٌ كبير في خَانِقاه الوزير نَصْر الدّين، وحضَرَ هذا الاجتماعَ جميعُ العُلَماء والمشايخ والعارفين والحكَمَاء والأُمراء والأعيان، كما يذكرُ الأفلاكيّ، وكان كُلٌّ مِنهم [٥١] يتحدّثُ في أَصْنافِ العُلومِ والفنون والحِكَم، ويُقدِّم بَحْثًا عَجيبًا، إلّا مَوْلانا شَمْسَ الدّين الذي كان يُراقِبُ في زاويةٍ كأنّه الكَنْز. نهَضَ سَريعًا وصرخَ فيهم: إلى متَى تَركبون سَرْجًا مِن دُونِ جَواد وتركضونَ في مَيدانِ الرّجال؟ - إلى متَى تتوكّؤونَ على عِصِيّ الآخَرين؟ - هذا الكَلامُ الذي تقولونَه مِن الحِكْمة والتّفسير وغيرِ ذلكَ هو كَلامُ أُناسِ ذلكَ الزّمان؛ فإنّ كُلّ إنسانٍ في زَمانِه كان جالسًا في مَقامِ رَجُلٍ، وكان يقولُ مَعانيَ مِن واقعه؛ وإِذْ أنتمُ رِجالُ هذا العَهْد، أَينَ أَسْرارُكم وكَلامُكم؟ - فما كان مِنهم إلّا أن يُطْرِقوا خَجَلًا. وبعدئذٍ قالَ:

كانَ بعضُهم كاتِبًا لِلْوَحْي، وبعضُهم مَحَلًّا لِلْوَحْي، فاسْعَوا إلى أن تكونوا الاثْنَينِ معًا، مَحَلًّا لِلْوَحْي وكُتّابًا لِلْوَحْي.

وقد تعلّمَ مَوْلانا هذه الجُمَلَ مِن شَمْس. وكان مشغولًا بِفِكَره الجذّابة، وكان يَسْمَعُ صوتَ شَمْسٍ، شَمْسٌ الذي كان النّورُ الإلهيُّ يُشِعُّ على جَبينه. كان شَمْسٌ ذو الصّوتِ الواضِح يقولُ: كُنْ مَحَلًّا لِلْوَحْي وكاتِبًا لِلْوَحْي في الوقتِ نفسِه. وقد غيّر هذا الكَلامُ الحياةَ الفكريّةَ لِجلال الدّين.

وكلّما فكّرَ مَوْلانا في شَمْسٍ وفِكَرِه ازدادَ حَيْرةً وصُداعًا. كان مَوْلانا يَنشُدُ بإرشادِ شَمْسٍ وتوجيهه أن يظفَرَ بِلُبِّ الوَحْي وبجَوهَر الحقيقة. في إِحْدَى لَيالي الفِراق سُمِعَ الصَّدى الواضِحُ لِشَمْسٍ في حُجْرة مَوْلانا يردّدُ: حبيبي مَوْلانا.. أنتَ مُحترِقُ القَلْب، ولابدّ في بَقيّةِ عُمُرِكَ أن تكونَ مادِحًا لِلْعِشْق والمَحَبّة. عليكَ، بالكَلامِ المؤثّر

والغزَليّاتِ الفارسيّةِ المُثيرة الحُلْوة، أن تُحرّكَ نهرًا مِن العِشْق والمحبّة، يجري غَدًا مِن آسِيَةَ إلى العالَم. وفي يومٍ من الأيّام سيكتشِفُ العالَمُ عظَمةَ رُوحِكَ، وستَرسُمُ أصدقَ التّصاويرِ لمَلامِحِ العِشْق الحقيقيّ والبَحْثِ العِرْفانيّ الإيرانيّ في أَجْزاء **المثنويّ وديوان شَمْس**، التي ستكونُ كالأَزْهارِ الناشِرةِ الشّذا الخالدةِ في بُسْتانِ المَشْرِق. ستكونُ مَجْلى آمالِ العارِفين وأَشْواقِهم. ويتحوّلُ ديوانُك الكبير إلى مَهْبِطٍ لِلْوَحْي والإلهام. وسيسْمَعُ أصحابُ القُلوبِ في القُرونِ والأَعْصارِ صوتَك مِن طَيّاتِ صَفَحاتِ ديوانِكَ بأُذُنِ القَلْب. وسيندفعُ جَوادُ فِكَرِك الجَموحُ إلى حَيثُ سيعجِزُ القلَمُ عن الكتابة، واللّسانُ عن القَول.

وفي مرّاتٍ كثيرة رأى أَصْحابُ مَوْلانا المقرّبون أنّه كان يُخرجُ رِسالةَ شَمْسٍ، التي كان قد كتبَها له يوصيه فيها بأحد أحبّته، ويَسْتَميلُه إليه، مِن طَيّاتِ ديوان شِعْرالمتنبّي، ويقرَأُ السّطْرَ الأوّلَ منها الذي يقولُ:

[٥٢] مَعْلومٌ لَدَى مَوْلانا أنّ هذا الضّعيفَ مشغولٌ بِدُعاءِ الخير، ولا يختلطُ بِأَحَدٍ البتّةَ.

كان مَوْلانا يقرَأُ كلماتِ مُرادِه التَّبريزيّ وجُمَلَه بِيأسٍ واضطرابٍ غالبًا، ويَهمْهِمُ بهَمْسٍ: لعلّه يأتي اليومُ الذي يعودُ فيه شَمْسٌ إلَيَّ مرّةً أخرى؛ وذلكَ يومٌ يبدّدُ فيه النّسيُم الإلهيُّ سُحُبَ الظّلامِ واليَأْس مِن أُفق حَياتي. أنا، نَعَمْ، أنا مِثْلُ نَحْلةٍ عاشقةٍ تجلِسُ على أَزهارِ البُسْتانِ العَطِرة في أيّام الرّبيع، فتمتصّ رَحيقَها. سَأُقيمُ عنْدَ عينَيه، عنْدَ رُوحِه، عنْدَ ذِهْنه. ولَنْ أَسْمَحَ لِلْحوادثِ المزعِجة أن تفصِلَه عنّي، وسَأَغرَقُ حتّى نِهايةِ العُمُرِ في قَلْبِ أَمْواجِ بَحْرِ عِرْفان شَمْسٍ المائج. ألا يمكنُ أن يكونَ لَدَى شَمْسٍ رِسالةٌ تُحرّرُني مِن القُيود والعلاقات الأرضيّة؟ وبِعَونٍ مِن شَمْسٍ

أدركْتُ معالِمَ حقيقةِ الحياة الإنسانيّة في العِشْق والهُيام.

وقدِ ادّعَى شَمْسٌ في أحاديثه أنّه أُرسِلَ لِكَيْ يحرّرَ ذاكَ العَبْدَ الرّقيقَ الجميل (مَوْلانا جَلالَ الدّين) الذي هو أَسيرٌ بينَ قومٍ أَجْلاف. ومِن المؤسِف أنّهم يؤذونه. وقال مرّةً أُخرى: في داخلي، أُحِبُّ العُظَماءَ كثيرًا، لكنّني لا أُظهِر ذلك، أظهَرْتُه مرّةً أو مرّتَين. لا يعْلَمون حقَّهم. أظهَرْتُ المحبّةَ لمَوْلانا، فزادَتْ ولم تنقُصْ.

ومِن اللّائق هنا تَقديمُ صُورةٍ واضِحةٍ وحَيّة لِقُطْبَي العِرْفان الكبار، مَظْهَرَي الإرادةِ والنُّبْل، اللّذَين كان أَحَدُهما لِسنَواتٍ مدرّسًا عظيمًا ومبلّغًا متمكّنًا ومَحَلَّ احترامِ جُمْلةِ المؤمنينَ في الرّوم الشّرقيّة. وأُعرِّفُ هنا ـ قَدْرَ المستطاع ـ شَمْسًا التّبْريزيّ الذي هو عنْدَ بعضِهم أُسْطورةٌ وخُرافة، وبِزَعْمِ جماعةٍ سَاحِرٌ لَدَيه عقائدُ الطالبينَ لِلْجاه ونظريّاتُهم.

بعْدَ أن تُوفّي بَهاءُ الدّين وَلَد (سُلْطانُ العُلَمَاء)، والِدُ جَلال الدّين البَلْخيّ، في عام ٦٢٨هـ جاء إلى قُونِيةَ سيّد بُرْهان الدّين مُحَقِّق التّرمذيّ، الذي كان أَحَدَ تلاميذِ سُلْطان العُلماء وعارِفًا كبيرًا، بإشارةٍ سابقةٍ مِنه أو بطَريقِ رسالةٍ أَرْسلَها إليه وهو على فِراش المرض؛ فصارَ جَلالُ الدّين الرّوميّ مُرِيدًا لِطَريقته لمدّة خَمسةٍ وعِشْرينَ عامًا، بناءً على تَوصيةِ والِدِه، وطَوَى مَراحِلَ السَّيْرِ والسّلوك والرّياضاتِ الخاصّة في تسعة أعوام، ووَصَلَ إلى مرتبة الشّيخ؛ ووِفاقًا لِقَولِ ابنِ مَوْلانا في كتابه «ولَدْ نامه»:

كانَ في خِدْمته لمدّة تِسْعةِ أعوام،

حتّى صارَ مِثْلَه في القال والحال،

[٥٣] صارا شَخْصًا واحِدًا في المعنى

لأنّهما صارا قَلْبًا واحِدًا في المعنى

وعلى حِينِ غِرّةٍ رَحَلَ سَيّدٌ مِن عالَم الفَناء

وانطلقَ نحْوَ قَصْر البقاء

فبقيَ جَلالُ الدّين مِن دُونه وَحيدًا

فتوجّهَ في النّهارِ واللّيل إلى الله

وواصَلَ هذه الرّياضةَ لمدّة خَمسةِ أَعْوام

بِصِدْقٍ وحُرْقة وأَنينٍ وأَلم

ظلّ جَلالُ الدّين البَلْخِيّ بعْدَ وَفاةِ مُرادِه في بَحْثٍ وسَعْيٍ دائم، وكان ينفِقُ كلَّ شَوقه وهَيَجانه وآمالِه الخفيّة مِن أَجْلِ العثور على مَعْشوقٍ ربّاني، أو إنسانٍ كامِل، ولكنّه عنْدَما لم يصِلْ إلى نتيجةٍ اضطُرّ إلى أن يوجِّهَ قُدرتَه الخلّاقةَ في طَريقِ تَربيةِ التلاميذ والمُريدين.

أمّا جاذبيّةُ فِكَر بُرْهان الدّين مُحَقِّق التّرمذيّ، مُرادِه، فكانَتْ تستلزِمُ أن يظلّ يَنشُدُ باشتياقٍ ظهورَ مُرْشِدٍ أو شَيْخ روحيّ، لكَيْ يُسْلِمَ إليه رُوحَه. وفي النّهاية، وفي اليومِ السّادسِ والعِشْرينَ مِن جُمادَى الآخِرة مِن عام ٦٤٢هـ لَقِيَ في خان تُجّار السُّكَّر في قُونِيةَ دَرْويشًا رَثَّ الثّياب، يقولُ بعضُ الباحثين إنّه مِن نَسْلِ إسماعيليّة قَلْعة أَلَمُوت، وكان يبدو أنّه حادُّ الطَّبْع. وأحسَّ بِنَوعٍ مِن العِشْق الإلهيّ أو المحبّة العميقة اللّامتناهية إزاءَ هذا المعْشوق المعْنَوِيّ أو الرّبانيّ. كان هذا الشّيخُ الرّثُّ الثّيابِ شَمْسًا التّبْريزيّ، الذي كان ذا مَشْرَبٍ صُوفيّ حادّ. وفي نظَرِ جَلال الدّين البَلْخيّ، كان ذلكَ وَجْهًا مَلَكوتيًّا ظلّ يَعُدّ الثّوانيَ لِأَمدٍ طويلٍ منتظرًا لِقاءَه، ومنذُ القديم انتقَشَتْ سِيماؤه في سُوَيداء قَلْبه.

وقد شبّهَ سُلْطانُ وَلَد عِشْقَ والِدِه هذا الرّجُلَ، المُحاطَ بِالأَسْرار، وإخلاصَه له بالسّفَر المشهور لِحَضرة النبّي مُوسَى (عليه الصّلاةُ والسّلام) بِصُحبة الخضر [عليه السّلام]. ونعْلَمُ أنّ الخضر عنْدَ أَشْياخِ الطّريقة مشهورٌ بأنّه أعظَمُ دَليلٍ ومُرْشِد في رِحْلة السَّيْرِ والسُّلوك.

وفي الأيّامِ الأُولى لِلّقاء قالَ شَمْسٌ لمَوْلانا: إنّ مُهِمّتكَ أَهَمُّ من مجرَّدِ إنفاقِ أوقاتِكَ في التّعليمِ بِمَراحله المختلفة، وتَربيةِ الشّبّان، ومجالِسِ الوَعْظ؛ إذ لابدّ مِن أن تتمسَّكَ بِأَذْيال العِشْق مُخلِصًا فيه، لِكَيْ تكشِفَ سِرَّ الكائنات. صَبّ شَمْسٌ جامَ حَماسةِ العِشْقِ المفعَمة بالهيَجان على متعصِّبي قُونِيَةَ اللّؤماء، [٥٤] وأَعْلَنَ مبارزةَ المُرائينَ، الذين كانوا يبحثون عن نَزَواتهم وشَهَواتهم، غيرَ مُبالينَ بِتَصْفيةِ القلوب والدّفاعِ عن المستضعَفينَ والمظلومين، وقالَ لِلصّوفيّة وأَصْحابِ الزّوايا إنّ زمانَ الانزِواءِ والاختلاءِ واللّجوءِ إلى الجِبال، كما فعَلَ الإمامُ الغَزَاليّ، قد انتهى، وهذا الزّمانُ زَمانُ البَحْثِ عن الفِكْر وإدراكِ الحقيقة مِن طَريق معرفة النّفْس.

عنْدَما انهَمَكَ شَمْسٌ في الحديث معَ جَلال الدّين في الحُجْرة، وجَدَه مُقيَّدًا بأغلالِ فِكَره وظُنونه الحالمة، وأدركَ أنّ منتهى آمالِ جَلال الدّين يُلخَّصُ في أن يزدادَ عدَدُ طلَبَةِ دار العِلْم في قُونِيَةَ وعدَدُ مُريديه، ويعترفَ العالَمُ الإسلاميّ بِأَنّه المتكلِّمُ القليلُ النّظيرِ وغيرُ المنازَع. وقد عرّفَ المرحومُ الدّكتُر قاسِم غَني، خبيرُ العِرْفان المشهورُ، شَمْسًا التَّبْريزيَّ على هذا النَّحْو:

«كانَ في السُّلوكِ والقَولِ خَشِنًا جِدًّا ولاذعًا، وفي الفَقْرِ والهيَجانِ والحرارةِ وصَراحةِ اللّهجة والعِلْمِ والكَلامِ اللّاذع... وفي تَحقيرِ العُلوم الصُّوريّة والأُمورِ الظاهريّة، ومخالَفةِ عاداتِ أَهْل الظّاهِرِ ورُسُومِهم، والاطمئنانِ إلى قوّةِ نفسِه وجاذبيّته والموتِ غيرِ الطّبيعيّ، وأَمثالِ ذلك، يذكِّرُ بِسُقْراط. وإنّه بِفَضْل الصّفاتِ المذكورة جَعَلَ أَلْمَعيًّا عظيمًا مِثْلَ جَلال الدّين الرّوميّ تابعًا مُسْتَهامًا، بَلْ أسيرًا والهًا له، حتّى إنّ جَلالَ الدّين كان يَعُدُّه مظْهَرًا تامًّا لِصفاتِ المَولى سُبْحانه».

أَنْمَحي أمامَكَ، حتّى لا يبقى لي أثَرٌ
ومِنْ شَرْطِ الأَدَب أن أعترِفَ بِأنّكَ شَمْسي وربّي
أَموتُ مِن عِشْقِكَ؛ لِأَنّكَ مَليكُ العالَمين،
وما دُمْتَ تنظُرُ إليّ فأَنْتَ شَمْسي وربّي

وفي السّنينَ التي سيطَرتْ فيها على العالَم الحروبُ الدّينيّةُ والبؤسُ والشّقاءُ وسُوءُ الظّنّ والعصَبيةُ العَمْياء، نَهضَ شَمْسٌ كالبطَلِ المِغْوار، وأوضَحَ شخصيّتَه التاريخيّةَ ورسالةَ طريقته؛ لِكَي يغيّرَ، بِمُساعدة الإيمانِ والتفكيرِ الرّوحيّ والكَلامِ المثير، الرّسومَ القديمةَ للمَشارب الصّوفيّة. وقد اعترفَ في كتابه «**المقالات**» قائلًا: «لا شَأْنَ لي بالعَوامّ، بَلْ يُهِمّني الأَقْطابُ والمُرْشِدُون، كنتُ أَعْرِفُ طَبائعَهم حقًّا». ومعَ القُدْرةِ البَيانيّة والفَضْلِ والكِياسةِ والدِّرايةِ التي عُرِف بها مَوْلانا، خضَعَ لِرَجُلٍ عَلّمَه ما الحياةُ وما العِشْقُ، [٥٥] ولماذا يكونُ الإنسانُ الحَيُّ عاشِقًا؟ والعِشْقُ منذُ البَدْءِ دَمٌ وتمرّدٌ.

يقولُ شَمْسٌ: «لو أنّ أَهْلَ الرُّبْعِ المسْكُونِ (أي الكُرةِ الأرضيّة كلّها) كانوا جميعًا في ناحيةٍ، وأنا في ناحيةٍ أخرى، أيًّا كان مُشْكِلُهم، لَأَجبتُهم جميعًا، ولَنْ أَفِرّ مِن الكَلام، ولَنْ أُغيّرَ الكَلامَ مِن أَمْرٍ إلى أَمْرٍ آخَر. يقدِّمُ كَلامي لِكُلّ سُؤالٍ عشَرَةَ إجاباتٍ لا تكونُ في كتابٍ بِذلكَ اللّطْفِ وبِذلكَ العَون».

والآنَ، أيّها القارئُ العزيزُ، يجِبُ أن تُعطي مَوْلانا الحقَّ في أن يقولَ بشجاعةٍ لِلْمُشتاقين إليه بعْدَ أيّام الخَلْوة: عنْدَما عرَفْتُ شَمْسًا صارَتِ الكتُبُ ودَواوينُ الشّعْر في نظَري غَثّةً باردةً. نعَمْ، إنّ مَوْلانا الذي كان يبحَثُ عن شَمْسِ الرّوح تحرّرَ في النّهايةِ بفَضْلِ أَنْوارِ شَمْسٍ مِن أغلالِ الأَعْصار والقُرون، واستطاعَ في تلكَ الأيّامِ القِصار أن يُعايشَ خَواطِرَ هادئةً ومُهيِّجةً، لكنّ فِراقَ شَمْسٍ أحدثَ طُوفانًا. إِذْ لم يكُنْ يريدُ لِمُرادِه

ومعشوقِه، الذي يعرِفُ تقلُّباتِ القَلْبِ الإنسانيّ بطَرْفة عَين، أن يتركَ قُونِيَةَ بِقَلْبٍ متأذٍّ متألّم. كان مَوْلانا في تلكَ اللّحظاتِ الحسّاسة يريدُ، بأيّ ثمَنٍ، أن يَرَى شَمْسًا مرّةً أخرى، وكان يَقصُرُ هِمّتَه على هذا الأَمْر، مُخاطِرًا بِحَياته وحَياة أُسْرته. كان مَوْلانا حتّى ذلكَ الوَقْتِ يُحسُّ بأنّه لم يعْرِفْ شَمْسًا حقَّ المعرفة. أرادَ مَوْلانا، مِثْلَ شَمْس، أن يكونَ مستعِدًّا دائمًا للرّحيل. وقد قالَ لابنه سُلْطان وَلَد قبْلَ أن يغادِرَ قُونِيَةَ: قُلْ لِشَمْسِ الدّين: قرَأْتُ آخِرَ رسالةٍ أَرسَلْتَها باشتياقٍ وبنزوعٍ عِرْفانيّ؛ كلُّ الأشياءِ عِندي بعْدَ الآنَ متماثلةٌ، وسَأسْعَى في المستقبلِ لِأَن لا أقولَ شيئًا لا يناسِبُ مَقامَكَ. قلبي مشتاقٌ لِأَنْ أشْرَبَ، في المستقبَلِ، مِن عَينِ عِرْفان شَمْس، فقط، وأَسْكَر؛ كلُّ أَمَلي وعِشْقي لَدَيكَ؛ فاسْعَ أن تظفَرَ بي. أَودعَ سُلْطانُ وَلَد كلَّ الكلماتِ التي قالها مَوْلانا حافظتَه، لِيُسْلِمَها إلى شمْسٍ كما سَمِعَها تَمامًا.

وفي آخِرِ رسالةٍ أرسَلَها شَمْسٌ مِن دِمَشْقَ إلى قُونِيَةَ كتَبَ يقولُ: ينبغي أن يتجلّى لي أيُّ طريقٍ لحياتنا معًا؟ - أَهُوَ طَريقُ الأُخُوّة أمِ الصُّحْبة؟ أم طَريقُ الشّيخ والمُريد؟ لا أستَحْسِنُ ذلكَ. الأستاذُ والتّلميذُ؟. أنتَ الآنَ تفضّلُني على نفسِكَ، فإن كان هناك سَببٌ لِلْفِراق والبُعْد فهو هذا. ولِأَنّني هنا أحصُلُ على التّعليم يكونُ الذَّهابُ إلى الشّامِ رُعونةً ودَلالًا. وفي النّهايةِ، لَكَ عالَمٌ منفصِلٌ عن عالَمنا وفارِغٌ منه. وكذلك عنْدَما تمزِجُ أنتَ كِتاباتي بكِتابات الآخَرين، [٥٦] لا أمزِجُ أنا كتاباتِك بِالكتابِ المقدَّس. ومعَ أنّكَ ادّعيتَ الرُّجْحانَ، لم أدّعِ أنا ذلكَ، وعنْدَما أقولُ شيئًا اكتبْه؛ لأنّك تتكاسَلُ.

ويُعلَمُ مِن مُحتوى هذه الرّسالة أنّ شَمْسًا، إبّانَ تَرْكِه قُونِيَةَ، لم يكُنْ خاطِرُه راضيًا عن مَوْلانا. وكان يَمضي في تِلْكَ الوِجْهة مِن عالَم الآفاقِ بهدايةٍ مِن جِبِلّته السّماويّة، باحثًا عن مُشتاقِينَ آخَرين؛ ولعلّه بَحْثًا عن الشّمْسِ يُسافِرُ إلى أَصْقاع العالَم جميعًا.

يذهَبُ إلى مكانٍ لا يوجَدُ فيه تَعصّبٌ وتكبّرٌ واتّهامٌ وافتراء. كان يريدُ، بِعِرْفانه الإيرانيّ، أن يُنقِذَ النّاسَ الذين وقعوا في وَهْدةِ سُقوطٍ مملوءٍ بالأَسَى. وعلى هذا النّحْو، يحصُلُ بالصّبرِ والتأمّلِ على مستقَرٍّ في قَلْب الحبيب، على غِرارِ ما كان يؤمِّل. ويذهَبُ المرحومُ دَشْتي(*) إلى أنّه علَينا أن نَزِنَ التّوثُّبَ الرّوحيَّ لمَوْلانا بالمعاييرِ التي تركَها شَمْسٌ التَّبْريزيُّ في اختيارِ المحِبّينَ، هذه المعاييرُ القابلةُ لِأَن نَفْهمَها؛ لِكَيْ نُدرِكَ الهيَجانَ والاضطرابَ الذي وقعَ في رُوحِ مَوْلانا بِفَيْضٍ وتَلاطُم. ويريدُ جَلالُ الدّين في **دِيوان شَمْس** أن يُظهِرَ على عَذَبةِ اللّسانِ ذلكَ الذي يختزنُه في سُوَيداءِ قَلْبه مِن عِشْق شَمْسٍ؛ ولهذا السّبب يُنشِد:

أنتَ نُورٌ، أنتَ سُورٌ [مَأدُبةٌ]، أنتَ دَولةٌ منصورة،

أنتَ طائرُ جَبَلِ الطُّورِ، أرهَقْتَني بِمِنقارِك

أنتَ قَطْرةٌ، أنتَ بَحْرٌ، أنتَ لُطْفٌ، أنتَ قَهْر

أنتَ سُكّرٌ، أنتَ سُمٌّ، لا تُؤذِني أكثَر مِن هذا

أنتَ الحَبّةُ، وأنتَ الفَخُّ، أنتَ الخَمْرةُ، وأنتَ الكائنُ

أنتَ ناضِجٌ، أنتَ نِيءٌ، لا تَدَعْني نِيئًا

أنتَ نُوحٌ، أنتَ رُوحٌ، أنتَ الفاتحُ والمفتوحُ

أنتَ صَدرٌ مَشْروحٌ، والوقوفُ أمامَ بابِ الأسرارِ لي

(ديوان شَمْس تَبريز، الغزَليّة ٣٧)

* ـ علي دَشْتي، وهو باحثٌ إيرانيّ معروف.

ـ إنّ لِلْعِشْقِ غُربةً عَنِ الدّنيا والآخِرة،
والاثنتانِ والسّبعونَ مِلّةً، فيه، مِنْ قَبيل الجُنون
ـ وإنّ لِلْعُشّاقِ مَوتًا في كلّ لحظةٍ
ومَوتُ العُشّاقِ نفسُه لَيْسَ نَوعًا واحدًا
(المثْنَوِيّ، ٣/٤٧٢٣، ٣٨٣٦)

رسائلُ شِعريّةٌ

[٥٧] وَصَلَ سُلْطانُ ولَد، ابنُ مَوْلانا، إلى دِمَشْق؛ ومِن دُون أن يهدَأَ لَحظةً، أو ينفضَ غُبارَ الطّريق عن رَأْسِه ووَجْهِه وثيابِه، أو ترتاحَ نفسُه، كان يبحَثُ مِن مَدْرسةٍ إلى مَدْرسةٍ ومِن خَانِقاه إلى خَانِقاه آخَر أكبرَ، لِكَي يظفَرَ بالمَلاذِ الأخير لِوالِدِه. ومِن أَجْلِ سَلامةِ رُوح مَوْلانا وجِسْمه، كان يبحَثُ عن ضالّته، كأنّه مُرافِقٌ لِرَسُولِ الرّيح. كان مَوْلانا يأمرُ ابنَه قائلًا: ابحَثْ عن أَثَرِ شَمْسِ الحقيقة في خَانِقاه دِمَشْقَ الكبير، وانتفعْ بشُعاعه المنعِشِ لِلْقَلْب، ومُرَّ بِأَعتابه بهدوءٍ، واقتربْ مِن رُوحِه العظيم، لِكَي تظفرَ بمَنْ أحْيا أباكَ مِن جديد. اجتازَ سُلْطانُ وَلَد مِنطقةَ الطّريق الضيّق الذي يَصِلُ دِمَشْقَ بحَلَب. كان صَوْتٌ يصِلُ إلى الأُذُن مِن بعيد، وقد قَلّ بُعْدُ المَسافة تدريجيًّا، عنْدَ غُروب الشَّمْس، صَدًى كأنّه كان يتحدّثُ معَ رُوحِ الإنسان، نبّهَ كُلَّ مُحِبّي مَوْلانا. كان شَمْسٌ يَدْعو هؤلاء إليه، وكان في خانِقاهَ يتحدّثُ إلى مُحبّيه. كان البَحْثُ يتناولُ مسألةَ «كَعْبة القَلْب» و«كَعْبة الطّين» [كعبهٔ دِلْ وكعبهٔ گِلْ، بالفارسيّة]. رَوَى قصّةً عن أبي يزيدَ، وكان الخانِقاهُ مملوءًا بالمحِبّين والدّراويش. قال شَمْسٌ:

كان أبو يزيدَ يذهَبُ إلى الحَجّ، وجرَتْ عادتُه أنّه في كُلّ مدينةٍ يدخُلُها يزورُ أوّلًا مشايخَها، ثمّ يكونُ له عمَلٌ آخَر.

[٥٨] ذَهبَ أبو يزيدَ إلى البَصْرة في زيارة أَحَد الدّراويش؛ فسألَ الدّرويشُ أبا يزيدَ:

- يا أبا يزيدَ، إلى أينَ تذهَبُ مُسْرِعًا؟

- قالَ: أَذهَبُ إلى مكّةَ لِزيارة بَيت الله.

- فقالَ الدّرويشُ: ماذا عنْدَكَ مِن الزّادِ والمالِ والغِذاء لِقَضاء حاجاتكَ؟

- قالَ أبو يزيدَ: عِنْدِي مئتا دِرْهَم فقط.

- فقالَ الدّرويشُ: قُمْ، وطُفْ حَولي، وأَعْطِني هذه الفضّةَ.

نهضَ أبو يزيدَ مِن مَكانه فَورًا، وفتَحَ كِيسَ الفِضّة وقبّلَه ووضعَه أَمامَه.

- قالَ الدّرويشُ: ذلكَ البَيتُ هو بَيتُ الله، وقَلْبي هذا أيضًا بَيتُ الله؛ ولكنِ اعلَمْ أنّ الرّبَّ، الذي هو رَبُّ ذلكَ البَيتِ وربُّ هذا البَيتِ، منذُ أن بُنيَ ذلكَ البيتُ لم يدخُلْه، ومنذُ أن بَنَى هذا البيتَ لم يُخْلِه ولَمْ يغادِرْه. والبَيتُ الصّحيحُ هو بَيتُ كَعْبةِ القَلْب؛ فاسْعَ لِأَنْ لا تؤذي قَلْبًا.

استبدَّ صَمْتٌ مُوحِشٌ ومخيفٌ بفَضاء الخانِقاه، فتعلّقتْ أَعْينُ سُلْطان وَلَد وأَصحابِه بهذا المشْهَد الرّوحانيّ العظيم، وفي صَمْتِ الخانِقاه بقيَ هؤلاء أيضًا ساكتين ومنْدَهِشينَ. أَلقى شَمْسٌ نِصْفَ نَظْرةٍ إلى سُلْطان وَلَد، فتبسّمَ وتابعَ كلامَه:

مَنْ في هذا الخانقاهِ الذي يُسْمَعُ صَوتُه بِأُذُنِ القَلْب في كَعْبة القَلْب؟ - منذُ أن وُجِدتُّ كُنتُ أُدركُ حياةَ العِرْفان جيّدًا، بَلْ أَتحسّسُها، العِشْقُ وحْدَه عندي خاطِرةٌ دائمةٌ باقية. لا يمتلِكُ أَحَدٌ طاقةَ العَمَل التي عندي؛ وما أفعلُه لا ينبغي لِمُقَلِّدٍ أن يقتدي به. وقد صَدَقوا حينَ قالوا: لا يجوزُ أن نقتدي بالعارفين.

أيّها الأحبّةُ، أيّها الذين جئتُم مِن قُونيةَ إلى هنا، ووقفتُم عندَ باب الخانِقاه. كلُّ الناسِ انشدّتْ أعينُهم إلى بابِ الخانِقاه. لَدَيّ رفيقٌ رائعٌ، لَدَيّ مؤنِسٌ رائع، كان

رَجُلًا عجيبًا؛ إنّه مُحْيي الدّين بنُ عَربيّ، أَمّا في المتابعة فلم يَكُنْ وَفْقَ الأُصول، لم يكُنْ لَدَيه عَينُ المتابعة، هكذا كانَ. استفدتُّ مِنه استفادةً علميّةً ورُوحيّةً كبيرة؛ كان دائمًا يقولُ: أخطأَ فُلان. وبعْدَئذٍ كُنتُ أشاهِدُ أنّه هو نفسَه كان يخطئ، ومَرّاتٍ كثيرةً كُنتُ أذكُرُ له أخطاءه. مُحْيي الدّين بنُ عَربيّ، العارفُ الكبيرُ القَليلُ النّظير، يُضطَرُّ إلى أن يُطْرِقَ ويقولَ: أي بُنيّ، أَتَجْلَدُ بالسّوط؟

لو كان لَدَى أبي يزيدَ عِلْمٌ لما قال البتّةَ: أنا، أنا.

[٥٩] الفَخْرُ الرّازيّ، أيُّ جُرأةٍ لَدَيه حتّى قالَ: محمّدٌ الرّسولُ (صَلّى الله عليه وسلّم) يقول، ومحمّدٌ الرّازيّ هكذا يقول؟[١]

والحاصِلُ أنّنا لا نَعيشُ معَ الرّسولِ إلا بِالأُخوّة؛ أكونُ معَه بِطَريق الأخوّة. أنتُم، أحبّائي، ابحَثُوا عن النّهار في السّماء، وعن الظُّلمة في الأرض، حتّى تبلُغوا إلى حَيثُ تنظرونَ إلى الأرض وكأنّها ظِلٌّ مضطَرِبٌ؛ وستُحِسّون باللّذّةِ والهيَجانِ في العِشْق فقط. شَرِبتُ في قُونِيةَ، مِن اليَنبوع الذي كُنتُ مشتاقًا إليه، خَمْرَ المحبّةِ والعِشْق اللّذيذ، وكنتُ ثَمِلًا لمدّةٍ طويلة. وإذا كنتُ قد عِشْتُ في هذا المنفَى البائس فمَبْعَثُ ذلك أنّني أَعيشُ معَ عِشْق رِجال الله والعارفين، ولا يوجَدُ بَيني وبينَهم في عالَم التّراب فِراقٌ وهِجْران. مِن أَجْلِ الله، أَطْلِقوا سَراحي، اتركوا طوفانَ الطّبيعة يَحْمِلُني معَه إلى آفاقٍ بعيدةٍ كأَوراقِ الخريف الصّفراء، فلا يبقَى منّي أَثَر.

وخَلْفَ عَتَبة الخانِقاه القديم، انتشَرَ صَوْتُ بُكاءٍ في الفضاء. استَسْلَمَ سُلْطانُ وَلَد وأَصْحابُه لِلْبكاء اضطرارًا. صارَ شَمْسٌ طُوفانًا، وبصَوْتٍ هَزّ أَجْسادَ مُرْتادي الخانِقاه، قالَ:

ـ كُلُّ مَن أُحِبّه أقدِّمُ له الجَفاءَ، فإن قَبِلَ ذلكَ كُنتُ له! نعم، إنّ لَدَيّ قاعدةً هي أنّ كُلَّ مَن

---

١ ـ مقالاتُ شمسٍ التّبْريزيّ.

أُحِبّه أستعْمِلُ معَه القهرَ أوّلًا. وهكذا أستعْمِلُ الجفاءَ معَ الشّخص الذي أُحِبّه. أنا أيضًا مِثْلُ كَفّ اليد؛ إنْ عَرَفَ شَخْصٌ طَبْعي ارتاحَ ظاهرًا وباطنًا. كُلُّ مَنْ أتوجّهُ إليه يُديرُ وجهَه عن العالَم كلّه. وربّما أَبدُو متوجِّهًا إلى أحدٍ، لكنّني لا أتوجَّهُ إليه حقيقةً. لَدَيّ جوهرٌ يتمثّلُ في أنّ كُلّ مَنْ أتوجَّهُ إليه يغدو غريبًا عنْدَ أَصْحابِه وأحبّائه.

خمَدَ صَوتُ شَمْسٍ السّماوِيُّ في صَمْتِ الخانِقاه. ومَنْ غَرِقوا في الإنْصات إلى كلماتِه الشّبيهةِ بالمُعجِزة وقَفُوا منجذِبينَ وثَمِلينَ، لَيْسَ لَدَيهم جُرأةٌ على أن يَنْبِسُوا بِبِنْتِ شَفة، وغادَروا الخانِقاهَ واحِدًا إثْرَ آخَر. وعنْدَما وَصَلَ أحَدُهم إلى قريبٍ مِن باب الخُروجِ قال لِسُلْطان وَلَد: طَلَبَكُم شَمْسٌ.

دخَلَ سُلْطانُ وَلَد إلى الخانِقاه، فقَبّلَ يَدَ شَمْسٍ، وانحنَى أمامَه ووضَعَ رأسَه على قَدَمه وقالَ:

مَوْلانا، إنّ كلامَكَ مِن العُلوقِ بالقَلْب والنّفاذِ إلى الأعماق على نَحْوٍ لا أَقْدِر معَه على التّعبير عنه [٦٠]، ولَعلّ كلامَك يَسْتحقّ أن يَصْعَدَ إلى الجَناب الإلهيّ.

إنّ كلامَكَ المتناغِمَ المنسَجِمَ المفعَمَ باللّطف والجلالِ يَحْكي صَوتَ السّماء الزّرقاء، صوتَ العِشْق والحقيقة. وهو عَينُ الصّوتِ الذي جذَبَ إليه والدي، مَوْلانا[١].

وقد بقيَ لمدّةٍ هائمًا بِكَ ومضطَرِبًا، أغلقَ على نفسِه البابَ ولم يأذَنْ لِأحَدٍ

١ـ أَنشَدَ جَلالُ الدّين في فِراق شَمْس:

أَجْرِ ماءَ حياةِ العِشْق في عُروقِنا	واجعَلْ «مِرْآةَ الصّبوح» ترجمةً لِـ«الغَبوق»، لا شيئًا غيرَ ذلك
يا أبا النّشاطِ الجديد، امْضِ فوقَ رُوحِنا	وصِرِ الكأسَ التي تُظهِرُ العالَم، وابعُدْ عَنِ العالَمَيْن
يا مَنْ عَقْلي صَيْدٌ لكَ، والرَّمْيُ بالنّبال شِعارٌ لك	أمسِكْ مِيسَمَ القَلْب، وضَعْ عَلامةً على رُوحي
يا مَنْ صِرْتَ في لَعِبِ النّجومِ الملِكَ مَيتًا، وبيدَقًا	اختَرِ الحِصانَ، وانطَلِقْ مِن الرُّخّ إلى ناحية الملِك
انهضْ، وتبختَرْ، وتجاوَزْ كلّ الأفخاخ	وقَبِّلْ جَبينَ الرّوح، ومَشّطْ طُرّةَ النّشاط

(ديوان شَمْس تَبْريز، الغزَليّة ١٨٢٢)

بالدّخول عليه، ووِرْدُه الذي يردّدُه على لِسانه: شَمْسُ تَبْريز؛ اسْمُكم يذكِّر بِكلامِكم المثير. يريدُ مرّةً أُخرى أن يَسْمعَ عن قُرْبٍ الكلامَ المسْكِرَ والجُمَلَ الموزونةَ السّاحِرة، ويَرَى وجْهَكَ الملَكوتيّ. يعتقدُ والدي أنّه في الدّنيا كلّها، تَركيبُ كَلامِ شمْسٍ التَّبْريزيّ هو وحْدَه تَرْكيبٌ ملَكوتيّ، ومِنه يستَخْلِصُ المحبّةَ والإخلاص. كان يُحِسّ دائمًا بِأنّه افتقَدَ القُدْرةَ على الحياة، وذخيرةَ الحياة. وفي أَثْناء التّوديع قالَ لي: إمّا أن تَعودَ بِشَمْسٍ التَّبْريزيّ إلى قُونِيةَ، وإمّا أن تُسْلِمَ الرّوحَ إلى خالِقِ العالَم.

مكثَ سُلْطانُ وَلَد قليلًا، وحَدّقَ في وَجْه شَمْس فشاهدَ قَطَراتِ الدّمْعِ تنهمِرُ مِن زَوايا عينَيه. واحِدٌ مِن رفاق سُلْطان وَلَد أخرجَ، بِأَمْرٍ مِنه، مِقْدارًا مِن الفضّة والذّهَب مِن الكيس، ونثَرَه على قَدَمي شَمْس. وفي هذه الأَثْناء أخرج سُلْطان وَلَد من جَيبه رسالةً مختومةً، وقالَ لِشَمْس تَبْريز: نظَمَ والدي أَرْبعَ غزَليّاتٍ وأرسلَها إلى حَضْرتِكَ. اسْمَحْ لي بِأَن أقرأَ بضعة أَسْطُرٍ منها فقط. صارَ شَمْسٌ، الذي أَطرقَ إطراقَ التفكّر، كلُّه آذانًا تَسْمَعُ، فقرأَ بَهاءُ الدّين(*) الأشعارَ:

والله الـــــــذي كـــــــانَ في الأزَل

حَيًّـــــا وعَلِيمًـــــا وقـــــادرًا وقَيّومًـــــا

الـــذي أَوْقـــدَ نُـــورُه شُـــموعَ العِـــشْق

حتّـــى انكَـــشَفَ مِئـــةُ أَلْـــفِ سِـــرّ

ومِنْ حُكْمٍ واحِدٍ مِن أَحْكامِه امتلأَ العالَـمُ

بالعاشِـــقِ والعِـــشْقِ، والحـــاكِمِ والمحْكـــوم

---

* ـ لقَبُ سُلطان وَلَد، ابنِ مَوْلانا جلال الدّين [المترجم].

وفي طَلاسِـــــمِ شَـــــمْسٍ التَّبْريـــــزيّ

صـــــارَ كَنْـــــزُ عَجائِبـــــه مَكْتومًـــــا

إنّنــي مُنــذُ اللّحظــةِ التــي ســافَرْتَ فيهــا

فُـصِلْتُ عـن الحَـلاوةِ كمـا يُفْـصَلُ الـشّمَعُ [عـن العَسَل]

أَحْتَـــــرِقُ كُـــــلَّ لَيلـــــةٍ كالـــــشَّمَع

مُكْتوِيًـــا بِنَـــارِه، مَحْرومًـــا مِـــن عَـــسَلِه

[٦١] أَلا فاجْـذِبِ العِنـانَ إلـى هـذه الناحيـة

وغَلِّـــظْ مِـــنْ فِيـــلِ العِـــشْق الخُرْطـــوم

مِـنْ دُونِ حُـضورِكَ لا يكـونُ الـسّماعُ حَـلالًا

كالـــــشّيطانِ طَـــــرِبَ فَـــــرُجِم

جعَــلَ اللهُ لَيلــي مِنْــكَ صَــباحًا وَضّــاءً

يــا مَــنْ فيــكَ فَخْــرُ الــشّامِ والأَرْمَــنِ والــرّوم(١)

أوصَلَ سُلْطانُ وَلَد، وعَيناه مُثْقَلَتانِ بالعَبَراتِ، الرّسائلَ المنظومةَ المُحْرِقةَ المُذيبةَ، التي أَرسَلَها العاشِقُ الذي رَأى الهِجْرانَ، إلى مِسْمَعِ المعشوقِ الصّريحِ الشّجاع المتمرّد العظيم. كان الابنُ العزيزُ لمَوْلانا ينتظِرُ أَنْ يَجيشَ بَحْرُ محبّةِ شَمْسٍ، ثمّ في لَحَظات الشّوقِ والهيَجانِ والذّهول، أن يَترُكَ دِمَشْقَ متّجِهًا إلى قُونِيةَ.

كان سُلْطان وَلَد أمامَ أَتُّونِ ضِياءٍ حَلّ خَلْفَ رَأْسِه أُلوفُ أَنْجُمِ العِشْق والعِرْفان، أُلُوفُ المجَرّاتِ التي كان كُلٌّ مِنها عوالِمَ عظيمة. كان سُلْطان وَلَد واقفًا أَمامَ الشّمْس.

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغزَليّة ١٧٦١.

ويَرْوي الأَفْلاكيُّ أنّ مَوْلانا أَرسَلَ أَرْبعَ غزَلِيّاتٍ إلى حَضْرة شَمْس؛ إذ الغزَليّاتُ الثلاثُ الأُخَر هي:

الغزَليّةُ الثانية

أَيُّهــا النُّــورُ في الفُــؤادِ، تَعــالَ — غَايــةَ الوَجْــدِ والمُــرادِ، تَعــالَ

أنــتَ تَــدْرِي، حَياتُنــا بِيَــدَيكَ — لا تُــضَيِّقْ عَلَــى العِبــادِ، تَعــالَ

يــا سُــلَيمانُ، دارُ هُدْهُــدٍ لَــكَ — فتفَــضّلْ بِالافتقــادِ، تَعــالَ

أَيّها العِشْقُ، أَيّها المعْشُوقُ — حُــلْ عَــنِ الــصَّدّ والعِنــادِ، تَعــالَ

أَيّها السّابِقُ، الــذي سَــبَقَتْ — مِنْــكَ مَــصْدوقةُ الــوِدادِ، تَعــالَ

فمِــنَ الهَجْــرِ ضَــجّتِ الأَرْواحُ — أَنجِــزِ العَــوْدَ، يــا مُعَــادُ، تَعــالَ

اسْــتُرِ العَيْــبَ، وابــذُلِ المعــروفَ — هكــذا عــادةُ الجَــوادِ، تَعــالَ

ومَــا اللّــسانُ الفارِســيُّ، تَعــالَ، تَعــالَ — فإمّــا جِــئْ، وإمّــا أَنــصِفْ، تَعــالَ

فــإذا جِئتَ، فَما أَجْملَ الفــتحِ والــمرادَ — وإذا لَــمْ تَــأتِ، فَمــا أَعْجبَ الكَساد، تَعالَ

يــا نَــصْرَ العَــرَب، يــا قُبــاذَ العَجَــم — أنــتَ سُــرُورُ قَلْبــي، في الخــاطر، تَعــالَ

يــا مَــنْ بــاطني يقــولُ لَــكَ: تعــالَ — ويــا مَنْ مِنْ وجودكَ جاء الوجودُ، تعالَ

طُفْــتُ فِيــكَ الــبِلادَ يــا قَمَــرًا — بــي مُحيطًــا وبــالبِلادِ، تعــالَ

أنــتَ كالــشّمْسِ إذْ دَنَــتْ ونَــأَتْ — يــا قَريبًــا، علــى البِعــادِ، تَعــالَ[1]

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغزَليّة ١٣٦٥. وهذه الغزِليّة جاءت بالعربيّة في الأصل، إلّا قليلًا منها [المترجم].

الغزَليّةُ الثّالثة

يـــا ظَريـــفَ العـــالَمِ، سَـــلَامٌ عَلَيـــكَ

إنّ دائـــــي وصِـــــحّتي بِيَـــــدَيكَ

وإذا لـــــم أصِـــــلْ إليـــــكَ ببَـــــدَني

فإنّمـــا الـــرّوحُ والفُـــؤادُ لَـــدَيكَ

وإذا كـان الخِطـابُ لا يَـصِلُ مِـن دُون كَـلامٍ

فلمـاذا أَصْـبَحَتِ الـدّنيا مملـوءةً بِلَبّيـكَ؟

الـــنَّحْسُ يَقـــولُ لَـــكَ: بَـــدِّلْني

والـــسّعْدُ يَقـــولُ لَـــكَ: يـــا سَـــعْدَيكَ

آتـــي إليـــكَ، وعنـــدَكَ أيـــضًا أَصْـــرُخ:

آهِ، المـــسْتَغاثُ مِنْـــكَ وإليـــكَ

مـــا دَواءُ أَلَمـــي؟ ـ قُـــلْ

«قُبلـــةٌ لـــو رُزِقْـــتُ مِـــن شَـــفَتَيكَ»

يا شَمْسَ الدّين، هَنيئًا لَكَ السُّرورُ بالحبيب

فـــإنّ ذلـــكَ قـــد ظَهَـــرَ في عَينَيـــكَ[1]

---

١ ـ ديوان شَمْس، الغزَليّة ١٣٢٤.

الغزليّة الرّابعة

أَعْلَى الله حَياةَ الصَّدْرِ

كان اللهُ حامِيًا لَهُ وكالئًا

كُلُّ نَسيئةٍ هي سُرورٌ لِأَهل الإِقْبال

فحَباهُ اللهُ النّقدَ في الوَقْتِ والحال

ومَجْلِسُه الحارُّ المملوءُ بالحَلاوة

جعَلَهُ الله خِلْوًا مِن النّديمِ البارِد

الأَرْواحُ المبسوطةُ الأَجْنحةِ في الغَيب

جعَلَها اللهُ مُقيَّدةً بينَ يدَيْهِ كَرُسُومِ السّجّاد

عَلَى يَمينِهِ ويَسارِه الإِقْبالُ

جعلَهُ الله في الجَنُوبِ وفي الشّمال

والوِلايَتانِ المسمّاتانِ الجِسْمَ والرّوح

جعَلَه الله مَلِكًا ووَالِيًا علَيهما

إنّ شَمْسًا التَّبْريزيَّ إِقْبالٌ عاجِلٌ

جعَلَه اللهُ بالاسْمِ، وجَعَلَ غيرَه بالمثال(١)

إنّ أَشْعارَ جَلالِ الدّين البَلْخيّ التي مُزِجَتْ بالاستعاراتِ والرُّموز الصّوفيّة وعناصِرِ المحبّة، ووَصفَتْ تغيّرَ حاله على نَحْوٍ رائع جدًّا، كان لها انعكاساتٌ وتأثيرات، وقد حوّلَت احترامَ شَمْسٍ لحبيبه إلى إخلاصٍ عَميقٍ، وأصبحَتْ دافعًا له

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ٩٧٩.

إلى الرّجوعِ إلى قُونِيةَ. وهذا السَّيْرُ، وهذه السِّياحةُ، معَ أنّهما يبدُوانِ مُتعِبَين، يجب أن يُعْنَيا بالتّأثيرِ العظيمِ الذي تعهّدَه شَمْسٌ في شَأْن البَحْثِ الصّوفيّ العِشْقيّ، والعِشْقِ الفعّال، والبَشَرِ المحبّين، وانتقالِ ذلك إلى جَلال الدّين. ولابدّ مِن أَنْ يذهَبَ شَمْسٌ إلى قُونِيةَ لِكَيْ يقابِلَ تلميذَه ومُريدَه الوَفيّ، ويَقْضِيَ الشّطْرَ الأَخيرَ مِن حياته المتْرَعَ بالمخاطَرات في تلكَ الدّيار.

١ـ عندَما صبَّ سَاقي «أَلَسْتُ» جُرْعةً
على هذا الحَمَأ المَسْنون الدَّنيء
٢ ـ جاش ذلكَ التُّرابُ، وجِشْنا مِن ذلك الغَلَيان
فجُرعةً أُخْرى، يا رَبّ، فقَدْ قَلَّ مِنّا الجُهْدُ
٣ ـ ومهما نكنْ عُقَلاءَ أو مجانينَ
نظلُّ سُكارَى ذلكَ السّاقي وتِلْكَ الكَأس
(المثْنَوِيّ، ٣٩١/٥ ـ ٩٢؛ ٢٥٨٠/٢)

سَماعُ مَوْلانا

[٦٣] عرَفَ مَوْلانا في قُونِيَةَ أنّ شَمْسًا التَّبْريزيَّ، في نهايةِ الأَمْرِ، انجذَبَ إلى أَشْعارِه وسُحِرَ بها، وأنّه تلقّى رسائلَه الخلّابةَ المؤثّرةَ بِسَمْع القَبول، فطارَ إلى مَحْبوبه راقصًا. فانطَلَق مَوْلانا إلى الخانِقاه على الفَوْر، وتحلّقَ حولَه المُحِبّون والمتعلّقون به. وصار حُضورُ مَوْلانا غيرُ المنتظَر إلى الخانِقاه باعِثًا لِبروزِ شائعاتٍ؛ لكنّ هذه الشّائعاتِ والأخبارَ الكاذبةَ لم تدُمْ طويلًا عندَما نهضَ مَوْلانا مِن مَحَلّه، وصاحَ وخاطَبَ الموجودينَ في الخانِقاه:

أيّها الأَحِبّةُ، اعْلَموا أنّ الرّجلَ المكتنَفَ بِالأَسْرار، في زَعْمِكم، شَمْسَ الحقّ ونورَ العارفينَ المُطْلَق، أعني شَمْسًا التَّبْريزيّ، تلكَ الشّمْسُ التي تَسْطَعُ وَسْطَ الظّلّ، انطَلَق مِن دِمَشْقَ إلى قُونِيَةَ. وابتغاءَ أن تُغَطّوا المَسافاتِ عن نظَري، وتُقصِّروا طريقَ الألَم والغمّ الطويلَ، لابدّ مِن أَنْ تَعْرفوني وتَعْرفوا تحمُّليَ الهِجْرانَ جيّدًا، لابدّ مِن أَنْ تَشْغَلوني بالسَّماع...

نهضَ جاهلٌ أو فُضوليٌّ مِن مكانه، فقطَعَ كلامَ مَوْلانا وقالَ:

يقولونَ إنّ شَمْسًا التَّبْريزيّ منذُ شَهْرٍ لَبّى دَعْوةَ الحَقّ، وأسلَمَ الرّوحَ إلى خالِقِ

العالَم. أحاطَ بالخانِقاه سُكوتٌ مُطْبق... صرخَ مَوْلانا وأنشدَ على الفَور:

مَـنْ قـالَ: إنّ الـرّوحَ المثيـرَ لِلْعِـشْق مـاتَ؟

أَمـاتَ جِبْريـلُ الأمـينُ بخِنْجَـرٍ حـادّ؟

ذلـكَ الـشّخصُ الـذي مـاتَ عِنـادًا، كَـإِبليسَ،

يظُـنُّ أنّ شَـمْسَ تَبْريـزَ مـات(١)

[٦٤] اسْمَعُوا، احبِسُوا الأنفاسَ في الصّدور، ففي فَضاءٍ مترامي الأَطْراف تصِلُ إلى الأسماع حتّى الآنَ أَصْواتُ شَمْسٍ، أَدْعِيةُ شَمْسٍ تُسْمَع حتّى الآنَ في هذا الخانِقاه كأَنغامِ الجنّة، ويجِبُ أن تُسْمَعَ هذه الأنغامُ بِأُذُن الرّوح، لا بِأُذُن الحِسّ؛ ذلك لِأَنّ كَلامَ شَمْسٍ كَلامُ أَولياءَ، وإنّ أُذُنَ الحِسّ تتلوّثُ بِسَماع التُّرّهات والتّوافه، ولَيْسَ لها مُجانَسَةٌ ومُشابَهةٌ وقُربٌ مِن كَلام الكُبراء. أَنا أَسْمَعُ جيّدًا وبِتَمامِ وجودي تلكَ الأصواتَ؛ وكُلُّ مَنْ كان عاشِقًا مِثْلي ستكونُ الدّنيا عنْدَه مَحَلًا لِتَجلّي وَجْهِ شَمْسٍ وصوته، سَيَرى شَمْسًا عن قُرْبٍ (عدَدٌ مِن الأَشْخاصِ الذين لم يصدّقوا أَخَذوا يبتسِمُونَ ويتهامَسون بالسّخرية، ويقولون كَلامًا مزعجًا). واصَلَ مَوْلانا القولَ:

أَيّها الأحِبّةُ، اعْلَموا أنّه حتّى حَياةُ الكائناتِ لَيْسَ لها مَفْهومٌ عِنْدي مِن دونِ وجود شَمْس. وإنّ كُلّ شيءٍ في الدّنيا يَنشُد مَلاذًا ومَلْجأً، وأنا أيضًا كالطِّفْلِ المطيع أَنشُدُ شَمْسًا وأَبحَثُ عنه، فمَنْ قالَ إنّ هذا الحَيَّ الخالِدَ ماتَ؟ مَنْ ذا الذي أَعْطَى لنفسِه الجرأةَ على أن يقولَ: إنّ مُرادي أَسْلَمَ الرّوحَ إلى خالِقِ الأَرْواح؟

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الرُّباعيّة ٥٣٤.

مَـنْ قـالَ: «إنّ ذلـكَ الحَـيَّ الخالِـدَ مـاتَ؟»

مَــنْ قـــالَ: إنّ شَـــمْسَ الأَمَـــلِ أَفِلَـــتْ؟

ذلـكَ هـو عَـدُوٌّ للـشّمْسِ صَـعِدَ علـى الـسَّطْح

وأَغْمـضَ عينَيـه وقـالَ: «ماتــتِ الـشّمْسُ»[١]

شَخْصٌ آخَرُ مِن مُحِبّي مَوْلانا نَهضَ مِن مكانه وقالَ:

يا مَوْلانا، إنّ ابني جاء البارِحةَ مِن دِمَشْق، وكان قد رَأى شَمْسًا في سُوق بائعي الحَلْوى في دِمَشْق... بَلْ لقَدْ تحدّثَ معَه. كان شَمْسٌ يقِظًا ونشيطًا. قال ابني لِشَمْس: إنّ مَوْلانا لم يَعُدْ يُطيقُ الصّبرَ على فراقِكم. كان شَمْسٌ على عِلْم بِمُعاناتكم، مِن طَريقِ إشْراقِ الباطِن، أو مِن طَريقٍ آخَرَ غيرِ ذلك، لَسْتُ أَدْري؛ ولهذا السّبب لَدَيه شَوْقٌ شديد جدًّا إلى لقائكم.

فقالَ مَوْلانا بانشراحِ صَدْرٍ: في هذا اليومِ، ابعَثْ ولَدَكَ إلَيَّ لِكَيْ أُعطِيَه عِمامَتي ولِباسي تَعبيرًا منّي عنِ الابتهاجِ بهذا الخبرِ السّارّ[٢].

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الرُّباعيّة ٥٣٣.

٢ ـ أنشدَ مَوْلانا في فِراق شَمْس:

أَلَا يا نَسيمَ السَّحَر، ائتِني بِأَخبارِ شَمْس الدّين　　أنا صاحِبٌ له، لكنّكَ أنتَ تعرِفُ أخبارَه
تَجاوزِ الأَجْسامَ والأَرواحَ، واطْوِ حِجابَ العِشْقِ أيضًا　　واقطَعْ مئتَي منزلةٍ في تلكَ الناحية وانظُرْ إلى سُوقِ شَمْس الدّين
تزدانُ حَلَمةُ أذنِ ضميري بِقَلائدَ مِن دُرّ　　مِنْ أَلفاظِ شَمْسِ الدّين، الشّبيهةِ بالوَحْي، المحمَّلةِ بالسُّكّر
أيّها القلبُ، في كلّ ناحيةٍ يوجدُ واحِدٌ مِثْلُكَ يئنّ آلافَ الأَنّاتِ، فلا تظنّ مغترًّا أنّك وَحْدَك حَزينٌ جدًّا مِنْ أجل شَمْس الدّين
إنّ لَيلَكَ المظلِمَ، أيّها القلبُ، لا يَرَى النّهارَ أبدًا　　إلّا مِن نُور خَدّ شَمْسِ الدّين وإشْراقِه
عَجَبًا، أَيحدُثُ ذاتَ يوم أن أُمسِكَ بجامِ وِصاله؟　　فأَسْكَرَ وأقولَ: «إنّني خَمّارُ شَمْسِ الدّين»
فإنّ حَظّي نائمٌ نومًا لا صَحْوَ له منه　　فلعلّ ذلكَ يكونُ مِنْ حظّ شَمْسِ الدّين الصّاحي وإقباله
لم يكُنْ لدَيكَ قبْلَ هذا مِثْلُه، وأعلَمُ أنّه لَنْ يكونَ بعْدَ هذا،　　فشَمْسُ الدّين مُطّلعٌ على لَوْحِ الأَسْرار، ولذلكَ هو يقِظٌ
وقد أَغْلَقَ هو بابَ الإمكان، لكي لا يخرجَ منه شخصٌ مثْلُه　　فشَمْسُ الدّين هو نفسُه مانعٌ لأَوصافِه البديعة =

في نظَراتِ مَوْلانا المضطَرِبةِ كانَتْ جاذبيّةُ المَحَبّةِ الصّميميّةِ تموجُ بِلُطْفٍ، وكانَتْ هذه النظَراتُ المشتاقةُ المصحوبةُ بالابتسامة تُؤذِنُ بأنّه سيُشاهِدُ سَريعًا مَفاتنَ العالَم، أي شَمْسًا. ومنذ ذلكَ اليومِ، جَلَس مَوْلانا للسَّماع والرَّقْص، واستعاضَ عن لِباس الفُقَهاء بِلِباسِ العارِفينَ، وأَمرَ بِأَنْ يُصْنعَ لِلرَّبابِ سِتُّ منازلَ، معَ أنّه منذُ عَهْدٍ بعيدٍ كان للرَّباب، هذه الآلةِ الموسيقيّة المُحْرِقة، أَرْبعُ منازل. ثمّ بعْدَ ذلكَ أنشَأَ السَّماعَ، ومِن الشّوقِ انشغَلَ بالتّواجُدِ والسّماعِ والرَّقْص.

كان مَوْلانا ينتظِرُ باشتياقٍ لِقاءَ شَمْس، وكلُّ ما كان يُقالُ، غيرَ حديثِ العِشْق، لم يكن يَسْمَعُه، لم يكن يُصْغي إلى كلامٍ وحديثٍ غيرِ حِكايةِ ذلكَ الكَنْز.

كانَتِ الأنغامُ التي تصدُرُ في الخانِقاه، في الثّناء على الحبيب. وكان قبْلَ بزوغِ الفَجْر يأتي مِن الخانِقاه إلى البيت، فيستريحُ ساعةً، ثمّ يعودُ مرّةً أُخرى إلى الخانِقاه؛ وكان يوصي أصحابَه بِأَنْ يُنشِدوا ويغنّوا ويرقُصوا؛ ذلكَ لأنّ الفَناءَ والمَوْتَ في عَتَبة الخانِقاه، فلابدّ مِن اغتنام اللّحظات:

غَيِّـــرِ النَّغْمـــةَ، واعـــزِفْ لَحْنًـــا جَديـــدًا

فقَــدْ وصَــلَ مِــن الفَلَــكِ صَــوْتٌ جَديــد[1]

في أَحَدِ الأيّام سأَلَ أَحَدُ المُريدينَ مَوْلانا في الخانِقاه: ما الظَّرْفُ واللُّطْفُ الكامنانِ في نَغْمةِ الرّباب، اللّذانِ يَعجِزُ بعضُهم، ومنهم أنا، عن إدراكهما؟ فأجابَ مَوْلانا:

= وهناكَ نَهْرٌ رُوحانيّ، تستمدُّ الأرواحُ مِنه الرّوحَ وقد صار شَمْسُ الدّين حاكمًا كُلّيةً لذلكَ النّهر

(ديوان شمس تَبْريز، الغزَليّة ١٨٦١)

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ٢٢٦٣.

ـ أمّا أنا فبِسَماعِ نَغَماتِ الرَّباب أَسْمَعُ صَوْتَ بابِ الجَنّة[١].

في تِلكَ اللّحظاتِ، كان سيّدُ شَرَف الدّين، وهو مِن أَتْقياءِ قُونِيَةَ، حاضِرًا، فقالَ لمَوْلانا:

[٦٦] نحنُ أيضًا نَسمَعُ صوتَ الرَّباب، فلماذا لا نتأثّرُ كالتأثّرِ الذي تتحدّثونَ عنه، ولا ينتابُنا الشّوقُ والتحرُّقُ مثْلَما ينتابُكم؟ ـ فقالَ مَوْلانا:

ـ ما نسمَعُه نحنُ هو صوتُ انفتاحِ باب الجَنّة، وما تسمَعُه أنتَ صوتُ انغلاقه.

‹هُـوَ الغَفـورُ›، أَسْـمَعُ مِـن صَـوتِ الرَّبـاب

صَــوتَ بــابِ الجَنّــةِ، أَسـمَعُ مِــن صَــوتِ الرَّبــاب

فــشتّانَ مــا بــينَ سَــماعي وسَــماعِكَ:

أنتَ تَسمَعُ صَوتَ انغلاق الباب، وأنا أَسْمعُ صـوتَ انفتاحه

مؤلّفُ كتابِ «**مَناقب العارفين**»، كتبَ في شأن صِلة مَوْلانا بالسَّماع[٢] والموسيقا والرَّقْص يقولُ:

كان مَوْلانا (خُداوَنْدگارِما ـ بالفارسيّة) منذُ ابتداءِ أَمْرِه منشغِلًا بتَطْبيقِ منهجِ والدِه، مَوْلانا بهاءِ الدّين وَلَد، وسِيرتِه وسُلوكه، لكنّه لم تكُنْ له صِلَةٌ بالسّماع.. وعندَما رأى مَوْلانا شَمْسَ الدّين بِعَينِ البصيرة، عَشِقَه، ورأى في كُلّ ما كانَ يقولُه غَنيمةً. قال له شَمْسُ التَّبْريزيُّ: إنّ السَّماعَ يُحيي في النّفوسِ الرُّؤى الملَكوتيّةَ، فالألْحانُ الرّبانيّةُ

١ ـ جاء في للدّيوان الكبير:

أسمعُ من صوت الرّباب: «هو الغفور»

٢ ـ للسَّماعِ عنْدَ بعض شيوخ السَّيْر والسُّلوك، ومنهم المولويّةُ والقادريّةُ، أنصارٌ ومؤيّدون. ويعني السَّماعُ مُشاركَةَ جَماعةٍ في مجالسِ الغِناء، «تلاوة الأغاني والأناشيد»، في صُورةٍ جَماعيّة. وأكثَرُ الصّوفيّة يَعُدّونَ ذلك مُباحًا، ولهم في إجرائه آدابٌ وتَرْتيباتٌ خاصّة. ولكنّ كثيرًا مِن الطُّرق الصّوفيّة تعترِضُ على السّماع [الأَصْل].

عندَما تَصِلُ إلى الأُذُنِ مصحوبةً بِأَنغامِ النّايِ والرَّباب تكونُ مِثْلَ شُعْلةٍ تنزِلُ مِن السّماء، لإنارة القلوب. وكان شَمْسٌ قد أَمرَ مَوْلانا بِأَنْ يشغَلَ نفسَه، في غِيابه، بالتفرّجِ في البساتينِ، وأداءِ السَّماع، والدُّعاء والإنشاد.. أَوْصى شَمْسٌ جَلالَ الدّين في الخَلْوة مرّاتٍ كثيرة: «ادخُلْ في السَّماع؛ فإنّ الذي تَنشُدُه سَيزدادُ في السَّماع».

وبناءً على إشارةٍ وتوصيةٍ مِن شَمْسٍ، دخَلَ مَوْلانا في النّهاية في السَّماع، وما كان لازِمًا على نحوٍ واضِحٍ من أسرار الطّبيعة رآه عِيانًا. وكثيرًا ما كانَتْ دمُوعُ مَوْلانا المُحْرِقةُ تنهلُّ على أَوْتارِ رَبابِ أَحَدِ الفنّانين العازِفين. وكان النّاسُ يَعُدّون هذه القَطَراتِ دُموعَ وَجْدٍ وشَوْقٍ ووِصالٍ، وكان يقالُ إنّ مصْدَرَ هذه الدّموع ويَنبوعَها هو انجِذابُ مَوْلانا، وستُشْرِقُ عَيناه سَريعًا بِلِقاءِ معشوقه الجاذبِ لِلْقَلْب، المؤثِّر.

كان أهلُ قُونِيَةَ يَسْمعونَ بِأَخبارِ تحرّقِ مَوْلانا البالغِ، والغَيرِ المسْبُوقِ، في الخانِقاه، وصياحِه الباعِثِ لِطُوفان حَيرته واضطرابه. وكان المقرَّبون مِنه يقولونَ: إنّه مِثْلَما أنّ قَصْفَ الرَّعْدِ مؤشِّرٌ إلى [٦٧] نُزولِ المطَر، تكون صَيْحاتُ مَوْلانا وصَرَخاتُه مبشِّرةً بِقُرب زَمانِ الوَصْل. قالَ مَوْلانا:

هذه الأنّاتُ التي تنبعِثُ مِن النّاي والرَّباب تُصفّي رُوحي في أتّونِ الفِراق الحارِق والمذيبِ، وتُبشّرُني بِأَنّ ضالّتي في العِرْفان ومحبوبيَ الرّوحانيّ، أستاذَ العِرْفان غيرَ المنازَع، سيصِلُ سريعًا ويضيءُ عينَيّ الغارقتَين في الدّموع، اللّتَين أَشْبهتا عينَي ماءٍ منهَمِرٍ.

وفي دِمَشْقَ، دخَلَ سُلْطانُ وَلَد، وكُلُّ أَصْحابِه، في طاعة شَمْسِ تَبْريزَ ومحبّته. والفضّةُ والذّهَبُ اللّذانِ أُحْضِرا تُرِكَ قِسْمٌ منهما عنْدَ شَمْس. وقد ضَحِكَ شَمْسٌ عنْدَ مُشاهدة أكياسِ الذّهَب والفضّة، وقالَ:

ـ لماذا يخْدَعُنا بالفضّة والذّهَب؟ ـ إنّ طلَبَ مَوْلانا كِفايةٌ لنا، وكيفَ يمكِنُ إغفالُ كَلامِه وإشارته؟ إنّ قَولًا واحِدًا لمَوْلانا لا يمكِنُ أَنْ يساوِيَه عنْدَنا ألفُ دينار. البابُ الذي سُدَّ في وَجْهي فُتِحَ بإرشاده؛ واللهِ، إنّي مُقصّرٌ في تعرّفِ مَوْلانا؛ والآنَ وأنا هنا أعلَمُ أيّ جوهرٍ قيِّمٍ كان مَوْلانا. إنّ عظَمةَ الجبَلِ يمكِنُ تعرّفُها من بُعْدٍ على نَحْوٍ أفضلَ؛ ولا بدّ مِن تعرّفِ مَوْلانا على نَحْوٍ أفضل. إنّ وراءَ كلامه أشياءَ، ويجِبُ طلَبُ تلكَ الأشياء منه.

وقد رسَمَ شَمْسٌ بِكلامِه المشّوقِ صُورةً جديدةً لمَوْلانا أمامَ ابنه؛ وذلكَ ابتغاءَ أن يَعْلَمَ أحبّاؤه أنّ شَمْسًا أيضًا عاشِقٌ لمَوْلانا، وأنّه مُضطَرٌّ إلى أن يَسْبَحَ في بَحْرِ عِشْقِ مَوْلانا. هذا، معَ أنّ جَلالَ الدّين كان يسمّي مَوْلانا شَمْسًا: «سُلْطانَ المعشوقين».

يَنهمِكُ شَمْسٌ في الحديث عن اللّحَظات العابرة الثّابتة التي أمضاها معَ مَوْلانا. يتحدّثُ عن إِبداعيّته، فيَعُدُّ شَمْسٌ مَوْلانا نَجْمَ أَمَله، ويقولُ إنّه كثيرًا ما كان لي في ظَلامِ دِمَشْقَ وصَمْتِها معَ مَوْلانا مُناجَياتٌ وأَسْرارٌ، فماذا يريدُ مِنّي، وقد كنتُ دائمًا عندَه، أتحدّثُ معَه، وأعلَمُ أنّ مَوْلانا في هذه اللّحظة منشَغِلٌ في الخانقاه بالسَّماع والرَّقْص.

قُلْتُ لَه إنّ السَّماعَ [(١)] فَريضَةُ أَهْلِ الحال. السَّماعُ رَاحةٌ لِأَرواحِ الأَحْياء، [٦٨]

١ـ السّماعُ راحةٌ لِأَرواحِ الأَحْياء
وإنّما يَنْشُدُ أن يصْحُوَ
فاجعَلِ السّماعَ حيثُ يكونُ هناك عُرْسٌ
الإنسانُ الذي لم يرَ جَوهَرَهُ
لماذا يحتاجُ هذا الإنسانُ إلى السَّماعِ والدّفّ؟
عِنْدَ الأَشْخاصِ الذينَ تتّجِهُ وجوهُهم نحْوَ القِبْلةِ
خاصّةً حَلْقةَ رجالٍ مُسْتغرَقينَ في السَّماع
فإِنْ أردتَ منجَمَ السُّكّرِ فهو المكانُ نفسُه
إذْ يعْلَمُ الإنسانُ أنّ لَدَيه رُوحًا لِرُوحِه
ذلكَ الإنسانُ الذي هو نائمٌ وسْطَ البُسْتان
ولا تجعَلْه في المأتم؛ لِأَنّ ذلكَ مكانُ التأوّهِ والأَنين
الإنسانُ الذي يَكونُ القمَرُ خافيًا على عَينَيه،
السَّماعُ يكونُ مِن أَجْلِ وَصْلِ الأَحِبّة
يَكونُ السَّماعُ في هذه الدّنيا وفي تِلْكَ الدّنيا
يطوفونَ والكعبةُ في وسَطِهم
وإنْ شئتَ إِصْبعَ سُكّرٍ فهو بالمجّان
(ديوان شَمْس تَبْريز، الغزَليّة ٣٣٩)

السَّماعُ لازِمٌ لِأَصْحاب القُلوبِ وأَهْلِ الصّفاء. السَّماواتُ السَّبْعُ والأرضُ والخَلْقُ جميعًا يبدَؤون بالرَّقْصِ عندَما يبدَأُ العارفُ بالوَجْد والرَّقْص. ورَقْصُ رِجالِ الله لَطيفٌ وخَفيفٌ وناعِمٌ، كأنّه الوَرَقُ ينسابُ على وَجْه الماء. في الباطِنِ كالجِبال، وفي الظّاهر كالقَشّ.

تقولونَ إنّه عَلَيّ أن أَعودَ إلى قُونِيةَ، أنا في كُلّ لَحظةٍ في قُونِيةَ، أنا وجَلالُ الدّين نتحادَثُ في شَأْنِ أَسْرارِنا، أحَدُنا إلى جانب الآخَر. عَلَيّ أن أُمسِكَ بيَدِ مَوْلانا وآخُذَه معي إلى خُراسانَ الكبرى؛ ذلكَ لِأَنّ أكثَرَ أَهْل قُونِيةَ لا يدرِكونَ معنى كَلامي، ولو أَذِنوا لي بِأَن أُخرِجَ وجوديَ الجِسْمانيّ مِن هنا لَكُنتُ شاكرًا[1].

أَلْقَى شَمْسٌ نِصْفَ نَظْرةٍ على وَجْهِ سُلْطان وَلَد، وقالَ: لا أَدْري لماذا رُوحي مضطَرِبٌ، وقَلْبي غيرُ مُطْمَئنّ، منذُ اللّحْظةِ التي نَوَيتُ فيها السّفَر. غَمٌّ مُوجِعٌ يأكلُ داخلي، لا أعلَمُ ماذا يريدُ مِنّي مَوْلانا؟ ـ لماذا يَدْعوني إلى مكانٍ يريد فيه المتعصِّبونَ وعُميانُ القَلْب الحسّادُ أن يَسْفِكوا دَمي؟

أَنتُم تَدْعُونَني إلى حَيثُ أُقتَل، معَ أنّ أساسَ العِرْفانِ العِشْقيّ هو الإيثارُ والإخلاصُ والفَناءُ والشّهادة. إنّ لقاءَ مَوْلانا، العارِفِ الزّاهد، جاذِبٌ للرُّوح نحْوَ أَتّونِ العِشْق والصّفاء.

---

١ ـ نظَمَ مولانا فِكر شَمْسٍ في الدّيوان الكبير على هذا النّحْو:

الضَّياعُ في الضَّياع هو دِيني	والفَناءُ في الوجودِ هو عَقيدتي
ومادُمتُ أَنقلُ الخُطا في دِيارِ الحبيب	فإنّ جَوادَ الفَلَكِ الأخضَرِ القاتِم في سَرْجي
وعنْدَما أَقطَعُ في لَحظةٍ واحِدةٍ مئةَ عالَمٍ	أنظُرُ فإذا هي خُطواتي الأولى
فلماذا أطوفُ حولَ العالَم عنْدَما يكون الحبيبُ	في صَميمِ صَميمِ رُوحي الحُلْو؟
إنّ شَمْسَ تَبْريزَ، الذي هو فَخْر الأولياء،	سِينُ أَسْنانه «سورة يس» عندي

(ديوان شَمْس تَبْريز، الغزَليّة ٤٣٠)

إنّي لَحائرٌ مِنْ إعْدامِه لِلْأسباب والوَسائل،
فأنا كالسُّوفسَطائيّة في خَيالاتي عنه
وقد حِرْتُ في صُنعِهِ الأسبابَ
وحِرْتُ أيضًا مِن حَرْقِه الأسبابَ
(المثْنَويّ، ١/٥٥٢ ـ ؟)

في مَدْرسةِ شَمْسٍ الفِكْريّة

[٦٩] أَسألُ اللهَ أَنْ أمتلِكَ القُدرةَ على أن أختزِنَ عُصارةَ رسالةِ رُوحي في كَلِماتٍ محدودةٍ، وأوصِلَها إلى أَسْماع المشتاقين. ووَاأَسَفاهُ، اتّهمَني الحُسّادُ والمُراؤونَ في بَلاطِ قُونِيةَ قائلينَ: إنّ شَمْسًا سَمّمَ أرواحَ شَبابِ مدينتِهم وأجسادَهم، وأفقَدَهم الثّقةَ بعقائدهم. وفي سَيْري وسِياحاتي الطّويلةِ لَقيتُ شُيوخًا وعارفينَ كِبارًا، لكنّه لَيْسَ لِأَيٍّ مِنهم خاصّيّاتُ جَلال الدّين؛ وبِما لدَيه مِن قوّةٍ عِلْميّة ورُوحيّة أضرَمَ نارًا خالدةً في قَلْبي. لكنّني منذُ اليومِ الذي ذهبتُ فيه إلى قُونِيةَ واجَهَتني التُّهَمُ والبَلِيّاتُ. والآنَ أيضًا أُحِسُّ بِأَنّه في سَماءِ قَلْبي سُحُبٌ سُودٌ وطُوفانٌ وَحْشيٌّ، وأَنظُرُ بِحَسْرةٍ إلى مستقبَلي. وفي هذه الأثناء قطَعَ أَحَدُ مُرافِقِي سُلْطان وَلَد كلامَ شَمْسِ تَبْريز وقالَ:

ـ مولايَ، ما قُلْتَ إنّكَ أخفيتَه في قَلْبِكَ يجعَلُني أتصوّرُ أنّ لَدَيكَ خوفًا مِن القَتْل؟ أَمِنَ الصّوابِ أن يَرْضَى عارِفٌ مِثْلُك، مِن أَجْلِ أن يبقَى عِدّةَ أيّامٍ في دار الخَراب هذه، بِأَنْ يظلّ جَلالُ الدّين البَلْخيُّ في مُصيبةِ الفِراق متأثّرًا مشتَّتَ الذّهْن باكيًا؟

غيّرَتْ هذه العباراتُ الصّادِقةُ شَمْسًا، وحدثَتْ ضجّةٌ، فأرادَ سُلْطانُ وَلَد أن يتكلّمَ ويقلّلَ مِن ثَورة شَمْس، لكنْ كان كأنّه يَرَى في وَجْه شَمْسٍ صُورةَ مَوْلانا، وفي جسَده أيضًا [٧٠] مثْلَ ذلكَ. كان عمَلَ مَوْلانا أَنْ يرسُمَ مئاتِ الصُّوَر، ويَنْحِتَ مئاتِ التّماثيل، ثمّ بعْدَ ذلكَ يمْحُو الصُّوَرَ ويكسرُ التّماثيل.

شقَّتْ سَبّابةُ يَدِ شَمْسٍ اليُمْنى الفضاءَ، واستقرَّتْ فوقَ قَلْبه.. وكانَتْ هذه إشارةً منه إلى أنّه يوجَدُ في صَدْري، في فضاءِ قلبي، فَراغٌ ملائمٌ ومحبوبٌ لِصَفاءِ عِشْق مَوْلانا.. ومن أجلِ بَيانِ المطْلَب تحدّثَ شَمْسٌ فقالَ:

ـ كلُّ مَنْ أُحِبّهُ أقدِّمُ له الجَفَاءَ، فإن قَبِلَ ذلكَ كُنتُ له. نعَمْ، أيّها الأَحِبّةُ، إنّ لي قاعدةً هي أنّ كُلَّ مَنْ أُحِبُّه أستَعْمِلُ معَه القَهْرَ منذُ البِداية، وهكذا كلّما أَحْببتُ إنسانًا جَفوتُه.

اعلَموا أَنّني عاشِقٌ مُتَفانٍ، ولا أَتورّعُ عن العِشْق. رَأَيتُ كثيرًا مِن العارِفينَ، وظفِرْتُ بِخِدْمتهم، وعَرَفْتُ الفرقَ بينَ الصّادِقِ والكاذِب، مِن ناحية القَوْلِ ومِن ناحيةِ الحرَكات. وإذا لم يكُنِ العارِفُ محمودًا جِدًّا ومختارًا فإنّ قَلْبي لا يلتفِتُ إليه، وطائرُ القَلْبِ هذا لا يلتقِطُ كُلَّ حَبّةٍ.

وإنّ نُجُومًا كثيرةً كانَتْ تتلألأُ في سَماء حَياتي، وهي جميعًا إمّا أَفِلَتْ وإمّا تَوارَتْ وراءَ سُحُبِ الحياة السُّود. أمّا مَوْلانا فهو مَهْبِطُ وَحْيي وإلهامي. ولعلّ عدَدًا قليلًا من الأفْراد، سَواءٌ أكانَ ذلكَ في الزّمان الذي يَمُرّ في ساحةِ هذه الحياة أم في تلكَ اللّحظاتِ الصّعبة التي ينبغي أن تُوَدَّع استجابةً لِلأَمر الإلهيّ، ضَحِكوا ويضحكون. دُنْيا عظيمةٌ ومُضيئةٌ محصورةٌ في داخله. لَسْتُ أَدْري، أيُّ يَنْبوعِ مَحبّةٍ هذا الرّجُلُ العظيم، يَنْبوعٌ كلُّ مَن شَرِبَ منه جُرْعةً يَرَى في داخِله شَمْسًا ساطِعةً مُحْرِقةً، تظْهَرُ في كانُونها الحقيقةُ المطْلَقةُ.

أتحدّثُ عن عِشْقِ مَوْلانا، وقد أحاطَ هذا العِشْقُ بوجودي كلّه، وأَسْلَمَني إلى تَشتُّتِ الذّهْن والتّحَيّر.

أَيُّهـا العِـشْقُ، زِدِ الإذلالَ لِأَنّنـي في حَيّـه

لِكَـي لا يَـشْتاقَ إليـه كُـلُّ مَـنْ يـراني

إنْ لَمْ أكُنْ مَزيجًا مِن المحبّةِ والعِشْق فلماذا أكونُ مُسْتخَفًّا وثَمِلًا مِن كَلامِ مَوْلانا وإِنْشادِهِ وأَنغامِهِ؟ ولكنّني أَتلذّذُ أكثرَ بالفِراق، إذْ أَبْحَثُ أكثرَ في مَشَقّاته وآلامه، في حُرَقه وأَشْواقِه، عن آمالي وأُمْنيّاتي الحُلْوة، وأَغدو أكثرَ أَمَلًا بالحياة.

وحتّى الآنَ، لم يستطِعْ أحَدٌ في البَسيطة، في قُونِيَةَ وفي دِمَشْقَ وفي خُراسانَ الكُبرى، أن يُدرِكَ مبْلَغَ فَضْلي وعِلْمي؛ ولا أَعْني أن يقلّدَني شَخْصٌ، بَلْ [٧١] أن يستمِعَ إلى كَلِماتي السّماويّة. وهُنا أَحَسَّ سُلْطانُ وَلَد بِأَنّه يستطيعُ التحدُّثَ، ولهذا السّبب أظهَرَ جُرأةً وقالَ:

ـ تتذكّرونَ أنّه في أَحَدِ الأيّام، في مدينة قُونِيَةَ، بالغَ والِدِي المعظَّمُ في مَدْحِكم مبالغةً عظيمةً، وأظهَرَ أكثرَ مِن القَدْرِ المتعارَفِ لمقاماتِكم وكراماتِكم وقُدراتِكم، حتّى اضطُرِرْتُ إلى تَرْكِ مَجْلِس الوالِدِ، ومِن غايةِ التعجُّب جئتُ إليكُم، وبعْدَ أن جلَسْتُ إلى جانبكم سَأَلتُم:

ـ يا بَهاءَ الدّين [المُرادُ هنا سُلْطان وَلَد]، ماذا سمِعْتَ حتّى جئتَ إلى هنا مُسْرِعًا كمَنْ أصابَتْهم الصّاعقةُ؟

ـ قُلتُ: في هذه السّاعةِ بيّنَ والِدِي أوصافَ عظَمَتِكم الرّوحيّةِ والمعْنَويّة، ثمّ شرَحْتُها كما سمِعْتُها. فقلتُم:

ـ واللهِ، إنّني لَسْتُ أكثرَ مِن قَطْرةٍ مِن بَحْرِ عَظَمةِ والِدِكَ، لكِنْ أنا فوْقَ ما قالَ بِأَلْفِ مَرّة.

فتعجّبتُ مِن جديد، ثمّ خرَجْتُ مِن حُجْرتك، وأَسْرعْتُ إلى الوالِدِ وقُلْتُ: إنّ مَوْلانا شَمْسَ الدّين التّبْريزيّ ذكَرَ في شَأْنِ عظَمَته الرّوحيّة أُمورًا أَبعَدَ مِن أن أَقْدِرَ على تَصْديقها.

وفي الحالِ التي اهتمَّ فيها والِدِي بِكَلماتي باشتياقٍ قالَ:

ـ مدحَ نفسَه، وأظهَرَ عظَمتَه، وهو فوقَ ما قالَ عن نفسِه بِمِئة مرّة.

وقبلَ أن يتوقّفَ سُلطانُ وَلَد عن الكلام، تذكّرَ شيئًا من أشعارِ مَوْلانا، فاستَشْعرَ شيئًا من القوّة، وابتغاءَ أن يشوّق شمسًا التَّبْريزيّ تلا:

أَلَا يا نَسِيمَ السَّحَر، ائتِني بِأَخْبارِ شَمْسِ الدّين

أَنا صاحِبٌ لَهُ، ولكِنْ أَنْتَ تعْرِفُ أَخْبارَه

تَتَحلّى حَلَمةُ أُذُنِ ضَميري بِقَلائِدَ مِن دُرٍّ

مِن أَلْفاظِ شَمْسِ الدّين، الشَّبيهةِ بالوَحْي، المحمَّلَةِ بالسُّكّر

وإنَّهُ لا إِصْلاحَ لِخَرابِ الدّينِ والدُّنْيا

إلّا بِلُطْفِ شَمْسِ الدّين، الذي لا نهايةَ لَهُ، وقانُونِه(١)

وبعْدَ أن سَمِعَ شَمْسُ تَبْريزَ أَشْعارَ مَوْلانا، هَمَس: قَلْبي يحدّثُني عن مَوْلايَ.

اضطُرّ سُلْطانُ وَلَد إلى أَنْ يواصِلَ الكلامَ، ويقولَ:

نُريدُ أن نَأْخُذَ الرّجُلَ العظيمَ الذي جَعَل مَوْلانا أَسِيرًا لِمِزْمارِ العِشْق مِن هنا إلى قُونِيةَ. نُريدُ أن نأخُذَ إلى والدي واسِطةَ الفَيْضِ الإلهيّ الذي اصطادَه بِفَضْلِ المَقامِ العالي الذي يمتلِكُه، وببركَةِ تَزْكيته الرّوحَ وإبداعِه العرفانيّ، بفَضْلِ كَمالِ قُدْرتِه الرّوحيّةِ، لا بِفَضْلِ الضّفائرِ السُّود.

هكذا يقولُ والِدي، وإنّ لَدَيه اعتقادًا بِأَنّ أَسْمَى الدّقائقِ واللّحَظاتِ، وأكثَرَها رُوحانيّةً، [٧٢] هو الوَقْتُ الذي قضَاه إلى جانبكم؛ وهو كالسَّمَكةِ التي بها حاجةٌ ماسّةٌ إلى الماءِ مُحتاجٌ إليكم، لِكَيْ يَحْيا ويُمْضيَ لَحَظاتِ العُمُر.

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ١٨٦١.

أنتُمُ الذين سَلَبتُم عِشْقَ الحياة مِن والِدي بِفِراقكم، بماذا ستُجيبونَ رَبَّ الكائنات؟

مسَحَ شَمْسٌ بيَدِه على وَجْه سُلْطان وَلَد برِفْقٍ، وقالَ:

ـ يا وَلَدي، العِشْقُ خَلْقٌ، خَلَاصٌ، تَغْييرٌ وتحوّلٌ. بعضُ النّاسِ يَظنّونَ أنّ الإنسانَ نِتاجُ شَهَواتِ إنسانٍ آخَر. لا، لَيْسَ الأمرُ كذلكَ، الإِنْسانُ هو العِلّةُ الغائيّةُ لِلْخَلْق وتاجُ عالَم الخَلْق. ومعَ أنّ الإنسانَ بِحَسَبِ ترتيبِ الظُّهور هو أَخيرٌ، هو عنْدَ الحقّ سُبْحانَه، وبِحَسَب المقام، أوّلٌ. العِشْقُ هو سَببُ إيجادِ النّاس، العِشْقُ هو قُدرةُ مِهارِ(*) عالَم الأبَديّة. وإنسانٌ مِثْلُ مَوْلانا، قَلْبُه منزِلٌ لِلْعِشْق والأمَل، لابدّ أن يكونَ الله سُبحانَه في قَلْبه، وهو يتغيّرُ على الحقيقة.

أَيْ بُنَيّ، أنتَ لا تَعْلَمُ أنّ امتحانَ العِشْقِ هو الفِراقُ، ولَيْسَ الوِصالَ. ولسْتَ تعْلَمُ أنّ والِدَكَ، منذُ السّاعةِ التي أَدركَ فيها معْنَى العِشْق تحتَ سَماء قُونِيةَ، غيّرَ سَريعًا أُسْلوبَ حَديثه، وعَشِقَ الموجوداتِ والكائنات، وغدَتِ الكائناتُ والمَجَرّاتُ كلُّها عندَه مَحَلًّا لِلْعِشْق والمحبّة. وما أَحْدِسُ به هو أنّ أنوارَ فِكْرِه ستضيءُ عالَمَ العِرْفانِ في المستقْبَل القَريب.

وقد صدَقَ شَمْسٌ، فإنّ مَوْلانا منذُ اللّحظةِ التي شاهَدَه فيها أَلْقَى بنفسِه في بَحْر العِشْق كالغَوّاص. والآخَرونَ الذين عَشِقوا صَمَتوا ولم يَنْبِسوا بِبِنْتِ شَفة؛ أمّا مَوْلانا فإنّه بِسببِ شُعْلةِ الاشتياقِ التي تَحرِقُ وجودَه اضطُرّ في لَحَظاتِ الشّوق والغَفْلة إلى أن يذكُرَ أموَرًا تُشيرُ إلى أنّه كان في داخله طُوفانٌ هائج.

وابتغاءَ إِدْراكِ الوَضْع الرّوحيّ لِشَمْسٍ، تَبدُو مُطالَعةُ الأبياتِ الآتية مُناسِبةً:

* ـ المِهارُ: العُودُ يُجعَلُ في أنفِ الجَمَل، يُجذَبُ به فيُذعِن [المترجم].

مِــنْ هــذه الواقِعــةِ أنــا مُنْــدَهِشٌ، بِعَقْــلٍ ومِــن دُون عَقْــل
نــــاطقٌ صــــامِتٌ، نــــائِحٌ ســــاكِتٌ
ومِن ذلك اللَّونِ أيُّ شَخْصٍ بِلَا لَونٍ أنا! وبِتلكَ الطُّرّة أيُّ مُعَلَّقٍ أنا!
ومِن ذلكَ الشَّمَعِ، أيُّ مضطَرِبٍ أنا كالفَراش، يا ربّ!
أَنــــا دَمٌ وحَليــــبٌ، أَنــــا طِفْــــلٌ وشَــــيخٌ
أَنــــا خــــادِمٌ وأَميــــرٌ، أَنــــا هــــذا وذاك
أَنــا، في الوَقْــتِ نفْــسِه، شَــمْسٌ النّــاثِرُ للــسُّكّر وخِطّــةُ تَبْريــز،
أَنــا الــسّاقي والثَّمِــل، أَنــا المــشْهُورُ والمغْمُــور[1]

ويعترِفُ مَوْلانا قائلًا: في مَدْرَسةِ عِشْقِ شَمْسٍ حَييتُ وضَحِكْتُ مِن جديد، وفي النّهايةِ جاءت دَولةُ العِشْق، فصِرْتُ دَولةً ثابتة. وقد كتَبَ مَوْلانا يقولُ: عندَما وصَلْتُ إلى حَضْرة شَمْسِ الدّين، الذي كانَ رَسُولًا مَلَكوتيًّا، ابتسَمَ ابتسامةً صَفْراءَ كأنّه كان يبتسِمُ لِنُبوغي [٧٣] وعِلْمي وقُدْرتي الفِكْريّة، وقالَ باستبدادٍ: لا تقرَأْ كُتُبَ والِدِكَ بعْدَ الآنَ، وبَقيتُ مُدّةً لا أَقرؤُها مستجيبًا لإشارته، ثمّ قالَ بعْدَ ذلكَ: لا تتحدّثْ معَ أَحَد؛ فبقيتُ مُدّةً صامتًا لا أتكلّم.

في أَحَد الأيّام، قالَ أحَدُهم لمَوْلانا أمامَ شَمْسٍ التَّبْريزيّ: أُحِبُّك، وأُحِبُّ الآخَرينَ مِن أَجْلكَ. فقالَ مَوْلانا: إذا كان مُرادُك حَضْرةَ شَمْسٍ التَّبْريزيّ فقد أخطَأْتَ؛ فإن كُنتَ تحبُّني مِن أَجْله فهذا أَحْسَنُ، ويَزيدُني سُرورًا.

وشَمْسٌ، هذا الذي عُبّر عنه في الغَزَليّات المُشوِّقة في **الدّيوان الكبير** بِاسْمِ: الدّولةِ

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ١٤٦٧.

الخالدة، ورُوحي، وسَرْوِي، ونُطْقي، وطاعَتي، وسُجُودي وزُهَرةِ سَمائي، كان في الرّياضات والمُجاهَدات ماهِرًا وأُسْتاذًا ومجَرَّبًا؛ فدفَعَ هذا الأَفْلاكيَّ في كِتابه «**مناقِب العارفين**» إلى أَنْ يكتُبَ في سِيرته وشَرْح حاله:

... أقامَ مَوْلانا شَمْسُ الدّين في مدينة حَلَبَ أربعةَ عشَرَ شَهْرًا في حُجْرةٍ في إحدى المَدارس، وانشغَلَ إلى الغايةِ بالرّياضاتِ والمُجاهَدات حتّى إنّه لم يخرُجْ مِن الحُجْرة ليوم واحِدٍ، حتّى جاء هاتفٌ مِن جِدار الحُجْرة يقولُ: وفي النّهاية، إنّ لِنَفْسِكَ علَيكَ حَقًّا. ونفسُه، كما صُوِّرَ، لا تتحمَّلُ المُجاهَدةَ أكثَرَ مِن هذا. فاضطُرّ إلى أن يترُكَ الانزواءَ والاعتكافَ متبَسِّمًا، ويمضيَ إلى دِمَشْق.

هذه هي الحياةُ العالِيةُ السّماويّةُ لِعارِفِ إيرانَ الكبيرِ شَمْس تَبْريز، الذي يُرْعِدُ اسْمُه قلْبَ مَوْلانا. ولِأَنّ صوتَه يصِلُ مِن دِمَشْقَ إلى أُذُنِ محبوبه ومعشوقه مَوْلانا، كانَتِ الأَصْواتُ والطّوفانات كلُّها، وقُلِ الرّعودُ أيضًا مَصْحوبةً بِأَمواج البحار، تَصْمُتُ وتخمُدُ. ووَفْقًا لِمَا يقولُ مؤلّفُ كتاب «خَطّ سِوّم» [بالفارسيّة بمَعْنَى «الخطّ الثّالث»] الدّكتُر صاحِبُ الزّمانيّ: «كَلامُ شَمْسٍ في عَينِ الوضُوحِ مُبْهَمٌ، وفي عَينِ الجَذْبِ والخِلابة شَبيهٌ بالسَّوط، مُكثَّفٌ ومقتضَبٌ. وشَمْسٌ محطِّمٌ لِلْأَصْنام، ويبدُو راضيًا عن نَفْسِه ومعجَبًا بنَفْسِه. وقد بلَغَ مِن معرفته لنفسه[1]، أنّه حتّى مِدَحُ مَوْلانا المُبالِغةُ له لا يَعُدّها كافيةً. ومَرّةً واحدةً فقط، في حَياةِ شَمْسٍ كلّها، عَرَفَه معرفةً كامِلةً إنسانٌ واحِدٌ،

١ـ منذُ اليومِ الأوّلِ الذي يوجَدُ فيه سُكْرُ السُّكارى ... يكونُ للشّيخ كأسُ الرّوح في الأكفّ
نرقصُ أمامَه كالذّرّات كلّ سَحَرٍ ... وهذه هي عادةُ عُبّاد الشَّمْس
يا صلاحَ القَلْبِ والدّين، أنتَ خارجَ الجِهات ... لِكَيْ تتلَأْلَأَ مِن نُورِكَ الجِهاتُ السّتُّ
يا شَمْسَ تَبْريز، أنتَ سُلْطانُ أَهْلِ الحُسْنِ جميعًا ... ولَعَلّ جَمالَكَ أيضًا جَمالُ يُوسُفَ كَنْعان
(ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ٧٩٨)

واحِدٌ صادِقٌ وسَنِيٌّ [٧٤] هو مَوْلانا الرّوميُّ. وحَتّى هذه المَرّةُ الواحِدةُ أيضًا، لم يكُنِ الناسُ قادرينَ على أن يُبقوها مِن أَجْله. وإنّ صُحْبةَ سَبْعةٍ وعِشْرينَ شَهْرًا فقط معَ هذا الرّجُلِ، خلّفَتْ لِشَمْسٍ دائمًا التشرّدَ وخَطَرَ المَوْت والقلقَ والغضب».

ويمكِنُ أن يتبادَرَ إلى ذِهْنِ القارئ هذا السّؤالُ: ما الأَشْياءُ البارزةُ في شَمْسٍ وكَلامِه؟ فنقولُ: إنّه كانَ في كَلامِه الصّداقةُ والتأثّراتُ والانفعالاتُ العِرْفانيّةُ التي كانَ أكثرُ مفهوماتها قابلًا للإدراك، وكانَ أحيانًا يُسْرِفُ في حَميّةِ الدّرويش فيقولُ: إنّ وُجودِيَ هو كيمياءُ لا تحتاج إلى أن تُصَبّ على النّحاس، فإنّه أَمامي وعِنْدِي كلُّ شيءٍ يتحوّلُ إلى ذهَب، وهكذا يكونُ كمالُ الكيمياء.

كان الحُسّادُ يَرونَ في كَلامِ شَمْسٍ ضَرْبًا مِن السِّحْر والشّعوذة والمُحال؛ أمّا مَوْلانا فلَدَيه تعبيرٌ آخَرُ في شَأن أوّلِ لِقاءٍ له به.

ـ يا ربّ، لا تجعَلْ هذا الوَصْلَ هِجْرانا،
لا تجعَلِ المبتهجينَ بالعِشْقِ حَزانَى
ـ اجعَلْ بُسْتانَ الرُّوحِ بهيجًا ونَضِرًا
لا تقصِدْ هذا البُسْتانَ، وهؤلاءِ المبتهجينَ، بَسُوء
(ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ٢٠٢١)

ضَجيجٌ في الخانِقاه

[٧٥] قالَ مَوْلانا لِأَصْحابِه في الخانِقاه: إنّ كثيرًا مِن الأَحِبّةِ والأَصْدقاءِ يجِدّون في البَحْث عن أسبابٍ عقليّة لِتحوُّلي الرّوحيّ بعْدَ لِقاء شَمْس تَبْريز. وعلَيهم أن يَعْلَموا أنّ الفِكَرَ المنطقيّةَ والعقليّةَ لا تُجيبُ عن كيفيّة تغيُّرِ حالي، بَلْ إنّ أَصْحابَ القلوبِ يدركونَ جيّدًا هذا التّجديدَ الذي أصابَ حَياتي مِن جديد. فقد ترَكَ كَلامُ شَمْسٍ مباشرةً تأثيرًا يَعِزّ وصْفُه في رُوحي وقَلْبي. في تلكَ اللّحَظاتِ الأُولى والعظيمة لِلّقاء، ظهرَتْ حالةٌ مكتنَفَةٌ بالأَسْرار، حالةٌ ذهبَتْ إلى أَنْ صاحَ المِحْرابُ[١]، كأنّ عالَمَ الخَلْقِ والكائناتِ وَسْطَ حَدَثها العجيب قد لَخّصَ كَلامَ شَمْسٍ النافِذَ السّاحِر؛ كانت دقائقَ وآناتٍ مقدَّسةً. الرّجُلُ العظيمُ المتشرِّدُ التَّبْريزيّ، بِحَرارةِ حُضورِه وجاذبيّةِ نفْسِه، حطّمَ قُدْرتي الفكريّةَ، وحِرْتُ في عظَمته. وكان تَشْريحُ ما قالَه شَمْسٌ في اللّقاءِ الأَوّل حاسِمًا، حتّى إنّ ضِياءَ عِرْفانه أضاءَ قَلْبي. في عالَمِ الوجودِ استقرَرْتُ في بَحْرٍ مِن الإحساس. كانَتْ حَميّتُه الدّرْويشيّةُ، واستغناءُ طَبْعِه، ونفوذُ كَلامِه، قادرةً على أن تُحوِّلَني في أَمدٍ قصيرٍ، مِن فَقيهٍ معروفٍ قديرٍ إلى شَخْصٍ مضطَرِبٍ ثائر.

---

١ ـ تُسمّى هذه الحالُ في السَّير والسُّلوك «التلْوينَ»؛ أي التحوّلَ مِن حالٍ إلى حال، مثْلَما لُوّنَ حَضْرةُ موسى (علَيه السّلامُ) بِنَظْرةٍ إلهيّة واحِدة، إذْ أُخِذَ منه العَقْلُ بِفعْلِ التجلّي الإلهيّ في طُور سَيناء. يقولُ مؤلّفُ كتاب اللَّمَع: «التلْوينُ عَلامةُ الحقيقة»، ويقولُ القُشَيريُّ: «التلْوينُ صِفةُ أَرْبابِ الأَحوال». فرهنگ لغات واصطلاحات عرفاني، ص ١٣٦.

[٧٦] سُمِعتْ هَمْهمةٌ في الخانِقاه، نهضَ أحَدُ الأَدْعِياء فقالَ: على جَلالِ الدّين أَنْ يشْرَحَ لنا هذه الحالةَ على نَحْوٍ صَحيح، ومِن دُون إبهام؛ فأُجيبَ بِأَنّها كانَتْ حالةً معيّنةً وزَمانًا خاصًّا؛ وأقولُ بِمَزيدٍ مِن الدّقّة: إنّه مِن الصّعْبِ شَرْحُ تلك الحالِ وذلكَ الزّمانِ لكم شَرْحًا دقيقًا. وأقولُ مُختصِرًا: إنّ هذا الشّيخَ الخفِيّ بعَثَ في قَلْبي فُتورًا إزاءَ التّدريسِ والوَعْظ والعِلْم.

نهضَ شَخْصٌ آخَرُ وصاحَ:

ـ يا مَوْلانا، هَلْ مِثْلُ هذا التّعظيمِ والتّكْريمِ لِشَمْسٍ له نهايةٌ. اللهُ سُبحانَه مُنْتَهى عظَمةِ الوجودِ والكائناتِ والخَلْق، وشَمْسٌ ذَرّةٌ مِن ذرّاتِ العالَم من دون نهاية؟ أَمِنْ ذَرّةٍ حَقيرةٍ يكونُ إِعْراضٌ عن منبَعِ النّورِ الواقعيّ وعن مَجالِسِ الدّرْسِ والوَعْظ؛ هذه بَلاهةٌ وعَمَى قَلْب.

نهضَ ثالثٌ، وقالَ وأَعْلَنَ:

ـ هَلِ اندمجَ عالَمُ النّورِ والتّقْوى بِشَمْسٍ فقط؟ ـ أو أنّ مُرتاضًا، أو ساحِرًا، أو مُشَعْوِذًا، استطاعَ بِسِحرْ كلامِه وأعماله أن يجعلَ مَوْلانا تحْتَ تأثيرِه الشّيطانيّ؟ إلى أينَ تذهبون؟ ـ قُولوا بوضوحٍ تامٍّ ومِن دُون تكلّف، أَجُذِبتُم أم سُحِرتُم؟

علا ضَجيجٌ في الخانِقاه، كان يصِلُ إلى الأَسْماعِ أصواتٌ واعتراضاتٌ وسِبابٌ، وكان يقالُ: إنّ شَمْسًا متشرِّدٌ وساحِرٌ، ويقولُ كلامًا متناقضًا، شَمْسٌ لا يستطيعُ أن يقاوِمَ أُصولَ الدّين. ههنا قُونِيةُ، ههنا مركزُ الرّجالِ الأتقياء...

بُهِتَ مَوْلانا، وكان ينظُرُ إلى هذا المَشْهَدِ بقليلٍ مِن التفكير، وكان يرتَعِدُ.

صاح أحدُهم، وقال:

ـ يا مَوْلانا، قُلْ لماذا جاءَ شَمْسٌ إلى هنا أساسًا؟ مِمّنْ أتى بِرِسالة؟ ـ لماذا قابلَكَ بسِرّيّة وخَفاء؟ ـ ماذا كان مضمونُ رسالته؟

لم يَعُدْ مَوْلانا يَرَى السّكوتَ جائزًا، تقبّضَ وَجْهُه قليلًا، كان صَوتُه يرتجِفُ مِن الانزعاج، وقالَ:

ـ لم يكُنْ قَصْدُ شَمْسٍ مِن المجيء إلى قُونِيةَ سِوى لِقائي، وقد ذاكرَني في شأن نَفْيِ الكَثْرة، والاستغراقِ في الوَحْدة، واتّحادِ العاقل والمعقول، والاتّصالِ بالحقّ سُبْحانَه مِن دونِ وسيطٍ، وهو يدّعي أنّه يجِبُ أن تَنْحَنوا تَعْظيمًا لِلْحقيقة، وأن تُبعِدوا اللّامعقولَ، [٧٧] وأن تُحرِّروا سُلْطانَ الكائناتِ مِن القُيود. أَفي مَقدورِكم أَنْ تَفْهموا شيئًا مِن هذه الأمور؟

ـ لا لا ، يجبُ أن تتحدّثَ على نَحْوٍ واضِحٍ ومتدفّق وسَلِس، لا تتحدّثْ بإبهام.

واصلَ مَوْلانا الكَلامَ... تقولونَ: لماذا وكَيفَ وقعْتَ تحتَ تأثيرِ شَمْس، تسألون عنِ انقلابي الرُّوحيّ أثناءَ لِقاء شَمْس؟ أَشرَحُ لكم الأَمْر. تريدونَ أن أَشْرحَ لَكُم مسألةَ اللّحَظاتِ الحسّاسة لِلّقاء، ولماذا نَسِيتُ ذاتيّتي وتخلَّيتُ عن كُلّيةِ وجودي العِلْميّ؟ وكيفَ جلَسْتُ كالطِّفْلِ التّلميذِ في مَحْضَرِه، ولماذا صِرْتُ متعلّقًا بحَلَقاتِ الرَّقْص والسَّماع؟ ـ لماذا رأيتُه مِعْيارًا لِكُلّ شيء؟

أعترِفُ بأنّني عندَما رأيتُ شَمْسًا صار بَحْرُ روحي الهادئ كالطّوفان، نَعَمْ، صِرْتُ منجذبًا إليه. كنّا في تلكَ اللّحَظاتِ الأُولى مِن اللّقاء، مِن دُون قَصْدٍ منّا، نَسيرُ نَحْوَ اتحادٍ ملَكوتيّ ومقدَّس. مِن الناحيةِ الرّوحيّة، امتزَجْنا، دخَلْنا في وادي مَصيرٍ واحِد. كان هو يَرَى انعكاسَ فِكَره، ويسْمَعُ أَصْداءَ قَلْبه في قَلْبي؛ خرَجْنا مِن نطاقِ إنسانٍ واحِد. خرَجْنا

مِن الظلّمات، واقترَبْنا مِن وجودٍ مجرّدٍ مِنَ الظّلمات. طِرْنا إلى أَوْجِ الحقائق. هَلْ بينكم إنسانٌ يبيِّنُ كَيفَ يكونُ الذّهابُ مِن المحدودِ إلى اللّامحدود؟ الحقُّ أنّني أحسَسْتُ في نَفْسي مَعْنَى شَمْسٍ، وروحَه، وحقيقتَه، على نَحْوٍ مفاجِئ، نَعَمْ، أحسَسْتُ كأنّ قَلْبي كان حامِلًا بِشَمْس[1].

سكتَ الموجودونَ في الخانِقاه، ولم يتكلّموا بِشَيءٍ؛ وواصلَ مَوْلانا القولَ:

كُنّا نَسْبحُ في بَحْرِ الجَذْبِ والشّوق والوَجْد. عندَئذٍ رفعَني شَمْسٌ إلى الأَوج، سار بي إلى ناحيةِ الكَمالِ المطْلَقِ، نَحْوَ مِعْراجِ العِشْق. لَيْسَ في وُسْعي أن أُوضِحَ هذا التحوّلَ الفُجائيَّ أكثرَ مِن هذا، سَأُبيّنُ فقط أَحْداثًا في حَياةِ أشخاصٍ [٧٨] واجَهوا في لَحَظاتٍ حسّاسةٍ من حَياتهم تحوّلًا رُوحيًّا. لابدّ أنّكم جميعًا تَعْرِفونَ أبا المَجْد، مَجْدُودَ بنَ آدمَ سَنائي، شاعِرَ إيران الكبير. سَمِعْتُ أنّه عندَما أراد السّلطانُ إبراهيمُ الغَزْنويّ أن يَغْزُوَ الهندَ مدَحَه سَنائي، وصمّمَ على أن يذهبَ صَباحًا قبْلَ طُلوعِ الشّمسِ إلى حَضْرة السّلطان، وينشِدَه مِدْحتَه. وإِذْ ذاكَ قالَ في نفسِه إنّه مِنَ الأَفْضلِ له أن يذهبَ قبْلَ ذلكَ إلى الحَمّام، ويرتديَ أكثرَ ثيابه جِدّةً،... وهكذا فعَلَ. وعندَما مَرّ بمَوْقِدِ الحَمّام سَمِعَ صَوْتًا، انطلَقَ إلى الصّوت، ونظَرَ مِن البابِ الصّغير إلى الموقِد، فرأى رَجُلًا حَمّاميًّا اسْمُه «مَجْذوب»، معروفًا عنْدَ الناس بِلَقَب «ديوانه لايخور» [بالفارسيّة بمَعْنَى «المَجنون شارب الكَأْس حتّى النّهاية»]، جالِسًا وقَدْ وضَعَ أَمامَه الإبريقَ الذي كان فيه شيءٌ مِن الدُّرْدِ وثُفالَةِ الشّراب،

١ـ أَيْ شمسَ الحقِ التّبْريزيّ، إنَّ قَلْبي حامِلٌ بكَ، فمتَى أَرَى وَلَدًا وُلِدَ على إِقْبالكَ؟

أو:

خاتونُ خاطِري التي تَلِدُ في كلِّ لَحْظةٍ حامِلٌ، لكِنْ مِنْ نُورِ جَلالِكَ
أَمامَ شَمْسِ عَظَمةِ تَبْريزَ، أيُّها الفَلَك كُنْ في سُجودٍ، فقدْ صارهذا كَمالَكَ
(ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ٢٢٣٥)

وكيسَ فَحْم. وفي هذه الأثناء، كان **لايخور** يقولُ لِمُوقِدِ نارِ فُرْن الحمّام الذي كان ساقِيَه: هاتِ كَأسًا بِسَلامة السُّلْطانِ الغَزْنَويّ الذي حتّى الآنَ لم يُدبِّرْ أَمْرَ الإسلامِ والمسْلِمينَ، ولم ينظِّمْ أُمورَهم، ويريدُ أن يذهَبَ إلى الهند لِيُصْلِحَ حالَ كُفّار تلكَ البلاد. وبَعْدَ ذلكَ طلَبَ كَأسًا أُخرى، وقالَ: ناوِلْني بِعَمَى عَيْنَي سَنائِيَكْ (الكاف لِتَصْغير سَنائي تَحْقيرًا) شاعِرِ المديحِ الذي لا يعْلَمُ، وحتّى الآنَ لم يتبيّنْ، لماذا خَلَقَه اللهُ، وهو دائمًا يُذْهِبُ وقتَه في نَظْمِ أَشْعارٍ لا ينطوي مُحتَواها على حقيقة. إنْ سألتُمُوه الآنَ في هذه الدّنيا: ماذا ادّخَرْتَ ليَومِ القيامة ممّا يَليقُ بِجَنابِ الحقّ تعالى؟ ـ فماذا سَيقولُ، حَتْمًا سيَعْرِضُ قصائدَه.

هذا المَشْهَدُ، وهذا الكَلامُ، أثّرا في سَنائي، فما كانَ مِنه إلّا أن عاد إلى بيته، وصَحَا مِن خُمارِ الغَفْلة، واتّجهَ نَحْوَ العِرْفان والعِشْق، حَتّى بلَغَ مَرْتَبةً صارَتْ فيها أَشْعارُه العِرْفانيّةُ كشَرابِ الحقيقة، مُحْيِيةً مُفْرِحةً ومُلَطِّفةً وساحِرةً.

أيّها الأَحِبّةُ، كانَتْ قُدْرةُ العِشْق السِّحْريّةُ قادرةً على إبعادِ سَنائي وإيّايَ عن الجاهِ والسُّلْطانِ والتعلُّقات الظّاهريّة. ولَعَلّ بعضَهم يقولُ: إنّ هذه هي قُدْرةُ الجُنونِ التي تجعَلُ النّاسَ مَجانينَ، وأوافقُهم على ذلكَ:

عِنْدَما رأى أبو يزيدَ(*) الطّريقَ، بِطَلَبه «المَزيدَ» مِنْ شَرابِ العِرْفان
سَمّاهُ الحَقُّ تَعالى: قُطْبَ العارِفين

وتَحوّلَ الفُضَيلُ(**) مِن قَطْعِ الطّريقِ إلى شَيْخِ طَريقٍ
عِنْدَما صار مَلْحُوظَ الملِكِ في لَحْظةِ لُطْف[1]

---

* ـ يريدُ أبا يزيدَ البِسْطاميّ، الصّوفيّ المعروف [المترجم].

** ـ يريدُ الفَضَيلَ بنَ عِياض.

١ ـ المثنَوي، ٢/٩٣٠، ؟)

أَمّا أيّةُ قوّةٍ وجاذبيّةٍ تُحوِّلُ الأَشْخاصَ في لَحْظةٍ واحِدةٍ وتغيِّرُهم وتضعُهم أَمامَ بؤرةِ النّور، فسُؤالٌ جَوابُه [٧٩] غيرُ قابِلٍ لِأَنْ يُقالَ، غيرُ قابِلٍ لِلْوَصْف، يَتلفّعُ بغطاءٍ سِرِّيٍّ كتيم؛ لكنّه يمكِنُ بيانُ أنّه مِن بارِقة ذلكَ النُّورِ يُرْشَد الإنسانُ إلى عالَم المعرفة. وإنّه مِن ضِياءِ هذا النُّورِ وقُدْرته كان إبراهيمُ الخَليلُ (عليه الصّلاةُ والسّلام) يضَعُ قَدَمَه في قَلْبِ نارِ النَّمرود، ويُذيبُ حَضْرةُ داوود الحديدَ الملتهِبَ بيده كالشَمَع.

أيّها النّاسُ، اعلَموا أنّني أنا وشَمْسًا كُنّا قبْلَ اللّقاء مِثْلَ دائرةٍ لها مَرْكزانِ، أمّا بعْدَ اللّقاءِ فصِرْنا دائرةً لَيْسَ لها أكثَرُ مِن مركَز. جَعَلَني وَقارُه ومَهابتُه والانجِذابُ إليه، لِأَنّني كُنتُ عاجِزًا مِن ناحية السَّيْر والسُّلوك، مَحَلًّا للتأثّر والتغيّر. القَضاءُ والقدَرُ لَدَيه الكثيرُ مِن هذه الأمور؛ أَمّا أنا فقَدْ بقيتُ مُدّةً أَنتظِرُ في عالَم النّاسُوتِ أن أَرَى مِن ظَواهِر الملَكوت إنسانًا يكونُ مِثالًا للخضر(*) أيضًا في السَّيْرِ والسُّلوك، السَّير والسُّلوك الرّوحيّ، مِثالًا لِمُكاشَفاتٍ تظْهَرُ لِلإنسانِ العارِف جاذِبةً لِلْقَلْب مُكْتنَفةً بالأَسْرار، وفي النّهاية تُسْلِمُ عِنانَ الاختيارِ إلى يَدِ القَلْب.

عظَمةُ العِشْقِ الذي يوجِدُ العِرْفانَ أنّه ينتزِعُ التّعيُّناتِ والتّعلُّقاتِ الظّاهريّة مِن قَلْبِ الإنسان، فيتخلّى عن مَنْصِبِ التّدريس والمِحْراب، مُتحوِّلًا إلى إنسانٍ آخَر. ولكِنْ يُسأَلُ: ما العِشْقُ(١)؟ العِشْقُ أَساسُ الوجود، وظاهرةٌ لَيْسَتْ جديدةً. وإنّ رَوْنَقَ العِشْق،

---

* ـ فيه لُغتانِ: الخَضِر، والخِضْر.

١ـ ما أجملَ العِشْقَ، ما أجملَ العشقَ الذي عندَنا، يا ألله
ما ألطفَهُ، وما أحسَنَه، وما أجملَه، يا ألله
ما أَشدَّ حَرارتَنا، ما أَشدَّ حَرارتَنا مِن هذا العِشق الحارّ كالشّمْس
ما أَخْفاهُ، وما أَخْفاهُ، وما أَظْهرَه، يا ألله
ما أَجْملَ الوَلَهَ، ما أَجْملَ الوَلَهَ الذي أثارَ العالَمَ
ما أَجْملَ العَمَلَ، ما أَجْملَ الفِعْلَ الموجودَ، يا ألله
اندفعَ، اندفعَ مَليكُ الفُرْسانِ،
فما أجملَ الغُبارَ، ما أجملَ الغُبارَ الذي ثار، يا ألله
قد وقَعْنا، قَدْ وقَعْنا وقعةً لا نستطيعُ النهوضَ مِنها
لا نعلَمُ، لا نعلَمُ ما هذا الضّجيجُ، يا ألله
لا شَرَكَ، لا سِلْسِلةَ، فلِمَ نحنُ جميعًا مُقيَّدون؟
أيُّ قَيْدٍ، أَيّةُ سِلْسلةٍ على الرِّجْل، يا ألله!! =

وأعاجيبَ العِشْق، عظيمةٌ وخطيرة؛ وأمامَ هذه الظاهرة لا أمتلِكُ بَيانًا لائقًا.

كان شَمْسُ التَّبْريزيُّ، مادِحُ العِشْق غيرُ المنازَع، يقولُ إنّ العِشْقَ نتيجةٌ لِجَذْبةٍ يُثارُ بها القَلْبُ ويُهَزّ.

العِشْقُ هو العَنْقاءُ التي لا اسْمَ لها. ويقولُ العارفونَ: العِشْقُ وجودٌ، كشْفٌ وشُهودٌ، زَمْزَمةٌ وغِناءٌ للرّوح.

[٨٠] وقد كتبَ صاحِبُ كتاب «التّعرُّف»(*) يقولُ: «العِشْقُ في ذاته بَلاءٌ، وفي كلّ ساعةٍ يزدادُ بَلاؤه. وفي الآخِرِ يقتلُ صاحبَه، وقتيلُ المَحبّةِ أجَلُّ الشُّهداء». أمّا أنا فأقولُ: «القَلْبُ يغدو بقُوّةِ العِشْق شابًّا وشُجاعًا، ولا يوجَدُ في قَلْبِ العاشق إلّا الطّهارةُ والتّقوى والنّقاءُ:

لِأنَّ المعشوقَ هو الكُلُّ، وأَمّا العاشِقُ فحِجابٌ
والمعشوقَ هو الحَيُّ، وأَمّا العاشِقُ فمَيْتٌ
وإنَّ أَلَمَ عِشْقِكَ هو الحِبالةُ لِصَيْدِ لُطْفِنا
وتحْتَ كُلِّ «يا ربُّ» مِنْكَ، الكثيرُ من قَولنا لَكَ: لَبَّيْك
وقُدْرتُنا هي حِبالَةُ عِشْقِه
وهي تَسْحَبُه مِنْ ناصيته إلى ديارِ الحَبيب(١)

العِشْقُ يُضفي على الرُّشْدِ والكمال الرُّوحيّ لَطافةً وطَراوةً. ويجعَلُ الفِكْرَ أكثَرَ ظَرْفًا وإشراقًا.

= أَيّةُ صُورةٍ، أَيّةُ صُورةٍ في مِرآةِ القلوبِ هذه؟ غَريبةٌ، غَريبةٌ، جِيءَ بها مِن السَّماءِ، يا أَلله
اصْمُتوا، اصْمُتوا؛ لِكَيْ لا يظهرَ عليكُم أَحَدٌ فقد احتلَّ «الأغيارُ» اليَسارَ واليمينَ، يا أَلله
(ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ٩٥)

* ـ هو محمّدُ بنُ إبراهيم بن يعقوب الكَلاباذيّ البخاريّ. كان من حُفّاظ الحديث، وله كتابٌ مشهورٌ في التصّوف هو: «التّعرُّف لِمَذهب أهل التصوّف» (ت ٣٨٠ هـ)

١ ـ المثنَوي، ١/٣٠، ؟

كان إمامي ومُرْشِدي يعتقدُ أنّه يوجَدُ في مدينة القَلْبِ مجنونٌ اسْمُه العِشْقُ يبدو دائمَ الاستبداد، ويحدثُ بسببه خلَلٌ كبيرٌ في مدينة القَلْب. نَعَمْ، العِشْقُ يجعَلُ الكائنَ الصّغيرَ في غاية العَظَمةِ والضّخامة، وقد أَوصَلَ العشْقُ شَمْسًا إلى هذا المَقام. ردَّ شمسٌ تحيّةَ الملائكة برسالة أبديّة من المُطْلَقِ. وقد امتلأْتُ هيَجانًا وتأثُّرًا عندَما سَمِعْتُ كلامَه، كأنّني وُضِعتُ داخِلَ هالةٍ نُورانيّة. صِرْتُ مُطَّلِعًا على رُوحٍ عظيمٍ منزَّهٍ طاهِر. كان كلامُه يَهُزّ قلبي، وكأنّه أبصَرَ تغيُّري فهَمَسَ: مَنْشورُ العِشْقِ وميثاقُه لَيسَ أحكامًا جَزْميّة، بَلْ يُضفي على الرُّؤى والعواطِفِ هَيَجانًا وتأثّرًا، ويُجلِّي عَظَمةَ الإنسان. والنّاسُ جميعًا سالكونَ لِطَريقِ العِشْق، والسّالِكُ المؤمِنُ المعتقِدُ، وديعةُ هذه الحياةِ القصيرة الأمَد، لا يملِكُ إلّا العِشْقَ، ولا يعرفُ إلّا العِشْقَ. العِشْقُ يعطي للعاشقِ الحقيقيّ إجازةَ صُعودٍ لِكي يصِلَ إلى الكمالِ الحقيقيّ. العِشْقُ يقوِّي في السّالكينَ المَيْلَ إلى عِبادة الواحد[1].

١ـ جعَلَ اللهُ الأفلاكَ التّسعةَ عَبيدًا لِلْعاشقين | وجعَلَ دَوْلةَ هؤلاءِ العاشقينَ ثابتةً خالدةً
جعَلَ بُستانَ العاشقينَ أخضرَ نَضِرًا | وجعَلَ شَمْسَ العاشقينَ مُضيئةً لألاءةً
وإلى يومِ القيامة، جعَلَ ساقيَ العِشْقِ الباقيَ | آتِيًا إلَينا، حامِلًا كُؤوسَ الشّرابِ على كَفّه
جَعَلَ اللهُ بُلْبُلَ القَلْب ثَمِلًا إلى الأَبَد | وجعَلَ ببّغاءَ الرّوحِ ماضِغًا للسُّكّر أيضًا
وجعَلَ ثَدْيَ الرّوحِ مملوءًا بالدّرّ | وجعَلَ أُمَّ السّعادةِ وَلّادةً للطَّرَب
إغراءاتُ العاشِقِ من أَجْلِ الحبيب | فلا تَقْضِ علَيها، واجْعَلْها متزايدةً في كلّ لَحْظة
وإذا لَمْ يَطِرْ طائرُ رُوحي نَحْوَ العِشْق | فاجْعَلْ خَوافِيَهُ وقَوادِمَه منتوفةَ الرّيش
يَراني العِشْقُ باكيًا فيَضْحَكُ | فاجْعَلْ، يا ربّ، العالَمَ مملوءًا بالضَّحِك مِن ضِحْكته
وقَدْ صار الحَجَرُ ماءً خَجَلًا من شَفته الشّبيهةِ بالياقوت | فاجْعَلْ، يا ربّ، أنواعَ الخَجَلِ خَجِلةً منه

(ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ٨٢٨)

ـ سكَبَ عِشْقُك الخَمْرةَ مِن أَيْدي السُّقاة
وسكَبَ من العينِ كثيرًا من دَمِ القَلْب الصّافي
ـ وما أكثرَ الزُّهّادَ مُرتدي الخِرقةِ الملازمينَ لسَجّادةِ الصّلاة
الذينَ بِسببِ عِشْقِكَ سَكَبوا الخَمْرةَ فوق السّجّادة
فخر الدّين العراقيّ

نَحنُ عَدَمٌ

[٨٢] مَوْلانا الذي كانَتْ قوّتُه الذّهنيّةُ المتأثّرةُ بذكرى أيّامِ خَلَواته معَ شَمْسٍ قد أخذَتْ في العِناد والطّغيان، قالَ مخاطِبًا السّامعينَ:

تَسْألونَ أيضًا عن تلكَ اللّحَظاتِ المُسْكِرةِ المشوّقة؟ بعضُ الأَسْرارِ لا يمكِنُ كشْفُه لِلْجَميع، أي لِمَنْ لَيْسُوا أَهْلًا لذلك. تُريدونَ أن تعرِفوا ما هو في سُوَيداءِ قَلْبي. لكنّني أعلَمُ أنّ إفشاءَ الأَسْرار، لِلْأشخاصِ الذين لَيْسَ لِفَهْمِهم وإدراكهم الاستعدادُ لِقَبولِ أَسْرارِ عالَم الخَلْق، عَبَثٌ لا طائلَ مِن ورائه. قال عَليٌّ (كرّمَ الله وجهَهُ): «واللهِ، لَابنُ أبي طالِبٍ آنَسُ بالمَوْتِ مِن الطّفْلِ بِثَدْيِ أُمّه، بَلِ اندمَجْتُ عَلَى مَكْنونِ عِلْمٍ لو بُحْتُ به لاضْطرَبتُم اضطِرابَ الأَرْشِية في الطَّوِيّ البعيدة»[1]، فلا تُنكِروا الأَسْرارَ.

إنّ شَمْسًا التَّبْريزيَّ، بِفِكَرِه المضيئةِ العميقةِ الخارقة للأسباب، يُفشي لي الأَسْرارَ التي أحاطَتْ بي وبِكم كالهالة التي تُحيطُ بالقَمَر، وقد بيّنَها على خير وَجْهٍ. ولَيسَ في مقدوري أن أبيّنَ، بالكلماتِ، العظَمةَ واللُّطفَ اللذَين يتحلّى بهما فِكْرُ شَمْس، الذي هو ثقافةٌ إنسانيّةٌ وعِرْفانيّةٌ عاليةٌ. ولِبيانِ ذلكَ، لابدّ مِن إيجاد أَبْجَديّةٍ وكلماتٍ، أو ثقافةٍ، جديدة. وما يعتلجُ في صَدْري لا أستطيعُ، ولا يجوزُ، أن أصرّح به.

---

١ ـ الأَرْشيةُ: جَمْعُ رِشاء، وهو الحَبْلُ الذي تُعلَّقُ به الدّلاء. والطَّوِيُّ: البئر. والنصُّ في: نَهْج البلاغة ص ٢٠ ـ ٢١.

أَحِبّائي الأَعزّاء، لا تتّهموني بِأنّني عابِدٌ للشَّمْس، ولا تُكفّروني. ليتَني كنتُ أستطيعُ [٨٣] أن أُلقيَ في قُلوبكم البارقةَ والإشْراقَ اللذَين أنارَا ذِهْني، واستلزَمَ ذلكَ إنارةَ ظُلماتِ جَسدي ورُوحي. فعندَئذٍ تُشاهدونَ وتُدرِكون قُدرةَ العِشْق السِّحريّةَ جيّدًا. يساعدُ العِشْقُ أَصْحابَ القلوب على فَهْم أَسْرار الكائنات.

قال لي شَمْسٌ في الخَلْوة: اسمَعْ، انظُرْ إلى عظَمةِ الرّوح، شاهِدْ حرَكةَ الإنسان، واستمعْ إلى الرّسالة العِرْفانيّة للعِشْق.

وقالَ شَمْسٌ: لو أنّ شَوْكةً أصابَتْ إصبعَ إنسانٍ مِن تُرْكستانَ إلى الشّام لَكانَ أَلَمُه ووَجَعُه أَلَمي ووَجَعي. ولو أنّ قَدَمَ إنسانٍ، مِن بلاد التُّرْكِ إلى الشّام، اصطدمَتْ بحَجَرٍ لَتَمنّيتُ أن يكونَ الأذَى الذي أَلَمّ به قد أَلَمّ بي. ولو حَزِنَ قَلْبٌ لَكانَ هذا القلبُ لي. تحدّثَ مُفكِّرُنا الكبيرُ، المدقِّقُ في أَسْرارِ الخَلْق، عن جوهرِ ذاتِ الإنسانِ وعن العِشْق.. أَحتاجُ إلى لُغةٍ بِسَعَةِ الفَلَك لِكَي أشرحَ لكم مبادئه الإنسانيّة؛ إنّه شَمْسٌ في وَسَط الظّلّ.

وهو يعتقدُ أنّ المؤمنَ الذي يحترقُ في أَتُّونِ العِشْق، ويغدُو رَمادًا، هو مِن صِنْفِ الشُّهداء. ولأنّه استُشْهِدَ في وادي العِشْق، لاشكّ في أنه سَيُساوَى بالعِلْيةِ والحُكَماء في حَضْرةِ الجَبَروت وميادينِ العِشْق؛ ذلكَ لِأَنّ طَريقَ العِشْق هو مكانُ قَتْلِ الشّهداء ومَشْهَدُ الأَنبياء. ومِثْلُ هذا العِشْقِ طَريقٌ إلى الضّياء، حرَكةٌ نَحْوَ الحُسْنِ والجَمال والحقيقة.. جاذِبٌ نَحْوَ الوَحْدة والفَناء.

علّمَني شَمْسٌ أَنْ أحترِفَ الصّبرَ أمامَ إزعاجاتِ الحُسّاد والمدَّعِينَ المتعصِّبين في قُونِيةَ واعتراضاتهم وسِبابهم، وأَنْ ألتزمَ الصّمتَ. ما أجملَ ما كانَ يقولُ. أُولئكَ الذين يُعادونَ أَحِبّاءَ الحقّ، يظنّون أنّهم يسيئونَ إلَيهم؛ وهذا غلَطٌ، والصّحيحُ أنّهم يُحسِنونَ

إليهم. أَيظنّونَ أنّهم يُكَرّهون إليهم أنفسَهم؟ـ لا، البتّةَ؛ ذلكَ لأنّ أحِبّاءَ الحقّ هؤلاء متجرِّعو الغَمّ في العالَم، وهذا يَزيدُ فيهم المحبّةَ والانشغال.

ويُسمّى مِثْلُ هذا مَشْربَ البَذْل والإيثار. وهو كلامٌ يصقلُ روحَ السّامع وقلْبَه ويزيّنُهما، ويتحوّلُ إلى نَوعٍ مِن العبادة، ويشيرُ إلى أنّ دافعَ العِشْقِ هو الذي أَمْلى أسبابَ الارتقاءِ الدّاخليّ عندَ شَمْس. ولا يمكِنُ تعليمُ دَرْسِ العِشْق بِرسائلِ الفلسفةِ وعِلْم الكَلام والمنطِق؛ لأنّ العِشْقَ لَيسَ له أبجديّة؛ وكلُّ سَعْيٍ إلى بَيانِ العِشْق وإيضاحِه وتفسيرِه لا طائلَ مِن وَرائه.

[٨٤] مَتَى يمضي العَقْلُ في طَريقِ اليَأس؟

العِشْقُ هو الذي يتقدّم مُسْرعًا إلى تلك الناحيّة

فالعِشْقُ هو الّذي لا يُبالي، لا العَقْلُ

العَقْلُ يَنْشُدُ ما يستفيدُ مِنهُ[1]

تعلمونَ أنّني قبْلَ لِقاءِ شَمْسٍ كُنتُ عاشِقًا للدّفتر، كُنتُ أجْلِسُ متصدّرًا الأدباءَ. وعندَما رأيتُ جَبينَ السّاقي سَكِرتُ وكسَرْتُ الأقلام. والآنَ أقومُ بالخدمة، أَسْعى وأجتهدُ في سَوْقِ أَحِبّائي، أو أحبّاءِ المعرفة، إلى الجَمالِ والكمالِ، والحالِ المتّصلة بجَمالِ الكشْف والوَجْد والإشراق. وهذا يقينًا بِمُساعدة رَبّة العِشْق؛ لِأَنّ العِشْقَ فضيلةٌ، صِحّةٌ في العَمَل، أساسٌ لِغِنى الباطن؛ مَنبعُ كُلّ ضُروبِ الجَمال والكَمال العِشْقُ. وجدتُّ جوهَرَ الحياةِ وإكسيرَ الحياةِ في العِشْق.

رسَمَ شَمْسٌ أَمامي عالَمًا جديدًا. أدركْتُ في محضَرِ شَمْسٍ جيّدًا مَعْنَى الزّمانِ

١ـ المثنوي، ٦/١٩٧٣ـ ٧٤.

والمكان الحقيقيَّين، جعَلْتُ جِسْمي ورُوحي في إِمْرة القَلْب، لِكَي ينفِّذا كُلَّ ما يأمرُ به القلبُ، الذي هو تحتَ بِناء العِشْق. وابتغاءَ أن تطَّلِعوا على عالَم الرّوح والجسَد، أَجعلُ قضيّةً مستمَدّةً مِن كتابٍ لِمُحيي الدّين بن عربيّ، الذي كان أُستاذي، عُنوانًا لِلْحديث. فقد كتَبَ مُحْيي الدّين في إيضاح عالَم الجسَد والرّوح قولَه:

الدّنيا جَسَدٌ مِن دُونِ رُوح، والإنسانُ هو رُوحُ هذا الجسَد. الإنسانُ هو العِلّةُ الحقيقيّةُ والغائيّةُ للخَلْق. البشَرُ همُ المقصودُ الحقيقيّ مِن الخَلْق وبَذْرُ عالَمِ الوجود؛ فمِن جِهةِ الوجودِ الإنسانُ هو الموجودُ الأوّل، وهو مقدَّمٌ على الجَميع، وفي ترتيبِ الظُّهورِ هو آخِرُ ظاهرةٍ في عالَم الوجود. وقَلْبُ الإنسانِ مَحَلُّ التّجلّياتِ الإلهيّة، وبتعبيرٍ آخَر: القَلْبُ مُحتلَى جَنابِ الحقّ تعالى. جعَلَ الحقُّ تعالى الدّنيا كمِرآةٍ صَدِئة، ولابدّ مِن صَقْلِ هذه المرآة؛ فمِن ثَمّ صار الإنسانُ صَفاءً لِمِرآةِ الوجود وروحًا لجسَد العالَم.

جعَلَ الحقُّ تعالى الإنسانَ القَصْدَ الحقيقيّ للخَلْقِ، وسَمّاه خليفتَه في الأَرْض، وأودعَ صدْرَه قَلْبًا هو في العظَمةِ أَوسعُ مِن الرّحمة، وأَعْرضُ من السّماوات. هذا القلبُ هو بَيتُ الله، سُبحانَه.

أيّها الناسُ، اعلَموا أنّ الله تعالى قالَ: لا تَسَعُني الأَرْضُ ولا السّماءُ، ولكن يَسَعُني قلبُ المؤمن.

يا أهلَ قُونِيةَ، اعلَموا أنّني وشَمْسًا التَّبْريزيّ نؤمن بالله تعالى، وكان أجدادُنا جميعًا مِن عُلَماء الدّين الإسلاميّ في إيران الكبير، فلا تكسِروا قلبَيْنا المؤمنَين، بالسُّخْريةِ والمَلامة والاستهزاء.

[٨٥] اعلَموا أنّ قلبَينا مُتنزَّلُ العِشْق، والعِشقُ عُصارةُ الدّين ولُبُّ لُبابه، وكلُّ مَنْ لدَيه مِثْلُ هذا الاعتقادِ الرّاسخ، لدَيه يقينًا إيمانٌ بالله سُبحانَه وبالإنسانيّة، بالمعنى الحقيقيّ للكلمة.

- ما نطَقَ العاشِقُ بشَيءٍ إلّا انطلَقَتْ رائحةُ العِشْقِ مِن فِيه في مَحَلّةِ العِشْق

- ولو نطَقَ بالكُفْر، لَكانَ لِكُفْرِه رائحةُ الدّين، ولو تكلّمَ بالشّكّ لَصارَ شكُّه يقينًا[١]

ووَفْقًا لِقَولِ الجُنَيد: العِشْقُ أن يُميتَك اللهُ، عزّ وجَلّ، عن نفسِكَ ويحييَك به.

دخَلَ مَوْلانا لِلَحَظاتٍ في إغْماضةٍ مُريحة، ثمّ فتَحَ عَينَيه وقالَ: أيْ عالَمَ العِشْقِ الأبَديّ والسَّرْمَديّ، ها قد نجّيتَني بِمُساعدةِ شَمْسٍ الطَّيّارِ مِن الظّلمات، والآنَ حِينُ أن تُنجِّيَ أيضًا بعضَ متعصّبي قُونِيَةَ وأَجْلافِها.

أيّها النّاسُ، لا تَربِطوا قُلوبَكم بالخَلْقِ فتتعَبُوا، اربِطوا قلوبَكم بالعِشْق[٢] لِكَي تتحرّروا.

سكتَ مَوْلانا قليلًا في هذا الوقت، فنهضَ رجُلٌ مِن مكانه وقالَ:

- يا مَوْلانا، أَخْبِرْنا: أَبِالرّياضةِ والمُجاهَدةِ والخَلْوةِ يمكِنُ تَعرّفُ أَسْرارِ العِشْقِ السّماويّ؟

تبسّمَ مَوْلانا، وواصلَ القولَ: منذُ سَنَواتٍ، طلَبَ منّي ولَدي، سُلْطانُ وَلَد، أن

---

١ ـ المثنوي، ١/٢٨٩٣، ٢٨٩٥.

٢ ـ عندَ العارفينَ، الإنسانُ الكامِلُ سَبّاحٌ في بَحْر العِشْق الذي لا نهايةَ له، ولا يُعاقَبُ العاشِقُ على الجُرْم الذي يرتكبُه، وأَحْوالُ العُشّاقِ وفِكَرُهم لا يُحكَمُ عليها بالقوانين العَقْليّة والدّينيّة؛ إذ لها مَعاييرُ أُخَر. والعشّاقُ الحقيقيّون يتكلّمون بِوَحْيٍ مِن قُدرتهمُ الباطنيّة العظيمة. وبناءً على هذا الأَصْل، ما أكثرَ المخالفاتِ التي هي من العاشق طاعاتٌ. ولا يمكِنُ أن يقالَ في هذا الشأن أكثرُ مِن هذا؛ لأنّ الورَقَ سيحترقُ والقَلَمَ سينكسِر، كما يقول العارفون [المؤلّف].

يدخُلَ في الخَلْوة، فقُلتُ له إنّه لَيْسَ لِلْمُسْلمينَ خَلْوةٌ، وفي دِيننا هذا العَمَلُ بِدْعةٌ، ولكنّه كان في شَرائعِ الرُّسُلِ السّابقين، وكُلُّ مُجاهَداتنا مِن أَجْلِ رَاحةِ الأبناء والأَصْحاب، ولا يُحتاج إلى خَلْوة. شَمْسُ الدّين التَّبريزيُّ مُخالِفٌ لِلرّياضاتِ والخلَوات. وأَسْرارُ العِشْقِ لَيسَتْ شيئًا يُنالُ في الخَلْوة أبدًا؛ لابدّ مِن أن يجِدَ الإنسانُ مدرسةً، ويتَلْمذَ على أستاذ. العِشْقُ تَحرّرٌ مِن التعيّنات والرّسوم. وإنّه بِمُمارسةِ الوَثَباتِ الرّوحيّة، والإحساسِ بأنّه لابدّ مِن تعرُّفِ أَسْرارِ الوجود، يمكنُ الإمساكُ بمِفتاحِ العِشْق. ونحْنُ نأتي مِن العَدَم، ونرجِعُ إلى ناحية العدَمَ مِن جديد، فَلْتنظُروا بنظَرٍ أكثَرَ تفحّصًا إلى الذَّهابِ والمجيء، أو المجيء والذَّهاب:

ـ في كُلِّ لَحظةٍ، يا ربّ، قافلةٌ تَتْبعُها قافلةٌ، تسيرُ مِن العَدَم إلى الوجُود.

ـ وفي كُلِّ لَحظةٍ تعودُ هذه القوافِلُ مُسْرِعةً مِن الوُجودِ إلى العَدَم[1].

[٨٦] مِن وِجْهةِ نَظَر العِرْفانِ والتصوّف العِشْقيِ، عِشْقُ جَمالِ الموجوداتِ يدُلُّ على فِقْدانِ ثُنائيّة الـ «أنا» والـ «أنتَ». اعلَموا أنّ الأشياءَ كلّها تتمازجُ في وَحْدة الكُلّ. يتخلّصُ العُشّاقُ مِن الشّخصيّة الفَرْديّة؛ لِأَنّهم يشاهِدونَ العالَمَ كلّه في أنفسهم. في تلكَ اللّحَظاتِ التي يصِلُ فيها الإنسانُ إلى كَمالِ العِشْق تتلاشَى الاضطراباتُ والمخاوِفُ مِن الحياة. وشَمْسُ التَّبْريزيُّ ممثِّلٌ لِنَوعٍ مِن العِشْق والمحبّة، وعندَما جاء مِن ديارٍ بعيدةٍ إلى هنا أَتَى لِأَرْبابِ العِشْق الإلهيّ بِهديّة. وإنّ أعظمَ أَحْداثِ حَياتي هو لِقائيَ التاريخيّ بِمَجْلى العِشْق، أي بِشَمْس تَبْريز. وهو مظهَرُ تجلّي الجَلالِ والجَمال الإلهيّ، ولَسْتُ أَدْري لماذا أُسَمّيه وأنتُم تعرفونَه جيّدًا؟. نحْنُ جَميعًا خُلَفاءُ اللهِ في الأرض،

---

١ ـ المَثْنويّ، ١/ ١٨٨٩ وما بعد.

وشاهِدُ الأَسْرارِ الإلهيّة لِلْحَقّ تعالى، التي تتجاوزُ التّقدير. انظُرْ إلى ما في جَيبكَ لِكَي تَرَى أيَّ نصيبٍ لَكَ منه. كانَ شَمْسٌ موجودًا بينَ الرّبِّ والمربوب. وكانَ يقولُ، ويؤكّدُ أنّه عرَفَ الحقَّ تعالى بِمُساعدةِ بازِيِّ العِشْق سَريعًا. والمؤسِفُ أنّ أهلَ قُونِيةَ لم يقبَلُوه، ولم يتلقَّوا كلامَه بِسَمْعِ القَبول:

ــ أيّتُها الصَّبا، ائتيني بوَصْفٍ لِخَدِّ شمسِ الدّين وخَالِه

أَحْضِري العَنبرَ ومِسْكَ الخُتَنِ مِنَ الصّين إلى أَرضِ الرّوم

ــ وما الرّأسُ حتّى أقدّمَه فِداءً لِقَدَم شَمْس الدّين؟

اذكُري اسْمَ شَمْسِ الدّين؛ لِكَي أجعَلَ الرّوحَ نِثارًا علَيه

ــ وقَدْ سَكِرْنا مِن رائحةِ شَمْسِ الدّين، ونَمْضي

نحْنُ سُكارَى مِن كَأْسِ شَمْسِ الدّين، فيا أيّها السّاقي لا تأتِ بالشَّراب

ــ شَمْسُ الدّينِ كأسُ جَمْشيد، وشَمْسُ الدّين بَحْرٌ عَظيم،

وشَمْسُ الدّين نَفَسُ المسيح، وشَمْسُ الدّين عِذارُ يوسُف

ــ شَمْسُ الدّين نَهارٌ مُتجَلٍّ، وشَمْسُ الدّين فلَكٌ دَوّار،

وشَمْسُ الدّين جَوهَرُ المنجَم، وشَمْسُ الدّين هو اللّيلُ والنّهار(١)

يَسعَى شَمْسٌ مِن أعماقِ قَلْبه لِأَن يقدِّمَ لِلْعِشْقِ والموسيقا، التي هي مِن مَظاهرِ الفنّ الإنسانيّ ولها تأثيرٌ خَلّاق، مَجاليَ حافلةً بالجَلالِ والعظَمة. وهو يلخّصُ أهدافَه الخفيّةَ والإنسانيّة، بِصَفاءٍ وحَميميّةٍ ومحبّةٍ وإخلاص، ويقدّمُها إلى الآخَرين. وفي هذا

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ١٠٨٢. والخُتَن: بلَدٌ ووِلايةٌ في تُركستان، معروفٌ في الأدب الفارسيّ بكثرة غِزلانه التي يُستمَدُّ منها المِسْك. وكأسُ جَمْشيد: كأسٌ أسطوريّة منسوبةٌ للملك الفارسيّ جَمْشيد، يُزعَمُ أنّه كلّما نظَرَ فيها مالِكُها رأى فيها ما يجري في العالَم

اليوم، اختَرتُ مِن أَقواله وفِكَرِه وآماله نِقاطًا لها في ذِهْنه وفي عواطِفِه، وكذلكَ في عمَله وسُلوكه، وضوحٌ أكبر، وهذا ما أنشدتُّه في شَأْن العُشّاق الحقيقيّينَ:

طـابَ عَيـشُكم في كُـلّ زَمـانٍ، أيّهـا العُـشّاق

وجعَلَ اللهُ لكُـمْ هـذه الـدّنيا مَنجَمًـا للـسُّكّر، أيّهـا العُـشّاق

وقـد بَـدَا بَحْـرُ العِـشْقِ هـذا بَحْـرًا غَريبًـا معلَّقًـا،

فَلَا هو تَحْتُ، ولا هو فَوْقُ، ولا هو في الوسَطِ، أيّها العُشّاق

ووَصَـلَ صـياحُ سُـرورِ العاشِـقينَ إلـى العَـرْشِ

وتَجـاوزَتْ هـذه القافلـةُ العَـرْشَ والفَـرْشَ، أيّهـا العُـشّاق[1]

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ١٩٥٥.

ـ إنّ لِلْعِشقِ مئةَ تدلُّلٍ وتكبُّر
واليَدُ لا تحصُلُ علَيه إلّا بعْدَ تدلُّلٍ كثيرٍ منه
ـ وأنتَ بإهانةٍ واحِدةٍ تَفرُّ مِن العِشْق،
فماذا تعْلَمُ عن العِشْقِ غيرَ الاسْم؟
(المثْنَوي، ٥/١١٦٦، ١١٦٥)

عالَمُ الغَيْب

[٨٧] كانَ مَوْلانا يريدُ، قبْلَ مجيء شَمْسٍ ثانيةً، أن يعرِّفَه لِأَهلِ قُونِيةَ على النّحْو الذي كان لائقًا بمَقامه، بِأنّه لَيْسَ فقط عالِمًا عاليَ القَدْر وجَليلًا، بَلْ هو عارِفٌ بصيرٌ بالألَم خَبيرٌ بالوجَع. وقد أَشْعلَ في هذه المدينة مصباحًا سيضيءُ، لِسِنينَ، عُقولَ أَصحابِ القُلوب بِمادّته الجديدة، وينيرُها. ويبدو رَجُلًا شُجاعًا، وفي البَحْثِ والجدَل غيرَ هيّابٍ ولا ينالُ منه التّعَبُ. كان مَوْلانا يؤمِّلُ أن يستطيعَ تغييرَ أَحْكامِ طَبَقاتِ النّاس في شَأْن جِبِلّة رَجُلٍ حَسّاسٍ وسَريعِ التأذّي، وبيانَ الأُسُسِ التي ينبغي أن يُبنَى عليها التقويمُ. ومِن أَجْلِ ذلكَ واصَلَ مَوْلانا كلامَه:

قدّمَ شَمْسٌ مِن أَجْلِ تفتُّحِ العِشْقِ الحقيقيّ في وجودي، في طِينتي، ما يشبِهُ أن يكونَ معجِزةً. وأَستطيعُ أن أبيِّنَ لكم آثارَ هذا العِشْق. العِشْقُ أزالَ بطَرْفةِ عَينِ اليأسَ والقُنوطَ الذي أكَلَ رُوحي وجسَدي كالجُذام، العِشْقُ أوضحَ لي بالتّجربة جَلالَ الذّاتِ الأَبديّة وجَمالَها. عرَفْتُ أنّه يحفَظُ جاذبيّةَ الأرضَ والكائنات. وعندَما هاجمَتْ أمواجُ العِشْق وجودي، جاشَتْ جَواهرُ المعرفةِ التي هي هِبةُ الله تعالى لِلْبشريّة في قَلْبي، كالحَجَر الذي ينشقّ في الجَبَل فيتفجّرُ منه الماءُ الصّافي العذْبُ الزُّلال. وعندَئذٍ تغيّرتْ هُوِيّتي ووجودي، [٨٨] وتحوّلَتْ ظُلُماتُ باطني إلى شَمْسٍ ساطعة، فكنتُ أَسْمَعُ صوتَ

الطّبيعة الذي هو أكثَرُ الأصواتِ إثارةً للهَيَجان، وأُحِسُّ على نَحْوٍ رائعٍ وسَهْلٍ بِأنّني كنتُ أَسْمَعُ صَدَى تأوّهاتِ قَلْبي وأُمْنيّاته وآماله، وكنتُ غارِقًا بِسَماعِ صَدَى محبوبي.

يكـونُ للعاشـقينَ خَمـرةٌ هـي دِمـاءُ قلـوبِهم

وتكـونُ أَعْيـنُهم علـى الطّريـق والمنـزِل[١]

ولِكَي يصيرَ الإنسانُ عاشِقًا، لابدّ له مِن مُتابعةِ رجُلٍ تَقيّ يتمتّعُ بانبساطٍ وذَوقٍ متفنّن، ومتفكّرٍ عارِفٍ مِثْلِ شَمْس تَبْريز. وبمُساعدةِ الإنسانِ الكامل وتوجيهه، لابدّ للرّوح مِن أن يتقدّمَ بفَعَاليّاته في عالَم ما وراءَ الطّبيعة. وعندَئذٍ يتحوّلُ جسَدُ الإنسان إلى دارِ ضيافةٍ، وترشَحُ مِن عَقْله فِكَرٌ جديدة تُطَرّي الجِسْمَ والرّوح:

ـ كُنْ مُضيفًا مُتهلّلَ الوَجْه، كالخَليل [عليه السّلام]

ولا تُغلِـقِ البـابَ، وقِـفْ منتظـرًا في الطّريـق

ـــ فكُـــلُّ مـــا يـــأتي مِـــن عـــالَـــــم الغَيـــب

هـــو ضَـــيفٌ في قَلْبِـــكَ، فـــأَكرِمْ مَثْـــواه

ـــ هَيّـــا، ولا تقُـــلْ: بقِـــيَ كَـــلًّا عَلَـــيّ

فإنّــه ســيطيرُ سَــريعًا عائــدًا إلــى العَــدَم[٢]

العِشْقُ يجمَعُ حَولَه كُلَّ عُبّادِ الله، مِن الأَدْيانِ والمذاهِبِ والمشارِب المختلفة، كما يجتمِعُ الفَراشُ حولَ الضّوء، ويوجِدُ بينَهم أُلفةً ومحَبّةً لا انتهاءَ لهما.

يقولُ فَريدُ الدّين العَطّار إنّ إبراهيمَ بنَ أَدْهَم كان أميرًا في بلاد بَلْخ، وكان

---

١ ـ المثنوي، ٥/٣٤٨٧.

٢ ـ المثنوي، ٥/٣٦٤٨.

تحْتَ وِلايته عالَمٌ مترامي الأَطْراف، وكان يتولّى حِراستَه دائمًا أربعون فتًى نَشِطًا يمتشقونَ سُيوفًا مجرَّدةً مِن الأغماد، ويحملونَ دَبابيسَ مِن الذّهَب، إلى جانب عَرْشِه. وفي إِحْدى اللّيالي كان مستغرَقًا في نَومٍ عميقٍ في فِراشه الوثير، وفي منتصَفِ اللّيل سمِعَ صوتًا، فنهضَ مِن الفِراش فرأى أنّ سَقْفَ البيتِ أو القَصْر الذي هو فيه يهتزّ. فأخذَ يفكّر. فسمِعَ وقْعَ قدَمٍ، وتبيّنَ أنّ شَخْصًا مجهولًا يتخطّى فوقَ سَطْحِ البيت أو القَصْر، فسأَلَ:

ـ مَنْ أنتَ؟ وماذا تعمَلُ فوقَ سطْحِ منزِل إبراهيم؟ ـ فسَمِع إجاباتٍ مِن هذا النّوع:

ـ أنا مِن معارِفكَ.. نَعَمْ يا إبراهيمُ، أنا مِن معارِفكَ. لَسْتُ غَريبًا، ولَسْتُ لِصًّا أيضًا، فقدتُّ جَمَلي على هذا السَّطْح، جئتُ أبحَثُ عن ضالّتي.

غضِبَ إبراهيمُ، وفي ابتسامةٍ صَفْراءَ صاحَ:

ـ يا غبيُّ، يا جاهِلُ، يا مجنون، تبحَثُ عن جَمَلٍ ضائعٍ، وأكثَر مِن ذلك فوقَ سَطْح بَيتِ إبراهيم؟

[٨٩] المجهولُ وهو يُقَهْقِه، وقد كسَرَتْ قَهْقهتُه صَمْتَ اللّيل المُدْهِش، واصَلَ القولَ مِن دون خَوفٍ:

ـ وأنتَ أيضًا، كيفَ تطلُبُ اللهَ في الثّيابِ الجميلة وأَرْدِيةِ الحَرير والفِراشِ الوَثير؟

ومِن هذا البَيانِ المؤثِّر المحرّك القاطع، فكّرَ إبراهيمُ قليلًا، واضطَرَمَتْ نارٌ في قَلْبه، ودَفَعَ عنه الأَوْهامَ والخيالاتِ والظّنونَ التي لا أساسَ لها، وحتّى الفَجْرِ، لم يستطِعْ أن يهدَأ مِن الخجَل ومِن وَخْز الضّمير، فاضطُرّ إلى الذّهاب إلى ديوان المُلْك مفكِّرًا حزينًا.

وعلى حِينِ غِرّةٍ دخَلَ مِن الباب رَجُلٌ ذو مَهابةٍ وصَلابة. لم يكُنْ لَدَى الحُرّاس

القُدْرةُ على مَنْعه مِن الدّخول. تقدّمَ حتّى وصَلَ إلى جانب إبراهيمَ بنِ أَدْهَمَ، فسأَلَه إبراهيمُ وفي قَلْبه رَوْعٌ وخَشْية:

ـ مَنْ أنتَ؟ وماذا تُريدُ منّي؟

ـ أُريدُ أن أُقيمَ في هذا الرّباط.

ـ لَيْسَ هذا المكانُ رِباطًا، بَلْ هذا قَصْري، القَصْرُ العظيمُ الجَليلُ لِإبراهيمَ بنِ أَدْهَم.

ـ هذا القَصرُ العظيمُ لِمَنْ كان قبْلَ أن يُصبحَ لَكَ؟

ـ كان لِأَبي.

ـ قبْلَ أبيكَ، لِمَنْ كان؟

ـ كان لِوَالِدي.

ـ وقبْلَ ذلكَ؟

ـ كان لِفُلان.

ـ إذًا، أَصْحابُ المكانِ السّابقونَ أينَ هُمْ؟ ـ إلى أَينَ ذهبوا؟

ـ ماتوا جميعًا، وَدّعوا الدّنيا.

ـ ومعَ ذلكَ يا إبراهيمُ، لا تقبَلُ أن يكونَ ههنا رباطٌ قديم. يأتي شَخْصٌ، ويذْهَبُ آخَرُ، ويمضي متحسِّرًا، وآخَرُ يغدو مالِكًا لِلقَصْر. الشّيءُ الذي لا يمضي ولا يفنَى إنّما هو العِشْقُ والإيمانُ. قالَ هذا، وتوارَى عن الأنظار.

مِن سَماعِ قَولِ الرّجُل المجهول، أَحَسّ إبراهيمُ بِهيَجانٍ وغلَيانٍ في نفسِه لم يكن له بهما عَهْدٌ: هَلْ جاءَ هذا المجهولُ لِكَي يكشِفَ أَسْرارَ قلبه المليء بالأَمَل؟ تغيّرَ

إبراهيمُ، وأَحسَّ على حِينِ غِرّةٍ بأنّ قلْبَه بِتأثيرِ أَنْوارِ العِشْق صار مُشْرِقًا بالحقيقة:

ـ كُلُّ أَجْزاءِ الدّنيا، مِن ذلكَ الحُكْمِ السّابق، صارَتْ أزواجًا، كُلُّ عاشقٌ لِزَوجه.

ـ والإنسانُ والحَيَوانُ والنّباتُ والجَمادُ، كُلُّها مُراداتٌ عاشقةٌ لمَنْ لا مُرادَ له.

ـ والذّئبُ والدُّبُّ والأَسَدُ تعْرِفُ ما العِشْقُ؛ ومَنْ هو فارغٌ مِن العِشْق هو أَقَلُّ مِن الكَلْب.

ـ ولو أنّ العِشْقَ لم يكُنْ موجودًا متَى كان الوجودُ موجودًا، ومتَى تحوّلَ الخُبْزُ إلى وجودِكَ، ومتَى صِرْتَ موجودًا؟[1]

وَدّعَ إبراهيمُ بنُ أَدْهمَ كلَّ ظَواهرِ الدّنيا، وتوجّهَ نحْوَ حياةِ العِشْقِ الجميلة الجذّابة، واعترفَ بِأنّه لا شيءَ أكثرُ حَقيقةً مِن العِشْق، وبأنّ أجملَ مَجالي العِشْق موجودٌ في الجَمال، وهذه المحاسِنُ متواريةٌ في الوجود وفي الطّبيعة وفي الكائنات. وقد كان إبراهيمُ يُحسّ بِأنّ نُورَ الحقّ يُشِعّ على قَلْبه، وعلَيه أن يودّعَ تعلُّقاتِ الدّنيا ومظاهرَها الخادعة.

هذا الانجذابُ الباطنيّ، مَنْ كان يقدِرُ على أَنْ يعلّمَني إيّاه ويبيّنَه لي غيرُ شَمْس؟ مَنْ كان قادرًا على أن يقولَ لي إنّ الحياةَ ذاتَها مثيرةٌ لِلْعِشْق، وعلى الإنسانِ في الحياة أَنْ يعْشَقَ محبوبًا أو معشوقًا، وأن يُنشِدَ مِن أَجْله ويرقصَ ويغنّي ويترنّم؛ لِكَي يغرقَ تمامًا في المحبّة والإخلاص والإيثار.

اسألوني: ما الفضيلةُ؟ ـ أقولُ: هي العِشْقُ. وبهذا المعنى، إذا اعتبرَني أهلُ قُونيةَ، أنا العاشِقَ، كافرًا فقد داسوا بِأقدامهم على الفضيلة والإنسانيّة. وإذا قالوا عن شَمْسِ الدّين

---

١ ـ المثْنَوي، ٣/٤٤٠٤، ٤٤٤٦ ـ ٥/ ٢٠١٠، ٢٠١٢.

إنّه ساحِرٌ فقد نفَوا العِشْقَ والجَمالَ والوجودَ في ذات المعرفة ودُنيا عِلْم المعْنَوِيّة، فأيُّ أَناسِيَّ لا ذوقَ لهم هم؟!

أيّها الأحبّةُ، ينزِلُ العِشْقُ في القَلْبِ بمئة دَلالٍ وغُنْجٍ، متبختِرًا؛ وبهدوءٍ، يجعَلُ لَحَظاتِ الحياة لألاءةً، غنيّةً، جميلةً، صافيةً. فهَلْ يمكِنُ جَعْلُ شَمْسِ الدّين، المَدّاحِ لِلْعِشْق والمحبّة، ساحِرًا؟ هل يمكِنُ التّفريطُ بشَخْصيّةٍ قويّةٍ كهذه بسهولة؟ أمّا أنا فقد أَخْلَيتُ دارَ القَلْب زَمَنًا طويلًا مِن المحبّة الظّاهريّة، فكُنتُ أفكِّرُ في شَمْسِ الدّين، وهو في أَوْج الكَمال. كُلُّ مَن يحيا بعِشْقِ شَمْسٍ سيبقى دائمًا حَيًّا. شَمْسٌ داعٍ مؤمِنٌ معتقِدٌ بخالِقِ الكائنات، وهو يعلِّمُ الرّاغبينَ والطّالبينَ المَصادرَ الأَبَديّةَ للسّعادة والمحبّة. شَمْسٌ شَفَقي، شَمْسٌ فَلَقي، شَمْسٌ انعكاسٌ لِأَصْداءِ قَلْبي، شَمْسٌ مَجَرّةُ آمالي، شَمْسٌ تصويرٌ لِلْمَحاسِن، إنّه صوتُ الحقيقةِ الموزونُ وطَنينُ العِشْق في الأرض[1]. شَمْسٌ

١ـ كتَبَ محمّدُ الغزالي في باب العِشْق: «العِشْقُ يقصِدُ إلى الكَمال؛ ولأنّ الكمالَ المطْلَقَ [٩١] خاصٌّ بذات البارئ تعالى، فهو تعالى أَحَقُّ مِن كلّ شيءٍ بالعِشْق». وفي عَقيدةِ العارِفينَ أنّ الحقَّ تعالى خلَقَ العِشْقَ في الأزَل. ووَفْقًا لِلْحديث النّبويّ «فأَحْببتُ أن أُعْرَف»، أوجدَ الخَلْقَ، وصَبَّ شَرابَ العِشْق في حُلوقهم؛ ولذلكَ تكونُ المحبّةُ موهبةً مِن الحقِّ وتعليمًا منه تعالى؛ وساقي شَرابِ العِشْق في هذه الحانة هو جمالُ خالِقِ العِشْق. والأمرُ مِثْلُ ما يقول مولانا:

اختَرْ لِنفْسِكَ عِشْقَ ذلكَ الحَيّ؛ فإنّه هو الباقي وهو الذي يَسْقيكَ من الشَّرابِ المقوّي لِلرُّوح

(المثنوي، ١/٢٢٠)

وقد نُقِل عن أبي يزيدَ البِسْطامي أنّه قالَ:

«حتّى لو أُعطِيتَ صَفْوةَ آدَمَ وقُدْسَ جِبريلَ وخُلّةَ إبراهيمَ وشَوْقَ موسى وطهارةَ عيسى، لا ترضَ، واطلُبْ ما هو فوقَ هذه الأُمور، اطلُبِ العِشْقَ، ولا تَنزِلْ؛ إذ كلّما نَزلْتَ حُجِبتَ».

وجعَلَ الأطبّاءُ العِشْقَ مِن أَمراضِ الإنسان وشَبيهًا بـ«الماليخوليا». ونُقِلَ عن أرسطو في بَيان العِشْق: «هو عَمَى الحِسّ عن إدراك عُيوب المحبوب».

وقال ابنُ سِينا: «هذا مَرَضٌ وَسْواسيٌّ شبيهٌ بالماليخوليا». =

أيضًا يُحبّني محبّتَه لِهَدَبِ عينَيه، [٩١] وقد قالَ مرّاتٍ كثيرةً إنّ لي في الدّنيا كلّها مَحْبوبًا واحِدًا، هو جَلالُ الدّين البَلْخيّ. نَعَمْ، قالَ مِرارًا:

نَحْنُ شَخْصانِ التقَيا على نَحْوٍ عَجيب. وقَليلٌ جِدًّا أَنْ يلتقيَ شَخْصانِ مِثْلُنا. واضِحانِ جِدًّا، ولم يكُنِ الأَوْلِياءُ واضِحينَ، ومَحْجوبانِ جِدًّا. إنّه مِن بَرَكاتِ مَوْلانا أن يسْمَعَ مِنّي أيُّ إنسانٍ كَلِمةً. مَوْلانا قَمَرٌ، وأنا شَمْسٌ.

وقد قالَ لي:

مِن أَجْلِكَ أنتَ عُدتُّ مِن حلَبَ.

في يومٍ مِن الأيّام، قالَ شَمْسٌ لابني سُلْطان وَلَد:

أنتَ لا تعلَمُ أنّ هذا، وقد أشارَ إلى نفسِه، دَنٌّ مِن شَرابٍ رَبّاني، خُتِمَ بالطِّين، ولَيْسَ لِأَحَدٍ اطّلاعٌ علَيه. أنصتُّ إلى العالَم، فكُنتُ أَسْمَعُ:

هذا الدَّنُّ بِسببِ مَوْلانا فُتِحَ. وكُلُّ مَنِ انتفعَ مِن هذا، كان سَبَبَ انتفاعه مَوْلانا[١].

= وجعَلَ العارفونَ العِشْقَ صِفةً للحقّ ولَطيفةً غيبيّةً ووسيلةً لِتَصْفية الباطن. والعِشْقُ موجودٌ في كُلّ أشياء الوجود، ولا يخلو شَيءٌ مِن العِشق، عِلّةً كان أو معلولًا. فأيُّ شَيءٍ نعرِفُ به العِشْقَ؟ ـ علينا أن نُدرِكَه بالعِشْق. قالَ ذو النّون المصريّ: «عَرَفتُ رَبّي بِرَبّي، ولولا رَبّي لما عرَفْتُ رَبّي».

سأل أحدُهم: وماذا يكونُ العِشْقُ؟ فقُلْتُ: صِرْ مِثْلَنا؛ لِتَعْرِفَه.

١ ـ مقالاتُ شَمْس، بتحقيق الدّكتُر موحّد، ص ١٧٥.

ـ وإذًا، فماذا يكونُ العِشْقُ؟ إنّه بَحْرُ العَدَم
وقد كُسِرَتْ لِلْعَقْلِ هناكَ القَدَم
ـ العِشْق قَهّارٌ، وأنا مقهورٌ لِلْعِشْق
وقد صِرْتُ وَضّاءً كالقَمَرِ، مِن نور العشق
(المثنوي، ٣/٤٧٢٦ ـ ٦/٩٠٧)

العِشْقُ أساسُ الوجود

[٩٢] سُمِعَ صَوتُ الأذانِ مِن مئذنةِ جامعِ قُونِيةَ الكبير، وكان صدَى الكَلامِ الإلهيّ يتنزّلُ مِن الفَضاءِ اللّامحدود نحْوَ الأَرْضِ، ويحيطُ بخانِقاه المَوْلَويّين، كان صوتًا جَذّابًا أخمدَ صَوتَ مَوْلانا النافِذ، وقدِ امتلأَ الفَضاءُ بالدّعاء. تقرّرَ أن يجتمعَ النّاسُ في عَصْر اليومِ التالي في الخانِقاه لِسَماع بقيّةِ كَلامِ مَوْلانا، وكان المهتمّونَ بِمَوْلانا يتابعونَ بِنظَراتٍ مشتاقةٍ طريقَ ذَهابِ مُرادِهم.. وهم لا يريدونَ الابتعادَ عن مَوْلانا حتّى لِلَحْظةٍ واحِدة.

في عَصْر اليومِ التالي عُطِّلَ سُوقُ قُونِيةَ، واندفعَ ذَوُو القلوبِ المشتاقة المتحرّقة إلى الخانِقاه. وعندَما وصَلَ مَوْلانا إلى الخانِقاه، كان كُلُّ شيءٍ قد دخَلَ في هدوءٍ وصَمْتٍ، وكان وَجْهُ مَوْلانا يبدو أكثرَ امتلاءً بالجَلال والصّفاء، وكأنّ وراءَ هذه السِّيماءِ ألفَ كانونِ نُورٍ متّقدٍ. كان صَوتُ مَوْلانا وكَلامُ مَوْلانا ورَنينُ صَوتِه اللّطيفُ المؤثّرُ تموجُ بالمحبّة والإخلاص، كأنّ النّاسَ مرّةً أُخْرى كانوا يَسْمعونَ التّرانيم الإلهيّة.

كانَ مُتوارِيًا في نَظَرات مَوْلانا النّافِذةِ عالَمٌ مِن الأَسْرار. وكان يريدُ أن يعْرِضَ على النّاس فِكَرَه الخالدةَ بِمُساعدة الكَلماتِ والجُمَلِ الأخّاذة؛ ولهذا السَّبب ابتدأَ كلامَه بالقَول:

ذلـــكَ العاشِـــقُ الثَّمِـــلُ اللّامبـــالي

الـــذي لـــم يَخْـــلُ مِـــن العِـــشْقِ لَحظـــةً

[٩٣] كـانَ يَطـوفُ دائمًـا في ناحيـةِ العِـشْق

ســجّادتُه علـــى كَتِفِـــه، وسُـــبْحَتُه في يَـــدِه

العِـــــشْقُ حَيـــــاةٌ خالـــــدة

لا أَخْلَـــى اللهُ الحَيـــاةَ مِـــنَ العِـــشْق!

أتذكّرُ أنّ شَمْسًا قالَ: إنّ العشّاقَ يطلبونَ الموتَ والفَناء كما يطلُبُ الشاعرُ القافيةَ، والمريضُ الشّفاءَ، والمَحْبوسُ الخلاصَ، والأطفالُ يومَ الجُمَعة. وكُلُّ عُشّاقِ مَدْرسةِ العِرْفان يَرَون المعشوقَ في كُلّ شيءٍ ينظُرون إليه؛ لأنّهم ينظرونَ بِنور العِشْق. ويعتقدُ العارفونَ والعُشّاقُ أنّ قُوّةَ العِشْق التي توجِدُ في الإنسانِ حالةَ جَذْبٍ وانجِذابٍ عظيمةٌ وقويّةٌ، حتّى إنّها تستطيعُ أن تؤثّرَ في الجَمادات. ونَعْرِضُ هنا سُؤالًا؛ فاستَمِعوا بدقّةٍ ثمّ أجيبوا عن سُؤالي.

السّؤالُ هو: هَلْ مِنكم أحَدٌ لم يدْرِكْ بالإيضاحاتِ التي قدّمتُها حتّى الآنَ معنى عالَم العِشْق الشّامِلِ والجميل؟

نهضَ عدَدٌ من الأشخاص، وقال كُلٌّ منهم بصوتٍ مرتفع: أنا، أنا، أنا...

ـ أنتُم، أنتُم لم تدرِكوا الولَهَ والهيامَ والهيَجانَ؟

ـ لا، لا، لا.

تابعَ مَوْلانا كلامَه مِن دون انزعاجٍ وبهدوء فقالَ:

قالَ الشّيخُ عبدُ الله الأنصاريّ إنّ الحقَّ تعالى شاءَ أن يُظْهِرَ صُنعَه، فخلَقَ الدّنيا. شاءَ أن يُظهِرَ ذاتَه، فخلَقَ آدمَ. شاءَ أن يوجِدَ نِقاطَ ارتكازٍ لِلْموجوداتِ

والكائنات فأظهرَ العِشْق.

وكتَبَ مُعاذٌ الرّازيّ لأبي يزيدَ البِسْطاميّ:

أَنـا ثَمِـلٌ مِـن شَـرَابِ العِـشْق، حَتّـى إنّنـي

لَـوْ شَـرِبْتُ جُرعـةً واحـدةً فـوقَ هـذا لَفَنيـتُ

فقالَ أبو يزيدَ في إجابته مُنشِدًا:

لَـوْ نظَـرْتُ إلى وَجْهِـكَ ألـفَ مَـرّةٍ لَتمنَّيـتُ رؤيتَـهُ مَـرّةً أُخـرى

وسألوا الحلّاجَ: عَلَى أيّ مَذْهبٍ أنتَ؟ ـ فأجابَ على مَذْهبِ العِشْق.

ويقولُ فَخْرُ الدّين العراقيّ: أرادَ سُلْطانُ العِشْق أن يَضرِبَ سُرادِقًا في الصّحراء، ففتحَ بابَ الخزائن، ونثرَ الكنزَ على العالَم.

يَعْـزِفُ العِـشْقُ علـى آلتـه في خَفـاء

فـأينَ العاشِـقُ الـذي يَـسْمعُ الـصّوتَ؟

[٩٤] والعـالَمُ كُلُّـه صَـدًى لنغمتِـه

فمَـنْ سَـمِعَ مِثْـلَ هـذا الـصّدَى المديـد؟

وهنا، مرّةً أخرى، تذكّرتُ قولَ شَمْسِ العِشْق والمعرفة، الذي قالَه لي مَرّاتٍ ونحْنُ في الخَلْوة:

حدّثِ النّاسِ على قَدْر أَفْهامِهِم، ولِنْ لهم على قَدْرِ صَفائهم وانسجامهم. أمّا أنا فلا شأنَ لي في الدّنيا، وفي قُونِيَةَ خاصّةً، بِالعَوامّ، لم آتِ مِن أَجْل العَوامّ. أَختبِرُ هؤلاءِ الأشخاصَ الذين يَعُدّون أنفسَهم مُدرّسينَ ومُعلّمينَ بِحَقّ، أؤاخِذُ الغِلاظَ القلوب المطّلِعينَ المُرائينَ، لا المُريدينَ المُحِبّين.

أتكلّمُ ابتغاءَ أن يسمَعَ خَواصُّ المجْلِس والمُراؤونَ في قُونِيَةَ؛ العِشْقُ العِرْفانيّ

يطفئ لَهيبَ الأهواءِ والغَرائز.العِشْقُ العِرْفانيّ جَمْرةٌ، عندَما تقَعُ في قَلْب العاشِق تحْرِقُ كُلَّ ما تجِدُه في القَلْب، حتّى إنّه يمْحُو صُورةَ المعشوقِ مِن حُجيرة القَلْب.

حُكيَ أنّه في شِيرازَ، مدينةِ العِشْقِ ودارِ العِرْفان وأرضِ الصّفاء والحِسان، وُجِدَ واعظٌ ثمِلٌ مِن شَرابِ الشّوق الأزَليّ، وكان يعتلي المنبرَ فيُسْمِعُ الحاضرينَ ببيانه الحارّ البليغ مَزيجًا مِن أَنغام العِشْق الملكوتيّة. وقد حدَثَ مِن دون قَصْدٍ أنْ حضَرَ في مجلِس وَعْظه أغلَبُ مُخْلِصي عالَم التّوحيد وفُرسانِ عَرْصة العِشْق والتّجريد. وفي أَحَد الأيّام، أخَذَ الواعِظُ يَتْلو على النّاسِ آياتِ المعرفة والعِشْق ببيانٍ أكثرَ إثارةً مما كان علَيه الأمرُ في الجلَساتِ السّابقة، فأدخَلَ تيّارُ كَلامِه الصّارِخُ الجميعَ في حالٍ مِن الوَجْد، فما كان إلّا أن نهَضَ عارِفٌ مِن المجْلِس وقالَ: أُريدُ أن أعرِفَ أينَ منزِلُ العُشّاق؟

قال هذا، وكان الواعِظُ مِمّا نالَه من الشّوق يدْفَعُ سَيْلَ كَلامِه المهيّج في الثّناء على العِشْق والمحبّة، كالإعصار الصّاخب. وعلَى حِينِ غِرّة، نهَضَ مِن بينِ المجموعِ رجُلٌ مَديدُ القامةِ نَحيلٌ، وبِعَينَين مغرورقتَين بالدّمع ولَحْنٍ حَزينٍ خاطبَ الواعِظَ قائلًا:

ـ أيّها الوالِدُ، رُوحي فداؤكَ! عندي حِمارٌ صَغيرٌ، صَبورٌ ومتحمّلٌ ونَشِطٌ، وهو عندي منذ وقتٍ، وكان لي صاحِبًا وأنيسًا ومؤنسًا، وكنّا معًا ليلًا ونهارًا، وكنّا شريكَين في السّرّاء والضرّاء. نَعَمْ أنا مُكارٍ، حِرْفتي تَأجيرُ الحَمير، وفي هذا اليومِ أخذْتُه إلى السّوق، فسَرَقَه الشُّطّارُ بالاحتيال. أتمنّى أن تسألوا النّاسَ: إنْ كانوا رَأوا حِمارًا أسودَ فَلْيعيدُوه إليّ فورًا. وسَأشكُرُ لكُم ولمَن يجدُه صَنيعَكُما. [٩٥]

ابتسَمَ الواعِظُ ابتسامةً صَفْراء. وطلَبَ المستمعونَ أن يؤدَّبَ المُكاري، قائلينَ: إنّه لَيْسَ هذا وقتَ ذِكْر هذا المطلوب. أمّا الواعِظُ العارِفُ فقالَ لِلمُكاري:

اجلِسْ ولا تنبِسْ بِبِنْت شَفة. لا تتكلّمْ، واهدَأ. آملُ أن يظهَرَ حِمارُكَ حالًا.

فكّرَ الواعِظُ لَحْظةً، ثمّ أَلقَى نظرةً نافذةً على المستمعينَ، كانَتْ نَظَراتُه إلى الوجوهِ مضطَرِبةً حائرةً، وفي النهاية استعادَ وَعْيَه، وواصلَ القولَ:

- أيّها النّاسُ، أيّها الشُّبّانُ والشّيوخُ الذين اجتمعتُم هنا، أيّها الوارِثونَ لِلآلامِ والمسَرّات، قبلَ أن يبسُطَ الموتُ أجنحتَه المُوحِشةَ فوقَ رؤوسكم كالمِظلّة، قولوا لي: أَيوجَدُ أَحَدٌ بينكم لا يسلِّمُ بِمَمْلكة العِشْق الأَبَديّة؟ - أيوجَد أَحَدٌ لم يضئ شُعاعُ العِشْق اللّطيفُ المحبَّبُ صَدْرَه المتألِّمَ في هذه الدّنيا؟ حدثَتْ هَمهمةٌ لا سابقَ لها في الخانِقاه، وكان المستمعونَ ينظُرُ كلٌّ منهم في وَجْه الآخَر، ثمّ في لَحَظاتِ صَمْتٍ مؤلمٍ نهضَ رجُلٌ لا رُواءَ له وقبيحُ المنظَر، وقالَ: أنا.

فسأَلَ الواعِظُ: أنتَ لا تَعرِفُ شيئًا عن العِشْق؟ - لم تَشْغَلْ بِالعِشْق قَلْبًا؟ - لا تؤمِنُ بالعِشْق؟ ، لم تَعشَقْ؟

- نَعَمْ، لم أَربِطْ بِالعِشْق قَلْبًا. ولا أعرِفُ ما العِشْقُ، ولم أعشَقْ أيضًا.

فصاحَ الواعِظُ بغضَبٍ وصَخَبٍ، وأخرجَ صَرْخةً مِن أَعماقِ قَلْبِه رَجَّ صَداها قناديلَ المسجد، وأنشَد:

صاحَ قائلًا: يا صاحِبَ الحِمار

هَيّا، وجدتُّ حِمارَكَ، فهاتِ الزّمام

أيمكِنُ أن لا يعرِفَ الإنسانُ العِشْقَ؟ - أنا هنا أتحدّثُ عن معشوقٍ ومحبوبٍ خالدٍ، سَترجِعُ إليه في النّهاية.. نَعَمْ، في الأَبَديّة. الإنسانُ العاشِقُ يَرَى في مِرْآةِ الأَبَديّة الشّفّافة مظاهرَ الوجود جيّدًا، ولا يوجَدُ في قَلْب العاشق سِوى المعشوق[١]. مصدرُ

١ـ يقولُ سَعْديّ:

=

مظاهرِ الوجودِ جميعًا هو العِشْقُ، وقَلْبُ العاشِقِ خِلْوٌ مِن الكِبْر والتّباهي والتفاخُر، وسَعتُه قادرةٌ [٩٦] على استيعابِ الدّنيا. وبناءً على هذا الأَصْل كان أبو يزيدَ البِسْطاميّ يزعُمُ ويقولُ في شأن سَعةِ قَلْبه: لَوْ أنّ العَرْشَ وما فيه مَرَّ في زاوية القَلْب العاشِقِ لَما كان للعارف عِلْمٌ به. وما ذلكَ إلّا لِأَنّ السِّباحةَ في بَحْرِ «نَفْي الذّات» أَبرزُ خَواصّ العِشْق، ووَجْهُ امتيازه. ولِلْعِشْق رَأْسٌ عنيدٌ معَ العَقْل، ويمشي فوقَ قِمّة الجَبْر والاختيار بشجاعةٍ. ويَدُ التّقديسِ والإخلاصِ تَقْرعُ بابَ العَرْش، وتَسْمعُ الصّوتَ الإلهيّ بكليّة الوجود، وفَرْدانيّةُ القَلْبِ لا تطمئنّ إلّا بِوَحْدانيّة الحقّ، سُبْحانَه. كُلُّ صاحِبِ قَلْبٍ يعرِفُ شَمْسًا، ويطّلِعُ على مُناجاة خُلودِ شَمْسِ العِشْق. وأنا وشَمْسٌ مِن أبطالِ عالَم العِشْق[1]. ويوجَدُ في مَقامِ عبادِ الله تعالى في العِشْق والفُتونِ أبطالٌ عُظَماءُ لا يرَونَ نهايةَ

= كلّما فكّرتُ فيه غِبْتُ عن نفسي وبوجودِه، لا يأتي منّي صَوتٌ أقولُ به: أنا
أمزّقُ القَميصَ كلَّ لَحظةٍ مِن غايةِ الشّوق فقد صار وجودي كلُّه هو، وأنا هذا القَميص

١ ـ لِكَي يطّلعَ القُرّاءُ على مُجازفة شَمْسٍ وبطولته في دُنيا العِرْفان، أنقلُ هنا قِسْمًا من اعترافاته مِن كتاب «**مقالات شَمْس**»:

«معَ جُنوني هذا كلّه، غَلَبتُ عُقَلاءَ كثيرين؛ .. ومعَ غَفْلتي هذه كلّها، جعَلْتُ المتنبّهينَ واليقِظينَ تحْتَ إبطي. كان في داخلي بِشارةٌ، كأنّني أطير، على الأرض، أو لا أكونُ؟! قلْتُ لجماعةٍ مِن المسْلِمينَ ظاهرًا، الكافرينَ باطنًا: ائتوا بشيءٍ لكي آكُل، فأتوا بطعامٍ شاكرينَ مزيدَ شُكْر، وأفطروا معي وشَربوا، وعلى هذا النحو كانوا صائمينَ».

«رأيتُ كثيرًا مِن الدّراويش الأعزّاء، وظفِرتُ بخدمتهم، وعُرِفَ الفَرْقُ بين الصّادق والكاذب، مِن ناحية القَوْل ومن ناحية العَمَل، لِكَي لا يكونَ معجَبًا كثيرًا بنفسه ومختارًا. وقَلْبُ هذا الضّعيفِ لا يَحُطّ في أيّ مكان، وهذا الطائرُ لا يلتقطُ كلَّ حبّة».

«لو أنّ رُبُعَ البسيطةِ المسكونَ كلّه في وِجهةٍ، وأنا في وِجْهةٍ أخرى، لَأعطَيْتُ إجابةً لكلّ سؤالٍ يقدّمونه، ولَما فررْتُ مِن القَول. وأنا أؤاخِذُ الشّيخَ لا المُريدَ، ثمّ لا أيّ شيخٍ، بل الشّيخ الكامل. لا شأنَ لي في هذه الدّنيا بالعَوامّ، لم آتِ مِن أَجْلهم، أتفحّصُ أولئكَ الذين هم مرشِدُو العالَم بحقّ».

«إنّه مِن بَرَكات مَوْلانا جَلالِ الدّين، كُلُّ مَن يسمعُ منّي كلمةً».

«أنا ذلكُمُ الطائرُ الصّغيرُ الذي قِيلَ إنّه يتعلّق بكلّ ذي قدَمَين؛ نعَمْ، أتعلّقُ، لكنّني أتعلّقُ بشَرَك المحبوب». =

العِشْق عَدَمًا ومَوْتًا(١). ووَفْقًا لِقَول أبي يزيدَ البِسْطاميّ: العِشْقُ قَبولٌ لِلْمَوتِ مِن طَريق الشّهادة. ولذلكَ، أنا وشَمْسٌ عاشِقٌ ومعشوقٌ نتخطّى بِمَدَد قُدْرةِ العِشْق السِّحْريّة النّيرانَ والمهالكَ والانتقاداتِ والتّقريعات، لِكَي نُحدِّدَ لِلْمُدَّعينَ حقيقةَ مفهومِ العِشْق بِمَعْناه المطْلَق.

= «كلّما أَظْهرْتُ نفسي انزعجْتُ.. لا أستطيع، .. لابدّ لي مِن أن أعيشَ هكذا».

١ ـ يعتقدُ گوته، الشّاعرُ والكاتبُ الألمانيّ، أنّ إبليسَ يتضايقُ مِن العِشْق، الذي هو كمالُ الإنسانيّة، لكنّه يواجِهُه في كلّ مكان ويراه؛ أساسُ الخَلْق مرتكزٌ على العشق».

ـ علَى شَفتِه قُفْلٌ وفي قَلْبِه أَسْرار
الشّفَةُ صامتةٌ والقَلْبُ مفعمٌ بالأَصْوات
ـ فالعارفونَ الذينَ احتسَوا جامَ الحقّ
عرَفُوا الأَسْرارَ، وأَسْدَلوا علَيها الأستار
(المثْنَويّ، ٥/٢٢٤٠ ـ ٤١)

عِلْمُ الحال...!

[٩٧] ههنا أَخْتِمُ كَلامي باقتباسِ قَولٍ لإمامِ أَهْلِ التشيُّع، الإمامِ الصّادق، عليه السّلام. فقد رَوَى عن حَضْرة الرّسولِ الأكْرَم، علَيه الصّلاةُ والسّلام، أنّ حضْرةَ عيسى ابنَ مَرْيَم نهضَ بينَ بني إسرائيلَ وقالَ: أي بَني إِسْرائيلَ، لا تُفشُوا أَسْرارَ الحِكْمةِ للجاهلين، فإنْ بيّنتُم هذا النّوعَ مِن الفِكَر والمطالِب لهؤلاء فلاشكّ في أنّكم قد ظلَمْتُموه ظُلْمًا كبيرًا. وبالمقابِلِ، لا تمنعُوا أَسْرارَ الحِكْمة عنِ المحبّينَ لها والمشتاقينَ إليها، فإنّ فعَلْتُم ذلكَ فقد ظَلَمتُموهم حَقًّا. وتابعَ الإمامُ الصّادِقُ، عليه السّلامُ، القولَ إنّني أختزِنُ في صَدْري أَسْرارًا مِن الحِكْمة والعِلْم، وأحاولُ أن لا أُفشيَ شيئًا منها لِكَي لا يطّلعَ عليها الجُهّالُ والمتعصّبون العُمْيُ البصائر. هذه الجواهرُ النّفيسةُ سأُحافظُ عليها دائمًا، فإنّني لو بذلتُها لَقالَ مُبصِرُو الظّاهر: إنّك مِن صِنْفِ عُبّادِ الأَصْنام.

يا أهلَ قُونِيَةَ، لو ذكَرْتُ شيئًا أكثَرَ مِن هذا مِن أَسْرارِ العِشْق وأَسْرارِ شَمْسٍ لاسْتَحَلّ[1] نَفَرٌ مِن الجُهّالِ سَفْكَ دَمي ودَمِ شَمْسٍ، يقينًا، ولصَبغُوا تُرابَ قُونِيةَ بدَمِ العُشّاق.

[٩٨] أمّا جَلالُ الدّين، ابنُ سُلْطانِ العُلَماءِ بهاءِ الدّين وَلَد، فلا يخشَى الموتَ، لا

---

١ ـ إنّ في حاناتِ قلبي فِكَرًا كثيرةً وقد ترنّحتُ كالسُّكارى، يا بُنَي
(ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ١٠٩٩)

يخافُ زَجْرَ الجُهّال واستخفافَهم وأذاهم وتُهمَهم وسُخْريتَهم، وإنّ عاشِقَ الحقّ والحقيقةِ لابدّ من أن يكون مَدّاحًا لِلْعِشْق.

لدَيَّ قِصّةٌ عن بلالٍ الحَبَشيّ أَرْويها لكُم:

تعْلَمونَ أنّ بِلالًا الحَبَشيَّ كانَ عَبْدًا، وقد وَرِثَ عن أَسْلافِه الألَمَ والغَمَ والتشرّدَ والتشتّتَ والمَذلّة. وقد صارَ هو وآباؤه ضَحايا مَطامِع النّخّاسينَ التجّارِ القسُاةِ القلوب. لكنّ كُلَّ الآلامِ والعذاباتِ النفسيّة والجسَديّة لم تُطفِئ ظمَأَ طَلَبِ الحقّ، والشّوقِ إلى الحقّ في قَلْب بِلال. لكنّه كان لِبِلالٍ سَيّدٌ سَفّاكُ دِماءٍ وقاتِلٌ، وكان دائمًا يضْرِبُه بِعَصًا شائكةٍ قائلًا: لماذا أنتَ دائمًا منشغِلٌ بذِكْرِ اللهِ الواحِد ومحمّدٍ [عليه الصّلاةُ والسّلام]، لماذا أنتَ عاشقٌ لهما؟ وكان يصْرُخُ: أيُّها العَبْدُ القَبيحُ السَّيِّئُ السِّيما الأسودُ، لَعلّكَ منكرٌ لِدِيني؟ ولكنْ معَ أنّ بِلالًا صار أسيرًا لِشَيطانيٍّ متعصّبٍ كافرٍ، ظَلّ مِن دون اهتمامٍ بِضُروب الأذَى والسِّباب التي يَلْقاها مِن سَيِّده يردّدُ: أَحَدْ، أَحَدْ، وكان يعتقدُ أنّ الخالقَ أساسُ وجودِ كلّ مَخْلوقاتِ مملَكةِ الأبديّة وعالَمِ الإمكان. وفي يومٍ مِن الأيّام شاهدَ أَحَدُ صَحابةِ حَضْرةِ الرّسول، عليه الصّلاةُ والسّلام، السيّدَ السفّاكَ يضْرِبُ بِلالًا بوَحْشيّة، فلم يجِدْ بُدًّا مِن أن يقابِلَ بِلالًا العاشقَ في خَلْوةٍ، وأن يوصيَه بِأنّه نظَرًا إلى أنّ اللهَ سُبحانَه عالِمٌ بالأَسْرارِ فَمِنَ المصْلَحة له أَنْ يَذكُرَ اللهَ في قَلْبه سِرًّا حتّى يخفيَ إيمانَه واعتقادَه عن المنكِرين، ولا يُظهِرَ مِن دُونِ سَببٍ مُوجِباتِ عذابِ جَسَده ورُوحه. وقد قبِلَ بِلالٌ في الظّاهر، لكنّ ذِكْرَ اسْمِ الله وحْدَه هو الذي كان يُذْهِبُ انزعاجَه الرّوحيّ. وبعْدَ عدّة أيّامٍ مرّ صاحِبُ النّبيّ [عليه الصّلاةُ والسّلام] قريبًا مِن دار بِلال، فَسَمِعَ مرّةً أُخْرى نِداءَ: أَحَدْ، أَحَدْ، وعُقْبَ ذلكَ أصْداءَ ضَرَباتِ العِصِيّ، فاضطُرّ إلى التوقّفِ،

وطَلَبِ حُضورِ بِلال. وعندَما لَقِيه طلَبَ منه أن لا يضَعَ رُوحَه وحياتَه مِن دُون طائلٍ في تصرُّفِ سيّدٍ ظالم وعابدٍ لِلْأَصْنام، لِكي يجرحَه بِعَصاه الخشبيّةِ الشائكة، وأنّه خَيرٌ له أن يصمُتَ؛ فالذّكْرُ القَلْبيّ خَيرٌ مِن الذِّكْر اللّسانيّ.

تابَ بِلالٌ، لكنّه بِسببِ ظَمَئه الذي لا يرتوي اضطُرّ إلى أن يتنقّلَ في فَضاءات السّماء التماسًا لِعِلاجِ آلامِ رُوحِه. كان يعْرِضُ أوجاعَه وآلامَه على الله، هذا المُواسي والمُعَزّي العظيم. كان بِلالٌ عاشِقًا لِلْحَقّ تعالى، وقد تابَ مِرارًا عن أَنْ يَذكُرَ بِلِسانه اسْمَ «الأحَدِ» أمامَ سيّده الكافرِ العابدِ للأصنام، لكنّ العِشْقَ لِلْحَقيقة، العِشْقَ [٩٩] لله ظلّ يَضطَرُّ بِلالًا إلى أن يتضايقَ مِن التّوبة، وفي النّهاية يعْلِنَ إِسْلامَه مُباهِيًا، ويقولَ لِسَيّده: أَرى الحياةَ كلّها في أَنوارِ الحقّ؛ ذلكَ لِأَنّ رُوحي في هذا الملاذ الذي يستريحُ فيه سالِكُ طريقِ العِشْق:

ـ وأَعْلَنَ اعتقادَه، وأَسْلَمَ جَسَده لِلْبَلاء

صائحًا: يا محمّدُ، يا عَدُوَّ التّوبات

ـ يا مَنْ جَسَدي وعروقي مملوءةٌ مِنْك

أينَ المكانُ الذي يتّسِعُ لِلتّوبة فيه بعْدَ ذلك؟

ـ إنّني ممتلئٌ بالقَشّ أَمامَكَ، أيّها الإعْصارُ،

فمِنْ أينَ لي أَنْ أَعْلَمَ أَينَ سأَسْقُط(١)

وهذا عَينُ بِلالٍ الذي، في شُعاعِ العِشْق، يَصِلُ إلى منزِلةٍ يتحدّثُ عنها ابنُ عبّاسٍ، حينَ يذكُرُ أنّه في اللّيلة التي كان فيها النّبيُّ الأكرَمُ [عليه الصّلاةُ والسّلام] بِمَدَد شُعاعِ الحقيقة الجذّاب يَطْوي طَريق السّماءِ ويُعْرَجُ به فيها، كان يَسْمَعُ في السّماواتِ صَوْتَ

---

١ ـ المثنوي، ٦/٩٠٤ ـ ٩٠٥، ٩٠٨.

أَذانٍ محبَّبًا، فسأَلَ جِبْريلَ: هذا الصّوتُ، صَوتُ مَنْ ؟ ـ فأجابه جِبريلُ: هذا صَوتُ بِلالٍ المؤذِّن. بِلالٌ الذي نَوّرَ شُعاعُ العِشْق اللّطيفُ وأنوارُه المُبْهِرةُ داخليّةَ صَدْره المَكْلوم. كان أَذانُ بِلالٍ مملوءًا بالجَذْبِ والوَجْدِ والحُرَق والأَحْوال، وكان يبعَثُ في السّامِعِ هِياجًا رُوحيًّا وقَلْبيًّا. وقد غَرِقَ قَلْبي، قَلْبُ جَلالِ الدّين، مِن ضِياءِ عِشْقِ شَمْسٍ في الهيَجانِ والاشتياقِ والثّورة، وعندَما أذكُرُ اسْمَه على لِساني أُحِسّ في نفسي هَيَجانًا مفاجئًا. أَعْطاني ـ حَقيقةً أو تقديرًا ـ هذا الضّوءَ العظيمَ، الذي يكشِفُ لي دائمًا خَفايا الكائنات وأَسْرارَها، إنّه نُورٌ لا ينطفئُ أبدًا. وقد كانَتِ الدّنيا دائمًا كانونَ نارٍ متّقدةٍ لِلْعِشْق الخالد، والآنَ أيضًا هي كذلكَ، وستظَلُّ هكذا ما بقيَ الدّهرُ والعالَمُ والأفلاكُ، سيظلُّ موجودًا دائمًا. ووَفْقًا لِما يقولُ والدي العظيمُ بَهاءُ الدّين: إذا آنسْتَ في نفسِكَ مَيْلًا ورَغْبةً بالحقائق، أو بالصّفاتِ الإلهيّة، فاعلَمْ يقينًا أنّ هذا مُرادُ الله، وإنْ كان مَيْلُك إلى الجنّةِ وفي طلَبِ الجنّة فإنّ ذلكَ المَيْلَ إلى الجنّة هو الذي يطْلبُكَ، وإذا كان لَدَيكَ مَيلٌ إلى إنسانٍ فإنّ ذلكَ الإنسانَ أيضًا يطلُبُكَ، فإنّ اليَدَ الواحِدةَ لا تُصفِّق.

ومَهْما يكُنْ، فإنّكم ـ مَعْشَرَ الناسِ الذين جَلَستُم هنا ـ جئتُم مِن عالَم الغَيب، مِن وَراء سِتار السِّرّ، إلى هذه الناحية، ويقينًا لا تعلمونَ كَيفَ جئتُم، ومَرّةً أُخرى حِينَ تتركونَ هذه القُبّةَ السّماويّة لا تعلمونَ كَيفَ تقطعونَ هذه الرّحلة. أمّا أنا فأقولُ لكم: ابحَثُوا عن سِرّ المجيء، وأَسْرارِ الذَّهاب مِن هذه الدّنيا الفانية، في العِشْق، وهذا السِّرُّ لا يُكشَفُ أو يُعْرَفُ بعِلْم القالِ ومُطالَعة الكُتُب والرّسائل. لابدّ مِن تعلُّمِ عِلْمِ الحالِ، وعِلْمُ الحال يُحاطُ به حَصْرًا في السَّيْر والسّلوك. ينجُو [١٠٠] الرّوحُ مِن ضيق الجسَدِ ورَيْنِ القَلْب عندَما يطيرُ في الفَضاء الطّاهر مِن الأَدْناس، الذي هو مركزُ المسَرّات والأَفْراح:

صَفِّ نَفْسَكَ مِن صِفاتِ الإحْساسِ بالذّات
لكَيْ تَرَى ذاتَكَ الطّاهرةَ الصّافية[١]

نهضَ أَحَدُ الحاضرينَ في المجلس مِن مَكانه، فقطَعَ كلامَ مَوْلانا وقالَ:

ـ يا مَوْلانا، قُلْ لنا: مِن أينَ تعلّمْتَ عِلْمَ الحال؟ فسَمِع هذه الإجابةَ:

ـ في مَدْرسة السيّد بُرْهان الدّين محقِّق التِّرمِذيّ، فبِأَمْرٍ مِنه أمضَيتُ ثلاثَ خَلَوات، وعلَى امتدادِ تِسْعةِ أَعْوامٍ كُنتُ مُصاحِبًا له ومُلازِمًا، وبِتكْليفٍ مِنه يَمّمْتُ شَطْرَ حَلَبَ ودِمَشْقَ. وعندَما اكتملَ بَرنامجُ رِياضَتي وسَيْري وسِياحتي، عانقَني أستاذي ومُرْشِدي السّيِّدُ بُرْهانُ الدّين، وقالَ: أَيْ وَلَدي، كُنتَ فيما مضَى فَريدًا في العُلومِ العَقْليّة والنّقْليّة والكَشْفيّة، وستكونُ الآنَ أيضًا ممّن يُشارُ إليهم بالبَنان في أَسْرار الباطِن والمكاشَفات الرّوحيّة. ومعَ أنّه مأذونٌ لي بِأَنْ أنشغِلَ بمُساعدةِ الضّائعينَ في طَريق الضّلال وهِدايتهم ظَلَّ نِداءٌ داخليٌّ يُبَشِّرُني بِأنّني فِعْليًّا في انتظارِ إمامٍ وقُطْبٍ ومُرْشِدٍ آخَرَ. انتظَرْتُ لخَمْسةِ أعوامٍ، وفي هذه الأَعْوامِ الخَمْسة انشغَلْتُ بتدريسِ الفِقْه والأُصول، وتعلَمونَ أنتُم أنّه في كُلِّ يومٍ كان يحضُرُ في حَلْقة دَرْسي أَرْبعُ مئةِ شَخْصٍ مِن المهتمّينَ بِالعُلوم الدّينية وطُلّابِ العِلْم فيها. ولكنّني كُنتُ في انتظارِ أن تَبْزُغَ في سَماء قُونيةَ شَمْسُ الحقيقةِ والعِرْفان. وعندَما وقَعَ شُعاعُ شَمْسٍ على ذَرّاتِ وُجودي غيّرَ منهجي وسُلوكي[٢]. وقد رَأيتُم أنتُم شَمْسًا في الظّلام، أمّا شَمْسٌ ـ على الحقيقة ـ فهو مِن أُسْرة إيرانيّة عريقة،

---

١ ـ المثْنَوي، ٣٤٧٤/١.

٢ ـ لِأَنّ الحبيبَ عِنْدي هكذا إلى يوم الحِساب / أَظَلُّ متعطِّلًا وثَمِلًا، وهذا هو عَمَلي
وقد رأَتِ الوَرْدةُ ذاتُ المئةِ بَتَلةٍ وَجْهَه الجميلَ / فقالتْ لِلْبُلْبُل: رَوْضُ الأَزهارِ هو هذا
(ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ٣٤٢)

ويعْلَمُ شَعْبُ إيرانَ أنّه شَمْسُ الدّين مُحمّدُ بنُ عليّ بنِ مُلْك داد. وكانَتْ أُسْرتُه مِن أهل تَبْريزَ، وله ارتباطٌ مِن جِهة النّسب بـ«بُزُرگ أُميد» الذي تَولّى في المدّة بين ٦٠٧ و ٦١٨هـ الحُكْمَ في قَلْعة أَلَمُوتَ. نَعْم، هو مِن إسماعيليّةِ أَلَموت[١]. إنّه رَجُلٌ عظيمُ القَدْر، وقد رَأَتْ عَيناه النّورَ عندما أَحاطَ الإعْصارُ الرّهيبُ ببُلْدانِ إيران، ونَما وترعرعَ عندما هَبَّ إعصارُ الظُّلْم والنّفاق والتعصّب على جزءٍ مِن إيران وتَبْريز. وقبْلَ أن يُكْمِلَ سِنَّ العاشرة أظْهَرَ نُبوغَه لمعلّميه وأصدقائه. إنّ شَمْسًا مفكِّرٌ كبير. وقد عاش زَمَنًا مديدًا معَ كلّ الآمالِ والرّغائب والهيَجانات النفسيّة، ثمّ تركَ ذلكَ [١٠١] واتّجهَ نَحْوَ الأَبْدالِ والأَوتادِ والأَقطاب في زَمانه، إلى أن صار في الوِلايةِ والكَشْف القَلْبي فريدَ أَوانه. وقد صحبتُه في طَريق العِرْفان فكُنتُ أَسيرُ وراءَه كالظّلّ، وهو يتقدّمُ مُتبخترًا، إلى أن جعَلَني لا أَرى في الآفاق جميعًا إلّا شَمْسًا[٢].

---

١ ـ حُكْمُ المؤلّفِ هذا متسرّعٌ كثيرًا. وقد أنكرَ بعضُ الباحثين المحقّقين ذلك، ومنهم الأستاذةُ المرحومةُ أنّيماري شيمل [المترجم].

٢ ـ لِكَي نطّلعَ على القُدرة الباطنيّة العظيمة عندَ شَمْسٍ، ونعرفَ جيّدًا هذا الرّجلَ الاستثنائيّ الذي أثار في مولانا هِياجًا عظيمًا، مِن الأَفضَلِ لنا أن ننقُلَ مِن مَثْنوِيّ «وَلَدْنامه» لابن مولانا، سُلْطان وَلَد، التقاءَ هذَين الرّجُلَين الكبيرَين في عالَم العِرفان، ونثبتَه هنا:

قصْدي مِن الحكيمِ مولانا	ذلكَ الرّجُلُ الذي لا نظيرَ له ولا مَثيل
المُفْتونَ المختارونَ تلاميذُه	وقد اصطفّوا جميعًا حولَه متعلّقينَ به مِن أعماقِ قلوبهم
كُلُّ مُريدٍ من مُريديه أعظَمُ مِن أبي يزيد	وكُلٌّ منهم لَدَيه مِن الوَلَه ما يَعْدِل مئتي ضِعْفٍ مما عندَ ذي النُّون
ومَعَ مِثْلِ هذا العِزّ والقَدْرِ والفَضْل والكمال	كانَ دائمًا طالِبًا لِلْأَبْدالِ باحثًا عنهم
الخَضِرُ عنْدَه كان شَمْسًا التّبْريزيَّ	ذلك الذي إذا اختلَطتَ به
لَمْ تشترِ أَحَدًا بحَبّة شَعيرٍ	ومزّقْتَ حُجُبَ الظّلام
ثمّ بعْدَ انتظارٍ طويل، رأى مُحيّاه	فصارتِ الأَسْرارُ عندَه واضحةً كالنّهار
رَأَى ما لا يمكنُ أن يُرى	كما سَمِعَ ما لَمْ يَسْمعْه إنسانٌ مِن إنسان

=

= وعَلَى حِينِ غِرّة وصَلَ إليه شَمْسُ الدّين فَفَنِيَ مِن ضيائه وصارَ نورُه ظِلًّا
قالَ لَهُ: معَ أنّكَ رَهينٌ لِلْباطِن أنا باطِنُ الباطِنِ، فاسْمَعْ هذا:
العِشقُ في طريقي كان حِجابًا العِشْقُ حَيٌّ، وهو عندي مَيْتٌ
دَعاهُ إلى عالَم عجيب لَمْ يَرَه في المَنامِ لا التُّركُ ولا العَرَب
صارَ الشّيخُ الأُستاذ تلميذًا صغيرًا يقرَأ الدروسَ، كالأطفال، في كلّ يوم
كانَ مُنتَهيًا، فصارَ مُبتَدِئًا كان مُقْتَدًى، فصارَ مُقْتَدِيًا
ومعَ أنّه كانَ كامِلًا في عِلْم الفَقْر كانَ عِلْمًا جديدًا ذلكَ الذي أظهَرَه لَه
إمامُه كان شَمْسًا التّبْريزيّ ذلكَ الذي كان سَفْكُ الدّمِ طَبْعًا لَه

ـ تُرِيدُ أن يَثُورَ العالَمُ بعضُه على بعض، مِثْلَ طُرّتِكَ
وأن يكونَ لِلَيالِي العِشْق اعوجاجٌ وتجعيدٌ مِن ذُؤابتِكَ
ـ أظهِرْ كأسَكَ المُظْهِرةَ لِلْعالَم، لِكَي يَرَى العِراقيُّ
في خَدِّك طَلْعةَ كُلّ حَسْناء وذاتِ بَهاءِ

فخرُ الدّين العِراقيّ

أَسْطُرْلابُ(*) الأَسْرار

ورَدْنا الحِمَى المغناطيسيَّ لِلْعِشْقِ باشتياق، وأنا مِن مَحَلّةِ الوَحْدة والهيَجانِ والعِرْفان هذه في هذا الوَقْت أرى عُبورَ قافِلةِ شَمْسٍ الجليلة العظيمة في الأزقّة الضّيقة لِأَطْراف قُونِيةَ، ومِن هنا أُحِسُّ أيضًا في نظَراتِه المضطَربة بِلَوعةِ الفِراق والهَجْر. نظَراتُه المضطَرِبةُ تتحدّثُ عن إِعْصارٍ مِن الحادثات، أو تُبيِّنُ أنّه سينأى عَنِّي وعن قُونِيةَ سريعًا. نظَراتُه مُثْقَلةٌ بالحسَرَات والآهات. لَسْتُ أدري مرّةً أخرى: أيّةُ داهيةٍ، أيّةُ واقعةٍ خَطيرة، ستَحْدُثُ له في قُونِيَةَ. تذكّروا أنّ جَلالَ الدّين اليومَ قالَ: إنّ سِيما شَمْسِ العِشْق ونظَراتِه المشتَّتَةَ تلوّحُ مِن بعيدٍ إلى طُوفانِ وَدَاعه ورَحِيله النّهائيّ عن قُونِيةَ، وإنّ سَحابًا أُرْجُوانيًّا يتحرّكُ فوق رُكْبانِ القافلة.

وفي هذه اللّحَظاتِ، عَلَيَّ أن أعترفَ لكم، يا أهلَ قُونِيةَ، بأنّني نادِمٌ على دَعْوتي شَمْسًا بإِصْرارٍ مِنكم وإلحاحٍ إلى المجيء إلى هنا؛ ذلكَ لأَنّ قَلْبي يحدِّثُني عن وقوعِ طوفانٍ هائلٍ وفاجِعةٍ وحادثٍ دامٍ. يأتي شَمْسٌ ممتطِيًا جَوادًا، لكنّه غارقٌ في الفِكَر. لَيتَه يكونُ في جَمْعِكم، أيّها الحاضرونَ، قَلْبٌ يفهَمُ لُغةَ رُوحي، ويَسْمَعُ صوتَ قَلْبي، ويبيِّنُ

---

* ـ آلةُ رَصْدٍ قديمةٌ لِقِياس مواقعِ الكواكب وساعاتِ اللّيل والنّهار، وحَلّ المشكلات الفلَكيّة [المترجم عن: المنجد في اللّغة والأعلام].

لي: لِمَاذا تَبدو نَظَراتُ شَمْسٍ نظَراتِ شخصٍ مُحتضَر؟ هو بِفَيضِ الشَّمْسِ العالية كوكَبُ عِرفانٍ، وكأسٌ مُظْهِرةٌ لِلْعالَم، وتُرابُ طريق! وهو مُشَوِّقي ومحرِّكي لِقَول الشّعر. هو الذي [١٠٣] غيّرَني بِكَلامه، وأَشْعلَني. هذه الشُّعْلةُ المُحْرِقةُ هي للرّوح، شُعلةُ العِشْق لِلْحياةِ ولِلْبشَريّة ولِلْكائنات.

إخوتي الأعزّاء، إنّ شَمْسًا عارِفٌ حُرٌّ، وفي السَّيرِ والسّلوك قطَعَ مدارجَ ومَقاماتٍ، هو يومُ القيامة المفاجئ، والرّحمةُ التي لا نهايةَ لها، فإذا كُنتُ أنا ثَمِلًا أو صاحِيًا فإنّني في ذِكْراه. نَعَمْ، أنا متحيّرٌ مندَهِشٌ مِن لقائه.

وقفَ أحَدُ الحاضرينَ فقالَ:

ـ إنّ أهْلَ قُونِيةَ يقولونَ لِمَوْلانا إنّهم يستقبلونَ ضيفَه الكبير بِسُرورٍ ورِضا خاطِرٍ، ونحنُ نُكْرِمُ قُدومَ شَمْسٍ مِن أَجْلِ سُرور مَوْلانا. ومطلَبُنا أَنْ لا تسمَحَ لِليأس والقُنوط أن ينفُذَ إلى وجودك. لاشكّ في أنّه لَنْ يكونَ هناك شَيءٌ مُزْعِجٌ. وما دامَ شَمْسٌ في قُونِيةَ سَيعيشُ باحترامٍ وإكرامٍ وإجلال. ومتَى ذهَبَ مِن هنا ترَكَ قُونِيةَ مصحوبًا بذِكْرياتٍ طيّبة. ورَجاؤنا هو أن لا تكونَ منشَغِلَ البالِ.

سألَ آخَر: كيفَ يكونُ في مُسْتطاعِكَ أن تَرى مِن هنا قافلةَ شَمْسٍ، مِن هذه المَسافة البعيدة؟ ـ كيفَ يكونُ ممكنًا أن تَرَى وَجْهَهُ المشوَّشَ المُجْهَدَ هكذا مِن بعيد؟ هَلْ هناك اعتقادٌ وتَصْديقٌ بذلكَ؟ هَلْ يسْمَحُ مَوْلانا لِكُتلةِ خَيالٍ مُبْهَمٍ وزائفٍ أن تغزوَ وجودَه، أو تشكَّ بإكرامِ أهْلِ قُونِيةَ للضّيف مُقَدَّمًا؟. نقولُ: إنّنا سنُحْسِنُ ضيافةَ شَمْسٍ. وإنّ أهْلَ قُونِيةَ لدَيهم حاجاتٌ رُوحيّةٌ مَعْنَويّة إلى نَجْلِ سُلْطان العُلَماء، فَقيهِ المدينة الكبير (*)،

*ـ أي: مَوْلانا جَلال الدّين.

ويرغبونَ في أن يستمرّ مجلِسُ دَرْسِ مَوْلانا وبَحْثِه وإرشاده مِن دون تأخير. وأَبناؤنا ينتظرونَ مشتاقينَ عودتَكم إلى مَجالسِ الدَّرْس المفعَمة بالفُيوضات.

فما كانَ مِن مَوْلانا، الذي بَدَا في حالٍ مِن الإجهادِ والكآبة وكانَتِ الكَلِماتُ تخرُجُ بصُعوبة مِن بَينِ شفتَيه، وكانَ يسْمَعُ الأَصْداءَ المناسِبةَ لِآهاته التي كانت تنبعثُ مِن قَلْبه المتألِّم، إلّا أن يواصِل القولَ:

الإنسانُ الذي يتحدّثُ عن العِشْقِ وأَسْرار العِشْق بِقَلْب مفعَمٍ بالشّوق، هنا، لَيْسَ غارِقًا في حُلُمٍ كاذبٍ يقينًا، بل يتحدّثُ بوجودٍ تامٍّ وصَحْوٍ كاملٍ، ويَعْلَمُ أنّ حوادِثَ داميةً ستقعُ في قُونِيةَ. لم أَشأْ أن أصُوِّرَ مِن عِندي ملامحَ غيرَ التي تَرونَها. لكنّني يجِبُ أن أتحدّث مِن أَجْلِ تلكَ الجماعةِ مِن النّاس الذينَ جلَسوا هنا، [١٠٤] ويعتقدون أنّني نَجِيٌّ لِخَيالي، وأنسِجُ مِن الخيال، كما يقالُ، وعاشقٌ لِفِكَري. أنا شاهينٌ مُحلِّقٌ، في لَحْظةٍ واحِدةٍ وبمُساعدةِ شَمْسِ التّبْريزيّ وإرشاده طِرْتُ مِن صُفّةِ الطّريقةِ إلى قُبّة الحقيقة، وكَلامي مِعْراجٌ لِلْحقائق، ونغَمٌ سَماويٌّ منعِشٌ للرّوح، وأَسْطُرلابُ لِأَسْرار الحقّ. فقد أَمْسكَ بيدي وحَلّقَ بي إلى مكانٍ أستطيع فيه أنْ أُدرِكَ أَعْلى دَرَجات الرّوحانيّة[1]؛ ومِن هنا أَرى في الضّياء الباهِتِ لِسَقْفِ هذا الخانِقاه الغُروبَ الدَّمَويّ لِشَمْس الحقيقة في قُونِيةَ. ومَعَ كُلّ الإزعاجاتِ والصّعوبات التي رأيتُها في الحياة، أُباهي وأُفاخِرُ الآنَ بِأَنّ قَلْبيَ المنكَسِرَ مَهْبِطُ الأَنوارِ الإلهيّة، مَحَطُّ الجَلَبة السّماويّة:

١ـ مَنْ غَيرُكَ خَليفةُ اللهِ؟ قُلْ، في زَماننا؟ يَسْجُدُ لكَ المَلَكُ عندَما يصِلُ المَلَكُ مِن السّماء
أنا مَن اشْتَراه هُوَ، وأنا مَنْ فضَحَه هُوَ ومنْهُ يَصِلُ لُطْفٌ يتخلّلُ ذَرّاتِ كياني في كُلّ الأوقات
(ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ٥٤٩)

هـــذا الكَـــلامُ سُـــلَّمٌ إلـــى الـــسَّماء

وكـلُّ مَـنْ يـدخلُ مِـن هـذا البـاب يـصِلُ إلـى

ويَـــأتي مِنـــه لَحْـــــنٌ لِـــسَقْفِ الفَلَـــك

فيكـــونُ دَورانُـــه دائمًـــا مِـــن ذلـــكَ الهَـــواء

إنَّ قَلْبي يسْمَعُ بوضوحٍ، ومِن دُون أيّة ذَرّةٍ مِن نُقْصان الثّقة، صدَى الفِراقِ المشؤومَ. أيّها النّاسُ، تستطيعونَ جميعًا أن تَطّلعوا على الأَسْرار التي أَحاطَتْ بالطّبيعة كالهالَة التي تُحيط بالقَمَر. الناسُ جَميعًا قادرونَ عَلَى أن يَسْمَعوا الأنغامَ السَّماويّة. الكَلامُ السّماويّ هو تَرْكيبٌ موزونٌ وملَكوتيّ لِلْعِشْق. هناك نَشيدٌ مقدَّسٌ أَسْمعُه أنا جيّدًا. ومِن أَجْل سَماعِ هذا الصّوتِ المشوِّق، لابدّ للإنسان في الحياة مِن أن يودّعَ الحياةَ قبْلَ خَمسةِ أيّامٍ مِن وُصولِ نِداءِ الموت، فيَظْفَرَ بِولادةٍ ثانيةٍ وتحوّلٍ جديد، وأن يتخلّصَ مِن الجِسْمِ والرّوح، كما يقولُ الحَكيمُ سَنائي:

لا تَجعَـــلْ مَنْزِلَـــكَ في الجِـــسْمِ لِأَنّ هـــذا دُونٌ، وذلِـــكَ عَـــالٍ

وضَـعْ قَـدَمَكَ خـارجَ هـذَين الاثنَـين لا تكُـنْ هُنـا، ولا تكُـنْ هنالـكَ

وقد قالَ الإمامُ عَليٌّ، إمامُ الأَحْرار، علَيه السّلامُ: قبْلَ أَنْ تَموتوا، تحرّروا مِن قَيد الجِسْم بِالموت الاختياريّ. أنا أيضًا قُلْتُ لِشَمْسٍ: يا مولايَ، قبْلَ أن يَأمرَني الموتُ بالتّسليمِ وَدّعْتُ الحياةَ وتعلُّقاتِها، ودّعْتُ الحياةَ ومواهبَها، ولهذا أستطيعُ أن أسْمَعَ صوتَ الحقيقة اللّطيفَ المملوءَ بالجَلال. آخَرونَ أيضًا سَمِعوا واطّلعوا على حوادِثِ المستقبَل. أحَدُ هؤلاء [١٠٥] أبو يزيدَ البِسْطاميّ. فقد أخبرَ أبو يزيدَ

عن حالِ الشّيخ أبي الحسَن الخَرَقانيّ(*) قبْلَ أن يأتي إلى الوجود. فإنّه في يومٍ مِن الأيّام كان أبو يزيدَ يسيرُ مَعَ مُريدِيه نحْوَ الصّحْراء، فوقَفَ على حِين غِرّةٍ لِلَحْظةٍ في أحَدِ الأماكن، وبدا كأنّ رائحةً طيّبةً وصلَتْ إلى مَشامّه، حتّى غدا الفضاءُ على نَحْوٍ مفاجئ مملوءًا بالعِطْر. كان أبو يزيدَ عندَما يَعُبُّ نفَسَه يقولُ: إنّ مَلائكةَ الجَلالِ والجَمال في فَضاء هذه الصّحْراء يَحْرِقون في مَجامِرَ من ذَهَبٍ صَمْغَ الكُنْدُر، ويتحدّثون عن واقعةٍ مهمّة. كان أبو يزيدَ يشتمُّ الرّائحةَ الطّيّبةَ بِتلهُّفٍ. وبينَ النّظَراتِ الحائرةِ لِمُريديه، كان يستنشِقُ عَبيرًا جديدًا، وفي صَمْتِ الطّبيعة والفَضاءِ المفعَم بالعِطْر، كأنّ صَوْتًا كان يتحدّثُ معَ رُوح أبي يزيدَ. كان أبو يزيدَ في ذلكَ المكان، أي في أَطْرافِ خَرَقانَ القريبةِ مِن مدينة الرَّيّ، يتحدّثُ عن مولودٍ عَلِيِّ الشّأن. كان عِطْرُ كائنٍ، أو وجودٍ مُتَوارٍ في ذلكَ الوَقْت وراءَ سِتار الأَسْرار، يُسْكِرُ أبا يزيدَ، كأنّ الطّبيعةَ مَدّتْ بِساطًا مِن الرّائحة الطيّبة فوقَ الصّحراء، فما كان مِن الشّوقِ والجَذْب والإشْراق والشّهودِ في مُسترادِ رِيح الصَّبا إلّا أن تُفقِدَ أبا يزيدَ وَعْيَه. وعندما ظَهرَتْ آثارُ السُّكْرِ على أبي يزيدَ، سألَ أحَدُ المريدينَ:

ثُـــمّ ســــألَه: عـــن هـــذه الأَحْـــوالِ الطّيّبــــةِ

الخارجةِ على حِسابات الحواسِّ الخَمْسِ والجهاتِ السِّتّ

---

* ـ هو الشّيخُ أبو الحسَن عليُّ بن أحمدَ، وقد كان من كبار شيوخ الصّوفيّة، وتردّد على زاويته عُظَماءُ من أهل عصْره، كابنِ سينا وأبي سَعيد بنِ أبي الخَير وناصِر خُسرو، له كتاب «نُور العُلوم» في التّصوف باللّغة الفارسيّة. ويذكرُ ياقوت أنّ خَرَقانَ قريةٌ مِنْ قُرى بِسْطام على طريق أَسْتَراباذ، بها قبرُ أبي الحسَن عليّ بن أحمد، له كَراماتٌ، وقد ماتَ يومَ عاشوراء سنةَ ٤٢٥هـ عن ٧٣ سنة. وإذا صَحّ هذا لم يَصِحّ ما ذكرَه المؤلّفُ بعْدَ أسطرٍ قليلة من كَوْن خَرَقانَ المنسوبِ إليها الخَرَقانيُّ قريبةً من مدينة الرَّيّ القريبة جدًّا من موقع طهرانَ الحاليّة [المترجم].

إذْ يغـدُو وجْهُـكَ تـارةً أَحْمـرَ، وتـارةً أَصْـفرَ، وتـارةً أبيضَ

أيّــةُ أَحْــوالٍ هــذه، وأيّــةُ بَــشائرَ وذخــائر؟(١)

أجابَ أبو يزيدَ البِسْطاميّ، الذي هو إمامُ أَهْل الحالِ والشّيْخُ الكامِلُ: إنّ رائحةً مُسْكِرةً تَصِلُ إلى مَشامِّي تُشبِهُ تلكَ الرّائحةَ التي وَصَلَتْ مِن اليمَن إلى مَشامِّ النّبي [علَيه الصّلاةُ والسّلام]؛ فإنّه في تِلْكَ اللّحَظاتِ القُدْسيّةِ العَصِيّةِ على الوَصْف قالَ النّبيُّ [عليه الصّلاةُ والسّلام]: إنّ ريحَ الصَّبا تحْمِلُ إلى مَشامّي نَفَسًا رَحْمانيًّا أخّاذًا مِن ناحية اليَمَن:

إنّ عَبيـرَ رامِـينَ يَهُــبُّ مِـن رُوحِ «وَيْـس»،

ورائحـةَ الـرّحمنِ تَهُــبُّ أيـضًا مِـن ‹ أُوَيْـس›

وقد هَبَّ مِن «أُوَيْس» ومِن «قَرَن» أَرَجٌ عَجيب

جَعَلَ النّبـيَّ ثَمِـلًا، شـديدَ الانتشاءِ والطّرَب(٢)

وفي المسْتَقْبَلِ القريبِ جِدًّا، بعْدَ وَفاتي، سَيَمْشي في هذه الأَرْضِ رَجُلٌ يضَعُ على رَأسِه تاجَ العِرْفان، وفي الأَعْوامِ التي ستأتي سيكونُ الإمامَ والمُرْشِدَ والأُسْوةَ الحسَنةَ للخَلْق. اسْمُه أبو الحَسَن الخَرَقانيّ. وقد سَجّلَ المُريدونَ خبرَ وِلادةِ أبي الحَسَن الخَرَقانيّ واسْمَه. ولعلّ هؤلاءِ لم يصدّقوا أنّ البِسْطامِيَّ قادرٌ على أن يُخْبِرَ عن

---

١ ـ المثْنَوي، ١٨١٢/٤ ـ ١٣.

٢ ـ المثْنَوي، ١٨٢٩/٤ ـ ٣٠. وفي البيت الأوّل إشارةٌ إلى قِصّةِ حُبٍّ معروفة جيّدًا في الأدب الفارسيّ بينَ فتًى اسْمُه «وَيْس»، وفتاةٍ اسْمُها «رامين». وعبيرُ رامينَ يَهُبُّ مِن رُوحِ وَيْس لِفَنائه في محبّتها. وفي البيت أيضًا إشارةٌ إلى حديثٍ للنّبي محمّد، عليه الصّلاةُ والسّلام، يقولُ: «إنّي لَأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمنِ مِنْ جانبِ اليَمَن» (ينظَر: بديع الزّمان فروزانفر: أحاديث مثنوي، ص ٧٣ نقلًا عن إحياء علوم الدّين ١٥٣/٣)، ويشيرُ إلى معرفة النّبيّ، عليه الصّلاةُ والسّلامُ، أُوَيْسًا القَرَنيّ من غير أن يَراه. وفي ثاني البيتَين تأكيدُ لهذا المعنى [المترجم].

ماجَرَيات مستقْبَلٍ بعيد نِسْبيًّا، ولهذا [١٠٦] السّبب أثبتوا في أَذْهانهم الأُمورَ التي ذكرَها الشّيخُ بشيءٍ من الإكراهِ أو بُطْءِ التّصديق. ولأنّه لا أمَلَ عندَهم بِحَياتهمُ الآتية، كانوا يَحْكُون هذا الخبرَ المحيِّر لِذَوي قُرْباهم وأصدقائهم. ومثْلَما أنّكُمُ اليومَ لا تصدّقونَ خبرَ وصولِ قافلةِ شَمْسٍ، الذي أراه أنا واضحًا مِن بعيد، كانَ أَصْحابُ البِسْطامِيّ هكذا أيضًا. ومهما يكُنْ، فإنّ مُرِيدِي البِسْطاميّ كانوا يريدونَ أن يعرِفوا مَن هذا الذي هو ذو نَفَسٍ كنَفَس المسيح، الذي سيأتي إلى ساحة الوجود في أَطْرافِ مدينة الرّيّ، ويتركُ تأثيرًا بالغًا في الحياةِ الرّوحيّة للنّاس. حتّى إنّ البِسْطامِيَّ في ذلكَ اليومِ التاريخيّ، تحدّثَ مفصَّلًا عن لَوْن بشَرةِ وَجْه أبي الحَسَن الخَرَقانيّ، وقامته وعينَيه. عدَدٌ من خُلَصاء البِسْطاميّ الذين كانوا حَسَني الاعتقادِ به، كانوا يعْلَمون أنّ أبا يزيدَ لا يتحدّثُ بتأثير الحالِ والتفنّن، وأنّه لو لم يجِدِ الزّمانَ والمكانَ والجليسَ المهيَّأَ والمناسبَ لَما أَمْكنَ أن يتحدّثَ عن أَسْرار شيء. وعندَما يتحتّمُ إيصالُ أَمْرٍ أو مطْلَبٍ إلى أَسْماعِ النّاس، أو الإعلامُ برسالةٍ، لن يصْمُتَ، وسيذيعُ الأَسْرارَ بِلا مُبالاةٍ، حتّى معَ مخالفةِ أكثريّة الحاضرين.

عرَضَ أبو يزيدَ تَصْويرَ أبي الحَسَن الخَرَقانيّ، وبشّرَ بمَقْدَمه بِمُساعدة الكلام. وفي لحَظاتِ الشّوقِ والهيَجان تلكَ، كان النّاسُ يعتقدون أنّ واحِدًا من كَرُوبيّي (*) العالَم الأَعْلَى سَيمثُلُ أمامَ أعينهم. وكانوا يسألون اللهَ [سُبحانَه] أن يَمُدّ في أعمارهم، لِكَي يَرَوا وِلادةَ أبي الحَسَن الخَرَقاني وَفْقَ الأَوصافِ التي ذكرَها أبو يزيدَ. كان أبو يزيدَ مبشّرًا بأنّ الخَرَقانيَّ سيكونُ مَجْلًى لِكُلّ الأَشْواقِ والهيَجانات وضُروبِ المحبّة البشَريّة.

---

* ـ واحِدُهُ: كَرُوبِيٌّ، وهم سادةُ الملائكة [المترجِم].

ومضَتِ السّنونَ، ومضَى أبو يزيدَ البِسْطامِيُّ، شَمْسُ العِرْفان التي لا تغرُب، إلى خالِقِ الكائنات، ولَبّى نداءَ الحقّ. ثمّ بعْدَ وفاةِ أبي يزيدَ جاء إلى الدّنيا مظْهَرٌ عظيمٌ لِلْعِشْقِ والرّجاء اسْمُه أبو الحَسَن، ووُلِدَ مِن أُمّ، ومرّةً أُخرى وقَعَ ضِياءُ جَبينِ السّاقي في الكأس:

ثمّ بعْدَ كُلّ تلكَ السِّنينَ، بعْدَ وفاة أبي يزيدَ، جاءَ أبو الحسَن،

وجاءَتْ كُلُّ طِباعِه الطّيّبة على غِرار ما كان ذلكَ المِلكُ قد ذَكَر[١].

وقد غَرِقَ النّاسُ في حَيرةٍ، وسُئِلَ هذا السّؤالُ في كلّ مكان: مِن أينَ لِأَبي يزيدَ أن يعلَمَ؟ ـ كان أحَدُهم يقولُ: إنّ أبا يزيدَ بَشّرَ بِمَولودٍ جديد مِن طَريق عِلْم النّجوم. واعتقدَ فريقٌ بأنّ هذه النُّبوءةَ مبنيّةٌ على العالَم الباطنيّ لِشَيخ بِسْطام، الذي لَدَيه قُدرةٌ على الإبداع، وما كان يَمُرّ في خاطِره الظّاهِرِ كان يُبْرِزُه لِلْعِيان مِثْلَ مُصَوِّرٍ [١٠٧] ماهرٍ. كان مُريدُو الخَرَقانيّ يرجُونَ، بجَزَعٍ ونفادٍ للصَّبر، أن يكونوا في صَميم الأَحْداث. وقد كان هذا، فراجَتْ سُوقُ الشّائعات المختلفة، وكان يجري الحديثُ عن الملائكة والجانّ. وكانَ أَنْ تجاوزَتْ جَماعةٌ حُدودَ الموضوعاتِ المَنطِقيّة، كأنّها لم تطّلِعْ على عَظَمة عالَم الباطن[٢]، كما يجبُ، ولهذا السّبب كانَتْ تُقِرّ بعَجْزِها وسَطْحيّتها ومَسْكنتها في كَشْفِ هذا المُعَمّى.

---

١ ـ المثْنَوي، ١٨٥٠/٤ ـ ٥١.

٢ ـ مِثْلَما يقولُ مولانا في ديوان شَمْس:

أنتَ حتّى الآنَ غيرُ ظاهِرٍ، ماذا رأيتَ من جَمالِك؟ ففي السَّحَرِ، اخرُجْ مِن باطِنِكَ، كالشَّمْس

ـ ذلكَ الطّريقُ الذي جِئتُ فيه، أيُّ طَريقٍ هو، يا قَلْبي؟
لِكَي أَعودَ كما جئتُ؛ فإنّ أمري فِجٌّ وغيرُ مكتمِلٍ، يا قَلْبي
ـ وفي كُلّ خُطْوةٍ أَلْفُ فَخٍّ وكَمينٍ، يا قَلْبي،
وعنْدَ أَشْباهِ الرّجالِ، العِشْقُ حَرامٌ، يا قَلْبي
نَجْمُ الدّين دايه الرّازيّ

تجلّياتُ العِشْق

أَحَدُ المنتقِدينَ والمتشدِّقينَ قالَ لِأَصْحابه: كشَفْتُ التّنبُّؤ بالأَسْرار ذا الطّابَعِ السِّحْريّ وشأن الخَرَقانيّ، أَفلا تعْلَمونَ أنّ الأَسْطُرلابَ يكشِفُ أَسْرارَ المستقْبَل، حتّى مظاهِرَ المجتَمعِ الإنسانيّ، بدقّةٍ وضَبْطٍ بِتذوّقِ الحقيقة؟ واعتقدَتْ جَماعةٌ أنّ أبا يزيدَ رَأى في المَنام وَجْهَ أبي الحَسَن الخَرَقانيّ. وقد رَدَّ جَلالُ الدّين، مَوْلانا، على رُدود الأفعالِ العاطفيّة للنّاس على القُدْرة العِرْفانيّة المذْهِلة لأبي يزيدَ على هذا النّحو:

لَــــيْسَ نُجُومًـــا، ولا رَمْــــلًا، ولا مَنامًـــا

بَـلْ هُـوَ «وَحْـيُ الحـقّ»، واللهُ أعْلَـمُ بِالـصّواب
وابتغــاءَ التَّعْمِيــةِ علــى العامّــةِ في البَيـان

قــالَ الـصّوفيّةُ عنـه: إنّـه «وَحْـيُ الجَنـان»[1]

وُلِدَ أبو الحَسَن عَلَى الصّفاتِ والخلائق نفسِها التي تنبّأ بها أبو يزيدَ. فمُنذُ طُفولته الأُولى كانَتْ له شَخْصيّةٌ غيرُ عاديّة، إذ كان ينزوي عن أصدقائه، وينصرفُ إلى الدَّرْسِ والوَعْظ والمسْجِد والمحراب، وكان لَدَيه اشتياقٌ قويّ إلى سَماعِ العارِفينَ يَشْرحونَ حقيقةَ الحياة الدّنيا. وفي صِغَر أبي الحَسَن قِيلَ له: إنّ أبا يزيدَ قالَ في شأنكَ كذا وكذا،

---

١ ـ المثْنَوي، ٤/١٨٥٤ ـ ٥٥.

وبيّنَ صِفاتِك في حَياته على نَحْوٍ رائع، إذ قالَ:

إنّ أبـا الحَسَنِ هُـوَ مُريـدي وأُمّتـي

وسيَأخُذُ الـدّرْسَ كُـلَّ صَـباحٍ عنْـدَ تُربتـي

كانت نُبوءةُ شَيخ بِسْطام صَحيحةً، فقد كان أبو الحَسَن يَمْضي كُلَّ صَباحٍ لزيارة تُربة [١٠٩] أبي يزيدَ، ويجلسُ لمدّة ساعةٍ قُرْبَ قَبره، ويستَمْلي كتابَ قَلْبه حتّى ينجليَ له السّرُّ الإلهيّ في الأفلاك، وتنكشفَ الأَسْرارُ الغامضةُ الحاكِمةُ في هذا العالَم، كأنّ شعورًا خفيًّا كان يتحدّث إلى أبي الحَسَن مبيِّنًا له أنّ شُعاعَ الآفاقِ اللّانهائيّة للإيمانِ والإخلاص والمعرفة الباطنيّة عنْدَ أبي يزيدَ هو الذي يرفَعُ النّقَابَ عن وَجْه أَسْرار المَجَرّات، ويحوِّلُ ظُلْمةَ لَيلِ حياته بِكَوانينِ النُّور إلى نهارٍ مُتجَلٍّ.

كان أبو الحَسَن يجلسُ كُلَّ يومٍ بجانبِ قَبْرِ مُراده المُلَحِّن، ويتحدّثُ عن مشكلاته، ثمّ بَعْدَ إزالةِ المُشْكِلِ يَترُكُ المكانَ مسرورَ القَلْب. وفي يومٍ باردٍ مِن أيّام الشّتاء كان الثّلجُ فيه قد غطّى وَجْهَ الأرض بِغِلالةٍ بيضاءَ، مضَى أبو الحَسَن، جَرْيًا على دَأْبه اليوميّ، مُسْرِعًا إلى المقبرة، فرأى الثّلْجَ قد غطّى ضريحَ أبي يزيدَ البِسْطاميّ، ولم يبقَ ثَمّةَ موضعٌ لِلْجُلوسِ والسّكينة والحديث الصّوفي الصّافي. وفي تِلكَ اللّحَظات، أحسّ أبو الحَسَن كأنّ شُعْلةَ الهيَجانِ العِرْفانيّ قدِ انطفأتْ في صَدْره عُقْبَ عاصفة الثّلج هذه، فهَمّ بأَنْ يرجِعَ إلى المنزِل فإذا صوتٌ يتناهى إلى سَمْعه وكأنّ جُملةَ ذرّاتِ وُجودِه قد صارَت سَمْعًا، وإذا الصّدَى يقولُ:

إذا كانَ العـالَمُ ثَلْجًـا، فـلا تُشِحْ بِوَجْهِـكَ عَنّـي

أَلا فَلْتأتِ إلـى هـذه الناحيـة، أَسْـرِعِ إلـى لَحْني

أنا، مِثْلَ فَريدِ الدّين العَطّار، عَلَيَّ أن أعترِفَ بِأنّني وشَمْسًا لم نظفَرْ بهذه الحال بالقِيل والقال، لم نكْسِبْها بالحَرْب والقتال. بَلْ جعَلْنا قَلْبَيْنا مَحَلًّا للإيمان والعقيدة والإخلاص. كنّا نَنشُدُ الكمالاتِ. وفي هذه السّبيل قَبِلْنا وتحمَّلْنا الآلامَ والصّعوبات برِضًا، وكنّا نؤمنُ بأنّ الإنسانَ، مِن دون ألَمٍ ومشقّةٍ، شَبيهٌ بالجمَادات:

مَنْ لَيْسَ لَدَيهِ قَلْبٌ مَسْرورٌ بِألَمِكَ لا سَرَّه الله؛ إذْ لم يكُنْ مِن رِجالِك!

فأَعْطِني ذَرّةً مِنْ دائك، يا دَوائي لِأنّه مِن دُون دائِك يَمُوتُ رُوحي

وحتّى في أثناءِ تلاطُمِ أمواجِ الإزعاجات، كنّا منشغلَيْنِ بالتضرّع وإنشادِ ألْحانِ التّوحيد والشُّكْر، التي تخلُب الألبابَ.

ولذلكَ يكونُ النّبعُ الثَّرُّ لِلْوصول إلى الحقيقة عَينَ الهيَجاناتِ الخاصّة لِلْعِشْق والمحبّة، وَفْقَ شِهاب الدّين السُّهْرَوَرْدِيّ، شَيخِ الإشراق، الذي قالَ في مؤلَّفه «**رسالة في حقيقة العِشْق**»: «لا يأذَنُ العِشْقُ لِكُلّ إنسانٍ بالوصول إليه، ولا يَأْوي إلى كُلّ مكانٍ، ولا يتّجِهُ إلى كُلّ عَين. يُظْهِرُ العِشْقُ نفسَه حينًا في ملامِحَ شَهوانيّةٍ خالصة، وحِينًا في صُورة خَرْقٍ رُوحانيّ لِلْعادة. وفي الحال الثّانية يُوصِلُ إلى ما يُعَدُّ غيرَ [١٠٩] ممكنٍ؛ فيُظهِرُ القَبيحَ جَميلًا، والمنْحَطَّ مُتعاليًا، ويطردُ كُلَّ إنسانٍ إلّا المعشوقَ عن معرفة الذّات».

العِشْقُ مِن التّجلّياتِ الإلهيّة، وهو أَساسُ الوجود، وهيَجانُ الحياةِ السَّرْمديّة، وصانِعُ العُمْرانِ وأساسُه، ويدفعُ النّاسَ إلى القُرْبِ والصّفاء والصّميميّة والوَحْدة.

اعَلَموا، يا أهْلَ قُونِيَةَ أنّ الأمرَ هكذا:

مَعَ أنّ سُكْرَ العِشْقِ قد خرَّبَني

ظلَّ أساسُ وجودي عامِرًا مِن هذا الخراب

العِشْقُ مثيرٌ لِلْمَحبّةِ والصّفاء والصّميميّة والنّموّ. وإنسانٌ عاشِقٌ، على غِرارِ شَمْسٍ، لَنْ يكونَ تُحفةً معجونةً مِن قُوى مختلفةٍ ومتفاوتة أو متضادّة. الإنسانُ العاشِقُ يَطْوي طريقَ الصُّلْحِ والصّفاء، ويكونُ مَدّاحًا لِلْعظَمة الإلهيّة، وهو يفتخِرُ بمَسْقَط رأسِه، وبأصدقائه، وبِنَبِيِّه، وبإيمانه. رِياضُ الطّبيعة وبَساتينُها ضاجّةٌ بِأَلحانِ قُمْريِّ العِشْق.

ويعيشُ شَمْسٌ حالًا مِن السَّعْيِ والكفاح المتواصِلَين، لإخمادِ طُغْيانِ النّفس والهوى عنْدَ النّاس، وتأمينِ الرّفاهِ الرّوحيّ لهم، وتعديلِ لَذّاتهم وضُروبِ استمتاعهم. يَسْعى دائمًا لِتأمينِ الحاجات الرّوحيّة والمعْنَويّة عندَ النّاس.

وتعلَمونَ أنّكم جميعًا، أو أهلَ البسيطةِ المنشَغِلينَ في شؤون الحياة، تطلبونَ دائمًا ما يلبّي شَهَواتِكم ورغائبَكم ولَذائذَكم. ويقولُ شَمْسٌ إنّ الحقَّ تعالى لم يخلُقِ الإنسانَ مِن أَجْلِ طَلَب اللّذة والاستفادة مِن مواهب الطّبيعة، وإنّ الفلسفةَ الجميلةَ العظيمةَ وراءَ خَلْق الإنسانِ هي أن يكونَ أعظمَ خَليفةٍ لِلّه تعالى على وَجْه الأرض، وأن يتعرّفَه بِتَمام وجودِه؛ فإنّ معرفةَ الذّاتِ الإلهيّة أعظَمُ عبادةٍ وطاعة.

إنّ شَمْسًا هو عَنْقاءُ جَبَلِ قافِ(*) العِشْق التي تكونُ عَنْقاءُ العَقْلِ الجُزئيّ أَمامَها ضئيلةَ الشّأن جدًّا، إنّه مَوْجةٌ مِن بَحْر اللّامكانِ ظهَرَتْ من خَوفها هَيَجاناتٌ وتأوّهاتٌ وطُوفاناتٌ. وقد تحدّثْتُ في هذا المكان مرّاتٍ كثيرةً عنِ القُدْرة الباطنيّةِ العظيمةِ لِشَمْسٍ، ولكنْ كلُّ تلكَ الأَسْرارِ التي أعلَمُها عنه صَدِّقوا أنّني لَسْتُ قادرًا على إفشائها؛ لأنّني لا أمتلكُ الجُرْأةَ على التحدّث عن كُلّ فِكَرِه وعَواطفه وخاصّيّاته، وأخشَى مِن

---

* ـ اخترنا هذا التّركيبَ مقابلًا عربيًّا لـ «سِيمُرْغ» الفارسيّة. وهو طائرٌ أسطوريٌّ يعيشُ في جبَلٍ أسطوريّ أيضًا، اسمُه «جبَل قاف». وفي التصوّف يعني «السِّيمُرْغ» الحقيقةَ الإلهيّة، أو المطلوبَ الأسمى؛ وهو أيضًا الثلاثون طائرًا الذين بحثوا عن الحقيقة في كتاب «مَنطِق الطَّير» لفريد الدّين العطّار، والإنسان الكامل [المترجم].

أنّه، بِسببِ كَشْفِ هذه الأسرار، ستضطَرِمُ شُعْلَةٌ جامحةٌ في فَضاء هذا الخانِقاه، وتحْرِقُ كُلَّ ما هو موجودٌ في هذا الخانِقاه [١١١]:

عِنـــدَما تَـــسْتطيعُ الوصـــولَ إلـــى البَحْـــر

لماذا يكونُ علَيكَ أن تُسارعَ إلى قَطْرة نَدَى؟

ومَنْ يَعْلَمُ كيفَ يتحدّثُ معَ الشَّمْسِ بالأَسْرار

مَتَـــى يـــستطيعُ أن يبقَـــى مَـــعَ ذرّة؟!

إنّ شَمْسًا في مَيدانِ مُبارَزةِ النّفس وقتالِها رَجُلٌ تامُّ العِيار، وقد دفعَني دَفْعًا نحْوَ كَشْفِ أَسْرار الدّنيا.

وشَمْسٌ، بنَظَره الباطِنِ، وبقُوّةِ قَلْبه الذي أُضيءَ بِأَنوارِ القُدْس، يرى حقائقَ الأَشْياء جيّدًا، مثْلَما تُشاهِدُ النّفسُ صُورةَ الأَشْياء بِمُساعدة عَينِ الظّاهر. والغايةُ القُصْوى للخَلْق إدراكُ هذه القُوى الخفيّة. وأنا أيضًا في حَياتي كلّها، ومنذُ الصِّغَر، كنتُ أبحَثُ عنه لِكَي تَسوقَني الدّنيا الجميلةُ لِحالِ شَمْسٍ، إلى حدٍّ ما، نَحْوَ كَشْفِ أَسْرار العالَمَ.

وعَلَيَّ ههنا أن أتحدّثَ عنِ القُدْرةِ السّاحِرةِ لِلْعِشْق، وأتكلَّمَ على هذا اللّاعِبِ المثيرِ في مَيدانِ قَلْبِ الإنسان ورُوحه. وقد تذكّرْتُ هنا بَيانَ الشّيخ شهاب الدّين السُّهْرَوَرْديّ، الذي يقدِّمُ في أثَره «**رسالة في حَقيقة العِشْق**» هذا السّؤالَ الذي يُسْأَلُ فيه العِشْقُ:

ـ مِن أينَ تجيءُ، وإلى أينَ ستذهَبُ، ولِماذا سُمِّيتَ بهذا الاسْم؟

ـ فأجابَ العِشْقُ: أنا مِن بَيتِ المَقْدِس، ومِن محَلّةِ الرُّوح.. عَمَلي السّياحةُ، أنا صَوفيٌّ غيرُ محروم، وفي كُلّ لَحظةٍ أتوجَّهُ إلى ناحيةٍ، وفي كُلّ يومٍ أكونُ في منزِلٍ، وفي كُلّ لَيلةٍ أُقيمُ في مكانٍ. وهذا الشِّعارُ، أو هذا الرَّسْمُ، أي عادةُ إثارةِ الفتنةِ في المدينة

واجتذابِ المحبوبة، لِباسٌ خِيطَ على قامةِ شَمْس، وهو يَعْلَمُ الدّلالَ والغُنْجَ العِشْقيَّينِ جيِّدًا، وقد تحمّلَ في هذا الطّريق رِياضاتٍ ومُجاهَداتٍ.

أَيْ أَهْلَ قُونِيةَ، هو الذي اختطفَ منّي الهدوءَ والطُّمأنينةَ، ولكنّني طَيِّبُ النّفْسِ بذلكَ، مسرورٌ به، والدّنيا التي أَعدَّها شَمْسٌ لي هي دُنيا لَوّنَها قَوْسُ قُزَح بِألْوانه الخلّابة. إنّه طائرُ هُما(*) سَعادتي، الطائرُ الذي أطارَ يَدَ التّقدير فوقَ رَأسي. وبُشعاعِ طائرِ السّعادةِ هذا، وتحتَ ظِلِّ جَناحَيْه الذّهَبيَّين، أُفاخِرُ بِنَفْسي.

في يومٍ مِنَ الأيّام، رَأى السّلطانُ محمود [الغَزْنَويّ] في الصّحراء طائرَ «هُما» محلِّقًا، فقالَ لجنوده: تابِعُوه، كونوا خَلْفَه، تعقّبوه، لعلّ ظِلَّ الإِقْبالِ والسّعادة يقَعُ علَيكم.

جَرَى الجميعُ مِن اليسار واليمين، وحدثَتْ همهمةٌ، واضطَرَبَ الجُنْدُ، أمّا إِيازُ(**) فلَمْ يُرَ بينَ [١١٢] الجُنْدِ المضطَرِبينَ الذين كانوا يَجْرونَ، وعندَئِذٍ سألَ السّلطانُ محمود:

ـ لَيْسَ إِيازي بينَهم. لِماذا لم يذهَبْ مَعَهم لِكَي يقَعَ ظِلُّ طائرِ الهُما فوقَ رَأسِه؟

نظرَ السّلطانُ إلى زاويةٍ، فرأى إِيازَ قد جَلَسَ تحْتَ ظِلّ جَوادِه، فسأَلَ:

ـ ماذا تفعلُ هناكَ، لِماذا لم تنطَلِقْ وراءَ طائر الهُما؟ فأجابَ إِياز:

ـ طائرُ هُمايَ هو أنتَ، وظِلُّكَ هو ظِلُّ هُمايَ. أَأَطلُبُ ظِلًّا أَجْملَ مِن ظِلّكَ؟ وأَتْرُكُ

* ـ الهُما طائرٌ من فصيلة الطُّيور الجارحة، يَعُدّهُ القُدماءُ في إيرانَ مصدرًا للسّعادة والحظ، ويعتقدونَ أنّ كُلّ مَن يقَعُ عليه ظِلُّه سيجعلُه سَعيدًا محظوظًا [المترجم].

** ـ هو أبو النّجْم إياز أُويْماق (ت ٤٤٩ هـ)، غلامٌ تركيٌّ، ومن الأمراء المحبوبين جدًّا للسّلطان محمود الغَزْنَويّ. ولقُوّة محبّته للسّلطان محمود ومحبّةِ السّلطان محمود له صارا في الأدب الفارسيّ مثالًا للعاشقِ والمعشوق، والأميرِ والخادم [المترجم].

القلْبَ في رَهْنِ محبّة طائرٍ؟! حاشَى أن أترُكَكَ، وأتبعَ ذلكَ الطائرَ. هذا غيرُ ممكنٍ عندي. فما كان مِن محمودٍ إلّا أن عانقَ إياز، فاختَلطَ ظِلُّه بظِلّه. هذا الظّلُّ الذي لا يصِلُ ظِلَّ آلافِ طُيورِ الهُما إلى ظِلّه.

ليتَني أنا أيضًا أستطيعُ في يومٍ مِن الأيّام الامتزاجَ بِظِلّ شَمْسٍ، وأطيرُ بمَدَدٍ منه إلى الأَوج، نَحْوَ الأفلاك.

قالَ لي شَمْسٌ: لو ذهبْتَ إلى العَرْشِ لمَا كانَتْ هناك فائدة، وإنْ ذهبْتَ إلى ما فوقَ العَرْش، وإلى ما تحتَ سَبْعِ طبقاتٍ، فليس ثَمّةَ فائدة. ينبغي أن يُفتحَ بابُ القَلْب.

أسعَى لِأَظفرَ بمُستقَرٍّ في القَلْب، وقلبي لَيسَ خَزينةً لِأَحَد، بَلْ هو خَزينةٌ لِلْحقّ، ونقطةُ فِرْجارِ الوجود.

وفي هذه اللّحَظات، ومِن أَجْلِ أن يستريحَ مَوْلانا لِلَحْظةٍ، وبإشارةٍ مِن مُعِين الدّين پَروانه، الوزيرِ الكبير في بَلاط سَلاجقة الرّوم الشّرقيّة، أمسَكَ أحَدُ الحاضرينَ بالرَّباب، وأخذَ في العَزْف. وهكذا انسابَ صوتُ الرّباب الشَّجِيُّ إلى أُذُنِ مَوْلانا. ومِثْلَ ظَمْآنَ يصِلُ إلى عَين الماء الزُّلالِ بعْدَ ساعاتٍ مِن السّير في طَريق، سكتَ مَوْلانا، وبدَتْ على سِيمائه أَماراتُ الرّاحة الواضحة، وهَمَسَ:

ـ تضرُّعُ العُشّاقِ يصِلُ إلى الأَسْماع.

كان لَحْنُ الرّبابِ وحْدَه الذي يقدِرُ على أن يوقِفَ الكلامَ على لِسانِ مَوْلانا. كان مَوْلانا يعتقدُ أنّ صوتَ النّاي والرّباب مصْدَرٌ لِلَذّاتٍ رُوحيّةٍ لا حدودَ لها، أنّه نِداءٌ يَصِلُ البَشَرَ بِعالَم الغَيب. التأثيرُ الذي يتركُه صَوتُ الرّباب في السّامعينَ أقوى من سُكْرِ الخَمْر الذي يستبدُّ بالنّفس.

وابتغاءَ أن يُثير المطْرِبُ مَوْلانا، ويَزيدَ وَجْدَه غنًى وقرَأ:

لَـيْسَ في هـذه الـدّنيا غَريـبٌ مِثْـلُ شَـمْس
شَـمْسُ الـرُّوحِ البـاقي الـذي لَـيْس لـه أَمْـس

والـشّمْسُ في الخـارجِ مَـعَ أنّهـا فريـدةٌ فَـذّةٌ
يمكِـنُ تَـصَوُّرُ مَثيـلٍ لَهـا

[١١٣] أمّا شَمْسُ الرّوحِ التي خرجَتْ مِن الأثيرْ
فلَيْسَ لها في الذّهنِ، ولا في الخارج، نَظير(١)

وبتأثيرِ جاذبيّةِ ذلكَ الصّوتِ واللّحْن وسَماعِ اسْمِ «شَمْس»، اضطربَ مَوْلانا واهتاجَتْ نفسُه اهتياجًا عظيمًا، وكأنّما استوعبَ سِحْرَ شَمْسٍ وجاذبيّتَه بِكُلّ ذرّاتِ وجودِه وجُمْلةِ حَواسِّه. كان مَوْلانا يَعُدّ أجملَ الغَزَليّاتِ والرُّباعيّات والأشعارِ تلكَ التي تكونُ مؤثّرةً وبَليغةً وطَنّانةً، تطيرُ به كالقَشّ مِن الأرض نَحْوَ الأفلاك. ولا شكّ أنّ مِثْلَ هذه الأناشيدِ ينبغي أن تُسْمَع مصحوبةً باسْمِ «شَمْس».

---

١ ـ المثنوي، ١/١١٩ ـ ٢١.

ـ ارقُصْ حَيثُما تحطِّمُ نفسَكَ،
وتنفُضُ القُطْنَ عن جُرْحِ الشّهوة،
ـ إنّهم يرقصونَ ويجولونَ في الميدان،
لكنِ الرّجالُ يرقصونَ في دماءِ ذَواتهم،
ـ وعندَما يتحرّرونَ من سُلطانِ ذواتهم علَيهم يصفِّقون،
وعندَما يتخلّصونَ مِن نقائصِ أنفسهم يرقصون.
(المثْنَوي، ٣/٩٥ ـ ٩٧)

الموسيقا لُغةُ الرّوح

صارَ مَوْلانا، الثَّمِلُ مِن شَرابِ جَلالِ اسْمِ شَمْسٍ وعظَمته اللّذَين لا تفسيرَ لهما، لَألاءً كالشُّعْلة. كانَ في شُعْلةِ هذا الاسْمِ العظيمِ كأنّه في حالِ احتراقٍ وذَوَبان. وكانَتْ قطَراتُ الدّمعِ، التي هي أَنْداءُ روحِ مَوْلانا، تنهَمِلُ الواحِدةَ تِلْوَ الأُخْرى مِن سَماءِ عينَيه النافذتَين: الأنغامُ السّماويّةُ التي يُصْدِرُها النّايُ والرّبابُ، التي منبعُها هيَجاناتُ القَلْبِ والرّوح، تَغْمرُ مَوْلانا بتفاصيلها وخَفاياها.

وكان مُعِينُ الدّين پروانه، المُريدُ الكبير لمَوْلانا، قد لَجَأ إلى الموسيقا مِن أَجْل أن يخفِّفَ معاناةَ مُرادِه العظيم. ذلكَ لأنّ هذا المريضَ المتألّمَ كان يبحَثُ في لُغةِ الموسيقا البليغةِ عن مفتاحٍ لِلْخَلاص مِن آلام الفراق، ودَواءٍ شبيهٍ بالمعجِزة لهذا الدّاء الدَّوِيّ. أَلَم يُقَلْ: إنّ الموسيقا هي اللّغةُ الفصيحةُ لِأَسْرارِ أعماقِ الرّوحِ والقَلْب عندَ الإنسان؟.

كان عَلاءُ الدّين وَلَد[1] يَرَى قطَراتِ الدّمعِ المنهلّةَ مِن زَوايا عينَي مَوْلانا على عارِضِه بعَينٍ مملوءة بالأسى، وكان الفَضاءُ مفعَمًا بِأَنغامِ الرّباب والنَّاي المثيرةِ المؤثّرة، مفعَمًا بالهيَجاناتِ والإشراقات التي تجعَلُ كلَّ مُشاهِدٍ وسامِعٍ يقرَأُ الكلماتِ المقدّسةَ

---

١ ـ هو ابنُ مولانا جَلال الدّين الأصغر، الذي لم يكن على وِفاقٍ معَ شَمْس تَبْريز، ولا معَ جَلال الدّين [المترجم].

في كُتُبِ القرون في مَحَلّ الوَحْدةِ والأبديّة والعشْق في أنغامِ حُلُم الخانِقاه، أو يتذكّرُ هذه الكلمات.

شاهَدَ عَلاءُ الدّين أنّ مَوْلانا غارِقٌ في خَطُواتِ الماضي وأَحْلامِهِ اللّذيذة [١١٥].

كان يبحَثُ عن أَصْله، حتّى إنّك تستطيعُ أن تقولَ إنّه كان يريدُ أن يُزيلَ عهودَ الفِراق بِقَطَراتِ الدَّمْعِ مِن ساحة الخانِقاه. كأنّه كان يفكِّر بعالَم الوِصال(١).

نَعَمْ، إنّ متألّمَ قُونِيَةَ الكبيرَ، بِجَريرةِ أنّه أَسْلَمَ قَلْبَه لِلْعِشْق أكثرَ مِن اللّزوم، نالَ منه الألَمُ. وكان يبحَثُ عن العِلاج. وفي أيّ شَيءٍ يوجَدُ هذا العِلاجُ؟

كان مَوْلانا يُنشِدُ في الخانِقاه أَحَرَّ الأَشْعارِ العِشْقيّة وأشدَّها لَذْعًا، وكانَتْ سِيماؤه تدعو كلَّ راءٍ إلى المشاركة في الآلام والحُرَق:

العاشــقونَ قَتْلــى أَحْيــاءُ القُلُــوب — وهُمْ محترِقــونَ بنــارِ عِشْق الحبيب

ولَــيْسَ لِلْعاشِــقينَ وتَــرٌ ولا عُــودٌ — وأَنــينُ العِــشْقِ هــو لَحْــنُ دَاوود

فيـا مَـنْ لَـسْتَ عاشِـقًا، حَـرامٌ علَيـكَ — الحَيــاةُ، لِأَنّــكَ تُبــدِّدُها وتُهمِلُهــا

الأَنغامُ المشوِّقةُ للنّاي والرّباب لم تُلَبِّ الأُمْنيّاتِ الرّوحيّةَ لمَوْلانا، ولم تُرْضِه كما ينبغي. وعندَ هذه النقطة، طلَبَ مُعينُ الدّين پروانه، وَزيرُ كيقُباذ السّلجوقيّ ومُريدُ مَوْلانا، مِن الحاضرينَ في الخانِقاه أن يبدَؤوا بالرّقص، وينهَمِكوا بالتّهييج والإثارة بصُحْبةِ الذِّكْر الجَليّ(٢).

١ـ إنّ كُلَّ من يبقَى بعيدًا عن أَصْلِهِ — يَظَلُّ يبحَثُ عن زَمانِ وَصْلِهِ
أَنشُدُ صَدْرًا مزّقه الفِراقُ إِرْبًا إِرْبًا — لِكَيْ أَشْرَحَ لَهُ أَلَمَ الاشتياق
(المثنوي، ١/ ٣ـ٤)

٢ـ مِن خاصّياتِ الطّريقة المولويّة: الذِّكْرُ الجَليّ، والرَّقْص [الأصل].

كأنّ أرواحَ المُشاركينَ المرَفْرِفةَ أخذَتْ في الطّيران معَ أَصْداءِ عَزْفِ العازِفينَ وغناءِ المنشِدين في فَضاء الخانِقاه، فبدأَ القَفْزُ والوَثْبُ والرّقصُ. انتهى زَمانُ الصّحْو، وكانَتِ الأرواحُ تنطلقُ إلى مكانٍ كان مَحَلًّا لتجلّي ضُروبِ المحبّة والعِشْق الصّافية. وكان لِلْقُلوب هيَجانٌ آخَر. كانَتْ عشَراتُ كَوانينِ النّورِ تكسِرُ بِشُعاعها الملَكوتيّ صفائحَ الفضاء. واختلطَتْ مظاهِرُ اللّياقةِ والعظَمةِ بِمَظاهِرِ الهُيام والغَرام، وانشغلَتِ الشّخصيّاتُ المختلفةُ بالرَّقْص. كان هؤلاءِ، مِن أَجْلِ مَوْلانا، يريدون أن يكونوا في حالٍ من الهيَجان والسُّرور؛ أن يكونوا مانحينَ لِلْهدوءِ والرّاحة والمتْعة والإثارة. كانوا يريدون، كأنّهم عَشَراتٌ مِن الأسماء، أن ينغَمِسوا في بَحْرٍ لا نهايةَ له مِن السّرور والبَهْجة، ويصفّقوا ويَرقُصوا. وأَمامَ هذا المشْهَدِ المُوقِظ المنشِّط، نهضَ مَوْلانا مِن مكانه، وهمَسَ: هذه الأَنغامُ الثَّمِلةُ، وهذا الدّوَرانُ، جَديرةٌ بحَفَلاتِ [١١٦] الأُنْس السّماويّة، والتّركيبُ الملَكوتيّ لِلْأَلْحانِ والدَّوَران الذي ينطوي على نِكاتٍ عِرْفانيّة ودقائقَ صُوفيّة كان يحُثّ مَوْلانا على الرَّقْصِ والانسجامِ والتّناغم. وشَمْسُ صُبْحِ الأَمَل التي تُشِعُّ مِن بعيدٍ حَرّرَتْ مَوْلانا الذي كان قد أُسِرَ في يَدِ سُلْطان الهِجْران:

عِنـــدَما وَعَـــتِ الـــذّاتُ ذاتَهـــا　　　تـصوّرتِ العـالَـمَ علـى نَحْـوٍ جلـيّ

فهي تنهضُ، تَثورُ، تَطيرُ، تُضيءُ، تُعطي　　　تحتـرِقُ، تتّقِـدُ، تقتـلُ، تمـوتُ، تُـشْرِقُ

سَـــعةُ الأيّـــامِ ســـاحةٌ تَجْوالهـــا　　　والـسّماءُ مَوْجَـةٌ مـن غُبـارِ طَريقهـا

عندَما نهضَ مَوْلانا، الذي هو خادِمُ خانِقاه الخَلْق، لِلدّورانِ والرَّقْص بَدَا الأمرُ كأنّ الخانِقاه خُلِعَ مِن مكانه وأخذَ في الهَيَجان. كلُّ شيءٍ صار تحتَ تأثيرِ الدَّوَران والرَّقْص. وكانَتِ العواطفُ قد وجَدَتْ مجالًا لِمَظاهِرِها، وحرّرتِ النّاسَ لِلَحظاتٍ مِن

قَبضةِ غُموم الحياة وغُصَصِها ووَطْأتها. وكانَ مَوْلانا يرقُصُ، ويريدُ أن يَشُقَّ سَقْفَ الفَلَك، ويقدِّمَ تَصْميمًا جديدًا يهدِمُ بُنيانَ الفِراق، ويمْحُوَ مِن قاموس البشَرِ مَحْوًا تامًّا كَلِمةَ «وَداع» لِلَحظاتٍ، ويحوِّلَ الحياةَ إلى شَريط نُورٍ وصَفاءٍ ووِصالٍ ملَكوتي.

الدّوَرانُ والسَّماعُ، وَفْقَ مَقولةِ الشّاعرِ والعارفِ الكبير والشّهير في إيران الحكيمِ سَنائي، سَفَرٌ نَحْوَ الحقّ ولَطائفِ الحقّ وعوائدِ الفَتْح ومعاني الكشْف، وهو قُوتٌ للرّوح وحَياةٌ للقَلْب. كأنّ المشاركينَ في حَفْلِ أُنْسِ خانِقاه مَوْلانا كانوا يَسْمعون ألحانَ الرّوح، أو يدركونَ سُرورَه وبهجتَه. وكان سالِكُو طَريقِ منزلةِ الشّفَق يتخطَّون في السَّحاب. وفي تلكَ اللّحظاتِ السّاحِرة، غابَتْ عنِ الوجود كلُّ ضُروبِ الغِيبة والنّميمة والعُجْب وحُبّ الرّياسة، أو أُسْدِلَ علَيها سِتارُ النّسيان. وكأنّ الحُجُبَ قد رُفِعتْ أيضًا مِن أَمام الأَعْين، وأخذَ الجميعُ في الطَّيَران في فَضاء الاستغناء، وأُزيلَتْ كلُّ الصُّوَرِ والآثارِ مِن القلوب، لِكَي تظهَرَ الصّورةُ الحقيقيّة. عدَدٌ ممّن كانوا يَدُورونَ وقَعُوا على الأرض مُنهَكينَ عاجزينَ عن الإمْساكِ بِأَزمّة القلوب. كانَتْ آياتُ العِشْق، آياتُ الإلهام، تُرَى وتُسْمَعُ حقيقةً. كلُّ شيءٍ كان يدورُ، حتّى الخانِقاه. كان هذا البرنامجُ الأَصيلُ فَنًّا شَرْقيًّا، وكان مُصَمِّمُه شَمْسًا التّبْريزيّ، وهو يُنسي السّالكَ ما يمرُّ في خاطِره، فينشَطُ وينهَمِكُ في الرّقص، ويشاهِدُ أنّ جَذْبَ لَطيفةِ العِشْق يُحرِّك الكائنات.

[١١٧] مَرّ محمودٌ القُونَويّ بقُرْبِ مَوْلانا دائرًا وسأَلَ:

ـ يا مَوْلانا، في أيّة حالٍ أنتَ؟ ـ فسَمِعَ هذه الإجابةَ:

لا أَسْمعُ فقط صَدَى الطّبيعة، بل أَسْمَعُ الصّدَى المتناغِمَ لِلْمَجَرّات، وأنا مفعَمٌ بكُلّيّتي مَحبّةً وإخلاصًا.

ـ أأنتَ حَزينٌ أم مسرورٌ؟

علّمَتْني عظَمةُ العِشْق الدّوَرانَ حولَ نفسي، والغمُّ والفَرَحُ سِيّانِ عِندي، هما عندي شيءٌ واحِد. وبِالصّبر أتحمّلُ صُعوباتِ الفِراق كُلَّها. في كُلّ إنسانٍ يتوارَى نَوعٌ خاصٌّ مِن العظَمة والجَلال.

رقَصَ محمودٌ القُونَويُّ، الذي كان عندَئذٍ في ابتداءِ أَمْره، ومرّةً أخرى قرّبَ نفسَه مِن مَوْلانا، وقالَ:

ـ أَرى أنّ الدّائرينَ والمغنّينَ قد نالَ منهمُ التّعَبُ، مِن مُواصلَتهم السَّماعَ، فأدْرِكْهم.

ـ أنتَ تَرَى ظاهِرَ الأَمْر، وهؤلاءِ يتضرّعونَ تضرُّعَ العُشّاق. ولِأنّكَ لا تؤدّي صَلاةَ الإِشْراق توجَّه نَحْوَ صَلاةِ العُشّاق، واعْلَمْ أنّ التّعبَ لَيْسَ له طَريقٌ إلى الرّوح والجسَد. وهذا أيضًا في أثناء السَّماع.

ـ هَلْ هذا العالَمُ واقعيٌّ: الدَّوَرانُ واستماعُ السَّماع؟ ـ أيقولُ بهذا عاقِلٌ، أو أنّ مَوْلانا يعتقدُ ذلك وأَفْتَى به؟ ـ ما أعجَبَ الكُفْرَ، ما أَعْجَبَ شَقاواتِ الناس.!

فأجابَ مَوْلانا:

ـ إنّ مِن الواجِبِ أن يغدُوَ المرءُ مُتجاهِلًا مِثْلَ هذا العَقْل، ويجبُ علَيه ـ إزاءَه ـ أن يتشبّثَ بالجُنون.

ـ وقد جَرّبتُ العقْلَ الموغِلَ في التفكير، ومِن بَعْدِ هذا سَوفَ أجعلُ نفسي مجنونًا[1].

تُحَتّمُ العظَمةُ الرّوحيّةُ أن يغدُوَ الإنسانُ مَجْلًى لِلْجَمالِ، وللأنوارِ السّماويّة، ولِلْألحانِ الخالدة. وإنّ الرّياضاتِ ومُجاهَدةَ الشّهواتِ تصقُلُ وجودَ الإنسان وتهذّبه.

---

١ ـ المثْنَوي، ٢/٢٣٣٦، ٢٣٤٠.

والدَّوَرانُ والسَّماعُ يحرِّرانِ حقيقةَ الإنسان مِن القيود البشَريّة، والأنغامُ العِذابُ هي مخاطَباتٌ وإشاراتٌ إلهيّة، وسيحْدُثُ في النّهاية، في يومٍ من الأيّام، أن يكونَ مذْهَبُ العِشْقِ حاكِمًا على القُلوب والأَرْواح، ويستولي هذا المنشورُ المقدَّسُ، الذي توارَتْ فيه كلُّ البدائعِ وآياتِ الجَمال، على العالَم كلّه.

وقَفَ مَوْلانا.. وتوقّفَ الدَّوّارونَ عنِ الدَّوَران، وظلَّ محمودٌ القُونَويُّ يسألُ بانتظام:

ـ [١١٨] ما المقصودُ والهدَفُ مِن السّماعِ والدّوَرانِ فيه.. أيُّ ضَرْبٍ مِن العِبادةِ والطّاعة هذا؟ في اعتقادي، هذا نَوعٌ مِن عِبادةِ الأَصْنام، عبادةِ شَمْس... أنتم تعتقدونَ أنّكم تَسْمعُونَ في السّماعِ صَدًى صافيًا له عظَمةُ الطّبيعة، والمخالفونَ المتشدِّدونَ يَزْأَرونَ، وهم كالنّارِ والرّيحِ في تَنّور الانتقام.

ـ هذه لَيْسَتْ هدَفًا... عندَما شاهَدتُّ أنّ النّاسَ، خاصّةً أكثرَ أَهْلِ قُونِيةَ ومناطقَ أُخَر، لَيْسُوا مَيّالينَ إلى الذَّهاب نحْوَ الحقّ، كما يجِبُ، ويكونونَ في النّهاية مَحْرومينَ مِن الأَسْرارِ الإلهيّة، اضطُرِرتُ إلى سُلوك طَريقِ اللّطافةِ والسَّماعِ والشّعْر الموزون، المُناسِبةِ لِطَبائعِ النّاسِ وأمزجتهم، وغذّيتُهم بهذه المعاني سِرًّا. ومِن المؤسِفِ أنّ جماعةً مِن الحقودينَ في قُونِيةَ يَسْأمونَ سَماعَنا الممتعَ، ويَعيبونَه، ولا يرضَونَ بهذه المَلاذّ والمسَرّات. وأَرى أنّ أُناسَ الأعصُرِ الآتيةِ سيكونون أصحابَ تذوّقٍ وتحسّسٍ لِلْجَمال، وأنّ عالَمَ العِشْق سيشْمَلُ العالَمَ كُلّه، وسيغدو النّاسُ كلُّهم عاشقينَ لِكلامِنا، ويُرسِلونَ أدعيتَهم لنا، بمحبّةٍ واشتياق.

سأَلَ محمودٌ القُونَوِيّ: ما الذي يدْفَعُ مَوْلانا إلى السّماعِ والدّوَران؟ ـ وأيّةُ بِدْعةٍ هذه التي تَعدّونَها حَلالًا؟

ـ عندَما تطفَحُ كأسُ الرّوحِ بعِشْقِ المعشوق، يُضطَرُّ العاشِقُ إلى التوجّه إلى السَّماعِ والرَّقْصِ والشِّعْرِ مِن أَجْلِ بَيان الأَسْرار، مِن أَجْل بَيانِ آهاتِ أَلَم الفِراق، أو أصداءِ الهيَجاناتِ وحُرَق القَلْب وأشواقه. وأنا أعرفُ هذه الثّلاثةَ جيّدًا. إنّ مركزَ ثِقَل الإنسان هو العِشْقُ، وكُلُّ مظاهِرِ الآلامِ النّفسيّة تصْدُرُ عن هذا المنبع، وهناكَ منشَأُ العقائد الإلهيّة. وأنا اليومَ، بفِعْل الدّوَرانِ في الخانِقاه، أُحِسُّ بِأنّني قد تحرّرْتُ رُوحًا وجَسَدًا من آلامِ الفِراق. وأحِسُّ بِأنّكَ، يا محمودُ القُونَوِيّ، عندَما تخرجُ مِن هنا ستذهَبُ إلى المَجامِعِ والمحافِلِ المختلفة، وستَلومُني أنا وأَصْحابي. سَتسْخَرُ مِن هذا المَشْهَدِ المُستحسَن، الذي سيكونُ وسيلةً للاتّصال بالأَبَديّة، وستَعيبُ وتنتقِدُ هَيَجانَنا وتحرّقَنا وجَيَشانَنا الباطنيّ. أنتَ مِن أَهْلِ الجِدالِ والحِجاج، ولا تَدْري أنّ الإنسانَ غيرُ قادرٍ على مُواجهةِ الآلامِ والصّعوبات. أنتَ لا تعلَمُ القوّةَ الرّمزيّة التي تَرْبِطُ العارفَ والسّالكَ بالحقيقة. أنتَ لا تعلَمُ الكيفيّةَ التي علَيها مظاهِرُ جَمالِ الكائنات وما مصدَرُها. أنتَ خُلِقْتَ مِن أَجْلِ المستقْبَل، ونحْنُ نُحِبُّ هذه اللّحظةَ؛ لأنّنا نجتازُ الماضيَ والمستقبَلَ بمُساعدة العِشْق. [١١٩] سَلِّمْ بِأنّه مِن دُونِ العِشْق تُساقُ البشَريّةُ نحْوَ الاضمِحْلالِ والتّلاشي. هذه الهيَجاناتُ والانفعالاتُ عندَ الإنسان يجبُ أن تجِدَ مجالًا لتظهُّرِها وانكشافِها. الآلامُ والغُصَصُ التي تنشَأُ عنِ الهَجْر والفِراق لابدّ مِن تَسْكينها. لابدّ مِن إزالةِ ضُروبِ الصَّدَأ والرَّيْنِ عن مَرايا القلوب. ولكنْ كيفَ يكونُ ذلكَ؟ ابتغاءَ تصفيةِ الرّوح لابدّ مِن السَّماع والدّوَران. السَّماعُ والدّوَرانُ وسيلةٌ، لا هدَفٌ:

اذهَـــبْ وأَزِلِ الـــصّدَأ عـــن وَجهِـــهِ

ثـــمّ بعْـــدَ ذلـــكَ تأمّـــلْ ذلـــكَ النُّـــورَ

إنّ الدَّوَرانَ[١] والسّماعَ عِلاجٌ لِلآلام الرّوحيّة، ويَقْضِيانِ على الشّهَواتِ الحيَوانيّة.

١ـ ذكَرَ مولانا انسجامَ الرّقْصِ ومناسبتَه للنّفس في الجزء الأوّل مِن المثنويّ على هذا النحو:

الأَرْواحُ المقيَّدةُ في سِجْن الماءِ والطّين تَسْعَدُ قُلوبُها عندَما تتحرّرُ مِن الماء والطّين

وتغدُو راقصةً في هَواءِ عِشْق الحق وتصبحُ بَريئةً مِن النّقْصِ مِثْلَ قُرْصِ البَدْر

(المثْنوي، ١/١٣٥٥ـ٥٦)

وقد جاءَ في كتاب «**مناقب العارفين**» لِلْأفلاكيّ أنّ الشّيخ محمودًا النّجّار رَوَى عن مولانا أنّه قال يومًا لأصحابه: في هذه الدّنيا يَمَلُّ أهلُ قُونِيةَ سَمَاعَنا المفعَمَ بالوَجْد، ويَسْلقونَنا بألسِنةٍ حِدادٍ، ولا يرضَونَ بهذه المباهج والمسَرّات الموجودة عندَنا. ومهما يكُنْ، فإنّ أهلَ ذلكَ الزّمان يكونون مُحِبّينَ للسَّماع، وأصحابَ وَجْدٍ وتأثّر، وسيحيطُ عالَمُ العِشْق بالعالَم كلّه، وسيغدو النّاسُ كلُّهم عاشقينَ لكلامنا.

وفي شَأن السَّماع والدّوَران الصّوفيّ قال الأُستاذ فُروزانفَر في شَرْحه لِلْمَثْنَويّ:

«كان الرّقصُ مستعمَلًا في بيئات الصّوفيّة منذُ زمنٍ بعيد، وكانوا بعْدَ أن يشتدّ انفعالُهم بالسّماع يبكونَ حِينًا، وفي حِينٍ آخَرَ كانوا يضرِبونَ أنفسَهم مِن شدّة السّرور، ويمزّقونَ ثيابَهم ويصرخونَ، وينهضون للرّقص. وفي أثناء الرّقص كانوا يدورونَ حولَ أنفسهم، ويُلقُون عَمائمَهم عن رؤوسهم، ويقبّلُ بعضُهم أيديَ بعضِهم الآخَر وأقدامَهم. وفي بعض الأَحْيان كان بعضُهم يقَعُ على الأرض أمامَ بعضٍ ساجدينَ، ويأخذُ بعضُهم بعضَهم الآخَرَ في الأحضان. وقد حَدّدوا آدابًا خاصّةً لكلّ أمرٍ من هذه الأمور، خاصّةً في شأنِ إلقاء الخِرْقة الصّوفيّة، أو تمزيقِ الخِرْقة، إذ كانوا يسمّونَ ذلك ضَرْبَ الخِرقة، ويسمّونَ تلك الخرقةَ «الخِرْقةَ المجروحة»، وقد ذُكِرتْ أقوالٌ مختلفة عن أشياخ الطُّرق في هذا الشأن.

وبعْدَ اتّصالِ مولانا بشَمْسٍ، كان يجلسُ للسّماع، وينهض للرّقْص، وكانَتْ مجالسُ سَماعِه ورَقْصه لساعاتٍ. وكان كثيرٌ مِن عُلَماء الدّين وبعضُ مشايخ التصوّف ينكرونَ السّماعَ، ومِن ثَمّ الرّقصَ، وكان يَعُدّون ذلكَ مخالفًا للشّرع، وبِدْعةً، وعَمَلًا حَرامًا، أو مِن آثار نَقْص السّالك. ولكنْ كان هذا الرَّسْمُ معتمَدًا منذُ زمنٍ بعيد، وتحقيقًا منذُ القرن الثالث الهجريّ، بينَ جمهرة الصّوفيّة. أمّا الصّوفيّةُ فقد عَدّوا الرّقصَ مِن نتائج ظُهور الوَجْد. والوَجْدُ حالةٌ تظهَرُ للسّالكِ بعْدَ تعرّضه للسّماع، وتنزِلُ على قَلْب السّالك إثْرَ ورودِ واردٍ قلبيّ، مِن دون تكلّف لذلك. وعندَما يشتدّ الوَجْدُ يَضطرُّ السّالِكَ إلى البكاء، أو إلى أَنْ تنبعثَ صيحاتُ السّرور مِن وجوده، أو يدفعُه إلى الحَرَكة والرّقْص. وتَبَعًا لذلك، لا يبقَى السّالكُ في هذه الأحوال ممتلِكًا زِمامَ نفسِه، ويكونُ في تصرّف الوارِدِ الغَيبيّ. ولأنّ محُرّكَه الشّوقُ إلى الجمال، أو سَماعُ أَسْرارِ الملَكوت، يكونُ عمَلُه أيضًا غيرَ إراديّ وبعيدًا عن الاعتراض، أو أنّه ممدوحٌ لدَيه ومُسْتحْسَنٌ، وعَلامةٌ على لُطْف الفِكْر وصَفاء الخاطر.

وفي كتاب «**مِرصادِ العِباد**» نُقِل عن الشّيخ أبي الحسَن النُّوريّ أنّه قالَ: الوَجْدُ شُعْلةُ نارٍ تتحرّكُ في الرّأس، وتأتي مِن الاشتياق، وتتحرّكُ الأبدانُ إمّا سُرورًا وإمّا غَمًّا عندَما يأتي هذا الوارِدُ. الوَجْدُ مِثْلُ شُعْلةِ نارٍ، وينشَأُ عن الشّوق؛ بمعنى أنّ الشّوقَ مِن آثار المحبّة، وكلّما قوِيَتِ المحبّةُ قَوِي الشّوقُ. والمحبّةُ مُضْرِمةٌ للنّيران. وقد جاء في =

الحيَوانيّة. [١٢٠] وما دامَ الإنسانُ غيرَ مغتمٍّ الخاطِرِ، وغيرَ ممتلئِ القلبِ بالألَم، لَنْ يفهمَ ما أقولُه. وفي تلكَ العُهودِ، عهودِ قوّةِ الظّاهر ومَقاماتِ القِيلِ والقال في المدْرَسة، عندَما كنتُ أقرأُ كُتبَ أرسطو، قرأتُ أنّ أرسطو كان يعتقِدُ بأنّ الفنونَ كُلَّها، أي الموسيقا والرَّقْصَ والشّعْر، وسيلةٌ لِتَسْكينِ الخلَجاناتِ والاضطرابات الرّوحيّة، وتشغَلُ العواطفَ بِنَفسِها، وتَسُوقها إلى النّشاطِ والرّاحة والدَّعة. وأنتَ في قَرارة نفسِكَ تسْخَرُ مِن عِلْم أرسطو، ومِن قَولي وعمَلي، وليكُنِ الأمرُ كذلكَ، لَيْسَ هذا مُهمًّا، وكلٌّ يختارُ طريقَه، ونستمرّ على ذلكَ، لكنّه يجبُ أن تعْلَمَ بأنّنا نسْمَعُ هذه الأنغامَ بأُذنِ الرّوح، فقد أنشَدَ سَنائي:

إنَّ أنينَ النّايِ لا يخلُو مِن أَلَم[1] وإنّ الاشْتِياقَ لا يخلُو مِن وَجْهٍ أَصْفَر

فمِنْ دُونِ لِسانٍ، أَخبرَ الأُذنَ ومِن دُونِ بَيانٍ، أَخْبرَ العَقْلَ

فمِنْ نَفَسِه تظلُّ الشُّعَلُ تنطلقُ وما العَجَبُ في أن يُضْرِمَ النّايُ نارًا؟!

= الخبَر أنّ الحقّ تعالى [١٢٠] سَمّى المحبّةَ النّارَ الكُبرى. وصِفةُ النّار أنّها إذا خَبَتْ جاءتْها الرّيحُ فأذكَتْها وأضرمَتْها. وكلّما اشتدّتِ الرّيحُ زادَ ضَوؤُها واتّقادُها وتَطايرُ شَررِها، فأحرقَتْ بعضَهم، وسوّدتْ آخَرين، وآذتْ غيرَهم، وحيثما حلّتْ حَلّ البلاء.

١ـ كتبَ الأستاذُ فُروزانْفَر في شَرْحِه المثنويّ (الجزءُ الأوّل ـ حكايةُ الشّيخ العازِفِ على الرّباب) في شأن الأنغامِ الموسيقيّة: «... هذه الأنغامُ يجبُ أن تُسمَعَ بِأُذُنِ الرّوح، ولَيْسَ بِأُذُنِ الحِسّ؛ ذلك لأنّ هذه الأنغامَ تأتي مِن عالَمٍ طاهر، وأُذُنُ الحِسّ تتلوّثُ بِسَماعِ التّلفيقات والأكاذيب، ولا تنسَجِمُ معَ الأنغامِ التي تبعَثُ الطُّمأنينةَ والرّاحة. وسَببُ ذلكَ مَحْدوديّةُ القُوى النّفسيّة، ومِنها الأُذُن، التي تسْمعُ الصّوتَ في تناسبٍ مُعيّن. ومثالُ ذلك أنّ الإنسانَ لا يستطيعُ أن يسْمَعَ عَزيفَ الجِنّ، معَ أنّه أيضًا مِن جِنْسِ العالَم الحِسّي نفسِه، ولابدّ أنّه مِثْلَ بقيّة كائنات هذا العالَم يقبَلُ التضاؤلَ بحسَبِ القوّة والقدرة، ولَيْسَ مِن قَبيل أُمور عالَم الغيب، الذي لَيْسَ له نهاية. والخاطِرُ الأوّلُ الذي تُظهِره الأنغامُ هو أنّها تدعو إلى الانتقالِ مِن الظُّلْمة إلى الضّياء، ومِن العَدَم إلى الوجود، ومِن الفَقْر إلى الغنى المعنويّ... الأنغامُ قَريبةٌ مِن الآذانِ، ولكنّها ليسَتْ على نحوٍ يدركُه الإنسانُ بشَرْح الناسِ الآخَرين؛ فإنّها مِن جِنْسِ الأُمور الوِجْدانيّة التي يجِبُ أن يتحسَّسَها كُلُّ شَخْصٍ بمُفْردِه (شَرْحُ المثْنَوي، ج٣، ص ٧٥٩).

ـ أَتَدْري لماذا يُصَفّقُ العاشِقُونَ الثَّمِلونَ في أثناء الرّقص؟
ـ ينفتحُ عَلَى القَلْبِ بابٌ مِن الوارِداتِ ينثرُ السُّرورَ عَلَى الكائنات،
ـ فالرَّقْصُ يكونُ حَلالًا على ذِكْرى الحبيب لِمَنْ في كُلٍّ مِنْ كُمَّيْ ردائه رُوحٌ
(سَعْدي الشّيرازيّ، بوستان، ص ٢٢٦)

لَحَظاتٌ معَ الهائمينَ

ذَهبَ محمودُ القُونَوِيّ، مثْلَما كانَ مَوْلانا قد توقّعَ، إلى المُخالِفينَ والسُّذّجِ المتعصّبينَ في قُونِيَةَ. وبما أتى به مِن كلامٍ انتقاديٍّ وعاصِفٍ وتُهَمٍ صادِمةٍ، أضرمَ نارَ الغضَب، وأحدَثَ طُوفانًا، وقال: تندفعُ مَوْجةٌ عظيمةٌ مِنَ الابتداعِ مِن الخانِقاه المَوْلويّ بسرعةٍ، ومِن دون أيّ عائقٍ، وستقتلعُ هذه الموجةُ المرْعِبةُ سريعًا أصولَ اعتقادِ النّاس وقِيَمهم ومسلَّماتهم مِن الأساس، وسَيوجَدُ مشروعٌ جديدٌ لِفكَرٍ وآدابٍ تُشتَمّ منها رائحةُ الابتداع. وبالأَنغامِ الرّوحانيّةِ للنّاي والرّباب التي تبدو سَاحِرةً، يوقِفُ جَلالُ الدّين، مَوْلانا، المستمِعَ والمُشاهِدَ في حالٍ مِن عدَمِ القُدْرة على الاختيارِ في لَحظات الزّمان، ويُفقِدُه الوَعْيَ بِذاته؛ وفي حقيقة الأَمْر يُنسي الأشخاصَ الذين يَدورونَ مرورَ الوقت. وقليلٌ مِن المؤمنينَ المعتقِدينَ يستطيعون، مع سَماع الألْحانِ السّاحِرة الخلّابة للنّاي والرّباب والدُّفّ، أن لا يُحِسُّوا بالهيَجان والتأثّر في أنفسِهم، وأن لا ينسَوا أنفسَهم.

وفي بَيانِ مَوْلانا لَحْنٌ مُوقِظٌ رَمْزيٌّ، يوقِظُ الشّعورَ الخفيَّ عندَ النّاس نَحْوَ حياةٍ جديدةٍ عِرْفانيّةٍ. وقد أَوْصَى مَوْلانا بِأَنْ ينشغِلَ النّاسُ بالدّعاية لِلسَّماع والدّوَران، فإنّهم

عندَئذٍ يَرَونَ الحياةَ مِن وراء السُّتور الرّقيقة الحريريّة لِدُنيا العِشْقِ والسُّكْر والهيَجان والنّشاطِ والسّرور[١].

[١٢٢] حدثَتْ في المدينة ضَجّةٌ، لِأَنّ مَوْلانا رقَصَ في الخانِقاه بينَ العَشَراتِ مِن الأشخاصِ مِن أهالي قُونِيَةَ، ودارَ دَورانَ الدّراويش، فقالوا: كانَ جَلالُ الدّين يرقصُ ويضْرِبُ الأرضَ بِقَدَمَيه، وقد زلزَلَ الخانِقاهَ بصِياحه ونَعَراتِه. وغدَتْ هذه الحادثةُ أعظمَ خبَرٍ، أو أهمَّ فاجعةٍ، ينتشِر خَبَرُها في المنازِلِ والمحافل والمجالس، ويشيعُ في سُرْعةِ البَرْق حتّى في أمكنةِ العِبادة.

وكان محمودٌ القُونَويُّ كلّما رَأى اجتماعًا للنّاسِ، جاءَ إلى هذا الاجتماعِ متذرِّعًا بذريعةٍ، وكلُّ ما جَرَى في الخانِقاه المَوْلَويّ كان يَحْكيه بإفاضةٍ وتزيُّدٍ ومبالغةٍ. وكان مِن آثارِ ذلكَ أنّ جَماعةً مِن غِلاظِ الأَكْباد لم يعودوا يَرَونَ مَوْلانا جلالَ الدّين مستحِقًّا للاحترامِ والمحبّة، وكانوا، كالطّائرِ الآكِلِ للسَّمَكِ الذي ينقضّ بِسُرْعةٍ على فَريسته، يريدون أن ينطلقوا صَوْبَ الخانِقاه، ويهجُموا علَيه، ويمزّقوا أتباعَ مَوْلانا إرْبًا إرْبًا.

وفي تَجمُّعٍ كان يجلِسُ فيه عدَدٌ كبيرٌ مِن المتعصِّبينَ العُمْيانِ القُلوبِ، ذكَرَ محمودٌ

---

١ ـ لا تَعْرِفْ لَحنًا آخَرَ غيرَ لَحْنِ مَعْشُوقِنا
فإنّ انشغالَنا هو بأولئك الآلافِ مِن الحُلْوينَ كَيُوسُفَ
وقد أَسْكرَتِ اليوسُفِينَ وفضَحَتْهم
غَمزةٌ فاتكةٌ ثَمِلةٌ مِن مَليكنا الخَمّار
وصارَ رُوحُنا مِثْلَ كِلَابِ حَيِّهِ شارِبًا لِلدّم
فهنيئًا أَلْفَ مَرّةٍ لِكَلْبِنا الشّارِبِ لِلدّم
ففي لَحْنِ عِشْقِه مِئةُ رَبيعٍ جديدٍ سَرْمديّ
ومئاتُ آلافِ البلابلِ في وَرْد رَوْضِنا
وعندَما عقَدَ القَلْبُ زُنّارًا مِنْ عِشْق مَسيحِ الزّمانِ
هذا لابدّ مِن أنّ الإيمانَ حَسَد زُنّارَنا هذا
فقد أشْرقَتْ شَمْسٌ مِن الرّوح، لامِن الشّرْقِ ولامِن الغَرْب
رَقَصَ بسببها بابُنا وجِدارُنا كالذّرّة
ونحنُ مِثْلُ الذّرّةِ في السَّيرِ وراءَ تلكَ الشَّمْس
وعَمَلُنا هو الرّقْصُ كالذّرّةِ لَيلًا ونَهارًا
ونُساعِدُ العاشقينَ في العِشْقِ كثيرًا
عندَما صارَ شَمْسُ الدّين التّبْريزيّ اليومَ حَبيبَنا
(ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ١٣٦)

القُونَوِيُّ أنّ مَوْلانا قالَ إنّه يعتقدُ بأنّه يجبُ أن يُبحَثَ عنِ اللهِ تعالى في جُملةِ ما خلَقَه، وأَنْ يُرَى هناكَ، ونحْنُ جميعًا مِن أَنْوارِ الله. وفي أَحَدِ هذه المجالِسِ قالَ أحَدُهم لمحمود: تحدَّثْ عن دَوَرانهم، تكلَّمْ على رَقْصِهم كيفَ يكونُ؟

ومِثْلَ مُصَوِّرٍ بارعٍ ولكنّه خَبيثُ الطَّوِيّة، صوّرَ محمودٌ القُونَوِيُّ ساحةَ السَّماعِ والدَّوَران والرَّقْص عندَ مَوْلانا بمِثْل قولِه:

إنّهم بَعْدَ أن يَشتَدّ تأثُّرهم بالسَّماع(1) كانوا يبكونَ، وأَحْيانًا مِن السُّكْرِ [١٢٣]

---

١ ـ ذُكِر في كتاب «شَرْح التعرُّف لِمَذهب أهْلِ التّصوّف» في فصْل السَّماع والوَجْد، أنّ جماعةً مِن الفُضلاء قالوا إنّ أصْلَ السَّماع هو أنّ الحقَّ تعالى قالَ: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» [الأعراف/الآية ١٧٢]، ومِن لَذّةِ ذلكَ السَّماعِ صارَ الجميعُ والهينَ وقالوا: «بَلَى». وكان لهذا الخِطاب تأويلانِ، فقد كانَ وِصالًا للسُّعَداء وفِراقًا للأشقياء، ولكنّه كان خِطابًا واحِدًا ومُبْهَمًا. وعندَما جاءَ الأمرُ بالسُّجود انفصلَ كلٌّ مِن الفريقَين عن الآخَر فعلًا، ولكِنْ بسببِ الحَيرة لم يَعْلَمْ أحَدٌ في ذلك الوقتِ توجيهَ أيٍّ مِن الخطابَين. والآنَ عندَما يسمعونَ السَّماعَ، يكونُ تَواجُدُهم مِن الاشتياق إلى لذّة ذلكَ السَّماع الأوّل. وقالَتْ جماعةٌ إنّ أَصْلَ السَّماعِ هو أنّ هناك أَرْواحًا عُلْوِيّةً قد أَلِفتْ تسبيحَ الملائكة، ولأنّها فُصِلَتْ عن ذلكَ إذا أُدخِلَ رُوحٌ في جَسَدٍ بواسطةٍ فإنّه لا يثبتُ في الجسَدِ بسبب أَلَمِ فِراقِ سَماعِ ذلكَ التّسبيح، ولكِنْ عندَما يُدخَلُ الرّوحُ في الجسَد مِن دون واسطةٍ فإنّ لذّةَ رَفْع الوسائط هذه تُغيِّبُ الرّوحَ عن لذّة تَسْبيح الملائكة. وعندَما يحدثُ سَماعٌ يذكِّرُه بِلَذّة تَسْبيح الملائكة؛ وذلك التّواجُدُ والاضطرابُ مِن ذلك الأمر.

وقالت جماعةٌ إنّ أصْلَ السَّماع هو أنّ الحقّ تعالى عندَما أنزلَ الرّوحَ إلى جِسْم آدمَ، عطسَ آدَمُ، فخاطبَ الحقُّ تعالى آدمَ علَيه السّلامُ: «يرحَمُك ربُّك يا آدَمُ»، فاستقرّ الرّوحُ على لَذّةِ ذِكْر ذلكَ الخطاب. والآنَ عندَما يحدُثُ السّماعُ يذكِّره بِلَذّة سَماع ذلك الذّكْر، فيظهرُ الاضطرابُ والوَجْدُ. وقيلَ: إنّه عندَما أُلْقِي يوسُفُ علَيه السّلامُ في الجُبِّ خَلَق الله تعالى في تلكَ الجُبّ حَيّةً لِكَي تُسبّحَ بصَوتٍ جميل مِن أَجْل يوسُفَ؛ لِكَي تغدو وَحْشةُ تلكَ الجُبّ أُنْسًا بلَذّة ذلك السّماع. وعندَما كان موسى عليه السّلامُ يستوحِشُ مِن شيء، كانَتْ عَصاهُ تسبِّحُ اللهَ عزّ وجلّ؛ لِكَي يأنَسَ هو بلذّة ذلك التّسبيح. وعندَما التقمَ الحوتُ يُونُسَ علَيه السّلامُ، وصار حَبيسَ بَطْنه، جاء الأمرُ لذلكَ الحُوتِ بأن لا يتوقّفَ عنِ التّسبيح لِكَي لا يحزنَ حَبيبُ الله. سُلَيمانُ،علَيه السّلامُ، أيضًا سبّحَتِ الطّيرُ فوقَ رأسه مِن أَجْلِ أن يكونَ له بِلذّة سَماع ذلك التسبيح أُنْسٌ وبهجة. وفي يومٍ مِن الأيّام لم يسْمَعْ تسبيحَ الهدهد، فكان هذا عِلّةً لِطَلَبه. ويعتقدُ أبو عبد اللهِ النِّباجيّ أنّ السَّماعَ هو الذي يحرّكُ الفِكْرَ أو يُبكِي العَينَ، وما عدا هذَيْن فهو كلّه فتنةٌ. وقال الجُنَيدُ: السّماعُ مِن دون وَجْدٍ حَرامٌ. =

والجَذْبِ كانوا يَرْقُصون، ويصفّقونَ ويمزّقونَ الجُيوبَ ويَصيحونَ. وفي أَثْناءِ الرَّقْص كانوا يَدورونَ حولَ أنفسِهم وحولَ مَوْلانا، ويُلْقونَ أَغطيةَ رؤوسِهم، وكان عدّةٌ منهم يمزّقونَ ثِيابَهم، ويرتَمونَ باتّجاهِ القَوّال (المُطرِب)، ويقبّلُ بعضُهم أَيْديَ بعضٍ وأَقْدامَهم. وأحيانًا كانوا يَجْثُون على رُكَبِهم أَمامَ مَوْلانا على التّراب ويَسْجُدونَ، ويحتضِنُ بعضُهم بعضًا. ويقولُ هؤلاءِ: إنّ في هذه الحرَكات جميعًا نِكاتًا عِرْفانيّةً ودقائقَ وظرائفَ صُوفيّة. [١٢٤] فالدَّوَرانُ إشارةٌ إلى الحالةِ التي يُشاهِدُ فيها العارفونَ التّجلِّيَ المطلوبَ في الجِهات كلّها. وفي كُلّ جِهةٍ يتّجهونَ إليها في دَوَرانهم، يكونُ لهم نَصيبٌ مِن ذلك الفَيْض. القَفْزُ رَمزٌ للاشْتياقِ إلى وِصالِ العالَم العُلْويّ. الرَّقْصُ إشارةٌ إلى أنّ السّالِكَ في تلكَ الحالِ يقهَرُ النَّفْسَ، ويَدُوسُ بِقَدَمَي الهِمّةِ والعَفافِ والإخلاصِ على كُلّ ما سِوَى الله (الأغيار). التّصفيقُ عَلامةٌ على السُّرور بِحُصولِ الشّرَفِ والوَصْل، وأمارةٌ على التّوفيق في قَهْر جَيْش النّفس الأمّارة.

كان أَحَدُ مُحِبّي مَوْلانا ينادي على نَحْوٍ متواصِلٍ في الخانِقاه: إذا شاءَ الأَشْقياءُ

= وأقدَمُ محافلِ السَّماع والدّوَران كان يجري في مُدُن مِيْهَنةَ ونَيْسابور وطُوس، بأمر الشّيخ أبي سَعيد أبي الخَير. وقد ذكَرَ صاحبُ كتاب «**أسرار التوحيد**» في أَحْوالِ شَيخ مِيهَنةَ عندَما كانَ صغيرًا قولَه: كانَ لِوالد شَيخِنا معَ الجَمْع العَزيزِ لهذه الطّائفة مجلسٌ خاصٌّ، إذ كانوا في كلّ أسبوعٍ مَساءً يأتونَ إلى منزلٍ واحِدٍ مِن ذلك الجَمْع، وعندَما كانوا يفرُغونَ مِن الصّلاة وقِراءة الأَوْراد كانوا يؤدّون السَّماعَ. وذاتَ مَساءٍ، كان والِدُ شَيخِنا مَدْعوًّا إلى الدّراويش، فالتمسَ من شيخِنا أن يأتي معَه، لِكَي يراه الأعزّاءُ الدّراويشُ، فأتى والدُ شيخِنا بابنه أبي سَعيد، وعندَما انشغَلوا بالسَّماع أنشدَ المطْرِبُ هذا البيتَ:

عِشْقُ «بَلَى» هذا عَطاءٌ للدّراويش وقَتْلُهم أنفُسَهم هو وِلايتُهم

والدّينارُ والدّرهَمُ لَيْسَا زِينةً للرّجال بَلْ تقديمُ الأَرْواح، نِثارًا، هو عَمَلُ أولئك الرّجال

عندَما غنّى المطْرِبُ هذا البيتَ ظهَرَ للدّراويش حالٌ ووَجْدٌ، وفي تلكَ اللّيلة ظلّوا يرقصونَ على معنى هذا البيت حتّى مَجيء النّهار، وكانوا على تلكَ الحال [الأصل].

والتُّعَساءُ دَواءً لِعِلاجِ آلامِهم الجِسْميّة والرّوحيّة فَلْيتوجّهوا إلى السَّماعِ والرَّقْص.

حدَثَتْ هَمْهَمةٌ وَسْطَ المجلِسِ تقولُ إنّه لابدّ من قَلْبِ الأمور رَأْسًا على عَقِب، لابدّ مِن إيلامِ جَلال الدّين. واقترحَ عَددٌ مِن الأشخاص أنّه لابدّ مِن عَدِّ الثّواني في انتظارِ مجيء شَمْسٍ إلى قُونِيةَ، فإذا جاءَ إلى قُونِيةَ يُدمَّرُ الخانِقاهُ فوقَ رَأْسِه ورُؤوسِ أَتْباعه؛ لِأنّه مُبتدِعٌ. رَجُلٌ طاعِنٌ في السِّنّ كان معلومًا أن كَلامه مَسْموعٌ عندَ الآخَرين أمَرَ بِأَنْ يؤذَى جَلالُ الدّين حَيثُ رُئِيَ، وأن يُسَبَّ، ولابدّ أن يُبدَأَ في قُونِيةَ بِمُبارَزةٍ لا هَوادةَ فيها لِلسَّماعِ والدّوَران والرَّقْص. اطرُدُوا القَوّالينَ (المُطْرِبينَ) مِن المدينة، لابدَّ مِن إبعاد هذَين المريضَين نَفْسيًّا عن النّاس. لابدّ مِن تَبنّي خُطّةٍ محْكَمةٍ لِلتّخلّص مِن شَمْسٍ ومحبوبه. هذانِ الشّخصانِ لَيْسا عاقِلَين، ومِن الأَفضَلِ أن يُرْسَلا، مِثْلَ الشِّبْليّ[1]، إلى مستشفى الأمراضِ العقليّة.

قرّرَ المحفِلُ الرُّوحانيّ في قُونِيةَ، لِآخِرِ مرّةٍ، أن يُرْسِلَ ممثِّلينَ له إلى مَوْلانا جَلال الدّين، وأن يطلُبَ منه هؤلاءِ المُمَثِّلونَ أن يُغلِقَ بابَ الخانِقاه، وأن يكفَّ عن الدَّوَرانِ والسَّماعِ والابتداعِ، التي هي مخالفةٌ للعُرْفِ والمنطِق والعَقْل. وهكذا أُمِرَ ثلاثةُ أَشْخاصٍ مِن ذَوي التّجربة والخِبْرة بِأن يذهَبوا في هذا الشّأن إلى جَلال الدّين. وقد ذهبوا فِعْلًا، وعندَما وصَلوا إلى خانِقاه المَوْلَويّين أكرمَهم مَوْلانا، وأجلسَهم في صَدْر المجلس. وسُئِلَ: هَلْ صَحيحٌ أنّ مَوْلانا قد حدّدَ يومَي الاثْنَينِ والخميس مِن كلّ

١ ـ أبو بَكْر، دُلَف بنُ جَحْدَر ـ وقيلَ هو: جَعْفرُ بنُ يونُس ـ المعروفُ بالشِّبْليّ، الصّالحُ الخُراسانيُّ الأَصْلِ، البَغْداديُّ المولِدِ والنّشأة. صَحِبَ الشّيخَ أبا القاسِمِ الجُنيدَ ومَن في عَصْره من الصُّلَحاء، رضيَ اللهُ عنهم.. ونسبتُه إلى شِبْلَة، وهي قريةٌ من أعمال أُسْروشَنةَ الواقعة وراءَ سَمَرْقَنْدَ من بلاد ما وراءَ النَّهْرِ، تُوفّيَ سنة ٣٣٤هـ في بغداد [المترجمُ عن: وفَيات الأعيان لابن خَلّكان، نشرة إحسان عبّاس، ٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٦].

أُسبوعٍ لإجراء السَّماع؟ ـ هَلْ صحيحٌ أنّه في لَيالي الجُمَع يذهبُ مَوْلانا إلى قَصْر أَمين الدّين ميكائيل(١)، ويشاركُ في مجلِس سَماعٍ مخصَّصٍ للنّساء؟ ـ هَلْ صحيحٌ أنّ النّساءَ في هذا المجْلِس ينثُرْنَ الوَرْدَ فوقَ رَأسِكَ، وَلَدَيهنّ توقٌ إلى السَّماع؟ ـ هَلْ [١٢٥] صَحيحٌ أنّه حدثَ البارحةَ في الخانِقاه أَنْ كنتُم لِساعاتٍ منشغِلينَ بالدَّوَران والرّقْص؟

ـ نعَمْ، صَحيحٌ تمامًا، أَذهَبُ أيضًا إلى قَصْر أَمين الدّين ميكائيل، وأمُّ سُلْطان وَلَدْ أيضًا تشارك في مَجْلِس سَماع السّيِّدات.

ـ أَلَيسَ هذا العمَلُ مخالفًا لِلْعُرف والأَخْلاقِ والمنطِق؟

ـ لا، لا. بَلْ هو لَطيفةٌ خَفيّةٌ ينشَأُ عنها العِشْقُ.

ـ أيُّ دَليلٍ لكم على هذا؟

ـ مَوْلانا الذي لم يفقِدِ الهدوءَ الظّاهريّ قالَ: مِن قَبْلُ، أتذكّرُ أنّ سَنائي، الشّاعرَ والعارفَ الإيرانيّ الكبير، قد أنشَدَ:

عنـــــدَما يـــــدخُلُ العــــارِفونَ في الـــــسَّماع
يـــسْحَبونَ الـــسِّرَّ مِـــن الـــسّماءِ كالـــسَّماع
وقَـــــدْ جـــــاءَ في كتـــــابِ الله بِـــــلا كَيْـــــفٍ
وَصْـــفُ شَـــأْنِ الـــذين يـــستَمِعُونَ [فيتّبعـــون]

---

١ ـ كان يحتلُّ منصِبَ «الاستيفاء»، أي التّحقيق في الأُمور الماليّة لدى السّلطنة السّلجوقيّة في قُونِيةَ في عَصْر مولانا جلال الدّين. وقد رُقِّيَ إلى منصب نائب السّلطان في زمان عزّ الدّين كيكاوس، الذي جَلسَ على كُرسيّ السّلطنة عام٦٤٦هـ/١٢٤٨م. ويذكرُ الأفلاكيُّ أنّه كان يأتي لزيارة مولانا مع كبار القوم، وكانت زوجُه تدعو مولانا إلى مجالسِ النّساء، وكان مولانا يتحدّث معهنّ ويؤدّي السَّماع، وكانت هذه السّيدةُ تضعُ الوَرْدَ على رأس مولانا [المترجم عن: رسائل مولانا جلال الدّين الرّوميّ، التّرجمةُ العربيّة عن الفارسيّة بِعِناية عيسى علي العاكوب، نَشْر دار الفكر في دمشق، ط١، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٨].

ولابُدّ مِن الوَجْدِ، لأنّ الإنسانَ يكونُ من دونِ وجود
ويكونُ قلْبُه على هذه المَجْمَرةِ كالعُود

لَسْتُ مُبتدِعًا، فقَدْ كان الدّوَرانُ والسَّماعُ منذُ زَمَنٍ بعيدٍ مَحَلَّ اهتمامِ عارفي الإسلامِ وإيران، وقد استعمَلَ الصّوفيّونَ الرّقْصَ في القَرْنِ الثّالث الهجريّ، وآمَنوا بجَدْواه. الرّقْصُ ثَورةٌ ونَماءٌ وهَيَجانٌ وتَرْبيةٌ للذّات، هيَجانُ السُّكْرِ وصوْتُ معرفةِ الإنسان هو الأثَرُ الذي يظهَرُ في السّالكينَ. وهذه الآثارُ القَلْبيّةُ والرّوحيّةُ لِلدَّوَران والرَّقْصِ والوَجْد، التي تنزِلُ على قَلْب السّالِكِ مِن دون تكلّفٍ بعْدَ تعرُّضِه للسَّماع، عندَما تَقْوى وتشتدّ تؤثّر فيه اضطِرارًا، أو تُرغِمُه على أن تظهَرَ صَيْحاتُ السّرور من قلْبِه، وأن يقفِزَ مِن مَكانِه ويهتاجَ، فيعبِّر عن ذلكَ بالتّصفيق والرَّقْص. وتَبَعًا لذلكَ، يكونُ الإنسانُ العارِفُ في هذا الوَضْع في تَصرُّفِ الغَيب وإرادته، ولَيْسَ لديه هو إرادةٌ من ذاته؛ ذلكَ لِأَنّ محرِّكَه الشّوقُ إلى الجَمالِ وضُروب المَحاسِن. وبتعبيرٍ أجملَ، السَّماعُ أَسْرارٌ مَلَكوتيّةٌ، وعَلامةٌ على اللُّطْفِ الأزَليّ وصَفاءِ الخاطِر. نعَمْ، يرقصونَ لِأَنّهم نَجَوا من قَبْضةِ شَيْطانِ النّفْس وأفاعي التّمنِّياتِ الشيطانيّة. صمَتَ مَوْلانا، ولم يقُلْ شيئًا آخَر.

قالوا: هذه الأعمالُ (السَّماعُ والدَّوَرانُ) لا تتّفقُ معَ العَقْل والأخلاقِ الإنسانيّة والدّينيّة. وأنتُم بهذه البِدَع والتّشويقات تُعْرِضون حتّى عن معبودِكم، وتُضِيعونَ إيمانكم بالتّدريج. ومؤسِفٌ جِدًّا أنّ عالِمًا كبيرًا مثْلَكم يقَعُ تحتَ تأثير سِحْر مُشَعْوِذٍ مِن تَبْريز. هذا إثمٌ لا يُغتفَر.

ـ إنّ خطأَكم وخطأَ الآخَرينَ في قُونِيةَ هو نفسُه.. الإنسانُ العارِفُ يزدادُ إيمانُه

[١٢٦] كلَّ يوم. في كُلّ لَحظةٍ تتحسّنُ معرفتُنا لمعبودنا. وإذا كنتُم لا تعرفونَ له أكثرَ من اسْمٍ، فإنّنا نعتقدُ أنّه أقربُ إلينا مِن حَبْل الوَريد.

الإنسانُ العارِفُ مَثَلُه مَثَلُ العُشْب، عندَما يأتي الرّبيعُ يغدُو الهواءُ منشِّطًا، وشَمْسُ الرّبيعِ بِأَنوارها تُعطي الأرضَ قوّةً، فتتفتّحُ البذورُ، وتخضَرُّ الأشجارُ بمَدَد نَسيم الرّبيع، وترتدي قَباءً أخضَرَ مِن الورَق. ومِثْلُ هذا القُوّةُ التي تنتابُ الإنسانَ التي تؤثّر في يَنابيع العَواطِفِ عندَما يقَعُ تحتَ تأثيرِ السَّماع، فلَها عَينُ آثارِ نَسيمِ الرّبيع المنعِشِ للرّوح في النّباتات. إذ يُحرِّكُ السَّماعُ باطنَ الإنسان الخامِدَ بما ينطَوي علَيه مِن عناصرِ إثارةٍ وتهييج. كلُّ شيءٍ في الإنسان يكتسِبُ قوّةً جديدةً، ضُروبٌ مِن السّرورِ والابتهاج تبشِّر بلَحَظاتٍ مُسْكِرةٍ في حالِ وِلادةٍ، ولهذا السّبب يبدأ الدّوَرانُ والسَّماع. وهذه جميعًا آثارُ السَّماعِ، وأساسُ الاتّصالِ بعالَم الباطن وكَشْفِ الحقائق والأسرار. إنّه عمَلٌ أخلاقيٌّ، ولَيْسَ بِدْعةً وكُفْرًا. صَحيحٌ أنّ الدّوَرانَ والرَّقْصَ حرَكةٌ جِسْمانيّة، لكنّه على الحقيقة ينطوي في النّهاية على وَجْدٍ رُوحانيّ، والإنسانُ العارِفُ أو السّالكُ يطُوفُ حولَ الرّوحِ وحولَ المعشوق:

عنـدَما يُعـاقِرُ العاشـقونَ الهـائمونَ الـشَّراب
يَـــسْكرونَ بِـــصَوتِ دَوَرانِ الفَلَــك
يَـأْخُـــذونَ بِالــدَّوَرانِ كالــدُّولاب
ويَنــوحُــون عَلَــى أَنفـسِهم كالــدّولاب
فــلا تَعِــبِ الــدّرْويشَ الــذّاهِلَ الثَّمِــلَ
لِأنّه غَريقٌ؛ ومِن أَجْلِ ذلكَ يـضْرِبُ بِقَدَمَيهِ ويَدَيه

ونحنُ نعتقدُ أنّ منبعَ الصّفاتِ الذّميمة عندَ الإنسان هو النّفسُ الأَمّارة. ومُجاهَدةُ النّفس، عَلَى الحقيقة، معركةٌ لا يتيسَّرُ الانتصارُ فيها على مَدَد الذّكاء والعَقْل فقط. وقد اختَرْنا الطّريقَ الصّحيحَ، ونحْنُ نُعْطي للإنسانِ العارِفِ هدوءَ البال وسَكينةَ الخاطر؛ لِأَنّ المُيولَ المنحَطّةَ والمخالِفةَ لِلْأَخلاق تُحتقَر عِرْفانيًّا. لا أَعْلَمُ: أيُّ شَيء مِن عَمَلنا وحرَكتنا هو مجالٌ لِلطَّعْن والانتقاص؟ لماذا لا يريدُ المتعصِّبونَ في قُونِيَةَ أن يطّلعوا على حقائقِ الكائنات؟ لماذا لا يريدونَ أن يعلَمُوا أنّ السّالكينَ يهتاجونَ لِلَحَظاتٍ ويهيمونَ؛ لِأَنّ بازِيَّ نفوسِهم يريدُ أن يطيرَ مِن ضِيق سِجْنِ الدّنيا الفانية المظْلِمِ المُعْتِم، إلى الأعالي والقِمَم، فالرّجالُ الحقيقيّون يرقصونَ في دِمائهم.

ـ يا مَوْلانا، أنتَ تعلَمُ جيّدًا أنّه لَدَينا مِن أَجْل مُقاومةِ المُيولِ النّفْسانيّة والرّغائبِ والشّهَوات، مِن الوِجْهة الدّينيّة والأخلاقيّة، أصولٌ ومبادئُ، فلماذا لم تستفيدوا منها؟

ـ نحنُ بدَأْنا بجهادِ النّفْسِ أو الباطنِ منذُ زَمنٍ بعيد، وظَفِرْنا بنتائجَ مؤثّرة، [١٢٧] وفي المستقْبَل، سنقتَلِعُ مِن الأَساس كُلَّ الجرائمِ وضروبِ القُبْح والتعصّب في المجتمع، بمُساعَدةِ محبّةِ الخَلْقِ والمُساواةِ والصّفاء والسّماعِ والدَّوَران. وقد نَهَضْنا لمقاومةِ الرّياءِ والتّظاهُر والكَذِب. وأداءُ العِباداتِ والطّاعاتِ، واجتنابُ المعاصي، هي أَعْمالُنا الأساسيّة. وكلُّ النّاسِ الذين يعبدونَ اللهَ، في أيّ مذْهَبٍ ودِين، مَحَلٌّ لاحترامِنا وإِكْرامِنا مِن الصّميم. ونحِبُّ الوجودَ والإنسانيّةَ والاستمتاعَ بمَواهبِ الطّبيعة. والسَّماعُ والدّوَرانُ عندَنا وسيلةٌ لا هدَفٌ. السَّماعُ[١] مِن مَجالي التصوّفِ العِشْقيّ،

١ ـ السَّماعُ في اللّغة يعني الاستماعَ، وهو في اصطلاحِ أهْلِ التّصوّف: الصّوتُ الجميلُ واللّحنُ الموسيقيُّ والرّقْص، التي تغدو مبعثَ تَلْطيفِ الرّوح، والتّوجّهِ إلى عالَم الباطن، والسّيرِ في عالَم المعنى، والاستغراقِ في عظَمةِ ذات الحقّ. فَقِراءةُ الأبياتِ اللّطيفة، وإنشادُ الغزَليّاتِ العِشْقيّة، في مجالس الصّوفيّة، تدفَعُ بِتَلْحينها الحاضرينَ إلى =

وهو مَشْعَلٌ متّقِدٌ للباحِثينَ عن العِرْفان.

= النهوض للسَّماع والرّقْص، وكانَتْ منذُ زَمنٍ بعيد مَحَلّ اهتمامِ جماعةٍ مِن شُيوخ الطّريقة والسَّير والسُّلوك. والرّقْصُ في اصطلاح المولَوِيّينَ حرَكاتٌ منتظِمةٌ موزونةٌ يقوم بها الصّوفيّةُ في السّماع تُعْطَى للسّالكينَ عَلَى أَثَر الحال والوَجْد والجَذْب. وقد قالَ أبو سعيد أبو الخير في فائدة ذلك: «لِلشَّبابِ نَفْسٌ لا تخلو مِن الهوى، ويغلِبُ علَيهم هَوى النّفْس، ويغلِبُ الهوى على الأعضاء كلّها، وعندَما يصفّقونَ يتلاشَى هوى أيديهم، وعندَما يرفعونَ أقدامَهم يتضاءلُ هوى أقدامهم. وعندَما يُنتقَصُ الهوى مِن أعضائهم بهذه الطّريقة يستطيعونَ حِفْظَ أنفسِهم مِن الكبائر الأخرى. وعندَما تجتمعُ الأهواءُ، والعِياذُ بالله، يبقَون في الكَبيرة. ونارُ الهَوى تتبدّدُ بالسَّماع، والأَولَى أن تتبدّدَ على شيء آخر (أسرار التوحيد، ص ٣٢٣).

ـ قالَ: يا عنقاءَ الحقِّ، يا مَنْ أنتَ للرّوح مَطاف
الشّكْرُ للهِ أنّكَ قد عُدتَّ مِنْ جَبَلِ قاف
ـ يا إسْرافيلَ أَوانِ قيامةِ العِشْق،
يا مَنْ أنتَ عِشْقٌ لِلْعِشْق، ويا مُنْيَةَ العِشْق
(المثْنوي، ٤٦٩٧/٣ ـ ٩٨)

مَنِ العارفُ؟

إِجاباتُ مَوْلانا الواضِحةُ النافِذةُ الصّريحةُ أَغضَبتِ السّائلينَ العُمْيانَ القلوبِ الخَبيثي الطَّوايا.كَلِماتُ مَوْلانا المؤثِّرةُ المُبارَكةُ ذاتُ ضِياءٍ خاصّ. وقدِ انتبهَ هؤلاء إلى أنّ مَوْلانا لَدَيه رُوحٌ قاهِرٌ، وقلبٌ طاهِرٌ، وإيمانٌ راسِخٌ، يؤمِّلُ التّحْليقَ في قِمَمٍ وذُرًى فوقَ مُسْتطاعِ البشَر.

أدركَ الأَشْرارُ سَريعًا، ورَأوا بِأَعينهم، أنّهم هُزِموا في ميدانِ معركةِ الحِجاج والمُباحَثة؛ ولهذا السّببِ سألوا بشَيءٍ من الوَقاحة:

ـ يا مَوْلانا، أَجِبْنا بصَراحةٍ تامّة وقَطْعيًّا: هَلْ تؤمنُ بالله تعالَى والرّسولِ الأكرم؟ أو أنّ شَمْسًا قدِ انتزعَ مِنكَ كلَّ هذه العقائدِ والقِيَم المُتعالية، فصِرْتَ ـ كما يقولُ أهلُ قُونِيةَ ـ عابدًا للشَّمْس؟

هذا السّؤالُ هَزّ مَوْلانا بِقُوّةٍ، وكأنّه إعصارُ الشّتاءِ القارس الذي يقضي على الأَشْجار الضّخْمة. وقد حاولَ جَلالُ الدّين أن يحتفِظَ ببرودةِ دَمِه، وهُدوءِ جِسْمِه ورُوحِه، واضطُرّ أن يتأنّى قليلًا، ثمّ غَرِق في التّفكير. هزّ رأسَه، وتَدَحْرجَتْ قَطْرةُ دَمْعٍ مِن عَينه وقالَ:

ـ اعلَموا أنتُم، وامضُوا إلى أَصْحابكم وقولوا لهم: أنا، بعْدَ الشّيخ العَطّار، الذي كان

يُسَمّي نفسَه «المِسْكينَ»، مِنْ أَطْيارِ الجَنابِ الملَكوتي، ومِن مُشرَّفي حَضْرةِ الوِصال. أنا أؤمِنُ بمَدْلول قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» [الذّارِيات /٥٦]. أنا، مِثْلَ مُبْدِع كتابِ «مَنْطِق الطَّير» و«إلهي نامه»(*)، أُؤمِنُ بأنّه [١٢٩] يجِبُ حِفْظُ عِلْمِ الدّين جيّدًا، والاستماعُ إلى أَوامِرِ فَخْرِ الأَنْبياءِ محمّدٍ المصطفَى (علَيه الصّلاةُ والسّلام)، وأنا أقولُ:

عِلْمُ الدّينِ هو الفِقْهُ والتّفسيرُ والحديث ...(١)

وأقولُ:

رَجُلُ الدّينِ الحقيقيُّ يكونُ صُوفيًّا وقارئًا وفَقِيهًا وإذا لم تقرَأْ هذا فسَأَدْعوكَ سَفيهًا

أعتقدُ أنّ طَريقَ النّجاةِ من الشّقاواتِ والمنغِّصاتِ والعَذابات، التي تكتنفُ الحياة، هو الإيمانُ بالله العظيم. وإنّ المادّيّينَ والدّهْريّينَ هم أكثرُ النّاسِ قَلَقًا ونكَدًا علَى وَجْه الأرض. وهم لا يتمتّعونَ بِهِباتِ الطّبيعةِ ولا بحقائقِ الحياة. هؤلاءِ وأَتْباعُهم لا يعلَمُون مقامَ التقرُّب. لا يعلَمُونَ ما العَدَم، ولا يعرِفونَ خالِقَ التّضادّ الذي هو أَساسُ الوجود. وأنتُم أيضًا، تَنْحُونَ النَّحْوَ نفسَه، لِأَنّ التّعصّبَ والحسَدَ سَلَبا أعينكم نِعمةَ البَصَر. فلو تقدّمتُم خُطْوةً نحْوَ عالَمِ ما وراءَ هذه الطّبيعةِ الظّاهرة لانفتحَتْ آفاقٌ جديدةٌ أمامَ أعينكم. أمّا نَحْنُ فأينَما نَظَرْنا، شَرْقًا وغربًا وجَنوبًا وشَمالًا، رَأَينا وَجْهَ الله تعالى. نحْنُ ندعو النّاسَ إلى أن يأتوا إلى مَعْبَد العِرْفان. وأَنا أَنْحَني تعظيمًا لباني الكَعْبةِ وقَصْرِ الوجود العظيم، لِلْفَيّاضِ المطْلَق، وأَمامَ رَبِّ الكائنات. ولو كُنْتُ قادرًا ومُسْتَطيعًا لَسافرْتُ بَحْثًا عن شَمْسٍ إلى كُلِّ مكان، وكنتُ المدّاحَ الذي لا يعرِفُ الكَلَلَ لجَلالِ الأَبَديّة، ولَأَوْصلْتُ هذه العبارةَ لهذا

---

* ـ العارفُ الشّاعرُ فريدُ الدّين العطّار النّيْسابوريّ.

١ ـ شطْرُ بيت شِعْر.

العالِم العظيم إلى أَسْماعِ الخلائق: أنّ اللهَ تعالى خَلَقَ العَقْلَ لِكَي يعْرِفَه النّاسُ بِمُساعَدته المعرفةَ الصّحيحة. وكُنتُ أردِّدُ: تَعرَّفوا وجودَ الله وعظَمتَه في الطّبيعةِ وفي الأَفْلاكِ، اقتَربوا مِن الطّبيعة لِكَي تعْرِفوا خالقَكم جيّدًا. مَنْ ذا الّذي لم يسْمَعْ نِداءَ الله في الصَّمْت وفي قَرارةِ القَلْب، اللهُ الذي يَهْدي النّاسَ إلى جَنابه، وذاتُه هي دَليلُ وجودِ الموجودات.

أنا مَدّاحُ الخالِقِ الذي قالَ في القُرآن الكريم: «كُنْتُ كَنْزًا مَخْفيًّا، فأَحببتُ أن أُعْرَفَ فخَلَقْتُ النّاسَ»(*). أُريدُ أن نَعْرِفَ هذا الخالِقَ جيّدًا، وبقَدْرِ ما هيّأ الله سُبْحانَه لنا، اللهُ الذي خَلَق أرواحَنا بنُورِه:

ولَمّا كانَ مُرادُ الإلـهِ الغَفُورِ وحُكْمُه

في القِدَمِ هو التّجَلّي والظّهورَ

جَعَلَ خَليفةً صاحِبَ صَدْرٍ

لِكَيْ يكونَ مِرْآةً لِمُلُوكيّتِه (١)

اللهُ تعالى، هذا المُسَلِّي العظيمُ لِلْمُصابينَ والمتألِّمينَ، هذا المَلاذُ لِمَن لا مَلاذَ

* ـ الذي ذكَرَه مولانا جلالُ الدّين هو بَيتٌ ترجمتُه: «كان [العالَمُ] كَنْزًا مَخْفيًّا، لكنّه لِغَزارته مزّق (حُجُبَ الخفاء)، وجَعَلَ الأرض أكثرَ إشراقًا من الأفلاك» (المثْنَوي ٢٨٧٦/١). ويذكُرُ بديعُ الزّمان فُروزانفَر أنّ مستندَ مَوْلانا جلالِ الدّين في ذلكَ الحديثُ القُدْسيّ الذي يقول: «قالَ داوودُ علَيه السّلامُ: «يا ربِّ، لِماذا خلَقْتَ الخَلْقَ؟» ـ قالَ: «كنتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا، فأَحبَبْتُ أن أُعْرَفَ، فخلَقْتُ الخَلْقَ لِكَيْ أُعْرفَ»، ناقِلًا عن كتاب «منارات السّائرينَ» لِنَجْم داية الرّازيّ (ت ٦٥٨هـ). وينقلُ فُروزانْفَر أيضًا عن مؤلِّف اللؤلؤ المرصوع قولَه: «حديثُ: كنتُ كنزًا مخفيًّا لا أعرَفُ فأحبَبْتُ أن أُعرَفَ، فخَلَقْتُ خَلْقًا وتعرّفتُ إليهم، فَبي عَرَفوني» قال«ابنُ تَيميّةَ: لَيْسَ مِن كلام النّبيّ (علَيه الصّلاةُ والسّلامُ)، ولا يُعْرَفُ له سَنَدٌ صَحيحٌ ولا ضعيفٌ، وتَبعَه الزَّرْكَشيّ وابنُ حَجَر، ولكنْ مَعْناه صحيحٌ ظاهِرٌ، وهو بينَ الصُّوفيّة دائر. (يُنظَر: فُروزانْفَر: أحاديثُ مثْنوي، ص٢٩، عن اللّؤلؤ المرصوع، ص٦١) [المترجم].

١ ـ المثْنَوي، ٢١٥٨/٦، ٢١٦٠).

له، هذا الذي هو أَساسُ وجودِ [١٣٠] جميعِ المخلوقينَ، ومَلْجَأُ الأرواحِ المُتْعَبة، ومُجِيبُ دَعَواتِ البشَرِ ورَغائبهم، يجِبُ أن يَعْرِفَه الإنسانُ معرفةً صَحيحةً، وعندَئذٍ يودِّعُ الدّنيا بِرِضًا وسُرورٍ. العِرْفانُ يعلِّمُ النّاسَ حقيقةَ مملكةِ الأَبَديّة والقُوّةِ السَّرْمَديّة لِلْأَحَديّة. ونحنُ عَبيدٌ نعزِفُ في اللَّيلِ والنّهار أَنغامًا في الثّناء على الحقّ سُبْحانَه. ونحْنُ نعْلَمُ أنّ كُلَّ أنّةٍ، وكُلَّ صَوْتٍ، وكُلَّ هَمْسةٍ تنطلقُ نحْوَ السَّماء بمَعْرفةٍ وحُضورِ قلْبٍ سَتَلْقَى الإجابة. لم يستطعِ الإنسانُ حتّى الآنَ أن يدرِكَ عظَمةَ خالِقِ الكائنات على نَحْوٍ دقيق، أو كما يناسِبُ ويليق. أنا أؤمِنُ بالله تعالى، وأُحِبُّ رَسُولَه الأكرَمَ محبّةً عظيمةً. وكُلُّ ما في قَلْبي وفي ذِهْني هو مِن عَطايا الدّين المُحَمَّدي. وإذا لم أَغْدُ مُفيضًا لهذه العَطايا، وهذا الكرَم الذي لا نهايةَ له، فمَتَى أقدِرُ على إِشْعالِ مَشْعَلِ العِلْم والعِرْفان، وإرشادِ النّاسِ إلى طريق الصّلاحِ والنّجاة. فمِنَ النُّورِ المُحمَّديّ انتصاري وتَوفيقي، وإذهابي ضُروبَ الإزعاجِ والاضطراب والقَلَق الدّاخليّ.

وأنا وشَمْسُ التَّبْريزيُّ نقولُ: إنّ كُلَّ إنسانٍ بَلَغَ مرتبةَ الكَشْف، وأزالَ حِجابَ التّعَيُّن مِن أَمامِ عَينِ قَلْبه، يُحِسُّ بوجودِ الحقّ تعالى في مراتبِ الوجود جميعًا، ويَرَى شمْسَ الحقيقة في كُلّ ذَرّةٍ مِن ذرّاتِ العالَم، وفي كُلّ وجودٍ متعيّنٍ وقائمٍ ومُشْرِق:

إنّ الحَقَّ، بَينَ الآخَرينَ، ظاهِرٌ جَليٌّ

كالبَدْرِ بَينَ نُجومِ السَّماء

فضَعْ طَرَفَي إِصْبَعَيْنِ فَوقَ عَينَيكَ

(وانظُرْ) هَلْ تَرَى مِن العالَم شيئًا؟ أَلا فلتكُنْ مُنصِفًا

فتنبَّـــهْ، وارفَــعْ إِصْــبَعَكَ عَـــن عَينِـــكَ

ثـــمّ شـــاهِدْ، بعْـــدَ ذلـــكَ، مـــا تَـــشاءُ(١)

ونريدُ أن نقولَ لِأَهْل قُونِيَةَ، ولِآخَرِينَ مِن أَهْلِ الدّنيا، إنّ الموجوداتِ كلَّها مُبَيّنَةٌ لِصِفاتِ الله تعالى وذاته، وإنّ إدراكَ هذا الانفعالِ وهذه الظّرائفِ والدّقائق غيرُ ممكنٍ إلّا مِن طَريق العِرْفان، وإنّ بُرْعُمَ كُلّ المعارِفِ والعلوم مُحتجِبٌ في مِثْل هذا الانفعال. وأَتْفهُ عناصِرِ الطّبيعةِ وموجوداتِها ينطوي على سِرٍّ من الأَسْرار، ولابدّ لِلْإنسانِ في البَدْءِ مِن الإيمانِ والعِلْم، وبعدَئذٍ يَطيرُ في فَضاءٍ شَفّافٍ في صَفاء الخلود.

استمَعَ السّائلونَ إلى بَياناتِ مَوْلانا المحبَّة بِحَيْرةٍ وتعجُّب. وأضافَ مَوْلانا القولَ إنّ كُلَّ أَثَرٍ وُجُوديّ يُشاهَدُ في أَجزاءِ العالَم، هو ظِلٌّ لوجودِ الحقّ تعالى. والعارِفُ غارقٌ في بَحْرِ العِشْق الذي لا ضِفافَ له. وأنا أَعْرِفُ اللهَ تعالى، وأَرَى اللهَ تعالى. وفي حالِ الحضورِ أمامَ أَنْوارِ الحقّ والفَناء عن نفسي، أغدو ذاهِلًا عن نَفْسي [١٣١] على نَحْوٍ لا أستطيعُ أن أَصِفَه باللّغة. أنا وشَمْسٌ دائمًا مَحَلٌّ للظُّهور، وأنتُم تسألونَ بِوَقاحةٍ: هَلْ تؤمِنُ بالله؟. لَيتَني أستطيعُ تنحِيةَ آدابِ الضّيافة فأسألَكم: هَلْ تعرفونَ أنتُم أنفسَكم؟ ـ هَلْ قَرَأتُم القرآنَ بتَدَبُّرٍ وحُضورِ قَلْبٍ حيثُ قالَ تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحِجْر /٢٩]. اللهُ تعالى يحبُّ هذا الإنسانَ، ويحِبُّ أن يسْمَعَ صوتَه وشَكْواه لَيلًا ونَهارًا. أَلَمْ تسْمَعْ بأنّه جاءَ الخَبرُ بِأَنّ العَبْدَ الذي يدْعُو اللهَ يحبُّه اللهُ تعالى أكثرَ، ويقولُ: يا جِبْريلُ، أَخِّرْ إجابةَ هذا العَبْدِ قليلًا؛ فإنّي أُحِبُّ أن أسْمَعَ صوتَه أكثرَ:

---

١ ـ المثْنَوي، ١٤١٠/١، ١٤١٣.

بُشْرَى لِلطّائرِ الغِرّيد، فإنّه في طَريقِ العِشْق

يكونُ لِلْحَبيبِ سُرورٌ بِأَنينِ لَيالي السّاهِرينَ

إنّ مَعاذَنا ومَلاذَنا هو اللهُ تعالى، وإنّ الاعتقادَ الممتزِجَ بالإحساسِ العَميق بالمبدَأ الأَعْلى مِن الوظائف الأساسيّة للعارِف. والشّخْصُ الذي لا إيمانَ له بينَنا، لا يستطيعُ أن يعيشَ حالةَ الجَذْب والهيَجان.

أيّها الجُهّالُ، اعلَموا أنّ تَعرُّفَ العُشّاقِ المتجاوِزينَ للوجود، الذين طَوَوا منازِلَ الطّريقةِ ومقاصِدَها، له عالَمٌ خاصٌّ[1]، فهم موجودونَ لِكَي يشقّوا الأرضَ والأفلاكَ أَمامَ [١٣٢] الأَعْيُنِ الحسّاسةِ لِلْعارفينَ. يرفعونَ السِّتارَ عن أَسْرارِ الطّبيعة أمامَ الأفرادِ الذينَ يُدرِكونَ الحقيقةَ جيّدًا. والعاشِقُ الحقيقيُّ طالِبٌ لِوِصالِ الحبيب؛ ولهذا السّببِ

---

١ ـ يعتقدُ الشّيخُ شِهابُ الدّين السُّهْرَوَرْديّ أنّه كُلّما قَلّتْ شَواغِلُ الحواسِّ الظّاهريّة تحرّرتْ نَفْسُ الإنسانِ مِن سُلْطانِ القُوى الطبيعيّة، وتمكّنَتْ مِن فَرْعٍ مِن الأُمور الغَيبيّة. وإذا كانَ البشَرُ الكُمّلُ، كالأَوْلياء والأَوْتاد، مُطّلعينَ على شيءٍ مِن المغيَّبات، ويخبرونَ به، فإنّ ذلكَ بِسببِ الأمواج أو الأَصْوات التي يَسْمَعونَها، أو الفِكَر التي يقرؤونَها، أو الشّخصيّاتِ التي يتحدّثون معَها، وبعْدَ ذلكَ يخبرونَ عن المغيَّبات» (المقالة الخامسة مِن حِكْمة الإشراق).

أمّا الشّيخُ الرّئيسُ أبو عَليّ ابنُ سِينا فقد كتَبَ في النّمط الثامن مِن كتاب الإشارات: إذا تحدّثَ أَحَدُ العارفينَ عن الغَيب وأنبأَ عن المستقبل فصَدِّقوه؛ لِأَنّ هذه الكُشوفَ لها فَرْعٌ مِن الأسباب الطبيعيّة.

وأمّا برگسُون، الفيلسوفُ المعروف، فقَدْ وَضَعَ الشُّهودَ في مُقابِل العَقْل، وقالَ إنّه بفَضْل الشُّهود ستنكَشِفُ الأسرار.

ويعتقدُ الكسيس كارليل بِأنّ المخْلِصينَ، وأهلَ الإيمانِ الرّاسخ، يشاهدونَ في بعض السّاعاتِ واللّحَظاتِ الرّوابطَ الخفيّةَ المحجوبةَ بينَ الظاهِرات التي لا ارتباطَ بينَها، بِمُساعدةِ الإلهام والإشراق. وزعمَ أَحَدُ العارفينَ أنّ العارفينَ جميعًا امتلَكوا الإشراقَ ويمتلكونه:

حَذارِ، لا تيأَسْ إذا لَمْ تكُنْ مطّلِعًا على أَسْرارِ الغَيب فلَعلّها مُتَوارِيةٌ في أَلْعابِ خَيالِ الظّلّ، فلا تغتمّ

والعُلَماءُ والفُقهاءُ والفلاسفةُ والعارفونَ المؤمنون، المعتقِدونَ هم عاشقونَ لِعالَم الغَيب المحاطِ بالأسرار، ويسْعَون إلى رَفْع السِّتارِ عن أَسْرار الدّنيا، وربّما يوفَّقون أيضًا.

يقولُ الحَقَّ، ويطلُبُ الحَقَّ، ويسيرُ في طريق الحقّ، وفي النّهاية يَفنَى في الحَقّ، ومِثْلَ القَطْرةِ يرجِعُ إلى البَحْر، يغدو بَحْرًا:

العــارِفُ الكامِــلُ، بِنُــورِ العَقْــلِ والقَلْــب،

يحْكُــمُ عَلَــى عــالَــــم المــاءِ والطّــين

أَحَدُ المُخالِفينَ، عندَما أَطْرقَ مَوْلانا وصمَتَ، قالَ في أُذُن رفيقه: مِثْلُ هذا البَحْثِ يطولُ شَيئًا فشَيئًا، أَلَا تعتقدُ أنّ هذا الكَلامَ نفسَه يصْنَعُ أَرْضيّةً لِكَي يتّبعَ أناسٌ بُسَطاءُ مِثْلُ پروانه شَمْسًا ومَوْلانا؟ أَلا تعتقِدُ أنّ قَصْدَ مَوْلانا هو إثارةُ أَهْلِ قُونِيَة وإيجادُ ثَورةٍ واضطراب؟ ـ يريدُ الشَّيطانُ التَّبْريزيُّ، بفِكَره الجُنونيّة، أن يحوِّلَ هذا المكانَ إلى قِطعة نارٍ ودَم.

ـ كانَ أحَدُهم يهتِفُ: «يا أَللهُ» ذاتَ لَيلةٍ، حتّى يُحَلِّيَ
شفتَه بذِكْره،
ـ فقال له الشّيطانُ: وفي النّهاية، أيّها الثّرثار،
أينَ (لَبَّيْكَ) لِكُلّ هذا التضرّعِ بـ «يا أَلله»؟
ـ فقالَ [لَه الحقُّ بِطَريقِ الإلهام]: إنّ «اللهَ» مِنْكَ هي
نفسَها «لَبّيكَ» مِنّا
وإنّ تضرّعَك وألَمَكَ وحُرْمتَكَ هي الرّسولُ إلينا
(المثْنَوي: ٣/ ١٨٩ ـ ١٩٠، ١٩٥)

عَينُ الباطِن

ابتغاءَ أن يُثبتَ مَوْلانا لِلمُدَّعينَ والحاسِدينَ والأَغرارِ أنّه، حتّى الآنَ، مُسْلِمٌ مؤمِنٌ معتقِدٌ، واصلَ كلامَه:

ـ الأكثرُ خُلودًا مِن النّجومِ والمجرّاتِ والقَمَر والشّمْس إنّما هو القُرآن. إذ مِن الممكنِ في يومٍ مِن الأيّام أن تتوقّفَ الشّمْسُ المتراميةُ الأَطْرافِ والقمَرُ في أرجاء السّماء عن بَعْثِ الضّياء والنّور، أمّا شَمْسُ المُسْلِمينَ فستظَلُّ تُشْرِقُ ما دامَ الوجودُ قائمًا موجودًا. وقد أُوحِيَ إلى الرّسولِ الأكرمِ بالقُرآنِ مِن أَجْلِ أن يطّلعَ علَيه البشَرُ ويُعنَوا به، لِكَي يعمَلُوا بِأَحْكامه. وقد قالَ تعالى: «نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ..» [الحِجْر/٩]. وأتذكّرُ أنّه في أحَدِ الأيّام سألَني الأميرُ مُعين الدّين پروانه أن أنصَحَه وأَعِظَه، فسألتُه: سَمِعتُ أنّك قد قرأْتَ القرآنَ جيّدًا؟ ـ فأجابَ: نَعَمْ. فقُلْتُ: ترامَى إليّ أنّكَ قرأتَ الأُصولَ والأحاديثَ على الشّيخ صَدْر الدّين؟ [*] فقالَ: نَعَم. قُلْتُ: عندَما تقرَأُ كَلامَ الله وكلامَ الرّسولِ وتدرسُهما وتعرفُهما كما ينبغي ويليق، ثمّ لا تنتصِحُ بِذلكَ ولا تتّعظُ، أنّى لكَ أن تسْمَعَ كلماتي وتتّبعُها؟

* ـ المرادُ هنا هو الشّيخُ صَدْرُ الدّين القُونَوِيّ.

وأقولُ وأؤكّدُ: إنّني فَهِمْتُ مُحتوى القرآنِ على نَحْوٍ صَحيح، واطّلعتُ على مَعانيه جيّدًا، لِكَي أتغلّبَ على الآلامِ والمُزْعِجاتِ والمنغّصاتِ ورغائبِ النّفس وضُروبِ التُّهَم والغِيبة والطُّموح المتهوِّر:

القُــــــرآنُ هُــــــوَ أَحْــــوالُ الأنبيـــــاء

أولئكَ الـذين هُـمْ أَسْـماكُ بَحْـرِ الكبريـاءِ الطّـاهر[1]

[١٣٤] وفي اعتقادي، لَيْسَ ثمّةَ شيءٌ أجمَلُ مِن حالة الأنبياء. انظُروا في القرآن نظَرًا دقيقًا؛ لِكَي تكونوا متبصِّرينَ فيه ومنطَلِقينَ في عالَمه. أنا أَحْفظُ القرآنَ عن ظَهْرِ قَلْب. وأنا وشَمْسُ التَّبْريزيُّ نعمَلُ بِأَحكام القرآن، ونحْنُ مُسْلمانِ صادِقان. ويقينًا لم تسْمَعوا أنتُم هذا الحديثَ النّبويّ، لكنّني ذكرْتُه مَرّاتٍ لِأَحبّائي، وهو حديثٌ لِلنّبيّ [علَيه الصّلاةُ والسّلام]: كُلُّ مَنْ يَتْلو القرآنَ علَيه أن يتصوّرَ أنّه حادثَني وحادثْتُه فَمًا لِفَم:

فَــإِنْ أَنــتَ فَزِعْــتَ إِلــى قُــرآنِ الحَــقّ

فقَــــدِ امتزَجْــــتَ بِــــأَرواحِ الأنبيــــاء

فإذا قرأتَ القرآنَ وأنتَ غيرُ متقبّلٍ (أَحْكامَه)

فــافترِضْ أنّــكَ رأيــتَ الأنبيــاءَ والأوليــاء

وإنْ قــرأتَ القِــصَص مُــسَلِّمًا بِمَــدْلولاتها

فــإنّ طــائرَ رُوحِــكَ يَعْــروهُ الــضّيقُ في قَفَــصِه

فالطّــائرُ الحَبــيسُ في القَفَــص

ولا يَسْعَى إلى التحرّر مِن القفَص، يكونُ ذلكَ منه جَهْلًا[1]

---

١ ـ المثنوي: ١/١٤٨٥.

وإنّ قِراءةَ القرآن توضِحُ تدريجيًّا أسرارَ الكائناتِ للقارئ البَحّاثةِ المؤمِنِ المعتقِدِ بمَبادئ الدّين، وتقودُ الأرواحَ المتعَبةَ المسحوقةَ إلى سَكينةٍ مُحَبَّبة. وفي هذه الأحوالِ يفقِدُ مُرورُ الزّمان وضروبُ البُعْدِ والقُرب مفهوماتِها، وتُدفَنُ الخواطِرُ والفِكَرُ المُرّةُ في صَدْر التّاريخ، ويُظفَرُ بِأَجملِ الأحاسيسِ والتّبصُّرات وأعمقِها؛ ذلكَ لِأنّ الإنسانَ يكونُ عندَئذ ضيفَ جَنابِ الله تعالى، الذي يُحدّثُه ويُكْرِمُه. وعندَما يشتدُّ الجَذْبُ الإلهيّ والعِشقُ والتعلّقُ بالحَقّ في نَفْسِ القارئ، في ذلك الوقتِ يطَّلِعُ عِرْفانيًّا عَلَى حقائقِ الأَسْرار، ويغدو قلْبُه مَحَلًا لِتَجلّي الذّاتِ المُتعالِية. انظُروا إلَيَّ أنا ـ جلالَ الدّين الرّوميّ ـ ماذا أقولُ، وكيفَ يَنظُرُ إلَيَّ أَهْلُ قُونِيَةَ. أُريدُ أنا أن أُعلِّمَ أَحِبّائي طَيَّ طَريقِ المعرفةِ ومعرفةَ النّفس، وأقولَ إنّ الكائناتِ جميعًا تُسبِّحُ بِحَمْد الله باشتياقٍ ومِن دونِ توقُّفٍ، وعَلَى الإنسانِ أن يعْرِفَ حقيقةَ الحياةِ والكائناتِ وعِلّةَ خَلْقه.

بعْدَ ذلكَ فصّلَ مَوْلانا القَوْلَ في شأنِ شُروطِ قِراءةِ القرآن المَجيد، واستَشْهدَ لذلكَ بمَقْبوساتٍ مِن آثار محمّدٍ الغزاليّ وأبي طالبٍ مَكّي[٢]. وبعْدَئذٍ، ومِن أَجْلِ إثباتِ فِكْرةِ أنّ الموجوداتِ كلَّها تُثْني على الحقّ تعالى، قرَأَ هذه الأبياتَ بِحَرارةٍ وتشوّق:

أَطْبَــقَ أَبُــو جَهْــلٍ بِكَفّــهِ عَلَــى بَعْــضِ الحَــصَى
وقــالَ: «يــا أَحْمــدُ، عَجِّــلْ، وقُــلْ لــي مــاذا بكفّــي
فــإنْ كُنْــتَ رَســولًا (فَلْتُخْبِــرْني) مــا الّــذي اختفَــى بِكَفّــي
ـ مــا دُمــتَ عَلَــى عِلْــمٍ بِأَسْــرارِ الــسّماء»

---

١ ـ المثْنَوي: ١/١٥٤٧، ١٥٤٩ ـ ١٥٥١.

٢ ـ هو أبو طالب، محمّدُ بنُ عليّ بن عطيّة، المكّيّ الحارثي، الشّيخُ الصّوفيّ صاحبُ كتاب «قُوت القلوب في مُعاملة المحبوب» (ت ٣٨٦هـ).

فقالَ الرّسولُ: «وكيفَ تُريدُ أنْ أُخبرَكَ؟ـ أَأقولُ لكَ ماذا تكونُ (هذه الأشياءُ)،

أَمْ تقـــولُ لَـــكَ هِـــيَ إنّنـــي حَـــقٌّ وصِـــدْقٌ؟»

فقال أبو جَهْل: «إنّ الأَمْرَ الثاني أكثرُ غَرابةً (مِنَ الأوّل)

فقالَ الرّسولُ: «نَعَمْ، ولكنّ الحَقَّ أقدَرُ عَلَى ما هو أكبرُ مِن ذلكَ»

فانطلَقَتْ كلُّ حَصاةٍ مِن جُمْعِه ناطقةً بالشّهادة، مِن دُونِ تأخير

[١٣٥] وقالَتْ: «لا إلهَ إلّا اللهُ» ونَظَمتْ جَواهِرَ «محمّدٌ رَسولُ الله»

وحينَ سمِعَ أبو جَهْلٍ هذا مِن الحَصَى أَلْقَى به على الأَرْض غاضِبًا[١]

وفي وَصْفِ الرّسولِ الذي أؤمِنُ به قُلْتُ كَلامًا ونظَمْتُ أَشْعارًا. وإذا كنتُم أنتُم لم تقرَؤوا القرآنَ قِراءةً صحيحةً، فقَدْ قرأتُ أنا آياتِه مَرّاتٍ كثيرةً بِحُضور قَلْب. وأقولُ لكم: قولُوا أنتُم أيضًا لِأَصْحابِكم المتعصِّبينَ في قُونِيةَ إنّ جلالَ الدّين عرَفَ رَسولَ اللهِ مِن آياتِ القرآن. ويَعتَبِرُ جَلالُ الدّين محمّدًا (علَيه الصّلاةُ والسّلام) منبعَ فَيْضِ الكائنات. وفي لَيلةِ المِعْراجِ العظيمة قال تعالى لِحارسِ عالَمِ الخَلْق، وعالَمِ الإنسانيّة، وعالَم الإسلام: «لَوْلاكَ لَما خَلَقْتُ الأفلاكَ»[٢]. وفي سُورة الأحزاب، الآية ٤٥ نقرَأُ:

---

١ ـ المثْنَوي: ٢١٦٠/١ ـ ٢١٦٦.

٢ ـ جاء ذِكْرُ هذا الأثَر واضحًا في قول مولانا في المثْنَوي (٢٧٣٩/٥) على هذا النحو:

كان العِشْقُ الطّاهِرُ قرينًا لِمُحمّد [عليه الصّلاةُ والسّلام]

ومن أَجْلِ هذا العِشْقِ قال له الله: «لَوْلاكَ»

وفي هذا الشّأن يقولُ الأستاذُ فُروزانْفَر: «مقصودُه هو الحديثُ المعروف «لَوْلاكَ لَما خَلَقْتُ الأفلاكَ»، الذي جاء في كتاب «شَرْح التعرُّف» (ج٢، ص ٤٦) على هذا النّحو: «لَوْلا محمّدٌ (صلّى الله عليه وسلّم) ما خلَقْتُ الدّنيا والآخرةَ، ولا السّماواتِ والأرضَ، ولا العَرْشَ ولا الكُرْسيَّ، ولا اللّوحَ ولا القَلَمَ، ولا الجنّةَ ولا النّارَ، ولَوْلا محمّدٌ ما خلقتُكَ يا آدَمُ». وقال مؤلِّفُ كتاب «اللّؤلؤ المرصوعُ» في شأنه: لم يَرِدْ بهذا اللّفظ، بَلْ وردَ «لولاكَ ما خلَقْتُ الجنّةَ، ولَوْلاكَ ما خَلَقْتُ النّارَ». وعندَ ابن عساكر: «لَولاكَ ما خلَقْتُ الدّنيا». يُنظَر: أحاديث مثنوي، ص ١٧٢.

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا»، وفي سُورة الإِسْراء، الآية ٨٥، قالَ تعالى للرّسول الأكرم (علَيه الصّلاةُ والسّلام): «يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا» . اقتربوا مِن الله العظيم، الذي أنا وحبيبي ومُرادي، شَمْسُ التَّبريزيُّ، ما دُمْنا أَحْياءً نُثْني علَيه ونَمْدَحُه. إنّنا ننظُرُ مِن منظُورِ محمّدٍ المصْطَفى (علَيه الصّلاة والسّلام) إمامِ البشَر، حَيثُ قالَ له ربُّنا سُبْحانَه: (وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ) [الأنفال/٧]. أيّةُ عَظَمةٍ هذه، وأيّةُ رسالةٍ، سُبّوحٌ قُدّوس. وإنّني مِنْ وَحْي الرّسولِ الأكرمِ قُلْتُ:

اسْتَمِعي [أَيّتُها النّفْسُ] لِأَخبارِ صَـدْرِ الـصُّدور

القائـــلِ: لا صـــلاةَ، ثَـــمَّ، إلا بالحـــضور[1]

وقد ظفِرْنا بهذا الحضورِ الذي هو حُضورُ القَلْب. وعلى المُسْلِمينَ في أَثْناء إقامة الصّلاةِ أن لا يفكّروا إلّا بالله تعالى، وأن لا يتذكّروا أيَّ إنسان. تِلْكَ اللّحظاتُ المقدَّسةُ، إذ تكونُ أَنْوارُ الضَّراعةِ مُلْهِمةً، يجِبُ أن تُقْضَى بِكَمالِ الصَّمْت والهدوءِ المقدَّس. وإنّ تضرُّعاتِنا وقتٌ مؤثّرٌ، لِأَنّ وجودَنا يكونُ في خُلودٍ وصَفاء. وذلكَ وقتُ أن يَطيرَ المتضرِّعُ في السّماواتِ بِأَجْنحةِ الكلامِ المُقدَّسِ، منطَلِقًا إلى حَيثُ مَقامُ حقيقةِ الحياة والكائنات، إلى حَيثُ تُحيطُ به هالةُ نُور. وهذا الضَّرْبُ مِن أَفْراد النّاس يظفَرون بِمَقامٍ نُسمّيهم فيه «أَرْواحًا مُجَرَّدةً»، ومكانُهم هو عالَمُ الغَيب[2]. هذا النّوعُ مِن الأَرْواحِ لا يكونُ في مكانٍ.

١ـ المثْنَوي: ١/٣٨٢.

٢ـ إنّ لِلْغيبِ سَحابًا آخَرَ وماءً آخَرَ ... وله سَماءٌ غيرُ تِلْكَ السّماءِ، وشَمْسٌ غيرُ تِلْكَ الشَّمْس

وليْسَتْ هذه تظهَرُ إلّا لِلخَواصّ ... وأمّا مَنْ عَداهُمْ فإنّهم «فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ»

(المثْنَوي: ١/٢٠٤٦ـ ٤٧)

وهناكَ مَوجُوداتٌ [١٣٦] قابلةٌ للتّكْريم والتّعظيم، ومِنها في اعتقادي شَمْسٌ التَّبْريزيّ:

اللّامَكـــانُ الّـــذي فِيـــهِ نُـــورُ الله

مِـنْ أيـنَ لَـهُ الماضـي والمـستقْبَلُ والحـالُ؟

وإنّ ماضِـيَهُ ومـستقبَلَه أَمْـرانِ بالنّـسبة لَـكَ

وكِلَاهما شَيءٌ واحِدٌ، وإن خِلْتَ أنّهما اثْنـانِ(١)

فقُولوا لِأَحِبّائكم: إنّني أقولُ إنّه ما دامَ الإنسانُ، ما دامَ روحُ الإنسان، لم يُسافِرْ إلى العالَم الباقي، فعَلَيْه أن يتعرّفَ الأنغامَ المقدَّسةَ لِلْعالَم الآخَر. ونحْنُ، العارِفينَ، نقولُ: أحِبُّوا النّاسَ بصِدْقٍ وإخلاصٍ، واشكُروا اللهَ. نحْنُ نقولُ: حُبُّ الوَطَنِ مِن الإيمان. وجُمْلةُ حياتِنا انشغالٌ بِمَحبّة هذا الذي هو أهمُّ شيءٍ وطاعتِه، هذا الذي تذكرُه أَلْسنتُنا دائمًا.

أَحَدُ أَعْضاءِ المَحْفِلِ الدّينيّ الرُّوحانيّ في قُونِيةَ، ممّن وقعوا بقُوّةٍ تحتَ تأثيرِ كَلامِ مَوْلانا وكان الدّمعُ يَنْهلُّ من عينَيه، قالَ:

ـ أنتَ رَجُلٌ بَليغٌ جِدًّا ومُثيرٌ، أنتَ واحِدةٌ مِن عجائبِ تاريخِ البشَر، ولو أنّني لم أَسْمَعْ هذا مِنكَ لَأَضعْتُ صِحّتي بسببِ الإلحادِ بك. والاحتمالُ القويُّ أنّ شَمْسًا التَّبْريزيَّ، عَينَ شَمْسٍ الذي تُحِبُّه وتتعلّقُ به، هو طُرْفةٌ نادرةٌ مِن عالَم الخَلْق. ولو أنّني ودّعْتُ الدّنيا في هذه السّاعة لَما حَمَلْتُ معي حَسْرةً على شيء؛ لِأَنّ الاشتياقَ الذي حمَلْتُه لِلْفضائلِ وفَهْمِ الحقيقة حصَلْتُ علَيه في مَحْفِلكَ. فلَيتَ أَحِبّتي يعْلَمون أنّه تحْتَ سَماءِ قُونِيةَ رِجالٌ أكبرُ مِن الزّمان، وأكبرُ مِن المكان، وأكبرُ ممّا يمكِنُ أن يُوصَفَ بالكَلام. وأنتَ بِكَلامِكَ الذي

١ ـ المثْنَوي: ٣/١١٥١.

يخرُجُ مِن القَلْب صهَرْتَ وجودي. لَيتَني عرَفْتُك مِن قبْلُ، وعرَفْتُ منزلتَك ومَقامَك. وقد فهمْتُ الآنَ أنّكَ استطَعْتَ بما تمتلكُه مِن ضَوابطَ ومعاييرَ أن تفتحَ طَريقًا إلى عالَم الباطن. ومِن الضّروريّ أن يشْرَحَ لنا مَوْلانا هذه الطّاقةَ الباطنيّةَ العظيمة: هَلْ صَحيحٌ أنّ الاقترابَ مِن هذا الوادي يجعَلُ الإنسانَ أكثرَ إنسانيّةً، ويوصِلُه إلى حَيثُ يتجاوزُ الزّمانَ والمكانَ، ويكشِفُ أَسْرارَ الخَلْق؟ ـ هَلْ مَوْلانا مُوافقٌ على أن يرفعَ السِّتارَ عن هذه الطّاقة العظيمة، ويجعلَنا عارفينَ؛ لِكَي نُطْلِعَ أصحابَنا عنْدَ عودتنا إليهم، ولا نسْمَحَ لهم بِأَنْ يُلَفّقوا التُّهَمَ الكاذبةَ في شأنِكم وشَأنِ شَمْسٍ هنا وهناكَ، ويثيروا النّاسَ؟

ـ قبْلَ أَنْ أرفَعَ السّتارَ عن هذه الطّاقة العظيمة، وأجعلَكم مُطّلعينَ، عَلَيَّ أن أقولَ إنّني كُنتُ أقرَأُ في المدرسة في هذا الشّأن كتابَ مير سيّد شريف الجُرْجانيّ، وكان يقولُ عن رؤية الباطن:

عَينُ الباطِنِ، أو نَظَرُ الباطِنِ، عِبارةٌ عن قُوّةٍ قَلْبيّةٍ مُنوَّرةٍ بِنُورِ القُدْس، وبتلكَ القوّةِ [١٣٧] يُرى شخْصُ الحقائقِ وباطِنُ الأَشْياء، فما رأيُكم؟(١) سَكتَ ممثّلو المَحْفِلِ

---

١ ـ يمكِنُ التحدّثُ معَ الله تعالى، ويمكِنُ سَماعُ صوته. ويرفَعُ رِجالُ الحقّ تعالى، والكُمّلُ، السّتارَ عن الأَسْرار. وفي الشّرح الذي قدّمه الأَنْقِرَويُّ للأبيات الآتية لمولانا:

قال الرّسولُ: «إنّ صوتَ الحقّ يَرِنّ في أُذني مِثْلَ الصّدَى
وقد خَتمَ اللهُ على آذانِكم لِكَي لا تُبادرَ إلى سَماع صَوْتِ الحق
وها هو ذا صَوتُ الحق يصِلُ إليَّ صريحًا، كصافي الشّرابِ الذي بريءَ مِن الدُّرديّ
(المثنوي: ٢/٢٠٩١ـ٠٩٣)

كتبَ يقولُ: "يختلفُ العُلَماءُ في شأنِ سَماع كلامِ الحقّ سُبحانَه، ويقولُ أبو منصور الماتُريديُّ: إنّ كلامَ الله لا يُستَمَعُ إليه ولا يُسْمَعُ أبدًا؛ لِأنّ «الكلامَ» صِفةُ الإله المتكلّم، ولذلكَ لا تُسْمَعُ صِفتُه الأزَليّةُ بحِسّ السَّمْع هذا. ويعتقِدُ أكثرُ العُلَماءِ، بناءً على فَحْوى قوله تعالى: «وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ» [البقرة/٧٥] وعلى مقتضَى قوله تعالى: «... فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ»[التوبة/٦]، أنّ كلامَ الله يُسْمَعُ. ويقولُ الماتُريديُّ وأتباعُه في=

= تفسيرِ هذا: «يسْمَعونَ ما دَلّ على كَلامِ الله»، وفي تفسيرِ: «وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا» [النّساء/١٦٤]: «كانَ خِطابُ الحقِّ تعالى لِحَضْرةِ موسى على وَجْهِ أنّ الحق خَلَقَ الحَرْف والصّوتَ اللّذَينِ كانا دالَّيْنِ على كلامه الأزَليّ، ثمّ ألقى ذلكَ الكلامَ في السَّمْع المبارك لِحَضرة موسى».

أمّا الذينَ يقولون إنّ كلامَ الله يُسْمَعُ، فدَليلُهم أنّ الإمامَ الواحِديَّ يقولُ في الوسيط في شأن قوله تعالى: «وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا» : «إذا كان الفعلُ غيرَ مؤكَّدٍ بالمصْدَر كان قابِلًا لِلْحَمْل على المجاز، أمّا في حال وجودِ التأكيد فلا يُحْمَلُ على المجاز، بدَليلِ أنّ الأفعالَ المجازيّةَ لا تؤكّد. ويعني هذا أنّه يمكِنُ القولُ إنّ الأصواتَ التي سَمِعَها مُوسَى مِن جانبِ الشَّجَرة كانَتْ عَيْنَ كلام الله.

ويقولُ الإمامُ الفَخْرُ الرّازيّ: إنّه مثْلَما أنّ رؤيةَ الله ممكنةٌ بالعَينِ، إدراكُ كلامِه بالسَّمْع ممكِنٌ أيضًا.

ويقولُ الإمامُ الغزاليّ في «إحْياء عُلومِ الدّين»: «مَنِ استبعدَ أنْ يَسْمَعَ مُوسى علَيه السّلامُ في الدّنيا كلامًا لَيْسَ بِصَوتٍ ولا حَرْفٍ، فَلْيُستنكَرْ أن يَرَى في الآخِرة موجودًا لَيْسَ بجِسمٍ ولا لَونٍ». فاللهُ تعالى قادرٌ على أن يُسْمِعَ، كيفَما يشاءُ، كلامَه الأزليَّ بحَرْفٍ وصَوتٍ لا يُشبِهانِ كلامَ المخلوقِ، لذلك العَبْدِ الذي يحبُّه، على النّحْوِ الذي يعلَمُه هو تعالى، وأن يفهَمَ ذلك العَبْدُ أنّ ما يسمَعُه هو كلامُ الله:

كما سَمِعَ مُوسَى صَوتَ الحقّ من جانبِ الشجرة يناديه: أيُّها السّعيد الطّالِع

سَمِعَ مِن الشّجَرةِ نداءَ «إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ» وتجلّتْ لَهُ الأنوارُ معَ هذا الكلام

(المثْنَوي: ٢/٢٨٩٤ـ ٠٩٥)

والإنسانُ الكاملُ، الإنسانُ العارِفُ، لا يَرى إلّا اللهَ، ولا يتكلّمُ إلّا معَ الله. وفي الوَصْلِ، الذي هو نهايةُ سَيْرِ السّالِكِ إلى الله سُبْحانَه، يغدو مُبرَّأً مِن الصّفاتِ البشَريّة، يغدو فانيًا عن صفاتِه باقيًا بأوصاف الحق. وقد جاء في «كشّافِ اصطلاحات الفنون» قولُه: «أقلُّ دَرَجاتِ الوِصالِ هي رؤيةُ العَبْدِ رَبَّه بعَيْن القَلْب، ولو أنّ ذلكَ الوِصَالَ والرُّوية مِن بُعْدٍ. وهذه الرُّؤيةُ مِن بُعْدٍ إن كانَتْ قَبْلَ رَفْعِ الحِجاب فيقالُ لها: مُحاضَرة. وأمّا إذا كانَتْ بَعْدَ رَفْعِ الحِجاب فيُقالُ لها: مُكاشَفة. والمكاشَفةُ لا تكونُ بِدُونِ رَفْعِ الحِجاب. أي إنّ السّالكَ بَعْدَ أن يُرْفَعَ الحجابُ عنه يَعْلَمُ يَقينًا في قَلْبه أنّه هو اللهُ الذي هو حاضِرٌ معَنا، وناظِرٌ إلينا، وشاهِدٌ علَينا. وهذا يُقال له أيضًا: الوِصال الأدنى. وأمّا إذا كان بَعْدَ رَفْع الحجابِ والكشْفِ عندَ تجلّي الذّات فإنّه يرتقي إلى مَقام المشاهَدة الأعلى، ويُقالُ لهذا: الوِصال الأعلى. والسّالكُ يبدأ في مَقامِ المحاضَرة، ثمّ بَعْدَه المكاشَفة، ثم بَعْدَه المشاهَدة». وعندَ هذه النقطة يصِلُ السّالِكُ إلى سَيرِه الحقيقيّ، ويغدو كاشِفًا للأسرارِ الخفيّة ومطّلعًا على عالَمِ الغَيب. ويعتقدُ الشّيخُ المفيدُ أنّ أئمّةَ الشّيعة ـ علَيهم السّلام ـ كانوا عارفينَ لِأَسْرارِ الناس، وكانوا يعرفونَ الظّواهِرَ قبْلَ وقوعها.

وفي كتاب تفسير أبي الفتوح الرّازيّ جاء قولُه: «إنّ مِن مُعْجِزاتِ رَسولِ الإسْلامِ نَوعًا مِنَ الاطّلاعِ علَى الغُيوب، بإعلامِ الله تعالى إيّاه؛ لِكَي يكونَ ذلكَ أكبرَ دليلٍ وبرهان على نُبوّته.

أمّا ابنُ أبي الحديد، شارحُ نَهْج البلاغة، فيكتُبُ قائلًا: «يقولُ عَليّ بنُ أبي طالبٍ علَيه السّلامُ: اسألوني عن كلّ ما سيحْدُثُ في المستقبَل فسأُجيبكم، وليس ذلكَ منّي ادّعاءً للألوهيّة، ولا ادّعاءً للنّبوّة، بَلْ مِن ناحية أنّني [١٣٨] أخَذْتُ أسرارَ الغَيبِ من رَسولِ الإسلام العظيم. ويضيفُ ابنُ أبي الحديد قائلًا: إنّ أخبارَ الغَيب التي

الرُّوحانيّ [١٣٨] في قُونِيَةَ، الذين وَجَدوا أنفسَهم أمامَ عارفٍ كبير وصادقٍ وحقيقيّ.

= أذاعَها عليٌّ علَيه السّلامُ كانت مُطابقةً للحقيقة. ويُنسَبُ إليه قَولُه: «فوالذي نَفْسي بِيَدِه لا تسألونني عن شيءٍ فيما بينَكم وبينَ السّاعة إلّا أنبأتُكم به».

ويَسْعَى العارفُ أيضًا لِطَيِّ مَراحِلِ السّلوكِ، والوصولِ إلى حيثُ يطّلعُ على المغيّبات. وقد ذكَرَ شَمْسُ التّبْريزيُّ في كتابه «**المقالات**» أنّ أبا يزيدَ البِسْطاميّ كان يتجوّلُ في المقبرة، فوجَدَ جَماجِمَ بعض البشَر، فجاءه إلهامٌ مِن باطنه: ارفَعْها بيدك، وانظُرْ جيّدًا. فرأى أنّ آذانَ بعضِ الجماجِم مُغلقةٌ، لا ثُقْبَ لها. ورأى أنّ لِبعضِ الآذانِ ثُقْبًا ممتدًّا إلى الأُذُن الأخرى، ورأى لِبعضِ الآذانِ ثُقْبًا إلى الحلْق. فقالَ: يا أللهُ، يَرَى النّاسُ هذه الآذانَ متماثلةً، وتظهَرُ لي مختلفةً. والآنَ، أنتَ أيضًا قُلْ: لماذا كانَتْ تلكَ الجماجِمُ على تلك الأوصاف؟ فجاءه الإلهامُ: تلكَ الرّؤوسُ، أو الجماجِمُ، التي لَيْسَ في آذانها ثقوبٌ لم تسْمَعْ كلامَنا أبدًا. وتلكَ التي كان لِآذانها ثُقوبٌ مِن هذه الأُذُن إلى تلكَ، كانَتْ تسْمَعُ كلامَنا بهذه الأُذن وتخرِجُه مِن تلكَ الأُذن. وتلكَ التي كان لِآذانها ثُقْبٌ مِن الأُذن إلى الحلْق كانت تقبلُ كلامَنا. ويصِلُ العارفُ إلى حَيثُ يكونُ مِثْلَ أبي يزيدَ، الذي في إجابة السّائلِ الذي سأل: ما العَرْشُ؟ ـ قال: أنا. وسألَ: ما الكُرسيّ؟ ـ فقالَ: أنا. وقال: ما اللَّوحُ والقَلَم؟ ـ فقال أنا. وهذا هو معراجُ السّالكين.

وعَدَ اللّطفُ الإلهيُّ المصطَفَى قائلًا:	إذا مِتَّ أنتَ فلَنْ يَموتَ هذا الدَّرْسُ
فأنا حافِظٌ لِكتابِك ومعجزتِكَ	وحائلٌ دونَ أن يزيدَ أحَدٌ في القرآنِ أو يُنقِصَ مِنه
وأنا رافعُكَ في الدّارَين	ودافعٌ للطّاعِنينَ في حديثِكَ
ولَنْ يستطيعَ أحَدٌ أن يزيدَ فيه أو ينقصَ منه	فلا تطلُبْ حافِظًا آخَرَ خيرًا منّي
وأزيدُ رَوْنقَكَ يومًا بعْدَ يومٍ	وأَضْرِبُ اسْمَكَ على الذّهَبِ والفِضّة
وأَصنعُ منبرًا ومحرابًا مِنْ أجلِكَ	ومحبّةً لكَ، صار قَهْري قَهْرَكَ
وهم يُخفونَ الآنَ اسْمَك خوفًا	وعندَما يُصَلّون يتوارَونَ
ويذكرونَ اسْمَك الآنَ خُفْيةً	ويخفونَ أيضًا أذانَ الصّلاة، أيّها البارعُ
وخَوْفًا وخَشْيةً مِن الكفّار الملاعين	يَتوارَى دِينُك تحْتَ التّراب
ولكنّي سأملَأُ الآفاقَ بالمآذن	وأُعْمي عَينَي مَنْ يُنكِرُ هذا
وسيفتَحُ أتباعُك المُدنَ، ويزدادونَ جاهًا	وينتشِرُ دينُكَ مِن أَسْفلِ الأرضِ إلى أعلى السّماء
وسَأُبقيهِ أنا حَيًّا حتّى يومِ القيامة	فلا تخشَ نَسْخَ الدّين، أيّها المصطَفَى
فيا رَسُولَنا، لَسْتَ ساحِرًا	بَلْ أنتَ صادقٌ، وشَريكٌ لِمُوسى في الخِرْقة
والقرآنُ عندَك كالعَصَا عنْدَ مُوسى	يبتلِعُ أنواعَ الكُفْر، كأنّه الأفعى
فإنْ نِمْتَ أنتَ تحتَ التّراب	فاعتبِرْ ما قُلْتَه كأنّه عَصاهُ
ومَعَ أنّكَ تكونُ نائمًا تحتَ التّراب	تكونُ تلكَ الكفُّ الطّاهرةُ يَقِظةً واعيةً كالعَصَا

(المثْنَوي: ١١٩٨/٣ وما بعْدُ)

ذلكَ المسْجِدُ الذي انطوَتْ عليه قلوبُ الأولياء
هو مسجِدٌ للخَلْق جميعًا، فثمّةَ الله
(المثْنوي: ٢/٣١٢٢)

عالَمُ باطِنِ الإنسان

عندَما كان مَوْلانا ينظُرُ إلى أَعْيُنِ مُخاطَبيه، التي كانَتْ تنظُرُ إليه بِحِدّةٍ، قالَ:

ـ نحْنُ نظفَرُ بهذه المواهِبِ جَميعًا بالتضرّعِ والثّناءِ والإيمانِ الصّادق. نَعَمْ، بِمُساعَدةِ القُوى الباطنيّة. وعظَمةُ باطنِ الإنسان، والوقائعُ التي تحدُث فيه، هي أعقدُ المَسائلِ وأكثَرُها رَمزيّةً. وتنبعُ إنسانيّةُ الإنسانِ مِن هذا المَعين. ومِن دُونِ أن نبحَثَ نرى هذا الشّيءَ الذي نهتمّ به. والماضي والحاضِرُ أمامَ عَيْنِ العارِفِ شيءٌ واحِدٌ. ولَيْسَ في وُسْعي أن أُبيِّنَ لكم، كما ينبغي، هذا العالَمَ الباطنيَّ المحبَّبَ بِمُساعدة العَقْلِ والقُوّة الناطقة. لَسْتُ قادرًا على أن أقدِّمَ ذلكَ بالقَلَم والكَلِماتِ، على صَفَحاتِ الوَرَق، أو أصوِّرَه؛ لِأنّني أعلَمُ أنّ الكَلامَ والورقَ في هذا المَقامِ سيحترقان:

يُســــــــرِعُ القَلَـــــــــمُ في الكتابــــــــة
وعنْدَما يَصِلُ القَلَمُ إلى هنا ينكسِرُ ويتحطَّمُ

وبعَيْنِ الباطِنِ(١)، يمكِنُ إدراكُ ما يَعِزُّ إدراكُه بالبَيانِ والعَمَل، [١٤٠] وكشْفُ أَخْفَى

---

١ ـ يستطيعُ الإنسانُ الكاملُ، بالإلهامِ وبعَيْنِ الباطِنِ، أن يتّصلَ بعالَم الغَيب. وقد بيّنَ أحَدُ العُلَماء أنّ العِلْمَ التّجْريبيّ الذي يُحصَل عليه مِن طَريق الحواسّ يُفهِمُ الأمورَ العقليّةَ بوَساطة الفِكْر المنطقيّة والرّياضيّة، لكنّ هذا إشْراقٌ وإلهامٌ يكونُ أبعدَ من العِلْمِ والاستدلال والفلسفة والرّياضيّات. الإشْراقُ يربطُ الإنسانَ سريعًا كالبَرْق بالعالَم الآخَر. فعَلَى حِينِ غِرّةٍ يَسْطَعُ برقٌ في أفق رُوحِ الإنسان، فيبصِرُ ما هو غيرُ قابلٍ للإبصار. ويقولُ ألبيرت آينشتاين في الرّسالة التي يكتبها لأندريه مالرو ـ العالِم الفرنسيّ الذي توفّاه الله ـ بحميميّة: «إنّ في السّماءِ أخبارًا، وفي عالَم الرّوحِ أيضًا [١٤٠] إلهاماتٌ للعُلَماء، هي مصادرُ عظيمةٌ للكشوفِ العلميّة. =

أَسْرارِ الرّوحِ، وربّما الكائناتِ، وأكثَرِها رَمْزيةً، والتّحدّثُ عن شَفافيّة القَلْبِ واتّساعه، والإحساسُ بالحضورِ الخفيّ للمُطْلَقِ في كلّ مكان.

وتعتمدُ عَيْنُ الباطِنِ على قُوّة الإيمانِ واليقين. ويجِبُ حِفْظُ القَلْب طاهرًا؛ لِكَي

= ويعتقدُ الكسيس كارليل بأنّه يوجَدُ بينَ النّاس أفرادٌ يطّلعونَ على تصوّرات الآخَرين وفِكَرهم اعتمادًا على حواسِّهم وهذا أيضًا مِن برَكاتِ الشَّرْق، الذي كشَفَ الإشراقَ والإلهام وهو عَينُ الإشْراقِ الذي اضطَرَّ الغزاليَّ إلى أَنْ يضَعَ الكتابَ والدّفترَ جانبًا، وأَنْ يتركَ حتّى التّدريسَ في المدرسة النظاميّة لِأَهل الدّنيا، وأن يجيبَ دَعوةَ نظامِ المُلْك إيّاه إلى التّدريس مُجَدَّدًا في نِظاميّة بغداد على هذا النّحْو:

«الحمْدُ للهِ ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على محمّدٍ وآله وأصحابه أجمعين. أمّا بَعْدُ، حَضْرةُ السيِّدِ الملْجَأ لِأَهْلِ الدّنيا، متّعَ اللهُ المسْلِمينَ بِطُولِ بَقائه، يدعو هذا الضَّعيفَ مِنْ حَضيضِ خَرابة طُوسِ البْشَر إلى أوجِ مَعْمورةِ دار السّلام بغداد، وهذا كرَمٌ وعظَمةٌ. وعلى هذا الحقيرِ أيضًا واجِبُ أن يدعو السّيدَ مِن حَضيض البَشَريّة إلى أوجِ المراتب الفَلَكيّة، وأن يرغّبه بذلكَ. فيا عزيزَ طُوسَ وبغدادَ، إنّ الطّريقَ إلى الألوهيّة نَوعٌ واحِدٌ، أمّا مِن أَوجِ الإنسانيّة إلى حَضيض الحيوانيّة فهناك تفاوتٌ كبير. وأمّا التماسُ حُضورِ هذا الفقير، الذي ذُكِر، فلاشكّ أنّ لدى هذا الفقيرِ وقتًا للفِراق، لا وقتًا للذّهاب إلى العراق.

أيّها العزيزُ، افترِضْ أنّ الغَزاليَّ وَصَل إلى بغداد، ثمّ بعْدَ ذلكَ مباشرةً وافتْه المنيّةُ، ألا يجبُ التفكيرُ بمُدرّسٍ آخَر؟ تخيَّلْ أنّ هذا اليومَ هو اليومُ نفسُه، وتخَلَّ عن هذا المسكين، والسّلامُ والإكرام

يدعو الغزاليُّ إلى مائدةِ العِرْفان، ويؤلّفُ كتابَه «**تهافت الفلاسفة**»، ويعتبر كُرسيَّ التّدريس في نِظاميّة بغدادَ أصغرَ كثيرًا مِن العُروج إلى السّماوات. وأيُّ شَيءٍ أثارَ هيَجانَ الغزاليّ وقلقَه الرّوحيّ؟ - ولماذا تركَ منصِبَ الرّياسة في النّظاميّة؟ عندَما رأى أنّ الفلسفةَ اليونانيّة، التي تحيط بالعالَم المادّيّ المحسوس وعالَمِ المُثُل، لا تروي ظَمأَه الرّوحيّ إلى إدراك الحقيقة:

الدّهرُ مِثْلُ خَيالِ الظّلِّ، والعالَمُ حائرٌ فيه   والنّاسُ مِثْلُ صورة الفانوس حائرون فيه

وكان يعتبرُ المقولاتِ الفَلْسفيّةَ قِصَصًا وأساطيرَ، ويتّجهُ نَحْوَ عالَمِ الذّوق والمكاشَفات، ويقولُ: لَيْسَ العالِمُ هو الذي يعْلَمُ الأشياءَ مِن الكُتب، وإذا نسيَ شَيئًا كان قد حفِظَه عن ظَهْر قَلْبٍ صار جاهلًا. العالِمُ الحقيقيُّ هو الذي يطلُبُ عِلْمَه مِن الله، مِن دُونِ وَساطةِ قِيلِ الدّرْسِ وقاله.

كان الغزاليُّ يبحَثُ عن عَيْنِ الباطن، وفي النّهاية ساقَه الإيمانُ بالغَيب نَحْوَ الإلهامِ والإشْراق، وهو طَريقٌ مِن موهبته أن رَفَعَ السِّتارَ مِن أمام عَينَيه عن كثيرٍمن الأسرار.

يصبحَ الرّوحُ مَحَلًّا لِلْكَسْب ومَهْبِطًا للأسرار، وتسْمَعَ الأذنُ الأنغامَ الموزونةَ للوَحْي، وتضيءَ أنوارُ الحقيقة أيضًا أعماقَ القَلْب:

تُـــصْبِحُ أُذنُ رُوحِـــكَ مَحَـــلًّا لِلْـــوَحْي

فَمـــا الـــوَحْيُ؟ ـ إنّـــهُ كـــلامٌ خَفِـــيٌّ عـــنِ الحِـــسّ

فأُذنُ الرّوحِ وعَيْنُ الرّوحِ لَيْسَتا مِن هـذا الحِسّ الظّاهريّ

أمّا أذنُ العَقْلِ وعَينُ الظّنّ فهما مُفْلِستانِ مِن ذلك الوَحْي

ولَـــوْ أنّ كُـــلَّ قَلْـــبٍ كـــان ســـامِعًا لِلْـــوَحْي الخَفـــيّ

فمَتَـــى كـــان الكـــلامُ والـــصّوتُ موجـــودَين؟[1]

يغدُو القَلْبُ قابِلًا كُلَّ صُورةٍ جَذّابةٍ، واضطِرابُ الإنسانِ وحَيرتُه ينتهيانِ [١٤١]، واللّهيبُ المُحْرِقُ لِلْحَسَدِ والنّميمة والأنانيّة ينطفئ. قُدْرةُ الباطِنِ تُنهي التّضادّاتِ الرّوحيّةَ عنْدَ الإنسان:

ولـو تَهيّـأَ لَـكَ فَـتْحُ البـابِ مَـرّةً واحـدةً لَرَأيْـتَ الـشَّمْسَ في داخِـلِ الظّـلّ

سألَ أحَدُ هؤلاءِ الثلاثة مَوْلانا:

ـ أَبِمُساعدةِ العَقْلِ يمكِنُ الظّفَرُ بِعالَمِ الباطن؟

فأجابَ مَوْلانا:

ـ لا، هناكَ عالَمٌ آخَر، عالَمُ الباطِنِ له قانونٌ آخَرُ ونهجٌ آخَرُ، وهو بعيدٌ عن عالَم العَقْلِ الجُزْئي. يقولُ شَمْسٌ التّبْريزيّ: إنّ العقْلَ الجُزئيّ قَدَمٌ ضعيفةٌ، لا يأتي منها نَفْعٌ.

---

١ ـ المثنوي: ١/١٤٧٧ ـ ٧٢؛ ٤/٢٩٨.

العقْلُ يُرافِقُ حتّى السَّحَرِ، أمّا داخِلَ المنزِلِ فلا يُرافِق. في عالَمِ الباطن العظيم، العقْلُ حِجابٌ، والقَلْبُ حاجِبٌ.

ثمّ سألَ:

ـ وأنتُم، ماذا فعلتُم بالعقل؟

أجابَ مَوْلانا السّائلَ المُنافِقَ بالأشعار، وأرى أنّ إجابةَ جَلال الدّين البَلْخيّ مماثلةٌ لِأَشْعار سَعْديّ(*) في هذا الشّأن، التي أنقلُها فيما يأتي:

لا يلتقي حُكْمُ العِشْقِ وحُكْمُ العَقْلِ في مكانٍ واحِدٍ

وتكونُ الفَوضى حَيثُ يوجَدُ مَلِكانِ في وِلايةٍ واحدة

ومَتى أطالَ العِشْقُ يَدَ التّطاول

عُلِمَ أنّ العَقْلَ لا يتمتّعُ بالكفاية

وخِلافًا لِلفلاسفةِ، لا نتقدّمُ نحنُ معتمِدينَ على عَصا العَقْلِ ورِجْلِه الخشبيّة نحْوَ عالَم العِشْقِ الجميل، ونحْرِقُ العقْلَ الجُزئيَّ بنارِ العِشْق؛ ذلكَ لِأَنّ البِناءَ في الحَرْق. خَرّبْتُ العقلَ؛ لأنّ العِمارةَ في الخَراب. كُلُّ أَسْتارِ الأَسْرار وهالاتِها التي أحاطَتْ بنا، وتغلّفُ كُرةَ الأرضِ كالغِطاء، لا يمكِنُ بالعَقْلِ ومدَده معرفةُ كُنْهِ أَصْغرِ جُزءٍ منها معرفةً حقيقيّة.

وفي خِضَمِّ صِراعِ إجاباتِ مَوْلانا المَبْنيّةِ على الأدِلّة المؤثِّرة والقاطِعةِ، عُرِضَ أمرٌ آخَرُ، وهو: ما السِّرُّ الذي اطّلعتُم علَيه بِمُساعدة قوّةِ الباطن؟

أجابَ مَوْلانا:

* ـ يريدُ سَعْديًّا الشّيرازيّ، الشّاعِرَ الفارسيَّ الكبير [المترجم].

ـ أنا وشَمْسٌ تخلَّينا عنِ العَقْل الجُزئيّ، وتمسَّكْنا بِأَذْيالِ العِشْق، وعلى حِينِ غِرّةٍ سمعْنا صوتَ العِشْق ثَمِلينَ، فافهَمُوا ما آتيكم به، ابتغاءَ أن تسمَعُوا صوتَ جَرَسِ قافلةِ الوَحْدة. اللّحَظاتُ التي رأينا فيها أنفسَنا قريبَيْنِ مِن الحقيقة السَّرْمديّة لَحَظاتٌ وآناتٌ لا تُنسى، كانَتْ عظَمةً وسُرورًا. وما عَلَى الإنسانِ إلّا أن يكونَ عاشقًا، وأن يتركَ في الأَوقاتِ كلِّها عِشْقَ دُنيا الظّاهرِ والمادّةِ والتعلّقِ الصّميميّ بها. علَيه أن يتمسّكَ بالعِشْق، وأن يدوسَ بقَدَمَيه التعلّقاتِ النّفسانيّةَ والشّهَواتِ والرّغائبَ؛ لِكَيْ يدرِكَ المَعْنَى الحقيقيّ لِلَحظَاتنا وآناتنا العِرْفانيّة. [١٤٢] تُريدونَ منّي أن أعترفَ بِكَشْف أَحَدِ الأسرار، لَيْسَ هذا ادّعاءً، بَلْ هو حقيقةٌ، الأمرُ مِثْلُ مَوْجةٍ تُرسِلُ رَحماتِ السّماء هَدِيةً لِلْقُلوب المُشتاقة. وكلّما أردتُّ أن أُنشِدَ قصيدةً في التّضرّعِ لله تعالى ظَفِرتُ عَلَى نَحْوٍ مفاجِئٍ بحالةٍ ومَقامٍ مِن نَوعِ الهِياج والهُيام. تغدُو ذَرّاتُ وجودي كلّها مستعدّةً لإنشاءِ أَشْعارٍ إشراقيّة وإلهاميّة. وما أجمَلَ أن أقرأَ هنا هذه الأبياتَ مِن أَجْلِ المتعصّبينَ والسُّذّجِ في قُونيةَ، وأنتُم أيضًا استمِعوا جيّدًا. فاحْمِلوا هذه النّغمةَ التي قِيلَتْ في جَلال الأَحَديّة ببرَكة لَحَظاتٍ أَبْعِدُوها فيها عن الأَخْيلةِ والتصوّرات، احمِلُوها هَديّةً. ولا أعتقِدُ أنّ ثمّةَ فِكْرًا لطِيفًا وظَرِيفًا في مقدورِه أن يصِفَ قُدرةَ الحقّ على هذا النّحو غيرَ فِكْرِ الأَنبياء والأولياء:

شَمْسٌ مُتوارِيةٌ في ذَرّةٍ واحِدة

وعَلَى حِينِ غِرّةٍ، تفتَحُ تلكَ الذّرّةُ فاها

وتُصْبِحُ الأَفْلاكُ والأرضُ ذَرّةً ذَرّةً

أمامَ تلكَ الشَّمْس عندَما تظهَرُ مِن مَكْمَنِها[1]

وهذه انتصاراتُ أَشْخاصٍ يبحثونَ عن عَلاماتِ الكشْفِ واليقين في سَماءِ العِشْق.

---

١ ـ المثنوي: ٦/٤٥٨٤.

وقد رُويَ عن الرّسولِ الأكرَم [عليه الصّلاةُ والسّلام] أنّه قالَ: إنّ قَلْبَ العارفِ يمتلكُ أُذنَين وعينَين، وعندَما يشاءُ اللهُ سُبحانَه الخيرَ لإنسانٍ يفتَحُ عَينَ قَلْبِه، وعندَما تُفتَحُ عَينُ القَلْب يضيءُ في سَماءِ الرّوح شُعاعٌ ملائمٌ ومُحَبّبٌ، فيتجلّى عالَمُ الخَلْقِ والكائناتِ بكُلِّ زيناتِه وجَمالاته أمامَها، ويغدُو فَضاءُ القَلْب نُورانيًّا، ويظهَرُ صَفاءٌ وجَلالٌ لا يُوصَفان. يغدو باطنُ الإنسانِ متّصلًا ببَحْرِ الأُلوهيّة الذي لا ضفافَ له.

ولَم يظفَرْ شَمْسُ تَبْريزَ بهذه الحالِ بالقِيلِ والقال، بَلْ بِمُقاومةٍ ومخالفةٍ لِما كانَتِ النّفسُ اللّوّامةُ تطلبُه. والتّركيزُ في تَوجُّهِ القَلْب نحْوَ الله تعالى هو الأساسُ في الدَّفْعِ نحْوَ عالَمِ الباطن. وأَنا تعلّمْتُ أَلِفْباءَ الحقيقةِ في مَدْرسةِ عِرْفان شَمْسٍ الخلّاقةِ الصَّنّاعة، ذلكم شَمْسٌ الذي كان يقولُ مِرارًا ضِمْنَ البَحْث والفَحْص:

اسْـعَ لِكَـيْ تُـصْبِحَ مَوْجـودًا مِـن العَـدَم،

ولِتغـدُوَ ثَمِـلًا مِـن شَـرابِ الحـقّ

وإذا كان أرسطُو يسمِّي النّظامَ العامَّ لِوجود الإنسان رُوحًا، فإنّني أقولُ: إنّ الذي ينظِّمُ وينسِّقُ الحياةَ الرّوحيّةَ للبَشَر، ويساعِدُ عَلَى عدَمِ الخَشْيةِ مِن المصائب والمُشْكلات، إنّما هو العِشْق. العِشْقُ بَنّاءٌ، العِشْقُ مولِّدٌ للآمال:

مَـعَ أنّ سُـكْرَ العِـشْقِ أَتْلَفَنـي وخَرَّبَنـي

ظَلَّ أساسُ وجودي عامِرًا مِن هذا الخَراب

[١٤٣] وقد شَرَعْنا بالجِهادِ الأكبرِ مَعَ النّفْسِ الأمّارة منذُ وَقْتٍ طَويلٍ. وما أجمَلَ ما قالَ شَمْسُ التّبْريزيّ:

في وجودِ الإنسانِ ثلاثةُ آلافِ ثُعْبانٍ،وكلُّ أَلْفِ ثُعْبانٍ منها تَحْيا بأَكْلِ لُقمةٍ واحدةٍ. وإنْ

أنتَ أنقصْتَ مِنَ اللُّقَم الثّلاث لُقْمةً واحِدةً فإنّ أَلْفَ ثُعْبانٍ في داخِلكَ ستُمْحَى. وإنْ أنقصْتَ مِن اللُّقَم لُقْمتَيْنِ فإنّ أَلْفَي ثُعْبانٍ ستَهْلِكُ. ولكِنْ إن زدتَّ لُقْمةً واحدةً فإنّ أَلْفَ ثُعْبانٍ مِن ثَعابينِ نفسِكَ ستَحْيا. وإذا شِئتَ أن يُصبحَ داخِلُكَ مَحضَرًا لِمُطْرِبي السّماء، ويغدُوَ فَضاءُ قَلبِكَ الواسِعُ مكانًا لِتَجْوالِ ملائكةِ العالَم الأَعْلى المقرَّبينَ، فاعمَلْ في الحياة على أنْ تتعاملَ معَ النّاسِ ومعَ خالِقِ الكائنات على أساسِ العِشْق. وعنْدَئذٍ يبدأ الرّوحُ، الذي هو هادئٌ في الظّاهِرِ كالبحر المترامي الأطراف، بالهيَجانِ والجَيَشان، وسيظفَرُ بمَقامِه الحقيقيّ في الكائنات باسْمِ خليفة الله في الأرض، وسيغدو مُتجَلًّى لأنوار الحقّ، جَلَّ وعلا.

وأنتُم، يا مَنْ جِئتُم إلَيَّ مبعوثينَ مِن جَماعةٍ مِن المتعصّبينَ، قُولوا لِعُلَماءِ الدّين المُلازِمينَ لِلْبَلاط والمتعصِّبين: إنّ تزكيةَ النّفس وصَقْلَها مِن الفَرائضِ الحَتْميّة على كُلّ إنسانٍ مُتديِّن. إنّ التّظاهُرَ والمُراءاةَ شِرْكٌ، وكُلُّ مَن يطهِّرُ القَلْبَ مِن صَدَأ الغِشّ والرّياء، الذي يحْرِقُ بيدرَ الدّين، سيكونُ مستحِقًّا لِلْحُضور في مَقام القُرْب.

في اللّيلةِ الأَخيرة، وعندَما كان شَمْسٌ واقفًا في حُجرتي يؤدّي الصّلاةَ (قبْلَ السّفَر الأوّل لِشَمْسٍ) رأيتُ تضرّعَه الزّائِدَ، وشاهدتُّ دموعَه التي كان يمسَحُها بكُمّ قَميصِه. وعندَما انتهتِ الصّلاةُ سمعتُه بِأُذُني يقولُ:

فسُبحانَ مَنْ جمَعَ بينَ أقربِ الأَقْربينَ، وأبعَدِ الأبعدِينَ، بِقُدْرته.

الحَمْدُ لله الذي بقُدرته جَمَعَ أقربَ شيء، وهو الرّوحُ، بأَبعَدِ شيءٍ، وهو جِسْمُ الإنسان.

عُلَماءُ الظّاهِرِ في قُونِيةَ يعْرِفونَ أخبارَ الرّسولِ، وحَضْرةُ مَوْلانا شَمْسُ الدّين يعْرِفُ أَسْرارَ الرّسول، وأنا ـ جلالَ الدّين ـ مَظْهَرُ أنوارِ الرّسول.

فلَيتكم، أيُّها النَّفَرُ الثلاثة، امتلكتُم أَهْلِيّةَ سَماعِ بعضِ الأُمورِ والأَسْرار، مَعَ أنّه غيرُ

مأذونٍ لي بِأَنْ أكشِفَ الأَسْرار، وأقولَ ما لا يمكنُ قولُه. أنا وشَمْسٌ لَسْنا تُجّارًا، ولا طالبينَ للخِرْقة والمُريدينَ، ونكلِّمُ الخَلْقَ على قَدْرِ عقولهم، ونُناجيهم على قَدْرِ صَفائهم. ونحنُ نحْمَدُ الله، ونُفاخِرُ بأنّنا أَصْبَحْنا عارِفَيْنِ في مَدْرسة محمّدٍ، علَيه الصّلاةُ والسّلام. محمّدٌ (علَيه الصّلاةُ والسّلامُ) رَسولُ الله، وفخْرُ الأنبياء.

[١٤٤] نحْنُ عاشِقانِ لمحمّدٍ، وقَلْبانا خالِيانِ مِن الشِّرْكِ والرّياء والتّظاهر. قَلْبانا منْزِلٌ لمَحبّةِ الحقّ، ومعرفةِ الحقّ. وقد قُلْتُ مِرارًا:

لا مَسْجِدَ إلّا في داخِلِ قُلوبِ الكُمّل[١]

ونعتقدُ بأنّنا أينَما توجَّهْنا فسنَرى ثَمَّ وَجْهَ الله:

ذلكَ المسْجِدُ الذي انطَوَتْ علَيـهِ قلوبُ الأَولياء

هــو مَــسْجِدٌ لِلْخَلْــقِ كافّــةً، فهنــاكَ الله[٢]

أنا وشَمْسٌ تَصْويرٌ واضِحٌ وحَيٌّ لحياةٍ مبنيّةٍ عَلَى التّقوى والإخلاص. وفي هذه الأيّامِ، التي أحاطَ فيها سَفْكُ الدّماءِ والشِّرْكُ والرّياءُ والتعصّبُ بِكُلّ مكانٍ مِن البسيطة، نتغنّى نحْنُ بالعِشْق واللُّطْفِ والمحبّة، وننظِمُ الأَشْعارَ في جَلال العِشْق الإلهيّ:

نَحْــنُ كالنّــايِ، والأنغــامُ التــي فينــا مِنــكَ

ونَحْــنُ كالجبَـلِ، والـصّدى الـذي فينـا مِنـكَ

ونَحْنُ كالشّطرنج، في حالٍ مِن الصّراع والنّزاع

وصِراعُنا ونزاعُنا مِنْك، يـا جميـلَ الـصّفات[٣]

قلْبُ شَمْسٍ مُتنزَّلُ المعرفةِ، ومُتجَلَّى الحقيقة، وهو يؤمِنُ بالسَّماعِ الرّوحانيّ، وهو

---

١ ـ المثْنَوي: ٣١٢٧/٢.

٢ ـ المثْنَوي: ٣١٢٢/٢.

٣ ـ المثْنَوي: ٦٠٣/١.

شاعِرُ مَديحٍ للسّماعِ الإلهيّ، ذلكمُ السّماعُ الذي: مِنْ صَداه تُصيبُ الحيرةُ أُذنَ الرّوح. وهو يقولُ: إنّ سُكْرَ باطِنِ السّالكينَ والمُشتاقينَ ينشَأُ مِن باطِنِ الأَولياء؛ ذلكَ لأنّ الذّوقَ والشّوقَ المعنويَّ يسْطَعُ ابتداءً على قُلُوبهم، ثمّ بعْدَ ذلكَ ينهمرُ على قُلوبِ السّالكينَ، على سَبيلِ الهداية.

وأظنُّ أنّكم تتساءلونَ: لِماذا أَعشَقُ أنا هذا الذي هو أُعجوبةُ الزّمان، هذا الشّحّاذَ الجالِسَ على التُّراب، العاشِقَ لِحاناتِ المَجُوس(*)، هذا المرتديَ للدَّلَقِ العاشِقَ لِلْوَحْدانيّة، الذي يتحدّثُ عن شَوْقِ الباطنِ وعالَمِ المعنى. عِزّتُه ذاتُ حِكْمةٍ، طاقتُه الخفيّةُ عجيبةٌ. وقد أَحْرقَ بيدرَ الحياة بِقَشّةٍ، مِثْلَ المؤمنينَ الآخَرينَ، أمامَ قسوةِ أهالي قُونِيةَ، ثمّ ذَهَب.

---

*ـ في العِرْفان الفارسيّ بمعنى آناتِ سُكْرِ المحبّة الإلهيّة، واضطِرامِ نيرانِ الانفعال بجمال الحقّ سُبحانَه [المترجم].

ـ أخبرَني عن نفسِه، وغيّبَني عن نَفْسي
خَرَج مِنَ السِّتْر، وأدخلَني في سِتْر
ـ أيّةُ تُهمةٍ اتّهمَني، وأيّةُ مِنّةٍ مَنَّ عليَّ؟
أراد أن يتجلّى، فجعلَني متجلّيًا

مَنْ شَمْسٌ؟

أعْلَمُ الآنَ أنّكم تفكِّرونَ في شَأْنِ: مَنْ شَمْسٌ هذا؟ أمّا أنا فأعتقدُ أنّه أكثرُ النّجومِ تألّقًا في سَماءِ العِرْفان والثّقافة في إيران!

كلُّ مَنْ آمنَ بالله، ويؤمِنُ بِرَسولِه الأكرَمِ (صَلّى اللهُ علَيه وسلّم)، أعتقدُ أنّه يمرُّ مِن خلالِ شَلّالٍ نُورٍ لا ينتهي. وإنّ رسولَنا الأكرمَ، بفِكَرِه وتصوّراته المُتعاليةِ، كان يَحُلّ بكلامِه الشّبيهِ بالمعْجِزات والمملوءِ بالجواهر والدُّرَر مُشْكلاتٍ لا حَلّ لها شغَلَتْ أذهانَ الفلاسفةِ والعُلَماءِ في العالَم. ولَيْسَ هناك مسألةٌ بعيدةٌ عن صفحة ذِهْنِه اللّألاءة. وأفتخرُ بِأنّني رُبّيتُ في مَدْرسة محمّد، وكان أجدادي جميعًا من عُلَماءِ الدّين.

على النّاسِ أن يكونوا مُطيعينَ لله عزّ وجَلّ، مِن دُونِ ادّعاءٍ ومُراءاة. وفي هذا الزّمانِ المضطَرِب، الذي يُسْمَعُ فيه صَدَى سَنابِكِ خَيلِ المَغول في شَطْرٍ مِن آسِيةَ، لن يُوفَّقَ منهجٌ ومَسْلَكٌ غيرُ منهجِ محبّةِ الإنسان والأخوّة الإنسانيّة.

لابدّ مِن العَمَلِ على تَخفيفِ ضُروبِ القَلَق الرّوحيّ عندَ النّاس. والعِرْفانُ، هذا الدّواءُ العظيمُ للآلام، يقدِّمُ السَّكينةَ والرّاحةَ للنّاس في طُوفاناتِ الحياة.

وعَلَى أَهْلِ قُونِيةَ أن يكونوا شاكرينَ؛ لأنّ شَمْسًا التَّبْريزيَّ بقَولِه وفِعْلِه وسُلوكه يأتي إلى هنا بنَهْرٍ مِن العِشْقِ والصّفاء والإخلاص والأُخوّة والإنسانيّة، عَلَى سَبيلِ

الهديّة التي يأتي بها المسافِرُ، وهذا النّهرُ سيتّصِلُ في المستقْبَلِ ببحارِ أَرْواحِ المشتاقين، [١٤٦] وستَغمُرُ أَمْواجُه الدّنيا كُلَّها. وقد تمثّلَ الأساسُ الذي اقترحَه شَمْسٌ، عَلَيَّ وعَلَى أَصْحابي، في العِشْق والصَّفاء. وقد قالَ شَمْسٌ مِرارًا: إنّه قبْلَ كُلّ شيءٍ على الإنسانِ أن يكونَ مؤمِنًا، وأن يعرِفَ اللهَ جيّدًا بكُلّية وجودِه، اللهُ الذي هو نُورٌ مطْلَقٌ، الذي هو غايةُ الحياةِ، والقانونُ الأزَليُّ والأبَديُّ لِلْوجود.

مُخاطَبو مَوْلانا، ممثِّلو المَحْفِل الرّوحانيّ في قُونِيَةَ، الأَشْخاصُ الثّلاثةُ جميعًا، اعترفوا وقالوا: نحْنُ أيضًا نعرِفُ اللهَ، ونؤمِنُ به، وهذه الأشياءُ لم يأتِ بها شَمْسٌ، كالحِدَأة، مِن أصْقاعٍ بعيدةٍ إلى قُونِيَةَ، على سَبيل الهَديّة. وإنّ وجودَ أماكنِ العِبادةِ والطّاعة المختلفةِ والكثيرة في هذه الحاضِرةِ يدلُّ على أنّ النّاسَ هنا أناسٌ يعبدونَ الله تعالى... انبرى أحَدُهم فأضافَ إلى كلامه:

ـ نحْنُ دائمًا نُحِسُّ بالله تعالى قريبًا منّا، في قُلُوبنا. نحْنُ، في مَدْرسة الإسلام، أَحَطْنا بِطُرقِ معرفة الله. معرفةُ الله لا تحتاجُ إلى برامجَ مختلفة، ومراسِمَ كالدّوَران والسَّماع. العبادةُ سَهْلةٌ وميسَّرةٌ وبَسيطةٌ. نحْنُ نؤمِنُ بعَيْنِ الإحساسِ الذي سَمّيتُموه أنتُم الإحساسَ العِرْفانيّ. وهذا الإحساسُ يتجلّى لنا أيضًا إبّانَ أداءِ العِبادات والطّاعات. نحْنُ مؤمنونَ ومعتقدونَ باللهِ العظيم، ونَرَى أنّ القَلْبَ مَحَلُّ ظُهورِ الأنوار الإلهيّة. هذا التعبُّدُ العِشْقيُّ يتخلَّلُ ذَرّاتِ وجودِ المؤمنين بالله تعالى، الهائمين به. وكلُّ مؤمنٍ يُحِسُّ في داخله، في أثناءِ العِبادة، بأَصْداءِ النّداء الأبديّ. فأْذَنْ لنا بالقَولِ إنّ هذا النّداء لَيْسَ خاصًّا بالسّالكينَ والعارفينَ فقط.

ونقولُ: إنّ هذا المتشرِّدَ التَّبْريزيَّ لم يقُلْ كلامًا جديدًا[١]. وإنّ مَوْلانا هو الذي نسِيَ كُلَّ [١٤٧] التّحصيلاتِ وكُلَّ المعارِفِ والعلومِ، وانجَذَبَ إليه بقوّة، وسُحِرَ به. ومن المحتمَلِ أنّ شَمْسًا، بما أُوتيَ مِن قُدْرةٍ سِحْريّةٍ، استبدّ بذِهْن مَوْلانا الذي كان كنزًا قيّمًا. ولهذا السّبب، كان مَوْلانا يُحِسُّ بأنّ كلَّ كلامٍ، وكُلَّ أمرٍ، نَبَسَتْ به شَفَتا شَمْسٍ فتَحَ نافذةً جديدةً مِن الحقيقة أمَامَه[٢]. وكلُّ مؤمنٍ معتقدٍ يطيرُ نحْوَ الوجودِ المُطْلَق

---

١ ـ كان شَمْسُ التَّبْريزيُّ يقولُ بينَ النّاسِ في قُونِية كلامًا يُضرِمُ نارَ الاختلافِ والنّفاق. ومِنْ جُملة ما قالَه: «لهؤلاءِ النّاسِ الحقُّ في أن لا يألفوا كلامي، فكلامي يأتي على وَجْه الكِبْرياء، وقد جاء كَلامُ الأولياءِ الآخَرينَ على وَجْه الضّراعةِ والتذلّل، ولاشكّ أنّ المعنى نفسَه يظهَرُ؛ يَسْمعونَ الكلامَ الذي يأتي لا على سبيل الطَّلَب والحاجة، بَلْ يسمعونَه مِنْ عَلٍ، كأنّك تَرَى قُبّعةً تقعُ». ويقولُ الأستاذُ فُروزانْفَر: إنّ تَعاليَ الكلامِ وتحرّرَ شَمْسٍ في سُلوكه، اللّذَين يعبّرُ عنهما دائمًا في «**مقالات**» شَمْسٍ صَراحةً ومِن دُونِ مُواربة، صارا سببًا لاختلافِ اعتقاد أهل قُونِية في شأن شَمْس، حتّى إنّ بعضَ هؤلاء عَدّوا ذلكَ العمَلَ وذلك القولَ مخالفًا لِلعَقْل والمنطِق، وكان يَرَونَ أنّ قائلَه مجنونٌ، وكانوا يعتقدونَ أنّ شَمْسًا يَرَى نفسَه أَسْمَى وأرفعَ مِن السّابقين، في الوقتِ الذي كان فيه مولانا، مِن أَجْلِ مخالَفةِ جماعةٍ مِن أَهْلِ قُونِيةَ، يَعُدّ شَمْسًا لُبَّ لُبابِ الدّين وسِرَّ الله، وكان يُنْشِدُ في المجالِسِ صَراحةً:

هو شَيخي ومُريدي، هو دَائي ودَوائي   قُلْتَ جهارًا: هو شَمْسي ومَعْبودي

٢ ـ كانوا يعترضونَ على مولانا: لِماذا يستسْلِمُ أمامَ شخصٍ يأمرُه بأن لا يقرأَ كُتُبَ السّالفين. وكانَ جوابَ مولانا: إنّني كُنتُ أريدُ أن لا تغدُوَ فِكَري مقيّدةً بكَلامِ هذا وهذا. ويعتقدُ شَمْسُ أنّه على كلّ إنسانٍ أن يكونَ هو نفسُه منبعًا للعِلْم والمعرفة، وأن لا يَحْرِمَ نفسَه مِن شُهود الحقّ على قَدْر حَظّه مِن ذلكَ، ابتغاءَ أن يتّصل ببحرِ الحقيقة الذي لا ضِفافَ له:

فاجْعَلْ [إلهي] قَطْرةَ العِلْم   التي منحتَنا إيّاها مِن قبْلُ تتّصِلُ ببحارِكَ
إنّ في رُوحي قَطْرةً مِن العِلْم   فخَلِّصْها مِنَ الهوى ومِنْ تُرابِ الجسَد
وذلك قبْلَ أن يَخْسِفَها هذا التّراب   وقبْلَ أن تُنشّفَها هذه الرّياحُ

(المثْنَوي: ١/١٨٩٢ـ ٩٤)

وإنّ لشَمْسِيّ العِشْق فَتْكًا وافتراسًا في عالَم الوجود، برّرَه جَلالُ الدّين البَلْخيُّ إذ قالَ في ديوانِ شَمْس:

يقتلِعُ مِخْلَبُ العِشْقِ مِن الأساس   كُلَّ بيتٍ وقعَتْ فيه مِنَ العِشْقِ شمْسٌ
وعندَما رأى قَلْبي بَحْرَ العِشْقِ فُجاءةً   وثَبَ منّي إليه وقال: الحقْ بي

أو:

=

بِمُساعدة رُوحِه خمْسَ مَرّاتٍ في اللّيلِ والنّهار، يَسْجُدُ له ويسبِّحُ بِحَمْده.

ومِنْ أَجْلِ الاتّصالِ بالنّورِ الخالدِ والأبديّ، أو نُورِ الأَنْوار، نَعْلَمُ نحْنُ ما الأصولُ التي علَينا مُراعاتُها. أنتُم وشَمْسٌ وجَماعةٌ مِن مُحبّيكم اخترتُم السَّماعَ والدّورانَ، أمّا نحْنُ فقد آثَرْنا العبادةَ والطّاعة. واعْلَموا، في المستقْبَلِ، أيضًا أنّنا سننزِّهُ وجودَنا مِن الأعمالِ والأَفْعالِ الإضافيّة التي هي هَدِيّةُ شَمْسٍ، ونتبرّأ منها.

ونقولُ أيضًا: إنّ أفرادَ المجتمعِ الإنسانيّ هم، عَلَى الحقيقة، أعضاءٌ وأجزاءٌ في حياةٍ واحدةٍ، ونَعُدّ أنفسَنا جميعًا شُعاعًا مِن ذاته [سُبْحانَه]. ومِن ناحيةِ المعنى والدّين، لَيْسَتْ قُونِيةُ فقيرةً فيستطيعَ ساحِرٌ تَبْريزيٌّ، اسْمُه شَمْسٌ، أن يأتي إليها بكَلامٍ جديدٍ، ويروِّجَ لِعبادة الشّمْس.

أوضحَتْ قَهْقَهةٌ ضاجّةٌ مِن مَوْلانا ألَمَه الحقيقيّ مِن المُعاندينَ والحاسدينَ، إذ ذُكِر ادّعاءٌ مِن دُون أساسٍ ودَليلٍ مَنْطِقيّ، في شَيءٍ مِن الضّحِك والسّخريّة. فقد كان مَوْلانا يَرَى أنّ جماعةً فَظّةً متعصّبةً متشدّدةً تعُدّه [١٤٨] مجذوبًا ومَسْحورًا. كُلُّ ما يفكّرونَ فيه يقولونَه دونما تعمُّقٍ وتحقُّق. وقد بَلَغَ مِن جَسارتهم وجُرأتهم أنّهم يعرِّفون أنفسَهم بأنّهم عارفونَ ومُطّلعونَ على الأَسْرار، فغضبَ مَوْلانا وتساءلَ بحِدّةٍ:

ـ مَنْ يتجرّأُ، ويجيزُ لنفسِه، في حُضوري أن يذكُرَ شَمْسًا، مفخرَ تَبْريز، بأقبحِ كلامٍ؟ فإذا كنتُم قد جئتُم إلى هنا مِنْ أَجْلِ كَشْفِ الحقيقة فعَلَيكم أن تسْعَوا إلى أن تحدّدوا جيّدًا موضِعَكم في الكَلام. ومهما يكُنْ مِنْ أَمْرِكم فإنّكم ضُيوفي، ويجبُ أن تعْلَموا أنّ شَمْسًا مُقتَدايَ ومُرادي.

وإذا كنتُم مَأجورينَ لِأَجْلِ مَزيدٍ مِن المُجادَلةِ والمغالَطة والاتّهام مقابلَ أَمْوالٍ

= لِأَنّ سَقْفَ البَيْتِ حِجابٌ لِجَمال الشّمْس أَزِلِ السّقْفَ سَريعًا بِإزْميلِ عِشْقِ الحق

طائلةٍ، فعلَيكُم أن تعْلَموا أنّني لا أسْمَحُ بأن يُذكَر بِسُوءٍ عُشّاقُ الحقيقة، الذين يتجلّى نُبوغُهم الصّوفيّ على نَحْوٍ رائعٍ في أقوالهم وأفعالهم. فهؤلاءِ أنتُم، وهذه أكْياسُ المالِ التي يضَعُها السُّذّجُ تحْتَ تصرّفكم. ولَيْسَ لي معَكم نِقاشٌ وجِدال، فالكلامُ على شَمْسٍ لَيْسَ عمَلًا لِكلّ عامّيٍّ، قليلِ العِلْم، طائشٍ، عديمِ التّجْربةِ، مأجورٍ:

إذا تقدّمْتَ في طَريقِ العاشقينَ بالفقْرِ والصِّدْق

جعَلَكَ شَمْسُ التّبْريزيُّ نَجِيًّا للرّجال

أنتُم وأحِبّاؤكم رأيتُم شَمْسًا في الظُّلْمة. وأنا أقولُ: قطَعَ اللهُ لِسانَ مَنْ يَعُدّ شَمْسًا ساحِرًا وعابِدًا للشَّمْس.

كان شَمْسٌ يقولُ: عَلَى الإنسانِ أن يَسْعَى لِجَعْلِ نارِ العِشْق والمحبّة، التي أَوْدعَها الحقُّ في صُدور النّاسِ، أكثرَ اتّقادًا واضطِرامًا. كان شَمْسٌ إنسانًا جامِعًا، إنسانًا عارِفًا، كان رَجُلًا كامِلًا. كان يتحدّثُ عن الماضي والمستَقْبَل، وأبرزَ أُفقًا عظيمًا في الإشْراق، وكان عارِفًا الأَشْياءَ كلَّها:

أمّا الكامِلُونَ فيَسْمعونَ اسْمَكَ يتردّدُ على البُعْد

فيَشْرَعونَ في الغَوْصِ إلى أَعْماقِ كِيانِك

بَلْ إنّهم قبْلَ مِيلادِكَ بِسَنواتٍ

رُبّما يكونونَ قد رَأوكَ في أَحْوالٍ كثيرة

يعْرِفُ كُلٌّ مِنهُمْ حالَكَ تمامًا شَعْرةً شَعْرةً

لِأنّهم ممتلئونَ بِأَسْرارِ الهُوِيّة[1]

صمَتَ مَوْلانا، وطفَرَتْ قَطَراتُ عَرَقٍ فوقَ وَجْنتَيْهِ، وكانَتْ يَداهُ وشَفتاهُ ترتجفُ،

---

١ ـ المثنَويّ: ١٨٠٧/٤ ـ ٠٢.

وتغيّرَ لَونُ وَجْهِه، على نَحْوٍ جعَلَ مُمثّلي المَحْفِل الرّوحانيّ في قُونِيَةَ يخجلونَ مِن أنّهم لم يُراعُوا الأدَبَ في المُحاجّة والجِدال.

أحَدُ الثّلاثةِ، وقد كان مِن جِهة العِلْمِ والعَقْل متقدِّمًا على الاثنَين الآخَرين، وابتغاءَ تهدئةِ مَوْلانا رُوحيًّا وجِسْميًّا، قالَ:

ـ [١٤٩] إنّ إدراكَ الحقائقِ المُرّة التي يتفوّهُ بها مَوْلانا صَعْبٌ قَليلًا على صاحِبَيَّ، فلَعلّهما لا يَعْلَمانِ ماذا يقولُ مَوْلانا، وعَمَّن يتحدّثُ، وماذا يُريدُ. وإنّ أحبّاءَنا في الدِّينِ في حالٍ مِن العذاب الشّديد، مِن كَوْنِ أُستاذٍ عالِمٍ لا نظيرَ له ابتعدَ عن جَمْعِهم، وتنحّى عن جُمهورِهم، وكوّن صَفًّا أو جبهةً مُضادّةً لهم. ذلكَ لِأَنَّ أهْلَ قُونِيَةَ يَعُدّونَ مَوْلانا أعظَمَ سَنَدٍ مَعْنويّ لهم. وإنّ افتقادَ هذا السَّنَدِ العظيم استلزَمَ إيجادَ فَراغٍ في أُسُس البِناءِ الاجتماعيّ ههنا. فكيفَ يتحمّلُ النّاسُ هذا الفَراغَ المعْنَويّ الرّوحيّ؟ إنّ رُوحَ مَوْلانا المتمرّدَ المتّقِدَ هو الذي يأذَنُ لنا، ويُعطينا القُدْرةَ على أن نتكلَّمَ؛ وإلّا فنَحْنُ نِمالٌ، ولَيْسَ لدَينا القُدرةُ عَلَى التحدّثِ عن أدَبِ مَوْلانا وفَضْله وعِلْمه. وقد صِرْنا حائرينَ وذاهِلينَ في مفترَقِ طُرُق الحياة. وقد شغَلَنا جميعًا بِقُوّةٍ هذا السّؤالُ: أيُّ شيءٍ ذلكَ الذي فصَلَ مَوْلانا عن جُمْلةِ النّاس في هذه الحاضِرة؟ أيُّ فَرْقٍ فاحِشٍ بينَ الحقيقةِ التي تَنشُدُونَها وتطلبونَها والحقيقةِ التي نبتغي الوصولَ إليها؟!

هَلْ هذه الحقيقةُ تقَعُ في دائرة العِلْم، أو أنّها فوقَ الفَضْلِ والعِلْم؟ هَلْ هي خارجةٌ عن عالَمِنا المحسوس؟ ـ مِن أَجْلِ الوُصولِ إلى هذه الحقيقة، هَلْ يمكِنُ الحصولُ على مُساعدةٍ مِن الاستِدْلالِ والعِلْم والمعرفة؟ هَلْ تأذنونَ لنا أن نَرَى نحْنُ أيضًا الدّنيا بالعَيْنِ نفسِها التي تُشاهدونَها بها؟ هَلْ صَحيحٌ أنّكم تريدونَ بمُساعَدةِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ

أن تغيِّروا عالَمَ اعتقاداتِنا وِفاقًا لاعتقاداتِكم؟

لِماذا ينبغي أن يظهَرَ بينَنا، نحنُ المؤمنينَ، اختلافٌ ونِفاقٌ؟ نحْنُ نؤمنُ بما وراءَ الطّبيعة إيمانًا راسِخًا. أعتقدُ أنّ مَوْلانا، العميقَ التفكيرِ والمتّقيَ والعادِلَ، يُقِرُّ بإيماننا الرّاسخ. لكنّه علَيَّ أن أعترفَ بِأنّنا نجْهَلُ العِشْقَ، في ذلك المعنَى الظّريفِ والدّقيق والمُتعالي الذي تقولونَ به. نحْنُ لا نؤمنُ بالعِشْق، الذي تَعدُّونَه أنتُم مُعْجِزًا إلى درجةِ أَنْ نسْمَعَ أنّه يقالُ إنّكم ستَجْتازونَ المَجَرّاتِ بِمَدَدِ هذا الطّائرِ القَويّ الجناح.

نحْنُ ندْرُسُ ونحقّقُ المباحثَ العِلْميّةَ والذّهنيّةَ والعاطفيّةَ بِمُساعدة العَقْل، ونُحِبُّ الإنسانيّةَ والأُمورَ التي تدفَعُ المجتمعَ نحْوَ الصَّفاء والسّعادة. نتمسّكُ بالمحبّة، ونُثْني على الله سُبحانَه بكُلّيّة وجودِنا، ونتصوّرُ أنّه بِمُساعدةِ هذه الفضائل الإنسانيّة نستطيعُ أن نقتلعَ المُعضِلاتِ الجِسْميّةَ والرّوحيّة [١٥٠] مِن أَساسها.

هذا البَيانُ المُحَبَّبُ والمنطقيُّ هدّأ رُوعَ مَوْلانا قليلًا، فتبسَّمَ، وعادَ مِن جديدٍ إلى الذّوق والشّوق والحديث. فما كان مِن ممثّلِ المَحْفِل الرّوحانيّ في قُونِيَةَ، الذي كان مطّلعًا على الوَضْعِ الرّوحي لمَوْلانا، إلّا أن يُنْشِد بَيتًا مِن أشعارِ مَوْلانا، بقَصْدِ التّخفيفِ على هذا الأستاذِ والعارفِ الكبير، على هذا النّحْو:

نَحْـنُ مِثْـلُ النّـايِ، والأنغـامُ التـي فينـا مِنْـكَ

نَحْـنُ كالجبَـلِ، والـصّدَى الـذي فينـا مِنـكَ[١]

ٱستعادَ مَوْلانا هدوءَه، وغاصَ في نفسِه قليلًا، وكأنّ تحْتَ الظّاهِرِ الهادئ عالَمًا مائجًا، مملوءًا بالحُمّى والألَمِ والاضطراب، ضَجّةَ بَحْرٍ متلاطمِ الأمواج، مُفْعَمٍ

---

١ ـ المثْنَوي: ١/٦٠٣.

بالهيَجان، طافحٍ بالثّورة والوَجْد. وراءَ هذا الرّوحِ الذي يبدو هادئًا مَوْجٌ وتَلاطمٌ، تُخبِرُ عن عِشْقٍ ووَجْدٍ وهيَجان(١).

١ـ قالَ مولانا في ديوان شَمْس:

قَلْبُ كلِّ إنسانٍ لا ينطوي مِن هذا العِشْقِ على أَثَرٍ اجذِبْ إليه السَّحابَ، لِأَنّه لَيْسَ إلّا عَدوًّا لِلقَمَر

ما أيبَسَ الشّجرةَ التي لم تَنْمُ في ذلكَ البُستان وما أذلَّ العزيزَ الذي لا يكونُ في ظلّ هذا الشّجَر

وفي شِرْعةِ العُشّاق، يكونُ في مَرضِ الموت كُلُّ رُوحٍ لا يكونُ في كُلّ يومٍ أَسْوأَ حالًا، مِن هذا الألَمِ

وفي الصّورة، كُلُّ مَنْ رأيتَه بهذا اللّون اعْلَمْ تحقيقًا أنّه لَيْسَ مِن جِنْسِ البشَر

وكُلُّ قَصَبةٍ رأيتَ على وسَطها حِزامَ العِشْق حُلَّ حِزامَها، لِأَنّها لَيْسَتْ إلّا عِدْلَ سُكّر

(ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ٣٣٣).

ـ العِشْقُ كُلُّه احتراقٌ وإذابةٌ، فحَسْبُ
فَناءٌ وعَجْزٌ وحاجةٌ، فحَسْبُ
ـ وكُلُّ صَدْرٍ يتغلغلُ فيه العِشْقُ
يَسيلُ دَمُ القَلْبِ [عندَ صاحبه] مِن العَين
ـ وأَينَ العِشْقُ مِن سُوءِ السِّيرة
أينَ العِشْقُ من الرّاحة وطِيبِ الخاطر؟!

فِراسةُ مَوْلانا

يمكنُ تسْمِيةُ هدوءِ مَوْلانا في تِلْك اللّحَظاتِ: الهدوءَ الذي يسبِقُ العاصفة. ويجِبُ قولُ أهمِّ الكَلامِ المرتبِطِ ارتباطًا مباشرًا بالعظَمة الرّوحيّة لمَوْلانا، يجِبُ بَيانُ أَسْرارِ زَوايا الرّوح، يجِبُ عَرْضُ الأسئلة بذَكاءٍ وتعقُّلٍ مِنْ خِلالِ إدراكٍ ذكيّ وإِشْراقيٍّ، ابتغاءَ مَزيدِ إيضاحٍ لِعظَمةِ بَحْرِ فِكْر مَوْلانا. ومَهْما يكُنْ فإنّ تحديدَ موضِعِ مَوْلانا في هذه الجَلْسةِ العاصِفةِ صَعْبٌ على المؤلّف. أمّا عَودةُ مَوْلانا بِمَدَد اللّطْفِ والمَحَبّة فكانَتْ بدايةً لمُذاكَراتٍ أُخرى. والمسألةُ هي: ما نَوعُ الشَّخْصِ الذي يجِبُ أن يُفهِمَ النّاسَ أنّه مِن أَجْلِ الحياة لابدّ مِن فَهْمِ عالَمِ الوجود؟ إنّ حُضورَ الإنسانِ في ساحةِ الحياة يعْرِضُ مَسائلَ وقضايا، ويوجِدُ غُصَصًا وآلامًا؛ فمَنْ ذا الذي يَحُلّ هذه المُشكِلات؟ كيفَ يَجِبُ معرفةُ البداية؟ وههنا يُضطَرُّ مَوْلانا إلى الحديث. ولهذا السّبب تعلّقَتْ نظَراتُه بنقطةٍ بعيدةٍ؛ وبِكَلماتٍ هادئةٍ تُسْمَعُ بصعوبةٍ قالَ:

ـ أنتُم ضَيْفي، وينبغي أن يوجَّهَ سَعْيُكم إلى إدراكِ الحقائق، وفي المُباحَثةِ والمُحاوَرةِ لا تُضيعوا المَتانةَ والرُّسوخَ والوَقار. أنتُم تتحدّثونَ عَن ظِلالٍ باهتةٍ ومضطَرِبةٍ لِلْمَنطِق والحِكْمةِ والفلسفة. وهذه عنْدَنا، نحْنُ الذين نسْبَحُ في بَحْرِ العِشْقِ الواسِع والجميل، اسْمٌ لَيْسَ له مفهومٌ عنْدَ عُشّاق الحقيقة. إنّ التصوّرَ الذي

نمتلِكُه نحْنُ [١٥٢]، مُحِبّي العِرْفانِ الباحثينَ بِعِشْقٍ، عنِ الحقيقةِ والحياةِ هو أصَحُّ تَصوُّرٍ يمكِنُ أن يرتسِمَ في ذِهْن إنسان. فإذا ما حدَثَ اليومَ أَنْ قبِلتُم أنتُم وأحبّاؤكم ذلكَ، فلا شكَّ أنّكم بعْدَ وفاة شَمْسٍ، بعْدَ انطفاءِ نارِ التعصّب، ستُدْركونَ بِعَظَمته الرّوحيّة أيّةَ قُدْرةٍ عظيمةٍ هذه التي غمَرَتْ مَوْلانا في غَمَراتِ العِشْق؟ أنتُم مشغولونَ بِكَشْفِ أَسْرارِ الكائنات ورُموزها بِطَرائقِ المنجّمينَ. أمّا نحْنُ فنسيرُ في العالَم الذي تُريدونَ أنتُم كَشْفَ أَسْراره. وأَحْسَبُ أنّه في المستقْبَلِ القريب سيقذِفُنا مُحِبّوكم بالحِجارة، ويصفونَنا بِأنّا لا نعْرِفُ اللهَ، سُبْحانَه. أمّا أَتْباعُ شَمْسٍ فلَنْ يهتمّوا بهذه التُّهَم والإزعاجات، بِفَضْلِ العَظَمةِ والقِيمةِ اللّتَين تنطوي علَيهما عقائدُهم وفِكَرُهم. نحْنُ نَفِرُّ مِن جِدالِ المُدّعينَ المُلَفّقينَ، ونَعُدُّ العُجْبَ والتعصّبَ تَمثيلًا مضْحِكًا لِبلاهةِ الإنسان.

أنتُم تسألونَ عنِ العِشْقِ المُعْجِز.. وبهذا السّؤالِ، ذكّرتُموني بالرّجُلِ العظيم لِوادي العِرْفان، مُصَفّي قلوبِ العارفينَ، مُلْكْ داد شَمْس الدّين التَّبْريزيّ. وهو مُنشِدٌ ومُطرِبٌ أكبرُ مِن أبي يَزيدَ والشّيخ عبد الله الأنصاريّ. شَمْسٌ هو شَمْسي، وهو ناري، وهو جَنّتي. ومُؤنِسي هذا، دائي ودَوائي، وكعبتي ومعْبَدُ رُوحي، قالَ في مواضِعَ مختلفةٍ إنّ الطّلَبَ والبَحْثَ في شَأْنِ المسائلِ الرّوحيّة وما وَراءَ الطّبيعةِ هو توفيقٌ إلهيّ، فالله سُبحانَه لا يعطي هذه النّعمةَ لِكُلّ إنسانٍ، وعندَما لا يشاءُ الله ذلكَ لا يظهَرُ في باطن الإنسانِ جَيَشَانٌ. والطّلَبُ هو البِدايةُ لإدراكِ غاياتِ الوجودِ كلّه، والحصولِ على مفتاحِ ذلكَ. وكُلُّ مَن يكونُ طالبًا لفَهْمِ الأَسْرار وإدراكها، سينالُ يقينًا مطلوبَه ومُرادَه.

وقد كُنتُ طالبًا لِمُرشِدٍ يخلّصُني مِن كُلّ هذه التّساؤلاتِ الدّاخليّةِ. وتعلّقَتِ

المَشيئةُ الإلهيّةُ بأنْ أنجُوَ مِن الظُّلُمات. ولَسْتُ أَنسَى وَحْدَتي وانفرادي. ولا أَعْني وَحْدَةً وغُرْبةً مِن ناحية الصّديقِ والصّاحب. بَلْ هي وحْدَةٌ مَبعثُها أنّني لا أجِدُ نَجِيًّا مُخْلِصًا يجيبُ عن تَساؤلاتي. أَنشُدُ إنسانًا مِن جِنْسي أجعَلُه قِبْلَتي. كُنتُ أطلُبُ شَخْصًا يُهدِّئ طُوفاني الدّاخليّ. كُنتُ أنشُدُ مفتاحًا يفتحُ أقفالَ القُرونِ والأَعْصار في عالَم الرّوح. تلكَ الأقفالُ التي لا مفتاحَ لها في دُنيا الكُتُب. كان طُوفانٌ ملتهبٌ يعتصِرُ وجُودي. كانَ رُوحي غيرَ عابئٍ بِكُلّ المَحاسِنِ واللّذائذ والمُتَع والمَباهج. كُنتُ أنظرُ إلى الأَرضِ والسّماء على نَحْوٍ لا أَجِدُهما فيه تَحْمِلانِ لي [١٥٣] مفهومًا، حتّى إنّي سئمتُ نَفْسي، إلى أن لَقِيتُ شَمْسًا[1] المُبْدِعَ، شَمْسًا الخَلّاقَ، شَمْسًا المتّقِدَ. وربّما كُنتُ الشّخصَ الوحيدَ الذي أدركَ شَمْسًا وعَرَفه كما ينبغي. إنّ شَمْسًا رَجُلٌ فَذٌّ. وعندَما يتحدّثُ، ينتشرُ في الفَضاء لَحْنٌ رُوحانيّ. وفي كِيرِ اختبارِه صِرْتُ مصقولًا، ووُلِدتُّ مِن جَديد. شَمْسٌ طائرٌ مَرْكَبُه بَحْرُ المعرفة.

---

١ ـ قالَ مولانا في الدّيوان الكبير، في شأن عودةِ شمسٍ إلى قُونية:

جاءَ الرّوحُ مِن سَفَرٍ طَويل ... عادَ إلى تُرابِ بابِكَ
لِكَي تعلُوَ صَيحةُ العاشقين ... جاءَ الذي هو قِبْلَةٌ لِكُلّ صَلاة
ويا صَنّاجةَ الطّرَبِ التي انعدَمَتْ ألحانُها ... ارقُصي فقَدْ جاء الآنَ مستعِدًّا
إنّ نُورَ وَجْهِ شَمْسِ الحقّ التّبْريزيّ ... أحاطَ بالعالَم وجاءَ بالسِّرّ
فتلكَ شُعْلةُ نُورٍ تتبختر ... وتلكَ فِتْنةُ حُورٍ تتدَلَّل
وقد ارتدَى اللّيلُ لباسًا أبيضَ ... لِأَنّ ذلكَ القمَرَ يتبخترُ مِن بعيد
فبُشْرى لِسُكارى اللّيلِ ... أنّ السّاقيَ يتبخترُ في السَّحَر
فانظُرْ إلى تِلكَ الفِتْنةِ التي مِن جديد ... تتبخترُ بمئة شَرٍّ وإثارة
رُوحي فِداءٌ لِسُلَيمانَ ... الذي يتبخترُ بجانبِ النّملة
في قالَبِ الخَلْق، ها هو شَمْسُ تَبْريز ... يتبخترُ مِثْلَ نَغْمةِ الصُّور

(ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّتان: ٧١٠ و٧١١)

كُنتُ في أَحْوالي كلّها، في مَجْلِس الدّرْسِ وفي أثناءِ العبادة وفي حَياتي كلّها، في بَحْثٍ لا يتوقّفُ: لِماذا جِئتُ إلى هذه الدّنيا؟ ـ وإلى أينَ أذهَبُ؟ ـ ما مُستقبَلي ومستقبلُ البشريّة(١)؟

١ ـ ذكرَ الأفلاكيُّ في كتابه «**مناقب العارفين**» أنّه في تِلكَ الأيّام التي شَرّفَ شَمْسُ الدّين التّبْريزيّ، وقعَتْ في قُونِية ضجّةٌ عظيمة:

ـ عَجَبًا، هَلْ شمسُ الدّين وَلِيٌّ أو لا؟ وكان كلُّ واحِدٍ يقولُ شيئًا، وكانوا يرجونَ محادثتَه لِكَي يفهموا حقيقتَه. أمّا هو فكان دائمًا يعتزِلُ المجامعَ والمحافلَ والنّاسَ. وعندَما يكونُ موجودًا في المجامع، كانوا يتحدّثون في أثناء كَلامه. وفي يومٍ مِن الأيّام، قالَ مولانا شَمْسُ: إنّ مَنْ يُدْخِلُ في كلامي كَلامًا حالُه كحال شَرَف اللّهاوريّ، نهايتُه الغَوْصُ في ماءٍ أسود. فقُلْتُ له: أينَ أنتَ مِن حديث الأولياء؟ ـ وماذا يهمّني: مَنْ هو وَلِيٌّ، و أهو وَلِيٌّ أم غيرُ وَلِيّ. وماذا يفيدُه أن أكون وَلِيًّا أو لا أكون.

ويُحكَى أنّ مولانا شَمْسَ الدّين التّبْريزيّ كلّما استغرقَه تَوالي التّجلّياتِ ولم تتحمّلْ قُواه الإنسانيّةُ هذه المجاهدات، شغَلَ نفسَه بعَمَلٍ، لِكَي يتخلّصَ مِن تلك الحال، وذهَبَ إلى أشخاصٍ غير معروفين؛ لِكَي يعمَلَ عَمَلًا في اللّيل، وعندَما كانوا يعطونَه الأَجْرَ كان يقولُ:

ـ إنّ عَلَيّ قَرْضًا، أريدُ أن يُجْمَعَ لِكَي أؤدّيه كامِلًا.

وبهذه الذّريعة كان يُمنَع، ثمّ بعْدَ مدّةٍ كان يغيبُ. وعلى امتدادِ حياة مولانا جَلالِ الدّين، لم يكُنْ لِأَحَدٍ اطّلاعٌ على حقيقة شَمْس، ولَنْ يقِفَ أحَدٌ على حقائق أسراره. كان دائمًا يُخفي شُهرتَه عن النّاس، وكان يتصرّفُ على طريقة التّجّار ويرتدي لِباسَهم. وفي أيّة مدينةٍ كان يذهَبُ إليها، كان ينزِلُ في منزِلِ تُجّار القوافل، وكان يضَعُ قُفلًا مُحْكَمًا على بابِ الحجرة التي يقيم فيها. وفي داخلِ الحجرة لم يكُنْ ثمّةَ إلّا حصير. كان أحيانًا ينسِجُ تلكَ السّراويل، ويعيش من دَخْل ذلك العَمَل (سپهسالار، رسالة في أحوال مولانا) [١٥٤].

أنا (شَمْسَ تَبْريز) لم تكُنْ لَديّ عادةُ الكتابة أبدًا. ولأنّي لا أكتُبُ [الشيءَ أو الفكرةَ] يبقى في نفسي، وفي كُلّ لحظةٍ يوجِّهني وِجْهةً جديدة. أستطيعُ أن أحدِّثَ نَفْسي، أو كُلُّ شيءٍ رأيتُ نَفْسي فيه أستطيعُ أن أحادثه. ومع كُلِّ هذا الجنونِ الذي أجدُني فيه غَلَبتُ كثيرًا مِن العقلاء. معَ كلّ هذه الغفلةِ التي أجدُني فيها جعَلْتُ كثيرًا مِن ذَوي العِلْمِ والخبرة تحتَ إبطي. كان في داخلي بِشارةٌ كأنّني أطيرُ، لَسْتُ فوقَ اليابسة.

دعَتْني جَماعةٌ مسْلِمةٌ ظاهرًا، كافرةٌ باطنًا، اعتذرتُ. كنتُ أدخلُ الكنيسةَ، وكان فيها كافرونَ أحبّائي: كافرونَ ظاهرًا، مُسْلِمون باطنًا (**مقالات شَمْس**).

رأى شَرَف لَهاوريّ في المنامِ أنّه كان يغوصُ في ماءٍ أَسْود، وكان يحرّكُ إصبعَين للتّنبيه: يا مولانا شَمْس الدّين، اسحَبْني، اسحَبْني. لم يحبِسْه الماءُ. ومرّةً أخرى، وفي حضوري، بدَأَ في شَرْح الفَرْق بينَ معجزاتِ الأنبياء وكرامات الأولياء. فقلتُ له: أينَ أنتَ مِن حديث الأولياء؟ تصوّرتَ وَلِيّ الحال ذلك الذي في خيالكَ. وعندَما نُعرِضُ عن كَلامه يكونُ ذلكَ مِن أَجْلِ مَصْلحته. وهو يقولُ: شَمْسٌ يحسُدُني ويحقِدُ عَلَيّ. وإنّه مِن طَبْعي أن =

[١٥٤] هذه الأَزْمةُ الفكريّةُ حَرَمتْني النّومَ والرّاحة. أمّا شَمْسٌ، وهو أعجَبُ رَجُلٍ فوقَ الأرض، فقد كانَ كنَفَسِ عيسى، إذ أَحْياني، أنا الميّتَ. الاحتراقُ الذي أوجدَه في كياني لِقاءُ شَمْسٍ، غيرُ قابلٍ لِلْوصف. فهو الذي علّمَني أنّ وراءَ هذا العالَم، وراءَ هذه العواطف، وراءَ سَماءِ هذا العالَم، سَماءً أُخْرى أيضًا. هو الذي علّمَني أنّ العِشْقَ الإلهيّ إذا ما بَنَى عُشَّه في وجودِ الإنسان، وفي أعماقِ رُوحِه، سيكونُ هذا الإنسانُ في حالاتِه جميعًا، وفي آناتِ حياتِه ولحَظاتها جميعًا، عابِدًا ومُتغنّيًا بجَلالِ الأحَديّة.

وقد قالَ شَمْسٌ: إنّ لِلْعاشقينَ دِينًا خاصًّا، ومِلّةً مستقِلّةً. وأشارَ إلى أنّ قطَراتِ الدّمعِ العنيدةَ لِأَعْيُنِ العارفينَ والهائمينَ بالبارئ تعالى، تُنجي الرّياضَ والبساتينَ مِن الهَلاكِ والقَحْط. وهو الذي ذكّرَني بأنّه في عالَمِ التّراب هذا، لا يبقَى صَوْتٌ ولا طَلَبٌ مِن دُونِ صدًى وجواب، وأنّ الله تعالى أَهْدَى لنا القَلْبَ الذي بفَضْلِه نعشَقُ ونُحِبّ، ونَروي غُمومَنا الدّاخليّةَ بمُساعدةِ العِشْق وسَكْبِ الدّموع؛ ابتغاءَ أن نتحوّلَ مِن ذَرّةٍ اسْمُها الإنسانُ في مُحيط الكائنات، إلى موجودٍ غايةٍ في العظَمة والقُوّة. نَعُدُّ اللّحَظاتِ غَنيمةً. وعظَمةُ هذه اللّحَظاتِ تكونُ عندما يكونُ لدينا هيَجانٌ ووَجْدٌ وحالٌ، مِن أَجْلِ الاستماعِ لِصَوت الوجود.

بَيانُ شَمْسٍ مِثْلُ الشّمْسِ التي تَسْطَعُ على الأشياء كلّها، ولكُلّ شَيءٍ نَصيبٌ مِن ذلكَ الذّوقِ والشّوق، تَبَعًا لِمَرتبته: تُحْرِقُ أحَدًا، وتُضيء آخَرَ [١٥٥]، وتُدلّلُ ثالثًا، وتُذيبُ رابعًا.. وأنا تحتَ أَنْوارِ شَمْسٍ اللّألاءةِ ذُبتُ:

= أدعو لِلْيهوديّ، أقولُ: هَداه اللهُ. أدعو لِمَن يشتُمني قائلًا: يا ألله، أَعْطِهِ عَمَلًا خيرًا مِن هذا السِّباب؛ لكي يسبِّحَ ويهلِّلَ وينشغلَ بِعَالَم الحقّ، بَدَلًا من ذلك (**مناقب العارفين للأفلاكيّ**).

مَعْشُوقي وحَبيبي أنتَ، رَونَقُ عمَلي وبهاؤه أنتَ،

بُستاني ورَبيعي أنتَ، ومِن أَجْلِكَ كان وجودي

أنتَ رُوحي ودُنيايَ، أنتَ الزُّهَرةُ في سَمائي

ونارُكَ عَلامةٌ على أنّ في قَلْبي شَيئًا كالعُود

لم يكُنْ جِسْمٌ، وكُنتُ رُوحًا، كُنتُ معَكَ فوقَ السّماء

لم يكُنْ لي حِوارٌ ومُحادَثةٌ البتّةَ

وعندَما رأى رُوحي قِبْلةَ وجهِ شَمْسِ الدّين

كانَتْ طاعتي وسُجودي عنْدَ بِدايةِ حَيّه

كان مَوْلانا حارَّ الكَلام، وكان ممثّلو المحفِل الرّوحانيّ في قُونِيةَ صامتينَ وغارقينَ أمامَ أُقيانوسِ الكَلام، أَمامَ أمواجِ الكلامِ السَّماويّ. كان مَوْلانا منشغِلًا بتصوير أحاسِيسه العميقةِ بمُساعدة البيان. ومِثْلَ صانعِ التَّماثيل الصّينيّ، كان يصوِّر شَمْسًا بِأَبعاده كلّها إذ قالَ:

ـ أيّها الأحِبّةُ، كان شَمْسٌ ينظرُ نظَرًا عميقًا إلى اقتدارِ الإنسانِ المؤمنِ المُخْلِص، وشخصيّته، وقُدرته الخلّاقة. وينبغي البَحْثُ عن سِرِّ عظَمته في فِكَره الإلهاميّة والعالية. وقد أتى برِسالةٍ لِأَصْحابي وتَلاميذي هنا عَلَى سَبيل الهَديّة، فكان يقولُ: أَحِبَّ أنتَ النّاسَ، ومتَى قَدَرْتَ وتمكّنْتَ فأحسِنْ إلى الجميع، وإِنْ ساعدتَّ أحَدًا، أو قدّمْتَ خِدْمةً لِأَحَدٍ، فانسَ نفسَك. وإذا دَرَستُم جوهرَ النّظامِ الفِكْريّ لِشَمْسٍ وطريقتَه، بإنصافٍ وحَيْدةٍ، أدركتُموها جيّدًا. ولَنْ يكونَ في وُسْع المُخالفينَ المتشدّدينَ، بِسُمومِ حَمَلاتِهمُ اللّئيمة، أن يُزيلوا طلاوةَ كَلامِه ولَطافتَه وتأثيرَه، وحُسْنَ قَولِه وعمَله. ومعَ أنّ

شَمْسًا يجدُ أذًى مِن المُعانِدينَ، اعلَمُوا يقينًا أنّ كَلامَه وخُطَبَه ستظلُّ دائمًا في أَذْهانِ أهالي قُونِيةَ وأصحابِ القلوب.

ـ العِشْقُ هو تلكَ الشُّعْلةُ التي عندَما اشتعلَتْ
أَحرقَتْ كُلَّ شيءٍ ما عدا المعشوقَ
ـ العُشّاقُ ظاهرونَ، والمعشوقُ غيرُ ظاهرٍ
فمَنْ رأى في العالَمِ كلّه مِثْلَ هذا العِشْقِ؟
(المثنويّ: ٥٨٩/٥، ؟)

بَحْثٌ قَصيرٌ في شأنِ الإنسانِ الكامِلِ

إنّ رُوحَ كُلِّ عاشِقٍ مُخلِصٍ، مثْلِ شَمْسِ التّبْريزيّ، صانِعٌ وخَلّاق، وترتبطُ ساحةُ تفكيرِه المُتعالي بِفَضاءِ الوجودِ والمجالات العاطفيّة. والعُشّاقُ الأَصْفِياءُ المخْلِصون لِلْحقيقة يُحسّون بِمَحبّة الحقّ ومعرفته في أعماقِ أَرواحِهم، وفي رُوح العالَم، ويرَون أنّ الدّنيا مملوءةٌ بِجَمالِ الله وجَلالِه وصِفاته وعظَمته. وبِناءً على هذا الأَصْل، تكونُ لَحَظاتُ حياتِهم كُلُّها في حالِ الطّاعة، وهو مِن المواهبِ التي جعلَتْها الطبيعةُ في متناوَلِ أيديهم، وإذا هم قالوا إنّنا عاشقون لِلْأفلاكِ والكائناتِ والكواكب، أو قَلْبِ عالَم الإمكان، فإنّهم لم يقولوا باطلًا وعَبَثًا.

والعاشِقُ، هو عاشِقُ الحقيقةِ وعاشِقُ الوجود، هو عاشِقٌ لله، بِعبارةٍ أُخرى. ولهذا السَّبب يكونُ مستعِدًّا في كُلّ وقتٍ لِأَن يتخلّى عن هذا الرّوحِ المُستعار، أو هذا اللّباس العَرَضيّ الذي هو لَيْسَ له، وهو حِجابٌ يمنَعُ مُشاهَدةَ الذّات الإلهيّة، وذلكَ إذا كان قد وصَلَ إلى فَضاءِ العِشْق الذي لا ضِفافَ له، والرّحمةِ التي لا نهايةَ لها، وأضرمَ النّارَ في غاب الفِكَر.

وفي بَياناتِ مَوْلانا وتَصْريحاته، تَوارتِ القُدْرةُ العظيمةُ لهذا الإمامِ العاشِق

المتفجّرِ. وكُلُّ كَلِمةٍ مِن كَلِماته كانَتْ تنزِلُ على رُؤوس المُخالفينَ بقُدْرة الصّاعقة. وكأنّ مُمثِّلي المحفِلِ الرّوحانيّ في قُونِيَةَ قد أَفاقوا مِن نَومِهم وتحرّروا مِن خَدَر القُرونِ، واستعادوا وَعْيَهم. والحَيرةُ التي كانَتْ قدِ ارتسَمَتْ على أَوجُهِ هؤلاءِ، دفعَتْ مَوْلانا إلى أن يصوِّرَ الوَجْهَ الملَكوتيَّ للإنسان العاشِق، أو الإنسانِ الكامِل، الذي له في كُلّ دَوْرٍ تَجَلٍّ خاصٌّ وسِيماءُ متفرِّدةٌ، بهذا الشَّرْح لِمُخاطَبيهِ [١٥٧] الذين سُلِبتْ منهمُ القدْرةُ على التحدّث. ذلكَ لِأَنّه منذ وقتٍ بعيدٍ، ظلَّ شَوقُ لِقاءِ الإنسانِ الكامِلِ أَحَدَ أهمِّ أُسُسِ كلامِ جَلال الدّين البَلْخيّ ورسالته:

ما التّدْبيرُ، أيّها المسْلِمونَ،

لا أعْرِفُ نَفْسي؟

لَسْتُ مَسِيحيًّا، ولا يَهودِيًّا

لَسْتُ مَجُوسِيًّا، ولا مُسْلِمًا [قِشْريًّا]

لَسْتُ مِنَ التّراب، ولا مِنَ الماء

و لَسْتُ مِنَ الرّيح، ولا مِنَ النّار

لَسْتُ مِنَ العَرْش، ولا مِنَ الفَرْش

لَسْتُ مِنَ الكَوْن، ولَسْتُ مِن كُنوزِ الأرض

لَسْتُ مِنَ الدّنيا، و لَسْتُ مِن العُقْبى

لَسْتُ مِنَ الجَنّة، و لَسْتُ منَ النّار

لَسْتُ مِن آدَم، ولا مِن حَوّاء

لَسْتُ مِنَ الفِرْدَوس، ولا مِن الرِّضْوان

مَكاني هو اللّامَكانُ

وعَلامتي هي انعدامُ العَلامة

فلا جَسَدَ لي ولا رُوحَ،

بَلْ أنا مِن رُوحِ المعْشُوق

لَعلَّ اكتشافَ إنسانٍ كامِلٍ وتعرُّفَه يكونُ أحَدَ أكثَرِ الظّواهِرِ إثارةً للضّجّةِ، وأَعظَمِ الآمالِ في حَياة الإنسانِ المؤمن. والإنسانُ الكامِلُ، الذي عُبِّر عنه أيضًا بـ «الإنسانِ الرّاسخ»، يقتلِعُ جَذْرَ المستقْبَلِ والماضي، ويحرِقُ نَفْسَه كالسَّمَنْدَر(*) في نار الخُلوص.

اعلَموا أنّ شَمْسًا مِن العُشّاقِ الذين يعرفونَ أَسْرارَ التقدير، ولهذا السَّببِ، وابتغاءَ الظّفَرِ بصَيدٍ، طَوى الطّريقَ مِن باديةٍ إلى أُخرى، مِن تَبْريزَ إلى الشّام، ووَصَلَ إلى قُونيةَ، لِكَي يعْمَلَ عَلَى تَطْهيري الرّوحي. وقد أَرشَدَني في طَريقِ السَّيْر والسُّلوك بِعِرفانٍ واحتراقِ قَلْبٍ، عَلَى نَحْوٍ أَحِسُّ فيه اليومَ بأنّ الحياةَ عندي مِن دُونه قِصّةٌ تافهةٌ، وغُصّةٌ في غاية الألَم. ولَوْلاه، رُبّما لا يكونُ لِتَجلّي حَقيقةِ العِشْقِ والحياة هذا عندي معنًى ومفهوم. [١٥٨].

ـ لماذا؟ ـ هذا الكَلامُ غيرُ منطقِيّ، وهو لم يُعطِكم الحياةَ، حتّى تكونَ مِن دُونه بِلا مفهوم. هذا خِلافُ أَصْلِ البَحْثِ عنِ الحقيقة، والإخلاص للحقيقة.

(جُمَلٌ قالَها أحَدُ مُمثّلي المحْفِل الرّوحانيّ في مخاطَبة مَوْلانا، وقطَعَ كلامَ مَوْلانا).

---

*ـ دُوَيْبّةٌ تفرِزُ مادةً تُطفِئُ النّار؛ ولذلك زَعَموا أنّها لا تحترِقُ بالنّار. وأَصْلُ الكلمة يونانيّ.

ـ كَلامي كُلُّه، وأَدلّتي كُلُّها، وأَشْعاري جميعًا، مبنيّةٌ على أنّ شَمْسًا أعادَني إلى ساحةِ الحياةِ مِن جديدٍ، أو أَعطاني وِلادةً جديدة. عَلَّمَني كيفَ أفكّرُ في هدوءٍ وسُكونٍ رُوحيٍّ في غَمْرةِ حرَكة الحياة، وكيفَ أَبحَثُ عن شيءٍ داخِلَ الاضطِرابِ المستمرّ الذي لا يتوقّفُ لِدَوَران الكائنات. وقد ذكَرَ لي أنّ الله تعالى خَلَقَ القُلُوبَ قبْلَ الأجساد، وأنّ قَلْبَ كُلِّ عارفٍ، كُلِّ باحِثٍ مخلِصٍ، يَنشُدُ كَشْفَ أَسْرارِ الطّبيعة. علّمَني المبادئَ الأساسيّة للحياة، وأَوضحَ لي كَيفَ أجعَلُ الفَلَكَ تحْتَ قَدَمي، ومِن وَراء الفَلَك أسْمَعُ صوتَ السّماع. كان دائمًا يقولُ: اخرُجْ مِن حَياةِ الحَيَوان، لِكَي تتجلّى فيكَ الصّفاتُ الإلهيّة، وعندَئذٍ سَتَرى أنّك ومعشوقَك لَسْتُما اثنَين، بَلْ أنتمٌ كِيانٌ واحِد. وقد أَخَذَ بِيَدي مِن حَدّ التّرابِ إلى البشَريّة، حَيثُ آلافُ المنازِلِ، مَدينةً مَدينةً، وحَيثُ التّجلّياتُ المختلفةُ.

قـــــالَ: قَــــــدْ فَنيــــــتُ فِيــــــكَ

حتّـى إنّنـي مُلِئـتُ مِنْـكَ مِـن الـرّأسِ إلـى القَـدَم

ولَــيْسَ عَلَــيَّ مِــنْ وجــودي إلّا الاسْــم

ولَيْسَ في وجودي شيءٌ غيرُ الاسْم، يا طَيّبَ الاسْم[١]

وأعتبرُ وجودَ شَمْسٍ مَحَلًّا لتَجلّي النّبوغِ العِرْفانيِّ لِلْإنسانِ الإيرانيّ، في أَسْمَى منزِلةٍ. وقد أَرْشدَني تَحرّقُ شَمْسٍ وهيَجانُه في تَحليلِ العِشْق، إلى عالَمٍ آخَر. وتعلّمتُ أساسَ الخَلْقِ معَ معارفِ الوجود في مَدْرسة شَمْسٍ المملوءة بالفَيْض. وأعلَمُ الآنَ

١ـ المثنَوي: ٥/٢٠٢٤.

أنّني ذَرّةٌ في عالَمٍ لا نهايةَ له مِن حقيقةٍ واحدة. وقد كَسَبْتُ هذه النّظَراتِ والخِبْرات جميعًا بمُساعَدِة العِشْق. والحقيقةُ أنّ عشقي شَمْسًا المتحرِّرَ، هو عِشْقي لإنسانٍ، إنسانٍ سامٍ ومُتَعالٍ.

وفي يومٍ مِن الأيّام قالَ شَمْسٌ: عندَما تكونُ عاشِقًا مُخلِصًا تقِفُ نُجومُ السّماءِ في مِحْرابِ عبادتك، لِكَي تشاهِدَك. وأُحِسُّ الآنَ أنّ النّجومَ معلّقةٌ على الإيوان الملَكوتيّ للرَّجُل العارِف، للرَّجُلِ الحُرّ الكامِلِ والإنسانِ الرّاسخ، لَيلًا ونَهارًا، ومستَمِعةٌ إلى لَحْنه العِشْقيّ.

[١٥٩] نظَرَ مَوْلانا إلى المخاطَبينَ، مُشاهِدًا الحَيْرةَ التي ارتسَمَتْ على وجوههم، فتذكّرَ حِكايةً مِن كتاب «**كَشْف المحْجُوب**» لِلهَجْوِيريّ في شأن العِشْق، ثمّ واصَلَ كلامَه:

كانَ عبدُ اللهِ بنُ المُبارك المرْوَزيّ مِن ذَوي الوَقار والحِشْمة، وكان عالِمًا ومطَّلِعًا على جميع أَحْوالِ الطّريقةِ والشّريعة، وفي زَمانه كان إمامَ الجَماعةِ غيرَ المُنازَع. وقد لَقِيَ كثيرًا مِن المَشايخ، واختَزنَ مِن ذلكَ خِبْرةً وتجربةً. مَرّةً واحِدةً في حياته تابَ. وحصَلَ ذلكَ عندَما كان في شَبابه قد أَحَبَّ فتاةً حَسْناء. ففي إِحْدى اللّيالي نهضَ مِن بَينِ أَصْحابه، واصطَحَبَ واحِدًا منهم، ووقفَ عندَ أَسْفَلِ حائطِ بيتِ المعشوقة، إلى أن اعتلَتِ المعشوقةُ سَطْحَ البيت، وبقيَ الاثْنانِ حتّى الفَجْرِ ينظُرُ كلٌّ منهما إلى الآخَر. وعندَما سَمِعَ عبدُ الله أَذانَ الصّلاةِ، ظنّ أنّه أذانُ صَلاةِ العِشاء. وعندَما طَلَعَ الفجْرُ عَلِمَ أنّه كان طَوالَ اللّيلِ غارِقًا في جَمالِ المعشوقةِ الفتّانة، وحُسْنِها. فخَجِلَ مِن ذلك أيّما خَجَلٍ، وقالَ في نفسه: لِتَخْجَلْ يا بنَ المبارك، وقفْتَ اللّيلَ كلَّه على قدَمَيكَ مُستجيبًا

لِهَوى نفْسِكَ، ولم تُحِسّ بالانزِعاجِ، وإذا ما قرَأَ إمامٌ في صَلاةٍ سُورةً طويلةً غضبْتَ؟! فأينَ ذهَبَ معْنَى أن تكونَ مؤمنًا؟ وعندَئذٍ تابَ، وانشغَلَ بالعِلْمِ وطَلَبِه، حتّى بَلَغَ به الأمرُ أنّه في وقتٍ مِن الأوقاتِ كانَتْ والدتُه في البُستان، ورأَتْه نائمًا وقد أخذَتْ حَيّةٌ عظيمةٌ فَرْعَ رَيَحانٍ بفِيها، وصارت تذبُّ به الذّبابَ عن وَجْهِه.

وقد سُئِلَ عبدُ الله بنُ المُبارك: ماذا رأيتَ مِن العجائبِ في الدّنيا؟ فقالَ: رأيتُ راهبًا أَنْحَلتِ المُجاهَدةُ جِسْمَه، ومِن خَشْية الله احدَوْدَبَ ظهْرُه. سألتُه: أيُّها الرّاهبُ، ما الطّريقُ المُوصِلُ إلى الله تعالى؟ ـ فقالَ: إذا عرفتَه عَلِمْتَ الطّريقَ إليه أيضًا. وقد علّمَني شَمْسٌ كيفَ أستطيعُ، بِمَدَدِ الدّين والعِشْق والعِلْم، التي جاء أحَدُها مِن القَلْب والآخَرُ مِن الرّوح والثالثُ مِن العَقْل، أن أَسيرَ في الطّريق الذّهَبيّ لِلْحَياة، ابتغاءَ قَدْرٍ أكبرَ مِن الإدراك والمعرفة، مهتدِيًا بنَجْم العِشْق اللّألاء.

علّمَني شَمْسٌ أنّ كُلَّ ما كُنتُ قرأْتُه وسمعتُه، حتّى لَحَظاتِ لِقائه، عَلَيَّ أن أُلقيَه جانبًا. أَجْلَسَني عَلَى جَناحِ كِبرياء العِشْق، وطارَ بي نَحْوَ المعشوقِ الأزَليّ والأبَديّ. وإذ ذاكَ، عَلِمْتُ أنّ الرّوحَ العاشِقَ خَلّاقٌ، وأنّ الشّوقَ الإنسانيّ الحارِقَ يجِبُ أن يكونَ في طَريق العِشْق الإلهيّ، ولَيْسَ في محَبّةِ محبوبٍ أَرْضيّ. وحَالًا، مِثْلَ عبْدِ الله بنِ المُبارك المَرْوَزيّ، تُبتُ. وفي الثّناءِ عَلَى العِشْق، لم أَعُدْ أعرِفُ رَأسًا مِن قَدَم. وأَسْعَى لِأَن أدعوَ النّاسَ جميعًا إلى مائدةِ العِشْق الإلهيّ، وأقولَ لِلْمَخْلوق والإنسان: حانَتْ [١٦٠] ساعةُ الصّبرِ والتّحمّل؛ ولهذا السّببِ، أبشِّرُكم وأهلَ قُونِيَةَ، وأُعلِنُ أنّه بِمَدَدِ العِشْقِ والرّوحِ العُلْويّ يمكنُ الإنسانَ أن يصعَدَ عَلَى دَرَجاتِ سُلَّمِ الحقيقة، دَرَجةً

دَرَجةً، ويغدُوَ إنسانًا كامِلًا[1]، ويصِلَ إلى جَنابِ الحقّ تعالى:

---

١ ـ ذكَرَ مُحْيي الدّين بنُ عربيّ، الشخصيّةُ البارزةُ في العِرْفان الإسلاميّ، في كتابه «**فُصوص الحِكَم**» أنّ الحقَّ تعالى جَعَل الإنسانَ عِلّةً غائيّةً وغايةً قُصوى للخَلْق، مِثْلَما أنّ الغَرَضَ مِنْ إيجادِ الجسَد هو الرّوحُ. والله سُبحانَه خَلَقَ العالَمَ مِثْلَ جَسَدٍ بلا رُوحٍ، لكنّ هذا العالَمَ مِثْلُ مِرْآةٍ مظلمةٍ معتمةٍ، ولابدّ للمرآة من الصَّقْل. وهكذا، صار الإنسانُ مِرْآةً للوجود، وروحًا لجِسْمِ العالَم. وهو للحق بمنزلةِ إنسانِ العَينِ من العَيْن؛ فلِهذا سُمّيَ إنسانًا، فإنّه به ينظُرُ الحَقُّ إلى خَلْقه فيرحَمهم. والدّنيا معتمِدَةٌ على الإنسان، ومِن هنا سُمّيَ خليفتَه عَلَى الأرض، لِأنّه تعالى يحفَظُ الخَلْقَ بوَساطته. والإنسانُ، بِقَلْبِه، مِرْآةٌ تُظْهِر كُلّ الأَسْماءِ والصّفات الإلهيّة. يقولُ جامي:

جَعَلَ قَلْبَهُ مَخْزَنَ أَسْرارِه وجَعَلَ وَجْهَهُ مَطْلَعَ أَنْوارِه

وكُلُّ ما ظَهَرَ، أَظْهرَه علَيه وكُلُّ ما خَفِي، أَدْرجَه فيه

وقد تَداخَلَتْ فيه الصُّورةُ والمعنى وهو مَجْمَعُ بَحْرَي الحُدوثِ والقِدَم

وقد أنشَدَ مولانا في «المثْنَويّ» في شأن خِلافَةِ الإنسان:

آدَمُ [علَيهِ السّلامُ] هو أَسْطُرْلابُ أوصافِ العُلُوّ ووَصْفُ آدمَ مَظْهَرٌ لِآياتِهِ

وكُلُّ ما يَظْهَرُ فيه انعكاسٌ لَهُ مِثْلُ انعكاسِ ضَوْءِ القَمَرِ في ماءِ النّهر

(المثْنَوي: ٣١٤٧/٦)

وفي عَقيدةِ مُحْيي الدّين بن عَرَبيّ، الإنسانُ موجودٌ حادِثٌ وأزَليّ، ولا يستحقُّ خِلافةَ الله عزّ وجَلّ غيرُ الإنسانِ الكامِل. وقد خلَقَ الحقُّ تعالى سِيماءَه الظاهريّةَ مِن حَقائقِ العالَم وصُوَره، وجَعَلَ صُورتَه الباطنيّة عَلَى صُورته، لكنّ الإنسانَ لا يظفَرُ بهذه المرتبة إلّا بالكَمال. وتَبَعًا لذلكَ، يكونُ للإنسانِ الكامِلِ نِسْبتانِ كلّيّتان: إحْداهما ترتبطُ بالجَنابِ الأَقْدَس، وبالنّسبةِ الأخرى يحتضِنُ كُلَّ حَقائق الدّنيا. يقولُ مولانا:

هاكَ شَمْسًا قد احتجَبَتْ في ذَرّة وأَسَدًا ضارِيًا في جِلْدِ حَمَل

وهاكَ بَحْرًا مُتوارِيًا تحْتَ التِّبْن

فَحَذارِ، لا يَلْتَبِسْ عليكَ الأَمْرُ فتضَعَ فوقَ هذا التبن قَدَمَكَ

فيا مَنْ أَنتَ في صُورتِكَ ذَرّةٌ، انظُرْ إلى زُحَل

ويا مَنْ أَنتَ نَمْلةٌ عَرْجاءُ، امضِ وشاهِدْ سُلَيمانَ

يظَـــلُّ الـــرّوحُ في العـــالَمِ الـــسَّماويّ

يـــصيحُ: «يـــا لَيْـــتَ قَـــومي يعْلَمُـــون»

أيُّ خَبَـــرٍ لِلـــرُّوحِ الآمِـــنِ عـــن الجَـــسَد،

سَـــواءٌ كـــان في رَوْضَـــةٍ أو في كَومَـــةِ قُمامَـــة،

وهـــذا الجـــسَدُ التُّرابـــيُّ غَلـــيظٌ ومُظْلِـــمٌ

فاصـــقُلْه، لأنّـــه يتقبَّـــلُ الـــصَّقْلَ[1]

١ ـ المثنوي: ٥/١٧٤٢؟

ـ مِنْ قَبْلِ أَنْ يقَعَ خضِرُ الرّوحِ في بَحْرِ الظّلماتْ
ويَجْرِيَ في عَيْنِ الجسَدِ ماءُ الحياةْ
ـ شَرِبْنا شَرابَ العِشْقِ في حَانة الذّاتْ
بالحَلْقِ والفَمِ مِنْ جامِ الأَسْماءِ والصّفاتْ

جامي

بَحْرُ العِشْقِ الذي لا تبدو له ضِفافٌ

تذكّرَ جَلالُ الدّين البَلْخيُّ مِنْ جديدٍ شَمْسًا، شَمْسًا الذي اختطَفَ منه العقلَ والقَلْبَ، شَمْسًا الذي كان أمامَ أنوارِهِ المعنويّةِ يطوفُ كالفَراشة، دائرًا حولَ نفسِه وراقصًا، شَمْسًا الذي كان عِيارًا خالصًا في عالَمِ المعرفة، وحَوّلَ جلالَ الدّين، المدرِّسَ الكبيرَ في دَارِ العِلْمِ في قُونِيةَ، على نَحْوٍ يكونُ له في شُعاعِ لَطيفةِ العِشْقِ الغيبيّة تعلُّقٌ بالنّظَرِ الدّقيقِ والعَميق لِلظّفَر بالأَسْرار، ويدعو إليه:

أَيُّها العاشقونَ، أَيُّها العاشقونَ،أنا مجنونٌ فأينَ السِّلْسِلةُ؟

واصَلَ جَلالُ الدّين كلامَه على هذا النّحو:

أَيُّها الأَحِبّةُ، اعلَموا أنّ العِشْقَ حالٌ وأَمانةٌ أَهْداها اللهُ تعالى لِأَعظَمِ مخلوقاته، الإنسان. إنّه مَقامٌ عالٍ يُحْصَلُ علَيه بِالإلهامِ والإِشْراق، مَعْرِفةٌ هي غيرُ تلكَ المعرفةِ التي يُظفَرُ بها مِن طَريق كَسْب العِلْم والحِكْمة. وابتغاءَ نَيْلِها، يجِبُ التحرّرُ مِن النّفس والفَناءُ. العِشْقُ بعيدٌ عن «نَحْنُ» و«أنا»، وعن التعصُّبِ والعِناد. العاشِقُ حتّى في مُختلاهُ نَضِرٌ غَضٌّ مُشْرِقٌ، لَيْسَ سيِّءَ الظّنّ، ولا يفكِّرُ بالسُّوء، ولا ينوي السُّوءَ، ويبحَثُ عن عظَمةِ الإنسانِ في وَحْدة البشَر. ولَدَى النّاسِ مِن حقيقةِ العِشْق آثارٌ في داخِلِهم. وأنا وشَمْسٌ نعتقِدُ بأنّ هذه الآثارَ يجِبُ أن تُكشَفَ بِمُساعَدة الرّاسخينَ، وبإرشادِ الكاملينَ، لكي تتجلّى.

إنّ عالَمَ تفكيرِ شَمْسٍ ممتازٌ، ومُخاطَبُه لَيْسَ جلالَ الدّين فحَسْبُ، بَلْ كلُّ السّالكينَ المؤمنينَ، والمؤثِرينَ العاشقينَ. وقد نظَمْتُ على لِسانِ حالِ شَمْسٍ هكذا:

[١٦٢] اجْلِسْ في عَينَيَّ، يا مَنْ أنتَ أسْمَى مِنِّي،

لكَـيْ أتملّـى القمَـرَ، فإنّـكَ أَضْـوَأُ مِـنَ القَمَـر

وادخُـلِ البُـسْتانَ لِكَـيْ يُـذيبَ الحَيـاءُ وَرْدَهُ،

لِأنّـكَ أجْمـلُ مِـنْ مئـة بُـسْتانٍ ورَوضٍ وَرْدٍ، وأكثَـرُ نَـضارةً

ولاشكّ في أنّ المعرفةَ الإلهيّةَ، ومعرفةَ أَساسِ الكائناتِ، يمكِنُ الحصولُ علَيهما بِمُساعَدةِ مفتاحِ العِشْق. وعلَينا أن نطهِّرَ أنفسَنا مِنَ الرَّيب والرِّياء، ومِن أَوْصافِنا الذّميمة؛ ابتغاءَ أن «نَرى ذاتَنا الطّاهرةَ الصّافية». فإذا ما تحرّرْتَ مِن اللّون، وارتبطتَّ بـ «اللّالَون»(*)، فستغدو عاشِقًا مُخْلِصًا. العِشْقُ هو الذي يعطي العارفَ القُدرةَ على أن يَقْبلَ. فكيفَ صارَتِ الجِبالُ مُطيعةً ومنقادةً لحَضْرة داوودَ، علَيه السّلامُ؟ والرّيحُ العنيدةُ لماذا صارَتْ مُنقادةً ومُطيعةً لِسُليمانَ، وحَمَلَتْ سَريرَه مِن مكانٍ إلى مكان، ومِنْ وادٍ إلى وادٍ آخَر؟. أو في أيِّ مقامٍ كان حَضْرةُ مُوسى علَيه السّلامُ حتّى أمرَه الله تعالى بِأَن يضْرِبَ بِعَصاه البَحْرَ لكي ينجوَ بَنُو إسرائيلَ؟ يغدُو العِشْقُ مُوجِبًا لِأَن يستطيعَ الإنسانُ الإحاطةَ بالعُلومِ المُتعالية مِن دُون كتابٍ وأستاذ:

تَغْـدُو الـرِّيحُ حَمَّالَـةً لِـسُلَيمان

ويغـدُو البَحْـرُ خَبيـرًا بـالكلامِ مَـعَ موسـى

---

* ـ اللَّونُ و «اللّالَوْنُ» تعبيرانِ يردانِ كثيرًا عندَ مولانا جلال الدّين، ويرادُ بالأوّل كُلُّ ما سوى الحقّ تعالى ممّا يُسمّى «الأغيار»، ويُرادُ بالثاني الحقُّ تعالى، الأَحَد [المترجم].

وَيغـدُو القَمَـرُ رائيًـا لِلْإشـارةِ مـعَ أَحْمَـد

وتغْـدُو النّـارُ نِـسْرينًا عَلَـى إبـراهيمَ(١)

حينَ يوجَدُ العِشْقُ نُدركُ الجَمال. وإذا شئتُم أن أقولَ جُملةً أو كلامًا تحصلونَ منهما عَلَى تعريفٍ عِلْميٍّ جامعٍ في شأن العِشْق، فعَلَيكم أنْ تعلَمُوا أنّ مِثْلَ هذا الحديثِ أوِ الكلامِ غيرُ موجود. وبَياني غيرُ قادرٍ على أن يبيّنَ مِثْلَ هذا التّعريف ببساطةٍ. والعِشْقُ لَيْسَ محسوسًا ومعلومًا ومَشْهودًا، بَلْ هو ظاهرةٌ تؤثّر في آلاتِ الإِدْراك هذه جميعًا. ولا يستطيعُ العَقْلُ أن يصِفَه، ما يصِفُه هو العِشْقُ فقط. نَعَمْ، العِشْقُ يشرّحُ العِشْقَ ويبيّنه تفصيلًا:

تَـصِيرُ عَقْـلًا، فتعـرِفُ العقْـلَ علـى التَّمـام

وتَصِيرُ عِشْقًا، فتَرى العِشْقَ وما فيـه مِن جَمـال

عنـدَما يـدخُلُ العِـشْقُ مِـن بـابِ القَلْـب

يُلْقـي العَقْـلُ بِـضاعتَه خارجًـا(٢)

لكنّ شارحَ العِشْقِ هو شَمْسٌ التَّبْريزيّ، الذي يستطيعُ أن يقدِّمَ لِلْعارفينَ وأصحابِ القُلوبِ شَرْحًا للعِشْق على نَحْوٍ رائع. وفي مُتناوَلِ شَمْسٍ أن يكونَ مِثالًا لِلأَحْوالِ العِرْفانيّة للنّاس. شَمْسٌ هذا قادرٌ على الإيضاحِ التامّ الدّقيق لِلْوَحْدةِ، التي لا تنفصِمُ عُراها، بينَ البَشَرِ وبينَ الصّفاتِ الإلهيّة، وبيانِ كيفَ تفنَى شخصيّةُ الإنسان في الذّاتِ المطْلَقة. شَمْسٌ قادرٌ على أن يتحدّثَ، بِأَجْملِ الكلامِ، عن عوالِمِ العَدَمِ والوجودِ والحقائق الخفيّة للأشياء. [١٦٣]

١ـ المثنَوي: ٣/١٠١٥ـ١٦.

٢ـ المثنَوي: ٦/٧٦٣، ؟

ويعلَمُ شَمْسٌ أنّ كُلَّ المخلوقاتِ الجامدةِ، التي لا رُوحَ فيها، هي صاحِبةُ فَهْمٍ وإدراكٍ بالقُوّة. ويعزفُ شَمْسٌ اللّحْنَ الأساسيَّ للعالَم بِمُساعَدةِ اللّغة، على نَحْوٍ رائعٍ. شَمْسٌ يقوِّي الذّاتَ المفكِّرةَ في وجود العارِف، ويعتقدُ أنّ الفِكْرَ اللّامحسوسَ صانعٌ مبدِعٌ، وفي مقدُوره أن يصْنَعَ كُتبًا ورسائلَ وموسوعاتٍ ودَواوينَ، وفي النهاية النّاسَ. ويعْلَمُ أيضًا فَلْسفةَ خَلْقِ النّاس: مِنْ أينَ جئنا؟ ـ وإلى أينَ نذْهَبُ؟ ـ وفي أيّ مكانٍ قُلْنا: «بلَى»(*).

وأنتُم تريدونَ بهاتَيْنِ العَينَيْنِ أن تَعْرِفوا سِرَّ عظَمةِ الإنسانِ، وجَلال الكائنات. كان أبو يزيدَ البِسْطامِيُّ يَرَى أنّ الإنسانَ لا يُعَدُّ في العارفينَ حتّى تَصيرَ كُلُّ شَعْرةٍ فيه عَينًا ينظُرُ بها. كان وجودُ شَمْسٍ كلُّه أَعْيُنًا، وبتلكَ الأَعْيِنِ تَحرّرَ مِنَ ضيقِ العالَم. تحرّرَ مِن العَيْبِ وطَلَبِ الشّهرة. كُلُّ شيءٍ نظَرَ إليه رأى فيه عِشْقًا. يَسْعى شَمْسٌ لِكَي يدلّنا، أنا وأَصْحابي، عَلَى الطّريق الذي يُوصِلُنا إلى دائرة الجاذبيّة؛ وربّما أَشار وقالَ:

نَحْنُ مِنَ الأُفقِ الأَعْلَى، وإلى الأُفقِ الأَعْلى نمضي

نحْنُ مِنَ البَحْرِ، وإلى البَحْرِ نَمضي

نَحْنُ مِنْ ذلكَ المَكان، ولَسْنا مِن هذا المَكان

نحْنُ مِنَ اللّامَكانِ، ونَمْضي إلى اللّامكان

و «لا إلهَ» تطْلُبُ «إلّا اللهُ»

ونحْنُ مِثْلُ «لا»، نَمْضي إلى «الأَعْلَى»

---

* ـ يشيرُ إلى مدلول الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ..﴾ الأعراف: ١٧٢.

[وقَولُه تعالى:] «قُلْ تَعالَوا» دَليلٌ عَلَى جَذْبِ الحقّ

ونحْنُ نَمْضي إلى جَذْب الحقّ تعالى

نَحْنُ سَفينةُ نُوحٍ في طُوفانِ الرُّوح

ويقينًا، نَمْضي مُنقادِينَ مُسَلِّمين

وإنّ كوكَبَنا لَيْسَ في فَلَك القَمَر

ولا شكّ في أنّنا سَنَمْضي إلى ما فوقَ الثُّرَيّا[1]

إنّ الطّريقَ لِنَيْل المجالِ المغناطيسيّ للجاذبيّة هو العِبادة. وقد قالَ شَمْسٌ: إنّه علَينا أن ننفِّذَ أمْرَ القُرآنِ الذي قالَ: «وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» [الذّاريات ٥٦/] على النَّحْو اللّائق. وقد تحدّثَ شَمْسٌ كثيرًا عن مَعْبَدِ العِرْفان، وهو يَرَى أنّ مَعْبَدَ الرَّجُلِ الكريم القَلْبُ الطّاهِرُ الخالي مِن الأَغْيار. وعندَما تَصقُلونَ قُلوبَكم ستُحِسّونَ بِعظَمَةِ الحقّ وجَلاله بوضوح. تُدَوّي الأَصْداءُ [١٦٤] المهيّجةُ في سُوَيداءِ القَلْب، وتقولُ للإنسان: ادخُلْ مِن هذا الباب إلى الجَنابِ الإلهيّ، لِكَي تظفَرَ بما تُريد.

نَحْنُ مُلْكٌ لله سُبحانَه، وعَلَى الحقيقة نرجِعُ إليه. سأَلْتُ شَمْسًا مَرّةً:

ـ أَيوجَدُ طَريقٌ أَقربُ إلى الحَقّ مِن الصّلاة؟ فأجابَ:

ـ الصّلاةُ نفسُها. الصّلاةُ بِحُضورِ القَلْب. الصّلاةُ لَيْسَتْ هي هذه الصّورةَ فقط. هذه التي نَراها صُورةُ الصّلاة. لِلصّلاة أوّلٌ وآخِر. رُوحُ الصّلاةِ لَيْسَتْ هذه الصّورةَ فقط، بَلْ يجِبُ أن تُصْحَبَ الصّلاةُ بِتَوجُّهٍ شَديدٍ إلى الذّات الإلهيّة. وقد قالَ الرّسولُ الأكرمُ (عليه الصّلاةُ والسّلام): كُلُّ صَلاةٍ لَيْسَ فيها حُضورٌ داخليٌّ لله سُبْحانَه ناقصةٌ. وكُلُّ صَلاةٍ للرّسولِ كانَتْ مِعْراجًا جَديدًا.

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ١٦٧٥.

وفي أَثْناءِ العِبادة، كان رُوحُ الرّسولِ [عليه الصّلاةُ والسّلامُ] في صَلاةٍ، وقَلْبُه في تضرّعٍ، ورأسُه في طَيَرانٍ، ونفسُه في ذَوَبان.

كان شَمْسٌ يقولُ: أَمامَ الحَقّ، في أثناءِ العِبادة، يجِبُ التكلُّمُ كما تكلّمَ أئمّةُ الدِّين. وكان يقولُ: إنّ الوجودَ مَبنيٌّ على عِبادة النّاس. وإذا كانَتِ النّجومُ تتلأْلأُ في السّماوات، وإذا كانَتِ الشّمْسُ والقَمَرُ يُبدِّدانِ بأنوارِهما حتّى الآنَ الظّلماتِ، فسَببُ ذلكَ هو عِبادةُ المؤمنينَ والمعتقِدينَ والعارفينَ، الذين يعبدونَ اللهَ سُبْحانَه بِحُضور قَلْب. وقد قالَ شَمْسٌ: المؤمنونَ والعارِفونَ وعُشّاقُ البارئ تعالى، هم دائمًا في حُضورِ الحقّ، والنّورُ الإلهيّ مُتَجَلٍّ بِمَراتبَ مختلفةٍ في أَرواحهم.

شَمْسٌ إنسانٌ كامِلٌ، وقد آمَنَ بأنّ العارِفَ الحقيقيَّ يصِلُ إلى المَحَلِّ المقصودِ في السَّيْر والسُّلوك. وكان يَرَى أنّ بِدايةَ الطّريقةِ الطّلَبُ والعِشْقُ، وانتهاءَها الثّباتُ في دائرة مِغْناطيس العِشْق. وكان يؤكّدُ أنّ حَقيقةَ الوجودِ تكونُ في وجود، أَو ظُهورِ، الإنسانِ الكامل. وإذا وَصَلَ الإنسانُ إلى مَقامِ القُرْب، أعْلَنَ مِثْلَ الخَرَقاني: عندَما وضَعْتُ قَدَمي على الدّرجة الأُولى مِن السُّلَّمِ وصَلْتُ إلى الحقيقة. أتصوّرُ الآنَ أنّني قَريبٌ مِن المقصود، ولعلّكم تستطيعونَ أن تحصُلوا على الحقائقِ مِن كَلامي. نَحْنُ وأنتُم كلُّنا في السَّيْر والسُّلوك، فإنّه:

سَيْر العارِفِ[1] في كُلِّ لحظةٍ يكونُ إلى عَرْشِ المَليك [١٦٦]

---

١ ـ يعتقِدُ الأستاذُ فُروزانْفَر أنّ السَّيرَ إلى الله يَبدأُ بالتّوبة والانقطاع، وينتهي بالفَناء، وفي كلّ منزلٍ من المنازل يُسْقِطُ السّالكُ واحِدةً أو أكثرَ مِنْ صفاته البشَريّة، ويتخلّصُ مِن التّلويثات الباطنيّة والظّاهريّة، حتّى يغدو خِلْوًا من التّفس، وينالَ مَقامَ «الفَناء»، ومِن هذه الوِجْهة قِيلَ: مَنازلُ السُّلوكِ محدودةٌ، ولها بِدايةٌ ونهاية. ومثْلَما يقولُ =

= الصّوفيّة: «إنّ بينَ العَبْدِ والحَقِّ ألفَ مَقامٍ مِنْ نُورٍ وظُلْمة». والمقصودُ هنا طَبْعًا كثْرةُ هذه المقامات وتعدّدُها، ولَيْسَ كونَها أَلْفَ منزلٍ، على الحقيقة.

وقد كان السّيّد عبدُ الله الأنصاريّ، الذي كان في الظّاهر أوّلَ مَنْ بيّنَ هذه المنازِلَ على نَحْوٍ منظّم ومنطقيّ نسبيًّا، سَمّى الواحِدَ منها في موضِعٍ «مَيْدانًا»، وكتابُه «مِئةُ مَيْدانٍ» حِكايةٌ لهذا التّرتيب. وسَمّاه في موضِعٍ آخَر «منزِلًا»، وسَمّى مجموعَها «منازِل السّائرين إلى الحقّ». وبهذه المناسَبةِ، ألّفَ كتابَه «منازل السّائرين» الذي أنشأه أوّلًا بالفارسيّة، وثانيًا بالعربيّة. ولكنّه قسَمَ كلَّ مَيْدانٍ أو منزلٍ على ثلاث مراحِلَ: البِدايات، والأَوْساط، والنّهايات، إذ يبلُغُ مجموعُها ثلاثَ مئة منزِلٍ أو ميدان أو مَقام. ويبدَأُ السَّيرُ في الله بَعْدَ خَلْعِ الصّفاتِ البشَريّة والتّخلّصِ مِنَ النقائصِ الماديّة والنّفْسيّة. وحقيقةُ ذلك تحقُّقُ السّالِكِ بالأوصاف الإلهيّة، وسَيرهُ في مَقامِ الألوهيّة الذي غايةُ هو العبوديّة. وهذا النّوعُ مِنَ السَّيرِ لَيْسَ له نهايةٌ، لِأَنّ الحقَّ تعالى وصِفاته لا يُتصوَّرُ لهما البتّة نهاية.

وبناءً على ذلكَ يمكِنُ القولُ إنّ منازِلَ الرّوح إشارةٌ إلى السَّيرِ إلى الله، وأَسْفارَ الرّوح عبارةٌ عنِ السَّيرِ في الله، أو هي عَيْنُ انتقالِ الرّوحِ مِنْ منزِلٍ إلى منزِلٍ آخَر في سُلوكِ العَبْد إلى الله تعالى. وهذه الأسفارُ عبارةٌ عن أربعةٍ تُسمّى «الأسفار الأربعة» على هذا النّحْو:

١ ـ السَّفَرُ مِن الخَلْق إلى الحقّ، وبِدايةُ ذلك التّوبةُ؛ أي الرّجوعُ مِن الحَيَوانيّة إلى الإنسانيّة الحقيقيّة والإلهيّة، الذي شَرْطُ صِحّته قَبولُ الشّيخ، ونهايتُه الاتّصالُ بِمَلَكوت الشّيخ وظُهورُ السّكينة؛ أي تَمَثُّلُ الشّيخِ في قَلْبِ السّالك.

٢ ـ السَّفَرُ مِن الحقّ إلى الحقّ، ومبدَؤه مَلَكوتُ الشّيخ، ونهايتُه الاتّصالُ بالأوصاف الإلهيّة والوصولُ إلى مَقامِ الرّبوبيّة. ومنازِلُ هذا السَّفر لَيْسَ لها نهاية ويَطْوي السّالِكُ الطّريقَ في هذا السَّفر في حالة وَلَهٍ ودَهْشة وانجذاب، حتّى يُعادَ إليه الصَّحْوُ والوَعْي.

٣ ـ السَّفَرُ في الحقّ. وفي هذا السَّفر لا يَرى السّالِكُ إلّا اللهَ تعالى، وينسب كُلَّ شيءٍ إلى الله، مِن دُونِ أن يكونَ لديه شُعورٌ بالنّسبة. وفي هذه المرحلة يتحقّقُ بِصِفاتِ الجَمالِ والأَسْماءِ الحُسْنى. والسّالكُ في هذا السَّفَر يَشْهدُ غرائبَ الصّنع، على نَحْوِ أنّه في السَّفَرِ الأوّل لا يَرَى إلّا المصنوعَ، وفي السَّفَرِ الثاني لا يشاهِدُ إلّا شيخَه. ومِن فَرْطِ الحيرة والوَلَهِ لا يَرَى الصُّنْعَ والمصْنوعَ، ومقاماتُ هذا السَّفَر لا تنتهي.

٤ ـ سَفَرٌ بالحقّ في الخَلْق. عندَما ينتهي السَّفَرُ الأوّلُ، ويتحقّقُ العَبْدُ بالصّفاتِ والأَسْماءِ الإلهيّة يواجِهُ الحالاتِ الثلاثَ الأُولى، ويعودُ إلى الخَلْق مِنْ أَجْلِ إصْلاحِ المجتمع. وتلكَ هي مرتبةُ الرّسالة والنُّبوّة، ويكونُ حُكْمُه مِن حُكْمِ الحقّ سُبحانَه. ويَرَى الصّوفيّةُ أنّ الأولياءَ، خُلَفاءَ الأنبياء، لهم أيضًا هذه الصّفة.

وإذ عَرَفْنا السَّيْرَ إلى الله، يكونُ مِن المناسِبِ أن نعرِفَ شيئًا عن الاستغاثة أيضًا؛ إذ الاستغاثةُ على ثلاثة أقسام: أحَدُها مِن الحقِّ إلى الخَلْق، وهو عَلامةُ البُعْدِ واليأس مِن قَبول الدّعاء. والثاني مِن الخَلْق إلى الحقّ، وهو طَريقُ الإسلامِ وشَرْطُ العُبوديّة. والثالثُ استغاثةٌ مِن الحقّ إلى الحقّ، وهي وسيلةُ محبّته تعالى وإجابةُ أَمْرِه. فمَنْ يشكو الحقَّ إلى الخَلْق يزدادُ مُصابُه، ومَنْ يشكو الخَلْقَ للحقّ يجدُ العلاجَ، وَمنْ يشكو الحقَّ للحَقّ يرى الحقَّ =

وسَيْرُ الزّاهِدِ في كلّ شَهْرٍ طَريقُ يومٍ واحِد

ومَــعَ أنّ للزّاهِــدِ رِزْقًــا عَجيبًــا مَتَــى كــانَ يومُــه بِخَمْــسين ألفًــا؟

وقَـدْرُ كُـلِّ يـومٍ مِـنْ عُمـرِ العـارِف خَمسونَ أَلْـفَ سَـنةٍ مـنْ سِـني الـدّنيا(١)

العارِفُ لا يخلطُ إيمانَه واعتقادَه بالاستِدْلالاتِ الفَلْسفيّة الممتزجة بالشّكّ، ويَرَى الحقائقَ بِمُساعَدةِ القَلْب، أو عَيْنِ القَلْب.

ونحْنُ، بِمُساعَدةِ بازيِّ العِشْق، الدّليلِ المطْمَئنّ للنّاس، نَتْرُكُ العقائدَ والفِكَر الضّالّةَ لِلْمادّيّين في مستودَع التّاريخ، ونُبطِلُ كَلامَ الفلاسفةِ المادّيّين. الإنسانُ في الأزَلِ خُلِقَ عاشقًا. وقد أَعْطَى الحقُّ تعالى القَلْبَ لِلْإنسان، لِكَي يسيرَ بِمُساعدته في فَضاءٍ لا نهايةَ له. الإنسانُ هو العالَمُ الأصْغَرُ، ومَحَلُّ أعظَمِ تجلّياتِ «المُطْلَق»:

إنَّ لِلْعِــــشْقِ خَمْـــــسَ مِئـــــةِ جَنـــــاحٍ

وكُلُّ جَناحٍ يَمْتدُّ مِنْ فوقِ العَرْشِ إلى طِباقِ الثَّرَى

والزُّهّــادُ ينطلقــونَ علــى أَقْــدامِهم خــائفينَ

والعُــشّاقُ أَسْــرَعُ طَيَرانًــا مِــنَ البَــرْق والهَــواء(٢)

ونحْنُ نعبدُ اللهَ [عزّ وجَلّ] بِمَحبّةٍ وعِشْق، وفضيلةُ الإنسانِ في العِشْق. وإنّ أعظمَ

= ويَسْمَعُ الحق. قال الشِّبلِيّ: إلهي، إنْ خاطَبتُك تركْتَني، وإن تركتُكَ طَلَبتَني، فلا قَرارَ معكَ، ولا فِرارَ منكَ، أستغيثُ مِنكَ إليكَ. إلهي، إن دَعَوتُكَ طردتَّني، وإن انصَرَفْتُ دَعَوتَني، فماذا أفعَلُ بهذه الحَيْرة؟ لا راحةَ لي معَكَ، ولا أَمْري [١٦٦] مِن دُونِكَ بطَيّب، لا مجالَ للانقطاع، ولا أمَلَ بالوِصال، غياثَكَ، إنَّ الأرواحَ جميعًا عاشقةٌ لكَ، وهذه القلوبُ حَيْرى فيكَ:

فلَيتَكَ أنتَ أيضًا تُعِدُّ فتُريحَني وتُسَهِّلَ علَى نَفْسِكَ

ومِن مَرْهمك وإحسانكَ تُدواي أَلَمي وسَقامي

١ ـ المثْنَوي: ٥/٢١٨٢.

٢ ـ المثْنَوي: ٥/٢١٩٣.

خِدْمةٍ أَسْداها شَمْسٌ لي، ولأحبّائي، هو أنّه رَسَمَ لنا خطًّا بين عالَمِ الظّاهر وعالَمِ الباطِن، وبيّنَ لنا العالَمَين كِلَيهما تمامًا، وقالَ: لِكَي يُدرِكَ الإنسانُ عالَمَ الباطِن، علَيه أن يغدُوَ عاشقًا. وأنتُم، مُمثّلي المحفِل الرّوحانيّ في قُونِيةَ، سمعتُم يقينًا باسْمِ الحسَنِ البَصْريّ، حتّى الآنَ؟ فأجابوا: نعرفُه.

ذكَرَ الحسَنُ البَصْريُّ أنّ الحقَّ تعالى قالَ: متى وقَفَ عَبْدي نفسَه لعبادتي وطاعتي أدركَه السّرورُ والبهجةُ سَريعًا مِن تلكَ الحال، واستبدّ به الوَجْدُ، [١٦٧] وأنا أيضًا أحببتُه وأحبّني: عَشِقَني وعشِقتُه. ونحْنُ حلَلْنا لُغْزَ الأبديّة بِمُساعَدةِ العِشْق:

لَسْتُ أنا وَحْدِيَ الثَّمِلَ مِنْ عِشْقِكَ

فَمَنْ ذا الذي، قُلْ أنتَ، نَجا مِن هذه الخَمْرة؟

ومُنذُ ذلكَ اليومِ الذي كُنتُ تَناولتُ فيه هذه الكأسَ

كُنتُ نَديمًا لِمُدْمِني خَمْرةِ «أَلَسْتُ».

العِشْقُ هو عُصارةُ الحياة، وهو ابتداؤها وانتهاؤها، والدّافعُ الحقيقيُّ لِلْعِشْق مرتبطٌ بِكُلّيّةِ الوجود، وهو حَرَكةٌ وتَحوّلٌ وقَصْدٌ إلى الجَمال، الذي كان ابنُ سِينا يَعُدّهُ نظيرًا لِلْكَمال. وكُلُّ محاولةٍ لِإيضاحِ العِشْق لا طائلَ مِن وَرائها، وما يستطيعُ أن يوضِحَ سرَّ العِشْق جيّدًا إنّما هو أَنينُ النّاي[1] ونُواحُه، الموسيقا:

فإذَا كانَ تفسيرُ اللّسانِ يُنيرُ السّبيلَ (لِمَعرفةِ الحقيقة)

فإنّ العِشْقَ، مِن دُونِ اللّسانِ، أفصَحُ مِنْ أيِّ بَيانٍ

١ـ كُلُّ ما أقولُه شَرْحًا للعِشْقِ وبيانًا أخجَلُ منه عندما آتي إلى العِشْق
(المثنوي: ١/١١٢)

إنّ النّـايَ نَـديمٌ لِكـلِّ مَـنْ فرّقَـه الـدّهرُ عَـنْ حَبيـب

وإنّ أنغامَه قد مَزّقَتْ ما يَغْشَى أبـصارَنا مِـن حُجُـب[١]

أو:

إنّ مُطْرِبَ العِشْقِ يتغنّى بهذا وَقْتَ السَّماع:

العُبوديّـــة قَيْـــدٌ، والـــسّيادةُ صُـــداع[٢]

العارفونَ، ومِنهم شَمْسٌ، يعتقدون أنّ أولئكَ الذين لا يعرفونَ العِشْقَ، أو لا يدركونَه، وأَنفسُهم غيرُ مهذّبةٍ وغيرُ مؤدَّبة، حالُهم كحالِ البَحْر المالِح. وهؤلاءِ يجبُ أن يُسْلَموا إلى شيخٍ أو مُرْشِدٍ لألاءِ الضّمير، أَيْ شَخْصٍ كالبَحْر العَذْب، لِكَي يُغيِّر مُلوحةَ أَرْواحِهم إلى حَلاوةٍ وعُذوبةٍ، بِإرْشادِهِ وتَربيته الصّحيحة القويمة. ثمّ صَمَتَ مَوْلانا، صَمْتَ البَحْر.

---

١ ـ المثْنَوي: ١/١١٣، ١١.

٢ ـ المثْنَوي: ٣/٤٧٢٥.

ـ أعقِدُ العَزْمَ على أن أمضيَ في هذه اللّيلة، وأنا نِصْفُ ثَمِلٍ
وراقِصٌ، ومُمسِكٌ بإبريقِ الشّرابِ بيدي،
ـ إلى سُوقِ القَلَندريّين والدّراويش
فأَعْبثُ لِسَاعةٍ بما هو موجودٌ
ـ فإلى مَتَى أكونُ مرشِدًا زُورًا وبهتانًا؟
وإلى مَتَى أكونُ عابِدًا لنفسي عُجْبًا واغترارًا؟!

فريدُ الدّين العَطّار

حِكايةٌ عن نَجْمِ الدّين كُبْرى (*)

عندَ هذه النّقطة، لم يستطِعْ أحَدُ ممثِّلي المحفِلِ الرّوحانيّ في قُونِيةَ، وكان بَدَا أنّه مُضطَرِبٌ ومتضايقٌ وكان اسْمُه جمالَ الدّين، أن يضْبِطَ نفسَه أمامَ الكلامِ النافِذِ الخارِقِ للعادة، الذي تحدّثَ به مَوْلانا، فقالَ:

أَحسَبُ أنّ كلامَ مَوْلانا وسُلوكَه وعمَلَه خارجةٌ عنِ الأُصولِ والسُّنَن والقِيَم الأخلاقيّة والدّينيّة. ونحْنُ مُضطَرُّون إلى الذّهابِ إلى المَحْكمةِ والشّكوى إلى الأَمير عزّ الدّين كَيْكاوس، أميرِ قُونِيةَ، لِكَي يُطهِّرَ أرضَ قُونِيةَ مِن وجود مُحِبِّي شَمْسٍ وعاشقيه، بالسّيوف الهنديّة. إنّ مَوْلانا مِن أَهْلِ الجدَل، مَوْلانا بسِحْرِ مَنطِقِه يُظهِرُ الباطلَ حقًّا، مَوْلانا مُرتاضٌ، ومنجَذِبٌ لِشَمْسٍ التّبْريزيّ. ولَسْنا نعْلَمُ ماذا صنَعَ شَمْسٌ مِن الشَّعْوذةِ والمكْر، حتّى جَعَلَ رَجُلًا موحِّدًا منخَدِعًا به وعاشقًا له. وهذا الذي يقولُه مَوْلانا سِرًّا وعَلانيةً لم يُرَ في كتابٍ سَماويّ أبدًا. فالعِشْقُ والدّوَرانُ والرّقْصُ والتّصفيقُ والمُشاركةُ في مجالسِ السَّماع ومحاضِرِ الغِناء عندَ الصّوفيّة لا

---

* ـ هو الشّيخُ نجمُ الدّين عُمَرُ بنُ أحمد الخَيوقيّ، المعروف بـ «كُبرى»، الذي نال عددٌ من الشّيوخ العارفين في ظلّ تربيته مرتبةَ الإرشاد والإمامة، من مِثْلِ مَجْدِ الدّين البغداديّ، وبَهاء وَلَد، وفريد الدّين العطّار، ونجم الدّين الرّازيّ المعروف بـ«دايه» [المترجم].

تتّفقُ والآدابَ والرّسومَ التي هي محَلُّ احترامِنا، ولا تنسَجِمُ أيضًا معَ عقائدنا. وهذه الأعمالُ والتصرّفاتُ، التي تبدو بعيدةً عن العَقْل، مُخالفةٌ لِلْأُصولِ الأخلاقيّة والدّينيّة. وأنا، باسْمِ واحِدٍ مِن عُلَماء الدّين في قُونِيةَ، سَأَطلُبُ مِن الأَمير عِزّ الدّين كَيْكاوس ـ حاكِمِ قُونِيةَ ـ أن يُلْغيَ خانِقاهَ المَولَويّينَ هنا، [١٦٩] وأن يحاكِمَ مَوْلانا في مَحْكمةٍ دينيّة بِتُهَمةِ «الابتداع».. المُريدُ والمُرادُ في الخانِقاه هم نَوعٌ مِن أَصْحابِ الدّكاكين، ونزعُمُ أنَّهم عُبّادُ أَصْنام. مَوْلانا يقولُ كلامًا مُبْهَمًا، ويتحدّثُ عنِ الوَجْدِ والهيَجانِ والحال، يتحدّثُ عن السَّماعِ والرّقْص والعِشْق، ويروي أمورًا عن الجَيَشان الدّاخليّ والرّمزيّ في كَلام العارفينَ، وعن تأثيره، وعن شَطْحيّات العارفينَ التي لا يَقبَلُ عقْلُ أيٍّ عاقِلٍ أنّها مِن نَوع الكلام المَنطِقيّ. وهذه الأقوالُ تذكِّرُ بوِفادَةِ ذلك السّاحِرِ التَّبْريزيّ إلى قُونِيةَ، تذكِّرُ بِشُؤمِ أيّامِ الخلْوة ولَياليها، تذكِّرُ بآثارِ الأيّامِ العَجيبة التي قَضَيتُماها في الخَلْوة. هذه التصرّفاتُ الجُنونيّةُ إلى مَتَى يجِبُ أن تتواصَل. وهذا الوَجْدُ والحالُ والذّوقُ والعِشْقُ والجَذْبُ، التي تُرَى وتُسْمَعُ في سُلوكِ أَتْباعِ شَمْسٍ، إشاراتٌ واضِحةٌ لِعبادةِ الأَصْنام. وإلّا فاللهُ تعالى الذي أَتَى بالعالَمِ مِن كَتْمِ العَدَمِ إلى ساحةِ الوجود، وبِحِكْمته البالغةِ أَلْبسَ كُلَّ ممكِنٍ تَبَعًا لاستعدادِه كِسْوةَ وجودٍ خاصّةً به، وكُنْهُه وحَقيقتُه سُبْحانَه خارِجةٌ عن نِطاق الإدراكِ والتّصوُّر، كيفَ وبِأيّةِ قُدْرةٍ يمكِنُ ادّعاءُ إدراكِ ذاته؟! أيستطيعُ العِشْقُ أن يَحْظَى بمِثْلِ هذه القوّة؟ لَيْسَ لِعَظَمته وجَلاله حَدٌّ، ونحْنُ جميعًا مَدّاحونَ لِعَظَمته، ومعتكفونَ في كَعْبةِ عُبوديّته.

نحْنُ، بعْدَ خمسينَ عامًا مِن العبادة، لا نُجيزُ لأنفسنا أن نقولَ إنّنا نُشاهِدُ جَلَواتِ جَماله في قُلُوبنا. ثمّ يدّعي ساحِرٌ أنّه، بِفَضْلِ العِشْق، أدركَ أسرارَ الوجود وطَلَب القُرْبَ مِن كَعْبة الوِصال.

الاختلافُ بَينَنا وبينكم أنّنا نقولُ: «ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادتِك، ولا عرَفْناكَ حَقَّ معرفتِكَ»، أمّا أنتُم فتعتقدونَ بأنّكم بمَعونة العِشْق تُصبحون ملائكةً مُحلِّقةً وكائناتٍ لا يتخيّلُها الوَهْم.

أنتُم مَدّاحونَ لِلْمَشْربِ العِرْفانيّ الإشْراقيّ، المتّصِل بوَحْدة الوجود. أنتُم تُغالونَ في شأنِ قُدْرةِ أَهْلِ العِرْفانِ على الكشْفِ والشّهود. ونحْنُ استِدْلاليّونَ على النّحْو الذي ترَونَه، أي إنّنا مُخالفونَ تمامًا لِوِجْهة نَظَركم. ونحْنُ نؤمنُ بعظَمةِ شَرَفِ الرّوح الإنسانيّ، الذي هو وَديعةٌ إلهيّةٌ أُفيضَتْ مِنْ عالَم الذَّرّ إلى هذا الموجود التُّرابيّ، ونقولُ: إنّ الرّوحَ الإنسانيّ يستطيعُ، بمَدَدِ اكتسابِ المعرفة والعِلْم وبالعبادة المقرَّرة، أن ينالَ المقامَ الحقيقيّ الإنسانيّ، الذي هو عَينُ المَقامِ الذي ذَكَر سَعْديٌّ الشِّيرازيّ أنّ صاحبَه لا يَرَى إلّا اللهَ [١٧٠].

كان مَوْلانا في أَثْناءِ ذلكَ في غايةِ الاستماعِ والإصْغاء، مُطْرِقَ الرّأسِ منهمِكًا في التفكُّر، مِثْلَ بَحْرٍ مَهيبٍ، لكنّه كان يبدو هادئًا رابطَ الجَأْش.

وههنا، سألَ واحِدٌ آخَرُ مِن ممثّلي المحفِل الرّوحيّ في قُونِيَةَ:

ـ هَلْ تُخالفونَ حُكومةَ العَقْلِ في وُجودِ الإنسان؟ نحْنُ نقولُ: إنّه بفَضْلِ العِلْم في مَدْرسةِ العَقْل يمكِنُ كَشْفُ أسرارِ العِلْم والحياة، ومِن هذا الطّريق يمكِنُ الإنسانَ أن يعرِفَ اللهَ تعالى على نَحْوٍ أفضلَ. والسّالِكُ، مِن دُون كَسْبِ العِلْم، لا يكونُ مِن أهْلِ البصيرة، والإنسانُ الذي لا يَعُدُّ العْقلَ إمامًا له مِثْلُ طائرٍ بلا جَناحٍ ولا رِيشٍ. وكُلُّ إنسانٍ اكتسَبَ مِقدارًا مِن العِلْم، لَدَيه إيمانٌ راسِخٌ. والإيمانُ، وإدراكُ الحقيقةِ، لا يحصُلُ علَيهما الإنسانُ بالدّوَران والسَّماع والرّياضة. ومَوْلانا، بعْدَ فِراقِ شَمْسٍ، لَجأ إلى عالَم العِشْق، الذي هو عالَمٌ مُبْهَمٌ وبَعيدٌ عن العَقْل، ولا يريدُ أن يعيشَ لِلَحْظةٍ مِن

دون محبوبٍ ومعْشُوق.. وأَشعارُ مَوْلانا العِشْقيّةُ تُبيِّنُ حقيقةَ أنّ العِشْقَ أكثرُ الظّواهِرِ اتّصالًا بالحقّ، والنّاسُ يأتونَ إلى الدّنيا بِتأثيرِ جَذْبِ العِشْق.

وقد نقَلَ مَوْلانا مِن كَلامِ شَمْسٍ أنّ العِشْقَ شاهينٌ سَريعُ الطّيَران، عُشّهُ في قُلوبِ العارفينَ. وقالَ مَوْلانا مِرارًا: إنّ كُلَّ ما هو موجودٌ، وكُلّ ما نَراه في فَضاءِ الأرض وفي الملَكوتِ والكائناتِ والنّاسوتِ، هو مِن آثارِ جَذَباتِ العِشْق. معشوقُ مَوْلانا هو شَمْسٌ، الطّاعِنُ في السّنّ، السّاحِرُ التَّبْريزيّ، والانقيادُ لهذا السّاحِرِ والشّيطانِ المجسَّم واعتبارُه الطّلوعَ والغُروبَ لِلْحَياة، والنّظَرُ إليه على أنّه سِحْرُ الحياة، كَذِبٌ وشِرْكٌ ومَيْلٌ ذِهْنيّ. فكَيفَ تُجيزون لأنفُسِكم أن تَمحُوا العقْلَ الذي هو شرَفٌ إنسانيّ وجَوهرٌ بشَريّ، أو تقولوا: إنّ قَدَمَ الاستدلاليّينَ خَشَبيّةٌ لا يُعتَمَد علَيها؟ لم تُدرِكوا عظَمَةَ العَقْل. العقْلُ أساسُ الحياةِ، ونقطةُ ارتكازِها. العقْلُ مَيّالٌ إلى الواقع، وهو يحقِّقُ القِيَمَ الأبديّةَ عنْدَ البشَر. أَعْصَى كلامِكم على الفَهْمِ، وأكثرُه إبهامًا، مِثْلُ كلامِ ذلكَ السّاحِرِ التَّبْريزيّ في شأن العِشْق، ونحْنُ لا نفهَمُه.

وإنّ أهْلَ قُونيةَ غيرُ مهيّئينَ للتّسليمِ بهذه العقائدِ اللّامنطقيّة. ونحْنُ نقولُ: إنّ شَمْسًا لا غَناءَ مِنه، أو هو قليلُ المَحْصول، وهو غيرُ لائقٍ لِأَن يكونَ مُرادًا وزَعيمًا.

ولا يستطيعُ مَوْلانا أن يُبايعَه تحْتَ لِواءِ العَقْل، ويعرِّفَه بأنّه شَيْخٌ. ونحْنُ، حتّى الآنَ، نعترفُ لمَوْلانا بِصَفاءِ الباطِنِ والكمالِ النّفسانيّ، ولكنّنا غيرُ مُستعدّينَ لِأَنْ نسلِّمَ بأنّ شَمْسًا التَّبْريزيَّ عالِمٌ رُوحانيّ أو عارفٌ متشرِّد.

[١٧١] نحْنُ جميعًا مُعترضونَ على الدّوَرانِ والرّقْص والسّماع، في الخانِقاه وخارجَه. وقد ترامَى إلى أَسْماعِنا، أنّ مَوْلانا في ساعاتِ فَراغه ينظِمُ الغَزَليّاتِ التي أكثرُ أبياتها مِنْ أَجْلِ الرّقْصِ والتّصفيق، وهي ذاتُ تَلْحينٍ، وتُدخِلُ الأشخاصَ مِن دُون قَصْدٍ في حالٍ مِنَ

الوَجْد والهيَجان. وقد سَمِعْنا أنّ مَوْلانا، أحيانًا ينشَغِلُ منذُ الفَجْرِ إلى أن تعتليَ الشّمْسُ في السّماء بالسَّماعِ الصّوفيّ، صائحًا: شَمْس، شَمْس، وينهَمِرُ الدّمْعُ مِن عَينَيه مِن أَجْلِ شَمْسٍ وفِراقه. قائلُ هذا الكَلامِ أدخَلَ يدَه في جَيبه بِغَضبٍ، فأخرجَ ورقةً مُكوّرةً، وبعْدَ أن فتَحَها وضَعَها أمامَ عينَيه وقالَ: هَلْ صَحيحٌ أنّكَ نظمْتَ هذا الشّعْر:

إنّهـــا أنْغـــامُ دَوَرانِ الفَلَـــك

تلكَ التي يتغنّى بها الخَلْقُ بالطُّنْبور والحَلْق

ومِــن هنــا صــارَ الــسَّماعُ غِــذاءً لِلْعاشــقين

لِأنّ فيــه خَيــالَ الاجتمــاعِ والوِصــال

وبــه تَقْــوَى خَيــالاتُ الــضّمير

بَلْ تتحوّلُ إلى صُوَرٍ بتأثيرِ الصّوتِ والصّفير

ولــذلكَ قــالَ الحُكَمــاءُ: هــذه الألْحــانُ

أَخــذْناها نَحْــنُ مِــن دَوَران الفَلَــك[١]

هذا الشّعْرُ تتداوَلُه أيدي النّاس، وقد صار مَحَلَّ اعتراضِ أَهْلِ العِلْم قاطبةً. فهَلْ أنشدتُّم هذه الأشعارَ؟ أو أنّكم تُنكِرونَ ذلك؟ آمُلُ أن تكونَ مِن آثارِ ذلك السّاحِرِ التّبْريزيّ، ولَيْسَتْ مِن منظوماتِ مُدَرِّسِ الرّوم الشرقيّة اللّامُنازَع.

ـ ضحِكَ مَوْلانا مِن الأعماق، وقالَ: أنشدتُّ هذه الأبياتَ في أثناء غَلَيانِ الوَجْدِ والهيّجانِ والسُّرور، وإبّانَ السَّماع الصّافي. واعلَموا يقينًا أنّ هذا الشّعْرَ سيغدو مَشْهورًا بينَ الأنام، في يومٍ مِن الأيّام.

١ـ المثنوي: ٧٥٣/٤ـ٧٥٦.

كيفَ أُنكِرُ ذلكَ؟ ـ هذه هي عَقائدي العِرْفانيّةُ، ولا شأنَ لي بما يقولُ سَيِّءِ القَول، ومَنْ لا يرى سِوى الظّاهر. السَّماعُ يوقِظُ في نَفْسِ الإنسان ذِكْرياتِ الماضي الطّيّبة، وكُلُّ من ينكِرُ السّماعَ يُعادي الشّوقَ والوَجْدَ والحالَ عندَ الإنسان، وكُلُّ مَنْ لا يقيمُ علاقةً طيّبةً مع الوَجْدِ والحالِ غَريبٌ عن نفسه؛ وإن كان إنسانًا فهو إنسانٌ متعصِّبٌ متشدِّدٌ جافُّ الفِكْر.

ـ هَلْ أَتى شَمْسٌ التَّبْريزيّ إلى هنا بالتّصفيق والرّقْصِ هَدِيّةً؟

ـ لا، لَيْسَ الأمرُ كذلكَ، بل كان الصّوفيّةُ قبْلَ شَمْسٍ ـ أي منذُ زَمانِ الشّبليّ ـ يشاركونَ أيضًا في مجالِسِ السَّماع، وبصُحْبة الدُّفّ والنّاي يَدخُلونَ في الوَجْدِ ويَغيبون عن أنفسهم. وقد قالَ الشّيخُ عبدُ الله الأنصاريّ: إنّ ذا النُّونِ المِصْريَّ والشِّبليَّ والخرّاز والنُّوريّ، هؤلاء جميعًا، ودّعوا الدّنيا في أثناء السَّماع. وكان الشّيخُ نَجْمُ الدّين كُبْرى يتنقَّلُ مِن حاضرةٍ إلى أخرى بَحْثًا عن رِجال الله، حتّى وَصَلَ إلى جنوب غَرْبيّ إيران. وفي مدينة دِزْفول، ألقى عَصَا التّرحال في خانِقاه [١٧٢] إسْماعيل القَصْريّ. وقد تألّمَ، ونالَ منه الألَمُ كثيرًا. وفي إحدى اللّيالي، كان يُقامُ سَماعٌ في خانِقاه الشّيخ إسْماعيل القَصْريّ، فتأذّى كثيرًا مِن السَّماع؛ لأنّه كان لا يستطيبُ السَّماعَ ويُنكِره. وفي تلكَ اللّيلةِ، أمسَكَ إسماعيلُ بِيَد نَجْمِ الدّين وأخذَه إلى حَيثُ السّماعُ، وبعْدَ عدّة سَاعاتٍ ذهَبَ الألَمُ والتّعَبُ عن جَسَده. والآنَ، أُريدُ أن أسألكم: هَلْ جئتُم إلى هنا للتّحقيق معي؟ ـ هَلْ يتحتّمُ عَلَيّ أن أُحاكَم؟ ـ هذه الأسئلةُ جميعًا مِنْ أجل ماذا؟ أيَّ شيءٍ أُبيِّنُ؟ عليكُم أن تُسَلِّموا بأنّني حتّى الآنَ أَعُدُّ نفسي فقيهَ الرّومِ الشّرقيّة الأوّلَ. وقد قال الشّيخُ عبدُ الله الأنصاريّ: «إذا شئتَ أن يعْمَلَ العِشْقُ في قَلْبِك، ويجعَلَكَ طالبًا لذلكَ الحبيب، فانظُرْ أوّلًا في نفسِكَ: مَنْ أنتَ، وماذا أنتَ نِسْبةً

إليه. العِشْقُ نارٌ مُحْرِقةٌ، وبَحْرٌ لا نهايةَ له.

فقالَ الممثِّلونَ: جئنا لِكَي نتعرّفَ تجلِّياتِ العِشْق في قَلْبِ العارِف، وكيفيّةَ وُصُولكم إلى الحقيقة. (ضَحِكَ كُلٌّ مِن الثّلاثة).

ـ إنّ وجودَ نارِ عِشْقِكَ في الرّوح أفضَلُ
وأَنْ يغدُوَ القَلْبُ مِن عِشْقِك ناثرًا للنّارِ أفضَلُ
ـ وكُلُّ مَن شَرِبَ قَطْرةً مِن جامِ عِشْقِكَ
خَيرٌ له أن يظَلَّ حتّى يومِ القيامة ثَمِلًا وحَيرانَ
ـ ومنذُ أن ظهَرْتَ اختفَيتُ أنا
لِأنّ الاختفاءَ معَ وجودِ المعشوقِ أفضلُ

المنزلةُ العِلْميّةُ لِشَمسٍ التّبْريزيّ

كأنّ اللّذّةَ العميقةَ والاستساغةَ الشّديدةَ أفقدَتْ هؤلاء وَعْيَهم، واستلَبَتْ منهم عقولَهم. وقد فَهِمَ مَوْلانا أنّ ضَحِكَ الضّيوفِ والكَلماتِ التي قالوها عَلامةٌ على عَدَمِ إيمانهم بفِكَره. فهؤلاء لم يصدِّقوا الكلامَ البليغَ لمَوْلانا، وكانَتْ قلوبُهم تُريدُ بابتساماتهم السّاخِرةِ أن يجعلوا أُسْتاذَ دارِ العِلْم في قُونِيةَ مُشَتّتَ الذّهْنِ ومضطربًا. كان مَوْلانا ينظُرُ إلى هذا المشْهَد العجيب، وكان يحدِّثُ نفسَه ويقولُ إنّه لا ينبغي أن يُصْبحَ أُلعوبةً لهؤلاء، يجِبُ إذابةُ هؤلاءِ الوَقِحينَ، بكلامِ الحقيقة، كما يُذابُ الثّلجُ أمامَ الشَّمْس. ولهذا السّبب، بَدَا خِطابُه لهؤلاء الضّيفِ منفِّرًا وباعثًا على الدَّهْشة، وبِشَيءٍ من الغضَب واصَلَ كلامَه: فإنّني أقولَ:

كُلُّ مَنِ انكشَفَتْ لَهُ أَسْرارُ العِشْق
غابَ عنِ الوجود دَفعةً واحدةً؛ لأنّه انمحَى في المعْشُوق[1]

إذا وصَلَ طلَبُ السّالِكِ المؤمِنِ إلى حَدّه النّهائيّ، وَصَلَ إلى مَطْلوبه ومعشوقه. كان ممثِّلو المحفِلِ الرّوحانيّ يهزّونَ رُؤوسَهم مبتسِمينَ، وقد عرَفَ جَلالُ الدّين، مِن

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ٨٢٩.

الابتساماتِ السّاخِرةِ لهؤلاء الحاقِدينَ، أنّهم غيرُ مُبالينَ ومتردّدينَ، بِلا رَحْمة، وأدركَ أنّ قراءةَ الوَعْظِ لا تُجدي نَفْعًا معَ أصحاب القُلوب السُّود. ولهذا السّبب، صَرَخ بصوتٍ كالرّعْدِ القاصِف وقالَ: أيّها الكَلامُ، صِرْ كالسَّيلِ الهادِرِ لِكَي يعلَمَ ممثِّلو المحفِلِ الرّوحاني في قُونِيةَ، الموجودونَ هنا، ماذا يجيشُ في صَدْري إزاءَ سَماعِ هُزْئهم ورُؤيةِ ابتساماتهم السّاخرة، وأيّةَ غُصَصٍ أتجرّعُ مِن هذه المُماحَكاتِ الوَقِحة [١٧٤]، ولا أقولُ شاكيًا: إنّكم تَسْخرونَ مِن كَلامي.

مرّةً أخرى، أتذكّرُ أنّ شَمْسًا الذي يخفُقُ قَلْبي مِن أَجْله كان كثيرًا ما يقولُ لِلْمُنافقينَ: «أُسَرُّ ممّن يشتُمُني، وأتألّمُ ممّن يُثني علَيّ؛ لأنّ الثّناءَ والمَدْحَ يكونُ مطلوبًا عندَما لا يكونُ بَعْدَه إنكارٌ، ثمّ إنّ المنافِقَ أَسْوأُ مِن الكافر، أَما سمعتُم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النّساء: ١٤٥]. أحَدُ الممثِّلينَ قالَ معترضًا:

ـ يا مَوْلانا، ما نريدُه هو أن تتحدّثَ عن نفسِكَ، وأن لا تذكُرَ اسْمَ ذلكَ السّاحِرِ التَّبْريزيّ عَلَى لِسانكَ، لا تعرِضْ كَلامَ ذلك السّاحِرِ الجوّال، ذلكَ الصَّنَمِ العَيّار، عَلَى سبيلِ الدّليل والسَّنَد. إنّ كَلامَ شَمْسٍ المتشرِّد ينطوي على جانبٍ تَخيّلي وفَضْفاضٍ، أمّا كلامُكُم فمُتقَنٌ ومُنطَوٍ على جانبٍ نَفْسيّ. وأنتُم، حتّى الآنَ، تُورِدونَ أقوى الأدلّةِ لِتبرير ادّعاءاتِكم. وقد بسَطَتْ شَمْسُ الحقيقة الآنَ أنوارًا وظِلالًا كثيرةً حولَكم. ونعتقدُ نحنُ، الآنَ، أنّ شَمْسَ الدّرايةِ والكِياسةِ تُشِعّ مِن الأُفق الأَعْلى عَلَى دَقائقِ عُمُركم ولَحَظاته. واللهُ سُبْحانَه خَلَقَ العقْلَ، الذي أنا وأنتُم نخضَعُ لأوامره القاطعة. ومِن المُناسِبِ أن تنسَوا شَمْسًا التَّبْريزيّ الذي يُشبِه كَلامُه ذرّاتِ الغُبار، التي في أيّام الخَريف تملأ آفاقَ قُونِيةَ، ثمّ بعْدَ ذلكَ تَسوقُها رِياحُ الخَريف إلى الصّحارَى القَصِيّة المتراميَة

الأطراف. واعلَموا وسلِّموا بأنّه ظاهرةٌ ناقصةُ الخِلْقة، والقُبْحُ والفَسادُ يموجُ في قَوله وفِعله. أَسْلِموه لِيَدِ الطبيعة، فإنّه لا يستحقُّ المحَبّةَ والإعزازَ، ولا يستحقّ العناية. وإذا لم أُخطِئ فإنّ الشّيطانَ قد أرسلَه إلى هنا، لإضْلالِ النّاسِ وإغوائهم، جاءَ لِيُبعِدَ مُواسِيَ أَهْلِ قُونِيَةَ العظيمَ، أي شخصَكم الكريم، عنّا.

عَرَتْ رِعْدَةٌ خفيفةٌ جِسْمَ مَوْلانا. وكأنّه في تلك اللّحَظاتِ المْزَلْزِلة، لم يكُنْ يصِلُ إلى أُذنِ مَوْلانا مِن الأرضِ والسّماء، ممّا كان يشاهِدُه هناك مِن أشياء، إلّا النّواحُ والألَمُ والانتقادُ..:

إنّ سِـــرّي غَيـــرُ بَعيـــدٍ عَـــن نُـــواحي

لكـنِ العَـينُ والأُذنُ لَـيْسَ لهمـا ذلـك النّـورُ[1]

كانت هذه الأسئلةُ تتلَجْلَجُ في صَدْرِ مَوْلانا:

ـ أيجِبُ أن يكونَ الرِّياءُ والتّظاهرُ والتّواقُحُ والاختلاقُ والتشدّدُ رافعةً رأسَها وقويّةً في الأرض، وفي قُونِيَةَ خاصّةً؟ أو أن يبسُطَ الشّرُّ والسُّوءُ أجنحتَه [١٧٥] السّوداءَ فوقَ البسيطة؟ أيجِبُ أن يُصبِحَ شَمْسُ التَّبْريزيّ مقهورًا ومنكوبًا ومطرودًا، بأيدي الناسِ؟ ـ ألا يستحِقُّ شَمْسٌ أن يكونَ ذا إسهامٍ في تكوّنِ شخصيّةِ مَوْلانا الجديدة؟ ـ

١ ـ هذا البيتُ أتى به مولانا جلالُ الدّين، في مقدّمة المثْنَوي، على لِسان النّاي الذي يعبِّر بأنينه ونُواحه عن ألَمه لِفراق القَصْباء، أي مزرعةِ القَصَبِ التي اقتُطِع منها، ثُمّ أُعِدَّ ليكون آلَةَ النَّفْخ المعروفة، النّاي، بِثَقْبه عِدّةَ ثقوبٍ وتهيئتهـلكي يَنفُخَ فيه الإنسانُ. وفي هذا البيت يكشِفُ النّايُ، الذي هو عندَ مولانا رَمْزٌ لِرُوح الإنسان الذي فارقَ موطنَه الأوّل، عالَمَ الأرواح، لِيُقيم في مُغتَرَب الماءِ والطين، أي الجسَد، عن سِرّ نُواحه. وسِرُّ صوتِ النّاي هنا مرتبطٌ بنُواحِه وأنينه من ألَم الفراق، ولا يعبّرُ صوتُه عن جَذَلٍ وسُرور وطَرَب، كما يَفهَمُ بعضُهم منه ذلكَ. ويحتاجُ إدراكُ سِرِّ صَوْتِ النّاي هذا إلى عَيْنٍ وأُذُنٍ لهما طبيعةٌ نورانيّة، أمّا العَينُ والأذنُ الشّحْميّتانِ ـ كما يقولُ مولانا ـ فلا تُدركانِ ذلكَ. يُنظر: المثْنَوي، الأبيات الثّمانيةَ عشَرَ الأولى [المترجم].

عندَما كان مَوْلانا حائرًا ومُشتّتًا في دَهاليزِ الحياةِ المُظْلِمة المجهولة وأسرارها، مَن خلّصَه مِن ذلكَ؟ ـ ما العامِلُ الذي أوجبَ أن يعْرِفَ زَوايا جِسْمِه ورُوحِه المظلمةَ تحتَ أنوارِ العِشْق الرّوحانيّةِ والملَكوتيّة والقويّة؟ ـ هَلْ يمكنُ نِسْيانُ الأيّامِ واللّيالي التي كان فيها العاشِقُ والمعشوقُ (شَمْسٌ ومَوْلانا) منشغلَين بالتّحقيقِ والبَحْث في شأنِ أَسْرارِ الخَلْق، بإحساسٍ مقدَّسٍ وسُرعةٍ ممتعةٍ في فَضاء العِشْق؟

أَثمرَتْ ضُروبُ الانتقادِ والاتّهام والتّأنيب والاستجواب مصحوبةً بِسُخْريةِ ممثّلي المحفِل الرّوحانيّ في قُونِيةَ، عنْدَ مَوْلانا، غَرابةً وتعجّبًا، مَعَ نُفورٍ وتكرُّه. فسكتَ مَوْلانا، وكان في صَمْتٍ مُوحِشٍ عُقْبَ كلامٍ يوجِدُ ثَورةً في أرضِ حياةِ مخاطَبيه القاحِلة. جعَلَتْه عظَمةُ وجودِ شَمْسٍ، وقدرتُه الرّوحيّةُ خاصّةً، متوقّفًا في الزّمان، كأنّ كُلَّ شيءٍ قد توقّفَ.

كيفَ يستطيعُ مَوْلانا أن يقولَ لمَنْ أكلَ الحسَدُ قلوبَهم: إنّ شَمْسًا التّبْريزيَّ نَجْمٌ وضّاءٌ، يَرَى في شُعاعِ أنوارِه الأغوارَ المظْلِمةَ والمجهولةَ لحياته بوضوح؟ وعنْدَ مَوْلانا، لا خبرَ ولا أمْرَ أهمُّ وأكثَرُ إزعاجًا مِن أَنْ لا يفهمَ أُناسٌ، وأهلُ قُونِيةَ خاصّةً، المنزِلةَ العِلْميّةَ والعِرْفانيّة لِشَمْسٍ على نَحْوٍ رائعٍ ولائق.

تلكَ التُّهَمُ العظيمةُ أحدثَتْ في كِيانِ مَوْلانا هِزّةً عظيمةً. وقد شاهَدَ ممثّلو المحفِلِ الرّوحانيّ في قُونِيةَ، بوضوحٍ، الغَمَّ والحزَنَ المُوجِعَ على مُحَيًّا مَوْلانا. وكان مَوْلانا في خِضَمٍّ مُوحِشٍ لِفاجِعةٍ، وقد لَفّتْ هذه الفاجِعةُ مدينةَ قُونِيةَ، بِكُلّ محاسِنها. ومِن هناك، شاعَ في دُورِ العِلْمِ في البُلْدانِ الإسلاميّة أنّ مَوْلانا صارَ عاشِقًا لِشَمْسِ الشّيخ، شَمْسِ التّبْريزيّ السّاحِر. عناصِرُ أُخَرُ فعّالةٌ في شخصيّة جَلال

الدّين، تحوّلَتْ إلى تجلّياتٍ عاطفيّة لِشَمْسِ الشّيطان [في نظَرهم].

كان مَوْلانا في ذلكَ المجلسِ، يحِسُّ بأنّ جسَدَه يذوبُ تدريجيًّا أمامَ تلكَ التُّهَمِ جميعًا. فقد حَمَلَ هؤلاء عَلَى أعظَمِ شخصيّةٍ عِرْفانيّة لَدَيه. [١٧٦] كان مَوْلانا يَرَى أمامَه أفرادًا في غاية القَسْوة والفَظاظة، يستعملونَ الحَرْبَ الكلاميّةَ في القضاء على المقترَحاتِ التي هي مُقدَّسةٌ عندَه. نعَمْ، يستعملونَها لإفنائه وإفناءِ شَمْس. فأيّةُ فائدةٍ تُجنَى مِن هذا الحِوار الذي كان يأخُذُ صُورةَ مُحاكَمةٍ، أو جَلْسةِ استجواب؟ فإذا لم تُقدَّمِ الرُّدودُ عَلَى هذه الإيراداتِ والشُّبَه والتُّهَم، فإنّ القِيَمَ المُرادةَ تغدو مُدانةً، على الظّاهر. وسيقولُ هؤلاء: لقد انتصَرْنا، وأَطْرقَ مَوْلانا في مَيدانِ البَحْث رأسَ التّسليم. وكان تَسْليمُ مَوْلانا هَزيمةً لِلْمَدْرسةِ العِرْفانيّة العِشْقيّة، مَدرَسةِ الإشراق والإلهام. أخَذَ مَوجُ الكلامِ المتدَحْرِجُ المضطَرِبُ الضّاجُّ يتدفّقُ مِن كُلّيّة وجودِ مَوْلانا نَحْوَ شَفتَيه، وكأنّ شَمْسَ وَجْهِ شَمْسٍ[1] قد طلَعَتْ أَمامَه. كان التفكيرُ في شَمْسٍ يجعَلُ مَوْلانا في خِضَمّ كُلِّ مستحيلٍ؛ كان نورُ الحقيقة يُشِعُّ عَلَى وجوده. وفي النّهاية، كان مَوْلانا يَرَى نفسَه في أَتُّونِ مكاشَفته. أخرَجَتْ مُشاهَدةُ شَمْسٍ، أو التفكيرُ في شَمْسٍ، مَوْلانا مِن أعماق مكاشَفته.وأيُّ كَلامٍ آخَرَ، سيخرُجُ كالرَّعْدِ، وكضَرَباتِ المِطْرقة، مِن بَين شَفتَيه. وكان التّسْليمُ والصّمتُ موتًا وعدَمًا. ولهذا السّبب، نظَرَ مَوْلانا نَظْرةً متفحّصةً إلى المدَّعينَ والحاسِدينَ، نَظْرةً هزّتْ أعماقَ قُلُوبهم، وأوصَلَتْ دَوِيَّ كلامه إلى آذان المخاطَبين:

١ـ أَظْهِرْ، أي شَمْسَ تَبْريزَ، كمالًا لِكَيْ لا يعتري النّقصُ الكافَ والنّونَ
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ١٠١)

ـ رَسولُنا الأكرَمُ، نبيُّنا العَلِيُّ القَدْرِ [عليه الصّلاةُ والسّلام] قالَ: أيُّها المسْلِمُ، إذا رأيتَ النّاسَ منشغِلًا بعضُهم بالبَحْثِ عن عَيْب بعضِهم الآخَر فانشغِلْ أنتَ بالبَحْثِ عن عُيوب نفْسِك. عندَما تَرى النّاسَ منشَغِلينَ بأُمورِ الدّنيا الخادعةِ انشَغِلْ أنتَ بعَمَلِ القَلْب. وإنّ شَمائلَ شَمْسٍ تذهَبُ معي حَيثُ أذهَبُ، كالظِّلّ. خَلَعَ شَمْسٌ عَلَيَّ في هذه الدّنيا الزّائلة خِلْعةَ القُرْبِ والشَّرَف والمَنْزِلة. ومَهْما عِبتُمُوه عِندي فلَنْ يزيدَه ذلكَ عندي إلّا عَظَمةً وجَلالًا.

كان شَمْسٌ يريدُ أن يغيِّرَ مَعالِمَ الدّنيا، وأن يكونَ منهَجُ العِشْقِ حاكِمًا في كُلّ مكان. فأيُّ قَلْبٍ ذاكَ الذي يسْمَعُ بَيانَ شَمْسٍ ولا يتحوّلُ إلى مَوْقِدٍ للحَيرة؟ فقد جاء مِن أَجْلِ العِشْقِ والصّفاء والإخلاص، وهو يقولُ: جوهَرُ الوجودِ هو العِشْقُ. وأحْكي لكم هنا عن مَشْهَدٍ ساحِرٍ ومُسْكِرٍ، وقد شَرَحَ هذه الواقعةَ الشّيخُ عبدُ الله الأنصاريّ، في تفسيره الكبيرِ الخالد. فانظُروا أيّةَ عظَمةٍ، وأيّةَ كيْفيّة، أَعْطى العِشْقُ لأبي يزيدَ. عندَما يقولُ شَمْسٌ: [١٧٧] العِشْقُ معجِزةٌ إلهيّةٌ، لا يقولُ عَبَثًا وباطلًا. وعندَما يقولُ: إنّ العارفينَ هم مظهَرٌ لِلْعِشْق، لا يقولُ كَذِبًا. فإنّ أبا يزيدَ كان بِمُساعَدةِ شاهينِ العِشْق الإلهيّ يجتازُ أقطارَ السّماواتِ، ويغْرَقُ في أنوار القَمَر الفِضّيّة. كان يَرَى الفضاءَ مملوءًا مِن صَمْتِ العِشْق. وكانَتْ مُناجاةُ أبي يزيدَ تُزَلْزِلُ شُرَفَ العَرْش، وكان يستَمِعُ إلى الألْحانِ الملَكوتيّة لِلْمَحْبوب باشتياقٍ وتلهّف. هكذا يعترفُ أبو يزيدَ:

في إِحْدَى اللّيالي كُنتُ في مُناجاةٍ، رأيتُ الدّنيا يَلُفُّها السّكونُ، ضَوْءُ القمَرِ متلألئ، النّجومُ مُضيئةٌ، هُدوءٌ في جَنَباتِ الوجود، لا صَوْتَ مِنْ أَحَد، لا مناجاةَ مِن أيّة زاوية. قُلْتُ في نَفْسي: واأَسَفاهُ، بَلاطٌ بهذه العظَمة، ولكنّه خالٍ.

سمِعْتُ نِداءً مِن الغَيب يقولُ: يا أبا يزيدَ، أَتحسَبُه خاليًا؟ رُفِعَ الحِجابُ عن أُذُنِك. أَرْهِفِ السَّمْعَ لِكَي تسْمَعَ نُواحَ المتحرِّقينَ والمتألِّمينَ. في هذه الأثناء فُتِحَتْ عَلَيَّ زَوايا العالَم الأَرْبعُ، ومِنْ كُلّ زاويةٍ سمِعْتُ نُواحًا، مِن كُلّ زاويةٍ سمِعْتُ حُرْقةً وتضرُّعًا، مِن كُلّ جِهةٍ سَمِعْتُ أَلَمًا وتوجُّعًا. أَمامَ ذلكَ رأيتُ نَفْسي عَدَمًا، مِثْلَ قَطْرةٍ في بَحْر، أو ذَرّةٍ في الهواء. أطلَقْتُ لِسانَ الحَسْرةِ والحَيْرة، وقلْتُ: إلهي، في بَحْرِ شَوْقِكَ غارِقونَ كثيرون، وفي باديةِ محبّتكَ متحيِّرونَ كثيرون. في عَتَبةِ جَلالِكَ قَتْلى كثيرون، وفي مَقامِ وِصالِكَ مفتونون كثيرون، لَيْسَ لِطالبٍ هُدوءٌ، ولا لِقاصِدٍ وصولٌ.

أيّها السّادةُ، الحياةُ في دُنْيا مِن هذا النّوع طافحةٌ بالمَحبّة. الصّفاءُ والخلودُ في فَضاءِ العِشْق، الذي يَسوقُ الإنسانَ إلى العُروج الرّوحيّ، لَيْسا لَذيذَين؟ ألا تُحبّونَ أن تكونوا في زُمْرة عُشّاقِ العالَم الخالدينَ؟

يؤمِّلُ شَمْسٌ أن يرفعَني أنا وأنتُم، المُؤَدَّبينَ خاصّةً، إلى الآفاقِ الملَكوتيّة. والعِشْقُ طريقٌ سُلوكيٌّ، ومِعْراجٌ فِكْريٌّ، لا صِلَةَ له بالعَقْل الجُزْئيّ، يتجاوزُ المَمالكَ. البشَرُ مُستحِقّونَ لِلْمَحبّة، ولابدّ لِلإنسان لِكَي يعْرِفَ نفسَه مِن أن يتمسّكَ بالعِشْق. الإمامُ الرّابعُ(*) عندَ الشّيعة قالَ: «إلهي، اجعَلْنا في زُمْرةِ مَنْ ضَرَبَتْ أَشْجارُ العِشْقِ والمحبّةِ جُذورَها في قلوبهم، واضطَرَمَتْ نارُ محبّتكَ في جَنَباتِ أفئدتهم».

اعلَموا أنّه في العالَمِ الفسيحِ، في قَلْبِ كُلّ مؤمنٍ، كُلّ مُوحِّدٍ، كُلّ عابِدٍ لله، جَنّةٌ يُسمّونَها «العِرفان»؛ وفي الآخِرة جَنّةٌ يُسمّونَها «جَنّة رِضْوان». وكُلُّ مَنْ لَدَيه اليومَ «جَنّةُ عِرْفانٍ» سيتخَطّى يومَ القيامة في «فِرْدَوسِ الرِّضْوان»:

---

* ـ يريد: الإمامَ عليَّ بنَ الحُسين بن عليّ بن أبي طالب، الهاشميّ القُرَشيّ، الملقّب بـ«زَين العابدين»، رضي الله عنهم جميعًا (ت ٩٤هـ).

[١٧٨] أيُّهــا الــسَّيِّدُ، ألا تَــرَى يــومَ القيامــةِ هــذا

أيّهـا الـسَّيِّدُ، ألا تـرَى هـذا الجميـلَ القَـدِّ والقامـة

جِــدارُ البَيْــتِ وبابُــهُ ثــائرانِ ومجنونــان

وأنـا فـوقَ الجِـدارِ مِـن أَجْـل الـدّليل والعَلامـة

القمَــرُ الــذي لا يُدْرِكُــه النّحــولُ في الــدَّوَرانِ أبَــدًا

مزَّقَــتْ شَــمْسُ جَمالِــه الظّــلام

أيُّهــا الــسَّيِّدُ الطّــاهِرُ الــذّيلِ، أَأنــتَ المجنــونُ أم أنــا؟

اشْــرَبْ كأسًــا مَعِــي، ودَعِ الملامــة

عاشِقونَ كثيرونَ، قبْلَكَ، كانوا يبحثونَ عنِ العظَمةِ والكَرامة

وعندَما رأوا مُحَيّا السّاقي باعوا العظَمةِ والكَرامة(١)

ما شَمْسٌ بِشَيطانٍ، ولا بِمُتشرِّدٍ، ولا بِساحِرٍ. وهو مُمسِكٌ بزِمامِ تفكيرِه وأُمْنيّاتِ نفسِه، وراضٍ بقَضاءِ الله، ويَرَى أنّ التُّهَمةَ والألَمَ والأذى والمحبّةَ في سَبيلِ العِشْق متشابهةٌ ومتساويةٌ، ولا يستبدُّ به البتّةَ الشّيطانُ المدنَّسُ بالغضَبِ والحِرْصِ وحُبِّ الرّياسة والزّعامة. فهو خَيرٌ مَحْضٌ، ويَرَى أنّ جوهرَ الإنسانِ هو المحبّةُ القويّةُ للنّاس، ويواجِهُ الصّعوباتِ ولا يخاف:

صارَ قَهْرُه كُلُّه رَحْمةً، صارَ سُمُّه كُلُّه شَرابًا حُلْوًا

صارَ سَحابُه نـاثِرًا للسُّكّر، جَعَلَـه الله كـذلكَ أبـدًا

يا شَمْسَ الحقّ التَّبْريزيّ، مِن كثْرةِ ما امتزَجْتَ بي

صارتْ تَبْريزُ عَيْنَ خُراسانَ، جعَلَها الله كذلكَ أبدًا

ومِنْ ‹أسْلَمَ شَيْطاني[1]› صارَتْ نفسُكَ رَبّانيّةً

أسْلَمَ إبليسُ، جعَلَهُ الله كذلكَ أبدًا

اصْمُتْ فإنّني ثَمِلٌ، وقد قَيّدَ أحَدُهم يَدي

وتشتّتَ ذهني، جعَلَه الله كذلكَ أبَدًا[2]

وفي تلكَ اللّحَظات، كانَتْ تجلّياتُ ظُهورِ العِشْقِ وسِيماءُ عِشْقِ التَّبْريزيّ في غايةٍ مِن العظَمةِ والقوّةِ جعَلَت الضّيوفَ شيئًا فشيئًا يشعرونَ بأنّهم عَدَمٌ أمامَ شَمْسِ الحقّ والحقيقة. كأنّهم تحتَ تأثيرِ سِحْرِ الكَلِماتِ، صاروا صَرْعى الضّياءِ الطّافِحِ بالحقائق، إحساسٌ مُبْهَمٌ استبدَّ بوجودهم: كيفَ استطاعوا أن يقيسوا إحساسَهم المشتّتَ

---

١ ـ كتبَ الأستاذُ الدّكتُر شفيعي كَدْكَني في كتابه «گزيدهٔ غزليّات شَمْس» [اختيارٌ مِن غزليّاتِ شَمْس] في تفسير هذا البيت قولَه: «هذه إشارةٌ إلى الحديث الشّريف: «أسْلَمَ شَيطاني على يَدي». وقد كان هذا الحديثُ محَلَّ اهتمامِ عددٍ كبيرٍ مِن شُعراءِ فارس. ولَعلّ ما جاء في بَيتِ حافظِ الشّهير:

اسْمِ اعظم بكند كارِ خود، اى دِلْ خوش باش ... كه به تَلْبيس وحِيَل دِيو مسَلْمانْ نشوَدْ

أي:

الاسْمُ الأعظَمُ يعمَلُ عملَه، فاطْمئِنّ يا قَلْبي ... لِأنّ الشّيطانَ لَنْ يُسْلِمَ بالتّلبيس والحِيَل

الذي كثيرًا ما رُوِيَ هكذا: «سليمان نشود» [بمَعْنى لا يغدو سليمانَ] (الرّواية التي تبدو أيضًا أكثرَ موافقةً للذّوق)، يشيرُ إلي الحديث نفسِه. وقد جاء في أشْعارِ ناصر خُسْرو أيضًا:

ذلكَ الشّيطانُ الموجودُ في جَسَدي ورُوحي ... أجعَلُه مُسْلِمًا، يومًا، بسَيْفِ العَقْل

وقال سَنائي:

الشّيطانُ الذي ظلّ يجعَلُني على ذلكَ الكُفْر ... ذلكَ الشّيطانُ اسْلَمَ، جعَلَه الله كذلكَ دائمًا

٢ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٨٢.

والمضطَرِبَ بالمَقامِ الرّفيع لِشَمْسٍ، الذي كان جَلالُ الدّين محمّد مُثْنيًا علَيه؟ لعلّهم في تلكَ اللّحَظات كانوا يَرَونَ أنفسَهم، أو حُجَجَهم، تافهينَ ضَئيلي القَدْر، فأيُّ دافعٍ حَملَهم على التّواقُحِ في محْضَرِ أعظَمِ فقيهٍ في قُونِيةَ؟ [١٧٩] هَلْ يجِبُ علَيهم أن يَحْنُوا رَأسَ التّسْليمِ لِلْكَلامِ الحكيم والعِرْفانيّ لمَوْلانا؟ أولئكَ لم يكونوا مِن طِراز شَمْس، ولم يكونوا قادرينَ على تأييدِ عَظَمَته الرّوحيّة والأخلاقيّة، والإقرارِ بها. وإذا كانوا لم يذكروا ذلكَ بِألسنتهم، فقد كانوا يُدرِكونَ بقلوبهم جيّدًا العواطِفَ الرّقيقةَ لمَوْلانا، التي نشأتْ مِن مُراده [شَمْس التّبْريزيّ]، وكانَتْ تُعطيه حَياةً وأمَلًا جَديدَين. كان أولئكَ خاضعينَ لِضَغْطِ مُيولهم المختلفة. أَحَسَّ مَوْلانا أنّ ضُيوفَه مضْطَرِبونَ ومتألّمون. ولم يعُدْ يُشاهِدُ الابتساماتِ السّاخِرةَ على شِفاههم، انتهتِ الابتساماتُ السّاخِرةُ. قرأ مَوْلانا في وجوههم أنّهم غيَّروا رؤيتَهم، وهم ينتظرونَ باشتياقٍ مُفْرِطٍ اكتسابَ فَيضٍ أكثرَ، ومعارفَ أجَدَّ وأنضَرَ، مِن حَكيمٍ اسْمُه شَمْسٌ.

أخْرِجْ مِن رَأْسِكَ الأحلامَ الفارغة
وأَقِلَّ مِنَ الدَّلال، وزِدْ في الحاجة والضَّراعة
إنّ أستاذَكَ هو العِشْقُ، وعندَما تصِلُ إليه
سيقولُ لكَ بلِسانِ الحال: اصْنَعْ هكذا
نَجْم الدّين دايه

شَيخُ مَيْهَنة(*) والسَّماعُ

إنّني، بإخلاصٍ تامٍّ، أُفشي لَكم ما أعلَمُه في شأن مُرادي؛ أَعْني مُدْرَكاتي وكُشوفي، مِن دُون تردّدٍ. وعلَيكم أن تعْلَموا أنّ رجالَ قَبيلتي كُلَّهم كانوا مِن عُلَماء الدّين. وقد كان والدي، سُلْطانُ العُلَماء، في بَلْخَ مَحَلَّ إعزازِ أكثَريّة أُناسِ تلكَ الدّيار. وإنّ إخلاصَ المؤمنينَ واشتياقَهم، وتسابُقَ فئاتِ النّاسِ للاشتراك في مجلس وَعْظه، وضروبَ الهَيجانِ والانفعالِ التي كان يُلْقيها في القلوب، أخافَتْ شخصَين كبيرَين غايةَ الإخافة: السّلْطانُ محمّد خُوارِزْمْشاه والإمامُ الفَخْرُ الرّازيّ، المتكلِّمُ المشهور في ذلك العَصْر، الذي لم يكن الخُوارِزمشاهُ يَشُكّ البتّةَ في إخلاصِ وفائه، وكان يَعُدُّه مُرتكَزًا ورَصيدًا لِسَلْطَنته. وربّما كان هذا العالِمُ الكبيرُ يحرِّضُ الخُوارِزْمْشاه سِرًّا على والدي. لم يُسَلِّمْ والدي إلى الشُّرَط، وواصَلَ مقاومتَه لِلْمُتشدِّدينَ، وفي النّهاية اضطُرَّ إلى أن يهاجِرَ مِن المدينة التي يحبُّها كثيرًا. وقد وَفَدْنا إلى هنا بِدَعْوةٍ مِن عَلاء الدّين كَيْقُباذ السَّلْجوقيّ، سُلْطانِ الرّوم الشّرقيّة، لِكَي نعْمَلَ بالوَعْظ والإرشاد. ولم تشاؤوا أنتُم البتّةَ أن أغادرَ هذا المكان. وأُطَمئنكم إلى أنّني لن أَمُرّ بدَارِ العِلْم الكبيرة في قُونِيةَ.

* ـ مَيْهَنةُ: إحدى قُرى خابَران، وهي ناحيةٌ من خراسانَ بينَ أبيوَرْد وسَرَخْس. وشَيخُ مَيْهَنةَ هو أبو سعيد، أسعَدُ بنُ أبي سعيدٍ، فَضْلُ الله بنُ أبي الخَيْر. صوفيٌّ وشاعرٌ كبيرٌ مشهورٌ وهو من أقدمِ الشّيوخ الذين أشاعوا أصولَ التصوّف في خراسان، واستعملوا الإنشادَ والسَّماع في الزّوايا والخَوانق الصّوفيّة (ت٤٤٠هـ).

قرأتُ، تقريبًا، كُلَّ الرّسائلِ والكُتُبِ والآثارِ العلميّة والفلسفيّة التي ألّفَها العظَماءُ والعُلَماءُ الإيرانيّون والعربُ إبّانَ دِراستي في جامع دِمَشْقَ الكبير، وبلَغْتُ إلى حَيثُ لم يبقَ شيءٌ مكتوبٌ لم أقرَأْه. وقد تحمّلْتُ عَناءَ اللّيلِ والنّهارِ هذا [١٨١] مِنْ أَجْل أن تُوصِلَني تلكَ الرّسائلُ والكتُبُ التي خلّفَها أَساطينُ العِلْم إلى عالَمِ الحقيقة. والعَجيبُ أنّ هذه الكتبَ، التي كانَتْ مَبْنيّةً عَلَى إظهارِ أَنظارِ السّابقينَ وفِكَرِهم وآرائهم وعقائدهم، لم تكُنْ قادرةً كُلّها على إِذْهابِ ظَمَئي إلى معرفة الحقيقة، وكانَتْ حالي في ذلك كحالِ الإمامِ أحْمَدَ الغزاليّ. وقد سأَلْتُ بعْضَ الأَصْحاب: ما الفائدةُ التي تُجنَى مِن هذه العُلُوم؟ فقالوا: العُلومُ والمعارِفُ تكونُ في الغالب مِن أَجْلِ الحُصولِ على أسباب العَيش، وحينَ تُقْرَنُ بالتّقوى تكونُ سَببًا للنّجاة في الدّنيا والآخِرة، هذا فقط. صَعِدتُّ أبْحَثُ عن مُرتكَزٍ لِرُوحيَ الباحِث، عندَما رأيتُ أنّ الرّياءَ والتعصُّبَ والحِرْصَ قد أعمَتْ أَعْينَ النّاس. الشّيءُ الذي لا وجودَ له في فَضاءات أَرْضِ الدّنيا هو المعارِفُ والمعاييرُ الضّروريّةُ لمَعْرفة النّفس. كُنتُ أَنشُدُ في أيّام العُمر القليلة أن أقلِّلَ، في مجال المعرفة، الإحساسَ بالجَهْل والإحساسَ بالحقارة، كان لَدَيَّ شَوقٌ كبيرٌ إلى أن أعرفَ أساسَ وجودِ المخلوقات كلّها معرفةً جيّدة.

في يومٍ منَ الأيّام، في دمشقَ، قال لي أحَدُ طلَبةِ العلوم الدّينيّة إنّه يعْرِفُ عارفًا يؤدّي كلَّ يومٍ صَلاةَ الفَجْرِ في المسجِد الحَرام، ويجلِسُ قُربَ الرُّكنِ الشّآميّ حتّى تُشْرِقَ الشّمْسُ مِن المَشْرِق، وبعدَئذٍ يَطوفُ، ويُصَلِّي ركعتَين في مَقام إبراهيم، ثمّ يؤدّي صلاةَ الظُّهْرِ في المدينة، وصلاةَ المغرب في طُور سَيناء، ويؤدّي صَلاةَ العِشاء عندَ سَدِّ ذي القَرْنَين، ويبقَى اللّيلَ كلّه هناك حتّى الفَجْرِ، ثمّ يذهَبُ مرّةً أخرى إلى المسْجِد الحَرام في مكّة.

وكُنتُ أقولُ في نَفْسي: كيفَ يمكنُ بالقُدْرةِ العظيمةِ للتّقوى والعبادة أن يصبحَ الإنسانُ مِثْلَ الطّائر، ويتخطّى الزّمانَ والمكان. في وقتٍ مِنَ الأوقات، كُنتُ أقرَأُ المُحادثةَ المؤثِّرةَ المُحبَّبة بينَ إبراهيمَ بنِ أَدْهَمَ وشقيقٍ البَلْخيّ. وفي تلكَ المُحادثةِ سألَ شَقيقٌ إبراهيمَ بنَ أدْهَمَ:

ـ ماذا تفعَلُ في شأنِ المعاش؟ ـ فأجابَ إبراهيمُ:

ـ إذا وَصَلَ شيءٌ شكَرْتُ، وإذا لم يَصِلْ صبَرْتُ.

فقالَ شَقيقٌ بابتسامةٍ ساخِرة:

ـ كِلابُ بَلْخَ أيضًا تفعَلُ الشّيءَ نفسَه، إذا وُجِدَ شيءٌ تُراعي ذلكَ فتحرِّكُ أَذْنابَها، وإذا لم يُوجَدْ شيء صبَرَتْ.

فسألَ إبراهيمُ بتعجّبٍ:

ـ وماذا تفعلونَ أنتُم؟ فأجابَ شَقيقٌ على الفَور:

إذا وَصَلَ إلينا شَيءٌ قَسَمْناهُ بينَ النّاس، وإذا لم يصِلْ إلينا شيءٌ شكَرْنا اللهَ. فقامَ إبراهيمُ، وقبَّلَ رأسَ شَقيق.

[١٨٢] كُنتُ أقولُ: هذا التّحمُّلُ والصّبرُ والاستقامةُ والإيثارُ، كُلُّها، مِن أينَ اكتسبوها؟ أيمكِنُ الحصولُ علَيها بالرّياضاتِ والمُجاهَدات؟

في وقتٍ مِنَ الأوقات سمعْتُ سِيرةَ الشِّبْليّ، العارفِ الكبير، مِن أَحَد الأصدقاء، وفيها أنّ الشِّبليّ قالَ في رُؤياه:

ـ أينَ السّماواتُ والأرضُ لِكَي أرفعَها بأهدابِ عَيني؟

فقُلْتُ في نفسي: ما هذه القوّةُ الرّمزيّةُ المعنَويّة العظيمة التي أُودِعَتْ في وجودِ الشِّبليّ؟

كان صاحِبُ كتاب «أَسْرار التّوحيد»(*) يقولُ للنّاس: إنّ كُلَّ ضُروبِ الوَحْشة والقَلَقِ مصْدَرُها النّفسُ الأمّارةُ؛ فإنْ لم تقتُلْها قتلتْكَ.

فقُلْتُ في نَفْسي: هذه النّفسُ السّافِكةُ لِلدَّمِ، الأمّارةُ، التي تطلُبُ دائمًا ضَحِيّةً، كيفَ لي أن أُروِّضَها؟

قرأتُ السِّيرةَ المؤلمةَ لِحُسَينِ بنِ منصورٍ، الحلّاج، وعلمْتُ أنّه كان يعتقدُ أنّ في رأسِ المولودِ الجديد مِن البَشَر رُوحًا، وبينَ عينَيه نُورَ مُناجاةٍ، وفي أُذُنه نُورَ يقينٍ، وفي لِسانه نُورَ بَيانٍ، وفي صَدْرِه نُورَ إيمان. وكُلُّ مَن شاء الله تعالى أن يَهديَه لِنُورِه، كُلُّ مَن شاء أن يقوّيَه بِنُوره، أَوصَلَه إلى عالَم الغَيب.

فكُنتُ أقولُ في نَفْسي: أينَ عالَمُ الغيب(١)؟ ـ أيّةُ سَماءٍ فيه؟ ـ كيفَ يجِبُ السَّيرُ إلى عالَم الغَيب؟

قرأتُ رِسالةً لِشَيخ الإشراق(**) في مَوضوع «أَصْحابِ التّجْريد». إذ يعتقِدُ الشّيخُ أنّ أصحابَ التّجْريدِ هم مِن السّالكينَ الحقيقيّين لِطريق العِرْفان، ولهم مَقامٌ خاصّ. يُنَحُّونَ العَلائقَ المادّيّةَ جانبًا، ويصبحونَ مِن ذوي التّجْريد المَحْض، خارِجينَ مِن الفَرْشِيّينَ، مُتّصِلينَ بالعَرْشيّينَ، متمسّكينَ بِوَصْل المحبوب، وفانينَ في ذاته، ويصِلُونَ إلى حَيثُ:

---

* ـ العنوانُ الكاملُ للكتاب هو: «أَسْرارُ التوحيد في مقامات الشّيخ أبي سعيد» وقد ألّفَه محمّدُ بنُ مُنَوَّر بن أبي سعيد، حفيد الشّيخ أبي سعيد بن أبي الخير، في أحوال الشّيخ ومَقاماته [المترجم].

١ ـ غَيرُ رَبيع الدّنيا، هناكَ رَبيعٌ خَفِيٌّ وَجْهٌ قَمَريٌّ وثَغرٌ جميلٌ، فهاتِ الشّرابَ، يا ساقي

(ديوان شَمْس: الغزليّة ٢١٢)

**ـ هو يَحْيى بنُ حَبَش بن أَميرَك الملقَّبُ بـ«شهاب الدّين»، و«شَيخ الإشراق»، و«الشّيخ المقتول»، و«الشّهيد»، أبو الفتوح، الحكيمُ المعروف، مُحْيي حكمة الإشراق. له عددٌ من التّصانيف بالعربيّة والفارسيّة. قُتِلَ في حلب سنة ٥٨٧هـ

عنـــدَما يَبْكـــي، تَغـــدُو الـــسّماءُ باكيـــةً

وعندَما يَشْكو، يَغدُو الفَلَكُ مُردِّدًا: يا ربُّ[١]

كُنتُ أقولُ في نَفْسي: كيفَ يتيسَّرُ الحصولُ على هذا المَقام؟ ـ مِن أيِّ طَريقٍ يجِبُ الوصولُ إلى عالَم التّجْريد؟

كُنتُ سمِعْتُ أنّه ما دامتِ الحياةُ الدّنيا وأهلُها موجودينَ، يكون هناك أَوْلياءُ لله، وهؤلاءِ أشخاصٌ بِطَرْفة عَينٍ يَطيرونَ إلى سِدْرَةِ المُنتهى. وهذا السّؤالُ كان وراءَ أن أتفحّصَ عالَمَ الباطن، أو أنشَغِلَ بِتقييم العالَمِ الخارجيّ[٢]. في إِحْدى اللّيالي كُنتُ أقرَأ في كَلام الإمامِ الثّالث[*] عندَ الشّيعة فوَصَلْتُ إلى هذه الجُملة:

إلهي، تَرَدُّدِي في الآثارِ يُبعِدُ مُشاهدتَك عَنّي. إلهي، لا تمنَعْ عِنايتَكَ عَنّي لِكَي أَمْضيَ إلى جَنابِكَ في النّهاية في غايةِ الشّوق!

فمَنْ ذا الذي يُوضِحُ لي هذه الآثارَ بما تنطوي عَلَيه مِن أَسْرارٍ؟

وقبْلَ لِقائي شَمْسًا، في اللّيالي التي كانَتْ تَلُفُّ كُلَّ مكانٍ بالصَّمْتِ، وفي وَحْدَتي، شغَلَتْني الفِكَرُ والأسئلةُ والأَسْرارُ الصّوفيّةُ بنَفْسي، وجعَلَتْني تحتَ تأثيرها القويّ.

كُنتُ أحتَرِقُ بِشُعَلِ الأسئلة، وأَذوبُ. أحيانًا كان صَوْتٌ مُحَبَّبٌ ينتهي إلى سَمْعي، هذا الصّوتُ كان يجذِبُني ويجعَلُني مؤمِّلًا، وصِرْتُ أكثَرَ مَحَبّةً واشتياقًا لِعِنايات الحقّ، سُبْحانَه.

---

١ ـ المثنوي: ٥/٤٩٢.

٢ ـ في هذه اللّيلةِ المظْلِمة ضَلِلْتُ طريقَ المقصودْ فاطْلُعْ عَلَيَّ مِن رُكْنٍ، يا كوكبَ الهِداية
وفي كُلِّ ناحيةٍ ذهَبْتُ إليها، لَمْ أزدَدْ إلّا حَيْرةً فَحَذارِ مِن هذه الصَّحْراء، ومن هذا الطّريقِ اللّامُتَناهي

* ـ هو الإمامُ الحُسَين بن عليّ بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنهما.

كُنتُ في دِمَشْقَ، وكان طُلّابُ دَارِ العِلْمِ التي كُنتُ أَدرُسُ فيها في يومٍ مِنَ الأيّام يناقشونَ غَزَليّةً لِفَخْرِ الدّين العِراقيّ:

مِنْ جديدٍ كسَرْنا التّوبةَ

وتحرَّزْنا مِن غَمّ الشُّهْرةِ وعَارِها،

وانتَطَقْنا حِزامَ العِشْقِ واستعدَدْنا له،

وفي الحاناتِ، مع الشَّرابِ والمعشوق،

جلَسْنا عُشّاقًا مُرتاحينَ.

أولئكَ الطّلّابُ كانوا يقولونَ: كيفَ يُجيزُ هذا الرَّجُلُ لِنفْسِه أن يتركَ الافتخارَ بالتّقوى والصّلاح، وبِتَواقُحٍ يجلسُ إلى جانبِ المعشوق، وينهَمِكُ بتعاطي الشَّراب؟ لاشكّ في أنّه إمّا أبلَهُ، وإمّا مجنونٌ، وإمّا مُشْرِكٌ.

أمّا أنا، الذي كُنتُ قد قرأتُ مِرارًا دِيوانَ سَنائيّ، فكُنتُ أعلَمُ أنّ العِراقيَّ أيضًا لَدَيه حُرَقٌ، [١٨٤] وهيَجانٌ ورسالةٌ في قَلْبه، الأمورُ التي كان أَهْلُ الأَسْرارِ يعرفونها. غزَليّاتُ فَخْرِ الدّين العِراقيّ كانَتْ عِندي أنغامَ اشتياقٍ جعَلَتْني ثَمِلًا بِصَهباءِ الشّوقِ المعنَويّ. زَمْزَماتُ العارفينَ، وحِكاياتُ الصّوفيّة، حمَلَتْني على مَزيدِ القراءةِ في الكُتُب المتّصلة بهذا الموضوع.

ذكَرَ رُواةُ الأَخْبار أنّه، في يومٍ مِنَ الأيّام، كان الشِّبْليُّ وجماعةٌ مِن أصحابه منشغلينَ بذِكْر الله تعالى. وفي أثناء ذلكَ، تقدّمَ رَجُلٌ باحترامٍ، وجلَسَ في أَسْفلِ المَجْلسِ، وكان قد وضَعَ عَلَى رأسه قَلَنْسُوَةً صُوفيّة، وارتدَى رِداءً خَشِنًا. لم يعْرِفْ أحَدٌ في ذلكَ المجْلِس الرَّجُلَ الوافِدَ تَوًّا. سألَه الشِّبْليُّ: أيّها الرَّجُلُ، بِكَمْ دِرْهَمًا اشتريْتَ هذه القَلَنْسُوةَ وهذا الرّداء؟

فأجابَ: اشتريْتُ هذا اللِّباسَ بالدُّنيا وما فيها. وبعْدَئذٍ غضِبَ، ونظَرَ إلى الشّبليّ بقَسْوةٍ وقالَ: لا تَتواقَحْ، فإنّ لله عِبادًا لَوْ أشاروا لَصارَتْ سَاريةُ هذا المسْجِد فِضّةً بيضاءَ.

ويُروَى عنِ الشِّبليّ أنّه قالَ: في تلكَ اللّحْظة عَرَتْني رِعْدةٌ اجتاحَتْ وجودي كلَّه، ونظَرْتُ إلى سَارية المجْلِس فشاهدتُّ تلكَ السّاريةَ التي اتّخذَتْ لَوْنَ الفِضّة.

فكَيفَ يمكِنُ بنَظْرةٍ واحِدةٍ تغييرُ ماهِيّةِ الأَشْياء؟ ـ أولئكَ الذين يجعَلُون التّرابَ ذَهَبًا، أيُّ بَشَرٍ هُمْ؟

نُقِلَ عن الشّيخِ عَبْدِ الله الأنصاريّ أنّه كان يعتقِدُ بأنّ حياةَ المعرفة شيءٌ، وحياةَ البشَريّة شيءٌ آخَر، وأَهْلُ الدّنيا يَحْيَونَ بالحياةِ البشَريّة، والمُحِبّونَ يَحْيَون بِحَياة المعرفة. وحَياةُ البشَريّةِ تنتهي عندَما تنتهي الدّنيا، ويجيءُ الأجَلُ، أمّا حياةُ المعرفةِ فلَيْسَ لها نهاية.

فمَنْ ذا الذي يُمسِكُ بيدي، ويأخذُني إلى فَضاءِ حياةِ المعرفة؟

قالوا لي (أنا جَلالَ الدّين) إنّ مُرْتاضِي الهند اعتبَروا عالَمَ الوجود[1] بَحْرًا مِن

---

١ ـ ذكَرَ الأستاذُ فُروزانْفَر في شَرْح المثنويّ أنّ الوُجودَ حقيقةٌ واحدةٌ وفريدةٌ ومقتضاهُ نَفْيُ العَدَم ووجوبُ الأثر. وهذه الحقيقةُ ذاتُ وَجْهَيْن: وَجْهٌ على جِهة الإطلاق وعَدَمِ الشّرْط، وذلك الوجودُ هو الحقُّ. ووَجْهٌ على جهة التّقييدِ والتّعيين، وذلك هو الخَلْق. ولذلكَ، الحقُّ والخَلْقُ حَقيقةٌ واحدةٌ، وإنّما الكثْرةُ هي ظُهورُ مَرْتبةِ الإطلاقِ في مراتبِ التّقييد والتّعيين. وذلكَ أمرٌ إضافيٌّ ونِسْبيّ. وبناءً على ذلكَ، الحَقُّ في ذاته موصوفٌ باسْمِ الباطن، وفي مرتبةِ الخَلْق موصوفٌ باسْمِ الظّاهر. وهذا الاختلافُ في الاسْمِ، لا في أَصْلِ الحقيقة. والسّالكُ عندَما يَفْنَى عن ذاته هو وصفاته، بمَعْنَى أنّه لا يَرَى فاعِلًا مؤثِّرًا إلّا اللهَ سُبحانه، يمكِنُ شُهودَه أن يَقْوى، وأن يُرفَعَ حِجابُ التّعيُّنِ والكَثْرة [١٨٥] مِن أمام عَينَيه. وفي تلكَ الحالِ يَرَى الخَلْقَ بعَيْنِ الفَناء، ويصِلُ إلى حقيقة أنّه يشاهدُ وَجْهَ الخَلْق اعتباريًّا وفانيًا في وَجْه الحق. ويُسَمّي الصّوفيّةُ هذه الحالةَ «الفَناء الذّاتي».

وكان مَوْلانا يؤمِّلُ أن يكونَ عندَه «مُرادٌ»، بوساطته يَسْبحُ في بحر النّور، وفي النهاية يَصِلُ إلى مَقام الشّهود، ثمّ بمُساعدةِ شاهينِ العِشْق، الذي يقتضي دائمًا جَلاءً وظهورًا، يكشِفُ الأسرارَ، ويشاهدُ تجلِّيَ المعشوق السّرْمديّ في أَعْيان الموجودات، وفي نهاية الأمر، في شَخْصِ شَمْسٍ. معَ أنّه لا يتوقّفُ عن الطَّلَب، ويغدو ظَمْآنَ الشّوقِ، =

النّور. ويعتقِدُ السُّهْرَوَرْديُّ أنّ باطنَ وجودِ الإنسانِ نُورٌ، ولابدّ مِن الوصولِ إلى هذا النّور، ومُشاهَدةِ هذا النّور. ولكِنْ مَنْ ذا الذي سيَدُلُّني على هذا النّور؟ ليتَني امتلَكْتُ القدرةَ على أن أكتُبَ الأسئلةَ الخفيّةَ الدّاخليّة على الوَرَق، وهو ما كُنْتُ دائمًا في أمَله وربّما تتمنّاه كلُّ رُوحٍ، مِثْل الذي سألْتُ شَمْسًا: لِماذا تتحرّكُ كُلّيّةُ وجودِ الإنسان بعْدَ سَماعِه أنغامَ النّاي والدُّفّ بغتةً، وهَلْ هذه الحرَكةُ التي تَصحَبُ غالبًا الرّقْصَ والتّصفيقَ اختياريّةٌ إراديّةٌ؟ في إجابة سُؤالي، ذَكَر شَمْسٌ نظَريّةَ أبي سَعيد بن أبي الخَيْر في شأن السَّماع، إذ كان شَيْخُ مَيْهَنَة قد قالَ فائدةَ ذلكَ: لِلشُّبّانِ أَنفسٌ غيرُ خاليةٍ من الهَوى والهوَس، والهَوى يسيطِرُ على أعضاء الجِسْم جميعًا عندَهم؛ فإذا ما صفّقوا تناثَرَ الهَوى مِن أيديهم، وإذا ما رَقَصوا تضاءلَ هَوى أَقدامِهم. ولأنّه، بهذه الطّريقةِ، يتناقَصُ الهَوى مِن أعضائهم، ويستطيعونَ حِفْظَ أنفسِهم مِن كبائرَ إضافيّة، إذ عندَما تجتمعُ الأهواءُ والعِياذُ بالله تكونُ كالكَبيرة، يكونُ إطفاءُ نارِ الهَوى بالسَّماع أَوْلى مِن إطفائها بشيءٍ أَخَر. وأضافَ شَمْسٌ قائلًا: السَّماعُ يرفَعُ الإنسانَ إلى الأفق الأعلى، كالقَشّ. وعندَما يستبِدُّ الهيَجانُ بنَفْس الإنسان، يبدَأ عالَمٌ آخَرُ، جَميلٌ وجذّابٌ، بالدّوَرانِ أَمامَ السّالِكِ الدّائر.

= وظمآنَ الحلْق، على نحوٍ يبدو فيه بعْدَ شَمْسٍ أكثرَ شوقًا. وإذا لم يعشَقِ الإنسانُ فلَنْ يدرِكَ هذه الحالَ. وفي «**تَذْكرة الأولياء**» لِلْعطّار كُتِب قولُه: «كتبَ يحيى بنُ مُعاذ رِسالةً إلى أبي يزيدَ، قال فيها: ماذا تقولُ في شخصٍ شَرِبَ قَدَحَ شَرابٍ واحِدًا وصارَ ثَمِلَ الأزَلِ والأبَد؟ ـ فأجابَ أبو يَزيدَ: «لا أعْرِفُ ذلكَ، بَلْ أعرِفُ أنّ ههنا رَجُلًا يَشْرَبُ بحارَ الأزَلِ والأبَدِ في اللّيل والنّهار، ثمّ يصيحُ: هَلْ مِنْ مَزيد» [الأَصْل].

ـ ائتِني بِقَدَحٍ مِن خَمرة المجوسِ لِكَي أشربَ،
فلَمْ يبقَ عِندي رِياءٌ يدفعُني إلى التّوبة
ـ لا طريقَ عندي ولا أثرَ، لا قَلْبَ ولا دِينَ،
لا مِن أَهْلِ الدّنيا أنا، ولا إلْفُ زاويةٍ وأنينِ عاجِز.
ـ ذهبْتُ إلى الحَرَمِ لِلطَّوافِ بالكعبة، فلَمْ يسْمَحوا لي
قائلينَ: ماذا فعَلْتَ خارجَ الباب، حتّى جئتَ إلى
داخِلِ البيت؟

(فخرُ الدّين العراقيّ)

في دارِ العِلْمِ في دِمَشْق

إنّ قِراءةَ الحكاياتِ والغزليّاتِ الصّوفيّة وأقوالِ المَشايخ وأنظارِهم تَسْتلزِمُ، أن تزيدَ توقُّعاتي. وأيُّ شَيءٍ يخفَى علَيكم! كُنتُ أتمنّى أن أظفرَ بشَخْصٍ يُوصِلُني إلى مملكة الشّمْس، إلى المجرّاتِ والزُّهَرة والمُشْتري، في أماكنَ تكونُ فيها عظَمةُ الكائنات أكثرَ جَلاءً، وأكتشِفَ معارفَ أكثرَ جِدّةً ونَضارةً. كُنتُ أحيانًا أتصوّرُ أنّ الأرضَ منفًى للنّاس، وعلَينا أن نرجِعَ إلى أَصْلِنا، لا أعلَمُ لماذا كُنتُ أَبحَثُ عن مَطلوبِ رُؤيايَ في السّماوات؟

في يومٍ مِنَ الأيّام كان أُستاذي في جامِعِ دِمَشْقَ يفسِّرُ سُورةَ النّور، فوَصَلَ إلى الآية الحادية والأربعين حَيثُ قالَ تعالى:

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ».

في تلكَ اللّحَظاتِ، عرَفْتُ أنّ في السّماواتِ أيضًا أَفْرادًا مؤمنينَ معتقدينَ، وأنّ عِبادَ الله لَيْسُوا محصورينَ فقط في فَضاء الأرض.

تابعَ الأُستاذُ كلامَه: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...» نَعَمْ، اللهُ ينيرُ السّماواتِ

والأرضَ. الشّمْسُ والقمَرُ، معَ أنّهما يُنيرانِ بأَنْوارِهما العالَمَ، يُحيطُهما أَحْيانًا الكُسوفُ والخُسوفُ بِغِشاوةٍ مِنَ الظُّلْمة، أمّا شَمْسُ العِلْمِ وأَنوارُ التّوحيدِ، اللّذانِ مَحَلُّهما قُلوبُ المؤمنينَ، فلَنْ يُصيبَهما الكُسوفُ والخُسوف. أَنْوارُ التّوحيدِ طُلوعٌ بِلَا غُروبٍ، وإِشْراقٌ مِن مَقام القُدْس.

في ذلكَ الوَقْت، قالَ أحَدُ التّلاميذ لِلْأُستاذ: هَلْ لِلنُّورِ في تجلّياته أنواعٌ؟

[١٨٧] أجابَ الأستاذُ: نَعَمْ، نُورُ الإيمانِ، ونُورُ الإخلاص، ونورُ الصّدق، ونُورُ اليقين، التي هي المنازلُ في طَريق الشّريعة. سألَ التّلميذُ: وهَل لَدَيكم دَليلٌ وعَلامةٌ لِنُورٍ آخَر؟ فقال الأُستاذُ: لا، ما هو في الكُتُبِ وفي مَقاماتِ المؤمنين وفي شَرْحِ الأنوار المضبوطِ، وشاهدتُّه، هو هذا الذي قُلْتُه. وإن كُنتَ أنتَ تعْرِفُ نُورًا آخَرَ فاذكُرْه لنا.

قالَ التّلميذُ وهو يحَمْلِقُ في الأُستاذ:

ـ لِأَهْلِ الحقيقةِ والعارفينَ نُورٌ آخَرُ أيضًا، ولهم أيضًا حالٌ آخَرُ، ويُسمَّى هذانِ: نُورَ الفِراسة، وحالَ المكاشفة.

قطَعَ أُستاذُنا كلامَ التّلميذ وقالَ: ما قُلتُه هنا هو نُورُ العظَمةِ والجَلالِ، أمّا النُّورُ والحالُ اللّذانِ كُنتَ تتحدّثُ عنهما فلَمْ أقرَأْهما في الكُتُب الموجودة. واللّائقُ أنّ الشّيءَ الذي لم يُوقَفْ عَلَيه في الكُتُب لا يُتحدَّثُ عنه. لا مجالَ هنا لِلْبَحْث في المَسْموعات، والبرهانُ القاطعُ هو مَحَلُّ الاهتمام.

ومِثْلَ ظَمْآنَ مُشتاقٍ ومُصِرٍّ، كُنتُ أَنشُدُ نُورَ الفِراسة؛ لِكَي أكشِفَ عالَمَ المُشاهَدةِ أيضًا، تحتَ لِواءِ ذلك النُّور. وقد انتهى الدّرْسُ. وفي يومٍ آخَرَ سألْتُ التّلميذَ العارفَ:

ـ نُورُ الفِراسةِ هذا، ما علاماتُه. فإنّكَ بِكَلامِكَ رَسَمْتَ عالَمًا مملوءًا بالدّهشة والغَرابة

في أُفق فِكَري.. أجّجْتَ نارَ الاشتياق في قَلْبي.. ألقى نَظْرةً فاحِصةً ونافذةً في وَجْهي، وفي لَحظةٍ واحِدةٍ انزلَقَ نظَرُه مِن عَيني إلى وَجْهي وجَسَدي، كأنّه كان يريدُ أن يتفحّصَ عالَمَ وجودي، المظْلِمَ والمضيء. ثمّ ضَحِكَ، وهَزّ رأسَه وقالَ: سأقولُ كُلَّ شيءٍ في المستقْبَلِ، خاصّةً الأسرارَ الخفيّةَ لِلْعالَم الرّمزيّ والأفلاك، إذا كُنتَ مستعِدًّا، وأحسَسْتَ بِأنّكَ مُسْتعِدٌّ، سأوضِحُ لَكَ ذلكَ. ثمّ انصرَفَ، ولم يَعُدْ يحضُرُ دروسَ الأستاذ.

تذكّرْتُ أيّامَ طُفولتي، عندَما لم تكُنْ سِنّي تتجاوَزُ السّادسةَ، إذ وَصَلْتُ بصُحْبةِ والدي، سُلْطانِ العُلَماء بهاء الدّين وَلَد، إلى نَيْسابورَ عندَ العارِفِ والشّاعر الكبير فَريد الدّين العَطّار. قَلَبَ لِقاؤنا هذا كُلَّ شَيء في حياةِ الشّيخ، وعَلَى حِين غِرّةٍ فقَدَ هدوءَه، وقالَ لِوالِدِي:

ـ سَريعًا، سيُضْرِمُ ابنُكَ هذا النّارَ في قُلُوبِ محترقي العالَم.

ظَلَّ الألَقُ الشّبيهُ بالبَرْقِ لهذا الكَلامِ يضيءُ وُجودي كُلَّه حتّى الآنَ، ودائمًا أقولُ لِنَفْسي: أينَ كانُونُ النّارِ هذا؟ـ والمحترِقونَ في العالَم مَنْ هُمْ؟ وكان جَيَشانُ نَفْسي، وخفَقانُ [١٨٨] قَلْبي، يدَحْرِجُني مِن سِرٍّ إلى سِرٍّ آخَر. في مُخْتَلَى ذِهْني طغْيانٌ فِكْريٌّ أَبعَدَ هدوءَ الخَيالِ وراحتَه عن وجودي. أُريدُ أن أكونَ إلى جانِبِ الموجودات الخارجيّة، أَخْرُجَ مِن الفَضاءات القريبة، وأَعرُجَ إلى السّماوات، وأَنزِلَ في القَمَر وفي النُّجوم، وفي الهدوء المحبَّبِ لذلكَ المكانِ أنشَغِلُ بسَيْرِ الأبديّة. لكنّ هذه جَميعًا كانَتْ أَحْلامًا لذيذةً، إلى أن طَلَعَتْ شَمْسُ رُوحي في سَماء حياتي المُظْلِمة. ظهَرَ شَمْسٌ في أُفق حَياتي. جاء قريبًا مِنّي. صاحَبَتْني ضَرَباتُ كَلامِه الأُولى في السَّير نحْوَ إدراكٍ صَحيح. كانَ كَلامُه نافِذًا ومُثيرًا للدّهشة. كأنّه كان

عارِفًا، منذُ سِنينَ، لِأَخْفَى أسئلةِ عَقْلي وأَعمقِها. ولعلّ الحياةَ وعِلَلَ الحياةِ كانَتْ عندي أكثرَ المُشْكلاتِ والمسائل إبهامًا وغُموضًا، وقد مزّقَ شَمْسُ التَّبْريزيّ هذا الحجابَ، وكانَتْ لَدَيه قُدرةٌ روحيّةٌ خارقة. كُلُّ العُلَماءِ والأساتذة الذين كُنتُ أعرفُهم في جامعِ دِمَشْقَ، لم تكُنْ لديهمُ القدرةُ على مُواجَهة أسئلتي، وكانوا دائمًا يتفادَونَ مواجهتي الفكريّة. أمّا شَمْسٌ فإنّه، بِلُطْفِ كَلامِه، أوضَحَ لي العالَمَ الرّمزيّ. وبتقديمِ معرفته، حَلَّ لي عُقَدَ كثيرٍ مِن المعَمَّيات. أوضحَ لي فِكَري البعيدةَ والعميقةَ، فأحطتُّ بمبادئ الثقافة العِرْفانيّة، وتفتّحَ رُوحي. علّمَني التّحليلَ العِرْفانيّ، ووَصَفَ لي القُدرةَ السِّحْريّةَ لِلْعِشْق، التي هي رصيدٌ راسخٌ لِلْحَياة. وقد خُلِقْتُ مِنْ جديد، كأنّ جَوهرَ وجودي مصنوعٌ مِن العِشْق. وأَستطيعُ أن أُعلِنَ أنّ شَمْسًا التَّبْريزيّ أتى بي إلى ساحةِ الوجود، مِن جديد.

أَحَدُ مُمثِّلي المحفِل الرّوحانيّ في قُونِيةَ قالَ بامتعاضٍ:

ـ لا، لا، هذا البيانُ يَرُدُّ الأُصولَ كُلَّها ويُخَطِّئُها. أنتَ شيخُنا، الكلامُ مِن دُون منطِقٍ لَيْسَ مِن شأنِ فَقيهٍ مثْلِكم؛ وأنتُم تُظهِرونَ أنفسَكم مُضَحِّينَ مِن أَجْلِ إحساساتٍ مُتَزَيِّدٍ فيها، بعيدةٍ عن العَقْل.

مَوْلانا العظيم، تَصِفونَ شَمْسًا كأنّكم تَصِفون إلهًا[1]، وتَرسُمونَ شَخْصيّةً [١٩٠]

---

١ ـ ذكَرَ شَمْسُ التَّبْريزيّ في كتابه «**المقالات**» ما يأتي:

«يرجِّحُ جَماعةٌ مِن الفلاسفةِ الملائكةَ على بعض الأنبياء، إذ ينتقِصُونَ الأنبياءَ مِن ناحية أنّهم انشغلوا بالنّاس، ويقولونَ: إنّ الملائكةَ غاروا مِن الرُّسُل، فوجّهوهم إلى الدّنيا، وأرسَلُوهم لنصيحة الخَلْق، قائلين: إنّ هذا ابتعادٌ عن الحقّ تعالى ولَيْسَ احتجابًا. وأمّا مُعْجِزاتُ الأنبياءِ فيقولونَ في شأنها: ما هو منها معقولٌ نقبَلُه، وما هو غيرُ معقولٍ نرفضُه. العقْلُ حُجّةُ الله، وحُجَجُ اللهِ لا تتناقض. ونقولُ: إنّ المعجزةَ هي عَيْنُ أنّ عقولَكم لا تستطيعُ إدراكَ كيفيّتها، [١٨٩] والمعجِزةُ ما يَعجِزُ العَقْلُ عن إدراكه، والعقْلُ حُجّةُ الله، ولكنْ عندَما لا تستعملُه على وجهه يبدو متناقضًا. وبسببِ وجُودِ الاثنتَين والسَّبعينَ مِلّةً، تختلِفُ العقولُ وتتناقض. فمثَلًا أسأَلُ شَخْصَين: كَمْ يُساوي =

= ضَرْبُ اثنَينِ في اثنَين؟ ـ الاثنانِ كلاهما يذكرانِ جَوابًا واحِدًا بِلا خِلافٍ، لأنّ التفكيرَ في ذلك سَهْلٌ. وعندَما تَسأَلُ: كَمْ حاصِلُ سَبْعةٍ في سَبْعةٍ، أو سَبْعةَ عشَرَ في سَبْعةَ عَشَرَ؟ يختلفُ ذانِكما العاقِلانِ؛ لأنّ التفكيرَ في ذلك أصعبُ (مقالات شَمْس تَبْريز، تحقيق د. موحِّد، ص ١٩٢).

وعندَنا، لا يستطيعُ إنسانٌ أن يغدُوَ مُسْلِمًا دَفْعةً واحدةً، يُسْلِمُ ثمّ يُسْلِمُ مِن جديد، وفي كُلّ مرّةٍ يخرُجُ شيءٌ من الهوى إلى أن يكتملَ. قالَ: تعالَ معَنا نُحْيِ اللّيلَ معًا. قُلْتُ أذهَبُ في هذه اللّيلة إلى ذلكَ النّصرانيّ الذي وَعَدتُّه بأن آتيه ليلًا. قالوا: نحْنُ مسْلِمونَ وهو كافرٌ، فتعالَ معَنا. قلْتُ: لا، هو في السّرِّ مُسْلِمٌ؛ لِأَنّ لَدَيه تَسْليمًا، وأنتُم لَيْسَ لَدَيكم تَسْليمٌ؛ الإسْلامُ تَسْليمٌ. قالوا: تعالَ، فإنّ التّسْليمَ يحصُلُ بالمصاحَبة. قُلتُ: إنّه لَيْسَ ثمّةَ حِجابٌ مِن ناحيتي، بِسْمِ الله، جرِّبوا. بَدَأَ أحَدُهم فقرأَ: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ..» (الإسراء/ ٧٠)، فوثبَ مِن فَمي: اصْمُتْ، فلا نصيبَ لكَ مِن هذه الآية، أينَ أنتَ مِن قوله تعالى: «... وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ » ؟.

أرادَ أَنْ يسألَ فقلْتُ: أيُّ سُؤالٍ يصِلُ إليكَ عنّي ؟ ـ أيُّ اعتراضٍ؟ ـ أنا لا أتمسَّكُ بِمُريد. ألَحّوا عليَّ: نغدو مُريدينَ، أعطِنا الخِرْقةَ. فَرَرْتُ منهم، جاؤوا خَلْفي إلى المنزل، وما أَتَوا به ألقوه هنا، ولم تكُنْ ثمّةَ فائدةٌ، وانصرَفْتُ» (مقالات شَمْس، ص ٢٢٦).

عندي جَماعةٌ مِن التّلاميذ، وابتغاءَ المحبّةِ والنُّصْح كنتُ أكلِّمهم بِشَيءٍ مِن الغِلْظة، فكانوا يقولون: عندَما كنّا صِغارًا عنْدَه لم يكُنْ يشتُمُ، لَيْسَ عندَه إلّا المحبّةُ... أَغْلَبُ خاصّةِ الله سبحانَه، هم أولئكَ الذين كَراماتُهم خفيّةٌ، لا يتّضحُ لِكلّ شَخْصٍ كيفَ تكونُ خفيّةً، هي أشياءُ لا أستطيعُ التحدّثَ عنها، قِيلَ ثُلُثُها. يبالغونَ فيقولون: إنّ فُلانًا كلَّه لُطْفٌ، هو لُطْفٌ مَحْضٌ، يظنّونَ أنّ الكمالَ في ذلكَ، لا. مَنْ يكونُ كلُّه لُطفًا ناقصٌ، لا يجوزُ البتّةَ وَصْفُ الله سُبحانَه وتعالى بأنّه لُطْفٌ مَحْضٌ. هذا سَلْبٌ لِصِفةِ القَهْر، بَلْ لابدّ مِن اللُّطْف والقَهْر، وهذا الذي لا يعرِفُ موقعَه له أيضًا قَهْرٌ ولُطْفٌ، لكنّه لا يعرِفُ موقعَه هَوًى وجَهْلًا... (مقالات شَمْس).

إذا عرفَني إنسانٌ معرفةً جيّدةً، وصَدَق مَعي، فسيصِلُه منّي اطمئنانٌ وراحةٌ، وسيرتاحُ منّي كثيرًا، وفي النهاية يَعِنُّ له ما لَمْ يعِنَّ لي...

وجهةُ مَوْلانا إلينا... الشَّمْسُ التي تُضيءُ العالَمَ كلَّه. تَرَى النّورَ الذي يخرُجُ مِن فَمي، ويُشِعّ مِن كلامي تحتَ الحرْفِ الأسود. هذه الشّمْسُ نفسُها ظَهْرُها إليهم ووَجْهُها إلى السّماوات، ونُورُ السّماواتِ والأرضِ منها، وَجْهُ الشّمْسِ إلى مَوْلانا؛ لأنّ وَجْهَ مَوْلانا إلى الشّمْس: «لَنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا» (مقالات، ص ٧٢٥).

مَوْلانا أيضًا أنشدَ في شأن عظمةِ شَمْس:

أنشدُ حَبيبًا، أنشدُ غارًا، أنشدُ عِشقًا آكِلًا لِلْكَبِد — أنتَ الحبيبُ، أنت الغارُ؛ أيُّها السيِّدُ، احفَظْني

أنتَ القَطرةُ، أنتَ البَحْرُ، أنتَ اللُّطْفُ، أنتَ القَهْرُ — أنتَ السُّكَّرُ، أنتَ السُّمُّ، فلا تؤذِني أكثرَ

أنتَ اليومُ، أنتَ الصَّومُ، أنتَ حاصِلُ جَنْيِ الشَّحّاذ — أنتَ الماءُ، أنتَ الكُوزُ، فاسْقِني هذه المرّةَ

أنتَ الحَبّةُ، أنتَ الفَخُّ، أنتَ الخمْرُ، أنتَ الكأسُ — أنتَ النّاضِجُ، أنتَ الفِجُّ، فلا تترُكْني فِجًّا

أنتَ الحُورُ، أنتَ النُّورُ، أنتَ الفِرْدَوسُ المعمورُ — أنتَ الذي صاحِبُه مَسْرورٌ، أنتَ الإمامُ والقائدُ المِقْدامُ لي =

شَبيهةً بالمُخَلَّدينَ، وكأنّه تَجْسيمٌ حقيقيٌّ لِما جاء في كلام كِبار عُلماء الدّين، وممتَلِكٌ لِقُدراتٍ تفوقُ قُدراتِ البشَر. أنتَ بهذا القَولِ والعَمَل، وسيلةٌ وسُلَّمٌ لِعُروجِ شَمْسٍ إلى قُدراتٍ مَعْنَويّة، وتَرى في شَمْسٍ شخصيّةً استثنائيّة؛ أمّا نَحْنُ فنعُدُّه هو وكلامَه بذْرةً للظُّلمةِ والسَّواد.

وقد شوّهَ الحقائقَ، وبِحَذْلَقاتِه ونَسْجِه لِلْكَلام أَحْدَثَ في حَياتِك طُوفانًا. ونحنُ نعلمُ أنّه كان لِأَمدٍ مَديدٍ تِلْميذًا لِسَحَرةِ دِمَشْقَ وبغدادَ، ولدَيْه مَيْلٌ إلى أن يُعطيَ لآماله ورَغائبه صُورةَ مَشْربٍ، وأن يعمَلَ وَصِيًّا لمَذْهَب. وكان بإحساسِه وإدراكِه الناقِصَين يُريدُ أن يُشيعَ الاضطرابَ والنِّفاقَ بينَ الناس، ثمّ بعْدَ ذلكَ، ينتظِرُ كالبُومِ زَوالَ المجتمعِ البشَريّ. كُلُّ المَسائِلِ التي ذكَرْتُموها هي في الأعمّ الأَغْلَبِ أَحْلامٌ مُبْهِجةٌ، لكن الحقيقةُ شيءٌ والرُّؤيا شَيءٌ آخَر. وأنتُم لا تقدِرُون على اعتبارِ شَمْسٍ حامِلَ لِواءِ مَدْرسةِ التّجلّي والظّهور. إنّ شَمْسًا أَحْقَرُ مِن أن يتخطّى في هذا الوادي. وأنتُم ـ مِثْلَ الآخرينَ ـ خُلِقتُم مرّةً واحدةً، وعندَما يأتي الأجَلُ المحتومُ ستودِّعونَ الدّنيا. والآنَ أرى في وجودِكم صِراعًا قويًّا بينَ الإحساس والإدراك. فتعالَوا واسْتَعيدوا هُدوءَكم، تعالَوا واجعَلُوا وجودَكم في تصرّف العَقْلِ. أنتُم الآنَ لَدَيكم شخصيّتانِ مختلفتانِ ومنفصِلةٌ إِحْداهما عن الأُخرى: ذاتُكم وذاتُ شَمْسٍ، اختارُوا إحداهما. وقد كُنتُم وجودًا مفعَمًا بالافتخارِ والعظَمةِ والمُباهاةِ بين العُلَماء، وقد بلَغَتْ سُمْعتُكم الطّيّبةُ أقصى المعمورة. ومِنَ المؤسِف أنّ شَمْسًا قد لَوّثَ سُمعتَكم وشَخْصَكم بالطّين. وأنا أقولُ هذا بِمَحبّةٍ وأُخُوّةٍ وحميميّة. وكُلُّ فَعاليّةٍ مُخالفةٍ لِلْعَقْل، وكُلُّ اهتمامٍ وعنايةٍ

= أنتَ شَمْسٌ التائِرُ السُّكْر، أنتَ مفْخَرُ تَبْريز أنتَ المعجونُ من عُطورٍ مختلفة، أنتَ السيِّدُ الذي يعطّرني
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ٣٧)

بأفرادٍ مِثْلِ شَمْس، هو شِرْكٌ وكُفْرٌ عَلَنِيٌّ. لا قدّرَ اللهُ أن يكونَ إبليسُ عَرَضَ في طَريقكم بلِباسِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ!

وهذا أَوانُ أن تَخرُجُوا مِن هذه الوَرْطة المفْزِعة. وعندَ أَهْلِ قُونِيَةَ، ما خَبَرٌ أكثَرُ إثارةً وحَلاوةً وتأميلًا مِن خَبَرِ تغييرِ فِكْرِكم ومَشْرَبكم. وإذا ما قُلْتُ إنّكم تركْتُم شَمْسًا وأَعْرضتُّم عنه، فإنّ أهْلَ قُونِيَةَ سيزيِّنونَ المدينةَ ابتهاجًا بِسَماعِ هذا النّبأ الرّائع، وسيكونُ ذلكَ خَبَرًا مُسْعِدًا جدًّا.

اعلَموا أنّ العُروجَ والارتقاءَ المعْنَويّ سيكونُ ممكِنًا وميسَّرًا بمَعُونةِ شاهينِ العَقْل، ذلكَ العَقْلُ الذي يحرِّرُ رُوحَ الإنسانِ وجِسْمَه مِن سَوادِ الحياة وظُلْمتها، الذي يغدو مَبْعَثًا لِسُكونِ الخاطِرِ واطمئنانِ البال.

[١٩١] لا تدَعْ شَمْسًا يواصِلْ تَحْليقاتِه السِّحْريّةَ في فَضاءِ عَقْلِكم وعُقولِ أبنائكم ومُحِبِّيكم. سَهْلٌ جِدًّا في هذه اللّحَظاتِ أن تُصَمِّموا على إخراجِ تَلْقيناتِه مِن ساحة ذهنكم؛ فهذا الذي تقولونَه وَهْمٌ وخَيالٌ وظَنٌّ، ولاشكّ في أنّه لَيْسَ وارداتٍ قَلْبيّةً، بَلْ إلقاءاتِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ. أَطْفِئوا مِصْباحَ الخيالِ هذا في داخلكم. وإذا ما ظَهَرَتْ حالةُ جَذْبٍ في كِيانكم، فإنّ العَقْلَ يقتضي أن تَصْرِفوا النّظَرَ عنها. كونوا لا مُبالينَ؛ لِكَيْ تستردّوا الطُّمأنينةَ الرّوحيّة. ومِنَ الأَفْضَلِ أن تُسْلِموه لنا، لِكَي نُعَرِّي أمامَ عينَيكم الشّخصيّةَ الحقيقيّةَ لِشَمْسٍ بالبَحْثِ المنطِقيّ والعِلْميّ؛ فلَيْسَ لَدَيه أيّةُ رِسالةٍ جديدة لِكَي يقولَها للنّاس. وهو غَريبٌ في مظْهَرٍ جَذّابٍ، ويجِبُ تحقيرُه أمامَ النّاس. وإنْ وافقتُم فسلِّموهُ لأولئكَ لِكَي يحاسِبوه؛ أو مِن أَجْلِ نَجاته، حكّموا أنتمُ العقلَ وأخرجُوه مِن المدينة باحترامٍ، في جِنْحِ الظّلام.

أَحَدُ الضّيوفِ قالَ بوقاحةٍ: إِنْ أَذِنتُم لنا بإخراجه فنَحْنُ أنفسُنا نعْرِفُ كيفَ نُخرِجُه، أو في هذا المكانِ نفسِه نُسْقِطُ هذا المبتدِعَ السّاحِرَ مِن الوجود والحياة.

جَلالُ الدّين البَلْخِيُّ الشّاعِرُ العارِفُ، الذي كُلُّ آثارِه وأَشْعارِه مَجْلًى لِلْعِشْقِ والمحبّةِ وحُسْنِ التّفكيرِ وحُسْنِ العَمَل، هزّ رأسَه وتمتَمَ:

إنّ شَرَرَ الحَسَد والتّعصّب في قُونِيةَ لا حَدَّ له!

ـ تأخّرَ الوَقْتُ، تأخّرَ الوَقْتُ، دخَلَتِ الشَّمْسُ في البئر
دخَلتْ شَمْسُ رُوحِ العُشّاقِ في خَلْوةِ الحقّ
ـ الدَّمْعُ الذي أَحْرَقَ العينَ، الصَّبرُ الذي أَحْرَق البيدر
العقلُ الذي كان يرشِدُ إلى الطّريق، ضاعَتْ في متنصَف اللّيل
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّتانِ ٥٢٤، ٥٢٥)

شَمْسٌ يُجِيبُ والِدَه

هذا الكَلامُ القاسي، المتوعِّدُ المهدِّدُ، كأنّه قد ألقَى غِلالةً مِن الألَمِ والحَزَنِ على قَلْبِ جَلال الدّين البَلْخيّ، فكان أنينُ القَلْبِ يصِلُ إلى أُذُنِه كصَوْتِ النّاي. كان لَدَيه صَدْرٌ مزّقَتْه الجَهالةُ والعَصَبيّةُ لَدَى أَدْعِياءِ قُونِيَةَ القُساةِ القُلُوب، الذين كان شيطانُ الشّرِّ مُشاهَدًا تمامًا في أَعْينهم التي يتطايرُ منها الشَّرَر. فَقَدِ اعترفوا على نَحْوٍ صَريحٍ ووَقِحٍ بأنّهم مُصمِّمونَ على أن يواجِهوا شَمْسًا بالعَداوة والخُصومة. وكان لَدَى جَلال الدّين البَلْخيّ كَلامٌ للقَوْل، وقدرةٌ لِلْمُبارزة والاحتجاج؛ ولهذا السّبب قالَ بهدوء:

ـ أنتُم أَصْحابُ جَدَلٍ، وأنا أُريدُ أن تعْلَموا الحقائقَ، وأنتُم مِن غير اهتمامٍ بِأُصولِ الحِوارِ والبَحْثِ والنّقاش تقطعونَ كَلامي. أنا، إِكْرامًا لكم ولِلضّيوفِ الرّوحانيّينَ ولهذا المجْلِسِ، أتحمّلُ كُلَّ انفعالاتي وتأثّراتي التي أُحِسُّ بها مِن سَماعِ اسْمِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ، مضطَرًّا مِن دُون إبداءِ رَدّ فِعْلي. ائذَنوا لي أَنْ أتحدّثَ عن هذا الشّعاعِ الرّمزيّ الملَكوتيّ، الذي أضاءَ لِأَمدٍ مَديدٍ كُلَّ زَوايا وجودي. أُريدُ أن تعْلَموا، أنتُم وأصحابُكم والذين لا يعرفونَ شَمْسًا، أَنّني وشَمْسًا لَيْسا ساحِرَين ولا مَسْحورَيْن، ولا نَحْيا بِالأحلامِ والأخيلة الواهنة. فالخَيالُ شيءٌ لَيْسَ له وجودٌ خارجيٌّ، ثمّ إنّنا لَسْنا مَيّالينَ إلى العَقْل، ولكنّنا غيرُ قادرينَ عَلَى إنكار عَظَمةِ الفِكَر اللّامحسوسة، التي

تَلْمَعُ في ذِهْن الإنسان وقَلْبه، [١٩٣] ويمكِنُ أن تصْنَعَ عوالِمَ. وتعْلَمونَ أنّ حَضْرةَ عيسى، علَيه السّلامُ، والحَوارِيّينَ وجَماعةً مِن مُحِبّي حَضْرتِه، ذهبوا إلى الصّحراء حَيثُ لم يَرَوا سِوى كُثْبانِ الرّمل والحَصَى. وهناكَ، طلَبَ أَصْحابُ حَضْرةِ عيسى، علَيه السّلامُ، مِنه طَعامًا. فقالَ حَضْرَتُه: ارفَعُوا أَيدِيَكم بالدّعاء؛ لِكَي يشْمَلَنا اللهُ بعنايته الخاصّة. فدَعا حَضْرةُ عيسى، وقالَ لِأَصحابه: سَريعًا ستنزِلُ مائدةٌ مِن السّماء إلى الأَرْض، بِشَرْطِ أنّه بعْدَ مُشاهدتها لا تتخلّلُ أنواعُ الشّكّ والشُّبهة قلوبَكم كالسُّوس، ويغدُو اعتقادُكم أكثَرَ رُسوخًا وثَباتًا.

انشغَلَ عيسى وصَحْبُه بالدّعاءِ، وبَغتةً بُسِطَ سِماطٌ عَلَيه أَطْعِمةٌ عَلَى الأرض، فبدَؤوا جميعًا بِالْتِهامِ الطّعام باشتهاءٍ، وتهامَسُوا: هذا المشْهَدُ لَيْسَ حقيقيًّا، هذه جميعًا سِحْرٌ وخِداعٌ، ونحْنُ سُحِرْنا. وفي النّهاية، مَسَخَ الحقُّ تعالى هؤلاءِ القومَ.

أحبّتِيَ الأَعِزّاَء، مِن أَجْل فَهْمِ كَلامِ شَمْسٍ ومعرفةِ مَراتبه العِرْفانيّة، علَيكم ابتداءً أن تصقُلوا قُلوبَكم لِكَي تُدرِكوا الحقائقَ عارِيةً ومنطقيّةً. فِلأَنّ قُلوبَكم مملوءةٌ بِأَصْداءِ الشّكّ والشُّبْهة تَرَونَ أنّ الحقائقَ التي أتحدّثُ عنها مِن قَبيل السِّحْر والشَّعْبذَة، أو تظنّونَ الأمرَ كذلكَ. إنّ شَمْسًا التَّبْريزيَّ مَدّاحٌ لِجلالِ الوجودِ الإلهيّ وعظَمته، وأنا دائمًا أَسْمَعُ أَصْداءَ شَمْسٍ، وستَسْمعون هذه الأصداءَ الصّافيةَ والمثيرةَ حين تكونُ لدَيكم آذانٌ كأُذُني، وقُلوبٌ كقَلْبي، هادئةٌ صافية. وستعرِفونَ عندَئذٍ، أنّ هذه الأصواتَ المقدَّسةَ الملَكوتيّة تحذّركم مِن العَبَثِ والباطِلِ، واعتبارِ رِجالِ الحقّ سَحَرةً. إنّ رِجالَ الحقّ مأمورونَ بإيصالِ الصّوتِ الأساسيّ لِعالَم الخَلْق إلى آذانِ عُشّاقِ طَريق الحقّ. وهذه وظيفةٌ أو رِسالةٌ لِرجالِ طَريقِ الحقّ الخاصّين.

العارفونَ، ومِنهم شَمْسٌ، يعتقدونَ أنّ كُلّ خَيالٍ أو وارِدٍ قَلْبيّ يغدو سَببًا لِوَلَههم وانشغالِ خَواطرهم، ويعوقُ سَيْرَهم نَحْوَ الكمال المطْلق، هو نَوْعٌ مِن العَدَم، ويَجِبُ التحرُّرُ مِن قَيْد هذا النّوعِ مِن الشّواغِلِ والتعلُّقات. والعِرْفانُ الحقيقيُّ عندَهم هو زيادةٌ في الطّلَب. حُكِيَ عن أبي يزيدَ أنّه قالَ: عَدّوا لنا أكثَرَ مِن عشرينَ مَقامًا، فقُلْتُ: لا أُريدُ أيًّا منها؛ فإنّ هذه المَقاماتِ جميعًا حُجُبٌ، ولو أُعْطِيتُ صَفاءَ آدَمَ وشَوْقَ [١٩٤] مُوسَى وطَهارةَ عيسى (علَيهم السّلامُ) لَمَا رَضِيتُ، ولَطَلَبْتُ ما وراءَ ذلكَ. عَلَى الإنسانِ أن يكونَ صاحِبَ هِمّةٍ، وأن يَسْعَى لِكَي يستقرّ في حَيِّزِ جاذبيّة العِشْق:

قالَ: إنّ أَحْوالَنا شَبيهةٌ بِبَرْقِ الدّنيا:
حِينًا ظاهرةٌ، وحِينًا آخَرَ خَفِيّةٌ
حِينًا أَجْلِسُ فَوقَ قُبّةِ السَّماء
وحِينًا لا أرى حتّى ظَهْرَ قَدَمي

إنّ عُشّاقَ طَرِيقِ شَمْسٍ التّبْريزيّ لهم حالٌ آخَر، ونَظَرٌ مختلِفٌ، وعندَما ينظرونَ إلى كَلامِه بِعَينِ القَلْب يَرَون أنوارَ الهداية، وعندَما يَسْمعونَ كَلامَه بِأُذُن الشُّهودِ يشاهدونَ المحبوبَ عِيانًا. اسْمَحوا لي بأن أُنْهِيَ تعجُّبَكم وتحيُّركم مِن كلامي، اسْمَحوا لي بأن أَرسُمَ مِن قَوله هو، الذي أَعُدُّه صادِقًا ومُخْلِصًا، صُورةً له أضعُها أمامَ أَعْينكم. وأبدَأُ مِنْ عَهْد طُفولته؛ فإنّه في أَحَد أَقواله التي تذكّرَها سُلْطانُ وَلَد، ابني، صرَّحَ:

«في عَهْدِ الطّفولةِ حصَلَتْ لي واقِعةٌ عجيبةٌ. ولَمْ يكُنْ أَحَدٌ يعْلَمُ بِحالي، حتّى والِدي لم يكُنْ على عِلْمٍ بِحالي. وفي يومٍ مِن الأيّام قالَ لي والِدي بِلَهْجةٍ آمِرة:

ـ يا وَلَدي[1]، يقينًا لَسْتَ مجنونًا، ولَسْتَ أيضًا مُرْتاضًا، لا أَفْهَمُ حقيقة تصرُّفِكَ وسُلوككَ، فما مَشْرَبُكَ الحقيقيُّ؟

فقُلْتُ:

ـ اسْمَعْ مِنّي كلمةً واحِدةً، إنّ حالَكَ معي تُشْبِهُ حالَ مَن وَضعَ بيضَ طائرٍ مائيّ، كالبَطِّ، تحتَ طائرٍ منزِليٍّ، فحضَنَها الطّائرُ الأَهْليُّ، ثمّ خرجَ مِنها صِغارٌ مِن طائرِ البَطّ. وقد كبِرَتْ صِغارُ البَطّ هذه، وذهبَتْ معَ أمّها إلى شاطئ نَهْرٍ، وأَلْقَتْ بِأنفسها في الماء. أمُّها، الطائرُ المَنزليُّ،تذهَبُ إلى شاطئ النّهر، ولكنْ لا قُدرةَ لها على دُخولِ الماء.

فيا والِدي، اعْلَمْ بِأنّني أَرى بَحْرًا صار هو مَرْكَبي. وهذا هو ظَنّي وحالي: إذا كُنتَ أنتَ مِنّي، أو أنا مِنْكَ، فادْخُلْ في ماءِ البَحْرِ هذا، وإلّا فاذهَبْ كما يذْهَبُ الطّائرُ الأهليّ.

أَلْقَى والدي عَلَيَّ نَظْرةَ تعجُّبٍ وقالَ:

ـ مَعي، أنا الحبيبَ، تفعَلُ هكذا، ماذا ستفعَلُ معَ العَدُوّ؟

ويقولُ شَمْسٌ إنّه تأثّرَ من كَلامِ والِدِه، وتأسّفَ لِأنّه لم يفهَمْ حقيقةَ كلامه، ولم يعرِفْ أيّةَ شُعْلةٍ كانت تَحْرِقُ وجودَه.

أيُّها السّادةُ، شَمْسٌ لَيْسَ شخصًا رَمْزيًّا، شَمْسٌ يجِبُ أن يُعْرَفَ بِكُلّية وجودِه، وإذ ذاكَ [١٩٥] ستدخلونَ بَحْرَ معرفته. اعلَمُوا يقينًا بِأنّني لا أتحدّثُ عن أُسطورةٍ وخُرافة، لا أُريدُ لِبَياني أن يكونَ تَمثيلًا ذا رَوْنقٍ فقط، أُريدُ أن تعرِفوا، أنتُم وأهلُ قُونِية، شَمْسًا معرفةً صحيحةً. أنا مُجرَّدُ مُشاهِدٍ لمَسْرَحِ حَياته المملوءة بالأَحْداث. هو رَجُلٌ

---

١ ـ مقالات شَمْس تَبْريزي، بتحقيق محمّد علي موحِّد، ص ٧٧.

يعطي شَكْلًا لِلْحَوادِثِ والظّواهِرِ، مِنِ اختلاطِ القُبْح والحُسْن، القَبيح والحَسَن، ويَفُكُّ أغلالَ التّعصّبِ والخُرافات، التي عرفَتْها القرونُ، عن أيدي السّالكينَ وأقدامهم، ويخلُقُ الولَهَ والهُيامَ والعِشْقَ والافتتانَ، ولَدَيه كلامٌ خاصٌّ ولُغةٌ مختلفة عن لُغات الآخَرين. وإنْ كُنتُم لم تَملّوا كلامي فَأْذَنوا لي بِمُواصَلة شَرْحِ حَياته. وافقَ الضّيوفُ بِهَزّ رؤوسهم عَلَى أن يواصِلَ مَوْلانا حديثَه.

كان شَمْسٌ في سِنِّ بُلوغِه قَليلَ الطّعام وقليلَ النّوم، وكان حَزينًا، ومتفكّرًا. فقيلَ له: لماذا لا تأكلُ؟ ـ لماذا تَنامُ قَليلًا وتصْحُو في اللّيالي؟ ـ فأجابَ شَمْسٌ، ذو الفِكْر السّامي، أُمَّهُ: أُريدُ بالتأثيرِ في جِسْمي والنَّظَرِ في الوجود أن أُدْرِكَ الحقائق؛ لِكَي أستطيعَ أن أتحدّثَ عن الخالِقِ الذي خَلَقَ العالَمَ مِن دُون وَساطة. وتعهَّدَ شَمْسٌ بِأن لا يأكُلَ ولا ينامَ حتّى ينجِزَ هذه المُكالَماتِ والتّساؤلات. فقد قالَ: سآكُلُ وسأنامُ فقط عندَما أعلَمُ: كَيفَ جِئْتُ، وأينَ أذْهَبُ، وكَيفَ تكونُ عاقبتي؟

كان شَمْسٌ يريدُ، في تِلْكَ السِّنّ، أن يُستغرَقَ دائمًا في حَلّ المَسائلِ في مكاشَفةٍ لَذيذةٍ متّصلةٍ، وأن يشاهِدَ في خِضَمِّ عِشْقٍ يحْرِقُ رُوحَه وجِسْمَه الحقيقةَ المطْلَقة. شَمْسٌ مُسْلِمٌ كاملٌ. في يومٍ مِن الأيّام قالَ لي: أتعلَمُ لماذا يشتاقُ الناسُ إلى تَحصيلِ العُلُوم؟ هذا الطُّنُب [الحَبْلُ، أي حَبْلُ العِلْم] مِن أَجْلِ أن يَخرُجوا مِن بئر الظُّلْمة، لا مِن أَجْلِ أن يَنزِلوا في آبارٍ أُخَر. ثمّ خاطَبني وواصلَ القولَ:

ـ أَلِحَّ في طَلَبِ أن تعْلَمَ: مَنْ أنتَ؟ ـ أيُّ جَوْهَرٍ أنتَ؟ ـ ولِماذا جِئتَ إلى هذه الدّنيا؟ ـ وأين ستذهَبُ؟ ـ وأَصْلُكَ مِن أينَ؟

كان شَمْسٌ مُخْلِصًا، وصادِقًا، في طَلَب هذا المُراد. شَمْسٌ في دُنياه المملوءةِ بالصّداقة والحقيقة والصِّدْق كان لَدَيه فهْمٌ آخَرُ لِلْحوادث. ويجِبُ أن تعْلَموا أنّ لِشَمْسٍ إِسْهامًا كبيرًا في تَكوُّنِ شَخصيّتي الجديدة. ولِأنّني أَمْضي في الطّريقِ الذي

مَضَى فيه، أُحِسُّ بالاعتزاز والافتخار(١) [١٩٦].

العِـــــشْقُ والوَلَـــــهُ في أَسْـــــرارِنا
هُـــوَ شُـــغلُنا الـــشّاغِلُ؛ لِأَنّـــه حَبيبُنـــا
وقَدِ انتهَتْ نَوْبةُ بائعي الأَسْمالِ والأَلْبسةِ القديمة
ونَحْـــنُ بـــائعُو الجديـــد، وهـــذا سُـــوقُنا

---

١ ـ جاءَ في «**مناقب العارفين**» للأفلاكي قولُه:

نُقِلَ عن الشّيوخِ القُدَماءِ أنّ شَمْسًا التّبْريزيّ كان يُسمّيه شُيوخُ الطّريقة وعارِفو الحقيقة في مدينة تَبْريزَ: كامِلًا التّبْريزيّ، أمّا جماعةُ المسافرينَ مِن أَصْحاب القُلوب فيسمّونه: الطّيّار؛ لِما عُرِف عنه مِن قُدرةٍ على طَيّ المَسافات، أو «طيِّ الأرض».

وفي «**المناقب**»، قال أَوْحَدُ الدّين الكَرْمانيّ عن شَمْسِ التّبْريزيّ إنّه:

«شخصٌ في مدينة قَيْصَريّة، كانوا يُسمّونَه «كامِلًا التّبْريزيّ»، وقد هَامَ وانجذَبَ، وكان السُّلْطانُ عَلاءُ الدّين وجُمْلةُ الأُمَراء يُكرّمونَه ويحترمونَه ويُعِزّونه، وكانوا يعتقدونَ بِولايته وصَلاحه، وكان صاحِبَ باطنٍ وقوّة جَاذِبةٍ عظيمة، وكان كلامُه مَقْبولًا عندَ الخَلْق...». وجاء في «**مناقب**» الأَفْلاكيّ في وَصْفِ شَمْسِ التّبْريزيّ، مِن قَوْلِ مَوْلانا جلال الدّين:

«كامِلُ التّبْريزيُّ مِنْ أَبْدالِ مدينة قُونِيةَ، وهو أَسْمَى منزِلةً بِعدّةِ دَرَجاتٍ مِنَ الفقيه أحمد [الفقيهُ أحمَدُ أحَدُ العارفينَ المعاصِرينَ لِأَوحَد الدّين الكَرْمانيّ]. وما أكثرَ ما كانَ كامِلُ التّبْريزيُّ يدخُلُ قُصورَ السّلاطينِ والأُمراء مِن غير أن يَرَاه الحُجّابُ والبَوّابون، ويَمُرّ، ويأتي إلى مجالِسِ السُّلْطان، ويأخذُ أَدَواتِ المجْلِس، ثمّ يخرجُ، ولا تكونُ عندَ أحَدٍ الجُرأةُ والقُدْرةُ على أن يقولَ شيئًا. وكان بعضُ الأكابِرِ مِن ذوي البصيرة يُسمّون مَوْلانا شَمْسَ الدّين: سيفَ الله...»

وقد قالَ شَمْسُ التّبْريزيُّ في كتابه «**المقالات**»: «الشّخْصُ الذي فَهِمَ حَديثي عَلامتُه أنّ حديثَ الآخَرينَ يغدو عندَه غثًّا بارِدًا ومُرًّا، ولَيْسَ ذلك بِمَعْنى أنّه يغدُو عندَه باردًا ويظلّ معَ ذلكَ يتحدّثُ معه، بَلْ بِمَعْنى أنّه لا يستطيعُ أن يتحدّثَ معَهم». **مقالات شَمْس تَبْريزيّ**، ص ٧٤. أصحابُنا يَسْكرونَ مِن كأسِ شَراب، وذلكَ خَيالٌ شيطانيّ، خيالُ المَلَكِ نفسُه ههنا لَيْسَ بشيء، فكيف بخيالِ الشّيطان؟! نَحْنُ غيرُ راضينَ حتّى عن عَيْنِ المَلَك، فكيفَ بخَيالِ المَلَك. الشّيطانُ نفسُه ما هو، حتّى يكونَ لخيالِ الشّيطان قيمةٌ؟! لِمَاذا لا يكونُ لِأَصحابِنا إدراكُ لِعالَمِنا الذي لا نهايةَ لِطَهارته؟ ـ يَصنَعُ أولئكَ النّاسَ لا يفهمونَ، جَهَلةً حَمْقى... لأنّ لمَوْلانا سُكْرًا بالمحبّة، لا صَحْوًا بالمحَبّة. أمّا أنا فَلِي سُكْرٌ في المحَبّة، وصَحْوٌ في المحبة. ولَيْسَ لي نِسْيانٌ في السُّكْر. أيُّ جُرأةٍ للدّنيا على حَجْبي، أو عَلَى الذّهاب مِنّي في حِجاب. **مقالات شَمْس تَبْريزي**، ص ٧٩.

وشَـمْسُ التَّبْريـزيُّ، بِنُـورِ ذي الجَـلالِ الـذي معَـهُ،

هـو في العـالَمَـــينِ كِلَيهمـا أَسـاسُ إيمانِنـا[١]

١ ـ ديوانُ شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ٤٢٤.



ـ يا رَبِّ، تلْكَ الشّفةُ الشّبيهةُ بالياقوتِ السُّكّريّةُ،
كَمْ هي جَميلةٌ!
يا رَبِّ، ذلكَ الوَجْهُ الرّقيقُ، كَمْ هُوَ جَميلٌ!
ـ وإذا أنتَ [أيّها الإنسانُ] لَمْ تُصدّقْني
فاطْبَعْ على شَفَتِه قُبْلَةً، وانظُرْ كَمْ هي جَميلة!
ـ وما لا يتّسعُ له العالَمُ
في وَسَط القَلْبِ الحزين، كَمْ هُوَ جَميل!
فخرُ الدّين العِراقيّ

ما مَعنَى الرِّنْدِيّة والقَلَنْدَريّة؟

قَبْلَ لِقائي شَمْسًا، أنا أيضًا ـ مَثَلي مَثَلُ آلافِ النّاسِ على وَجْهِ الأرض ـ كُنتُ أُغِذُّ السَّيرَ نحْوَ القَبْرِ والفَناء دُونَما هَدَفٍ، ودُونَما إدراكٍ حقيقيٍّ لِفَلْسفة الحياة. وانحصَرَتْ أَهْدافي وآمالي، في السَّعْيِ لِتأَمينِ المعاشِ والحياةِ الكريمة والاحتفاظِ بالمَقام والمنزِلة العَلِيّة، في دار العِلْم الكُبرى في الرّوم الشّرقيّة. الشّيءُ الوَحيدُ الذي شغَلَني هو قِيلُ وقالُ المدْرَسةِ [عِلْمُ الظّاهر]، أمّا في خَلَواتي معَ شَمْسٍ التَّبْريزيّ فقد تغيّرَ رُوحي تمامًا. حدَثَ شيءٌ شَبيهٌ بالمُعْجِزة في الارتقاء؛ تقدّمْتُ نحْوَ الأبَديّة، نحْوَ الشُّهودِ والخلودِ المطْلَق، حتّى كأنّني طِرْتُ في السّماوات. ولهذا السَّبب، وضعْتُ زِمامَ رُوحي في يَدِه، في فَضاءِ الحقيقة الذي لا حدودَ له. وبهذا الصَّنيعِ كان وجودي كُلُّه شَمْسًا، تجاوَزْتُ الأمورَ المجهولة. فِكَرُ شَمْسٍ غيّرتْ وجودي كُلَّه؛ فآراءُ شَمْسٍ هي مظهَرٌ لِصَفاءِ القَلْب، ولِكَمالِ العَقْل والعِلْم والبصيرة.

في صِغَري، في خُراسانَ الكُبرى، التقيتُ شَيْخًا مُشْرِقَ الضّمير في حُضور والدي، كان ذلكَ الشّيخُ يقولُ:

ـ أتعلَمُ مَتى يكونُ القَلْبُ مسرورًا؟ ـ عندَما يكونُ الحقُّ ناظِرًا. أتعلَمُ مَتى يكونُ القَلْبُ مسرورًا؟ ـ عندما يكون الحقُّ حاضِرًا.

يعتقِدُ شَمْسٌ أيضًا أنّه عندَما ينهَضُ الإنسانُ لِلْبَحْثِ والطَّلَب، ويتخطّى حُدودَ الغُرور والعُجْب، سيمضي إلى عالَمٍ ينشَغِلُ فيه غَوّاصُو جَوْهَرِ الحِكْمة بالسِّباحة. فإذا ما صارَ اللُّؤلُؤ صَيْدًا، وحُصِلَ عَلَيه، فهذا أَوانُ أن [١٩٨] يصِلَ إلى أُذُنِ القَلْب هذا النّداءُ:

[١٩٨] ـ عَيْنُ الأنبياءِ البَصيرةُ، هي التي أضافَتِ الإنسانَ المتّقيَ المتعفّفَ، الإنسانَ العارِفَ الموحِّد في الأرض، إلى جَماعةِ أَصْحاب القُلُوب.

أَحِبّتِي الأعزّاءَ، إنّ شَمْسًا التَّبْريزيَّ يَعُدّ عِبادةَ الذّاتِ والتّعصّبَ كُفْرًا وضَلالًا، ويقولُ: عِبادةُ اللهِ، أو التّوحِيدُ الحَقُّ، يعني أن يتحرّرَ الإنسانُ مِنْ عِبادة نفْسِه. وهذا هو بَيانُ شَمْسٍ، وهو تصويرُ شَمْسٍ. هذا هو الكَلامُ المملوءُ بالمحبّةِ والصَّميميّة والتّقوى والعِشْق. وهو لا يؤمِنُ بِالخُرافات، ويرتقي عَلَى دَرَجاتِ سُلَّمِ المعرفة. ويُحْرِقُ الأخيلةَ الواهِيةَ، والأهواءَ النّفسانيّة، في إرادته الإيمانيّة. ويعتقِدُ شَمْسٌ أنّ البِناءَ في الهَدْم، أو الصُّنْعَ في الحَرْق.

وفي هذا العُروج المَعْنَويّ، يجعَلُ كُلّيّةَ وجودِه رَمَادًا في شُعَل نارِ الإخلاص، ويصْنَعُ وجودًا آخَرَ، ويقولُ: العِمارةُ في الخَراب.

كان شَمْسٌ يُصارِعُ العناصِرَ التي يطغى عَلَى وجودِها الأنانيّةُ والتكبُّرُ والنّفاقُ والرّياء، التي استبدّتْ بِعالَم الإسْلامِ والإنسانيّة في قُونِيَةَ، كأنّها المَوْجُ المتلاطِمُ. وقد أَفْشى لي أسرارًا جديرةً بأن تُسْمَع. لم يحصُلْ شَمْسٌ على إيمانه وإخلاصِه الدّينيّ بالأدلّة الجافّة الفَلْسفيّة المزعِجة، بَلْ أدركَ الحقائقَ بِمُساعَدةِ العِشْق. فتَحَ العِشْقُ

عينَ قَلْبه، وفِكَرُه جَديدةٌ، وأكثَرُ العارفينَ الذين كان لَدَيهم في الماضي فِكَرٌ جديدةٌ ظلّوا مَحَلَّ كراهيةِ الحاسِدينَ والمتعصِّبينَ. شَمْسٌ يؤمِّلُ في مستَقْبَلٍ قريبٍ جدًّا أن يخلِّصَ فِكَرَ أَهْلِ قُونِيةَ مِن الجَهالات، ويقْلِبَ عالَمَهُمُ الخارجيّ رَأْسًا على عَقِب، ويشوِّقَهم إلى المَيْلِ إلى الباطن. ومِن أينَ لي في كُلّ لَحظةٍ أن أقدِرَ عَلَى قَولِ الحقائق المتعلّقة به. وإذا ما وافقَتْ أَرْواحُكم رُوحِي، فإنّ أرواحَكم ستنشَغِلُ بالسَّيْرِ في الآفاقِ والأنفُسِ، كالطّائر الخفيف الجَناح. اعلَموا يقينًا أنّكم ستُدرِكونَ المَدارَ الذي تَدورُ فيه فِكَرُ شَمْسٍ المُتعالية.

في إِحْدى اللّيالي، في خَلْوةِ المنزِل، قُلْتُ لِشَمْس:

ـ تصرّمَتْ عُقودُ عُمُري في قِيلِ البَحْثِ والدَّرْس وقالِهِ، لكنّني لم أُدْرِكْ شيئًا عن الحقائق. الحياةُ طافِحةٌ بالأَسْرار والمَجاهيل، وقد ثار وجودي لِزَمنٍ طويل عَلَى مُعَمَّيات الحياة. ولولاكَ لَمَا عَلِمْتُ ماذا أفعَلُ بالضّلالات. ظهَرَتْ قَطَراتُ الدّمْع في عينَي مُرادي، مُرْشدي، شيخِ طريقتي، شَمْسٍ، فأنشَدَ:

أَظلُّ أُسْرِعُ في طَلَب الحبيب،

[١٩٩] وقد وَصَلَ عُمري إلى النّهاية، وأَنا في غَمرة منامٍ،

وسأفترِضُ أنّني سَأَظْفرُ بوِصالِ الحَبيب

مِنْ أينَ لي أن أَظْفَرَ بذلِكَ العُمُر الذي انقضَى؟[١]

إضافةً إلى ذلكَ، الحَياةُ العِرْفانيّةُ حَياةُ خُلودٍ غيرُ قابِلةٍ للفَناء، ولَيْسَ لِلْمَوت والفَناء في هذه الحياة تأثيرٌ وثَباتٌ، والإنسانُ العارِفُ يصْنَعُ كلَّ شيء ويشاهدُ كلَّ

١ـ رُباعيّات مَوْلانا جلال الدّين، الرباعية ١١١٩.

شيء. ودُنيا العِرْفانِ دُنيا عَلاقاتٍ وارتباطات، وهَوْلُ المَوتِ والفَناء في هذه الدّنيا في مجالِ الفَهْمِ يُبَيَّنُ ويُعْرَفُ مِن عالَمٍ آخَر، هو عالَمُ الخلود.

شَمْسٌ التَّبْريزيُّ عارِفٌ باحِثٌ طالِبٌ لِلْحَقيقة، لا يهتاجُ قلْبُه إلّا لِكَشْفِ الحقائق. لَدَيه مَيْلٌ إلى أن يتقدَّمَ الآخَرونَ، مثْلَه، في مَنازِل السَّيْرِ إلى الله، سُبْحانَه. لم أكُنْ أبدًا مقهورًا لِتصرّفه، لكنّني صِرْتُ على الدّوامِ مَسْحورًا بِكَلامِه المؤيَّد المدلَّل علَيه، ومنجَذِبًا إليه. ولابدّ لنا مِن أن نعْرِفَ الخالقَ سُبحانَه معْرِفةً صحيحةً؛ أي أن نعْرِفَ عظَمتَه، ونتضرّعَ إليه. وربّما يُسأَلُ هذا السّؤالُ: كيفَ يكونُ ذلكَ؟ والإجابةُ المختصَرةُ لهذا السّؤال هي:

نُريحُ ضَميرَنا، ونجْلُو باطِنَنا مِن الشّكّ والتردّد، ونغدُو طاهِرينَ، لِكَي نُدْرِكَ وَحْدةَ أجزاءِ العالَم ونظفرَ بالشُّهود. يقولُ شَمْسٌ: المُرادُ مِن التضرّع مُحادَثةُ الحقّ تعالى، وعَلَى الإنسانِ أن يكلِّم رَبّه، وأن يناجيَه. وهذه المُناجاةُ، وهذه المحادثةُ، تُستجابُ مطالبُها عندَما يكونُ قَلْبُ الإنسانِ غيرَ مُشوَّش، ومُزالًا عنه صَدَأُ الأهواءِ والشّهَوات:

مَتَى تضَعُ قدَمَكَ فوقَ سَقْفِ الفَلَك؟

ومَتَى تَحتسي الخمْرَ مِن كأسِ شَراب الملَك؟

ومِنْ أَجَلِ جاهِ طاعةِ الله سُبْحانَه

طَهِّرِ المكانَ واللِّباسَ والرّوح

وما دُمْتَ لم تكنِسِ الطّريقَ بِمِكْنَسةِ «لَا»(*)

مَتى تدخُلُ قَصْرَ «إلّا الله»؟

* ـ يريدُ نَفْيَ ما سِوى الله سبحانه، الذي يفيدُه مطْلَعُ الشّهادة: «لا إله..» [المترجم].

أَحْرِقْ كُلَّ شيءٍ ما خَلَا الحقَّ، وهاجِمْهُ

أَزِلْ كُلَّ شيء من تلكَ الأشياءِ غيرَ الدّين[1].

[٢٠٠] يَرى شَمْسٌ التّبْريزيُّ أنّ السَّيرَ والسُّلوكَ هو طاعةٌ مِن دُون رِياءٍ أَمامَ الخَلْق، وتقويةٌ للرّوحِ، وتنقيةٌ لِلْقَلْب، فهَلْ هو غيرُ مُسْلِم؟ - هَلْ تَعُدُّونَه غيرَ عابدٍ لله، وهو يقولُ: إذا استمَعْنا إلى أَمْرِ القَلْبِ وجَدْنا، يقينًا، أنّ النّاسَ جميعًا يتوجّهونَ إلى الدّين الفَذّ، الذي هو عبادةُ الحقّ؟

إذا شاءَ إنسانٌ أن يطّلِعَ عَلَى أَسْرارِ الحياة، ويعلِّمَ الآخَرينَ أيضًا الطّريقَ لِتَعرُّفِ أنفسِهم وذَواتهم، هَلْ يكونُ ساحِرًا؟ إنّ شَمْسًا، مِن دُونِ أن يكونَ لَدَيه مَيْلٌ إلى إيجاد الفُرْقةِ والتّنافُر، صوّرَ تصويرًا رائعًا الحياةَ الحقيقيّة لِمُحِبّي طريقِ الحقّ والحقيقة. شَمْسٌ مُنادٍ ومُدافِعٌ فعّالٌ عَنِ العِرْفان بِمَحبّةٍ، وبهذا الأمَلِ أَحَبَّ كثيرًا أن يدعوَ النّاسَ إلى عالَمِ العِشْق، ويجعَلَ نُورَ الإيمانِ في قُلوبهم أكثرَ اتّقادًا. شَمْسٌ عاشِقٌ للإنسانيّة والنّاس. وإدراكُه الإنسانَ الكامِلَ لَطيفٌ، وعَميقٌ، ويستحقُّ الثّناء. وهو مخترِعُ الألفبائيّة، التي بِفَضْلها يمكِنُ فَهْمُ كلِّ العِلَلِ والمعلولات ومَظاهر الحياة. والمُحِبُّونَ لِشَمْسٍ، مَثَلُهم مَثَلُه، يصوِّرونَ الصّفاتِ الإنسانيّةَ على خَير وَجْهٍ. في اللّحَظاتِ التي أمضَيتُها في خَلْوةِ شَمْسٍ التّبْريزيّ، لم تستطِعْ أيّةُ كلمةٍ، وأيُّ صَوْتٍ، وأيّةُ عَقيدةٍ، أن تشوِّشَ الهدوءَ الممتِعَ لِجَلساتنا. حادِثةُ الرّسالةِ التي حُوِّلَتْ إليه وجعَلَتْه متشرّدًا ومُضطَرِبًا، ومتنقّلًا مِن مَحَلّةٍ إلى محلّةٍ أُخرى، ومِن مَدينةٍ إلى مدينةٍ أكبر، هي العِشْقُ. هو إنسانٌ، أو وَفْقَ ما يقولُ، خادِمٌ مخْلِصٌ يدْعُو النّاسَ إلى المحبّة والصّفاء. أَيجِبُ في عقيدتكم أن يُعَدَّ شَخْصٌ كهذا كافِرًا ومبتدِعًا؟

---

١ - مِن ديوان سَنائي [الأصل].

وهو، بِما لَدَيه مِن قُدرةٍ عَجيبةٍ عَلَى التحرُّرِ والاستغناءِ والإيمانِ القويّ، يَرَى الموتَ والحياةَ شيئًا واحِدًا. عَظَمتُه الرّوحيّةُ عَلّمَتْني أن أتخلّى عن كُلّ شيء، وأن أتعلّقَ بِالعِشْق؛ لِأَنّ:

العاشِقُ الذي يُدَلِّلُهُ العِشْقُ يَصْنعُ رُوحُه مَجْلَى ذاتِه

وينشَغِلُ بِذاتِهِ حَتّى إنّهُ لا ينشغِلُ بالمعشوقِ أيضًا

وقد رَوَى والدي بهاءُ وَلَد، الذي هو مِن مَشايخ الصُّوفيّة، في كتابه «**المعارف**» قولَه: حَيثُما يبلُغُ العِشْقُ درجةَ الكمالِ لا يمكِنُ بَيانُ كيفيّته، وكلّما تبيّنَتِ الكَيْفيّةُ ذهَبَ العِشْقُ والمحَبّةُ، وضاعَ الجَمالُ. تَعُدُّ نفسَك مُدَبِّرًا، ومُبصِرًا لِلْعاقبة، معَ أنّ أيَّ عَمَلٍ لَكَ لا يكتمِلُ. وتسألونَني: [٢٠١] لِماذا اتّجهتُ نحْوَ الرِّنْدِيّة والقَلَنْدَريّة؟ - واخترتُ هذا الطّريق؟ وإجابتُكم هي هذه:

لِأنّ مَذْهَبَ القَلَنْدَرِ هو الاستهتارُ والعِشْقُ

سَلَكْنا طَريقَ القَلَنْدَرِ بذكاءٍ ومَهارة[١]

---

١ ـ جاء في مُعْجَم اللّغات والتعْبيرات والاصطلاحات العِرْفانيّة: «القَلَنْدَرُ كِنايةٌ عن صاحِبِ مَقام الإطلاق، حتّى مِن القُيود الإطلاقيّة. وفَرْقُ ما بينَ القَلَنْدَر والمَلامتي والصّوفي، أنّ القَلَنْدَرَ يكتملُ عندَه التفريدُ والتّجريدُ، ويسْعَى في تخريب العاداتِ ومُخالفة المألوفات» (**رياض العارفين**، ص ٤١). وقد أنشَدَ العطّارُ في هذا الشأن:

أَعْتزِمُ في هذه اللّيلة، وأنا نِصْفُ ثَمِلٍ — وراقصٌ ومُمسِكٌ بِيدي بإبريقِ الخَمْرة،

أن أمضيَ إلى سُوقِ القَلَنْدَريّة — ثمّ بِساعةٍ واحِدة، أَعْبَثُ بِكُلّ ما هو موجودٌ

فإلى مَتى، بالتّزوير، أكونُ مُرْشِدًا — وإلى مَتى، بالظّنّ، أكونُ عابِدًا لِنَفْسي؟

فلابدّ مِن تَمْزيق حِجابِ الظّنّ — ولا بدّ مِن كَسْر تَوبةِ التّزوير

وقد حانَ وقتُ أَنْ أصفِّقَ بيدَيَّ — فإلى مَتَى أَظَلُّ مُقيَّدَ القَدَم

فيا أَيّها السّاقي، هاتِ مُدامًا مُبهِجةً للقَلْب — هَيّا، فإنّ القَلْبَ نهَضَ، والشّرابَ استقرّ في الرّأس

ـ أيُّها العُشّاقُ، أيُّها العُشّاقُ، أنا عاشِقٌ عاقِلٌ
ومَعَ شَمَعِ وِصالِه في الدّنيا، أنا كالفَراشة، أنا كالفَراشة
ـ وقد فقدتُ المعشوقَ، فإلى مَتى هذا الاضطِرابُ؟
لا تغفُلوا عنّا هكذا، فأنا عاقِلٌ عاقِلٌ

تجارِبُ شَمْسٍ العِرْفانيّةُ

[٢٠٢] شَمْسٌ رِنْدٌ وقَلَنْدَرٌ[1]، وقد ظَلّ لِوَقْتٍ طَويلٍ متوجِّهًا نحْوَ أَتُّونِ الحقيقة ومرْكَزِها، ولم يهتمّ بفِكَر الماضينَ، وحَتّى مؤلَّفاتُ والِدي لم يبالِ بها، وكان يقولُ: عَلَى كلّ إنسانٍ أن يكونَ في ذاته يَنبوعًا مولِّدًا لِلْعِلْم والضّياء، ويَربِطَ قطَراتِ الفِكْر ببَحْرِ الكَمالِ الذي لا ينتهي، ولا يجفّ.

لم يقدِّمْ شَمْسٌ نفسَه للنّاسِ، في قَولِه وفي فِعْله، في صُورةِ رَجُلٍ غيرِ عاديّ، ولم يَقُلْ إنّه مِنْ مَجالي الحقّ والحقيقة، بَلْ عَلَى أنّه صاحِبُ كَلامٍ جديرٍ بأن يُسْمَع وأن يُتأمَّلَ. وأنقلُ لَكُم شيئًا مِن لَحْنِه الثَّمِلِ. وعلى الإنسانِ في النّهاية أن يقدِّمَ نفسَه عَلَى نَحْوٍ يبيِّنُ صِلاتِه وعَلاقاتِه عندَما يكونُ قد فَهِمَ العالَمَ. شَمْسٌ الذي أَدْركَ جاذبيّةَ الحقيقة بِكُلّيّة وجودِه، ابتغاءَ أن يعرِّفَ شَمْسًا الحقيقيّ قالَ في إجابة أَحَد أسئلتي:

ـ اعلَمْ يا مَوْلانا أنّ ذلكَ الخَطّاطَ كتَبَ ثلاثةَ أنواعٍ مِن الخَطّ:

---

١ ـ القَلَنْدَريّونَ أَشْخاصٌ لا يبالون بنَظَرِ النّاس إليهم، ويعْمَلُونَ على مُخالَفةِ العاداتِ والرُّسوم، وفي هذا المعنى يقولُ حافظُ الشّيرازيّ:

القَلَنْدَرِيّونَ، المتحرّرونَ الباحثونَ عن الحقيقة لا يشترونَ بِنِصْفِ حَبّة شَعير
قَباءَ الأَطْلَسِ الفاخِرِ الذي يرتديه مَن لم يتحَلَّ بالفَضْلِ والبراعة

ويقول سَنائي:

قطعَ المعشوقُ عليَّ طَريقَ القَلَنْدَر — ومِن ذلكَ الطّريقِ اضطَرمَتِ النّارُ في رُوحي
[الأصل]

والرِّندُ، فارسيٌّ، بمعنى الماهِرِ والذّكيّ والجريء والمحتال، ومَنْ لا يقيم وَزْنًا لِمُتعارف النّاس [المترجم].

أَحَدُها يقرؤه هو وَحْدَه لا غير،

[٢٠٣] وأَحَدُها يقرؤُه هو، ويقرؤه غيرُه أيضًا،

وأَحَدُها لا يقرؤه هو، ولا يقرؤه غيرُه،

وذلكَ الخطُّ الثّالثُ هو أنا(١).

كان شَمْسٌ دَوِيًّا عِشْقيًّا نزَلَ مِن السّماء إلى أَرْضِ قُونِيَةَ، وأنا كُلّما سمِعْتُ اسْمَه انهلّتِ الدّموعُ الحارّةُ مِن عَينَيّ، مِن فَرْطِ الانفعالِ أَوِ الوَجْد الذي ينتابُني. فقد كان عديمَ النّظيرِ في عِلْم الكيمياء؛ وفي النّجومِ والرّياضيّاتِ والإلهيّاتِ والحِكْميّات والمنطِق، أرى أنّه لا مَثيلَ له. ولكنْ عندَما وَصَلَ شَمْسٌ إلى الرّجالِ الذين هم مَحَلُّ اهتمامِه وحادَثَهم، أثبتَ الجميعَ في صَحيفة «العَدَم»، وأهملَهم. تجرّدَ واختارَ عالَمَ التّفريد والتّوحيد. كان شَمْسٌ يبحَثُ عن هَيَجانِ عِشْق نفسِه وراءَ معلوماته ومعارفه؛ وهناكَ، أو في ذلكَ الوادي، كان يجِدُ الطُّمأنينةَ، وكان رُوحُه يظفَرُ باللّذّة والطّراوة الجديدة. وكثيرًا ما قالَ لي شَمْسٌ: إنّه في صِغَره كان يَنشُدُ تعرّفَ الحقّ والحقيقة، ولم يكن يهدَأُ ويستريحُ حتّى يفهَمَ جيّدًا كُنْهَ الموضوعِ الذي يفكّر فيه. وقد بيَّنَ شَمْسٌ أنّه لَيْسَ مقلِّدًا، وقالَ في هذا الشّأن:

«رأيتُ كثيرًا مِن الدّراويش الأعزّاء، وجلَسْتُ إليهم، وعَرَفتُ الفَرْقَ بين الصّادِقِ والكاذبِ منهم، مِن جِهة القَول ومِن جِهة الحرَكات. ولا ينزِلُ قَلْبي إلا حَيثُ يكونُ المكانُ مُستحْسَنًا ومختارًا، وهذا الطّائرُ لا يلتقطُ كُلَّ حَبّة».

وأعتقدُ أنّه لابدّ مِن قَبولِ دَعْوة شَمْسٍ قَبولًا تامًّا، ولابدّ مِن التّوجُّه إلى مَأدُبةِ العِشْق بِهداية نَجْمِ كلامِه الوَضّاء. وعندَئذٍ ستَنْجُونَ مِن ثِقَل حِمْلِ الهوَس والهوى. وأنتُم، ممثِّلي المحفِل الرّوحانيّ في قُونِيَةَ، تخالفونَ هذا الرّجلَ العظيمَ، وتعترضون

---

١ ـ مقالات شَمْس تَبْريزي.

علَيه مِن دُونِ أن تطّلعوا على حَياته، مع أنّه اعترفَ وقالَ لي:

«في البَدْءِ ما كنتُ البتّةَ أجْلِسُ معَ طُلّاب العِلْم والأساتذة، وكُنتُ دائمًا معَ الدّراويش، وكُنتُ أقولُ: هؤلاءِ غُرَباءُ عن معرفة عالَمِ الدّراويش. والآنَ، إذ عرَفْتُ جيّدًا أساسَ ادّعاءِ هؤلاءِ الدّراويش الدَّرْوشةَ، وأينَ هُم مِن حقيقة الدَّرْوشة، زادَتْ عندي الرّغبةُ في مُجالَسةِ الفُقَهاء على الرّغبة في لِقاءِ الدّراويش المدَّعينَ، الذين كنتُ رأيتُهم؛ لِأَنّ الفُقَهاءَ، باختصارٍ، عانَوا الآلامَ في طَريق العِلْم، أمّا هؤلاءِ فماذا عانَوا؟ وإذا كان هؤلاءِ الدّراويشُ يَتنفّجونَ فقط، بالقَول: إنّنا دَراويشُ، فيجبُ أن يُسأَلَ: مِنْ أينَ لهم هذه الدَّرْوشة؟ ـ لماذا لا أرى ذلكَ؛ وفي النّهاية، الدَّرْوَشةُ إمارةٌ وإمامةٌ».

[٢٠٤] كان شَمْسٌ يريدُ بِكَلامِه أن يدفَعَ النّاسَ إلى تَعرُّفِ البَيانِ الصّحيح مِن الكاذب، وكان يَرَى أنّ الكَذّابَ مطرودٌ، ويريدُ لبني آدَمَ الأبرياءِ أن لا يُصبِحوا منشغلينَ باللّهو، ومُحِبِّينَ للشّيطان، ومادّيّينَ، ومُنافقين.

وتحدّث شَمْسٌ عنِ افتخاره بَعْجزِه وحِرْمانه وتَواضُعِه أَمامَ عالَمِ الخَلْق، الذي لا نهايةَ له، في مقالٍ على هذا النّحو:

قالَتْ جَماعةٌ: كُونوا جَميعًا في حالِ مُراقَبةٍ، وضَعُوا رُؤوسَكم على رُكَبكم لِبَعْض الوقت. ثمّ بعْدَ مُدّةٍ رفَعَ أحَدُهم رأسَه وقالَ: رأيتُ مِن هنا إلى أَوْجِ العَرْشِ والكُرْسيّ، وقال آخَرُ: مَرّ نَظَري بالعَرْش والكُرْسيّ أيضًا، وأنظرُ مِن الفَضاء في عالَمِ الخَلاء. واحِدٌ آخَرُ ادّعى قائلًا: أَرَى حتّى ظَهْرَ الثّورِ والحُوتَ. أمّا أنا، ففي ذلكَ الجَمْعِ اعترفتُ بأنّني لا أَرى سِوى عَجْزي.

وهذا تواضُعُ رَجُلٍ عظيمٍ كان يطلُبُ الافتخارَ في مَعابِد الحقّ والحقيقة، ويريدُ أن يتحكّمَ في عالَمٍ يَسُودُه الاضطرابُ والقَلَقُ والحِرْصُ والطّمَعُ والمُراءاةُ والدّناءةُ، ويُوجِدَ هدوءًا مُبهِجًا، ويُزيلَ شَيْطانَ الشّرّ والإجرام والألَم. وكان ينظِمُ الأشعارَ الحماسيّةَ لِكَي يهجُمَ على فِكَرِ الإنسان ويقولَ له: اطلُبِ اللهَ في كُلّ مكان، وتخلَّصْ مِن مُنغّصاتِكَ بالاستعانةِ بالمسَلّي العظيم. وطَبيعيٌّ أنّ كُلَّ رُوحٍ لَدَيه نافذةٌ نحْوَ عالَمِ ما وراءَ الطّبيعة. ويريدُ شَمْسٌ أن يفتَحَ النّوافذَ الموجودةَ في أَرْواح البَشَر، وأن يُوضِحَ هذا القانونَ العظيم: دائمًا، يكونُ الحقُ تعالى أقربَ إلى النّاس. ولَسْتُ أعلَمُ ما إذا كان السّادةُ الممثّلونَ العِظامُ لِلْمَحْفِل الرّوحانيّ في قُونِيةَ قد فَهِموا بيانَ شَمْسٍ وكلامَه حتّى الآنَ. لأنّ شَمْسًا كان يعتقدُ أنّ الإشارةَ السّريعةَ واللّمحةَ الدّالةَ تكفي، وكان لا يحبُّ الكلامَ الزّائدَ عنِ الحدّ:

الحَـــدِيثُ هُـــوَ إغــلاقٌ لِتلْــكَ الكُـــوّة

وعَــيْنُ إظْهـــارِ الكـــلامِ هـــو إخفـــاؤه

وأَخْشى، إنْ أنا صَمَتُّ، مِن أنّ تِلْكَ الشّمْسَ

تُمــزّقُ الحجــابَ مِــنْ ناحيــةٍ أخــرى

فاصْدَحْ كالبلابِلِ مُغرِّدًا على وَجْهِ الوَردة

لِكَـــيْ تـــشْغلَهم برائحـــة الـــوَرْدة

وأَمــامَ تِلْــكَ الــشّمسِ الــشّديدةِ الــضّياء

يكونُ كلُّ دَليلٍ ـ عَلَى الحقيقة ـ قاطِعَ طَريق[1]

كان شَمْسٌ يقولُ: إنّ الإنسانَ ينبغي أن يصِلَ إلى التّقوى الحقيقيّة، عندَما

---

١ ـ المثْنَوي: ٧٠٤/٦ وما بعْدُ.

يتحدّثُ البارئُ تعالى. وحَدَثَ مرّةً أَنْ كان سُلْطانُ وَلَد [ابنُ مَوْلانا] جالسًا في حُجْرتي، فسأَلَ شَمْسًا: في أيّة مَدْرسةٍ مِن مَدارسِ دِمَشْقَ حصَّلَ العِلْمَ أكثرَ؟

فأشار شَمْسٌ بكَفَّي يدَيه كِلْتَيهما إلى بدَنه وأجابَ: مَدْرستُنا هي [٢٠٥] هذه، هذه الجُدْرانُ الأَرْبعةُ مِن اللَّحْم. ومُدرِّسُها عظيمٌ، ولا أقولُ مَنْ هو، لكنّني أعلَمُ أنّ مَعْبَدَه القَلْبُ[١]، «حدّثَني قَلْبي عن رَبّي»، ثمّ أضافَ قائلًا:

هَلْ تتصوّرون بِماذا ينصَحُنا بعضُ الوُعّاظِ الغَيْرِ المتّعظينَ؟ لا ينصحُونَنا بغَيرِ الخوف، وعَدَمِ الاعتقاد، والتفكيرِ البعيد، والاضطرابِ وعدَمِ الثّبات. هَلْ تتصوّرونَ ماذا يعلِّمُنا بعضُ الفلاسفة؟ لا يعلِّمونَنا غيرَ السَّفْسَطة والثّرثرة. فَما مِيراثُ هؤلاءِ غيرُ كَلامٍ مُضطَربٍ مُظْلِمٍ. وما الفَلْسفةُ غيرُ الثّرثرةِ والكلام الفارغ. ما ميراثُ بعضِ العلوم الرَّسْميّة غيرُ التّسويق والمُتاجَرة؟ ـ وما التعلّمُ غيرُ طلَبِ الجاه، ونُشْدانِ الشُّهْرة، غيرُ رَسْمِ هالةٍ عظيمةٍ حولَ النّفس؟

ثمّ بعْدَ ذلكَ نظَرَ إلَيّ شَمْسٌ وقالَ: أَردتُّ مِرارًا أن أَخْتِمَ على لِساني بخاتَمِ الصّمت، وعَلَى قَلْبي بِخاتَم النّسْيان، ولكنْ عندَما رأيتُ مَوْلانا نَسِيتُ هذا العهدَ، غيرَ دارٍ بذلكَ. وفي قُونِيَةَ، حدَثَ مرّةً أن دخَلْتُ دارَ التّقدير [منزِلَ مَوْلانا] فقُلْتُ لِفَقيه قُونِيَةَ الكبير: أَلَدَيكَ شيءٌ من عِلْمِكَ الأَبَديّ، لِكَي يعلّمَني طريقَ الحياة والسَّيرَ في الكائنات؟ سكتَ [مَوْلانا]، فاضطُرِرْتُ أن أنقُلَه خَطْوةً خَطْوةً إلى المملكة الواسعة لِعالَم العِشْق، وعندَئذٍ عَلِمَ أنّه تُوجَدُ دُنيا أُخرى، اسْمُها دُنْيا العِشْق، وفي دُنْيا العِشْق هذه سَماءٌ أُخْرى وقمَرٌ آخَر.

أيُّها السّادةُ، أنا وشَمْسٌ مُطْرِبا عالَمِ العِشْق، وبِعَيْنِ الهدوءِ الرّوحيّ الذي حَبانا

---

١ ـ مقالات شَمْس تَبْريزيّ، ص ٢٦٤.

إيّاهُ العِشْقُ ننظرُ إلى الدّنيا وإلى أَهْلِ الدّنيا، ونعقِدُ قَلْبَينا على مَحبّة النّاس. إنّ الشّرارةَ الأُولى، التي أضاءت هذه الدّنيا المظْلِمةَ في بَدْء وُجودِ الوجود، كان مصْدَرُها العِشْق. وأساسُ الأمرِ أنّ الوجودَ عِشْقٌ، وعَدَّ الحَقُّ تعالى قُلوبَ العُشّاقِ كانونًا متّقِدًا ومَجْلًى لِلْحَقائق السَّرْمَديّة. وعندَما فهِمْتُ سِرَّ العِشْق، بمَعونة شَمْسٍ، تغيّرَ كُلُّ شيءٍ في وجودي. وكان شَمْسٌ يقولُ: العِشْقُ يرفَعُ الإنسانَ إلى مَقام الكَرُوبيّينَ(*). وعندَئذٍ تذكّرْتُ أشعارَ سَعْديّ(**) المحيية المسْكِرة:

لا تَـصْبِرُ الفَراشـةُ عَـنِ النُّـور ... وإنْ هـيَ قـصَدتِ النّـورَ أَحْرَقَهـا

كُـلُّ إنـسانٍ أَسِـيرٌ لِـشَيءٍ يحبُّـهُ ... وأَصْـحابُ العقُـولِ نظَـرُهم إلـى العِشْق

نَحْـنُ أَحْيـاءٌ بِـذِكْرَى الحَبيـب ... والآخَـرونَ يَحْيَـونَ بِـنَفْخِ الـصُّور

نَحْـنُ سُـكارَى شَـرابِ العِشْق الـصّافي ... ولَـسْنا ظِمـاءً للسَّلْـسبيلِ والكـافور

[٢٠٦] لا يمكنُ اعتبارُ شَمْسٍ إنسانًا كامِلًا، أمّا في التعلُّقِ النّهائيّ بِالعِشْق فإنّه يَعُدّ حياتَه لِلْمَرّة الثانية مُعْجِزةً لِلْعِشْق، وهذا الإعجازُ يَصِلُ إلى منزِلة الاستحالة. وهو لَم يظفَرْ بمَقامِه الرُّوحيّ المعْنَويّ مِن طَرِيقِ الرّياضةِ والمجاهَدة والتضرّع. أمّا في سَيْرِه وسُلوكه التّعبُّديّ والعِشْقيّ فإنّه يَفْنَى أحيانًا عن نفسِه، ويغرَقُ في بَحْرِ العِشْق الذي لا حدودَ له:

كُـلُّ شَـيءٍ هالِـكٌ إلا وَجْهَـهُ

فـإن لـم تكُـنْ في وَجْهِـه، فـلا تطلُـبْ وُجـودًا

---

*ـ الكَروبيّون: سادةُ الملائكة ورؤَساؤهم

** ـ يريدُ سَعْديًّا الشّيرازيّ.

وكُـــلُّ مَـــنْ فَنِـــيَ في وَجْهِنـــا
لا يكـــون جَـــزاءَه «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ»
فإنّـه أَصْـبحَ ضِـمْنَ «إلّا» وتجـاوزَ «لا»،
وكُـلُّ مَـنْ كـانَ ضِـمْنَ «إلّا» فإنّـه لا يَفْنَـى[1]

لَيْسَتْ ماهِيَّةُ شَمْسٍ غيرَ مفهومةٍ، فهو قد تخلّى عن تفرُّدِه المحدود، وظفِرَ بِفَضْلِ فَنائه الظّاهر بِشُعورٍ عِرْفانيٍّ جديدٍ قَويٍّ جِدًّا. فتعالَوا، قَبْلَ ذَهابه أو قبْلَ مجيء أَجَلِه، افهَمُوا عظَمَتَه الرّوحيّةَ، واعرِفُوا معنَى العِشْق معرفةً تامّة، واعتقِدُوا أنّ كُلَّ شيءٍ في الدّنيا هو عَلَى أفضَلِ وَجْهٍ وفي درجةِ الكمال. وقد شَرّحَ لي شَمْسُ الكائناتِ، في نفسِه وبعيدًا عن الحَواسِّ الظّاهريّة، وكنتُ قد أدركتُ أنّ كُلَّ العُلومِ والكتُبِ التي درستُها في دُور العِلْم، لم تكُنْ كافيةً ومقنعةً في تقديم إجاباتٍ لِأَسئلتي. كان شَمْسٌ، بِمَهارتِه وتحرُّقِه وعاطفتِه وخِبْراتِه العِرْفانيّة وسَيْره وسُلوكه، هو الذي أَثبتَ لي أنّ العِشْقَ يحرِّكُ الموجوداتِ ويُديرها.

العِشْقُ[2] هو الأساسُ والمبعَثُ لِلتضرّع؛ والمَحبّةُ والرَّقْصُ والإنشادُ هي مَجَالٍ

---

١ ـ المثْنَوي: ٣٠٦٥/١ ـ ٦٧.

٢ ـ أنشدَ مَوْلانا في شأن العِشْق، في دِيوان شَمْسٍ، قولَه:

أيّها العِشْقُ، أنتَ قلَبْتَ نَومي رأسًا على عَقِبٍ ... حتّى إنّ نَومي، بسببكَ، غرِقَ في دَمِ الكَبِد
الخَلاصُ إلى مَنْجَمِ السُّكّرِ، في اللّيل ... أذابَ في الفِكْرِ نَومي، كما يذوبُ السُّكّر
ومِن دُون لُطْفِ وِصاله صِرْتُ كَهِلالِ حاجِبه ... لِكَي لا يختطفَ اللّيلُ نَومي في دَوَرانِ القَمَر
وعندَما يظْلِمُ اللّيلُ، ومعَ هذا الصَّحْو كلّه، ... أظلّ أقولُ للعِشْق: أيّها العشْقُ أزِلْ نَومي
وعندَما يراني النّومُ، يفرّ ويجلِسُ ... يذهَبُ عنّي نَومي، ويأتي إليّ في صُورة شَخْصٍ آخَر
أيّها الأَصْحابُ الذين تُساعدونني، لا تتركوني وحيدًا ... لِأَنّ عِشْقَ مَليكي منَعَ عن عَيني البشريّة النّومَ

فاجلِسْ، إنْ كُنتَ عاشِقًا، حتّى الفَجْرِ الصّادق =

للاشتياقِ والآمال عندَ شَمْس. ما قالَه لي شَمْسٌ في شأن العِشْق والعاشِقِ والمعشوق، لم أَجِدْه في كتابٍ حتّى الآنَ. وهو يقولُ: العِشْقُ يتجلّى:

- في ذاتِ المعشوقِ في صُورةِ التحرُّر والاستغناء،
- وعنْدَ العاشِق في شَكْلِ تَواضُعٍ وتذلّلٍ وألَمٍ وعَنَتٍ.

وما يَرْبِطُ أحَدَها بالآخَر هو مِن مَقولةِ الأسرار. لم يكُنْ شَمْسٌ [٢٠٧] موافِقًا لِعُلومِ الظّاهر، وكان يقولُ: «التّعلُّمُ حِجابٌ عَظيمٌ، والنّاسُ ينزلونَ فيه نُزولَهم في بِئرٍ..». كان يخالفُ كثيرًا مِن الحُكَماءِ والفلاسفة والعارفينَ. ولا يَقْبَلُ حتّى أَفْلاطونَ والفَخْرَ الرّازيّ والجُنَيد وأبا يزيدَ. فنَجِدُه، مَثَلًا، يَسْخَرُ مِن الفَخْر الرّازيّ الذي هو مَحَلُّ احترامِ الخاصّة والعامّة، وعلى هذا النَّحْوِ يدّعي أنّ «جَماعةً قالَتْ وهي ترتعِدُ خوفًا: إنّ في المدينة أَفْعَى تأكلُ العالَمَ كُلَّه بِلُقْمةٍ واحِدة، ولَيْسَ لِأَحَدٍ القُدرةُ على مُقابلَتها. تشجّعْتُ وتقدّمتُ، كان هناك بابُ حَديدٍ وَزْنُه خمسُ مئةِ مَنٍّ، وقد وُضِعَ علَيه قُفْلٌ. وهناكَ ثُعْبانٌ له سَبْعةُ أَرْؤُس، وراءَ ذلكَ الباب. فحَذارِ لا تَدُرْ حَوْلَ ذلكَ الباب، فتحرّكَتْ عندي الغَيرةُ والحَمِيّة، ضرَبْتُ القُفْلَ وكسَرْتُ البابَ أيضًا، ودخَلْتُ. رأيتُ دُودةً ففَركْتُها تحتَ قَدَمي وقتَلْتُها[1].

والآنَ، كَيفَ يكونُ كَلامُه كلُّه عَلَى هذه الدّودة؟ كُلُّ الكُتُبِ والتّصانيفِ مملوءةٌ مِن هذه الدُّودة. مَقْصودُ شَمْسٍ مِن الدّودة الفَخْرُ الرّازيّ، الذي كانَ مِن أَهْل الفَلْسفة، وكان لِلْخُوارِزْمْشاه لِقاءٌ له، وفي هذا اللّقاء قالَ له: «.. دخَلْتُ كذا وكذا، وفي دقائقِ الأُصولِ نَقَضتُّ كُتُبَ الأوّلينَ والآخِرين جميعًا. منذُ عَهْدِ أَفْلاطُونَ حتّى الآنَ، كُلُّ

= معي؛ لِأنّ نَومي لا يأتي حَتّى الصُّبْح والسَّحَر
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ١٤٤٥)

١ـ مقالات شَمْس تَبْريزيّ، ص ٦٠ ـ ٦١.

تصنيفٍ ذي قِيمةٍ هو أمامي، ملامحُ كلّ منها محدّدةٌ عندي. وكتابُ الأوّلينَ نقضتُه أيضًا.. أَهْلُ زَماني فضَحْتُهم، ورأيتُ محصولَ كُلٍّ منهم»؛ لِأَنّ الفيلسوفَ يقولُ: أنا أقولُ ما هو معقولٌ، أمّا مِن العَقْل الرّبّاني فلا رائحةَ عِندَه.

ـ إنّ ما هُوَ مَعْشوقٌ لَيْسَ هو الصّورةَ
سَواءٌ أكانَ ذلكَ في عِشْقِ هذه الدّنيا، أم في عِشْقِ الآخِرة
ـ فذلكَ الذي تعشّقْتَه مِنْ أَجْلِ صُورَتِه
لماذا تخلّيتَ عنه عندَما فارقَتْه الرُّوحُ؟
ـ وإنّ صُورَتَه لم تَبرَحْ مكانَها، فَمِنْ أيّ شيءٍ هذا القُبْحُ؟
أيُّها العاشِقُ، ابحَثْ مِن جَديدٍ عن معشوقِكَ الحقّ!
(المثْنَوي: ۲/۷۰٦ ـ ۷۰۸)

لِماذا جاءَ شَمْسٌ إلى قُونِيةَ؟

سكَتَ مَوْلانا، وألْقَى نِصْفَ نَظْرةٍ عَلَى الوُجوهِ المشوَّشةِ المضطَرِبة لِمُمَثِّلي المحفِلِ الرّوحاني في قُونِيةَ، وقد بدا أنّهم قَدِ انجَذَبوا إلى كلامه.، لكنّ أحَدَهم ـ وقد كانَ ينظُرُ إلى مَوْلانا بحِقْدٍ ـ كان حتّى اللّحْظةِ يَشُكُّ في حَياة شَمْسٍ ومعْرِفته وماهِيّته الإنسانيّة؛ ولهذا السّبب سألَ مَوْلانا:

ـ في النّهاية، لَيْسَ معلومًا عَلَى وَجْهِ الصّحّة: لماذا تَوجّهَ شَمْسُ التَّبْريزيُّ مِن بَينِ كُلّ هذه الحواضِر والمراكزِ العِلْميّة إلى قُونِيةَ؟ حتّى هذه اللّحْظةِ، غيرُ مَعْلومٍ لماذا لم يُسافِرْ مِن دِمَشْقَ إلى بغدادَ، أو إلى دُورِ العِلْم الأُخَر في العالَم الإسلاميّ؟ أَهُوَ صاحِبُ رسالةٍ؟ ـ مَن الذي أمَرَه بِأَنْ يأتِيَ إلى هنا، ويُفسِدَ المنظومةَ الرّوحيّة عندَ مَوْلانا؟ هذه المدينةُ الفاضِلةُ التي يريدُ بِناءها أَهِي نِتاجُ تخيُّلاتِه وفِكَرِه، أو أنّها مبنيّةٌ على أُصولٍ وقواعِدَ دينيّة. لماذا نجِدُ مَوْلانا، بَدَلًا من أن يزدادَ انشغالُه بِنا، يتحدّثُ عن آراءِ شَمْسٍ وفِكَره؟.

أجابَ مَوْلانا على هذا النَّحْو:

ـ اسْمَحوا لي بِأَنْ أُجِيبَ عن سؤالكم، عَلَى لِسانِ شَمْسٍ نفسِه. فإنّه في إِحْدى اللّيالي، في خَلْوةِ شَمْسٍ، عَرَضتُّ أسئلةً في هذا المجال، فأجابَ:

ـ إنّ هدفيَ الأساسيّ مِن هذا اللّقاءِ هو معرفةُ الإنسانِ، وتَعرّفُ حالاتِ القَلْب. كُنتُ أَطْلُبُ شَخْصًا مِن جِنْسي أَجعَلُه قِبْلةً[١]، وأتوجَّهُ إليه. فقالوا لي: [٢٠٩] إنّ علَيكَ أن تحرِّرَ عَبْدًا لَطيفًا، في مدينة قُونِيةَ، مِن قُيود القِيل والقال. وعندَما عَلِمْتُ أنّه كان يعيشُ بينَ أَفْرادٍ تتحكّمُ بهمُ الاضطراباتُ والقلاقِلُ وضُروبُ القَلَق، أَلَمّ بي الأَسَى؛ لأنّ مَوْلانا يؤذَى ويُهانُ في الوَقْتِ الذي كُنتُ أعلَمُ أنّ مَوْلانا مُبْدِعٌ ومِن أَهْلِ المعنى. فجئتُ لأجدِّدَ، وأصنعَ، مَوْلانا مِن جَديد.

ـ وتَأسِيسًا على ذلكَ، تَعُدّونَ شَمْسًا التَّبْريزيَّ مِن الأَوْتاد؟ ـ أَهُوَ مِن الأَوْلِياء؟ ـ أنتُم أيضًا تقبَلُونَه في هذا المَقام؟

ـ أينَ شَمْسُ الدّين التَّبْريزيّ مِن حَديثِ الأَوْلِياء؟ ـ لَيْسَ لَدَيه أيُّ ادّعاءٍ لذلك. وأنا أيضًا، في هذا الشّأن لا يَحِقُّ لي أن أقولَ شيئًا. أمّا في الخَلْوة فقال لي:

في يومٍ مِن الأيّام، وإبّانَ مُناجاةٍ، قُلْتُ لحَضْرةِ الحقّ تعالى: أَيوجَدُ مخلوقٌ مِن خاصّتكَ يستطيعُ أن يتحمّلَ صُحْبتي؟ ـ وفي الحال، وَصَلَتْ إشارةٌ مِن عالَم الغَيب: إذا أَردتَّ نَظيرَ صُحْبةٍ، فيَمِّمْ شَطْرَ الرّوم... فجئتُ إلى هنا[٢].

ـ أيمكِنُ مَوْلانا أن يقولَ لنا: قَبْلَ لَحَظاتِ مجيء شَمْسٍ، في أيّ وَضْعٍ رُوحيّ وأخلاقيّ كان مَوْلانا؟

ـ في هذا الشّأن، عَلَيَّ أن أذكُرَ كلامًا لِأَبي سَعيدِ بنِ أبي الخَيْر؛ ذلكَ لِأَنّني كُنتُ في وَضْعٍ شبيهٍ بِوَضْعه، إذ كان يقولُ:

---

١ ـ مقالات شَمْس تَبْريزيّ، ٢/ ١٦٢.

٢ ـ مقالات شَمْس تَبْريزيّ، ٢/ ١٦٢.

«حِينًا أَكونُ كالملائكة، طاعةٌ كاملةٌ، وحِينًا أكونُ كالحَيَوان، حَياةٌ كلُّها نَومٌ وأَكْلٌ، وحِينًا أَكونُ كالبهائمِ، شَهْوةٌ كاملة، سُبْحانَ الله، أيُّ تشتُّتٍ هذا؟» .

ـ هَلْ عالَجَ شَمْسٌ قلَقَكم واضطرابَكم الرّوحيَّ، وأَلَمَكم الجِسْميّ؟

ـ نَعَمْ فعَلَ شَمْسٌ ذلكَ. هَداني شَمْسٌ إلى حَياةٍ رَمْزيّةٍ وعظيمةٍ في العِرْفان والأُسْتاذيّة. وفي عقيدَتِه، أَساسُ التّصوّفِ وأَصْلُه هو أصالةُ الباطن، التي كنتُ غافلًا عنها زَمَنًا طويلًا. عالَجَ شَمْسٌ هذا الاضطرابَ، وبعْدَ أن كُنتُ ذابِلًا في عالَمِ التّفرقة[1] الذي يَنْطَوي عَلَى مَلايينِ الذّرّات، أي ذَرّاتِ الكائنات، أَعْطاني أهليّةً جديدةً، وفَهْمًا جديدًا، وهُوِيّةً جديدة. وتعْلَمونَ أنّ دَليلَ سَفينةِ وجودِ الإنسان هو الاعتقادُ، وعندَما يوجَدُ الدّليلُ، وتأخذُ الرّياحُ السّفينةَ إلى مكانٍ مُخيف، لا تغرَقُ السّفينةُ، يقينًا. وعندَما لا يوجَدُ دَليلٌ سيتغيّرُ وجودُ الإنسان. [٢١٠]. كُنتُ أَسْعى دائمًا، باعتقادٍ كبيرٍ وراسخٍ، لِأَن أَلْقَى شَمْسًا، وأفهمَ كما ينبغي شخصيّتَه وكلامَه، وأقدِرَ على إظهاره بجرأةٍ. وإذا كان عُلَماءُ الظّاهِر مُطّلِعينَ على أَخْبارِ الرّسول [عليه الصّلاةُ والسّلام]، فلا شكَّ في أنّ مَوْلانا شَمْسَ الدّين مُطَّلِعٌ عَلَى أَسْرارِ الرّسول، وأمّا أنا ـ جَلالَ الدّين البَلْخيّ ـ فأنا، إن قَبِلتُم، مَظْهَرُ أنوارِ الرّسول.

ـ ولكِنْ، ما رَأْيُ شَمْسٍ فيكُم؟ ـ كيفَ فَهِمَكم؟ نحْنُ نَرَى أنّ شَمْسًا مجنونٌ وساحِرٌ، فكَيفَ مِن الوِجْهةِ الرّوحيّة والعِلْميّة يتّفقُ معَكم ـ وأنتَ الفقيهُ الكبيرُ في قُونيةَ ـ اتّفاقًا كاملًا؟ أنتُم تتحدّثونَ مِن العَقْل، وهو يَهْذي وَيَهْذِرُ مِن العِشْق. وفي اعتقادِنا أنّ العِشْقَ خاصّيّةٌ لِلْمَجانينِ، فهُمُ الذين في اللّيالي يتغزّلون بِأَنوار القَمَر.

ـ هذا الطّرازُ مِن التّفكير إزاءَ شَمْسٍ غيرُ لائقٍ بِأَهْلِ العِلْم والفَضْل، بَلْ مِن شأن

---

١ ـ مقالات شَمْس تَبْريزيّ، ص ١٦٢.

المتعصِّبينَ وعُمْيِ القُلُوب. في يومٍ مِن الأيّام قالَ شَمْسُ العِرْفان ـ أعني مُرادِيَ العظيمَ شَمْسًا التَّبْريزيّ ـ لِوَلَدَيَّ:

ـ واللهِ، إنّي عاجِزٌ عن مَعْرفةِ مَوْلانا جَلال الدّين. ولَيْسَ في هذه الكَلِمة نِفاقٌ، وفي كُلّ يَومٍ أعلَمُ عن حاله وأفعاله شيئًا هو ذو أهمّيةٍ عندي مِن النّواحي جميعًا. وكان يؤكّدُ لِابنَيَّ القولَ: افهَمُوا أباكم جيّدًا؛ لِكَي لا تندَموا فيما بعْدُ.

ـ أيمكِنُ مَوْلانا أن يقولَ لنا ما الأشياءُ الجديدةُ التي علّمَه إيّاها شَمْسُ الدّين التَّبْريزيّ؟

ـ نَعَمْ، أَذكُرُها لكم قَدْرَ الإمكان وبِقَدْر ما تستطيعونَ إدراكَها. قالَ لي شَمْسُ الدّين التَّبْريزيُّ إنّ في الطّبيعة أَسْرارًا خفيّةً لا يمكِنُ فهْمُها بالمنطِق والفَلْسفة والرّياضيّات والكيمياء. هذه الأَسْرارُ وراءَ العُلُوم. والكُمَّلُ[1] والعارفونَ هم وَحْدَهم الذين سيطّلعونَ على هذه الأَسْرار، فأَسْرارُ الطّبيعةِ لا يمكِنُ تَعْليمُها لِكُلّ غِرٍّ غَيرِ ناضج:

عَلَى شَفَتِه قُفْلٌ، وفي قَلْبِه أَسْرار
والشّفَةُ صامتةٌ، والقَلْبُ مفعَمٌ بالأَصْوات
فالعارفونَ الذينَ احتَسَوا مِن جَام الحَقّ
[٢١١] عرَفُوا الأَسْرارَ، وأَسْدَلوا علَيها الأَسْتار
وكُلُّ مَنْ عَلَّمُوهُ أَسْرارَ الحَقّ
ختَمُوا عَلَى فِيه، وخاطُوه [عَلَى ما فِيه][2]

ذكَرَ شَمْسٌ دِلالاتٍ جديدةً في تفسير آياتِ القُرآن المَجيد، خاصّةً في شأنِ الآيةِ

---

١ ـ الكامِلونَ يسْمَعونَ بِاسْمِكَ مِن بُعْدٍ وبعْدَ ذلكَ يغوصونَ في أعماقِ وجودك
(المثْنَوي: ٤/١٨٠١)

٢ ـ المثْنَوي: ٥/٢٢٤٠ ـ ٢٢٤٢.

١٥٦ مِن سُورة البَقَرة:«...وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ »، والآيتَينِ ١٦٥ و ١٦٦مِن سُورة الصّافات: «وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ »، وقدّمَ أقوالًا مُفيدةً ومؤثّرةً في شأن الغَيْبِ وآثارِ الغَيْب، الذي تخرجُ مِنه الموجوداتُ كلُّها، وكانَتْ هذه جميعًا مثيرةً عِندي وخليقةً بالسَّماع.

يَرَى شَمْسٌ في الإنسانِ مَصْنَعًا عظيمًا لمعرفةِ الكائناتِ والملَكوت. ويقولُ: إنّ رُوحَ الإنسانِ الكامِلِ خَلّاقٌ، والإنسانُ بعْدَ الصَّقْلِ والتّخْلِيةِ يغدُو مَحَلَّ تَجَلٍّ لِلنُّور الإلهيّ، وعندَئذٍ يمشي الإنسانُ على وَجْهِ الأرض، ويستجيبُ الحَقُّ لِدُعائه مِن أَعْلى الأفلاك. شَمْسٌ شاهِدٌ على انحِطاطِ الأَفْراد في عَصْرِه، شَمْسٌ مُشاهِدٌ لاضطِرابِ النّاس الظّالمينَ في الدّنيا، شَمْسٌ مُخالِفٌ لِإجْراءِ الرّياضاتِ والخَلَواتِ والعُزْلاتِ والانزواءِ والإِعْناتِ واحتمالِ الآلام والابتعاد عن النّاس. ويتحدّثُ شَمْسٌ، بسبب ما لدَيْهِ من صفاءٍ وعشقٍ، عن العيشِ المُشترَكِ والتآخي. ويعتقِدُ شَمْسٌ أنّ النّاسَ يُقْبِلونَ على التّحصيل العِلْميّ لِكَي يتولّوا رِياسةَ المدرسةِ، أو يَجْلِسوا في صُدُورِ المجالِس، أو يظفروا بالسُّمْعةِ والشُّهْرة، في حِينِ أنّ هدفَ الحياةِ هو معرفةُ النّاس، وتعرّفُ الكائنات. ولهذا السّبب، كان شَمْسٌ يَنشُدُ الظّفَرَ بِسالِكينَ لِطَريقه؛ لِكَي يخلِّصَ النّاسَ مِن الظّلمة، ومِن عِبادةِ النّفس، ومِن التّظاهُرِ والرّياءِ والتّعصّب. يطْلُبُ شَمْسٌ مذْهَبَ العِشْقِ والمحبّة. شَمْسٌ يقولُ لي ولكم: «إذاَ تخلّلَتِ المَحبّةُ والمعرفةُ الإلهيّةُ أعماقَ أرواحِنا، استطَعْنا عندَئذٍ أن نفتخِرَ بأنّنا نَحْيا كُلَّ لَحظاتِ الحياة في العِبادةِ والابتهالِ والتضرّع. شَمْسٌ سَبّاحٌ منشَغِلٌ بالسِّباحةِ في داخلِ رُوحِه، ويَعُدّ أعظمَ عَدُوٍّ للإنسانِ الهَوى وعبادةَ النّفس البهيميّة.

وأَهمُّ قانونٍ عندَه: اكْبَحْ جِماحَ النّفْسِ العابدةِ لِهَواها[١].

وإذْ كُنتُ، بعْدَ نَيلي درجةَ الاجتهادِ، أبحَثُ عن العُشّاقِ الإلهيّين وأتعرّفُهم، لم أرَ عَلَى امتدادِ حَياتي، لا في خُراسانَ الكُبرى ولا في الشّام، رَجُلًا في فَضل شَمْس. فهو رَجُلٌ عميقُ العِلْم لا يعْرِفُ الكلَلَ، وعابِدٌ حقيقيّ. وشَمائلُ شَمْسٍ، معشوقي العِرْفانيّ، تَصْحَبني في كلّ مكانٍ. فتعالَوا، يا ممثّلي المحْفِلِ الرّوحانيّ في قُونِيةَ، وشارِكونا في تَأْسيسِ مَدْرسةِ العِشْق في قُونِيةَ؛ لأنّه:

لَــوْ أنّ رُوحَ العاشِــقِ تحــدّثَ ... لأَضْـرمَ النّـارَ في هــذا العـالَــم

ولَجعَلَ هـذا العـالَـمَ، الـذي لا أصْـلَ لـه ... كـــا لـــذّرّاتِ، عالِيَــهُ ســافِلَه

ولَغَــدَا العــالَـــمُ كلُّــه بَحْــرًا ... ولغَــدَا البَحْــرُ عَــدَمًا مِــنَ الهَيبــة

ولَمـــا بقــيَ آدَمُ، ولا الإنــسانيّةُ، ... لــو ضــرَبَ نفــسَه بــآدمَ

ولَمـــا بقــيَ قَــوْسٌ ولا قُــزَح ... ولا خَمْــــرةٌ، ولا قــــدَحُ

ولَمـــا بقــيَ ابتهــاجٌ، ولا فَــرَح ... ولا جُـــرْحٌ يُـــداوَى بـــالمَرْهَم

وعندَما رأى شَمْسٌ جَلالَ الدّين محمّدًا، أَعْني رآني أنا ابنَ بَهاء الدّين وَلَد، وعرَفَ أنّني كُنتُ على امتدادِ سِنينَ ضِياءَ عَرْشِ الطّريقة والشّريعة، وأتولّى تدريسَ أربعِ مئةِ طالِبِ عِلْمٍ، أَحْسنَ فَهْمَ فِكَري، فصار عاشِقًا لي ومُولَعًا بي، ومُحِبًّا لحديثي إلى الحدّ الذي أستطيعُ فيه أن أقولَ:

هو كَعْبتي، هو مَعْبَدي، هو ناري، هو جَنّتي

١ـ التفسُ حَيّةٌ عظيمةٌ، فمتَى تكونُ مَيْتةً؟ ... إنّها متجمّدةٌ، اغتمامًا لِعَدَمِ استعمالِ دَهائها (المثْنَوي: ٣/٢٥٥٠)

هو مُؤنِسُ زَماني، هو شَمْسي، هو مَعْشوقيَ العظيم.

وفي اعتقادي أنّ شَمْسًا عارِفٌ واصِلٌ[1]، مِن أَهْلِ المكاشَفة، عاشِق.

١ ـ الواصِلُ إنسانٌ مُتَحَرّرٌ مِن نفسِه ومتّصلٌ بالحق. وبناءً عَلَى هذا، الوَصْلُ هو نِهايةُ السَّيْرِ إلى الله، إذْ يكونُ السّالكُ قد أكمَلَ مَراحِلَ السّلوك، وتطهّرَ مِن الصّفاتِ البشَريّة [الأصل].

ـ قُلْتُ: إنّه أَمامَ كأسِ شَرابِكَ يكونُ دَمُ قَلْبي شيئًا تافهًا،

فقالَ: في كأسِيَ الدِّهاق المملوءةِ دِماءٌ كثيرة.

ـ قُلْتُ: صار قَلْبيَ المتيَّمُ كالمجنونِ، وهامَ في الصّحراء،

فقالَ: يتوقّفُ، ويلزَمُ مكانَه، عندَما أُسْدِلُ طُرَّتي.

شَمْسٌ في حَوْمة قُونِيَةَ

ـ أيمكِنُ مَوْلانا أن يقولَ لنا: ماذا يَرَى الإنسانُ العاشقُ، وماذا يسْمَعُ، غيرَ الذي نَراهُ نحْنُ ونسْمَعُه؟ ـ ما الأشياءُ التي يعلَمُها شَمْسٌ مِن عالَمِ العِشْق؟ ـ لِماذا يَعُدّ العِشْقَ مصْدَرًا لا حدودَ له لِقُدراتِ الدّنيا؟ ـ ما مصْدَرُ ضُروبِ إلهامه؟ ـ إن كان صاحِبَ مُكاشَفاتٍ، لِماذا لم يذكُرْها حتّى الآنَ؟.

ـ اعلَمُوا أنّ له تأثيرًا كبيرًا في تاريخ الفِكَر العِرفانيّة وفي إنماءِ الفِكْر، وربّما يكونُ أَحَدَ الشّيوخِ الذين هم المؤسِّسُونَ والأئمّةُ لمَدْرسةِ العِشْق الصّوفيّ، في الزّمان الحاضر. وسَواءٌ أَعْجبَكم ما أقولُ أم لم يعْجِبْكُم، شَمْسٌ يعْرِفُ رَبَّه أفضلَ مِن معرفة أكثَرِ أَهْلِ قُونِيَةَ، ويعبُدُه سُبحانَه ويُطيعُه. ولَدَيه قُدرةٌ حتّى عَلَى أن يؤثِّر في الطّبيعة إذا شاء، بإرادته الحديديّة، ولكنّه يتضايقُ مِن طَلَب الجاه. وقد تعلّمَ كُلّ شيءٍ مِن كانون العِشْقِ الأزليّ. والعاشِقُ الحقيقيُّ كالرّافعة، في مَقْدوره بفَضْلِ نقطةِ ارتكازه، الإيمان، أن يزيلَ المُشكلات، كالقَشّ.

ـ يا مَوْلانا، إنّنا نَرَى شَمْسًا شَبيهًا بِمُعاقِرِ الخَمْر، الذي في أَوْجِ سُكْرِه يُظْهِرُ العِشْقَ لِخَيالاته وأَوْهامِه. الكأسُ الأُولى أعطَتْه الخَيالاتُ الواهِيةُ بعْدَها لَذّةً وبهجةً، والكأسُ الثانيةُ حمَلَتْه على السُّكْرِ والحذَر، والكأسُ الثالثةُ دفعَتْه إلى تَلْفيقِ ما يفكّر فيه.

والخُلاصةُ أنّ هذا السُّكْرَ دفَعَه إلى التّصريح بِأُمورٍ لا فائدةَ فيها وإلى الثّناءِ على نفسه. فهو أَسِيرُ هَيَجاناتِه الحِسِّيّة [٢١٤] والعاطفيّة. وربّما يَعُدّ هذه الأمورَ نفسَها مِن العِشْق، ويزعُمُ أنّها المصْدَرُ الذي لا حُدودَ له لِلْقُدراتِ الخفيّة، ومنشَأُ ضُروب الإلهام.

وابتغاءَ سَماعِ صَوْتِ شَمْسٍ الجذّاب، لابدّ مِن أن يكونَ لَدَينا ضَميرٌ صافٍ ومُضيء. فلِكَي نسْمَعَ الجاذبيّةَ المثيرةَ لِكلامِه بكلّية وجودنا، لا تكفي حَياةُ التّعبُّد والمحبّة، ولابدّ للإنسانِ مِن أن يتحسّسَ الحقَّ سُبحانَه ويتعرّفَه في داخِلِ كينونته ووجوده. ويقدِّم شَمْسٌ تمثيلًا للإنسانِ الكامل في أفضَلِ صورةٍ له، أو يبدو لي كذلكَ. وكُلُّ إنسانٍ عَرَفَ العِشْقَ بِكُلّيّة وجوده، ستُحَلُّ ألغازُ الخَلْقِ والحياةِ عندَه تدريجيًّا، وعلى نَحْوٍ رائع.

ـ تقدِّمُ تعريفًا لِشَمْسٍ، وقد أَحَطتَّه بهالةٍ مِن الأسرار. وتَعُدّ مِثْلَ هذا الرّجُلِ المُصابِ بالجُنونِ والأوهام أعظمَ قُدرةٍ على وَجْه الأرض، وتُعبِّر في شأنه عن غُلوٍّ غير منطقيّ، وشِعْريّ. وهو حتّى الآنَ، غيرُ قادرٍ عَلَى أن يُوقِفَ وجودَه ورُوحَه عن السَّيرِ نَحْوَ الانحرافِ والابتداع، فإلى أيّ شيءٍ يصِلُ بالطّبيعة. شَمْسٌ قاسٍ وفَظٌّ في كلامه، ويقولُ كلامًا يغدُو ذَريعةً لَدَى المُخالِفينَ لَكَ، ومِن ذلكَ ما يقولُه في شأن السَّماع، حَيثُ يَعُدُّ فيه السَّماعَ فريضةً على أهل الحال. لَدَيه ادّعاءاتٌ عَريضةٌ هي مِن الشَّطْحِيّات، كما يقولُ الصّوفيّة.

ـ معرفةُ شَمْسٍ عَصِيّةٌ على الأشخاص الذين لم يُطْلَعُوا على تجلّياته العظيمة. أمّا معرفةُ الإنسانِ فقد أوضحَها شَمْسٌ جيّدًا. وما أنقلُه عنه لَيْسَ مِن أَجْلِ معرفته، يقينًا، فهو عالَمٌ آخَر. وقد قالَ شَمْسٌ لِلأفرادِ الذين لَدَيهم اشتياقٌ إلى لقاءِ المعبود

الأزَليّ: لا أقولُ صِرْ مِثْلَ الله، لا أقولُ كُفرًا، وإنّ أقسامَ النّامياتِ والحَيوانات والجَمادات، ولَطافةَ جَوّ الفَلَك، هذه جميعًا موجودةٌ في الإنسان، وما هو موجودٌ في الإنسان غيرُ موجودٍ في هذه. وكُبْرى حَقائقِ العالَم هي هذه. فما أَجْملَ الإنسانَ الذي يَعْدِلُ الأقاليمَ السَّبعةَ والوجودَ كلّه. إنّ كلّ مَنْ عرَفَ شَمْسًا معرفةً صحيحةً عرَفَ الحقيقة. إنّ حديثَ شَمْسٍ حَديثٌ آخَر. ولا يجِبُ فَهْمُهُ في هالةٍ مِن الأَسْرار. لا يمكِنُ إدراكُه بمِفتاحِ العَقْل الجُزْئيّ، فالعَقْلُ في هذا الطّريقِ عاجزٌ وذَليل[1]. وابتغاءَ إدراكِ عالَمه والوصولِ إلى عَتَبته، [٢١٥] ابتعِدوا عن كُلّ قَدْرٍ مِن التّعصّب، وعندَئذٍ تُصبحون أقربَ إلى حَرَمه الملَكوتيّ. تُريدونَ بعِنادِكم وجِدالِكم أن تُرضُوا نزوعَكم إلى طَلَب الجاه والشّهرة؛ أيْ أنتُم عَبيدُ أنفسِكم. ونحْنُ بكَبْحِ جِماح النَّفْس، والصّراع معَها، اجتَزْنا هذه المَراحِلَ الصّعبة:

عَلَيَّ أن أُواصِلَ الفِرارَ مادامَ فيَّ عِرْقٌ يَنْبِض

ومتَى كانَ الفِرارُ مِنَ النّفس سَهْلًا؟!

فلا أمانَ، لا في الهِنْدِ ولا في الخُتَن،

لِمَنْ تكونُ نفسُه خَصْمَه وعدوَّه[2]

وحتّى الآنَ، حَرَمَ الحِجابُ الظُّلْمانيّ لِعبادةِ النّفسِ أَعْينكم مِن شُهود الحقائق.

ـ هَلْ بَنَى شَمْسٌ العبادةَ والطّاعةَ عَلَى أساسِ الإحساس القَلْبيّ.

ـ في هذا الأمر، لَدَى شَمْسٍ مطالبُ أيضًا، فلابدّ مِن الذّهابِ إلى خَلْوة شَمْس،

---

١ ـ قال شَمْسٌ في كتابه «**المقالات**» ص١٨٠: «العَقْلُ يصحَبُكَ حتّى العتَبةِ، أمّا في داخِلِ المنزِلِ فلا يصْحَبُكَ، فهناكَ العَقْلُ حِجابٌ، والقَلْبُ حِجابٌ، والرّأسُ حِجاب».

٢ ـ المثْنَوي:٥/ ٦٦٩ ـ ٦٧٠.

وفَهْمِ أَسْرارِ كلماته. وأعلَمُ أنّه في جُزءٍ مِن مَسائلِ الحياة، يكونُ العَقْلُ عاجِزًا عن إدراكِ تلكَ الأشياءِ التي يدرِكُها القَلْبُ، ومنها العِشْقُ. والتضادُّ الأساسيُّ بَيني وبينكم هو عَيْنُ هذا الذي أقولُه:

إنّ الذّئبَ والدُّبَّ والأسَدَ تعْلَمُ ما العِشْقُ

وأَقَلُّ مِن كَلْبٍ ذلكَ الذي هو عَم عن العِشْق[1]

وأنتُم تُنكرونَ العِشْقَ؛ ولهذا السّبب بُدِئتِ الحَرْبُ والعنادُ، وأُغضِبتُم حتّى إنّ المحفِلَ الرّوحانيّ في قُونِيةَ تاقَ تَوْقًا شَديدًا إلى القضاء عَلَى شَمْس.

ـ وكذلكَ اسْمُ شَمْسٍ التَّبْريزيّ انطبَعَ في أذهاننا في صُورةِ المُجْرِمِ الكبير.

ـ أمّا أنا فأرى أنّه أكثرُ النّاس بَراءةً على وَجْه البسيطة، وأُشَاهِدُ في قَدّه السّالِبِ لِلْقَلْبِ الجَمالَ الخالِدَ لِلْعِشْق، وأَعُدُّه مُلْهِمي ومُرادي.

ـ أنتُمُ اندمجتُم في شخصيّة معشوقِكم شَمْسٍ، نَعَمْ تغيّرتُم تغيّرًا تامًّا، أَلَيْسَ كذلكَ؟

ـ وبهذا التغيُّرِ في شخصيّتي، فُتِحَتْ في وَجْهي أبوابُ السَّماء، وعرَفْتُ اللهَ تعالى كما ينبغي، وكما يَلِيق. وتعْلَمونَ أنتُم أنّ معرفةَ الحقّ تعالى لَيسَتْ أمرًا سهلًا، وشَمْسٌ هو الذي أَمْسكَ بيدَيّ، وحَوّلَ القفَصَ التّرابيَّ عندي إلى عَتَبةٍ مقدَّسة [٢١٦] ونُورانيّة.

ـ في عقيدتِكم وعقيدةِ شَمْسٍ، ما الكمالُ في الدّين؟

ـ القَوْلُ بالحَقّ، والعَمَلُ بالصّدْق، والاستقامةُ في السّلوك.

---

١ ـ المثنوي: ٥/٢٠١٠.

ـ فلماذا لا تعمَلُون بِدينِ أجدادِكم؟

ـ نحْنُ نقولُ إنّنا نؤدّي مطالبَ دينِ أجدادِنا بِرِضًا وحُضورِ قَلْب. أنتُم تؤدّونَ العِباداتِ طَمَعًا بالثّوابِ ودُخولِ الجنّة، بينَما أنا وشَمْسٌ نؤدّي العِباداتِ والطّاعاتِ عِشْقًا لِلْحَقّ والحقيقة. وقد آنَ أَنْ تُنقِذوا أنفسَكم مِن بَحْرِ التعصُّبِ المُرْدي هذا، وتنظُروا إلى المَسائل والمُشْكلات بِذَوقٍ عِرْفانيّ؛ لكي تُحَلّ لَدَيكم ألغازُ الحياة ومُعَمَّياتُها بيُسْر.

في هذه الأثناء، اندفعَ شابٌّ صَغيرٌ مُسْرِعًا إلى مَوْلانا، فسلّمَ، وقبّلَ يَدَ مَوْلانا وأخبرَه قائلًا: إنّي لَقِيتُ موكبَ شَمْسٍ التَّبْريزيّ على بُعْدِ ثَمانيةَ عشَرَ فَرْسَخًا مِن قُونِيَةَ، ورأيتُ سُلْطانَ وَلَد [ابنَ مَوْلانا]، وقال لي: إذا ذهبْتَ إلى قُونِيَةَ فأَبلِغْ مَوْلانا سَلامَنا، وقُلْ له: إنّ اللّقاءاتِ سَتَجدَّدُ سَريعًا.

يتردّدُ مَوْلانا لَحْظةً، ثمّ يسودُ صَمْتٌ مقدَّسٌ، وبغتةً ترتجِفُ يَدَا مَوْلانا، وتنهَمِرُ قطَرَاتُ الدّمعِ مِن عينَيه، وبصَوتٍ مرتجفٍ يَسْأَلُ:

ـ أنتَ... أنتَ شاهدتَّ شَمْسًا التَّبْريزيّ؟

ـ نَعَمْ، يا مَوْلانا، شاهدتُّ شَمْسًا، وكان يبدُو شاحِبَ الوَجْه قليلًا، ومُتْعَبًا ونَحيلًا.

ـ نهضَ مَوْلانا مِن مَكانه، ورَفَعَ العِمامةَ عن رَأسِه، وخَلَعَ عنه رِداءَه، وأَلْقى أَمامَ الشّابّ عددًا مِن الدّنانير، التي كانَتْ في جَيبه، مَعَ ردائه وحِذائه، وقالَ له: هذه هِبةٌ لكَ، مالُكَ. ما أَجمَلَ أَنْ رَأيتَ شَمْسًا قَبْلي. وعندَما كان الشّابُّ ينظُر إلى هذا المَشْهَد قالَ:

ـ لا، لا، يا مَوْلانا، آخُذُ النقودَ فقط، أمّا اللّباسُ فهو لكم. فقالَ مَوْلانا: لو أنّني امتلَكْتُ كنوزَ الدّنيا، لَأَعطيتُكَ إيّاها؛ هذه جميعًا لكَ، فخُذْها وانصَرِفْ.

كان مُمَثِّلو المحفِلِ الرّوحانيّ في قُونِيةَ أَمامَ رَجُلٍ قَدّمَ أَلبستَه، التي يظهرُ بها أَمامَ الناسِ، بِشارةً لِوصُولِ شَمْسٍ إلى ضاحيةِ قُونِيةَ، لِشابٍّ صغيرٍ. كانوا أَمامَ رَجُلٍ هو صاحِبُ أكثرِ القُلوبِ حَرارةً ومحبّةً [٢١٧] في الدّنيا.

انبرى أحَدُهم للكلامِ، وقال:

ـ أيّةُ لَذّةٍ ومُتْعةٍ لكم بهذا العَمَلِ البعيدِ عن العَقْل؟

ـ ضحِكَ مَوْلانا مِن هذا السّؤال، وقالَ: إنّ العاشِقَ لا يُبالي بأُمورِ الدّنيا، وذِهْنُه خالٍ مِن كُلّ ما يتعلّقُ بالمظَاهِرِ الخارجيّة. وأنا، إلى الآنَ، لم أَرَ أَحَدًا جديرًا بأن يُعتَمدَ علَيه بَدَلًا مِن شَمْسٍ، في قُونِيةَ. فقد أضاءَ دُنْيايَ المعتِمةَ المظْلِمة، وكلُّ ما أملِكُه يجِبُ أن أجعلَه نِثارًا على قَدَمَيه. وهذه العطايا هي أعظمُ اللذّاتِ الرّوحيّة والجِسْميّة عندي.

ـ ألا تعتقدون أنّه، بما لَدَيه من شَعْوذةٍ وسِحْرٍ، سيطَرَ على فِكَركم وتصوّراتكم؟

ـ لَيْسَ في وُسْعِ الطّلاسِمِ والأَسْحارِ البتّةَ أن تُهدّئ ذِهْنًا مضطَرِبًا مُشوَّشًا، وأن تُجيبَ عن الأسئلةِ والمشكِلات الرّوحيّة عندَ النّاس. ألا تعْلَمونَ بأنّ إنفاقَ المال في سَبيلِ الدّين وَفْقًا للشّرْعِ هو صَنيعُ المؤمنينَ، وأنّ بَذْلَ الأَرْواحِ في مُشاهَدةِ جَلالِ المعشوق وجَمالِه على سَبيلِ الحقيقةِ والعِلْم هو صَنيعُ العارفين. وعندَنا نحْنُ، تَلاميذَ مدْرَسةِ التّوحيد عندَ شَمْسٍ التّبْريزيّ، بَذْلُ الرّوحِ والمالِ والجسْمِ في طَريق المعبودِ والمحبوبِ الحقيقيّ هو كَمالُ البَذْل.

أَعْلَمُ أنّكم تنظُرونَ إلى هذا الإيثارِ، وإلى بَذْلِ اللّباسِ والعِمامة مِن جانبي، بعَيْنِ السُّخرية؛ لِأنّكم حتّى الآنَ لم تطّلِعُوا على أسرارِ المحبّة الحقيقيّة والسَّرْمَديّة. وهذه

هي عَينُ المَحبّة، وهي القُدرةُ التي لا حدودَ لها للصّفاء. هذه هي أصلُ المَحبّة. للقَلْبِ مَحبّةٌ كالشّراب، وكُلُّ قَلْبٍ خالٍ مِن ذلكَ هو خَرِبٌ. إنّ أَدْعِيةً شَبيهةً بالسِّحْر أَتَتْ لي بشَمْسٍ مرّةً أخرى، ولَنْ أُسْلِمَ وجودَه لا للدّنيا ولا للآخرة. ولاحِظوا أنّه مِن بَرَكاتِ العِشْق أيضًا أنّني تخلّيتُ عن العَقْل والذّكاء والعِلْم في هذا الطّريق، وانتظَمْتُ في حَلْقِة شُرّاب خَمرة وادي العِشْق.

إنّ شَمْسًا هو مَجَرَّةُ المَحَبّةِ والوَفاء، والشَّمْسُ التي لا تَغْرُبُ المُوجِدةُ للإلهاماتِ العِرْفانيّة اللّذيدة. هو مَجْلًى مِن مَجالي المَحبّة، وآيةٌ مِن آياتِ الحقيقة. وفي يومٍ مِن الأيّام، وفي بيته، جرى البحثُ في شأن عَظَمةِ الإنسانِ وقُدرتِه على الإبداع والخَلْق، فذكَرَ أمورًا نظَمْتُ عُصارتَها على هذا النّحو:

أنتَ عَلَى أَوْجٍ لَيْسَ لَه زَوالْ، أنتَ في داخِلكَ ذو جَمالْ
أنتَ مُلْكٌ لِذِي الجَلال، أنتَ مِن شُعاعِ الحقّ المُتعالي
انفَصِلْ عَمّنْ لا أُصولَ لهم، ولا تسْمَعْ خِداعَ الغِيلان
[٢١٨] لِأنّكَ مِن أَصْلٍ شَريف، لِأَنّك مِن مَقامٍ عالٍ
أنتَ حَتّى الآنَ غيرُ ظاهِر، فماذا رأيتَ مِن جَمالِكَ؟
وفي السَّحَرِ، تطلُعُ مِن داخِلكَ كما تطلُعُ الشَّمْسُ
أنتَ مُخْتفٍ واأَسَفاهُ، قَمَرٌ تحتَ السَّحاب
فمَزِّقْ حِجابَ الجسَد؛ لأنّك بَدْرٌ، ولِقاؤكَ فَتّان.

ولِأَنّني صِرْتُ عاشِقًا لِشَمْسٍ وهائمًا به، وتحمّلْتُه بِمَحبّةٍ وتعلُّقٍ، اندهشَ كثيرًا. شَمْسٌ المضطَرِبُ الفَوْضَويُّ العنيدُ، صَحِبَ منذُ طُفولته الأقوياءَ وشيوخَ الظّاهر

المُرائين، وهو مُتواضِعٌ ومُهْمِلٌ لِنفْسِه إلى حدّ أنّه لا يثِقُ بنَفْسه.

في يومٍ مِن الأيّام، قالَ في أثناء المُناقَشة:

«إنّ وَراءَ مَشايخِ الظّاهر، هؤلاءِ المشهورينَ بينَ النّاسِ ويَتنقّلُ ذِكْرُهم فوقَ المنابر وفي المجالِسِ والمحافِل، عِبادًا محجوبينَ أكمَلَ مِن هؤلاء المشهورين. وهناكَ مطلوبٌ، بعضُهم عَرَفَه، ويَظُنُّ مَوْلانا أنّه أنا، أمّا اعتقادي فلَيْسَ هو هذا. فإذا لم أَكُنْ مطلوبًا، فأنا طالِبٌ، والقَصْدُ أنّ الطّالِبَ يظهَرُ مِن وَسَط المطلوب»[١]. وهذا ما جعَلْتُه السِّيماءَ الحقيقيّةَ للسَّفر:

لو أنّ العالَمَ أسَرَ طائرَ «الهُما»[*]، لبحَثَ العاشِقُ عن ظِلّه،

لِأنّـه ثَمِـلٌ بعِـشْقِ ذلـكَ الطّـائرِ الطّيّـب الـسُّمْعة

وأتحدّثُ أنا عن شَمْسِ الدّين التَّبْريزيّ، المـلازمِ لِلْعِشْق،

يا إلهي، لِماذا يكونُ الملِكُ في سَفَرٍ مُتواصِـل[٢]

---

١ ـ مقالات شَمْس تَبْريزيّ، ١/ ١٢٧.

* ـ الطّائر الذي كان قُدماءُ الإيرانيّينَ يعتقدون أنّه يَجْلِبُ السّعادةَ، ويتصوّرونَ أنّ كلَّ مَن يقَعُ علَيه ظِلُّه يغدو حَسَنَ الحظّ، وربّما يُصبِحُ مَلِكًا [المترجم].

٢ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغَزَليّة ٥٨٧.

ـ كُلُّ إنسانٍ إذا أخَذَ الكأسَ مِن ساقي عِشْقِكَ
صار بلَا وَعْيٍ، ولا عَقْلٍ، ولا عِلْم، وحائرًا.
وكُلُّ مَن هامَ في باديةِ عِشْقِكَ
صارَ في طَلَبِكَ، مِثْلي، فَوْضَويًّا مُهْمِلًا لنفسِه.
فريد الدّين العطّار

ابنُ عَرَبيّ وشَمْسٌ

أَحَدُ مُمَثِّلي المحفِل الرّوحانيّ، عندَما رَأى جَلالَ الدّين محمّدًا مبتهِجًا منْشَرِحَ الصّدْرِ بسببِ عَودةِ محبوبه، الذي يقولُ إنّه يُنوِّرُ مَخْدَعه، قالَ: إنّ العُمْرَ لا يسْمَحُ بأن تكونَ كذلكَ، وتتمسّكَ في حُضورِنا بالإيثارِ، الذي هو لَيْسَ فقط غيرَ لازمٍ، بَلْ يبدو مصحوبًا بشيء مِن الرّياء. إنّ مَحبّتكم وإخلاصَكم لِشَمْسٍ التَّبْريزيّ لا تنسَجِمُ وسِنَّكم، وأنتُم رَبُّ أُسْرةٍ محترَمةٍ، بعيدةٍ في قُونِيةَ عن كُلّ الملوِّثاتِ والنّقائص. لَسْتُ أدري أنقَلَ إليكم أحبّاؤكم الأقاويلَ والشّائعاتِ التي تُتداوَلُ في شأنكم بينَ النّاس في المدينة في موضوعِ علاقتكم بِشَمْس؟ هل تعْلَمونَ أنّ النّاسَ صاروا يعتقدونَ شيئًا فشيئًا بأنّ مُشاركتكم في مجالِسِ السَّماعِ، التي نشأت عن تَشْويِق شَمْسٍ، تشيرُ إلى أنّكم قد تخلّيتُم عن كلّ الاعتقاداتِ والقِيَم والتّقاليد التي هي محترَمةٌ عندَنا؟ لا أقولُ إنّهم يَعُدّونكم كافِرًا، بل يعتقدونَ أنّكم قد مضيتُم في مَسْلَكٍ جديد.

ـ أنتُم، وأَهْلُ قُونِيةَ، لا تعرفونَني ولا تعرفونَ أُسْرتي جيّدًا. فهَلْ تعْلَمونَ، أساسًا، لماذا جئنا إلى قُونِية؟ ـ أتى بنا إلى هنا ظُلْمُ السُّلطان محمّد خُوارِزْمْشاه وجَوْرُه، بسببِ حادثةٍ سيّئة لجأنا إلى هنا. عندَما أُلقِيَ مَجْدُ الدّين البغداديّ، العارفُ الكبير، من دون ذِكْرِ السّبب في نهر جَيْحونَ بِأَمْر الخُوارِزْمْشاه [٢٢٠]، خرَجَ والدي بصُحْبة أُسْرته مِن بَلْخ. وقد شيّعَنا النّاسُ بِأَعْيُنٍ مُثْقَلةٍ بالدّموع إلى مَسافةِ فَراسِخَ كثيرةٍ خارجَ

المدينة، كان الدّمْعُ ينهَلُّ مِن الأَعْين، والقلوبُ مملوءةً بالحِقْد، الحِقد على مجموعةِ أفرادٍ كانوا قد هيّؤوا الأسبابَ لِهِجْرةِ رَجلٍ عظيم. كان البَلْخيّونَ يقولونَ إنّه بِذَهابِ سُلْطانِ العُلَماء (والِدِ مَوْلانا) ستخرجُ السّلامةُ والسّعادةُ والخيرُ والبركةُ تدريجيًّا مِن سَماء بَلْخ، وستَخْرَبُ المزارعُ. وأنا، في صُحْبة والِدِي، وعددٍ مِن الفُقَهاء الكِبارِ العالي القَدْرِ في خُراسانَ، ترَكْنا بَلْخ. ثلاثُ مئةِ جَمَلٍ كانَتْ تحْمِلُ الكُتُبَ والأموالَ والأمتعة. كان والدي، بِقامته الرّشيقة، يتقدّمُ القافلةَ راكبًا جَمَلًا، وكان إلى جانبه أربعونَ عالِمًا مِن عُلَماء بَلْخ أيضًا، وعلى امتدادِ الطّريق تواصَلَتِ النّقاشاتُ العِلْميّةُ والعِرْفانيّة. وكلّما كُنّا نبتعدُ عن بَلْخ كان جَيشُ المغولِ السّفّاكُ للدّماء يقتربُ مِن حَواضِرِ الإسلام. وصَلْنا إلى نَيْسابور، وفي تلكَ الأثناء كُنتُ طِفْلًا، وقد زُرْنا الشّيخَ فريدَ الدّين العَطّار، وأهداني كتابَه «**أسرار نامه**» [بالفارسيّة، بمَعْنَى «كتاب الأسرار»]، وبِسُرورٍ قالَ لِوالِدِي:

ـ سَرِيعًا، سيُضْرِمُ ابنُكَ هذا النّارَ في مُحترقي العالَم.

فكّرَ والدي لِلَحْظةٍ، وكانَتْ نظَراتُه إلى وَجْهي مضطربةً. وعندَما غادَرْنا مَحضَرَ الشّيخ العَطّار، سألتُ والِدِي: ماذا يقولُ هذا الرّجلُ الصَّيْدَلانيّ [العَطّار]؟. صمَتَ والِدِي لِلَحْظةٍ ثمّ قالَ:

لَيْسَ هو صَيْدَلانيًّا فحَسْبُ، هو أيضًا مِن سُكّانِ وادي الطّريقة، ومِن الذين تربَّوا على مَجْدِ الدّين البغداديّ، طبيبِ الخُوارِزْمْشاه، الذي قِيلَ في شأنه:

طــافَ العَطّــارُ مُــدُنَ العِــشْقِ الــسَّبْعَ

ونحنُ حَتّى الآنَ، عندَ منعَطَفِ إِحْدى حاراتِه

نَعَمْ، أيّها الأَحِبّةُ، أنا ووالدي الكبيرُ ترَكْنا في تلك الأيّام رَجُلًا ذا رُوحٍ عظيم. وههنا أَدّعي أنّ نُورَ منصورٍ [الحَلّاج] تجلّى بعْدَ خمسينَ ومئةِ عامٍ في رُوحِ فَريد الدّين العَطّار(*). صار مُربِّيًا له.

ـ مَنْ منصورٌ [الذي تتحدّثُ عنه]؟

ـ هو شَهيدُ طريقِ الحقّ، الحُسَينُ بن منصور الحلّاج(١)، العارِفُ الشّهير في إيران، صاحِبُ كتابِ «الطَّواسين». ولِأنّكم تعرفونَ العَطّارَ جيّدًا، لابدّ لي مِن أن أقرأَ لكم وأُترجِمَ أبياتًا مِن أشعاره [٢٢١]:

انزَعِ القَلْبَ مِنَ الرُّوح؛ لِكَي يُؤذنَ لكَ بالدُّخول،

وتُعطَى مُلْكَ العالَمَيْنِ بآهةٍ واحدة.

ولَوْ أنّكَ بَقِيتَ تحترِقُ حتّى السَّحَرِ كُلَّ ليلةٍ، كالشَّمَع

لأُعطِيتَ تُحفةً مِن النَّقْدِ الذي يُعطَى في السَّحَر.

ولو أنّكَ صِرْتَ سائلًا يقِفُ عندَ عَتَبةِ بابه

لأُعطِيتَ في كُلّ لَحظَةٍ مُلْكَ مئةِ مَلِكٍ.

ومِنْ دُونِ عِلْمِ الفَقْر، الطّريقُ مُظْلِمٌ

ولَوْ أُعطِيتَ أَلْفَ وَجْهٍ لألاءٍ كالقَمَر.

ترَكْنا نَيْسابورَ، ثمّ وصَلْنا إلى بغدادَ، وعَلَى ضِفافِ نهر دِجْلةَ سَدّ حَرَسُ المدينة

---

* ـ قُتِلَ الحلّاجُ سنةَ ٣٠٩هـ، ووُلِدَ العطّارُ سنةَ ٥٤٠هـ، والمُدّةُ بينَ الحدَثَيْن تقربُ من ثلاثينَ ومئَتَي سنة. وقد اقتضى الأمرُ التّنويهَ [المترجم].

١ ـ القُرّاءُ الأعزّاءُ، مِن أَجْلِ مَزيدِ اطّلاع على سِيرة الحلّاج، راجِعوا كتابَ المؤلِّف الذي يَحمِلُ العنوانَ: «حلّاج ورازِ أنا الحقّ» [بالفارسيّة بمَعْنى: «الحلّاج وسِرُّ أنا الحقّ»]، نشر دار نَشْر طهران، الطبعة السادسة [الأصل].

الطّرِيقَ على القافلة، وسألوا: مَنْ تكونونَ؟ ـ ومِن أيّ مكانٍ تَفِدونَ؟ ـ ولِمَنِ القافلةُ؟

أخرجَ والِدِي رأسَه مِن خِبائه فوقَ الجَمَل، وإذ كانَ ينظُرُ إلى الحَرَس بنظَراته النّافذةِ بمَحبّةٍ أجابَ:

ـ جِئْنا مِن اللّامكان، ونذهَبُ إلى اللّامكان. مِنَ اللّهِ، وإلى الله، ولا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلّا بالله.

طلَبَ الحَرَسُ أن يأمُرَ بتوقّفِ القافلة، وأن يذْهَبوا هم إلى الخليفة، ويَعْرِضوا عَلَى الخليفةِ وَصْفًا لمجيء الضّيوفِ الجُدُد، والكلامَ العجيبَ الذي سَمِعوه مِن والِدِي. تعجّبَ الخليفةُ مِن صَلابةِ إجابة والدي وقوّتها، وعلى الفَوْر دعا الشّيخَ شِهابَ الدّين السُّهْرَوَرْدِيَّ إلى الحضورِ إلى القافلة، وطلَبَ بيانَ ما جَرَى عندَ ضفّة دِجْلة. أدركَ السُّهْرَوَرْدِيُّ بفِراسته أنّ عارِفًا كبيرًا جاء مِن بَلْخَ إلى بغداد. وعلى الفَوْر، خَرَجَ مِن دار الخِلافة، وبِصُحْبة جَمْعٍ مِن عُلَماءِ بغدادَ المحترمينَ تقدّمَ لاستقبالِنا في ذلكَ المكان، ثمّ أخذَتْنا جَماعةٌ مِن المستَقْبِلينَ إلى عاصِمةِ الرّشيدِ مُحاطِينَ بالإِعْزازِ والاحترام والتّرحيب. مكَثْنا هناكَ ثلاثةَ أيّامٍ، حَيْثُ أرسَلَ الخليفةُ ثلاثةَ آلاف دِينارٍ لِوالِدِي، بِرَسْم الدّعاء له. رفَضَ والِدِي أَخْذَ كِيسِ النقود، ثمّ بعْدَ ثلاثة أيّامٍ غادَرْنا بغدادَ، ويمَّمْنا شطْرَ بيتِ الله الحَرام. وفي أثناءِ الطّوافِ بالكعبة تغيّرَ حالي: أشرَقَتْ عَينايَ بالنّور الإلهيّ، وصارَ قَلْبي مَحَلًّا للإخلاص والصّفاء. ثمّ بعْدَ زيارةِ الأماكنِ المباركة، وعندَ مُغادرةِ مكّةَ المكرّمة سمِعْتُ أنّ مُدنَ بُخارَى وسَمَرْقَنْد وبَلْخ وغَزْنَة ونَيْسابور وهَمَذان والرَّيّ تحوّلَتْ إلى رَمادٍ في حَمْلةِ عَسْكرِ جنكيزخان. قطَعْنا المَسافةَ [٢٢٢] إلى بلاد الشّام. وفي دِمَشْقَ وصَلَتْ إلى والِدِي رِسالةٌ مِن السُّلْطانِ

عَلاء الدّين كَيْقُباذ، بِوَساطَةِ رسولٍ خاصّ. دَعَا السّلطانُ سُلْطانَ العُلَماء [والِدَ مَوْلانا] بإلحاحٍ إلى قُونِيَةَ. قال لي والِدِي: أَيْ بُنَيَّ، مِنْ أَجْلِكَ أنتَ نحْنُ مضطرّونَ إلى الذّهاب إلى قُونِيَةَ. بعْدَ ذلكَ، فهِمْتُ القَصْدَ ممّا قالَه والِدِي. وفي آخِرِ الأمر، جئنا إلى هنا. وأنتُم والمحفِلُ الرّوحانيّ في قُونِيَةَ تعْلَمون أنّ استقبالَ سُلْطانِ الرّوم الشّرقيّة لمَوْكبِ والدي لم يكُنْ له نظيرٌ في تاريخ قُونِية. حتّى إنّه في مَراسِمِ هذا الاحتفال شاركَ عُلَماءُ الدّين وطُلّابُ العُلوم الدّينيّة في قُونِيَةَ، بمَحبّةٍ واشتياقٍ وإخلاص. تعرفونَ جيّدًا أنّ كُلّ الهدايا والتُّحَف والأُعطِيّاتِ التي أتى بها إلينا أهلُ قُونِيَةَ، على سَبيلِ الإكرام، وَزّعَها والدي على الفقراء والمساكين. وقد أقَمْنا في مدْرَسةِ ألتونبا. تُوفّيَ والِدِي عندَما لم تكُنْ سِنّي تتجاوزُ الخامسةَ والعشرين. غادَرَ هذه الدّنيا ففقدتُ بفَقْدِه أعظمَ مُرَبٍّ ومُرْشِدٍ وراعٍ ومُدرِّس. ولاشكّ في أنّه لو لم يُعاجِلْه الأجَلُ لِعدّةِ أَعْوامٍ لَما احتَجْتُ إلى شَمْسٍ التَّبْريزيّ. فلَيتَني عِشْتُ إلى جانبه لِعَدِدٍ أكبرَ مِن الأعوام، وحلَلْتُ مُشكِلاتِ حَياتي بتوجيهه وإرشاده. كان لَدَيه [ممّا علّمَه ربُّه سُبحانَه] كُشوفٌ ممّا يتّصِلُ بِعالَم الغَيب العظيم. كانَتِ الأشواقُ تضطَرِمُ في صَدْره. وما دامَ حَيًّا كُنتُ أحِسُّ بأنّ الشّيطانَ غيرُ قادرٍ عَلَى تخلُّلِ وجودي. إنّ قِصّتَنا، قِصّةَ حياتنا، ظلَّتْ حتّى الآنَ ناقصةً؛ لِأَنّ والِدِي ـ كالشّمْسِ عندَ الغُروب ـ تَوارَى في غَيابة جُبِّ الموت. كُنتُ أُحِسُّ بأنّ دُنيا قَلْبي، مِن دُونِ أبي، خِلْوٌ مِن كُلّ شيءٍ. كانَتِ الدّنيا تبدُو لي شَبيهةً بِأَضْغاثِ أَحْلامٍ، كلّها عَبَثٌ وباطِلٌ. ومعَ الوَقْت، كانَتْ فِكَرٌ وعقائدُ مختلفةٌ تُهاجمُني. ضُروبُ الاضطرابِ والقَلَقِ، في عالَمي الدّاخليّ، نفَذَتْ إلى أعماقِ وجودي. لم أَكُنْ أريدُ أن أكون أُلْعُوبةً بيَدِ كَلامِ الآخَرين وحديثهم. كُنتُ أُريدُ أن

أبسُطَ جَناحي، كالطّائر الملَكوتيّ، فأَطيرَ مِن أَعالي قُونِيَةَ إلى أعالي الأفلاك. ولَيتَ والِدِي فتَحَ أمامي كُتَيِّبَ العِشْق أيضًا، وعلّمَني أَلِفْباءَ السَّير في الأكوان، كيفَ أَقدِرُ على أن أُجِيبَ عن الأسئلة التي تؤرّقُ داخلي. كُنتُ أُحِسُّ بذائقتي، بعدَ وفاةِ والدي، بطَعْمِ حنظَلِ الوَحْدةِ القارِصِ المملوءِ بالمَرارة والإزعاج، المملوءِ بالمشكلات المؤلمة. كُنتُ ألجأ إلى ماضِيَّ عندَما كان أفقُ المستَقْبَلِ يبدُو مظْلِمًا، وكُنتُ مُكْرِمًا لِفِكَر الماضي الحُلْوة. عندَما كُنتُ أَسْمَعُ ترانيمَ الحياةِ الحلوةَ المثيرةَ لِلْخَيال، مِنَ الوالِدِ الذي كان قد حَبَاني ذوقَ الحياة وذوقَ التّفكير وفنَّ المناقشة [٢٢٣]، الوالِدِ الذي كان مُحْيِيًا لِقَلْبي الميّت كأنّه المسيحُ، اعتقدتُ أكثرَ بِقابِلِيّاتِ رُوحِ الإنسان وقُدراتِه التي لا حدّ لها ولا تُقدَّرُ بثَمَن، وآمنتُ بأنّه في كُلّ عَصْرٍ لابدّ مِن وَلِيّ، وبأَنّ الطّريقَ لِنَيْل مَقامِ الوِلاية مفتوحٌ أمامَ النّاس المؤمنينَ الموحِّدينَ المُخْلِصينَ. يقالُ إنّ جَماعةً هنا سمَّتْ شَمْسًا «مُفْسِدَ الفِكَر». وشَمْسٌ مِن تلاميذ مَدْرسةِ مُحْيي الدّين بن عَرَبيّ؛ فقد دَرَسَ في جامِع دِمَشْق، وإحاطتُه بالفِكَر العِرْفانيّة عندَ ابنِ عَربيّ أمرٌ مسلَّمٌ به وغيرُ قابِلٍ للإنكار، وربّما يكونُ أَحَدُ المصادِرِ العِلْميّة والذَّوقيّة لِشَمْسٍ كُتُبَ ابنِ عَرَبيّ. وقد شرَحَ لي شَمْسٌ تفصيلًا مبحثَ الإنسانِ الكامِلِ عندَ ابن عربيّ، الذي فصّلَه في كتابه «الفُصوص». وقد ذكَرَ شَمْسٌ قَولَ ابنِ عربيّ: الدُّنيا قَالَبٌ، وبتعبيرٍ آخَر: الهدَفُ والمقصودُ الأَصْليُّ لِلْخَلْق هو الإنسانُ، وسِرُّ صَيرورتِه الذي سجَدَتْ له الملائكةُ، وكَوْنُه أَشْرفَ الموجوداتِ، داخِلٌ في هذا نفسِه. وقد أضافَ شَمْسٌ إلى آراءِ الشّيخ مُحْيي الدّين أنّ الإنسانَ يمتلِكُ في داخِلِه عالَمًا، وقَلْبًا هو مُخْتلَى العِشْق، والإنسانُ العاشِقُ يبحَثُ عن الإنسان الكامِلِ. وقد نظَمْتُ بيانَ شَمْسٍ شِعْرًا على هذا النّحْو:

الأَرْواحُ في أَصْـــلِهَا كــــنَفَس عيـــسى[1]

ولكنّها [بعْدَ حُلولها في الأجْساد] يكونُ نَفَسُها جُرْحًا تارةً ومَرْهَمًا أخرى

ولَـوِ ارتفَـعَ حِجـابُ [الأَجْـسادِ] عـن الأَرْواح

لَكـــانَ كَـــلامُ كُـــلِّ رُوحٍ كـــنَفَس المــــسيح

فالإنسانُ في صُـورتِه فَـرْعٌ مِـن فُـروعِ هـذا الكَوْن

لَكِـــنِ اعْلَـــمْ أَنّـــه في صِـــفتِه أَصْـــلُ هـــذه الـــدّنيا

فظــاهِرُه تــستطيعُ بَعُوضــةٌ أن تجعَلَــه يَـدُورُ

أمّـــا باطنُـــه فمُحـــيطٌ بِـــالأفلاكِ الـــسَّبعة[2]

وعندَما كان شَمْسٌ يَصِلُ إلى مَبْحَثِ العِشْق، كان يهتاجُ حَتّى إنّه ينسَى نفسَه، ويُحجِمُ عن الكلام. وقد أثبتَ لي تفسيرُ العِشْقِ تجلّيَ نُبوغه العِرْفانيّ. وهذا هو الذي أؤمِنُ به:

قُلْ لِحُورِ القُصورِ أَخْرِجْنَ الأثاثَ والمتاعَ مِن الجنّة

وضَـعْنَ سَـريرَ المُلْـك، فسيـصِلُ شَمْـسي

وقـد أَحْيـا عيـسى المَيْـتَ، ورأى فَنـاءَ الـنّفس

وأنـتَ حَـيٌّ خالِـدٌ، يـا شَمْـسي ويـا محبـوبي

---

١ ـ كتبَ الدكتُر خليفة عبد الحكيم في كتابه الذي يحمِلُ العنوان: «عِرْفان مولوى» ترجمة السّيّدَين محمّدي وعلائي، يقولُ: «إنّ مَوْلانا، في إشارته إلى أنّ المسيحَ وُصِفَ في القرآن بأنّه «رُوحُ الله»، استعملَ التعبيرَ نفسَه الذي استعملَه يوهان إكهارت، الذي كان يعتقدُ بأنّ وِلادةَ المسيح هي التّكرارُ المستمرُّ لِولادة النّفْسِ العالية في الإنسان. وإكهارت هذا هو مؤلّفٌ عِرْفانيّ مِن القرن الثالثَ عشَرَ الميلاديّ، وقد أثارت آراؤه في وَحْدة الوجود غضَبَ أهلِ عَصْره [المؤلّف].

٢ ـ المثْنَوي: ١/١٦٠٨ ـ ١٦٠٩، ٤/٣٧٦٧ ـ ٦٨.

ـ في البَدْءِ، صَفّى عِشْقُكَ قَلْبي
وجَلَا أصداءَ مِرْآتي،
ـ ومِنْ بعْدِ ذلكَ، لِرِيحِ الفَناءِ
أَسْلَمَ رَمَادي

صفاء الأصفهانيّ

أنا وشَمْسُ

الصّداقةُ والصّفاءُ، اللّذانِ وُجِدا في مَجْدِ الدّين البغداديّ ووالِدي، لم أشاهِدْهما إلّا في نَفَرٍ قليلٍ مِن المشايخ. كان مِن بَرَكة أنفاسِ والِدي أَنْ أدركْتُ أنّه مِن أَجْلِ الوصولِ إلى حَيِّ المحبوب لابدّ مِن امتلاكِ الحُرَق والآلام. انطوَتْ جَمهَرَةُ سِيَرِ العارفين وشُيوخِ الطّريقة، ما قرأتُه مِنها وما سمِعْتُه مِن والِدي، على جِدّةٍ وطَراوةٍ وجَمالٍ ورَوعةٍ في نفسي، وكانَتْ مُسلِّيَةً جدًّا. كُنتُ أجمعُ أقوالَهم أو أَحْفَظُها عن ظَهْر قَلْبٍ، غيرَ أنّ هذا الكَلامَ لم يطفئ لَظَى قَلْبي كما ينبغي. عَجَزَ هؤلاءِ عن أن يُرْوُوا ظَمَأَ رُوحي، الذي كان تَوْأمًا لِلْهِجْرانِ ولفِراقِ والِدي. كان لدَيَّ تعلُّقٌ كبير بإدراكِ أسرارِ كلامهم، ولم أستطِعْ أن أفهَمَ جيّدًا حقيقةَ ما يعنيه كلامُهم. وأُثني على الشّيخ العطّار لأنّه قالَ قَولًا جميلًا:

ـ لَسْتُ أعلَمُ كَلامًا أَسْمَى مِن كلام المشايخ، وأرى أنّ كلامَهم أجملُ كلام.

أنا أيضًا أعُدُّ الكَلامَ العِرْفانيّ ماءً فُراتًا، يُزيلُ ظَمَأَ الرّوحِ والقَلْب عندَ مُشتاقي الطّريقة وعاشِقِي العِرْفان.

ـ وما أكثرَ ما قالَ لي والدي: إنّ العِلْمَ أَسْمَى الفضائلِ التي يتحَلّى بها الإنسانُ، لكنّه لا يمكنُ كشْفُ الحقائقِ بمَدَدِ العِلْم. والحياةُ بَحْرٌ متلاطِمٌ وزَخّارٌ، ومِن أَجْلِ عُبورِ طُوفاناتِ الحياة المرعِبة لابدّ مِن رُكوبِ سفينةِ العِشْق والمَحبّة. والعِلْمُ

الحقيقيُّ هو عِلْمُ العِشْق، والعُلومُ النَّقْليّةُ والعقليّةُ هي فِكَرُ الإنسان، أمّا [٢٢٥] العِشْقُ فعِلْمٌ إلهاميٌّ وإِشْراقيّ. وقبْلَ أن يطّلعَ العُلَماءُ على حَقائقِ ما وراءَ الطّبيعة وينشَغِلُوا بها، كانوا يَعْرِضونَ كلَّ نَوعٍ مِنَ العقائدِ والفِكَر على مَحْكمة العَقْل والعِلْم. وهذا غيرُ كافٍ للعَيْش والحياة، إذ لَيْسَ في وُسْعِ العِلْم أن يجعَلَ أرواحَنا قويّةً ووجودَنا مملوءًا بالنّشاط. ولهذا السّبب، كُنتُ أبحَثُ عن طريقٍ سُلوكيّ ومعراجٍ فِكْريّ. كُنتُ أريدُ أن أَشُقَّ حِجابَ الظّلماتِ والمُبهَماتِ، وأتجاوزَ مملكةَ العَقْل، وأجِدَ طريقي إلى مَدارِ العِشْق، لكنّني كلّما نظَرْتُ إلى مَن حَوْلي لم أظفَرْ بأحَدٍ يكونُ إمامًا لي ومُرشِدًا.

وبغتةً طلَعَ شَمْسٌ في سَماء حَياتي. وفي اللّحَظاتِ التي أغدُو فيها يائسًا قليلًا، كان العَجْزُ عن إدراك الحقائق يرمي بي في وادي اليأس. وفي تلكَ اللّحَظات، تذكّرتُ قولَ باعِثِ الحياة الحقيقيّة، رَسولِ الإسلام، الذي قالَ: لا تيأسوا مِن رحمة الله، فإنّه لا ييأسُ مِن رحمة الله إلّا الكافرون(*).

اعلَموا أنّني وصَلْتُ إلى شَمْسٍ التَّبْريزيّ مِن طَريق الإيمان بالله، القُدْرةُ العظيمةُ للإيمانِ بالوجود، الإيمانِ بالله، معَ القُدْرةِ الموجودة في داخلي، أَوْجَبتا أنْ أفهَمَ شَمْسًا وأَجْذِبَه بكُلّية وجودي. بِمُشاهَدِة شَمْسٍ وُلِدتُّ مِن جديدٍ في هذه الدّنيا. كُنتُ مَيْتًا فعِشْتُ مِن جديدٍ، وهذه الحياةُ مِن جديدٍ هي عندي سَعادةُ الخلود. وقد قالَ عيسى المسيحُ: الإنسانُ الذي لا يُولَد مِن جديدٍ لا يدخُلُ ملكوتَ السّماء:

إذا لـم تَمُـتْ صـارَ نَـزْعُ الـرُّوح طَـويلًا

فـانطَفِئْ في الـصّباحِ، يـا شَـمَعَ طِـراز

---

* ـ أحسَبُ أنّ المؤلِّف غابَ عنه أنّ هذا ليس حديثًا، بل هو الآيةُ ٨٧ من سورة يوسُف، حيثُ يقولُ ربُّنا سُبحانَه: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

ومـــا دامَـــتْ أنجُمُنـــا لـــم تختَـــفِ

اعلَـــمْ أنّ شَـــمْسَ الـــدّنيا مختفيـــةٌ

فـصِرْ قِيامـةً، إذًا، ثـمّ انظُـرْ إلـى القِيامـة

وهـذا هُـوَ الـشّرْطُ لِرؤيـةِ كُـلِّ شَـيء(١)

قال لي شَمْسٌ: اعلَمْ وكُنْ عَلَى درايةٍ مِن أنّ حالًا مِن العِشْق شَمِلَ الكائناتِ كلَّها، وهذا العِشْقُ أداةٌ لدَفْعِ الإنسان وسَوْقه إلى الحقّ. والعِشْقُ، في الأَصْلِ، هَدَفٌ غائيٌّ وجُنونٌ بالحَضْرة الإلهيّة. علّمَني شَمْسٌ أنّ الغايةَ مِن المجيء إلى هذه الدّنيا هي مُزاوَلةُ العِشْقِ وفِعْلُه. العِشْقُ إكْسيرٌ ودَواءٌ للأمراضِ الأخلاقيّة والنّفسيّة التي تُصيبُ البشَر. العِشْقُ يُحْرِقُ كُلَّ الصّفاتِ الذّميمة مِن الوجود كلّه، ويحيلُها رَمادًا. حالُ العِشْقِ كحالِ الماء الزُّلال مِن نَهْر الكوثَر، يغسِلُ الخِصالَ البشَريةَ المذمومة كلّها، ويُبرئ منها. العِشْقُ طبيبٌ لِكُلّ [٢٢٦] الآلام، ودَواءٌ للكِبْر والغُرور والتّعالي والعُجْب في الوجود.

العِشْقُ يرتفعُ بالجِسْم الطِّينيّ مِن الحَضيضِ إلى قِمَم الأفلاك، واضطرّ جَبَلَ الطُّورِ إلى الرَّقْصِ والارتجاجِ والاندكاكِ، معَ ما لَه مِن عظَمةٍ وجَلالٍ وحجارةٍ عظيمةٍ وقِمَمٍ سامقة وراسخة. ذلكَ الرُّوحُ الذي أَحْيا جَبَلَ الطُّور، وأعطاه رُوحًا، إنّما هو العِشْق.

العِـــشْقُ مُخْتَـــفٍ في الأنغـــامِ والألْحـــان

فـــإنْ أفـــشَيتُ الـــسِّرَّ خَرّبْـــتُ العـــالَـــمَ

ومَـــا يقولُـــهُ النّـــايُ في هـــذَيْنِ الأمْـــرَينِ

لَـــوْ قُلْتُـــه أنـــا لَخَـــرِبَ العـــالَـــمُ

---

١ ـ المثنوي: ٦/٧٣٥ ـ ٣٧، ٧٦١.

ولَـوْ لـم يكُـنْ مِـنْ أَجْـلِ عِـشْقِ الطّـاهِرِ

مَتَـى أَعطَيْـتُ الوجـودَ للأفـلاك؟[١]

ولِأَنّ شَمْسًا كان قد دَرَسَ فلسفةَ يونان، عبَّرَ عن قَوْلِ سُقْراط في العِشْق على هذا النّحو:

العِشْقُ حَرَكةٌ باتّجاهِ الجَمالِ الأكْمَلِ، بِقَصْد مُشاهَدةِ ذلكَ في أَجْملِ مَلامحه؛ ذلكَ لِأَنّ الرّوحَ قَبْلَ اتّصالِه بالمادّة وبِعالَمِ الحِسّ كان قد رآه في تلكَ الصّورة. العِشْقُ قَنْطَرةٌ أو جِسْرٌ بينَ ذلكَ العالَم وهذا العالَم. وفي النّهاية، العِشْقُ شَوْقٌ إلى الخلود، ونُشْدانٌ له.

وقد نَقَلَ شَمْسُ التَّبْريزيُّ عن الشّيخ عبْدِ الله الأنصاريّ قولَه: إنّ شَمائلَ المعشوقِ، كالظِّلّ، تَصحَبُ العاشِقَ حَيْثُ يمّمَ، وعُشّاقُ الحقِّ تعالى أَحْياءٌ دائمًا، خالدونَ مُخلَّدونَ في هذه الأرض.

يَرَى شَمْسٌ أنّ مِلاكَ وجودِ الإنسانِ، وهُوِيَّتَه، إنّما هو العِشْقُ، وقد تجاوزَ هو هذه المرحلةَ معتقِدًا أنّ الإنسانَ يستطيعُ أن يعيشَ الحياةَ بمَعْناها الحقيقيّ، أو يَعُدَّها جزءًا من حياته الحقيقيّة، منذُ اللّحْظةِ التي يعْرِفُ ماهيّةَ العِشْق. وأنا أيضًا منذُ أن حدّدتُّ مَسيرَ حَياتي بِوَساطةِ العِشْق، بِمُساعَدةِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ، فَهِمْتُ معْنَى الضّياء، وعرَفْتُ طبيعةَ الحياة. وهكذا، العِشْقُ ثَوْرةٌ في الحَياة، والثّورةُ في الحَياة عُصارةٌ للدّين[٢]:

[٢٢٧] أيّها السّادةُ، قَبْلَ أن أفهَمَ العِشْقَ كانَتِ الحياةُ عندي قِصّةً تافهةً، وغُصّةً

---

١ ـ المثنوي: ٥/٢٧٤١.

٢ ـ اعْلَمْ، أيّها الحَرُونُ، أنّ اكتسابَ الدّين يكونُ بالعِشْق والانْجِذابَ الدّاخليَّ هو القابليّةُ لِتَلَقّي نُورِ الحق
وكلّما تحدّثَ الإنسانُ العاشقُ انبعثَتْ رائحةُ العِشْق مِن فَمِه في حَيّ العشق
(المثنوي: ٢/٢٦١١؛ ٢٨٩٣)

مملوءةً بالصُّداع، أمّا الآنَ فأَرَى الحياةَ الدّنيا مَحَلًّا لِتَجَلِّي المسّراتِ واللّذّات الخالدة. وإذا كان ديمُوقْريطِسْ قالَ: لا يوجَدُ في الفَضاء، على جِهة الحقيقة، شيءٌ غيرُ الجزء الذي لا يتجزّأ، فأنا أقولُ: حقيقةُ الأَجْزاءِ التي لا تتجزَّأُ، وكَينونتُها، مِن العِشْق، ولولا العِشْقُ لَما بقيَتْ وَسْطَ هذه الذّرّاتِ الوجوديّة شَمْسٌ وضّاءة. ونحْنُ نطْلُبُ نُورَ الله في الذّرّاتِ كلّها، ونَرَى وَجْهَه أينَما ولّينا وُجُوهَنا. وهذه القُدْرةُ على الإبْصار، وهذا النّظَرُ المنقِّبُ الباحِثُ، أعطانا إيّاهما العِشقُ.

أيّها السّادةُ، اعلَمُوا أنّ العِلْمَ والتّجرِبةَ يَدُلّانِنا فقط على ما هو موجودٌ، لكنّ الحقيقةَ هي أنّه لا يُحْصَلُ على الحقائقِ الكُلّيّة بِطَريق العِلْم والتّجربة. ومعَ عِلْمي الواسع، لم أستَطِعْ أن أتمكَّنَ مِن إدراكِ أصغَرِ سِرٍّ موجود، حتّى جاءت دَولةُ العِشْق وحملَتْني إلى حَيْثُ إنّني اليومَ أُحِسُّ بالغُرور إزاءَ ما أعلَمُه وما أفهَمُه، وأُحَيّي يومَ ميلادِ الإنسانِ العاشِقِ ويومَ وفاته ويومَ بَعْثه. نُورُ العِشْقِ يحيطُ بالعاشِقِ مِن اليسار واليمين، ومِنْ أَعْلى ومِنْ أَسْفَل، كالهالةِ التي تُحيطُ بالقَمَر. وهذا النُّورُ نفسُه يتلَأْلَأُ فوقَ رَأْسي كأنّه تاجٌ مُرَصَّعٌ، وعَلَى عُنقي كأنّه طَوْقٌ مِنَ الذّهَب.

يَدْفَعُ العِشْقُ إلى أن يمتَلِكَ كُلُّ إنسانٍ شَمْسًا مِنَ المَحبّة في قَلْبه؛ لِكي تتّضِحَ لهم الأَسْرارُ الخفيّةُ، وينكَشِفَ لهم سِرُّ الكائنات. وإذا لم تكُنْ مِرآةُ القَلْبِ غَمّازةً، ولم تكُنْ قادرةً على أن تعْكِسَ هذا النُّورَ المقدَّس، فلابدّ مِن السَّعْي لإزالة النّقائص:

أَتَعْلَمُ لِماذا لم تكُنْ مِرآتُكَ غَمّازةً؟

لِأَنّ الصَّدَأ لم يُزَلْ عَنْ وَجْهِها

فامْضِ، وأَزِلْ عَنْ وَجْهِها الصّدَأ

وبعْدَ ذلكَ، أدْرِكْ ذلكَ النُّور

شَمْسٌ هو الذي أوجدَ التّرابطَ بَيني وبينَ العِشْق. أَفْهَمَني لماذا، عندَما وَصَلَ ذلكَ الإمامُ الهُمامُ إلى مَزارِ شُهَداء المعركة وقفَ، وقالَ: هذا مَزارُ العاشقينَ. فلِماذا، وكَيفَ، يَسْمَعُ العاشِقُ بِأُذُنِ القَلْبِ صوتَ العُشّاقِ المثيرَ يُداعِب الأذُن؟

عندَما يكونُ الإنسانُ عاشِقًا، لا تكونُ لَدَيه عُقَدٌ نَفْسيّةٌ، ولا تكونُ مُدْرَكاتُه الذّهنيّة مضطَرِبةً، ولا يَرَى النّاسَ قَبيحِينَ، ويَعُدُّ كُلَّ العابدينَ لله [سُبْحانَه] والمُحبّينَ له إِخْوةً ومتساوينَ، ويَدُوسُ الأساسَ الماديّ بِقَدَمِ الإيمان والاعتقاد، ويَرَى أنّ عَطايا الطّبيعة مُسَخَّرةٌ لِأَهْلِ الإيمان والعِشْق، [٢٢٨] ولا يتمنّى انطفاءَ سِراجِ الآخَرينَ ومَوْقِدِ حياتهم، ولا يُقيمُ مَنْزِلَه فوقَ أَطْلالِ كوخِ مؤمنٍ. لا يصْعَدُ على سُلَّمِ «أنا» و«نَحْنُ»، ويتماسَكُ أمامَ شدائدِ الحياة وضَرّائها، ويعْلَمُ أنّ الله سُبْحانَه يفاخِرُ ويُباهي بالعُشّاق المؤمنين.

سألَ أحَدُهُم جَلالَ الدّين البَلْخيّ: هَلْ صَحيحٌ أنّ شَمْسًا مِن نَسْلِ كِيا بُزُرْگ أُميد(*)، إمامِ الفِرقة الإسْماعيليّة، وتركَ الآنَ المذهبَ الإسماعيليّ؟

ـ هو مُسْلِمٌ، تلقّى تعليمَه الأوّليّ في تَبْريزَ، وسلَكَ طريقةَ التصّوف عندَ بابا كمال الجَنْدي، وكان يؤمِّنُ مستلزَماتِ عَيْشِه مِن طريق نَسْج السِّلال. وفيما بعْدُ يمَّمَ شطْرَ دِمَشْقَ، وفيها أكمَلَ محصولَه مِن العِرْفان الذّوقيّ والعِلْميّ عَلَى الشّيخ مُحْيي الدّين ابن عَرَبيّ وشيوخٍ آخَرينَ مِن أساتذة العِرْفان. وشَمْسٌ متبحّرٌ في الفلسفةِ والإلهيّات وعِلْم النّجوم، وهو يرى أنّ الدّنيا أَساسٌ لِلْعِشْق، وأنّ العقْلَ والقانونَ قِياسًا إلى

---

* ـ أحَدُ دُعاةِ الفِرْقةِ الإسماعيليّة. بِمُساعدته أخضَعَ حسَنُ بنُ الصَّباح قَلْعةَ لَمْبسَر في مدينة رودبار أَلَموت، ثمّ جعَلَه نائبه. وفي زمانِ كِيا بُزُرْگ أُميد طعنَ فدائيّو الإسماعيليّة الخليفةَ العبّاسي المسترشِد بالله بالسّكّين في مَراغةَ. بعْدَ كِيا بُزُرْگ أُميد، خلَفَه ابنُه محمّد منذ عام ٥٣٨هـ [المترجم عن: دكتر محمّد معين، فرهنگ فارسی].

العِشْق ظاهِرتانِ ثانويّتان، ولا شيءَ في الكائناتِ يبقَى مَحْميًّا مِن سُلْطانِ العِشْق وتأثيرِه. وأعتقِدُ أنّه لَيْسَ مرتبطًا بالإسْماعيليّينَ، ولا بالفِرَق المختلفة، وعندَه في شأن ماهِيّة الوجودِ ووَحْدة الوجود آراءٌ جديدة، مُستمَدّةٌ من فِكَر ابن عَرَبيّ.

وفي كَلامِ شَمْسٍ إشاراتٌ كثيرةٌ إلى العِلْمِ الإلهيّ، والتّوسُّلِ إلى الله، والحياةِ الرّوحيّة، ونوّهَ بِشَوقِ الوُصولِ إلى ساحة العِشْق، ودعا المشتاقينَ بخضوعٍ إلى طَريقته. أنا منشَغِلٌ تمامًا بِفِكَر شَمْسٍ التَّبْريزيّ الخالصة، وأسألكُم أن تأتوا وتُعْنَوا بكلامه، وإذ ذاكَ ستُقِرّونَ بأنّ هذا المُثْني على مَذْهَبِ العِرْفان والعِشْق، بعْدَ أن يجذبَكم إلى كُلّ نواحي بحْثِه ويؤثّرَ فيكم، يُبيّنُ تفكيرَه وهدفَه النّهائيّ الذي ينطوي على جِدّةٍ ولَذّةٍ. في يومٍ مِن الأيّام، قالَ لِلْمُشتاقينَ إليه مِن أَهْلِ قُونِيةَ: حتّى الآنَ، لَيْسَ لَدَينا الأَهْليّةُ لِلْكَلام، فليتَنا نمتَلِكُ أَهْليّةَ الاستماع. ولابدّ مِن كَمالِ الكَلامِ وكَمالِ الاستماع. عَلَى القُلوبِ خَتْمٌ، وعلى الألسنةِ خَتْمُ، وعلى الآذانِ خَتْمٌ. القليلُ يُشِعّ، فإذا شكرَ الإنسانُ زادَ اللهُ سُبحانَه محصولَه. والشُّكْرُ مِثْلُ أن تقولَ بلِسان الحال: أَرِنا الأَشْياءَ كما هي، فيأتي الجوابُ «لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ»[1](إبراهيم /الآية ٧).

١ـ مقالات شَمْس تَبْريزيّ، ص ٢٣٣.

عنْدَ السَّحَرِ أخَذَ هاتفُ الصَّبا يحكي لي
أنّ بِشارةً تتحدّثُ عنِ الوَصْل جاءت مِنْ ديار المعشوق،
جعَلَها اللهُ بِشارةً لك، أيّها القلبُ، بأنّ اغتمامَك في
اللّيل قدِ انتهى
كنتُ أقرعُ البابَ منذ زَمَنٍ؛ عندَما جاء نداءٌ مِنَ الباب
[يقولُ:] ادخُلْ، ادخُلْ يا عِراقيُّ، فأنتَ أيضًا لَنَا.

فخر الدّين العراقيّ

شَمْسٌ ذُو قُدْرةٍ رُوحيّة خارقةٍ للعادة

استقبلَ مَمَثِّلو المحفِلِ الرّوحانيّ في الرّوم الشّرقيّة، الذين كانوا مَحَلَّ إِكْرامٍ في بَلاطِ السّلاجقة، كلامَ مَوْلانا جَلالِ الدّين الباعثَ على التّساؤل بِشَيءٍ مِن الانزعاج والغضَب، ولم يَقْدِروا على أن يَظَلّوا أكثرَ من هذا مستمِعينَ غيرَ مُبالينَ وصامتين. واحِدٌ منهم، وهو الذي كان يظنّ أنّ صَمْتَ المجموعة راجعٌ إلى تأييدهم رَأْيَ مَوْلانا، قالَ لمَوْلانا:

- في تصوُّرِكُم، ألا يوجَدُ شَخْصٌ آخَرُ ههنا، أي في قُونِيةَ، يتحلّى بالصّفاتِ التي قُلتُمُوها؟

- في قُونِيةَ، لَسْتُ أدري. ربّما يكونُ ذلكَ؟!

- أَلَيْسَ هذا مجنونًا غِرًّا سَاذَجًا؟. هذا الذي تشْرَحُونَه مِن قَولِ شَمْسٍ خُلاصَتُه نظَرِيّاتٌ مُصفّاةٌ لِحُكماءَ مِن مَرْحَلةٍ ما قبْلَ أَرِسْطُو (ت ٣٢٢ق.م)، مُزِجَتْ بفِكرٍ يونانيّةٍ. عندَما أُخضِعتْ فُوكْيا، أقصى مدينةٍ في شَمالي أيوني، بأيدي الجيوش الإيرانيّة لَجأَتْ جماعةٌ من سُكّان تلكَ الدّيار إلى مدينة إيليا في سواحِلِ جنوبيّ إيطالية، وجاء إلى الدّنيا في تلك المدينة واحِدٌ مِن أعظم فلاسفة اليونان وأشهرهم، وهو بارمنيدس

الذي أسّسَ مذْهَبَ ما وراءَ الطّبيعة في الفلسفة. بارْمَنيدسُ الذي رسّخَ في الفلسفة فكرةَ «ما وراءَ الطبيعة»، نَحّى في فلسفته بإصرارٍ وإلحاحٍ لافتٍ للنّظَر كُلَّ ظواهر الأَشْياء، وبحَثَ عن الأُسُسِ والأصول التي توصِلُ الإنسانَ إلى حقيقةٍ واحدة هي وراءَ هذه [٢٣٠] الظّواهر. وقد سَعَى بارْمَنيدس بقوّةٍ، معَ إيمانه بالوَحْدة، لِأَن يقوِّيَ صَفاءَ القلب في مُقابِل الكَثْرة أو الثّنَويّة الفيثاغوريّة. الحقيقةُ التي كان بارْمَنيدس يلهَثُ وراءها كانَتْ أَصْلًا واحِدًا كُلّيًّا بإمامة العِشْق، الذي هو الحاكِم. وكانَ يُذيعُ فِكْرةَ عِلْم الأكوان في مُوازاة عِلْم الإنسان. وحتّى الإنجيلُ، يَعُدُّ العِشْقَ متّحِدًا بالمعرفة. وهكذا، لم يأتِ شَمْسٌ بشيء جديد، فقد ذكَرَ آخَرونَ قبْلَه فِكْرةَ العِشْق الكَوْنيّ وتعارُضِه مع العَقْل الكُلّي، وفصّلوا القولَ فيها.

ـ لا تُخْطِئوا، نحْنُ لا شأنَ لنا بالفلسفة، الفلسفةُ في ذلك الزّمان، أي في عام ٥١٤ قبْلَ الميلاد، كانَتْ مذْهَبًا في البُرهان الوجوديّ بمَعْرفة العالَم أو الكَوْن، وكانَتْ ممتزجةً بنَزْعةٍ مادّيّة وشَكّيّة. ولَعلَّ فلاسفةَ ذلك العَصْرِ لم يدرسوا العِشْقَ على نَحْوٍ مستقِلٍّ. ونحْنُ، أي شَمْسٌ وأنا...

ـ أنتُم تدّعونَ ادّعاءً عظيمًا في شأنِ شَمْسٍ وفي شأنكم، ولَيْسَ في طاقة العَقْلِ أن يفهَمَ جيّدًا تلكَ الادّعاءاتِ التي صُغتُموها بالكلام. وفي التّحقيق في موضوع الإنسان، أو عِلْم الإنسان، يتبيّنُ أنّ أَثِنا هي موطِنُ وِلادة هذه الفلسفة، وأنّ سُقْراطَ هو مؤسِّسُها. ويَعُدُّ أولئكَ الفلاسفةُ العقْلَ أساسَ الحقيقة.

ـ مِثْلُ أنّ الجِدالَ بُدِئ بالفِكَر، وأنا وأنتُم نتجادلُ بفِكَرنا. بينَما أنا وشَمْسٌ لَسْنا مِن أصحاب البِدَع، ولا نريد التّرويجَ والشَّرْحَ لفِكَر فلاسفة اليونان. أنا وشَمْسٌ نُدافعُ

عن عظَمة الإنسان، ولَدَينا رغبةٌ في تعليمِ النّاس عِلْمَ الكَوْن أو العالَم، وفي النّهايةِ نقولُ إنّ العِشْقَ في ذاته خَلّاقٌ ومُبْدِع.

ـ تزعمونَ أنّكم مُطَّلعون على كثيرٍ مِن أسرار العالَم؟

ـ بمُساعَدةِ شَمْسٍ، تخلّيتُ عن العلوم والمعارف التي قرأتُموها في الكُتُب، وكلّما كُنتُ إلى جانبه ازددتُّ عظَمةً وكمالًا. وبَعْدَ مُعاشَرته ومُذاكَرته، عرفْتُ طريقَ الوصول إلى الحقيقة.

ـ غَلّفتُم شَمْسًا بِهالةٍ سِحْريّةٍ، فإذا أمكنَ فاخرُجوا مِن إطار شَمْسٍ، وتذاكَروا معَنا باسْمِ مَوْلانا الكبير، ابنِ سُلْطانِ العُلَماء. ومعَ كُلّ النّبوغ الذي تنسُبونه إليه، ومعَ قُدرته العِرْفانيّة، لم يعْرِضْ فِكَرًا جديدة.

ـ مِن غيرِ الممكنِ عَودتي إلى ما كُنتُ علَيه قبْلُ في حياتي، إلى الوَضْعِ الذي كان لي سابقًا، إذ كيفَ [٢٣١] أستطيعُ أن أتخلّى عنِ المنطِقِ الجذّابِ عندَ شَمْسٍ؟ أمّا في شأن فِكَره فإنّ الإنجازَ العظيمَ لِشَمْسٍ هو تخليصُ العِرْفان مِن اللّامُبالاةِ والتّسليم، وتقديمُ التصوّفِ الباحثِ العِشْقيّ.

ـ لا أفهَمُ مقصودَكم.

ـ في السّابق، وقفْتُ أَمامَ خَلاءٍ عظيمٍ مِن اللّامبالاةِ في حَياةِ الرّوح، التي كانت تبدو متوقّفةً ولا فعّالةً. أمّا بعْدَ لِقاءِ شَمْسٍ، الذي علَّمَني التّفكيرَ الصّحيحَ، فقد وَقفَتْ أَمامي دُنيا مُشْرِقةٌ وبَحْثٌ لا يتوقّف. فكَيفَ أخرُجُ مِن هذه الدّنيا النّورانيّة، وأدخلُ دُنْيا سجَنَتْ فيها الكُتُبُ والآراءُ المختلفةُ ذِهْنيَ الفعّالَ ونُبوغي؟ ما تعلّمتُه في مدرسة شَمْسٍ أعطاني هو نفسُه صَفاءً وبَساطةً عظيمَين، إذ عرَفْتُ ماهِيّةَ الإنسانِ وجوهرَه

معرفةً جيّدة. فهو يقولُ:

نَحْنُ مِن الأَعْلى، ونذْهَبُ إلى الأَعْلى

نَحْنُ مِن البَحْر، ونذْهَبُ إلى البَحْر.

ـ الشّيءُ الذي بقيَ عندي مِن دون حَلٍّ بعْدَ ساعاتٍ مِن البَحْث هو: كيفَ خرجتُم عن مَسيرِ التّفكيرِ الصّحيح الذي كان، قَدْرَ الإمكان، طريقًا يقينيًّا لحياتكم، وجُذِبتُم نحْوَ شَمْس؟ آراءُ شَمْسٍ لَيْسَ في مقدورها أن تُوضِح جيّدًا ما كُتِبَ في دفتر الصُّنْعِ الإلهيّ. وقد حدّثتُمونا أنتُم مِرارًا، قبْلَ لِقاء شَمْسٍ، عن الوجودِ المطْلَق والمعرفةِ والواقعيّةِ في الأمور، التي كانَتْ كُلُّها معتمِدةً على فِكَركم الصّافية والصّادقة. أمّا الآنَ، فإنّ التّصوّراتِ والمفهوماتِ التي تمتلكونها عنِ العالَم كأنّها تغيّرت، فقد صِرْتُم لُعبةً لميولِ شَمْسٍ، كأنّكم أطفالٌ. جعلَتْكُم آراءُ شَمْسٍ في موضِعٍ مناسبٍ لِأَن تَحرَّروا مِن هذه المَعْمَعة ومن مَصْيدتكم. هَيَجانُه التغزُّليُّ والتّخيُّليّ شَبيهٌ بالخُرافة والأُسطورة. هذا النّحْوُ مِن التفكُّر في شأن شَخْصٍ، معروفٍ أنّه لا أَحَدَ مِن العُلَماء يقبَلُ فِكَرَه وآراءَه، يستلزِمُ أنّكم تختارونَ دائمًا العُزْلةَ في محدوديّتكم الفِكْريّة والفَرْديّة. ولِأَمدٍ طَويلٍ، انفصَلْتُم عن الحقيقة، والتعرّضُ لِشُعاع عَمَلِ شَمْسٍ إضاعةٌ للاختيارِ والاعتقادِ وحُرّيّة التفكير والاستدلال، ونِسْيانٌ لِلْمَيْل اللّاواعي إلى المراتب الفِطْريّة العليا.

أجابَ مَوْلانا:

ـ عندَما يُضاءُ القَلْبُ بالعِشْق لا تكونُ الحاجةُ إلى الاستدلالِ أمرًا لائقًا. اعلَموا [٢٣٢] أنّه في عالَمِ شَمْسٍ لا يوجَدُ ضِيقٌ في النّظَر، والانزواءُ والعُزْلةُ والبَطالةُ لا معنى

لها. وفي شُعاعِ عَمَلِ شَمْسٍ، الإنسانيّةُ والإيمانُ والمحبّةُ لها مَقامٌ لائقٌ. وما يأمرُ به شَمْسٌ، هو أنّه لابدّ مِن مُشاهَدةِ الوَجْهِ الفتّان المحبوب المضيء لحقائق الحياة. وكُلّ إنسانٍ يستطيعُ، بِمَعونة الشّعورِ الباطن، أن يلتقيَ بِأُناسٍ خارقينَ لِلْعادة بعيدينَ عن الحِرْصِ وادّخارِ المال والعُجْب. وشَمْسٌ زاهِدٌ عميقٌ، وفاضِلٌ، ومَدّاحٌ للحقيقة الخالدة. وكنتُ دائمًا مُستغرَقًا في جَلالِ شَمْسٍ وآرائه الخاصّة، وسأكونُ كذلكَ. هو إنسانٌ متفرِّدٌ، موجودٌ، يجِبُ معرفتُه معرفةً جيّدةً، إنسانٌ تنبعثُ آراؤه مِن أعماق قَلْبه. وتستطيعونَ أن تعْرِفوا شَمْسًا عندَما تسمَعُون كلماتِه[١] على نَحْوٍ دقيق، وتشاهدونَ قلقَه وتَوْقَه إلى الوصول إلى الحقيقة. أنتُم تَرَونَ ظاهِرَ شَمْسٍ، وتسمعونَ أصواتَ كلامه، أمّا أنا فأرى عُمْقَ وَجْدِه:

لا غَريـــبَ في هـــذه الـــدّنيا مِثْـــلُ الـــشّمْس

وشَـــمْسُ الـــرّوحِ باقيـــةٌ، لا أَمْـــسِ لهـــا

---

١ ـ المرادُ مِن كلماتِ شَمْسٍ عَينُ الكلماتِ التي جاءت في كتابه «المقالات». وفي المقدّمة التي كتبها الأستاذ الدّكتُر محمّد علي موحّد لـ«المقالات» رأى «أنّ المَسافةَ بين «**فيه ما فيه**» لمَوْلانا و«**مقالات شَمْس**» هي المَسافةُ التي توجَدُ بينَ نَثْرِ مَوْلانا ونَظْمه. «**مقالاتُ**» شَمْسٍ مِن أوّله إلى آخِره وَجْدٌ وحالٌ وهيَجانٌ ونشاط. وجُمَلُ الكتاب، معَ كلّ ما فيها مِن تَكَسيرٍ وتداخُل، مملوءةٌ بالصّفاء والجاذبيّة المدهشة.. فكلامُ شَمْسٍ، مع كلّ ما فيه مِن بساطةٍ وإهمالٍ للزّينة، جميلٌ وحُلْوٌ وذُو ماءٍ ورَونق. وعندَما يباشِرُ الكلامَ تتخيّلُ أنّه مَوْلانا ينشِدُ شِعْرًا! بيانٌ مملوءٌ بالنّشوة والنّغم، مَنْسوجٌ مِنْ سَدًى ولُحْمةٍ، من تهكُّمٍ وتمثيل، خالٍ مِن كلّ صنوف التكلّف والتّظاهر بالعِلْم، مملوءٌ بالأخيلةِ الملوّنة والفِكَر العالية، طافحٌ بالرّوح والحركة. ومعَ ذلكَ الهيَجانِ والغوغائيّة في دخيلته لم ينشغِلِ البتّةَ بإنشاءِ مقالٍ ولم يؤلّف كتابًا... وهو في الأساس لا يؤمنُ كثيرًا بالكتابة، ويقول جِهارًا: «ما يحرِّكُكَ هو عبدُ اللهِ، لا المكتوبُ مجرَّدًا. مَنِ اتّبعَ السَّوادَ فقد ضَلّ». ندقّقُ في كلامِه المدهِشِ هذا: «عندَما لا أكتبُ الكلامَ يبقَى في داخلي، وفي كلّ لَحظة يعطيني وَجْهًا آخَر». كأنّه يتبادَلُ الحُبَّ معَ المجالي السِّحْريّة لِلْخَيال في ذهنه المملوء بالضّجيج، ولا يرضَى قلبُه أن يراها مُجمّدةً محنّطةً في قوالبِ ألفاظٍ خَرْساء». مِن مقدّمة «مقالات شَمْس تَبْريزي» مختصرةً، ص١٨ .

والـشّمْسُ في الخـارج مَـعَ أنّهـا فَريـدةٌ فَـذّةٌ

يُمكـنُ أن يتـصوّرَ [الإنـسانُ] مَثـيلًا لهـا

أمّـا شَـمْسُ الـرّوحِ التـي أوجـدَتِ الأثيـرَ

فلَيْس لها في الذّهن، ولا في العالَم الخـارجيّ، نَظيـر[١]

شَمْسٌ واحِدٌ مِنْ أبرزِ شَخْصيّاتِ العِرْفان الإيرانيّ، إذ يتحدّثُ في شأن رُوحانيّةِ الإنسان. [٢٣٣] وبتأثيرِ تَلْقيناتِه الرّوحيّة العظيمة، تغيّرَ مَسيرُ تفكيري. ويعتقِدُ شَمْسٌ أنّ الإنسانَ، عندَما يغدو قلْبُه مَقَرًّا لِلْعِشْق والمحبّة، يستطيعُ أن يقتربَ مِن الكَمالِ وإدراك الحقائق.

نَحْنُ جئنا إلى الدّنيا لكي نستفيدَ مِن موجودات الواقع، ودُنيانا مركزٌ للاتّصالِ بالحقائق الخالدة. والإنسانُ، لأنّه يمتلِكُ رُوحًا مَلَكوتيًّا، يستطيعُ أن يكتشفَ الأَسْرارَ التي أحاطَتْ به كالهالة، ويندفعَ نحْوَ معارفَ أوسَعَ للواقع. ويقولُ شَمْسٌ: إنّ التّجارِبَ الحِسّيّةَ والمناهجَ الاستدلاليّة غيرُ قادرةٍ على أن تُصوِّرَ أَمامَنا المعنى الصّحيحَ للواقع والحقائق. ولابدّ مِن دُخولِ عالَم الباطن بِمَدَد العِشْق والذّوق:

جعَـلَ اللهُ الأفـلاكَ التّـسعةَ عَبيـدًا لِلْعاشِـقَين

وجعَـلَ دَولـةَ هـؤلاءِ العاشِـقينَ ثابتـةً راسـخة

وإلى يومِ القِيامة، جعَلَ اللهُ ساقيَ العِشْقِ الباقي

يَـأْتي إلينـا والكـأسُ علـى راحتِـه

١ـ المثنَوي: ١/١١٩ـ ١٢١.

وأبقَــى الله بُلْبُــلَ القَلْــبِ إلــى الأبَــدِ ثَمِــلًا

وأبقَــى ببّغــاءَ الــرّوحِ ماضِــغًا للــسُّكّر [١]

وأنتُم والمحفِلُ الرّوحانيُّ في قُونِيَةَ، معَ اطّلاعِكم عَلَى ما حَباني الله مِن عِلْمٍ وقُدرةٍ ذهنيّةٍ وإيمانٍ، كيفَ تأذَنونَ لأنفسكم أن تقولوا: لقد وقَعَ جَلالُ الدّين تحتَ تأثيرِ أوهامِ شَخْصٍ ساحِرٍ ماهِرٍ؟ إنّ الأفضلَ لكُم أن تسألوا هذا السّؤالَ: كيفَ تحوّلَ جَلالُ الدّين إلى عارِفٍ ثائر؟

١ ـ ديوان شمْس تَبْريز، الغزَليّة ٨٢٨.

ـ أيُّها السَّاقي، اكشِفِ النِّقابَ عن وجهِكَ الجميل
لِكَي أحتسيَ جامَ الطَّرَب على رائحتك
ـ لا تدَعْني أَمُتْ من الظَّمأ
محرومًا مِن قَطْرةٍ مِن جَدْولِك
ـ وقد تُبْتُ عنِ التّوبة والزّهد
لكَيْ أصِلَ بلحظةٍ إلى ناحيتِكَ
ـ أيكونُ مَنْ كانَتْ عَينُه ظَمْأى
مُرتويًا مِنْ ماءِ وَجْهِك؟
فريد الدّين العطّار

أَفلاطونُ والإِشْراق

إنّ عالَمَ عِرْفانِ شَمْسٍ عالَمٌ مملوءٌ بالعظَمة والجَلال، وههنا في مُتناوَلِ كُلّ إنسانٍ أن يكتشِفَ، أو يلمَسَ جيّدًا، حقيقةَ العالَمِ والمعارجَ الرّوحيّةَ عندَ الإنسان. وقد سارَعْتُ إلى الأَمامِ متبختراً بَحْثًا عن الصّوتِ الذي كان يترامَى إلى سَمْعي مِن أعماق الخَلاء، وفتَحْتُ عَينَ قَلْبي لِكَي أَرى الأشياءَ الجديرةَ بالرّؤية. بُني عِرْفانُ شَمْسٍ عَلَى أَساسِ عِشْق العالَم والإشراق. وقد اجتَزْتُ جادّاتٍ مستويةً صُنِعَتْ مِن مَجرّات النُّور. وكنتُ، بِمُساعَدةِ العِشْق، أرى أنّ الأشياءَ والمشكِلاتِ جميعًا صغيرةٌ وسَهْلة. ويَرَى شَمْسٌ أنّ مصْدَرَ كُلّ إحساساتِ الإنسان بِذاتِه وكُلّ المسَرّاتِ والهيَجانات إنّما هو قَلْبُ الإنسان، وعرّفَ ذلكَ القلْبَ بأنّه مَحَلُّ المُكاشَفةِ والشُّهود.

ـ إذا تحدّثْتَ عنِ المكاشَفة فلا تربِطْها باسْمِ شَمْسٍ في ذهنكَ؛ لِأَنّ المؤسِّسَ الحقيقيّ لمفهوم المُكاشَفةِ والشُّهودِ هو أفلاطون. فهو الذي كان يقولُ: الإشراقُ وحْدَه الطّريقُ لِكَشْفِ الحقائق الكاملة، ودعا أتباعُه إلى فِكْرة أنّ الحياةَ الصّحيحةَ

هي كَشْفُ الموجوداتِ العقليّة في عالَم الغَيب... هكذا قطَعَ أحَدُ الرّوحانيّين كَلامَ مَوْلانا. ثمّ أضافَ مَوْلانا:

ـ ولكنّ هؤلاءِ عَجَزوا عن أن يكْشِفوا ذلكَ عَلَى نَحْوٍ لائقٍ ودقيق، لم يستطيعوا أن يفهَمْوا هدوءَ العِشْق اللّذيذَ المستَحَبّ. وقد قالَ أحَدُ الفلاسفة في شأنِ عالَم الكَشْفِ والشُّهودِ و«المِثال» الأفلاطونيّ: إنّ هؤلاءِ كانوا يعتقدون أنّ «المِثالَ» خالِدٌ باقٍ، [٢٣٥] و«الهَيُولَى» معدومةٌ، لكنّهم لم يستطيعوا أن يبيّنوا كيفَ تجلّتْ هذه المُثُلُ في عالَم الغَيب، ثمّ، ما عالَمُ الغَيبِ هذا؟ ـ نحنُ لا نعُدَّ القبرَ المقصِدَ النّهائيّ لسَيْر الإنسان. أنا وشَمْسٌ نعتقدُ أنّ الإنسانَ الذي يواصِلُ سَيْرَه وسُلُوكَه بعِشْقٍ، تحتَ سَماءِ الحياة الجميلة، غيرُ قابِلٍ للفَناء البتّةَ، ولا يموتُ، شريطةَ أن يَصِلَ إلى عالَم اليقين.

ـ أيمكِنُ أن تُوضِحَ لنا تَمامًا المُرادَ مِن عالَمِ اليقين؟

واصلَ مَوْلانا القَولَ:

ـ تحدّثَ الإمامُ الغَزاليُّ في شأنِ اليقين، في أَحَد آثارِه، وكتَبَ يقولُ: في الإيمانِ باليقينِ ثَلاثُ دَرَجاتٍ أو مراتبَ: الأُولَى هي الإيمانُ العامُّ، وذلكَ كأَنْ يصدّقَ النّاسُ سريعًا أَخْبارًا يسمَعُونَها مِن أشخاصٍ معتَمَدينَ. الثّانيةُ معْرِفةُ العُلَماء التي يحصِّلونَها بمُساعدة عِلْمهم واطّلاعاتهم. الثالثةُ يقينُ العارفينَ الذين يَرَونَ الحقائقَ مِن دُون حِجابٍ، بعَين القَلْب. وشَمْسٌ يطوفُ في مَدارِ مِثْل هذه الحياة. وفي اعتقادِ شَمْسٍ أنّه يَتوارَى في قَلْبِ كُلّ نَسْمةٍ وهَبّةٍ واهتزازِ وَرَقةِ شَجَرةٍ، وكُلّ أَلَقِ نَجْمةٍ، نِداءاتٌ وتعاليمُ جوهريّةٌ. وهذه التّجَلّياتُ الذّاتيّةُ يُظفَرُ بها في عالَم اليقين. نَعَمْ، في عِرْفان لَيلةِ القَدْر.

ـ هَلْ قرأتُم كتابَ «فِيدَر» لِأَفلاطونَ؟

فقال مَوْلانا: نَعَمْ، أَقْرَأْتُ هذا الكتابَ في دار العِلْم في قُونِيَةَ.

ـ في هذا الكتاب، يَعُدُّ أَفْلاطونُ العِشْقَ ابتلاءً سَماويًّا؛ ولذلكَ، العِشْقُ في نَظَر أَفلاطونَ جُنونٌ سَماويّ. وتَبَعًا للتّوضيح الذي قدّمتموهُ في شأن العِشْق، في مقدُورنا أن نَعُدَّ قولَ أفلاطونَ غيرَ صَحيح، ونَعُدَّ العِشْقَ مَسًّا، أو ابتلاءً شيطانيًّا. نَعَمْ، العِشْقُ نَوعٌ مِن الجُنون، نَوعٌ من الماليخوليا مُسبّبٌ للصُّداع.

ـ اختلافي معَكم ومعَ المحْفِل الرّوحانيّ في قُونِيَةَ، يبدَأُ مِن مسألة أنّكم لا تفهمونَ العِشْقَ، ولا تقبلُونَه، في حِينِ أنّه أحَدُ الفَضاءاتِ الأَصْليّة للفِكَر الخالدة في العِرْفان الإيرانيّ الذي يبشِّرُ به شَمْسٌ. واعلَمُوا بأنّ المنبعَ الأَصْليّ لِتصوّراتي الجديدة هو العِشْقُ، العِشْقُ الذي هو أساسُ النّماء والازدهار.

ـ لَعلّه الشّيءُ نفسُه الذي أفسدَ الهدوءَ الرّوحيَّ والجِسْميَّ عندَكم وعندَ شَمْسٍ وعندَ أَحبّائكم؟ ـ أَلَيْسَ هو الذي حَرَمَكم عِشْقَ[1] الأُسْرة، عِشْقَ الوَلَد؟ [٢٣٦] غيَّرَ أخلاقَكم، وقَلَب لَدَيكمُ القِيَمَ البشَريّة. فتحرّرُوا مِن هذا الذي أصابتْه الجانُّ؛ تعالَوا، بِمُساعَدةِ العَقْلِ، أمسِكوا بزِمامِ شَيْطانِ وجودكم. التّفكيرُ العَقْلانيُّ أَسْمى مِن كُلّ نظريّاتِ الإنسان.

ـ العِشْقُ عَكْسُ ما تقولونَ، هو مستقَرُّ الهدوءِ الرّوحيّ والطُّمأنينةِ عندَ الإنسان. ومِن دُونِ وجودِ العِشْقِ تكونونَ في حَياةٍ جَهَنّميّة سائغة، وقد بُنِيتْ جهنّمُ حَياتِكم هذه على سَرابٍ ووَهْم. إنّ فخْرَ الإنسانِ بالعِشْق.

ـ أَلا تؤمنُ أنتَ وشَمْسٌ بالموتِ والفَناء؟

١ـ فماذا يكونُ العشقُ إذَنْ ـ إنّه بحرُ العَدَم وقد كُسِرتْ للعَقْلِ هناكَ القَدَم
(المثنوي: ٤٧٢٦/٣)

ـ إنّ فَناءَنا مقترِنٌ بالبقاء، وما تُسمّونَه أنتُم فَناءً وعَدَمًا، أو تَرَونَه كذلك، لَيْسَ هو في اعتقادِ شَمْسٍ إلّا تحوّلَ النّفْسِ الدّنيّة إلى نَفْسٍ عَليّةٍ:

قـالَ: أيّهـا العاشـقُ، قُـلْ: مـا ذلـكَ الأَصْـلُ؟

قــالَ: أَصْـلُه المـوتُ والفَنـاءُ

وقد فعَلْتَ هذا كلَّه ولـم تَمُتْ، بَلْ أنـتَ حَيٌّ

أَلَا فَلْتمُـتْ عَـن صـاحِبِ رُوحٍ لاهٍ خاسِـرٍ

فإنّـكَ إذا مِـتَّ، ظَفِـرْتَ بِحَيـاةٍ كاملـةٍ

ويظـلُّ اسْمُكَ الجميـلُ حَيًّا إلـى يـومِ القيامـة

ويقولُ الجُنَيدُ: عِشْقُ العارفينَ مَعْناهُ أن يُميتَك الله، عزّ وجلَّ، عن نَفْسِك، ويحييَكَ به.

ـ أنتَ تُلَمّعُ أَخْيلَتَك، وتُعطي لِأوهامِكَ لَونَ الحقيقة، وقد أُصِبْتَ بمَرَضِ هَذَيانِ الأوهام والرُّؤى. وهذه الهذَياناتُ هي نِتاجُ تلكَ الأَخْيلة الواهية؛ فأبعِدْ عن فَضاءِ وجودِك تلكَ التّعلّقاتِ الجسمانيّةَ، التي نتيجتُها الخَرَفُ والثَّرثرة، فهذا لا يَليقُ بإنسان.

ـ العاشِقُ الطّاهرُ، في الأَصْل، مُتَّقٍ ومُخْلِصٌ، والعُشّاقُ يرتبطُ بعضُهم ببعضٍ بصِلاتٍ رُوحيّة ومَعْنويّة، والعُشّاقُ مَدّاحونَ لِلْحَياة، ومَدّاحونَ للصِّدْق، ومُحِبُّون لله. العاشِقُ الحقيقيُّ مَظْهَرٌ لِكُلّيةِ ذاتِ الحقيقة وتَمامها. وقد قالَ الشّيخُ عبدُ الله الأنصاريّ: «الإنسانُ والِدٌ، والعِشْقُ قادِمٌ، وبَرَكةُ السّماء مِن الفَلَك، وبَرَكةُ الأرواحِ من المحبّة، والسّاعاتُ مِن دُونِ عِشْقٍ مملوءةٌ بالعذاب».

ـ هذا الذي تتحدّثونَ عنه كُلُّه كان موجودًا في فِكَر الفلاسفة قبْلَ المسيح. وهم

فلاسفةٌ لم يكونوا يعرفونَ اللهَ والحقيقةَ، وكانوا مفتونينَ بالفِكَر والمحاسنِ الظّاهريّة، [٢٣٧] ومحبّةُ الجَمالِ والهُيامُ به هي التي قادَتِ اليونانيّينَ إلى الفَساد. أَتبتغونَ أن تُروِّجوا مِن جديدٍ لهذا النّوع مِن الفِكَر الشّيطانيّة المهووسة؟

ـ العارِفُونَ لهم عالَمٌ آخَر، وما دُمتُم لا تدركونَ جَمالاتِ عالَمهم ستظلّونَ في جَهْلٍ غيرِ قابِلٍ لِلْوَصْف. إنّ في الإنسان نُورًا، وبِمَدَدِ ذلكَ النّورِ يدْرِكُ كثيرًا مِن الأسرار. وقد جئنا مِن عالَم نُورٍ ونرجِعُ إلى عالَم النُّور، فطُوبَى لِمَن يرى هذا النُّورَ، ويدركُ حقيقتَه؛ لِأنّنا في ساحة الْجَلالِ الأَبَدِيّ لهذا النُّورِ سنمضي نحْوَ سَكينةٍ ممتعةٍ مِن دُون أيّ خَوفٍ ورَوْعٍ ووَحْشةٍ، سنظفَرُ بعُروجٍ لَطيفٍ بالرّوح، وسيصِلُ إلى آذاننا هذا النّداءُ:

ـ لا يمكِنُ أن توجَدَ حركةٌ في العالَم مِن دُونِ أن يكونَ لها أساسٌ مِن العِشْق.

ـ نحْنُ جئنا إلى هذا الكوكب لِنتعبّدَ، وندعوَ النّاسَ إلى الأُخوّةِ والمحبّةِ، وعندَما يجيءُ الأَجَلُ المحتومُ والمقرَّرُ، علينا أن نودّعَ الدّنيا؛ هذه هي حقيقةُ الحياة. وصَحيحٌ أنّ جسَدَ الإنسانِ سِجْنٌ لِلرّوح، لكنّه في الجسَدِ نفسِه تبدَأُ فعاليّاتُ الإنسان. الرّوحُ مَأْمورٌ، بِمُساعَدةِ شاهينِ العَقْل، بأنّ يخلِّصَ النفْسَ مِن الانحراف. لا ينبغي أن نشْرَبَ مِن حَوْضِ هذه الدّنيا الدَّنيّة، وقَدْرَ المستطاعِ علَينا أن نُراعيَ أَصْلَ الاعتدالِ في الاستفادة مِن مواهب الطّبيعة. نَحْنُ مأمورونَ بالأمرِ بالمعروف، والنّهي عن المنكَر. وأَهَمُّ وظيفةٍ لنا، وأَسْمَى وظيفةٍ، أنْ نحرِّرَ باقتِدارٍ تامٍّ الرّجُلَ العظيمَ والعالِمَ الكبيرَ، الذي في قُونِيةَ وقَعَ في فَخِّ شَمْسٍ السّاحِرِ، هذا جوهرُ مُهمّتنا. وإذا لم ينتَهِ وجودُ أصحابِ شَمْسٍ هنا، يُخشى أن تُراقَ الدّماءُ، وتبدَأَ المنازعاتُ. نحْنُ نرى أنّ العِشْقَ مَيْلٌ جَديدٌ إلى الثَّنْويّة التي أُودِعَتْ في خزانةِ التاريخ زمنًا طويلًا، ونعتبرُ هذا الأَصْلَ مردودًا، بَلْ كُفْرًا.

ـ في عالَمٍ أَحاطَتِ الأَسْرارُ بِأساسِه، هَلْ تعتقدونَ أنّ رسالةَ الإنسان، الإنسان الذي هو خَليفةُ اللهِ في الأرض، هي عَينُ ما تقولونَ؟ هَلْ هذه العجائبُ مِن الكائنات، هذه المجرّاتُ جميعًا، هذه النّجومُ جميعًا، خُلِقَتْ مِن أَجْلِنا؟ هَلْ نحْنُ وَحْدَنا جئنا إلى هذه الدّار المظْلِمة لِكَي نستفيدَ مِن مواهب الطبيعة على نَحْوٍ معتدل. وظيفتُنا هي عَينُ هذا؟

ـ لا، لَيْسَ الأمرُ كذلكَ. إنّ رسالةَ الإنسان، والإنسانيّةَ، أَسْمى [٢٣٨] مِن هذا. علَينا أن نعتصِمَ بِعالَمِ العِشْق[١] المثير. العِشْقُ عَرّفَ أَمْثالَ العَطّارِ والحَلّاج وأبي يزيدَ، لِأَهل الدّنيا. ومِن مَشْرِقِ الشّمْسِ، مِن داخِلِ الأَعْصارِ والقُرون، جاء صَوتٌ ينادي:

امضُوا أيُّها العُشّاقُ، الحياةُ لكُمْ

فأجابَ العارفونَ ويجيبونَ، وهُمْ في منتهَى اللذّةِ الرّوحيّة بِسَماعِ هذا الصّوت واللّحنِ الموزون المدوّي: لَبَّيكَ.

---

١ ـ نقَلَ جَلالُ الدّين البَلْخيّ في دِيوان شَمْس هذه الفكرةَ في غزَليّةٍ، على هذا النّحْو:

أنا ذلكَ المجنونُ المقيّدُ [بالسّلاسل]، الذي يظلّ يقيّدُ الشّياطين — وأعلَمُ مَنْطِقَ الطّير، فأنا سُلَيمانُ، وحياتِك
سَماعُ أُذني هو اسْمُكَ، وسَماعُ عَقْلي هو كأسُكَ — فعَمِّرْني، فإنّني خَرِبٌ، وحياتِكَ
وفي الصّومعةِ والمسْجِد أنتَ مقصودي، أيُّها المرشِدُ — وأينَما تَوَجَّهْتَ أتوجّه، وحياتِكَ
أَقولُ كلمةً في العِشْق: هو أسَدٌ وأنا غَزَالٌ — فأيُّ غَزالٍ أنا،وأنا أَحفظُ الأُسودَ، وحياتِك

(ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ٢١٦٣)

ـ لَوْ لَمْ تكنْ عاشقةً هذه السّماءُ
لَمَا كان لِصَدْرِها [هذا] الصّفاء
ـ ولَوْ لَمْ تكنْ عاشقةً وَلِهةً ذُكاءُ
لَما كان في جَمالها [هذا] الضّياء
ـ ولَوْ لَمْ تكُنِ الأرضُ والجَبَلُ عاشقَيْنِ
لَما نَمَا مِن قَلْبِ كُلٍّ منهما عُشْبٌ
ـ ولَوْ لَمْ يكُنِ البَحْرُ مُطَّلِعًا على العِشْق
لَما كان له قَرارٌ في مكان

(ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ٢٦٧٥)

لِماذا جِئتُ مِنْ خُراسانَ إلى الرّومِ الشّرقيّة؟

ألا فَلْتَسْمعوا آخِرَ كلامٍ في شأن شَمْسٍ، معَ أنّه يتبيّنُ مِن نَظَراتِكم ومِن سِيمائكم أنّكم، حتّى الآنَ، عَلَى الأَقْوالِ والمبادئ التي كانَتْ دافِعًا لكم ولِأَصْحابكم إلى مُذاكَرتي ومُناقشتي. فاعلَموا بِأنّني لا أَتعَبُ ولا أَكِلُّ مِن المُحاجَّة والمباحَثة، لكنّه يجِبُ إيقافُ هذا الكلامِ وقَطْعُه عندَ نقطةٍ معيّنة. ولهذا السَّبب، أَقولُ الكلامَ الأخير. فإذا كان العِشْقُ، وَفْقَ كلامِكم، قد خُلِقَ في المَدارسِ الفلسفيّة قبْلَ ميلاد السّيِّد المسيح، فعَلَيكم أن تنتبهوا إلى أنّ هذا العِشْقَ كان أساسًا لِلَّذّاتِ والشّهَوات الحِسّيّة لَدَى جماعةٍ مِن فلاسفة اليونان وأتباعهم، وكان عِشْقًا ممتزِجًا بالمُتَعِ والتّعيُّنات الشَّهْوانيّة. أمّا العِشْقُ الذي ندافعُ عنه أنا وشَمْسٌ ونُثْني علَيه فيذكِّرُ باللّحَظاتِ العظيمة للخَلْق. وهذه الظّاهرةُ، أو هذا المغناطيسُ، موجودٌ في أَساسِ الوجود وجَوْهَره، وهو تذكِرةٌ بالأيّامِ التي ابتعدَ فيها النّاسُ عن أَصْلهم. ففي تلكَ اللّحَظات المؤلمة لِمُفارقةِ الوجودِ والخَلْق ووَداعهما، أُودِعَتِ الخلائقُ في قَلْبِ الكائنات، وقيلَ لها: إنْ شئتِ أن تتّصلي مِن جديدٍ بالحقيقة، إنْ شئتِ أن يُبدَلَ سُرورُ الوَصْلِ

بألَمِ الفِراقِ فترنّمي بأكثَرِ أَلْحانِ الدّعاء طَلاوةً وعُذوبةً، فقد خُلِقْتِ لِكَي تَعْبُدي. أنتِ الغايةُ القُصْوى لِلْخَلْق، أنتِ مُوجِبُ استمرارِ الوجود، أنتِ فَصُّ خاتَمِ الخَلْق، أنتِ البَذْرُ والفاكهةُ لِعالَم الوجود، ولِدَوام الكائناتِ. جَيَشانُ هذه الأَلْحانِ ينبغي أن يأتي مِن صَميم قَلْبِكِ، وعندَئذٍ سيصِلُ إلى أُذُنِكِ صوتُ: لَبّيكِ، عَبْرَ كُلِّ كلمةٍ [٢٤٠] مِن كلماتِ طَلَبِكِ ودُعائكِ، وستَمُرّينَ مِن جادّةٍ حَليبيّةِ اللّونِ في مَجَرَّاتِ الحقيقة والنُّور، وستَطيرينَ بأَجْنحةِ العِشْقِ والمحبّة إلى شُرْفة العَرْش. دُعِيتِ من ذلكَ المكان، وستَصِلينَ إلى حَيثُ لا يُرى إلّا الله.

ـ كلامُكُم يُشْبِه كثيرًا الشّعْرَ المنشِّطَ لِلْقَلْب والحالِمَ، الشّعْرَ المنثورَ والموزون. فهَلْ تعتقدون بأنّه، مِن طَرِيقِ إنشادِ الشّعْر والمُشارَكةِ في السَّماع، يمكنُ أن تَقَرُّوا في مَدارِ العِشْق؟ ـ وهَلْ تَرَونَ أنّ العِشْقَ مِن الشُّروطِ الضّروريّة لِلْوصولِ إلى الحقيقة؟ النّاسُ المؤمنونَ في قُونِيةَ لا يَقْبَلونَ هذه الأمورَ، وأنتُم تزرعونَ الرّيحَ، وفي المستَقْبَلِ القريبِ ستَحْصُدونَ الطُّوفانَ.

قال مَوْلانا:

ـ اعلَمُوا أنّ الحقَّ تعالى لَدُنْهُ عِنايةٌ عظيمةٌ بِأَهلِ هذه البلاد، وأنا أَعُدُّ النّاسَ في هذه الدّيارِ أَشْخاصًا شُرَفاءَ ذَوي عَفافٍ، وآسَفُ لِأَنّهم لا يعْلَمون شيئًا عن عالَمِ العِشْق والذّوق الدّاخليّ. أظهرَ الحقُّ تعالى عِنايةً، واندفَعَ سَببٌ مِن عالَمِ اللّاسَبب، فجذَبَنا مِن خُراسانَ إلى وِلاية الرّوم؛ لِكَي ننشُرَ اكتسابَنا اللَّدُنّي علَيكم وعلَى مُواطِنيكم في هذه المدينة، فيُصبحوا جميعًا كالكيمياء، ويغدُوا ذَوِي مَحْرَمِ عالَمِ العِرْفان وأَنْجِيةَ العارفينَ:

مِنْ خُراسانَ جذَبْتَني إلى أَحْضانِ اليونانيّينَ؛

لِكَي أختلِطَ بهم، فأجعَلَهم حَسَني الدّينِ والمذْهَب

ومِن أَجْلِ أن نهذِّبَ الغرائزَ والطّبائعَ، ونرتقيَ بالنّفوس، ونصِلَ بها إلى الكَمال، قدّمْنا المعانيَ الملائمةَ للنّاس مِن طَريق لَطائفِ السَّماع والشّعْر الموزون، التي جاءَتْ مُوافِقةً لِطبائعِ هؤلاء النّاس. ومِن آياتِ التّوفيقِ أنّ النّاسَ هنا أَهْلُ هَيَجانٍ وعِشْقٍ لِلْبَيانِ والشّعْر والغَزَل العِرْفانيّ. واعلَموا أنّ لي طَبْعًا، وهو أنيّ لا أريدُ لِقَلْبِ أيّ إنسانٍ أن يتأذّى مِنّي. وهناكَ جماعةٌ، بسببِ السَّماع، جعَلَتْني مَحَلًّا للانتقادِ والشّماتة. وهؤلاءِ لا حَظَّ لهم مِنَ المنطِق، ولا يعلَمُونَ ما السَّماعُ، وما شُروطُنا للمشاركينَ في حَلْقة السّماع. ولكنّني أعلَمُ أنّ السَّماعَ مهدِّئٌ لِأَرواحِ الأحياء. فلماذا أنتُم وأَحِبَّاؤكم تمنعونَ الأشخاصَ مِن أن يأتوا إلَيَّ؟ إنّ لَدَيّ حَساسيّةً وتحنّنًا إزاءَ مَن يأتونَ إلَيَّ، حتّى إنّني أُنشِدُ لهم الشّعْرَ، خَشْيةَ أن يتطرّقَ الملَلُ إلى نفوسهم،وأطيِّبُ خَواطرَهمُ الحزينة، وإلّا فما شأني بإنشادِ الشّعْر؟ أقولُ الشَّعْرَ عن سُكْرٍ ووَلَهٍ، وأُعطي لِأَرواحِ المشتاقينَ [٢٤١] بوَساطةِ ذلكَ السُّكْرِ وجودًا مُبهِجًا مُلِذًّا:

صارَ صَدْري حانةَ العالَم،

فأَلْفُ رَحْمةٍ عَلَى صَدْري السَّخيّ

الشِّعْرُ والسَّماعُ أَداةٌ لِتَلْطيفِ الجسْمِ والرّوح وتصفيتهما، هما نُورُ الدّاخِل وعَينُ القَلْبِ عندَ الإنسان، إذ بهما يستطيعُ أن يشقَّ عَنانَ السّماء، ويَرَى اللّامرئيّات. تعلمونَ أنّ العُبّادَ لله تعالى، المؤمنينَ المعتقِدينَ به، عندَهم معاريجُ رُوحيّةٌ. وهذا السَّيرُ غيرُ ممكنٍ، وغيرُ مقدورٍ عليه، بقِراءةِ الكُتُب، بَلْ يستلزِمُ ذَوقًا وحالًا، لا قالًا وكتابًا.

فتعالَوا، وأنتُم في الأَصْلِ أَصْحابُ نَظَرٍ ومِن عُظَماءِ أهلِ العِلْم والفَضْل في قُونِيةَ، آمِنوا بعَظَمةِ العِشْق مِثْلَ شَمْسٍ؛ لكي يكونَ هذا التحوُّلُ الفُجائيُّ رافعةً لِلْوصولِ إلى الحقيقة. يقولُ شَمْسٌ: إنّ الفضائلَ والقِيَمَ الإنسانيّةَ جميعًا تنشَأُ وتنمو في قُلوبٍ مملوءةٍ بالعِشْق:

العِشْقُ يجعَلُ البَحْرَ يَغْلي، كما تَغْلي القِدْرُ

العِشْقُ يَطْحَنُ الجَبَلَ، حتّى يغدُوَ كالرَّمْل

العِشْقُ يَشُقُّ الأفلاكَ مِئاتِ الشُّقوق

العِشْقُ يُزَلْزِلُ الأرضَ، مِن دُونِ مُبالاة

وقَدْ كانَ العِشْقُ الطّاهِرُ قَرينًا لِمُحمّد

ومِنْ أجْلِ العِشْقِ قالَ له الله تعالى: «لَوْلاكَ»(*)

ولَوْ لَمْ يكُنْ مِنْ أَجْلِ العِشْقِ الطّاهر

مَتَى أَعْطَيْتُ لِلأفلاكِ وجودًا؟

وقَدْ رَفَعْتُ الفَلَكَ السَّنيَّ

لِكَيْ تَرَى أنتَ العِشْقَ وتفهَمَهُ(1)

المُنحازونَ لِلْعِشْق، المدافعونَ عنِ العِشْق، بعيدونَ عنِ انحِطاطِ النّفس، وسُروري وسُرورُ شَمْسٍ في عالَم الشُّهود(2)، الذي هو أساسُ المعرفة، ويُحصَلُ علَيه

* ـ إشارةٌ إلى الأثَر: «لَوْلاكَ لَمَا خَلَقْتُ الأفلاك».

١ ـ المثنَوي: ٥/٢٧٣٧ ـ ٤١.

٢ ـ الشّهودُ عندَ الصّوفيّة عبارةٌ عن «رُؤيةِ الحق بالحقّ». وفي هذه الرُّؤية يُشترَطُ «غيابُ الإحساسِ بالنّفس». والحقيقةُ أنّ حصولَ هذا النّوعِ مِنَ الرّؤية، الذي يذهَبُ بعضُ شُيوخِ التصوّف إلى أنّه لا إحساسَ فيه بالوساطة، =

بِمُساعَدةِ العِشْق. يقولُ الشّيخُ عبدُ الله الأنصاريّ:

ـ قَلْبُ العاشقِ صاحٍ، وعَينُه مملوءةٌ بالجواهر. وعندَما تُشْرِقُ شَمْسُ العِشْق ينمحي كوكبُ العَقْل. الذين تمسّكوا بحَبْلِ العِشْق وَصَلوا إلى الذّاتِ المستَغْنية، «العِشْقُ عرّفَ نفسَه» للنّاس وأوضحَها جيّدًا. عِشْقي شَمْسًا هو، عَلَى الحقيقة، محبّةُ أيِّ إنسانٍ للإنسان الكامِل.

اعلَموا، أيّها السّادةُ، أنّ كُلَّ إنسانٍ أُعطِيَ موهبةً مِن العِشْق قِيلَ لَه: عليكَ أنْ تكون متحمِّلًا وصَبورًا أَمامَ [٢٤٢] تُهَمِ الجاهِلينَ؛ لِأَنّ المِحْنةَ والابتلاءَ امتحانٌ لِطُلّاب النِّعمة، ما دامَ قد مزَجَ المحبّةَ بالعطاءِ وربطَها بالبَلاء. المحبّةُ جَوْهَرٌ، والصّدَفُ بَلاءٌ، وأنا وشَمْسٌ اعتصَمْنا بحَبْلِ العِشْق ونقولُ:

حِكْمـــةُ الحَـــقّ، في القَـــضاءِ والقَـــدَر،

جعَلَـــتْ كُـــلًّا مِنّـــا عاشِـــقًا لِلْآخَـــر

وعنــدَما صــار حُــبُّ الحــقّ في قَلْبِــكَ زائــدًا

صــار عنْــدَ الحــقِّ، يقينًــا، حُــبٌّ لَــكَ[1]

وقد شَمِلَتْ محبّةُ اللهِ وعِشْقُه الكائناتِ والموجوداتِ المخلوقة. ولا شكَّ في أنّ الإنسانَ ينطوي في داخله على عالَمٍ، ومِن طَريقِ الإيمانِ والعِشْق صار مَسْجودَ المَلَك، فَلْتأتوا ولْتَطْلبُوا الإنسانَ الكامِلَ[2]، لِكَي تعرفوا فِهْرِسْتَ كتابِ الفِطْرة

= موقوفٌ على أن يفقِدَ فيه العارفُ شعورَه ووِجْدانَه. وعلى هذا النّحْوِ، يغدو الشّهودُ عِبارةً عن الإحساسِ بالحقّ مِن غير وسيط [الأصل].

١ ـ المثنَوي: ٣/٤٤٠٣ ـ ٤٤٠٤.

٢ ـ نظَمَ جَلالُ الدّين البَلْخيّ، في ديوان شَمْس، تصويرًا للإنسانِ الكامِلِ، رائعًا وجديرًا بالقراءة، على النّحو الآتي:=

والمِثالَ الحقيقيّ الظّاهرَ للخَلْق، على وَجْه الأرض. اعلَموا أنّ شَمْسًا عاشِقٌ مِن عُشّاقِ العالَم، ورِنْدٌ من الرُّنودِ المُحْرِقينَ للعالَم، الذينَ يتوسَّدونَ التّرابَ ولهم قَدَمٌ فوقَ مَفرِق الأفلاك التّسعة[1].

= وقد دُرْتُ معَ الأفلاكِ التّسعة، في كُلِّ فَلَكٍ لِبُرهةٍ مِنَ الزّمن
ومعَ الكواكبِ في الأبراج، دُرْتُ لِسِنينَ
كنتُ مختفيًا لِبَعضِ الوقت، كنتُ معَه في مكانٍ واحِدٍ
كنتُ في مُلْكه، دانيًا منه، فرأيتُ كُلّ ما قد رأيتُه
كنتُ رِقاعًا في خِرقة الجَسَد، أعملُ كثيرًا
ثُمّ بيدي مَزّقْتُ هذه الخِرقةَ مِزَقًا كثيرة
ومعَ الزّهّادِ في الصّومعة، وصَلْتُ اللّيلَ بالنّهار — ومعَ الكُفّارِ في مَعْبَدِ الأصنام، نِمْتُ أمامَ الأصنام
أنا شريكُ العَيّارينَ في المشقّة، وشريكُ المرضَى في المرض — وأنا الغَيمُ والمطَرُ، هطَلْتُ في البساتين
لَسْتُ مِنْ ماءٍ ونار، ولَسْتُ مِن ريحٍ عاتية — لَسْتُ ترابًا منقّشًا، وقد ضَحِكْتُ مِن الجميع
ما أنا شَمْسُ تَبْريز، أنا نورٌ طاهِرٌ يا بُنيّ — فإيّاكَ، إنْ رأيتَني لا تقلْ لأحدٍ: رأيتُه

١ ـ مِن مقدّمة كتاب «گزيدۀ ديوان شَمْس تَبْريزى»، للأستاذ الدّكتر محمد رضا شفيعي كدكني. والرِّنْدُ هنا تعبيرٌ فارسيّ عن الشّخصِ الذي لا يبالي بكثيرٍ مما اجتمعَ الناسُ على احترامه وتقديره. وقد عرّب الدّكتر عبد الوهاب عزّام هذه اللّفظة، وجمعَها على «رُنود». ونوافقه عَلَى صنيعه [المترجم].

ـ مَضَى عُمرٌ مديدٌ، ونحنُ واقفونَ للخِدمة كالشّموع
ومِثْلَ الفَراشِ، سلَّمْنا الأرواحَ لمحبّتكَ وهواكَ
ـ وليلَةَ البارحة، شَرِبَتْ شفتُك الياقوتيّة البائعةُ للخَمْرة
جُرعةً
واليومَ، كُلُّنا سُكارى ذلكَ الشّراب
ـ فلا تطلُبْ منّا غيرَ العِشْق، أيُّها المعشوقُ؛ لأنّنا
مِن أَجْلِ هذا بِعَينه ولَدَتْنا أمُّ الأيّام

مَوْلانا المنجذِبُ

أَحَدُ مُمَثِّلي المحفِل الرّوحانيّ، وكان قد غضِبَ مِن كلامِ مَوْلانا، قالَ:

ـ نَحْنُ مُضطرُّون إلى أن نحاكِمَ كُلَّ كافرٍ ومبتدِعٍ في قُونِيةَ، وإنْ أُدينَ فسَنرجُمُه بالحجارة. فإن أرادَ شَمْسٌ أن يُقيمَ في قُونِيةَ مِن جديد مجالِسَ بَحْثٍ ودَرْسٍ وسَماعٍ، أو ينشغِلَ معَنا بالشِّجارِ الكلاميّ والاحتجاج، ويروّجَ مِن جديدٍ لمدرسةِ العِشْق هنا، فإنّ جَزاءَه الإهانةُ والإذْلال. ونَحْنُ نعتبرُ كُلَّ مَنْ يُعْلِنُ أنّ العِشْقَ وسيلةٌ لاتّصالِ الإنسانِ بالحقيقة، ويَمْزُجُ البَشَريّةَ بالرُّبوبيّة، مجنونًا ومَحْجُورًا علَيه. واعتمادًا على مُباينة هذه الأقاويلِ لِلْحَقيقة، نجِدُ أنفسَنا مضطرّين، في كُلّ مكانٍ نَرَى فيه مجالِسَ سَماعٍ، أو نسمَعُ فيه أقوالًا يكتنفُها الرّموزُ والإبهامُ أو غيرَ واضِحةِ الحقائق والمعاني، إلى أن نخرِّبَ تلكَ المجالسَ، ونحاكِمَ المتحدّثينَ والمُشاركينَ فيها. إنّ اتّصالَ المخلوقِ بالخالق، والخفاءَ أو الإطلاقَ في اللّامكان، كلامٌ فيه كفرٌ؛ والمشتاقونَ إلى هذا المذْهَب والمؤمنونَ به لا ينبغي ـ حتّى مِن طَريقِ الاستعارة والرّمز ـ أن يذكروا ذلك بِأَلسنتهم، بَلْ علَيهم أن ينسَوا ذلكَ نِسْيانًا تامًّا. مِنْ أينَ للإنسانِ أن يعتبِرَ نفسَه مِرآةً للجَمالِ الأزَليّ، ويقولَ إنّ صُورةَ الحقّ تعالى منعكسةٌ في وجودي؟ هذا الغُلوُّ

الشّاعريُّ، أو في تعبير أتباع شَمْسٍ: العِرْفانيُّ، متجاوِزٌ لحدّ الإنسانِ وقَدْرِه، وغيرُ مقبولٍ. أنتُم، وأحبّاؤكم، لا حَقَّ لكم في أن تقولوا في قُونِيةَ: إنّ العارفَ في مرحلةِ السَّيرِ والسّلوك يخرُجُ عن نفسِه، ويَفْنَى في وجود الحقّ [سُبحانَه] [٢٤٤] ويُستهْلَك. نَحْنُ نخالِفُ نظريّةَ وَحْدة الوُجود، ونحْسَبُ أنّ شَمْسًا مبتدِعٌ ومروِّجٌ لِمَذهبٍ متحجّرٍ. هَلْ يصِحُّ أن تقولَ جماعةٌ ـ في أحوالٍ صوفيّةٍ كما يزعمونَ هم أنفسُهم وفي حالة جَذْبٍ روحيّ سَفيهٍ ـ كلامًا فيه غُرورٌ وطَيشٌ، ثمّ يدّعونَ أنّهم قالوا هذا الكلامَ في حالٍ مِن السُّكْرِ والنّشوة؟ الحقيقةُ أنّ الأحوالَ الخفيّة والأَعْينَ المبصِرة عندَ هؤلاء، خاصّةً الصّوفيّةَ والعارفينَ، لَيْسَتْ أكثرَ مِن لَغْوٍ وكذِب.

نَحْنُ مُوحِّدونَ، ومخالِفُون لـ «الثَّنْوِيّة»، وعقيدةُ القرآنِ أساسُ التّوحيد والإيمان، وأهلُ قُونِيةَ يؤمنون بهذه العقيدة بكُلّيّة وجودهم، وهم غيرُ مستعدّينَ لأَنْ يسمَعُوا فِكَرًا مصْدَرُها ذو النُّون والشِّبْليّ وأبو يزيدَ والحلّاج(*). وما قالَه أبو يزيدَ، ويدعو إليه شَمْسٌ، لَيْسَ سِوى خُرافاتٍ وتخيّلاتٍ وأنانيّات. فإنِ ادّعى أبو يزيدَ قائلًا: خَرَجْتُ مِن «أبي يَزيديّتي»، كما تخرُجُ الحَيّةُ مِن جِلْدِها، ثمّ نظَرْتُ فرأيتُ العاشِقَ والمعشوقَ والعِشْقَ شيئًا واحِدًا، فإنّه إمّا غيرُ عاقِلٍ أو شَطَحَ؛ والإنسانُ العاقِلُ لا يتّبعُ الشَّطْحَ والكلامَ الذي لا أساسَ له.

يا مَوْلانا، أنتُم أيضًا لا تستطيعونَ في المستقْبَلِ أن تذكروا شيئًا غيرَ الذي نقولُه نحنُ. ومِن هذا اليومِ، يجِبُ أن تُنحُّوا تحوّلَكم الفِكْريّ وآراءَكم العِرْفانيّة، يجِبُ أن تودّعوا كُلَّ فِكَر شَمْسٍ وأقواله. ونحْنُ نقولُ: إنّه كلّما كان الإنسانُ صوفيًّا كان أبعدَ

* ـ من أعلام التصوّف الإسلاميّ العربيّ

عن الحقائق. الصّوفيُّ إنسانٌ لا عِلْمَ عندَه ولا نظَرَ، ويعشَقُ الفِكَرَ البعيدةَ والخياليّة عندَ الحلّاج وأبي يزيدَ.

ألقى مَوْلانا نَظْرةً مدقّقةً باردةً على وَجْه المتحدّث، وقالَ:

ـ عندَما لا يوجَدُ مَنْ هو أهلٌ لِبَثّ السِّرّ، يكونُ عدَمُ إذاعة السِّرِّ أفضلَ، وعَدَمُ ثَقْبِ اللّؤلؤ أفضلَ، وإبقاءُ الأَسْرار في الصَّدْر أفضلَ. أنتُم تهدّدونَني بالإيذاء والإزعاج. إنّ شَمْسًا وأنصارَه مِثْلُ نَهارٍ لا حاجةَ فيه إلى شَمْسٍ، ومِثْلُ لَيلٍ لا حاجةَ فيه إلى قَمَرٍ وكواكبَ. هم عَدَمٌ غيرُ راغِبٍ بالوجود. أنتُم تخوّفونَني الإيذاءَ والزّجْرَ والقَتْل. نحْنُ جميعًا أَتْقِياءُ وملتزمونَ بالشَّرْع، ونفوسُنا بعيدةٌ عنِ الظُّلْمة وعنِ الآفاتِ النفسيّة. اسْمَحوا لي بأن أُورِدَ كلامًا لإبراهيمَ بنِ أَدْهَمَ مِن أَجْلِ تعريفِنا وبَيانِ مَنْ نحنُ. ولا شك في أنّكم تعلمونَ أنّ إبراهيمَ بنَ أَدْهَمَ كان مِثالًا كامِلًا للإنسانِ المتّقي الزّاهد. قالَ إبراهيمُ: العارِفُ هو الذي يقرَأ كلامَ الله بدِقّةٍ، ويعمَلُ بذلكَ. لا يتّبعُ الشّيطانَ، ولا ينشَغِلُ بِتَسقُّطِ عيوب الآخَرين، ويشكرُ اللهَ على كلّ نعمةٍ يتلقّاها مِن جَنابه، ويرجِّحُ القِيامَ باللّيل على المَنام. أبو يزيدَ البِسْطامِيّ، الذي لا تقبَلُونَه أنتُم، كان قد قالَ: ذهَبْتُ مِن الله إلى الله، حتّى جاءني نِداءٌ مِنّي إلَيَّ، أي: يا مَنْ أنتَ أنا، تعالَ إلَيَّ. وقد وَصَلَ هذا الرّجُلُ في السَّيرِ والسّلوك إلى مكانٍ لا يصِلُ إليه إلّا كُمَّلُ الرّجال.

أمّا في شأن «وَحْدَةِ الوجود» فلَيْسَ لكم الحقُّ في أن تَنفُوها، إذ إنّ إدراكَ هذا الأَمْرِ لَيْسَ مِن شأن أيّ إنسانٍ. ونحْنُ نعتبرُ الوجودَ شيئًا واحِدًا:

كُنّـا منبسطِينَ، وكُنّـا جميعًـا جَـوْهَرًا واحِـدًا

ولَمْ تكُنْ لَنا في تلكَ النّاحيـةِ رُؤوسٌ ولا أَقدام

كُنّـــا جَـــوْهَرًا واحِـــدًا، كالـــشَّمْس

وكُنّـــا مِـــن دُونِ عُقَـــدٍ وصـــافينَ، كالمـــاء

وعنـدَما حَـلَّ ذلـكَ النّـورُ الطّيّـبُ في الـصّورة

تكثّـــرَ وتعـــدَّدَ، مِثْـــل إفريـــزِ القَلْعـــة

فَخَـــرِّبْ ذلـــكَ الإِفْريـــزَ بـــالمنجنيق

لِكَـي يـزولَ الفَـرْقُ بـينَ أفـرادِ ذلـكَ الفَريـق (١)

عندَما اقتيدَ الحَلّاجُ إلى المِشْنقة، وَفْقَ رِواية عارفِ الشّرْق الشّهير العَطّار، كان يتبختَرُ في الطّريق الذي كان يمضي فيه راقصًا، وكان ينقلُ خُطاه كالعَيّار راسِفًا بثلاثةَ عشَرَ قَيْدًا ثقيلًا. فقالوا له: ما هذا التّبخترُ؟ ـ فأجابَ: أمضي إلى المِشنقة، إلى عالَم الوِصال. الشّهادةُ، عندَ العارفينَ، سَعادةٌ(٢).

ولأنّه سُدَّ علَيكم، عَلى قلوبكم، طَريقُ الذَّوقِ والشّوق والعِشْق، تنقُضُونَ كُلَّ فِكَر العارفينَ وآرائهم، مِن دون ذِكْر العِلّة والدّليل. وأنتُم، في المحادَثة والمناقَشة، لا تمتلكونَ وقارَ المفكِّرينَ الأحرار، ورسوخَهم. ونحْنُ نُثني على نَهْج شَمْسٍ وأبي يزيدَ وإبراهيمَ بنِ أَدْهَمَ والحلّاج؛ لأنّه نَهْجُ العِلْم ومعرفة الحقّ تعالى. كُنّا نَرَى الشّمْسَ بنُور الشّمْس. أنتُم، بِسُلَّمِ العَقْلِ، تُريدونَ أن تتجاوزوا الكائنات وما وراءَ الكائنات، أمّا نحْنُ فمِن طَريقِ القَلْب، مِن طَريقِ الذّوق والكَشْف والشّهود، نَطْوي عالَمَ المعرفة. فقد تخلّينا عن العَقْلِ الجُزئيّ، الذي يتتبّعُ رَوابِطَ العِلّة والمعلول، فقط، ونقولُ:

---

١ ـ المثنَوي: ١/٦٩٠ ـ ٦٩٣.

٢ ـ مِن أَجْلِ اطّلاع القُرّاء على سِيرة الحلّاج ودفاعه في المحكمة، يُراجَعُ كتابُ: «حلّاج ورازِ أنا الحقّ» [بالفارسيّة، بمعنى: «الحلّاجُ وسِرُّ أنا الحقّ»] الذي أعدّه مؤلّفُ الكتاب [الأصل].

أمسَكْتُ بِأُذُنِ العَقْلِ، وقُلْتُ: أيّها العَقْلُ

اخرُجْ؛ فقَدْ تحرّرْتُ منكَ اليومَ

إنّ طَريقَ العَقْلِ هو طَريقُ اللَّجاجِ والاعتراضِ، والسّببُ لِلْعِناد، ولَيْسَ مِن حقّكم أن تنتقدوا بالكَلامِ مشايخَ المعرفة، عندي، وأَمامي. السِّبابُ والشّتمُ شأنُ الجاهلينَ. وأنتُم، بهذه الأنظارِ والدّعاوي، لن تَصِلوا إلى مكانٍ في تعرُّف الحقيقة. فَوَاأسَفًا على العُمر الذي اضعتُموه.

ـ لا نريدُ أن نسْمَعَ هذه الأمورَ التي لا طائلَ مِن ورائها، وسَماعُ الكلامِ اللّامعقولِ، مِن مَوْلانا، أيضًا أمرٌ مزعِجٌ. نريدُ أن تبقَى هذه الأقوالُ دائمًا في قَلْبكم. وما نعتقدُه نَحْنُ تُؤوّلُونه أنتُم وَفْقَ مَيْلِكم، وهذا لا يَرُوقُنا، واأَسَفاهُ. نحْنُ الآنَ وَجْهًا لِوَجْهٍ أمامَ مَوْلانا المجذوبِ، المسْحورِ بسببِ شيطانٍ اسْمُه شَمْسٌ. لا نريدُ بعْدَ الآنَ أن تقولوا شيئًا. الحقيقةُ أنّه لَيْسَ لَدَينا استعدادٌ وتحمّلٌ لِسَماعِ كلامٍ تُشْتَمُّ مِنه رائحةُ الدّفاعِ عن العِرْفان والتّصوّف. وعلَيكم أن تَعْلَموا أنّ أكثرَ المُحِبّينَ والأساتذةِ في مدارسِ قُونِيةَ هم تلاميذُ، أو مُريدونَ، لِوالِدِكم، سُلْطانِ العُلَماء[1].

١ـ كتبَ سيهسالار في كتابه «رسالة..» يقولُ:

... وكان أنِ اضطربَ مُريدو سُلْطانِ العُلَماء اضطرابًا شديدًا، وثارتِ العامّةُ والخاصّة.. ولاشكّ في أنّ بواعثَ الحسَدِ في نفوسهم استمرّت. وحدَثَ بين النّاس تَصايحٌ وصَخَبٌ وتوتّرٌ، إلى أن ثارَ غبارُ الإنكارعلى السّطح... وكلّما وجدوا فرصةً أخذوا يحدّثونَ حَضْرتَه بأَسًى وحَسْرةٍ، إلى أن يجدَ الانفعالُ طريقَه إلى خاطِرِه الشّريف؛ ولهذا السّبب يَرْحَلُ مِن هذا المكان». وفي رأيِ المؤلّف، أنّ مخالفةَ المخالِفينَ لِشَمْسٍ في الرّوم الشّرقيّة استلزمَتْ أن يتضاعفَ عِشْقُ مَوْلانا لِشَمس، على نحوٍ ظلّ فيه مَوْلانا وفيًّا لذِكْرى شَمْسٍ حتّى آخِرِ لحظة في حياته:

اجْلِسْ في عَينَيّ، يا مَنْ أنتَ أكثرُ اتصالًا بي مِنْ نفسي ... لِكَي أُظهِرَ لِلْقَمر أنّكَ أكثرُ إضاءةً مِنَ القَمر

ادْخُلِ البُستانَ، لكي تفضَحَ روضةَ الأزهار ... لِأنّكَ أجملُ مِنْ مئة بستانٍ، وأكثرُ نضارةً مِن كلّ رَوض

إلى مَتَى يُخفي السَّرْوُ قَدَّه خَجَلًا مِنْ قَدِّك ... وإلى مَتَى يُلجِمُ السَّوسَنُ لِسانَه، لأنّكَ أنطقُ مِنه؟

ـ بَغتةً صَعِدَ تأوّهٌ مِنْ جَنَباتِ الحانة
صَعِدَ أنينٌ مِن أرواحِ العاشقين
ـ حدَثَ شَرٌّ وهَيَجانٌ في العالَم
انبعثَ صِياحٌ مِن هنا وهناك
ـ صُبّتْ جُرْعةٌ فوقَ صَعيدِ الأرضِ
فاعلَمْ أنّ الهياجَ والضّجّة نشَأا مِن هذه الجُرْعة

زلزالٌ في قُونِيةَ

في هذه اللّحَظات، ظهَرَ سَحابٌ مركومٌ أَسْودُ أَمامَ الشّمْس، وبغتةً اعتكرَ الجوُّ واسودَّ، ومرّتْ عاصفةٌ مزَمْجِرةٌ مجَلْجِلةٌ في فضاء قُونِيةَ بِسُرعة البَرْق، وزُلْزِلتِ الأرضُ لِلَحظةٍ وتأرجَحَتْ بِقُوّةٍ، كأنّها الأُرجُوحةُ. وقد سَمِعَ أهلُ قُونِيةَ تَضَرُّعاتِ النّساءِ والأَحْداثِ والأطفال، وكان النّاسُ يَفِرّونَ مِن بيوتهم وأكواخهم باتّجاه المَلاذاتِ والميادينِ والتّلالِ الصّغيرة، في ضَواحي المدينة.

كان صَحْنُ جامعِ عَلاءِ الدّين مُجتَمَعًا للفارّينَ مِن الزّلزال. نهضَ ممثّلو المحفِل الرّوحانيّ في قُونِيةَ من أماكنهم سَريعًا، وكان بعضُهم يرنو إلى بَعْضٍ بذهولٍ، ثمّ صَحَوا وانطلقوا مُسْرعينَ مذعورينَ إلى خارج بيوتهم.

كانتِ البيوتُ تَتَمايلُ وتتداعَى الواحِدَ إثْرَ الآخَر بتأثير الارتجاج والتّزَحْلُق. مدينةُ قُونِيةَ، المعروفةُ بأنّها مدينةُ الأبراجِ والقِلاع، لم تستطِعْ أن تقاوِمَ أَمامَ غضَب الطّبيعة. كانَتْ أصواتُ الغِرْبانِ والبُومِ تَصِلُ إلى الأسماع مصحوبةً بتضرّعاتِ النّاس وضَجيجهم. وقد لَفّ الموتُ والفَناءُ بوَجْهِه المهيبِ الكريهِ سَماءَ قُونِيةَ السَّوداء. كلُّ شيءٍ كان يهتزُّ. وكانَتِ الطّيورُ الذّاهِلةُ، بِأَصواتها الغريبة، تطيرُ في هذه الوِجْهة، وفي تلك الوِجْهة. رِيحٌ قويّةٌ عاصِفةٌ، ذاتُ سُرعةٍ لم يعهَدْها النّاسُ مِن قبْلُ، خلَطَتْ

بساتينَ أَهْلِ قُونِيةَ ومزارعَهم. الأنعامُ من بَقَرٍ وغَنَمٍ فقدَتْ هدوءَها وسكينتَها. الأَشْجارُ الضّخْمةُ كُسِرَتِ [٢٤٨] الواحِدةَ إثْرَ الأخرى.

وعَلَى الجِدار القويّ لمَدْرسةِ قَرَطاي الكبيرة، التي كان قد بناها الوزيرُ جلَالُ الدّين قَرَطاي في عام ٦٤٩هـ، ظهَرَتْ صُدوعٌ وشُقوق، وكان نِداءُ «اللهُ أكبَرُ» يُسْمَعُ مِن أعالي المآذن. في تلكَ اللّحَظاتِ المُرعِبة، كان كلُّ رُوحٍ وكلُّ كائنٍ في عَتَبةِ الالتماسِ والاستمداد والاستغاثة. النّساءُ احتضَنّ الرُّضّعَ والأطفالَ، وفَرّوا جَميعًا إلى الملاذات الدّينيّة. لحظاتٌ مُوحِشةٌ، كانَتْ فيها صَيْحاتُ اليأس في كُلّ لَحْظةٍ تعبثُ بهدوءِ أعصاب السّامعين. في كُلّ مكانٍ، كان الفَناءُ يطْلِقُ أجنحتَه السُّودَ. قَصْرُ عَلاءِ الدّين الرّاسخُ البُنيان، الذي شُيِّدَ في العام ٦٦٣هـ، تأذّى في الزّلزال الثالث، وكان النّاسُ الخائفونَ يفِرّون مِن هناك ويلجؤون إلى أماكنَ أخرى.

زِلْزالُ قُونِيةَ أحَدُ أكبرِ الأحداث في عَصْر مَوْلانا. وفي أثناءِ هذا الزّلزالِ المرْعِب، أَثْنى ممثِّلُو المحْفِل الرّوحانيّ وآخرونَ عَلَى القُدْرة الرّوحيّة عندَ مَوْلانا، مع أنّه في تلك اللّحَظاتِ اتّضحَتِ الأحاسيسُ العُدْوانيّةُ إزاءَه عَلَى أَثَرِ صَراحةِ كلامه وبَيانه عقائدَه، معَ أنّه غير مُهتمٍّ بهذه الأصداء. وقفَ إلى جانبِ النافذة غيرَ مُبالٍ، وكان ينظُرُ إلى سَماءِ قُونِيةَ السَّوداء، فانبعَثَ صوتٌ مِن خارجِ النّافذة مِن حَنْجَرة أحَدِ ممثِّلي قُونِيةَ، يقولُ:

ـ يا مَوْلانا، ما الحالُ؟ ـ لماذا لا تهدَأُ الأرضُ؟

أتتصوّرونَ ماذا يجِبُ عَلَى مَوْلانا أن يقولَ؟ ـ انتظِروا الجواب.

لم يكُنْ في كَلام مَوْلانا أثرٌ لخَوفٍ، أثرٌ لِعِنادٍ وعَداوة، بَلْ قالَ بنغمةٍ هادِئةٍ،

وابتسامةٍ يَفيضُ منها الهَزْلُ والمزْحُ: الأرضُ تنشُدُ لُقْمةً دَسِمةً.

ـ لَيْسَ الوقتُ وقْتَ هَزْلٍ ومَزْح... يا مَوْلانا، ألا ترى المنازِلَ تخْرَبُ فوقَ رؤوسِ أصحابها، واحِدًا بعْدَ الآخَر، ألا تسْمَعُ أدعيةَ النّساء وتضرّعاتهنّ واستغاثاتهنّ؟ ماذا يجِبُ أن نفعَلَ؟ ـ الخطَرُ صارَ أقربَ إلينا وإليكَ مِن إنسان العَيْن. الأرضُ تهتزّ كالأُرجوحة مِن دون أَمانٍ، لُقْمةٌ دَسِمةٌ، لَحْمُ إنسان. أينبغي أن يقضيَ النّاسُ تحتَ الأنقاض؟

فأجابَ مَوْلانا بدَمٍ باردٍ:

ـ أنا أرقُبُ رَقْصَ الأَرْضِ وحرَكَتَها، وأُصْغي إلى نداء القَلْب. هذا قَضاءٌ سَماويّ؛ فلابدّ مِن تحمُّله... [٢٤٩]

ـ إنّ حياتَنا في خَطَر. فأينَ كُلُّ الدّعاوي التي زَعَمْتَها. لماذا تعجِزُ.. لماذا تعجِزُ عن أن تمنعَ الأرضَ مِن الحرَكة؟

طالَ نَظَرُ مَوْلانا النّافِذُ إلى أولئك الذين ترتعِدُ فَرائصُهم مِن دهشةِ قَهْرِ الطّبيعةِ، وكأنّ الأحداثَ السّماويّةَ المميتةَ أذهَبَتْ سَلامةَ عقولهم. وأجابَ مَوْلانا:

ـ أنا أيضًا، على غِرار أُناسِ قُونِيةَ، أطلُبُ المدَدَ مِن الله المتعالي.

ـ يجِبُ أن نسألَ اللهَ أن يُهلِكَ المبتدِعةَ في قُونِيةَ، ويأتي عَلَى مُحِبّي شَمْس. إنّ هذا البلاءَ هَدِيّةُ شَمْسٍ الآتي مِن السَّفَر، وأتباعِ شَمْس.

ارتجّتِ الأرضُ مَرّةً أخرى بشِدّةٍ، ففَرَّ ممثِّلو المحفِل الرّوحانيّ هَلَعًا، وقال أَحَدُهم لمَوْلانا في أثْناء فِراره:

ـ أنتَ، الذي تُهدِّئُ طبائعَ البشَر، هدِّئِ الأرضَ. إن لم تكُنْ قادرًا على ذلكَ، فخلِّصْ نفسَكَ مِنَ الموت. حتّى الآنَ، لَنا معَكَ مناقشات.

تمتمَ مَوْلانا:

ـ رِجالُ اللهِ لا يأذَنونَ لِلْخَوفِ مِن الحوادث أن يجدَ سبيلًا إلى قُلوبهم، لَيْسَ لَدَيهم خوفٌ مِن الحادثات.

عاصِفةٌ مُرْعِبةٌ، مصحوبةٌ بهزّةٍ خفيفة، هزّتْ أرضَ قُونِيةَ مِن جديد. ومِن دُون اهتمامٍ بالأعاصير والعواصف، خرجَ مَوْلانا مِن منزِله لمُساعَدةِ المَساكين. عندَ رؤيةِ مَوْلانا، جاء النّاسُ إليه يبكونَ ويتأوَّهون.

مُشاهدةُ مَوْلانا أيضًا، في لَحَظاتِ الموتِ والفَناء، جعَلَتِ القُلوبَ راجيةً مؤمِّلةً. في نظَراتِ هؤلاء كان يموجُ سؤالٌ واضحٌ، كانوا في نظَراتِهم يستفسرونَ...لماذا، لماذا؟ وبعْدَ ذلكَ يستغيثونَ..

ـ هَلِ الحَياةُ كُلُّها خَوْفٌ وقلَقٌ وألَمٌ ودَمُ قَلْبٍ؟ هَلْ هذه الحياةُ جديرةٌ بِأَنْ تُعاش؟ على مَوْلانا أن يجيب. لا يستطيعُ مَوْلانا أن يتخلّصَ مِن هذه الأسئلة. إلهاماتٌ جديدةٌ تُبشِّرُه بأنّ الأرضَ ستهْدَأُ، والحياةُ تعودُ إلى قُونِيةَ مِن جديد. العُمُرُ المريرُ والعذابُ والعنَتُ تنتهي، والآلامُ الرّوحيّةُ عندَ النّاس تَزول. الحياةُ هي هي: تارةً كأسُ شَرابٍ[1] أُرْجُوانيّ، وتارةً دَمُ قَلْبٍ. السُّحُبُ السُّودُ أخذَتْ تنقَشِعُ مِن أُفقِ قُونِيةَ تدريجيًّا، والنّاسُ الخائفونَ تحلَّقوا حولَ مَوْلانا، يَنشُدونَ أن يسْمَعُوا إجاباتٍ لأسئلتهم. كان مَوْلانا يتطلّعُ إلى السّماء.. وبعْدَئذٍ دَعَا النّاسَ إلى الصَّمْتِ وقال لهم:

[٢٥٠] ـ بِمُساعَدة مُحِبِّي الإنسانِ والصّالحينَ، ستُعْمَر قُونِيةُ مِن جديد. وبابُ بَيتي مفتوحٌ أَمامَكم. فاسْعَوا إلى أن تكونوا ذَوِي أَمَلٍ بالمستقبل، وأنا مُغْرَمٌ بكم. اعتَمِدُوا على أَنفسِكم، توكَّلُوا على الله وآمِنوا به. فتعالَوا نَعبُدِ اللهَ معًا، كلُّ شيء في الدّنيا جميلٌ،

١ ـ يقولُ حافِظُ الشِّيرازيّ: كأسُ شَرابٍ ودَمُ قَلْبٍ، كلٌّ منهما أُعطِيَ لإنسانٍ..

علَينا أن نَصْبِر. علَيكم أن تشكُروا اللهَ الذي أنقذَكم مِن هذه الهزّة الأرضيّة المرعبة.

رَجُلٌ طاعِنٌ في السِّنّ، عَيناهُ تسْكُبانِ الدّمعَ قالَ:

ـ في المَرّةِ السّابعةِ مِن ارتجاجِ الأرض فقدتُّ أبنائي. ارتجّتِ الأرضُ سَبْعَ مرّاتٍ.

قال آخَر:

ـ لَعلّ المفقودينَ يكونونَ مسرورينَ لِأنّنا بَقِينا على قَيد الحياة، شريطةَ أن لا نأذنَ لِلْخَوفِ بأن يجدَ سبيلَه إلى قُلوبنا، ونذهبَ فندفِنَ هؤلاء وَفْق الرُّسومِ والآداب التي نتَّبِعُها. فقالَ مَوْلانا:

ـ علَينا وَسْطَ الإعصار، في هذه اللّحَظات، أن نُسيطرَ على أُنفسِنا، ونُحكِمَ الإمساكَ بزِمامِ أعصابنا. في مُواجهةِ النّوائبِ والحوادثِ المؤلمة، لابدّ مِن التّحلّي بالصّبر والمقاومة. وأعظَمُ مُهمّةٍ لنا الآنَ، أن نَنْسى الآلامَ والغُصَص. زَمْجَرةُ الطّبيعةِ المملوءةُ بالغَضَب، آلَتْ إلى انتهاءٍ. فأمِّلوا بالغَدِ، بِشَمْسٍ تطلُعُ فَجْرًا. انسَوُا اللّحَظاتِ المريرةَ الموحِشةَ مِن الماضي. أنا موجودٌ بينكم، وسأكونُ معَكم دائمًا. وسأطلُبُ مِن سُلْطانِ قُونِيةَ أن يضَعَ تحْتَ تصرّفكم مَلاذاتٍ وملاجئ. أحَدُ كبارِ السِّنّ قاطعَ مَوْلانا، وسأل:

ـ لَنْ أنسَى، ما حَيِيتُ، ساحاتِ قُونِيةَ المؤلمةَ اليومَ. وأُريدُ أن أعلَمَ ماذا كان ذَنْبُنا، لِكَي نستوجِبَ مِثْلَ هذه العقوبة؟ إنّ مطْلَبَ النّاسِ هو أن تُجيبوا عن هذا السّؤال. النّاسُ يريدونَ من مَوْلانا أن يبيّنَ أَسْبابَ قَسْوةِ الطّبيعة.

فقال مَوْلانا:

ـ أنا إنسانٌ غيرُ معترِضٍ، أَمامَ البَلِيّاتِ أُسَلِّمُ ولا أعترِضُ. الأمورُ كلُّها مَبْنِيّةٌ على المصْلَحة، تحْدُثُ الأمورُ كلّها وَفْقَ إرادة الله، وقد اقتضَتِ المصْلَحةُ أن تهتزّ أرضُ قُونِية. وأنا أيضًا، مَثَلي مَثَلُكم، أرقُبُ مَظاهِرَ الفَناء والعَدَم. كُنتُ أرى زِحامَ الفُقَراءِ

والأغنياء، الذين كانوا ـ مِثْلَ المشرَّدينَ [٢١٥] الذين لا مَلاذَ لهم ـ يَجْرونَ في هذه الوِجهة. أنا شاهِدٌ شديدُ الحُزْن لِمَوتِ الأَطْفالِ والشُّبّانِ تحتَ أنقاضِ البيوتِ والعِمارات. الآنَ يجِبُ أن تُسْكَبَ العَبَراتُ في مأتمِ الأعزّاء الذين فُقِدوا، وتُنحَّى الأحقادُ أو تُنسَى. لا ينبغي أن يُؤذَن لِلْيَأس أن يسيطرَ على القُلوب، ونحْنُ قادرونَ على أن نُعمِّرَ مِن جديدٍ ما تخرّب، ونبنيَ البيوتَ مِن جديد. أمّا تَكْوينُ الإنسانِ فَغايةٌ في الصّعوبة. عرَفَتِ الدّنيا أَقْسى الضّرَباتِ والأضرارِ، النّاشئة عن حَوادثِ الطّبيعة والظّواهِر الجويّة التي أصابت هياكلَ المجتمعاتِ وبِنْياتها، لكنّ أولئكَ النّاسَ كانوا قادِرينَ عَلَى أن يعالجوا الأضرارَ الناشئةَ عنِ السُّيول والحرائق والزّلازل، بِهِمّتهم وإرادتهم الحديديّة. الشّيءُ الذي يصعُبُ تَرْميمُه هو انحِطاطُ القِيَم. نَحْنُ نَسْعى إلى إعمارِ قُونِيةَ وإعادةِ بنائها، وسَريعًا سيأتي شَمْسٌ إلى قُونِيةَ، ويبدأ عمَلٌ عظيمٌ في معرفةِ الإنسان أو معرفةِ الذّات، مِن جديد. ولا شأنَ لِشَمْسٍ بعقائدِ النّاس، وهو مُعارِضٌ للمُرائينَ والمنافقين.

ومادامَ شَمْسٌ، مفخَرةُ النّاسِ، حَيًّا عَلَى وَجْه الأرض، سَتُحَلّ المشكلاتُ كلُّها. عُشّاقُ الحقّ [سُبْحانَه] يَصْبِرونَ على البَلَايا، ويعتقدونَ أنّ الدّنيا وُجِدَتْ مِن أَجْلِ النّاس. النُّورُ الإلهيّ مُتَجلٍّ في كُلّ ذرّاتِ كِيان الأفراد، ولا يأذَنُ العِشْقُ بأن ييأسَ النّاسُ. وهذه الأَحْداثُ الطّبيعيّة جميعًا، دالّةٌ على وُجودٍ حَقٍّ واحِدٍ:

إنّ أُمَّ الوَلَـــدِ دائمَـــةُ البَحْـــثِ عَنْـــهُ

والأُصـــولُ طالِبـــةٌ لِفُروعِهـــا

والمـــاءُ إنِ احتُـــبِسَ في حَـــوْضٍ

جفّفَتْـهُ الـرّيحُ؛ لِأَنّــه مِـنَ العناصِـرِ الأُولـى

فـــالرّيحُ تُحَـــرِّرُه، وتَحْمِلُـــه إلـــى مَعْدِنِـــه

شَـيئًا فـشَيئًا، بينَمـا أنـتَ لا تُبْـصِرُ حَمْلَهـا إيّـاهُ

وعَلَـى هـذا النّحْـوِ تَـسْتلِبُ أنفاسُـنا أَرْواحَنـا

شَـــيئًا فـــشَيئًا مِـــنْ حَـــبْس هـــذه الـــدّنيا[١]

---

١ ـ المثنوي: ١/٨٨٢ ـ ٨٥.

ـ يا مُطرِبَ الرُّوح، إذا أَمسَكْتَ بالدُّفّ
فاعزفِ اللّحنَ الذي سَكِرَ به الحبيب
ـ إنّ ذرّاتِ العالَم لِعِشْقِها تلك الشّمس
جاءَتْ راقِصةً مِن العَدَمِ إلى الوجود
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ٦٨٧)

رُجوعُ شَمْس

في منتصَفِ الرّبيع مِن عام ٦٤٤ الهِجْريّ[1]، كانَتْ قُونِيةُ في انتظارِ مجيء عارِفٍ جَرَى في عُروقه دَمُ المُحارِبينَ والأبطالِ الإيرانيّين، عارِفٍ لم يكُنْ يمتلِكُ بيتًا أو كوخًا، ولم يكُنْ يقيمُ في مدينةٍ أو قريةٍ إلّا مدّةً قصيرةً، حالُه في ذلكَ حالُ الطّيور المهاجِرة. وفي كُلّ مكانٍ كان يصِلُ إليه، كان يتحدّثُ بِلُغة الشّوقِ والجَذْب التي كانَتْ مُصاحِبةً لِلْبَحْثِ العرفانيّ العِشْقيّ، كأنّه عاشقٌ يوصِلُ بهيَجانٍ وسُكْرٍ تركيبًا ملَكوتيًّا مِن صَدَى رُوحِه وقَلْبه في قَوْسِ قُزَحِ كتابِ «**المقالات**» إلى آذان المشتاقين. وكُلُّ مَنْ كان يسْمَعُ كلامَه كان هدوؤه يتحوّلُ إلى هَيَجانٍ وثورةٍ، وكان يَرَى الطّبيعةَ أكثَرَ سِحْرًا وفِتْنةً، أو ينشَغِلُ بالتأمّل والتفكُّر في معرفة الذّات. وشَمْسٌ، في عُمُرِه كلّه، لم يتوانَ لَحْظةً عنِ السَّعْي إلى إِرْشاد اليائسين، وكان يبشِّرهم قائلًا: إذا ما اكتشَفْتُم عالَمَكم الدّاخليّ فستدرِكُونَ سَريعًا أنّ صوتًا متناغمًا لِلْحقيقة يتحدّثُ معَ قُلوبكم وأَرْواحِكم.

هذا الرّجُلُ الرّحّالةُ المتشرِّدُ كان يأتي إلى قُونِيةَ راكبًا جَوادًا، مُحاطًا بِهالةٍ مِن الوقار، وكان يبدُو غيرَ قابِلٍ للْكلَل والتّعَب. كان يريدُ ـ مِن دُون أن يُزيلَ غُبارَ الطّريق عن وَجْهِه [٢٥٣] ولِباسه ـ أن يَمضيَ لِلِقاءِ محبوبه، وأن يحتضنَه كالرّوحِ الجميل.

---

١ ـ في عام ٦٤٤هـ هذا، كان شَمْسٌ في السِّتينَ من عُمره

وبهذا الأمَلِ أخذَتْ كُلُّ اللّذّاتِ المعنويّة، وكُلُّ الأشْواقِ والتأثّراتِ في صَميمِ كيانه، في الهَيجانِ والرَّقْص.

أمّا مَوْلانا فكأنّه، بتأثيرِ الأَشْواقِ والآمال، كان يسْمَعُ صَدَى سَنابِك جَوادِ شَمْسٍ مِن بعيد. كان قدِ انقضَى على طُلوعِ الشّمْسِ ثلاثُ ساعاتٍ، عندَما كانَتْ شَمْسٌ أخرى تعودُ مِن سَماءِ دِمَشْقَ الحالمة إلى قُونِيةَ. مَوْلانا الذي كان يَرَى في شَمْسٍ مُتَجَلّى لِلْعِشْق، وكانونًا متّقِدًا له، لم يَعُدْ يعرِفُ رأسَه مِن قَدَمه، وكان قد أعدّ ساعِدَيه المدلَّلَين لِكَي يحتضِنَ مطلوبَه الحقيقيّ، الذي كان يَعُدّه شُعْلةً أو نُورًا سَماويًّا، ويصنعَ إلى جانبه الأنغامَ، ويسْمَعَ صوتَه الأخّاذَ باشتياقٍ وتحنُّنٍ. ألَمْ يعترِفْ مَوْلانا، في ديوانه الغِنائيّ [ديوان شَمْس تَبْريز]، بِأَنّ كلامَ شَمْسٍ المبهجَ للقَلْب فصيحٌ ولَطيفٌ ومدَلِّلٌ للرّوح ومُنعِشٌ للقَلْب، ومعَ أنّه ظَلّ بعيدًا عن قُونِيةَ لِأَشْهُرٍ بقيَ كلامُه في ذِهْن مَوْلانا حَيًّا؟. كان جَلالُ الدّين يُحِسُّ بشيءٍ مِن الفَخْر لِظَفَره بمِثْل هذا المحبوب والمُراد. عَددٌ كبيرٌ، مِن طَبقاتٍ مختلفة مِن النّاس، كانوا حولَ مَوْلانا، وكانَتْ جماعةٌ مِن المستقبِلينَ، الذين كانوا في انتظارِ شَمْسٍ[١]، يَعُدّونَ اللّحَظاتِ مُهتاجينَ متأثّرينَ. كان مَوْلانا يسْمَعُ النّاسَ وهم يَصيحونَ: شَمْسٌ، مَرْحَبًا وأهلًا. تواصَلَ صِياحُ النّاسِ المتأثّرين، وقد جاء هؤلاء لِكَي يُبْلِغوا شَمْسًا ثَناءَ أهالي قُونِيةَ وتكريمَهم ومحبّتَهم الخالصة.

عاد شَمْسٌ لِيضيءَ بشُعاعِ محبّته المُوافِقِ لِلْقَلْب صَدْرَ مَوْلانا المعَنّى، و يبيِّنَ له سِرَّ العِرْفان العِشْقيّ، على النّحْو المطلوب.

---

١ ـ يعرِّفُ سپهسالار، في كتابه «**رسالة سپهسالار، در مناقب حضرتِ خُداوندگار**»، شَمْسًا المحاطَ بِهالة الغموض باسْمِ: شَمْسِ الدّين محمّد بن عليّ بن مُلْك داد، وبألقاب: سُلْطان الأولياء الواصِلين، تاج المحبوبينَ، قُطْب العارفينَ، فخر الموحِّدينَ، صاحبِ الحال والقال [الأصل].

قلوبُ أولئكَ الذين كانوا واقفينَ في انتظارِ مجيء شَمْسٍ عنْدَ بابِ المدينة، أو خارجَ المدينة، غرِقَتْ في بِحارِ الشّوق للّقاء، وكان المستَقْبِلونَ يُحِسّون في داخلهم بهيَجانٍ رَمْزيّ ومبْهَمٍ وممتعٍ. وارتدَى النّاسُ أحسَنَ لِباسِهم، وتحوّلَتْ قُونِيةُ إلى قِطْعةٍ مِن السّرور والحُبورِ. حَتّى النّساءُ والأطفالُ، كانوا يُرَوْنَ بينَ المستقبِلين. ذلكَ المبشِّرُ بالسُّرورِ والحُبورِ ومعرِفةِ الإنسان، عادَ مِن جديد إلى قُونِيةَ. عاد إلى مدينةٍ كان [٢٥٤] أهلُ السُّوءِ والمتعصِّبونَ فيها، قَبْلُ، يَرْمُونَه بالحجارة.

وقد أظهَرَ شَمْسٌ، فِعْليًّا، أنّه مستحِقٌّ لإحرازِ مِثْلِ هذا الاستقبال. ففي هذا الفِراقِ والغيابِ القصيرِ الأمَد، أدركَ أهلُ قُونِيةَ عظَمتَه الرّوحيّة. وكانَتِ الصّورةُ التي ارتسَمَتْ له في عُقولِ مُحِبّيه وقلوبهم صُورةَ عارِفٍ عاشِقٍ متَخَلٍّ عن الدّنيا، عارفٍ كانَتْ عُصارةُ كلامِه أنّ كُلّ إنسانٍ متألّمٍ، علَيه ـ مِن أَجْلِ مُداواةِ آلامه الرّوحيّة ـ أن يتوجّهَ نحْوَ فَضاءاتٍ سَماويّة لا بابَ لها ولا صُورةَ، إلى المكانِ الذي ظهَرَتْ منه شُعْلةُ الأمَلِ والوجود. كان أهلُ قُونِيةَ في انتظارِ العارِفِ الذي تَركَ مَوْلانا عَلَى حِينِ غِرّةٍ، ونشأ عن هِجْرانه جُرْحٌ لا يندَمِلُ في قَلْبِ جَلال الدّين ورُوحه، وكان لَدَيهم أمَلٌ بأن يُعِيدَ هذا الطّبيبُ الرّحيمُ السّكينةَ الرّوحيّةَ لِمُدرِّس قُونِيةَ الكبير. نَعَمْ، كانوا في انتظارِ مَجْلَى الأمَل والرَّجاء عندَ مَوْلانا:

شَــيئًا فــشَيئًا يَــصِلُ جَمْــعُ الــسُّكارَى

شَــيئًا فــشَيئًا يَــصِلُ عُــشّاقُ الــشَّراب

الملاطِفونَ لِلْقُلوبِ يأتونَ متبخترِينَ في الطّريق

والوَرْدِيُّـو العِـذارِ يَـصِلونَ مِـنْ رَوضـةِ الـوَرْد

وشَيئًا فشَيئًا، مِن دُنيا الوجودِ والعَدَمِ هذه
ذهَبَ الفانونَ، ويَصِلُ السُّكارَى
وإنّ أرواحَ الطّاهِرينَ، مِثْلَ شُعاعِ الشّمْس،
تَصِلُ مِن ذلكَ الأُفُقِ الأعلى إلى البُستان(١)

كان شَمْسٌ يقتربُ مِن باب قُونِيَةَ وقد عَرِقَ وَجْهُه، وانهدَّ جسَدُه. الطّوّافُ المتجوِّلُ المشَرَّدُ ـ أو كما يقولُ المخالفونَ له: شَمْسٌ السّاحِرُ، شَمْسٌ الطّيّارُ ـ كان عازِمًا هذه المرّةَ على أن يضَعَ رُوحَ مَوْلانا وقلبَه في اختبارٍ قويّ، وبِمَحبّته يُلْقيهِ في أتُّونٍ يظلُّ طولَ حَياته يُحْرِقُه في نار الاشتياق، مِثْل طائرِ الفينيق(*)، ويجعَلُه رَمادًا لكي يمْدَحَ في شِعْرِه بعَظَمةٍ واقتدارٍ معرفةَ الإنسانِ والعِشْقَ. لَدَى شَمْسٍ هذه المرّةَ مُهِمّةٌ تتمثّلُ في أن يُحْرِقَ شخصيّةَ مَوْلانا في سِلْسِلة تجاربَ قاسية، ويوجِدَ له شخصيّةً أخرى. كان لَدَى شَمْسٍ مُهِمّةٌ أن يختبرَ أمانةَ مَوْلانا، وحِلْمَه وصداقتَه، وإيمانَه الذي لا يتزعزعُ بالعِشْق، فيَطْلُبَ منه أُمَّ الخبائثِ [الخمرةَ] وحَسْناءَ، ومَوْلانا أيضًا يمْلأُ إبريقًا ويُحضِره له. كان لَدَى شَمْسٍ مُهِمّةٌ أن يصنَعَ مَوْلانا مِن جديد، وبقفزةٍ مفاجئة يدفعُه نَحْوَ بُؤرة النُّور. كان على شَمْسٍ أن يقرأَ آخِرَ رسالةٍ وكلامٍ عَلَى مِسْمَع مَوْلانا؛ لِكَي يقولَ مرّةً أخرى:

أنا أَبْكَمُ في مَنامٍ، والخَلْقُ كُلُّهم صُمٌّ
أنا عاجِزٌ عن الكلامِ، والخَلْقُ عاجزونَ عن الاستماع

عَلَى شَمْسٍ أن يَعْرِضَ عَلَى مَوْلانا البِشارةَ التي في داخله، أو ـ كما يقولُ هو نفسُه ـ

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ٨٢٠.

* ـ طائرٌ خُرافيٌّ يموتُ محترقًا، لكنّه يعود حَيًّا مِن رماده دائمًا، لأنّه كائنٌ متجدّد [المترجم].

أكثرَ الإلهاماتِ والإشراقاتِ تأثيرًا، وأن يُدَنْدِنَ في أُذُنه: لا تغتمَّ أيّها الغالي؛ فأنا المغتَمُّ مِن أَجْلِك، وأنا المَحْرَمُ لِسالكي الطّريق، والنَّجِيُّ لِمُساكني العَرْش؛ لِكَي لا يدّعي أحَدٌ آخَرُ ادّعاءَ سُلْطانِ المعشوقين: أَيوجدُ أحَدٌ مِن خاصّتكَ يستطيعُ تحمّلَ صُحْبتي؟ كان شَمْسٌ يريدُ أن يجفّفَ آخِرَ قَطْرةٍ منْ دُرْدِيّ خمرةِ «نَحْنُ» و «أنا» في وجودِ مَوْلانا(*)، وأن يَحْمِلَ رُوحَه على أَجْنحة العِرفان الذّهبيّة، ويطيرَ به نحْوَ آلاف مِشَعّاتِ النُّور.

مَوْلانا وحْدَه، في قُونِيةَ، يستطيعُ أن يتحمّلَ قَولَ شَمْسٍ وفِعْلَه. وعَلَى شَمْسٍ في آخِر مُهِمّاته في قُونِيةَ أن يَفُضَّ الخَتْمَ عنِ القَلْبِ وعنِ اللّسان أيضًا[1]، وأن يقولَ لِمَوْلانا ما ينبغي أن يُقال؛ لِكَي يُزيلَ عن قَلْبه صَدَأ الظُّلْمةِ والكِبْر وطَلَبِ الجاه، ويصنعَ الأنغامَ والمنظوماتِ في الثّناء على العِشْقِ والمعشوقِ والاستغناء.

ولأنّ شَمْسًا يمتلِكُ أَهْليّةَ القَول، لابدّ مِن أن يتحدّثَ عنِ الأَسْرار عنْدَ شَخْصٍ يمتلِكُ أَهْليّةَ الاستماع، وأن يرفعَ الأستارَ عن وجه الأَسْرار[2]. شَمْسٌ كاسِرٌ للتّقاليد، باحِثٌ يَنشُدُ أن يضَعَ سُوَيْداءَ القَلْبِ أمامَ حبيبه الصّميميّ. وهو نفسُه يقولُ: إنّ قَلْبَ هذا الضّعيفِ (شَمْسٍ التَّبْريزيّ) لا ينزِلُ في أيّ مكانٍ، وهذا الطّائرَ لا يلتقطُ كُلَّ حَبّة، بَلْ يطلُبُ مُواسِيًا جميلًا ومُؤنِسًا رائعًا. رأى شَمْسٌ مَوْلانا رَجُلًا عَجيبًا. كان لَدَى

---

* ـ أي يريدُ أن يحوّلَ ذاتَه من «الأَنا» الدّنيّة إلى «الأنا» العَلِيّة. أي أن ينفي ذاتَه القديمة، ليتحلّى بذاتٍ جديدة مصنوعةٍ عَلَى عَين الحَقّ سبحانه، وِفاقًا لِما قاله العلّامة محمّد إقبال:

جِدْ بنَفْيِ الذّاتِ ذاتًا لا تهابْ   اجتَهِدْ، واللهُ يَهْدِيكَ الصّوابْ

[المترجم]

١ ـ من «مقالات شَمْس».

٢ ـ من «مقالات شمس»، ص ٢٤٥.

شمسٍ مُهِمّةٌ في هذا اللّقاء الأخير، هي أن يعرِّفَ نفسَه لمَوْلانا على حقيقته؛ لكي يدرِكَ رسالتَه جيّدًا، ويؤدّيها على نَحْوٍ دقيق. قال شَمْسٌ لمَوْلانا مرّةً:

ـ إنّ لي زِمامًا لا يجرؤ أحَدٌ، أيًّا كانَ، على الإمساك به إلّا محمّدًا رَسولَ الله. وهو أيضًا يُمسِكُ بزِمامي بتقديرٍ وحِسابٍ؛ عندَما أكون مُحْتدًّا وقاسِيًا، أي عندَما تدخُلُ عِزّةُ الدّرْويش رأسي، لا يُمسِكُ بزِمامي البتّةَ[1].

ويعتقِدُ شَمْسٌ أنّ النّاسَ سيُدْرِكونَ معانيَه جيّدًا [٢٥٦] بعْدَ مُضيّ أَلْفِ عامٍ[2]. ويَعُدُّ نفسَه بوضوحٍ إنسانًا كاملًا، ويرى أنّ مَوْلانا في المستَقْبَلِ مُضطَرٌّ، كالقَطْرة، أن يقفَ أمامَ أمواجِ بَحْرٍ شبيهةٍ بالجبال. وهو يقدِّمُ نفسَه جِهارًا على أنّه كيميائيّ[*]، ويدّعي قائلًا: إنّ وجودي كيمياءُ[**] لا يحتاجُ إلى صَبِّ النُّحاس. ومعَ هذا كلّه، شَمْسٌ في الطّريقِ لِتكْميلِ معارفه والبَحْثِ عن هَدفه، هائمٌ على وَجْهِه بَحْثًا عن صاحِبٍ يقولُ له رسالتَه الأخيرة، ولهذا السَّبب كان عندَه أمَلٌ، بأن يرجِعَ مَرّةً أخرى إلى جَلال الدّين لَعلّه يستطيعُ أن يقتلعَ غَرْسةَ محبّته مِن وجوده، أو يظلَّ حتّى آخِرِ عُمره أسيرَ محبّته أو داخلَ دائرته.

شَمْسٌ، هذا الرّجُلُ الذي ـ في رِواية جَلال الدّين البَلْخيّ ـ لا يخشى أعاصيرَ البِحار ورُعودَها، لَدَيه غَمٌّ ثقيلٌ مُطْبِقٌ عَلَى قَلْبه، وهو يَصِفُ نفسَه على هذا النّحو:

---

١ ـ من «مقالات شمس»، ص ٢٤١ ـ ٢٤٥.

٢ ـ من «مقالات شَمْس ..»

* ـ أي شخصٌ قادرٌ على تَحْويلِ الفِلِزّات الناقصة إلى ما هو أكمل [المترجم].

** ـ أي مادّةٌ تُوصَلُ بوساطتها الأجسادُ الناقصةُ إلى الكمال، والمرادُ هنا نظرُ المرشد الكامل الذي يرتقي بالسّالك من النقص إلى الكمال.

أَتكونُ حالةُ قَلْبٍ أكثرَ تشتُّتًا مِن هـذه الحـال؟

أو تكـونُ حادِثـةٌ أكثَـرَ فَوْضَـى مِـن هـذه الحادثـة؟

وفي العـــــالَم، مَـــــنْ رأى مُبْتَلًـــــى

هائمًا على وَجْهِه في الزّمان أكثرَ حَيرةً مِن هذا؟[1]

شَمْسٌ مُكَلَّفٌ، في آخِرِ رِحْلةٍ له، بأن يُنهيَ حَيرتَه واضطرابَه وتشتُّتَ ذِهْنه. هذا المُنادي للإنسانيّة الدّاعي إليها، الذي كان يَرَى أنّ معظَمَ المَسَرّاتِ والمباهِجِ في احتقارِ الشّهَوات ولَذائذِ النّفس، كان يُقلِّلُ مِن شأنِ أبي يزيدَ البِسْطاميّ والحُسَينِ بن منصورٍ الحلّاج، قائلًا: إنّه لَوْ كان عندَ أبي يزيدَ البِسْطاميّ عِلْمٌ لَمَا قالَ: «أنا»[2]، ولو كان عندَ الحلّاج عِلْمٌ بالحقيقة لَمَا قالَ: «أنا الحقّ»[3]. وتأسيسًا عَلَى ذلكَ، عَلَى مَوْلانا أن يُعِدَّ نفسَه لِأَنْ يتخلّى عمّا سَمِعَه وقرَأَه في شأن أبي الحَسَن الخرَقانيّ ومشايخ العِرْفان الآخَرين؛ ذلك لأنّ شَمْسًا سيُبطِلُ كلَّ أقوالِ هؤلاء وأفعالهم. وهو يَعُدُّ كلَّ هذه الكلماتِ، وكلَّ هذه الأقوالِ المنسوبة لأشياخ العِرْفان، غِلافًا، ويقولُ: إنّ كُلّ هذه السُّتورِ والحُجُبِ التي أَحاطَت بالإنسان هي أغلفةٌ، والسَّماواتُ السَّبْعُ غِلافٌ له، وكُرةُ الأرضِ غِلافٌ له أيضًا. وما دامتِ المعرفةُ نفسُها حِجابًا، فكُلُّ شيءٍ حِجابٌ. وعَلَى شَمْسٍ، في رجوعه إلى قُونِيةَ، أن يمزِّقَ الحُجُبَ والأغلفةَ بقُوّةِ الكَلامِ والشُّهود. [٢٥٧] يقولُ شَمْسٌ إنّ أغلَبَ خاصّةِ الله تعالى هم أولئكَ الذين خَفِيَتْ كَراماتُهم، لا يتّضِحُ لِكُلّ إنسانٍ كيفَ هم مختفون.

١ـ من «مقالات شَمْس ..»

٢ـ مقالات شَمْس: ١٣٠/٢.

٣ـ مقالات شَمْس: ١٨٥/١.

مَوْلانا يجبُ أن يكونَ مستعدًّا لِكَي يعرِفَ الكَرامات، ويعرفَ جيِّدًا رِجالَ الله الذين هُم في حِجاب الأسرار. هذه المرَّةَ، يأتي شَمْسٌ إلى قُونِيةَ بادِّعاءاتٍ عجيبة. فهو يعرِفُ لُغةَ الطّبيعة، ويريدُ أن يعلِّمَ مَوْلانا هذه اللّغة. هذه المرّةَ، يجِبُ أن يغيِّر عالَمَ الفِكْرِ والعِلْمِ والمعارف عندَ مَوْلانا؛ ذلكَ لأنّ التّعلّمَ في عَقيدةِ شَمْسٍ حِجابٌ عظيم. كُلُّ مَعارِفِ مَوْلانا يجِبُ، بِمَدَد كلامِ شَمْسٍ المثيرِ للعواصف، أن تغدوَ ضَحيّةَ شُعَلِ نارٍ متأجِّجة؛ لِكَي ينمو مِن رَمادِها المَرْويّ بالكيمياء السّماويّة، وببيانِ شَمْسٍ، أزاهيرُ مُعطَّرةٌ ومُلوَّنةٌ جديدة. ويقبِّحُ شَمْسٌ جُملةَ الحُكَماء والفلاسفة، ويقولُ: إذا كانَتْ معاني أفلاطونَ والرّازي وشِهابِ الدّين(*) جديرةً بالإدراكِ والفَهْم مِنْ خلالِ التّعليم والبَحْث، فإنّ تُرابَ العالَم بالضّرورة لأبي يزيدَ والجُنَيد.

وسيَتْلُو شَمْسٌ التَّبْريزيّ في أُذُنِ مَوْلانا:

خُـذْ مُلْـكَ العـالَمَـيْنِ؛ فـإنّني مالِـكُ المُلْـك

وتَعالَ إلى حَفْلِ الطَّرَبِ والأُنْسِ، فقَدْ أَغْمَدْنا السُّيوفَ

إنّ آلافَ الذّرّاتِ، بفَضْلِ هذا القُطْب، صارَتْ شُموسًا

ومَـا أكثَـرَ قُراضـاتِ القَلْـبِ التـي جَعَلْناهـا غِمْـدًا!

نُعطيـكَ جَناحًـا لِكَـي تطيـرَ إلـى الفَلَـك، كالسَّهْم

إذا جَعَلْنـا الجِسْمَ المِسْكينَ قَوْسًا، مِـنَ الغَـمّ

---

* ـ يريدُ: الإمامَ الفَخْر الرّازيّ، و شهابَ الدّين السُّهْرَوَرْديّ: يحيى بن حَبَش بن أميرك، أبا الفتوح، صاحب المصنّفات الكثيرة، الذي نُسِبَ إلى انحلال العقيدة في حَلَب، فقُتِلَ فيها سنةَ ٥٨٧هـ، وضريحُه فيها.

وإنْ كُنْـتَ شَـيْطانًا، فـنَحْنُ نجْعَـلُ الـشّيطانَ مَلَكًـا

وإنْ كُنْـتَ ذِئبًـا، فقَـدْ جعَلْنـا الـذّئبَ راعِيًـا

ومَـعَ أنّـكَ طـائرٌ ضـعيفٌ، اطْلُـبْ غُـصْنًا مرتفعًـا

عَلَـى شَـجَرةِ الـسّعادةِ تِلْـكَ، حَيْـثُ جعَلْنـا عُـشًّا

ومَـعَ أنّ الـسّماءَ سَـقْفٌ مرفـوعٌ، لا تَفِـرَّ

ولمـاذا تَغْـتمُّ مـن الارتفـاعِ وقَـدْ أعـدَدْنا سُـلَّمًا؟(١)

مُبارِزٌ عَنيدٌ، عارِفٌ متفوِّقٌ عَلَى مَشايخِ زَمانِ جَلالِ الدّين البَلْخيّ، الذي كان دائمًا ينشُدُ أن يصِلَ إلى مَنْبعٍ فيّاضٍ مُفيضٍ لِلُّروحِ والحياة، يقتربُ مِن مدينة قُونِيَةَ.

وأُنهي هذا البَحْثَ برَأْيِ شَمْسٍ التّبْريزيّ ووِجْهةِ نظَرِه في جَلال الدّين البَلْخِيّ:

[٢٥٨] إنْ سَألوكَ: كيفَ عرَفْتَ مَوْلانا؟ ـ فقُلْ: أتسألُ عن قَوله؟ قَولُه هو: «إنّما أَمْرُه إذا أرادَ شَيئًا أَنْ يقولَ لَهُ كُنْ فيكونُ»؛ وإذا سألتَ عن فِعْله فهو: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»؛ وإذا سألتَ عن صِفَته فهي: «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ...»(٢).

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ١٧٣٠.

٢ ـ مقالات شَمْس، ص ٤٦.

ـ وَصَلَ مِن جديدٍ ذلكَ الذي هو مَعْبوديَ الفَتّان،
الذي هو السّعادةُ لي في هذه اللّحظة وفي غَدي.
ـ في نظَرِه ضِياءُ رُوحي
وفي خدِّه بُستاني ومُتنزَّهي
ـ وفي عاقبةِ الأمر، تَرامَى إلى سَمْعِه
صِياحي ونَعِيري ونَحيبي
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٢١١٦)

سُلوكُ طريقِ العِرْفانِ العِشْقيّ

كان قَدْ وَصَلَ أَمْرٌ بِأَنْ يُكلَّف شَمْسٌ التَّبْريزيُّ مرّةً أُخرى أَن يذكُرَ الأقوالَ الجديرةَ بالقَول بِبيانٍ أكثرَ إمتاعًا وعلى نَحْوٍ أكثَرَ عِرْفانًا، ومِن دُون إبهام، وأن يبيِّنَ ابنُ خُراسانَ الكبيرةِ السَّعيدُ المؤمنُ أَسْرارَ العِرْفانِ الإيرانيّ بِأكثَرِ أَنْواعِ الكلامِ انسيابًا وجاذبيّةً. فقد جاء مِن مكانِ وِلادةِ العِرْفان، وعَلَيه أن يُعْلِنَ أنّ العِرْفانَ عنصرٌ ثابتٌ ووَجْهٌ مُشخِّصٌ لفِكَر أَساطينِ الفِكْر الإيرانيّ. وقد جاء شَمْسٌ مِن أَجْلِ أن يُعْلِنَ أنّ الحقيقةَ لها عُشٌّ في جَوْهرِ الرّوح، وجَوْهرَ الرّوح له عُشٌّ في العِشْق. فإذا كان في المنظومةِ الفِكْريّة لجلال الدّين البَلْخيّ أنظارٌ أو مفاهيمُ غيرُ تلكَ التي تنطوي عَلَيها نظَرِيّاتُ شَمْسٍ العِرْفانيّةُ الأَصْليّة، فعَلَيه أن يُودِعَها مُستودَعَ التّاريخ؛ لِكَي ينبثِقَ في أعماقِ تفكيرِه شَوْقٌ وحرارةٌ وهيَجان. وقد قالَ شَمْسٌ لجَلالِ الدّين:

أَنَـــا قَـــاطِعُ طَريـــقِ العَيّـــارِينَ
أنـا الغَـيْمُ، وأنـا الغَيْـثُ، أَنْـسَكِبُ علـى المـروجِ

وشَمْسٌ هو الحامِلُ لِلِواء فكرةِ أنّ التّجربةَ الحِسّيّةَ والمنهجَ العقليّ يستطيعانِ تقريبًا جَمْعَ مقدِّماتٍ لِنَيلِ معرفة الحقائق وإدراكها، أمّا الواقعُ الحقيقيّ فيحْكُم بأنّ الظّفرَ بالمعرفة الحقيقيّة يَتيَسَّرُ للأفراد عندَما يقتربونَ مِن الحقيقة، ويتّصلونَ بها، مِن

طَريقِ الإيمان المحْضِ ومعرِفةِ الذّات والمَيْل الباطنيّ.

[٢٦٠] عَلَى شَمْسٍ، في اللّقاء الأخير، أن يُعِدّ مَوْلانا لِأَنْ يُوصِلَ ما يجيشُ في صَدْره، كعَيْنِ الماء، إلى أَسْماعِ النّاسِ بِطَريق الأشعار المُطْرِبة العِرْفانيّة؛ ذلكَ لِأَنّ التّحرُّقَ والهيَجانَ والعِشْقَ لا يمكِنُ تصويرُها إلّا بوَساطةِ الأشعارِ لِكَي تغدُو مؤثّرةً.

يشاءُ شَمْسٌ أن يقولَ لمَوْلانا هذه الحقيقةَ، وهي: أن يتجرّدَ مِن كُلّ شَيء وينشَغِلَ بإصلاح باطنه؛ لكَي يطّلعَ في هذه الحالِ على حَياةٍ عظيمةٍ تَرْبِطُ بين مُعْطَيات الحِسّ والذّهن (تجرَّدْ، واشْهَدِ المُجرَّدَ).

كان لابدَّ لِشَمْسٍ[1] مِنْ أن يُعْلِمَ النّاسَ، مِن طَريقِ مَوْلانا، أن يُعَرِّفوه في إطار

١ ـ كتبَ المستَشْرِقُ الإنكليزيّ نيكلسون في كتابه «مقدّمة للرّوميّ وتفسير المثنويّ»، في شأن محبّة مَوْلانا القويّة لِشَمسٍ التّبْريزيّ [ترجمة أوانيسيان وتعليقه ـ بالفارسيّة]، قولَه:

قبْلَ أن يشيرَ الرّوميّ إلى أنّه وشَمْسًا التّبْريزيّ رُوحٌ واحِدٌ في بَدَنَين بزمنٍ طويل، كان نوعٌ مِن العِشْق العِرْفانيّ الأفلاطونيّ مقبولًا عندَ الصّوفيّة. وجُملةُ الاختلافاتِ الظّاهريّة في هذا الاتّحاد بينَ العاشِقِ والمعشوق أخذتْ تختفي، ولم يبقَ إلّا الوَحْدةُ الأَصْليّةُ لِلْعِشْق، التي يَفْنَى فيها وجودُ العاشِقِ و«المعشوق» أحَدِهما في الآخَر. ونجدُ الرّوميَّ في ديوان غَزَليّات شَمْس تَبْريزي يستعمِلُ اسْمَ شَمْسٍ على نحوٍ يبدُوانِ فيه كأنّهما صارا شَخْصًا واحِدًا، وتحوّلا إلى وجودٍ واحِدٍ. ومهما أمكَنَ أن يبدو لنا وجودُ شَمْسٍ غيرَ واقعيّ، لا يمكِنُ التّسليمُ بعقائد بعضِ المحقّقينَ الجُدُد التي تذهبُ إلى أنّ شَمْسًا كان، على الحقيقة، نتاجَ التُّبوغ الصّوفيّ والشّعريّ لجلال الدّين، وأنّه كان يُعَدّ «إلِهَةَ الشِّعْر» في بلاد الشّرق. والذين يسلِّمونَ بهذه النّظريّة، عَلَيهم مِن الوجهة المنطقيّة أن يَعُدّوا صلاحَ الدّينِ زَرْكوب وحُسامَ الدّين چلبي أيضًا «إلِهَةَ الشّعر». وفي هذه الحال، يكونُ لزامًا أن يخطّئوا اعتقادَ أنّ سُلْطانَ وَلَد اخترعَ ثلاثَ شخصيّات خياليّة لكي يستطيعَ أن يُوضِح تفصيلًا الوقائعَ المهمّة في حياة والده، وتأسيسَ الفِرْقة المولَويّة. وطَلَبةُ الجامعاتِ في الغَرْب، الذين يُطالعونَ في موضوع ديوان «المثنويّ»، سيتذكّرون نظيرًا لهذه النّظريّة في موضوعٍ آخَر: أَلَمْ يستبدِلْ دانتي دوناجنتل، الذي كان موضوعَ عِشْقه الشّعريّ، بحِكْمةٍ سَماويّة، ويجعَل اسْمَ باتريتشي محَلًّا للمَدْح والثّناء؟

ومهما يكُنْ، فإنّ مَوْلانا يعتقدُ أنّ مَثْنَويَّهُ هو دُكّانُ الوَحْدة، فكُلُّ شيءٍ ما خَلَا اللّهَ الواحِدَ لَيْسَ سِوى صَنَم. ويتسامى الرّوميّ إلى ما فوقَ مُعترَكِ الوجود، ويدركُ أنّ كُلَّ التّناقضاتِ والتّنابُذاتِ ناشئةٌ عن وجود النّقص في التّناغم والانسجام الكُلّي، الذي لا يستطيع أن يدركَه إلّا العارفونَ:

إنّ لِكُلّ دكّانٍ تجارةً خاصّةً به وإنّ المثنويَّ هو دُكّانُ الفَقْر، يا بُنَيّ =

العِلْمِ ومعرفةِ النّفس بأنّه ممثّلٌ لِلْعالَمِ العُلْويّ عَلَى الأرض، وأن يدركوا المعنَى الحقيقيَّ لوجوده.

ويَمِيلُ شَمْسٌ إلى أن يتقدّمَ النّاسُ إلى مملكةِ ما وراءَ الطّبيعة، ويحصُلُ هذا التقدّمُ بالتّحرّر مِن طَوْق النّفْسِ الشّبيهِ بالثّعبان. فالقُرْبُ منَ الحقّ سُبحانَه يكونُ على قَدْرِ التّحرُّر مِن [٢٦١] تِنِّينِ النّفْس. شَمْسٌ مأمورٌ بِأَنْ يُفهِمَ مَوْلانا أنّ أبسَطَ شيءٍ نشاهِدُه في الحياةِ ينطوي علَى سِرٍّ. ويعْلَمُ شَمْسٌ أنّ أهلَ الدّنيا رأوا الأيّامَ المُظْلِمةَ والمُوجِعةَ لِهجومِ المغول، ولِلْحُروب الدّمويّة الصَّليبيّة، فكان عَلَيه أن يعلِّمَهم طريقَ الأُخُوّةِ والمروءةِ والإخلاصِ ومعرفةِ الذّات والاتّحادِ والعَيْشِ المشترَكِ والتّصالح، ويقولَ لهم:

لِأنّــه لا يوجَــدُ في الــدّنيا شــرٌّ مُطْلَــقٌ
بــلِ الــشّرُّ نِــسْبيٌّ، فــاعْلَمْ ذلــكَ أيــضًا
ولَــيْسَ في هــذه الــدّنيا أَبــدًا سُــمٌّ وسُــكّرٌ
لا يَكونــانِ قَــدَمًا لِأَحَــدِهم وقَيْــدًا لِآخَــر
فمـا يكـونُ قَـدَمًا لِأحَـدِهم يكـونُ قَيْدًا لِآخَر
يكــونُ لِأحَــدِهم سُــمًّا، ولآخَــرَ كالــسُّكّر
فــسُمُّ الحَيّــةِ يكــونُ حَيــاةً لِتِلْــكَ الحَيّــة
أمّــــا للإنــــسانِ فهــــو مَــــوْتٌ(١)

- إنّ أجملَ طريقٍ، وأدقَّ طريقٍ ينبغي أن يسلكَه الإنسانُ نحْوَ الحقّ سُبحانَه مِن طَريق

= وكتابُنا «المثْنَويُّ» هو دُكّانُ الوَحْدة وكلُّ ما تراه، غير الواحِد، هو صَنَمٌ
(المثْنَوي: ٦/١٥٣١)

١ ـ المثْنَوي: ٤/٦٥ ـ ٦٨.

العِرْفان، واضِحٌ عندَ شَمْسٍ. فعندَه، أنّ الفُنونَ جميعًا وعُلومَ المعقول جميعًا ترتبطُ بهذا الطّريق، شرْطَ أن يكونَ الإنسانُ قابِلًا ومُريدًا لأن يسلُكَ هذا الطّريق. سُلوكُ طَريقِ العِرْفانِ العِشْقيّ سَيَهبُ مَوْلانا هُوِيّةً أُخرى، وسيكونُ مَظْهَرًا لِأَعظَم التّغييرات، ومَعينًا لِأكثرِ الإلهامات امتلاءً بالبَرَكات. يعْلَمُ شَمْسٌ هذا، ويتوقّع حُصولَه، وإنّه لهذا السَّبب عندَما واجَهَ في طَيّ الطّريق مِن دِمَشْقَ إلى قُونِيَةَ الألَمَ والوجَعَ والأَشْواكَ لم يأذَنْ لِلْغَمّ بأن يجِدَ إلى قَلْبه سبيلًا. ومعَ كُلِّ صُوَر الظُّلْم التي تنتظِرُ شَمْسًا في قُونِيَةَ، كان غيرَ عابِئٍ، حَتّى كأنّ رُوحَه كان في كُلّ لَحْظةٍ يسْمَعُ نِداءً سَماويًّا يقولُ: سارِعْ إلى المعشوق. وإذا كان شَمْسٌ قد دفَعَ مَوْلانا إلى الكَفّ عن البَحْثِ والمُناظَرةِ والمناقَشة معَ أَهْلِ الظّاهر، وعن القِيلِ والقال في المدرسة، فقد حقّقَ أمرًا عظيمًا.

إنّ آفةَ الإدراكِ هي تِلْكَ الحالُ وذلِكَ القالُ

وغَسْلُ الدّمِ بالدَّمِ مُحالٌ مُحال

وكُلُّ ما تقولُه، يا نَفَسَ الوجودِ، عنِ الوجود

اعلَمْ أنّكَ قد وضَعْتَ به حِجابًا آخَرَ علَيه

[٢٦٢] ومُسَلَّمٌ عندَ كُلِّ واحِدٍ مِن أهل العِلْم:

أنّ المحَرَّكَ لَهُ مُحَرِّكٌ

شاء شَمْسٌ، بالبرنامجِ الذي نظّمَه، أن ينشئ في دار العِلْم في قُونِيَةَ مَدْرسةً لِعِلْم الإنسانِ، ولِلْعِشْق وتأمّلِ الذّات. وكان شَمْسٌ يعتقد أنّه، في مدرسة العِشْقِ والعِرْفان فقط، يبتسِمُ النّاسُ لِآلامِهم وأوجاعِهم، ويسعَونَ للانطلاقِ نحْوَ أنوارِ الحقّ والحقيقة. مُحِبّو الله تعالى، وَحْدَهم، يعْلَمُونَ الغَرَضَ مِن الحياة. شَمْسٌ، الذي هو مُوجِدُ انقِلابٍ

فِكْريٍّ ورُوحيٍّ وأخلاقيٍّ في مَوْلانا، علَيه هذه المرّةَ أن يكشِفَ الأستارَ عن أَسْرارِ عالَمِ القَلْب، ويقولَ له: إنّ كُلَّ موضوعٍ أدركَهُ مِن العالَمِ حتّى الآنَ يكونُ قد رفَعَ عنه سِتْرًا على نَحْوٍ نِسبيٍّ. وبتعبيرٍ آخَر، لأنّه هو نفسَه مِن الوجود، يكون كُلُّ ما ذكَرَه أو فكّرَ فيه قد وَضَعَ به حِجابًا على وَجْه الوجود. وابتغاءَ إدراكٍ حقيقيّ لِعالَم الخَلْقِ والكائناتِ، لابدّ مِن الارتباطِ بالعُشّاق الحقيقيّينَ وناظِمِي مَديحِ الأَطْهارِ في عالَم الوجود. فهؤلاء يَرَونَ نُورَ الحياة. وعندَ شَمْسٍ التَّبْريزيّ، مَوْلانا وَحْدَه الذي يقْدِرُ على الظّفَر بِكُلّ تجلِّياتِ العِشْق وإلهاماته المختلفة. فمَوْلانا هو الحارِسُ لِمَعْبَد العِرْفان، وهو أيضًا الذي سيُخلِّدُ آراءَ شَمْسٍ ونَظَريّاتِه وفِكَرَه في تاريخ العِرْفان الشّرقيّ، بِوَساطةِ كتابه المسْتَجاد «المثْنَويّ»، وديوانه الكبير [ديوان شَمْس تَبْريز]، بما فيه مِن وَصْفٍ دقيقٍ لِلْهيَجانِ والوَجْد العِشقيّ، وسيَعْكِسُ في أعماقِ قُلوبِ المحِبّينَ الأنوارَ الخالدةَ للحقيقة. لكنّه لا ينبغي نِسْيانُ أنّ مَوْلانا هو الذي استطاعَ، بالقوّة الخلّاقة لِلْعِشْق، أن يأتي بشَمْسٍ، الذي كان كالطّيور المنطَلِقةِ بحُرِّيّةٍ في السّماء، إلى كُوخِه في قُونِيةَ، أَسِيرًا ومَسْحورًا ومجذوبًا وعاشقًا. وإنّ هذه الرّوحانيّةَ والجاذبيّةَ لَدَى مَوْلانا، هي القادرةُ على أن تُزيلَ صَدَأَ الكُدُورةِ عن قَلْبِ شمسٍ الحسّاس، وهي التي اضطرّته إلى أن يتنقّلَ مِن باديةٍ إلى باديةٍ، ويستَسْهِلَ صُعوبات السَّفَر، وأن يبتعدَ عن الحِمَى العِرْفانيّ المضْطَرِم في دِمَشْق، ويأتيَ إليه بِتَوقٍ وعِشقٍ؛ لكي يتّصلَ نُورُ الشّمسِ بالشّمس.

ـ وَصَلَ موكبُ شَمْسٍ إلى مدينة قُونِيةَ. بتعبيرٍ آخَر، بعْدَ خمسةَ عَشَرَ شَهْرًا من الفراق، وشَهْرٍ مِن السَّفَر المتعِب الهادّ لِلْجَسَد، وَصَلَ إلى قُونِيةَ مُرْشِدُ جَلال الدّين وقُطْبُه.

مَوْلانا أيضًا منذُ البَدْء، وقَفَ أمامَ أنوار شَمْسٍ المدهشة. وقَدِ انتهى اللّيلُ

المُحْرِقُ للرّوح، وديجورُ الفِراق. خفَتَ صَوْتُ مَوْلانا الشّاكي مِن تباريح الفِراق، في قَلبِ [٢٦٣] أمواجِ الزّمان، وفي مكانِ ذلكَ استبدّتِ الأَشْواقُ والهيَجاناتُ بقَلْبه. وأوصَلَ صوتُ النّايِ والرّبابِ، الجَميلُ النّغمةِ، رَجْعَ تَرْحيبِ مَوْلانا إلى أُذُنِ شَمْسٍ بِتَحبّبٍ، على هذا النّحو:

مـا هَـذا، مـا هَـذا؟ ـ هـذا جُنـونُ العاشِـقَين

ففـي نُـورِهِ صـارَ وَجْـهُ الأَرْضِ أَجْمـلَ مِـنَ الـسّماء

أَهـذا ذُهـولُ الأَرْواحِ، أم جَـوْهَرُ المنـاجِم؟

أَمْ سَـرْوُ البَـساتينِ، أَمْ صُـورةُ الـرّوح الأَمِـين؟

بِسْمِ الله يا رُوحَ البَقاء؛ بِسْمِ الله يـا حُلْوَ اللّقـاء

بِـسْمِ الله يـا شَـمْسَ الـضُّحَى؛ بِـسْمِ الله يـا عَـينَ اليقـين

الـشّمْسُ تَحْـتَ ظِلالِـه زادَ رَصِـيدُها

ومِئةُ قَمَرٍ، وَسْطَ بَيْدَرِه، تلتقِطُ الحَبَّ كالنَّسْر الطّائر(١)

دخَلَ مَوْلانا في حالٍ مِنَ الاهتياج والنّشاط. وأصابَتِ الدّهشةُ والحَيْرةُ نظَراتِه النافِذةَ، أمامَ الأنوارِ السّاطِعة لِسِيماء شَمْس. وكان المتعبِّدُ في مِحْرابِ العِشْق قد أخمدَ لِلَحَظاتٍ بطيئةٍ كُلَّ ضَجّةٍ تحْتَ سَماءِ قُونِيةَ الزّرقاء. وفي تلكَ اللّحَظاتِ، بَدا الأمرُ كأنّ حَرارةَ ضُروبِ السُّرور كلّها في الدّنيا قد أحاطَتْ بِكُلّية وجودِ مَوْلانا، وكانَتْ ضُروبُ السُّرور هذه تنهَلُّ في صُورة قطَراتِ دَمْعٍ من عَينَيه. كان ينتظِرُ باشتياقٍ، وَسْطَ دُموعِ الشّوق، وصولَ ضَيْفِ دارِ القَلْب:

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٧٩٤.

منــذُ أن طلَــعَ شُــعاعُ شَــمْسِ التَّبْريــزيّ مِــن الشّرْق

صارتِ الأرضُ والسَّماءُ رُوحًا خالـصًا، أيّها العُـشّاق[١]

لَفَّ صَمْتٌ مُقدَّسٌ قُونِيَةَ كُلَّها، والتقَتِ القُدْرتانِ العظيمتانِ في عالَمِ العِرْفان، وظهرَتْ صُورةٌ ملَكوتيّة على بَوّابة قُونِيَةَ[٢]، كأنّه شاركَ في تنظيمِ [٢٦٤] هذه الصّورةِ كُلُّ قوى الطّبيعة. شَمْسٌ الذي كان كِيانُه كلُّه مِن المَحبّةِ والإخلاص، يأتي راكبًا جَوادًا أبيضَ، بهدوء، وقَدِ احْمَرّتْ عَيناهُ مِن السَّهَر والرّياح والعَواصف في الطّريق. معشوقانِ لَقِيَ أحَدُهما الآخَرَ تحْتَ شَمْسِ منتصَفِ النّهار المُحْرِقة، التي كانت تسطَعُ على رأسَيهما. كان أحَدُهما راكبًا، والآخَرُ ماشيًا... كان شَريطُ الذّكرياتِ يمرّ أمامَ ذاكرة كلٍّ مِن العارِفَيْنِ العاشقَيْن، ومعَ كُلّ تحريكةٍ إلى الأَمامِ يعرِضُ مناظِرَ باعثةً على العِبرة، مِن اللّقاء الماضي.

مِن جديدٍ، أخذَتْ قُونِيةُ صورةَ مَحْفِلٍ لِلْعِشق. ومعَ كُلّ صُوَرِ الظُّلْمِ التي اقترفَها جماعةٌ مِن أَهْلِ قُونِيةَ القُساةِ في جانبِ شَمْسٍ، تناسَى هو كُلَّ شيءٍ، ورَهَنَ قَلْبَه لِعِشْق مَوْلانا، وليكُنْ ما يكون[٣].

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٩٥٥.

٢ ـ أنشدَ مَوْلانا في دِيوان شَمْسٍ في هذا الشأن قولَه:

تَعالَ، تعالَ، يا مَعْشوقي، يا معشوقي	ادخُلْ، ادخُلْ في عَمَلي، في عَمَلي
أنتَ أنتَ رَوْضةُ أزهاري، روضةُ أزهاري	أذِعْ، أذِعْ أَسْراري، أَسْراري
أينَ أذهَبْ تذهَبْ معي، تَذْهَبْ معي	وفي كُلّ منزِلٍ أنزِلُ فيه تغدُو خِلْصي، تغدُو خِلْصي
وفي النّهار واللّيلِ أنتَ مؤنسي، أنتَ مؤنسي	ولِشباكِ صَيْدي أنتَ غَزالٌ جَميلٌ، أنتَ غزالٌ جَميل
يا شَمَعي، أنتَ لألاءٌ جِدًّا، لألاءٌ جِدًّا	وفي بيتي أنتَ كالنافذة، أنتَ كالنّافذة
وسَهْمُ البلاءِ إذا وَصَلْ، إذا وَصَلْ	فأنتَ التُّرْسُ، وأنتَ الدِّرْعُ، أنتَ الدّرعُ

(ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٧٨٦)

٣ ـ اليومَ جِئتَ ثَمِلًا، ففضَحْتَ الأمورَ هَيّا اشتَعِلْ يا شَمَعَ الرّوح، يا مَنْ خَلَصْتَ من عارِ القالَب =

أوجَدَ وُفودُ شَمْسٍ ولِقاؤُه مَوْلانا والمخالفينَ، الذين كانوا قد أَذْعَنوا له، عاصفةً في المُحيطِ الهادئ العظيم للرّوم الشّرقيّة.

= وقد أحرَقْتُ هذه الخِرْقة، ورفَضَ الخَلْقِ وقَبولَهم
مئةُ رُوحٍ تَفْدي حَبيبي، فهو تاجي وهو عِمامتي

فقُلْ: اهْدَأ يا أبا العَلاء، واحتَدَّ يا أبا الحَسن
وإنّ الجنّةَ تَغارُ مِنّي إذا دخَلْتُ في الأتون
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٧٩٦)

ـ أُفْشِي سِرَّكَ، لِأَنَّهُ لم يَبْقَ لَدَيَّ صَبْرٌ أكثرُ مِنْ هذا
ولَمْ تَعُدِ السَّماءُ والأرضُ تتحمّلانِ ألَمي.
ـ أنا ثَمِلٌ، وأُفْشِي سِرَّ أَلْفِ عامٍ،
فإمّا أن تُغمِضَ عينَكَ، وإمّا أن تَفتَحَها وترى جيّدًا.
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة: ١٨٣٢)

مُغنِّي الكَمالِ المطْلَق

شَمْسٌ هو المُغَنِّي والخادِمُ المخْلِصُ لِلْكَمال المطْلَق، والخيرِ المطْلَق. صار الجَمالُ المطْلَقُ والعِشْقُ المطْلَقُ مُتأَمَّلًا لِعُقولِ النّاسِ وبصائرهم. ولَيْسَ لِمَوْلانا الجُرأةُ على أن يتلفَّظَ ويتحدّث. كانَتْ لَحَظاتُ المَوْجِ هي التي تُوصِلُ إلى الآذانِ أعذبَ الأصداء. وإذ مزَجَ مَوْلانا الإخلاصَ والصّفاءَ العِرْفانيَّين، وأخفَى الكَلامَ المنطَوِيَ على الشّفقةِ العميقة والعِشْق الضّارِبِ في أعماق النّفس، قالَ:

ـ مَرْحَبًا بكَ يا شَمْسُ[1]، مَرْحَبًا بكَ، أُحِسُّ مَرّةً أُخرى بِأنّني، بتأثيرِ حَرارةِ شَمْسِ وجودِكَ وجاذبيّةِ كلامِكَ، أواصِلُ حياتي المُثيرة. كانَتْ صَيحةُ التّرحيبِ بِشَمْسٍ التَّبْريزيّ قد هَزّتْ حتّى جَسَدَ مَوْلانا المنهَكَ، وجَسَدَ مُرادِه [شَمْسًا]. وهذه الأصواتُ التي تترامَى إلى الأَسْماع مِن حَناجِرِ عُشّاقِ شَمْسٍ أيضًا، جعَلَتْ مَوْلانا أكثرَ سُكْرًا، فقَدْ أضاءَ شُعاعُ الشّمْسِ كُلَّ ناحيةٍ. كان النّورُ ينتثِرُ مِن الفضاء. أدركَ النّاسُ عظَمةَ الحقيقة، وتجلّيَها، في ذلك اليومِ على نَحْوٍ رائع. أَحَدُ مُحِبِّي مَوْلانا صَرَخ:

---

١ ـ يعتقِدُ الأستاذُ الدّكتُر محمّد رضا شفيعي كَدْكني في مقدّمته اللّطيفة لكتابه «گزيدهٔ ديوان شمس» أنّه «إذا كانتِ الولادةُ الثانيةُ لمَوْلانا نتاجَ لقائه شَمْسًا، فإنّ خُلودَ اسْمِ شَمْسٍ أيضًا محصولُ لقائه مَوْلانا، مع أنّ شَمْسًا كان مِن المتحرّرين، إذ يقولُ: «افتَرِضْ أن لا تَبقَى لي هذه الشّهْرةُ، فماذا سَيَحْدُثُ؟».
(غزَليّات شَمْس تَبْريز، ص ١٢).

ـ «اعْرِفوا اللهَ باللهِ». ونَعَرَ آخَرُ:

[٢٦٦] «المؤمِنُ ينظُرُ بِنُورِ الله».

هذه الأَصْواتُ والكلماتُ المحبَّبةُ، التي تَفيضُ مِن القُلوب، كانَتْ أُنشودةً مقدَّسةً أعادت شَمْسًا إلى وَعْيه، فتمتَمَ:

ـ ما أَجْملَ الإنسانَ الذي يَعْدِلُ الأَقاليمَ السَّبْعةَ والوجودَ كلّه![١]

وبغتةً، استولَى عَلَى مَوْلانا هَيَجانٌ عَجيبٌ، فمَضَى مُسْرِعًا نحْوَ شَمْسٍ، لكنّ قدَمَيه لم تكُنْ لَدَيهما القدرةُ على أن تَحْمِلاهُ، ولهذا السّبب وقَعَ مَوْلانا عَلَى الأرض، فانحنَى النّاسُ الخائفونَ عَلَى وَجْهِه. عَيْنا مَوْلانا نِصْفُ مفتوحَتَين، وشَفَتاهُ تنفرجانِ، ولِسانُه أخذَ يتحرّكُ، فيقولُ بمَحبّةٍ:

ـ شَمْسٌ، شَمْسٌ، شَمْسٌ التَّبريزيّ! كأنّ لُطْفَ اللهِ وانجِذابَ الإنسانِ، في تلكَ الدّقائق، اختُصِرا في هذه الكلمات الأَرْبع.

كان المستَقْبِلونَ يُساعدونَ، ويرقُبونَ، مَوْلانا بانتباهٍ. شَمْسٌ الذي كان قد حُوصِرَ وَسْطَ أمواج أَهْل قُونِيةَ ينزِلُ عن جَواده. في هذه اللّحَظاتِ ينحَبِسُ الكلامُ، وينظُرُ العاشِقُ والمعشوقُ أحَدُهما إلى الآخَر مبتسمًا، لَعلَّ القُدْرةَ المبهَمةَ لِلْعِشْق تنقُلُ كلامَهما القَلْبيّ على نَحْوٍ سِحْريّ.

كان الناسُ يهلّلونَ، وينثُرونَ النَّقْلَ وسُكّرَ النّبات والوَرْدَ، سُرورًا بمَقْدَمِ شَمْسٍ، وكانَتِ الدّموعُ ترتجِفُ في مقلتَي شَمْسٍ. نَعَمْ، دَمْعُ الشّوق.

كان لقُونِيةَ في تلكَ اللّحَظاتِ جَلالٌ وعظَمةٌ مِن ضَرْبٍ آخَر، كانَتْ مملوءةً

١ـ مقالات شمس تَبْريزيّ.

بالهيَجانِ والسُّرور. وفي وَسْطِ ضَجيجِ النّاس وصِياحهم، كان مَوْلانا وشَمْسٌ يتمشّيانِ. والأمرُ كما يقولُ شاعرٌ غربيّ: إنّ مُصَوِّرًا نارِيَّ القَلَمِ، وحْدَه الذي يقدِرُ علَى أن يصوِّرَ هذا المشهَدَ بسِحْرِ الفنّان، في مكانٍ واحِد.

توقّفَ شَمْسٌ أَمامَ شَريطِ الزّمانِ المهتزّ، فتذكّرَ الماضي، فعادتِ الفِكَرُ المُرّةُ الموجودةُ في أعماق وجودِه. تذكّرَ الأيّامَ واللّيالي التي كان يعيشُها في قُونِيَةَ بقَسْوةٍ ومَرارة.

الفِكَرُ المؤلمةُ الآتيةُ مِن الماضي أوجَدَتْ في جَبهتِه تقبّضاتٍ وتجاعيدَ، واضطَرَبَ تَوازُنُ قَدَمَيه. في رِحْلَته الأولى إلى قُونِيَةَ... في ذلك الوقتِ، كان قد وَجَدَ عَلَى قارعة طريقه ثلاثةَ دَراهِمَ، فقالَ في نفسِه: توفَّرتْ تكاليفُ الإقامة، في زَمانِ الفَقْر والاستغناء، وفي ذلكَ الوقتِ كان الدّرْهَمُ الواحِدُ يُعادِلُ عِشْرينَ ومئةَ وَحْدةٍ نقديّة أصغر. وكان رَغيفُ الخُبْز [٢٦٧] يُشترى بوَحْدةٍ نقديّة واحدةٍ مِن هذه الوَحَدات. وكان شَمْسٌ في كُلّ لَيلةٍ يأكلُ نِصْفَ رغيفٍ، ويتصدّقُ بنِصْفٍ آخَرَ عَلَى مِسْكينٍ أو بائس.

تذكّرَ الأيّامَ واللّياليَ التي نزَلَ فيها في خان بائعي السُّكّر في قُونِيَةَ، واستأجَرَ حُجْرةً. وفي تلكَ الأيّام، كان يضَعُ على باب حُجْرته قُفْلًا كبيرًا، وكان يضَعُ المفتاحَ المربوطَ بزَاويةِ مِنْديلٍ صغيرٍ قيِّمٍ على كتفه؛ لِكَي يتخيّلَ النّاسُ أنّه تاجِرٌ كبير، بينَما لا يوجَدُ في حُجْرة شَمْسٍ على الحقيقة سِوى حَصيرٍ قديمٍ وإبريقٍ مكسورٍ ووِسادةٍ مِن آجُرٍّ خام، حتّى إنّه ظَلّ لخَمْسةَ عشَرَ يومًا بلَياليها يُفطِر على أَرغِفةِ خُبْزٍ يابسةٍ مَثْرودةٍ بالماء.

- ذِكْرياتُ الماضي، واحِدةً إثْرَ الأُخرى، كانَتْ تمرّ أمامَ باصِرتَي شَمْسٍ الحادّتَي النَّظَر... في الأيّام التي كان قد وَصَلَ فيها مِن قَيْصَرِيّةَ إلى آقْ سَراي(*) أقامَ في

* ـ قَيصَريّةُ وآقْ سَراي من مدن الأناضول القريبة من قُونِيَةَ في تركية [المترجم].

المسْجِد، وحَدَث مرّةً بعْدَ صَلاة العشاء أن قال له مؤذِّنُ المسْجِد: اتْرُكِ المسجدَ فَورًا، واذهَبْ إلى مكانٍ آخَرَ للإقامة، فقالَ شَمْسٌ لمؤذِّن المسْجِد بِتَرَجٍّ:

ـ أنا رَجُلٌ غَريبٌ، فاسْمَحْ لي بالبقاء، أنا لا أطْمَعُ بِشَيءٍ، دَعْني أرتَحْ هنا لِلَيلةٍ واحدة. فأمسكَ المؤذِّنُ بِتَلابيبِ شَمْسٍ وأخرجَه مِن المسْجِد. لم يَقُلْ شَمْسٌ شيئًا، ولم يقاوِمْ، وتركَ المكان. انهلّتِ الدّموعُ مِن عَينَي شَمْسٍ بغتةً. لا يترُكُ الغَمُّ والغُصّةُ، في أيّةِ صُورةٍ مِن الصُّوَر، قَلْبَ شَمْسٍ، معَ أنّ قلْبَه كان يُريد أن يستريح:

قُلْتَ: لِماذا صارَ الدّمعُ عندَكَ أحمرَ كالدَّم؟

كيفَ سأَلْتَ؟ ـ أصدُقُكَ القَولَ كيفَ صار؟

قَلْبي يَصُبُّ دَمْعًا كالدّمِ بِسبَبِ عِشْقِكَ

وعندَما فاضَ هذا الدّمْعُ خرَجَ مِنْ رَأْسي

ولِأَوّلِ مَرّةٍ قالَ مَوْلانا لِشَمْسٍ بِلَهْجةٍ آمِرة:

ـ لا ينبغي لَكَ أن تفكِّرَ بالماضي، خاصّةً بالزّمانِ المُرّ المنتهي؛ لأنّ كُلَّ شيءٍ في هذه اللّحَظاتِ العظيمة يُصفَّى ويُنَقّى مِن أَجْلِنا نحْنُ الاثنَين:

قالَ: انظُرْ إلَيَّ، وامْلَأْ قَلْبَكَ بالسُّرور

لا تنظُرْ إلى نفسِك أبَدًا، أَيْ مُحِبّي[1]

كان مَوْلانا وشَمْسٌ يَتمشَّيانِ أحَدُهما إلى جانبِ الآخَر بِتُؤدةٍ مسرورَيْن. نَسِيَ الصّوفيُّ المتجرِّدُ، شَمْسٌ الطّيّارُ، الماضِيَ مُستجِيبًا لِأَمْر مَوْلانا. كان النّاسُ [٢٦٨]

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزليّة ٢١٠٧.

يَمضونَ مُسْرِعينَ كالظِّلِّ وراءَ هذَين الشّخصَيْنِ اللّذَين يُعَدُّ أحَدُهما زِينةَ المِحْراب، والآخَرُ سِراجَ الخانِقاه.

سألَ شَمْسٌ مَوْلانا: كيفَ أمضيتَ اللّيلةَ الماضيةَ؟

ـ نِمْتُ منتصفَ اللّيل، ثمّ بعْدَ ساعةٍ نهضتُّ مِن فراشي لِكَي أنشغلَ بالمطالعة. تناوَلْتُ ديوانَ المتنبّي، وأخذْتُ بالقراءة. ومرّةً أُخرى، ذهَبْتُ للنّوم. رأيتُ في المَنامِ أنّني في مَدْرسةٍ معَ جماعةٍ مِن العُلَماء، وأنّني منشغِلٌ ببَحْثٍ عظيم، وبغتةً رأيتُكم أمسَكْتُم بِلِحْيةِ المتنبّي وجئتُم به إلَيَّ وسألتموني بانزعاجٍ:

ـ تقرَأُ دِيوانَ هذا الرَّجُل؟ ـ تُطالِعُ كلامَ هذا الرّجلِ الصَّغير؟ ـ كان المتنبّي رَجُلًا نَحِيلًا، وكان يتضرّعُ ويتوسَّلُ: أَنقِذْني مِن يَدِ شَمْسِ الدّين التّبْريزيّ، وأَلْقِ هذا الكتابَ الذي هو مِن آثاري في النّهر، وانسَ كُلَّ ما قرَأْتَ؛ لِكَي أرتاحَ أنا على الدّوام مِن عِتاب شَمْسٍ وخِطابه.

ارتسَمَتِ ابتسامةٌ على شَفَتَي شَمْس، وسَكَتَ، وأطرقَ مُفْكِرًا.

سألَ مَوْلانا شَمْسًا:

ـ في دِمَشْقَ، بمَ اشتغَلْتَ؟

ـ قضَيتُ في الرّياضةِ والمُجاهَدةِ، في حُجْرةٍ في إِحْدى المدارس، أربعةَ عشَرَ شهرًا.

ـ وكيفَ عزفْتَ عن الرّياضة؟

ـ في أَحَدِ الأيّام، وأنا في حُجْرتي، ترامَى إلى سَمْعي: إنّ لِنَفْسِكَ أيضًا حَقًّا عليكَ. فَوْرًا تركْتُ الرّياضةَ والانزواءَ، وجئتُ إلى سُوق دِمَشْق، وانضَمَمْتُ إلى مجلسٍ.

سكَتَ شَمْسٌ لِلَحْظةٍ، ثمّ قالَ لِمَوْلانا: لَمْ تسألْ عن سُلْطان وَلَد، ابنِك؟ نَسِيتَ

محبّةَ ابنِكَ الحنون وبُعْدَه عنكَ بسببِ لِقائي...؟

ـ إنّ الاشتياقَ لِلقائكَ اضطرّني إلى أن أنسَى كُلَّ الذين يعرفونَني وأَعرِفُهم، حتّى سُلْطانَ وَلَد. بعْدَئذٍ عانقَهُ مَوْلانا، وقبَّلَ وجْهَهُ الشّاحِبَ، ثمّ وقفَ وبِصَوتٍ مرتجِفٍ طلَبَ إلى ابنه أن يحضُرَ، وقالَ:

ـ أَيْ بُنَيَّ، في حَياتي كُلّها لَمْ أكُنْ مَسْرورًا وطَيِّبَ الخاطِرِ في يومٍ، بِمَقْدار ما أنا علَيه في هذا اليوم. وهذا السُّرورُ والابتهاجُ أَتيتَ به أنتَ هدّيةَ المسافِرِ [أرمغان ـ بالفارسيّة] لي. ملأْتَ قلْبَ والدِكَ الشَّيخِ بالاهتياجِ والتَّوَثُّب، فقد أرجَعْتَ إلى قُونيةَ العارفَ الذي تجلّتْ فيه صِفاتُ الإنسانِ الكامِل، وكُنتُ لمدّةٍ طويلةٍ أنوحُ وأبكي لِفراقه [٢٦٩]. أعلَمُ أنّكَ متعَبٌ جِدًّا، لكنّكَ تعلَمُ أنّ الألَمَ في طَريق العِشْق كَنْزٌ. ما حَيِيتُ لَنْ أنسى تفانِيَكَ وإيثارَكَ. فرَدَّ سُلطانُ وَلَد، الذي كان مُتْعَبًا ومُنهَكًا:

ـ لمُدّةِ شَهْرٍ على التّمامِ كُنتُ أتقدّمُ راجِلًا في مَوْكِبِ شَمْس، وفي هذه المدّة مَرِضتُ عدّةَ مرّاتٍ، ولكنّني بِجَسَدي الذي استبدّتْ به الحُمّى واصَلْتُ الطّريقَ والرّحلةَ؛ ابتغاءَ أن أنفّذَ أمْرَ جَنابِكَ، على ما يُرام.

ـ بقيّةُ الرّفاقِ، كيفَ حالُهم؟

ـ كلُّهُم عادوا سالِمينَ، وَحْدي أنا احترامًا لِشَمْسٍ لم أمتطِ جَوادًا طَوالَ الطّريق، وكُنتُ أتقدّمُ في الطّريق ماشِيًا على قَدَميّ. أنا، أيضًا، مِثْلُكم مُريدٌ لِشَمْس. شَمْسٌ، عَلَى الحقيقة، عالَمٌ آخَرُ وإنسانٌ نادِرٌ وجميلٌ. إنسانٌ مُلْهِمٌ، وقد أدرَكْتُ قَدْرَه ومنزلتَه في هذه الرّحلة، جيِّدًا.

مِن سَماعِ هذا الكلامِ، ارتَسَمَ تفتُّحٌ مُحَبّبٌ على أَسارِير وَجْه مَوْلانا، وبَدَا كأنّ

ذَرّاتِ كيانه كانَتْ تتوثّبُ وتلتهِبُ، مِمّا يجدُه في نفسِه مِن وَجْدٍ وسُرورٍ ونشاط.

اعتقادُ سُلْطانِ وَلَد، إيمانُه الحارّ جِدًّا بمَوْلانا شَمْسِ الدّين التَّبْريزيّ، جعَلَ مَوْلانا جلالَ الدّين أكثرَ أمَلًا بمُستَقْبَلِ الإنسان والعِرْفان. فسأَلَ سُلْطانَ وَلَد:

ـ كيفَ وجَدتَّ شَمْسًا في هذه الرّحلة؟

ـ عَلّمَني شَمْسٌ أنّه في جِبِلّةِ الإنسان بَحْرانِ مُتوارِيان: أَحَدُهما بَحْرُ السِّرّ والآخَرُ بَحْرُ القَلْب. مِنْ بَحْرِ السِّرّ تخرُجُ لآلئُ المُشاهَدةِ والمعايَنة؛ ومِن بَحْرِ القَلْب يخرُجُ مَرْجانُ المُكاشَفة. أَيْ أبَتَاهُ، إنّ مَوْلانا شَمْسًا، بِنيرانِ الاشْتياقِ التي أَحْرقَتْكم وجعَلَتْكم رَمادًا، أَلْقاني في أُتُونِ المحبّة، مِثْلَ سَمَكةٍ رُمِيَ بها في اليابسة. قال لي شَمْسٌ: كُلُّ اعتقادٍ حرَّكَ نفسَك، وهَزَّ طَبْعَكَ، احتفِظْ به. وأضافَ قائلًا:

انظُرْ إلى العالَمِ كُلِّه بِنُورِ العِشْق. علّمَني شَمْسٌ أيضًا، أنّه عَلَى وَجْه البسيطةِ أَعْدادٌ هائلةٌ ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾(١) سَبيلًا مِن الأنعام؛ لِأَنّهم لَيْسُوا عاشِقينَ أو مُحِبّين. العِشْقُ، والإنسانُ العاشِقُ، منبَعٌ غزيرٌ لِأَكثَرِ الإلهامات بَرَكةً. وهذا مبعَثُ أنّني، مِثْلَكم، بايعْتُ شَمْسًا، وسَأَظَلُّ دائمًا مُريدًا مخْلِصًا له. شَمْسٌ ملتزِمٌ بالإيمانِ والاعتقادِ الصّحيح إلى حَدِّ الإخلاص التّامّ، ومجتمِعٌ في وجودِه كُلُّ صِفاتِ الإنسان الكامِل.

أَيْ أبَتَاهُ، اعْلَمْ أنّ تلكَ الصّورةَ الكامِلةَ لِلْمَعْشوق الإلهيّ، الذي كُنتَ تبحَثُ عنه [٢٧٠] على امتدادِ سِنينَ، هو نفسُه ـ على الحقيقةِ ـ الذي كشفتَه أنتَ جيّدًا:

مِنَ المَلِكِ العظيمِ، شَمْسِ الدّين، ظَفِرْتُ بكَأسِ
وفي داخِلِ كأسِهِ وجَدتُّ شَمْسًا

وعنـدَما عَثَـرْتُ داخِـلَ طُرّتِـه عَلَـى مـا يـدهِشُ القَلْـب
دخَلْـــــتُ في المِــــسْكِ فوجـــــدتُّ عَنْبَـــــرًا
فــانظُرْ وَسْــطَ طُرّتِــه إلــى وَجْــهٍ مُــشْرقٍ كالنّــار
فقــد وجَــدتُّ وَسْــطَ المِـسْكِ والعَنْبَـر مِجْمَــــرًا
وعنــدَما نظَـرْتُ، كــان رأســي مملـوءًا مــنْ عِـشْقِهِ
إذ وَجدتُّ خـارجَ العـالَمَــيْنِ كِلَيهمـا منظَـرًا أخّـاذًا(١)

في منتصَفِ الطّريق، قُلْتُ لِشَمْسِ الدّين التَّبْريزيّ العارِفِ المتجرِّد: عندَما حَدَثَ في الماضي أنِ اعترضَ أهلُ قُونِيةَ على مجيئكم، وأخذوا ينالُونَ مِنكم ويُكْثِرون مِن القِيلِ والقال، لَمْ يكُنْ ذلكَ إلّا لِأنّهم غيرُ مطَّلِعينَ على سِرِّ العِشْق والفِكَر العِرْفانيّة. مِن ناحيةِ المُعارضينَ لَكُم، هناكَ متهوِّرونَ وحاسِدونَ أَسْلَموا زِمامَ أُمورِهم لعَدَدٍ مِن المتشدِّدينَ العُمْيانِ القلوب. والمؤسِفُ أنّهم كانوا يَرَونَ العِرْفانَ العِشْقي ضَرْبًا مِن الاضطرابِ الأخلاقيّ ونُشْدانِ اللّذة والبهجة. عندَ أَصْحابِ هذه الرُّؤية، صِلةُ الإنسانِ بإنسانٍ آخَرَ أمرٌ غيرُ واقعيّ. كان ذلكَ عندَهم شيئًا محيِّرًا ويحْمِلُ معنًى مختلفًا. أمّا أكثَرُ مُحِبِّي والدي، فكانوا عارفينَ أنّ العِشْقَ انجِذابٌ وحَرَكةٌ نَحْوَ المجهولات. الأشخاصُ الذين كانوا على عِلْمٍ بالاستعداداتِ التي لا تُقدَّر بثَمَنٍ لِرُوحِ الإنسانِ، تقبَّلُوا العِشْقَ بقَبولٍ حَسَنٍ بكُلِّيّةِ وجودهم؛ لِأَنّ العِشْقَ وحْدَه مِن بَين أَحْلامِ الحياة يظلُّ شَفّافًا وخالِدًا(٢).

١ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٦٠١.

٢ ـ جاء في «مقالات شَمْس» أنّ شَمْسًا التَّبْريزيّ ـ قَبْلَ الوفود إلى قُونِية، وقَبْلَ ذَهابِ سُلْطان وَلَد إليه ـ كان قد كتبَ رسالةً مفصَّلةً لجلال الدّين، فيما يأتي نَقْلٌ لها بإجمال: =

= «يكونُ معلومًا عندَ مَوْلانا أنّ هذا الضَّعيفَ [شَمْسًا نفسَه] مشغولٌ بالدّعوة إلى الخير، ولا يختلطُ بِأَيّ إنسانٍ؛ لأنّ أحوالَ كُلّ واحِدٍ صارت معروفةً عنْدَ حضرتكم، والأحبّاءُ يكونونَ عرَضُوا علَيكُم الأمْرَ. لكِنْ، يوجَدُ دَرْويشٌ عَزيزٌ حَيُّ القَلْب، وهكذا إذا اطّلَعَ مَوْلانا على حقيقة حاله فإنّني أعْلَمُ أنّه ينظُرُ إليه على نحوٍ لا يتوانَى فيه في إعزازه وإكرامه. ومنذُ عشرة أعوامٍ، كان للدّاعي [شَمْس] هنا معرفةٌ له ومحبّةٌ، وعندَما ذهبتُ إلى دِمَشْقَ، كانت هناك أيضًا محبّة واضحة.. وهذا الدّاعي [شَمْسُ] لَيْسَ مقلّدًا، ومُحِبُّو حَضْرتِكم يكونون قد سَمِعوا كلامَ هذا الضّعيف، وقد رأيتُ دَراويشَ أعزّاءَ كثيرين، وظفِرْتُ بِلقائهم ومعرفتهم، وعرَفْتُ الفَرْقَ بين الصّادقِ والكاذب منهم، قَولًا وعَمَلًا، فلا أنخدعُ بأحَد. إنَّ قَلْبَ هذا الضّعيفِ لا يحُطُّ في أيّ مكان، وهذا الطّائرُ لا يلتقِطُ كُلَّ حَبّة..!» مقالات شَمْس، ص ٧٨٣ ـ ٨٤.

ـ أَلا فلتَرْقُصْ في عِشْقِ رُوحي، أيّها الخِلْصُ الحنونُ
أيّها المطْرِبُ، اضرِبْ على الدُّفّ، ولا محنةَ غيرُ هذه
ـ وارقُصْ أمامَ مُحَيَّا قَمَرِنا ثَمِلًا، مرّةً واحِدة.
أيُّها المطْرِبُ، باللهِ عليكَ، اضرِبْ على الدُّفّ بِلَحْنٍ حزين
ـ أيُّها المطْرِبُ، ذكَرْتَ أنتَ اسْمَ شَمْسِ الدّين
وشَمْسَ الدّين
فاختطَفْتَ مِن رَأسي، مرّةً واحِدةً، العقلَ والدّين
(ديوان شَمْس تَبْريز)

السَّماعُ راحةٌ لِلرّوح

في هذه اللّحَظات، بدَأتْ جَماعةٌ مِن عُشّاقِ شَمْسٍ ومَوْلانا بإجراءِ السَّماع، فكانوا يَدُورونَ ويرقُصونَ بدِقّةٍ ورشاقةٍ وهدوء، كالطّيرِ في رِياض الأَزْهار. كانَتْ أيديهم، على إيقاعِ الدُّفّ والنّايِ والرّباب، تُشير إشاراتٍ رَمزيّةً إلى مَرْكز الشَّمْس. كأنّهم كانوا يريدونَ أن يجِدُوا مقصودَهم وعِشْقَهم ومطلوبَهم الذي يحلَمونَ به في عَين الشّمْس. كان عازِفُ النّاي يعزِفُ بتحبُّبٍ، والمطرِبُ يغنّي:

يَـرْوي النّـايُ حَـديثَ الطّريـقِ الممتلـئِ بالـدَّم
ويَقُـصُّ حِكايـاتِ أَلَـمِ المجنـون
فرُؤيَـةُ النُّـورِ تَتْبَعُهـا رُؤيـةُ اللَّـون
وأنـتَ سَـرْعانَ مـا تُـدْرِكُ ذلـكَ بـضِدّ النّـور
وقَـدْ خَلَـقَ الحَـقُّ الأَلَـمَ والحُـزْنَ
لِكَي تتضِّحَ لَـكَ سَعادةُ القَلْـبِ بهـذا الـضِّدّ[١]

المتفرِّجونَ، ومنهم شَمْسٌ ومَوْلانا، توقّفوا قليلًا، وأَخَذوا ينظُرونَ إلى التّركيبِ

---

١ ـ المثنوي: ١٣/١، ١١٣٧ ـ ٣٨.

العِرْفانيّ والملَكوتيّ لِلْعِشْق، وازدادَ الوَجْدُ والحالُ والهيَجانُ الذي يعيشون تحتَ وَطأته. كان دَورانُ الشّمْسِ متناغِمًا معَ دَورانِ أحِبّاء مَوْلانا، والمشتاقونَ جميعًا كانوا يُحِسّونَ في داخِلِهم بهيَجانٍ رُوحيٍّ، وكأنّ الأرضَ والحشائشَ والأشجارَ على امتدادِ طَريقِ المستَقْبِلينَ بدَأتْ بالتحرّك والاهتزاز.

[٢٧٢] هَبَّتْ أنسامُ منتصَفِ النّهار، وصاحَبَتْها أيضًا رِياحُ الشَّمال، حتّى كأنّ الزُّهَرةَ ـ معَ أنغامِ النّاي ـ أخذَت ترقُصُ بتدلُّلٍ في السّماء. بدأتِ الحياةُ ترتدي ثيابَ العظَمةِ وإثارةِ العِشْق، فقد كان الجميعُ يرقصونَ، وقد أضْرَمَ صَوْتُ النّاي النّارَ في وجود السّامعين. الرّاقصونَ الدّائرونَ حولَ أنفسِهم، كأنّهم كانوا يَطيرونَ وَسْطَ السَّحابِ وفي فَضاءاتِ السّماء. فمَنْ ذلكَ الذي سُكِبَتْ قَطْرةٌ مِن شَرابِ المحبّة الزُّلالِ المُسْكِرِ علَى قَلْبه، وسَمِعَ هذه الألْحانَ، ولَمْ يُسْلِمْ نفسَه إلى السَّماعِ طائِعًا؟

مِـــنَ النّـــاي، أَلْـــقِ في بَيْـــدَرِنا البَـــرْقَ

ومِـنْ هـذه الجـادّةِ، أَلْـقِ هَيَجانًـا في القُلُـوب

وبِتَـــــأثيرِ ياسَـــــمينِ أَنْفاسِـــــهِ

تكمّـــــشَتْ أعـــــضاؤه تمامًـــــا

ولـو لـم تكُـنِ النّغمـةُ دَمْعـةً حـائرةً مُتبخْتـرةً

أنّـى لهـا أن تنسَكِبَ مِـن عَـيْنِ النّـاي دائمًـا؟!

ولا أحَـــدَ غيـــرَ النّـــاي، في هـــذا الجَمْـــع

يـــستطيعُ أن يتحَـــدَّثَ عـــن الحُرِّيّـــة

لا شيءَ، ما خَلَا السَّماعَ، في مقدُوره أن يكشِفَ أَسْرارَ القَلْب؛ وأصداءُ روحِ

الإنسانِ لا يمكِنُ سَماعُها إلّا بِصَوت النّاي. مَنْ ذا الذي لا يسْمَعُ هذا الصّوتَ أثناءَ السَّماع؟. كانَتِ القُلُوبُ تحترِقُ بنارِ المحبّةِ والعِشْق، وكان الدّائرونَ يشْرَبونَ شَرابَ الأُنْسِ في جام القُدْس.

صارَ شَمْسٌ ومَوْلانا مسْحُورَيْنِ ومجذُوبَين برؤية أولئك الدّائرِينَ، وكانَتْ قُونية في حالٍ مِن السَّماعِ والسُّكْر والهيَجان. استمرّ الرَّقْصُ فوقَ بِساطِ الخُضْرة والتّرابِ مِن جانب أَهْلِ السَّماع ـ الدّوَرانُ المتواصِلُ حَوْلَ النّفْسِ أدخلَ الجميعَ في هيَجانٍ وسُكْرٍ عميقَين. بسَطَ هؤلاء أَذْرُعَهم، لِكَي يَسُوقوا الأَرْواحَ إلى عالَمِ ما فوقَ الطّبيعة. ومَنْ في وُسْعِه أن يُطفِئ الشُّعْلةَ التي أَشْعلَها العِشْقُ في يَدَيْ شَمْسٍ ومَوْلانا؟ نَسِيَ شَمْسٌ عَناءَ الطّريق، وتعلّقَتْ عَيناه بوَثَباتِ أَقْدامِ الأَحِبّة، باشتياقٍ كبير. وبَغتةً، ومِن دُون اختيارٍ، صَرَخ، وقالَ:

ـ يا مَوْلانا، سَلِّمْ بأنّ السَّماعَ راحةٌ لِأَرْواحِ الأَحْياء، إذ يعْلَمُ الإنسانُ أنّ له رُوحًا لِلرّوح. السَّماواتُ السَّبْعُ والأَرْضُ، والخَلْقُ جميعًا، يشْرَعونَ بالرّقْص عندَما يبدَأُ عاشِقٌ [٢٧٣] بالرّقص[1]. ورَقْصُ الرّجالِ والعُشّاقِ لَطيفٌ ورَشيق، كأنّه ورَقُ الشّجَرِ الذي ينسابُ علَى صفْحَةِ الماء. هم في داخِلِهم كالجِبالِ الرّاسيات، وفي ظاهِرِهم كالقَشّ تَذْروهُ الذّارِيات. أمّا مَوْلانا الذي سَكِرَ مِن كَلامِ مُرْشِده، فقد هزّ رأسَه وقالَ:

ـ كُلُّ مَن يتّجِهُ إلى حَفْلِ أُنْسِ العِشْق، تنفتحُ نافذةُ رُوحِه نحْوَ طَلْعةِ الحقيقة الجذّابة. ذُو النُّونِ المِصْريُّ والشِّبْليُّ والنُّورِيّ جَميعًا أَغمضُوا أعينَهم في أثناء السَّماعِ، فلَيْتَ جَلالَ الدّين يغدُو كذلكَ أيضًا. إلهي، تعْلَمُ كَمْ أنا مَسْرورٌ! إلهي، مَنْ مِثْلي يكونُ قدِ

١ ـ مقالات شَمْس تَبْريزيّ، ص ١٧٢ ـ ١٨٠.

اختارَ هذا العمَلَ وهذا الأُسْلوبَ؟ ـ أنا وَحْدي اختَرْتُ خِوانَ ضِيافتِكَ المبسوطَ.

لم يتعَبْ عازفُ النّاي مِن العَزْف، وصار العُشّاقُ بتأثير أنغامِ النّاي في حالٍ شبيهةٍ بالسُّكْر. وقد تحوّلَ هذا المكانُ، يعني قُونِيَةَ، إلى قاعدةٍ عظيمةٍ لِمَجالي الحقيقة وتظهُّراتِها. فعَلَى كُلّ لِسَانٍ ذِكْرٌ، وفي كُلّ قلْبٍ تَهيّجٌ، وفي كُلّ رُوحٍ عِشْقٌ، وفي كُلّ زاويةٍ تحرّقٌ وتضرُّعٌ، وعندَ كُلّ إنسانٍ أَلَمٌ وذَوَبان.

شَمْسانِ كانتا تَطْلُعانِ على قُونِيَةَ مِن مَطْلَعِ الغَيب: شَمْسُ جَمالِ الفَلَك، وشَمْسُ جَلالِ شَمْسٍ؛ تِلْكَ الأُولى تَسْطَعُ على أَجْزاءِ الأَرْض، وهذه الثّانيةُ عَلَى دَوْراتِ الرّاقصين؛ تِلْكَ الأُولى عَلَى بِساط الخُضْرةِ والأزاهيرِ، وهذه على قُلُوب عاشقيه المفتونينَ؛ لِكَي يغْدُوا أكثرَ اشتِعالًا ووَلَهًا وافتِتانًا.

بَدَأَ أيضًا تغيُّرُ مَوْلانا، إذ كان يَهُمُّ بأن يدخُلَ حَلْقةَ الهائمينَ الدّائرين، وينثُرُ الورودَ، ويُلْقيَ الشّرابَ في الكأس، ويشقّ سَقْفَ الفَلَك، ويهدِمَ بُنيان الرّياء، ثمّ في النّهاية يبدَأ سَماعَه العِرْفانيّ. وقد لاحظَ ابنُه سُلْطانُ وَلَد تغيّرَ والِدِه، ولم يشَأْ أن يعطيَ ذَريعةً لِلْمُتعصّبينَ البُلَهاء، الذين كانوا مِن بعيدٍ وقريبٍ ينظُرون بكَراهيةٍ إلى دَوَران العُشّاق، لِكَيْ لا يُظْهروا رَدَّ فِعْلٍ جاهل. ولهذا السّبب، طَلَب إلى المغنّينَ أن يُغَطّوا بأَصواتهم الجميلة على أنغام النّاي والرّباب. وقد بَدَأَ القَوّالُ العاشِقُ غِناءه بالأشعار الآتية التي تبعَثُ في القلوب اشتياقًا وتحرّقًا. وعندَئذٍ توقّفَ الجميعُ عن الرَّقْص، وأخذوا يسْمَعونَ بكُلّيّة وجودهم. وهكذا غنّى المنشِدُ:

ـ أيُّها المُطْرِبُ، اعزِفْ برِفْقٍ لِكَي يعودَ الرّوحُ إلى الجسَد

وعندَما تعزِفُ، اعزِفْ على اسْمِ شَمْسِ الدّين التَّبْريزيّ.

ـ إنّ اسْمَ شَمْسِ الدّين في أُذُنِكَ خَيرٌ مِن الجِسْم والرّوح

[٢٧٤] اسْمُ شَمْسِ الدّين كالشَّمَع، ورُوحي كصَحْنِ الشَّمَع .

ـ أيّها المُطْرِبُ، باللهِ علَيكَ، لا تذكُرْ عَلَى لِسانِكَ غيرَ شَمْسِ الدّين

واعْزِفْ عَلَى الجسَدِ والرّوح وَصْفَه، تَنْ تَنْ تَنْ تَننْ

ـلِكَي تغدُوَ صُورتُكَ هذه راقصةً نَحْوَ السّماء،

ولِكَي يغدُوَ رُوحُكَ الطّاهرُ هذا مُحْرِقًا لِلْأستار، ونشيطًا وثّابًا

ـ لا تقُلْ إلّا: شَمْسُ الدّين، شَمْسُ الدّين، شَمْسُ الدّين

لِكَي تَرَى الموتَى قد رَقَصُوا في الأكْفان.

ـ صَفّقَتْ شقائقُ النُّعْمانِ ، ورَقَصَ الياسمينُ،

وثمّةَ سَوْسَنةٌ صَغيرةٌ ثَمِلةٌ تقولُ: «وماذا يكونُ الياسَمينُ نفْسُه؟[1]

كُلُّ شَيءٍ في لَحَظاتِ الهيَجانِ والشّوق هذه كان صامتًا، وكَلِماتُ المصاريعِ المُغَنّاةِ كانَتْ رَسولًا لِفِكرٍ عاليةٍ ورفيعة، هي المِحْوَرُ لِلْحَرَكة الرّوحيّة عندَ مَوْلانا. أمّا مَوْلانا فكان يبدو كالبُرْكانِ المنطفئ؛ إذ إنّ كُلَّ ذَرّاتِ الكائناتِ كانَتْ تَدْعُوه إلى السّماع. نَظَراتُ سُلْطانِ وَلَد وَحْدَها نافذةٌ وآسِرة. فمَنْ لدَيه الجُرأةُ، وَسْطَ نظَراتِ المتّهِمينَ المتعصّبينَ، عَلَى أن يضَعَ قَدَمَ صِدْقٍ في فَضاء المُشاهَدة.

نَعَمْ، شَمْسٌ عاصِفٌ مُحتدّ. إنّها لَحَظاتُ شَوْقٍ وتأَجُّجٍ، لَعلَّ الأشخاصَ العاديّينَ يرَون فيها دَوَرانَ الأيدي والأقدامِ فقط، أمّا العارفونَ الصّادِقونَ فيرَونَ في هذا المشْهَد المُثيرِ حكاياتٍ.

نَعَمْ، شَمْسٌ متمرِّدٌ، شَمْسٌ طاغٍ، شَمْسٌ محطِّمٌ للتّقاليد. إنّه شَمْسٌ الذي انفصَلَ عن السَّبب، وتعلّقَ بالمُسبِّب، شَمْسٌ الذي خَلَا مِن «الذّاتِ» و«الذّاتيّة»، وصار في

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٩٧٩.

تصرُّفِ المحبوبِ والمعشوق، شَمْسٌ الذي عُدّ في تاريخ العِرْفان سُلْطانَ العاشقين. شَمْسٌ الذي له في دَولة العِشْق حالٌ ومَقامٌ ووَجْدٌ، شَمْسٌ الذي هو عاشِقٌ ومُتَوَلِّهٌ؛ والعاشِقُ والمُتَوَلِّهُ ذاهِلٌ غائبٌ عن نفسِه. إنّه شَمْسٌ الذي بقيَ مدّةً يسْمَعُ الشّتائمَ. ومِن دُونِ اهتمامٍ باتّهاماتِ الأشقياء، ومِن دُونِ خَوْفٍ ورَوْعٍ مِن سُخْرية هذا وذاك، كان مستعِدًّا لِعَرْضِ ألطَفِ الأَحاسيسِ والعَواطف. ويعتقِدُ الشّيخُ عبدُ الله الأنصاريّ أنّ اللّذّةَ والسُّرورَ في الطّلَب، فيجِبُ أن يظفرَ الإنسانُ بما يُحِسُّ به قَلْبُه، أن يدرِكَ الأبَدِيّةَ كما يُحِسُّ بها قَلْبُه. ولَيْسَ في وُسْعِ الإنسان، مِن دُونِ امتلاكِ مُرْتَكَزٍ رُوحيّ وسَماويّ، أن يعيشَ. شَمْسٌ الذي كان يُحمِّلُ وجودَه كُلَّه إيمانًا لا يتزعزعُ، أيُّ خَوْفٍ لَدَيه من قَالةِ السُّوءِ المُخالِفينَ؟ وفي [٢٧٥] تِلْكَ اللّحَظاتِ التي يكون قلْبُه مضطَرِمًا يبسُطُ جَناحَيه، ومِثْلَ الفَراشةِ يَطوفُ حَوْلَ شَمَعِ العِشْق والحقيقة. الدّنيا مَحَلٌّ للاستفادة مِن الحقائق. والسّؤالُ المُهِمُّ: كيفَ يجِبُ اكتسابُ الحقائق؟ وشَمْسٌ، مِن أَجْلِ قَلْبه المملوءِ بذِكْرى المحبوب، أراد أن ينشئ في قُونِيةَ مَسْرَحًا. وهذا المسْرَحُ الجذّابُ يبدَؤه محبوبُه. وههنا عَجَزَ سُلْطانُ وَلَد عن إطفاء النّار المشتعِلة في قَلْبِ شَمْسٍ، وعن تحطيمِ مَيْلِ شَمْسٍ إلى السَّماع. ومِن وِجْهةٍ أُخْرى، لم يكُنْ شَمْسٌ ناسِيًا أنّه إنّما جاء إلى قُونِيةَ استجابةً لدَعْوةِ مُرْشِده، وهذه هي حِكايتُه. وقد رَوَى عبْدُ الرّحْمن جامي أنّ بابا كَمال الجَنْدي ـ وهو مِن خُلَفاء نَجْم الدّين كُبْرى ـ كان يساعِدُ الشّيخَ فَخْرَ الدّين العِراقيّ ويتولّى تربيتَه. وقد بلَغَ مِن أَمْرِ هذه المُساعَدةِ أنّ كُلَّ فَتْحٍ وكَشْفٍ يظهَرُ لِلْعِراقيّ، كان يُلْبِسُه رِداءَ النَّظْمِ الشّعريّ ويعْرِضُه على شَيْخه بابا كَمال. وفي تِلْكَ الأيّام، كان شَمْسٌ أيضًا في خانِقاه بابا كَمال، ولم يكُنْ يقولُ شيئًا. وفي يومٍ قالَ بابا كَمال لِشَمْس: أَيْ بُنَيّ، أَلا يظهَرُ لكَ شيءٌ مِن تلكَ الأسرار والحقائق التي

يُظْهِرُها العِراقيُّ؟ فأجاب شَمْسٌ سريعًا: هناكَ مُشاهَداتٌ مِن قَبْلُ، ولكِنْ لِأَنَّ العِراقيّ تدرّبَ عَلَى بعض المصْطَلحاتِ وتعلّمَها يستطيعُ أن يُبرزَها في أَرْدِيةٍ جميلة؛ أمّا أنا فلا أمتلكُ تلكَ القُدرةَ. فقالَ بابا كَمال: سَيرزقُك الحقُّ تعالى، سَريعًا، مُصاحِبًا يُظهِرُ معارفَ الأوّلينَ والآخِرينَ بِاسْمِكَ، وتفيضُ يَنابيعُ الحِكْمةِ مِن قَلْبِه عَلَى لِسانه، ويَكْسُوها لِباسَ الأَحْرُفِ والأَصْوات؛ أمّا زِينةُ ذلكَ كُلّه فهو اسْمُكَ.

أمّا ذلكَ المُصاحِبُ فكانَ يقينًا جَلالَ الدّين. وعَلَى شَمْسٍ، بأساليبَ جَديدةٍ، أن يُسْلِمَ بَيدَرَ وجودِ مَوْلانا لِشُعَلِ نارِ العِشْق، حتّى لا يبقَى منه إلّا رَمادٌ؛ ثمّ مِن ذلكَ الرّمادِ المقدَّس يَظْهَرُ فِينيقٌ حَيٌّ يمتلِكُ أَلحانًا أَخّاذةً في منقاره، ويتحدّثُ عن الأَسْرار. سَماعُ شَمْسٍ مفتاحٌ[1]، خالِقٌ لِلْعِشق، يملأُ قلْبَ مَوْلانا بالشُّعَل، وصَدْرَه بالألَم[2]. عِشْقُه مَوْلانا مِثالٌ لِعِشْقِ أَهْلِ العِفّة والطُّهْر، الذي [٢٧٦] خَلَقَ في قَلْبِ عاشِقه هيَجانًا ووَلَهًا وهُيامًا بِلَطيفته الغَيبيّة والسِّرّ العجيب لِخَلْقه؛ أي إنّ العِشْقَ في مُختَلَى مَوْلانا، كشَفَ الحُجُبَ. كان شَمْسٌ يَرَى العِشْقَ ملازِمًا لِلْحَياة، وعلاجَ علاجِ الفِراق. ومُخالِفُو شَمْسٍ والمعارضونَ له في قُونِيةَ، ما عرفوه عَلَى حقيقته[3].

١ـ جاء في «مقالات شَمْس» قولُه:

«هذا التجَلِّي، وهذه الرُّؤيةُ لحضرة الحقّ، تزدادُ عندَ رجالِ الله في أثناء السَّماع. فقد خَرَجوا مِنْ عالَمِ وجودهمُ الحِسّيّ، يخرجُهم السَّماعُ مِن العَوالِمِ الأُخَرِ، ويصِلُهم بالحقّ» مقالات شَمْس، ص ١٧٠.

٢ـ اجعَلْ قلبي مملوءًا بالشُّعَل، وصَدْري مملوءًا بالألَم قَلْبًا الألَمُ فيه داخلًا وخارجًا

(وَحْش بافقي)

٣ـ يروي الأفلاكيُّ في كتابه «مناقب العارفين» عن مَوْلانا جَلال الدّين أنّ «شَمْسَ الدّين لَبِثَ في مدينة حَلَبَ أربعةَ عشَرَ شهرًا، داخِلَ حُجْرةٍ في مَدْرسةٍ، وانهمَكَ بالرّياضةِ والمجاهدة، حتّى إنّه لم يخْرُجْ مِن الحُجْرة ولو ليومٍ واحِدٍ. فجاءه نِداءٌ مِن جِدار الحُجْرة يقولُ: «إنّ لِنَفسِكَ عَلَيكَ حَقًّا»، فتركَ الاعتكافَ، ورَحَلَ إلى دمشق». مناقب العارفين، ص ٦٨٢.

ـ فقد كانَ السَّماعُ غِذاءَ العاشقين؛
لأنّ فيه خَيالًا لِلوَصْلِ والاجتماع
ـ فأَنغامُ دَوْراتِ الفَلَك هي التي
يتغنّى بها الخَلْقُ بالطّنبور والحَلْق
(المثْنَوي: ١/٧٤٣، ٧٥٣)

أنغامُ دَوْراتِ الفَلَك

كان سَماعُ[1] شَمْسٍ مُؤذِنًا بفَصْلٍ جَديدٍ في تاريخِ العِرْفان. كان شَمْسٌ يَرَى مَنِ استبدَّ بهم الهيَجانُ العِرْفانيّ غَرْقى في هالة السَّماع، أو يشاهِدُ الوجودَ الواقعيَّ في ذاتِ أرواحِ العُشّاق، الذين يَدُورونَ كالفَراشات، في قُونِيَةَ. السّماعُ العِرْفانيُّ يوقِظُ الأحاسيسَ الرّوحيّةَ والْجسَديّةَ عندَ النّاس. السَّماعُ العِرْفانيُّ يمهِّدُ الطُّرقَ الرّمزّيّةَ والمجهولةَ في الحياة، وربّما يَهْدي النّاسَ إلى الأَبَديّة، إلى مَولودِ أَدْيانِ زَمانِ الوَحْدة والعُزلة، إلى الانقطاعِ عن النَّفْس والاتّصالِ بالآخَر، إلى الإخلاصِ والانسجام، إلى الموتِ عن النَّفْس والحياةِ بالآخَر، إلى التّخلّي عن الفَرْدانيّة [٢٧٨] والظّهور. السّماعُ

---

١ ـ كتبَ نيكلسون في «تفسير المثنويّ» يقولُ: «ارتباطُ التّأثيرِ الرّوحيّ لِلْموسيقا بالرّوح أَمْرٌ أزَليّ. وفي أثناء الاستماع، تَسْمَعُ الأرواحُ مِنْ جديدٍ عينَ الخِطابِ الإلهيّ؛ ذلكَ لِأنّ كُلَّ أرواحِ البَشَر في الأَبَديّة أجابَتْ ذلكَ الخِطابَ، وبالطّريقةِ نفسها تناغَمَتْ معَ أناشيدِ جَيْشِ السّماء». مقدِّمة روى، ترجمة أوانيسيان، ص ٣٨. وفي هذا المعنى أنشدَ فخرُ الدّين العِراقيّ:

العالَمُ في جُملته صَدًى لنغمتِه ... فمَنْ ذا الذي سمِعَ مِثْلَ هذا الصّوت المديد؟

ثمّ إنّ جَلالَ الدّين البَلْخيّ، في ديوان شَمْس، نادى ورفَعَ الصّوتَ بالقَول:

يا مُطْرِبَ الرّوحِ إذا صار الدُّفُّ في يَدِكَ ... فاعزِفْ هذه النّغمةَ؛ فإنّ الحبيبَ جاء ثَمِلًا
عندَما أظهرَ ذلكَ الصَّنَمُ الفتّانُ [المعشوقُ] وجهَهُ ... صار القمَرُ في الفَلَك عابِدًا للأصنام
وذرّاتُ العالَمِ، عِشْقًا لِتلْكَ الشَّمْس، ... جاءت راقصةً مِنَ العَدَمِ إلى الوجود
اعزِفْ هذه النّغمةَ؛ فإنّ المُشْتَري ... جاء مِن الفَلَك، مِن أَجْل المنكسِرينَ، إلى القاع
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٦٨٧)

ضَرْبٌ مِنَ العِشْق الرّوحيّ، وسيلةٌ لمُحاربةِ وَساوِس اللّذّات الجسَديّة، فِرارٌ مِن حياةٍ مملوءةٍ بالمِحَن والآلام، إِضْرامٌ لِنارِ العِشْقِ في القَلْب. السَّماعُ مَدّاحٌ لِلْعِشْق، ويقولُ عَينُ القُضاة الهَمَذانيّ: أَتريدُ أن تفهَمَ الحياةَ؟ ـ اعْرِفْ واطَّلِعْ. اعرِفِ الحياةَ مِن العِشْق، واحصُلْ على الممات مِن عَدَمِ العِشْق. ويقولُ رُوزْبهان البَقْلي الشّيرازيّ: أَساسُ آدَمَ نَفْخَةُ عِشْق، ويَنبوعُ ماءِ الحَياة العِشْقُ، والسَّماعُ هو الصُّورةُ، أو التظهّرُ المتعالي، لِلْعِشْق، وبوَساطته يَطيرُ العارِفُ فوقَ عالَم الوجود.

السَّماعُ وَسِيلةٌ لِعُروجِ الإنسانِ إلى أَصْلِه، توثُّبٌ في فَضاءِ النّاسوت، نِسْيانٌ للذّاتِ أو نَفْيٌ لها، هَديّتُه الوجودُ. وهو تَصْفِيةٌ وتهذيبٌ للرّوح والجِسْم، وحياةُ دَوامٍ:

قالَ ذلكَ العاشِقُ: قُلْ: ما ذلكَ الأَصْلُ؟
فقالَ: أَصْلُهُ الموتُ والفَناءُ
وقَدْ فعَلْتَ هذا كلَّهُ ولَمْ تمتْ، بَلْ أنتَ حَيٌّ
نَعَمْ فَلْتَمُتْ، إذا كُنتَ صاحِبَ رُوحٍ، بِحَيٍّ
فإذا مِتَّ ظَفِرْتَ بِحَياةٍ كامِلة
وبقيَ اسْمُكَ الجميلُ حَتّى قِيامِ السّاعة

السَّماعُ مِرْآةٌ يرى فيها العارِفُ الحياةَ والعَدَمَ جيِّدًا، في البَحْث عن الزّمان المفقود. وإذا كان شَيخُ الإِشْراقِ، شِهابُ الدّين يحيى السُّهْرَوَرْدِيّ، يَرَى وَجْهَ الحياة في جَناحَي جِبْريلَ، الأيمنِ والأيسَرِ، فإنّ شَمْسًا كان يشاهِدُ التّجلِّيَ الصّوفيّ في السَّماع، ومِن شِدّة الاهتياجِ والتّحرُّقِ كان العِنانُ يسقُطُ مِن يَدِه، وربّما كان يشاهِدُ أَسْرارًا لا يمكنُ إذاعتُها، ويحدُثُ أحيانًا أن يصِلَ اهتياجُه إلى أنَ يَرَى مُناظِرَه يَدُور.

وكان هذا أحَدَ الأسبابِ الأساسيّة لسَيْرِ تفكيره إلى الدّوَران والرَّقْص.

شَقّ شَمْسٌ صُفوفَ المُحِبّينَ والدّائرينَ الرّشيقينَ، وبسُرعةٍ مضَى إلى مكانٍ لَيْسَ فيه أحَدٌ؛ لِكَي يَرَى الخَلْقُ جميعًا شَمْسًا عِيانًا، ويعْلَمُوا أنّ شَمْسًا المتيَّمَ هو الذي يرقُصُ. وهو رَقْصٌ سبّبَ فاجِعةً. وعندَ بَدْءِ الرَّقْصِ، أو كما يقولُ مَوْلانا:

صَـفّقَتْ شَـقائقُ النُّعْمـان، ورَقَـصَ الياسَـمينُ

وثَمّةَ سَوْسَنةٌ صغيرةٌ ثَمِلَتْ فهي تقولُ: «فماذا يكونُ الياسَمينُ نفسُه؟»(١)

[٢٧٩] عندَ بَدْءِ الرَّقْصِ، حَطّ سَحابٌ أَسْودُ مظلِمٌ بغتةً أَمامَ الشَّمْس. دَخَلَ شَمْسٌ المتشرِّدُ العاشِقُ المفتضَحُ في حالٍ مِن السُّكْر والوَجْد، ولم يكُنْ يبالي بما يقولُه قالَةُ السُّوء المُفتَرونَ أَعْمِياءُ الباطن، وكيفَ يوضِحونَ ويفسِّرونَ هذا التطهّرَ الرّوحيّ.

شَمْسٌ المتمَرِّدُ العَنيدُ، مِن دُونِ اهتمامٍ باتّهام هذا وذاكَ، كان مستعِدًّا لِعَرْضِ أَرَقِّ الإحساساتِ والعَواطف، وكان متحرِّرًا مِن كُلّ قَيْدٍ ورَسْمٍ؛ كان يعطي لِصَفاء الباطن أهمّيّةً كبيرة. وكان يؤمِنُ بأنّه إذا تطهّرَ القَلْبُ مِن أَدْرانِ الهوى والهَوَس، تخلّصَ الإنسانُ مِن التّعصُّب والرِّياء وحُبّ النّفْس والعِناد. وكان يَعُدُّ هذه الأمورَ مَوانِعَ تَحولُ بينَ الإنسانِ وبينَ الوصولِ إلى الحقيقة. وبسببِ هذه الحالِ مِن الذَّوقِ والوَجْد، مزّقَ رِداءَ التّزويرِ والعُجْب والنِّفاق، ووَسْطَ أَعْينِ النّاس المندهشة انشَغَلَ بالسَّماع والدّوَران. أمّا المُغنُّونَ فقدِ استطاعوا بالأَشْعارِ المهيّجة المطْرِبة أن يثيروا في قَلْبِ شَمْسٍ هَيَجانَ القيامة.

وعندَ شَمْسٍ، كانَتْ لَحَظاتُ لِقاء مَوْلانا مُغتَنَمةً ومُصَفِّيةً. وكان يجِبُ، حالًا، أن

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٩٧٩.

يَرَى وَجْهَ الدّنيا الشّفّافَ في مِرآة جَماله، ويَعْرِضَ هو نفسُه أيضًا واحِدًا مِن تجلّيات حقيقة الوجود. السَّماعُ وحْدَه الذي يقدِرُ على أن يكونَ مُسَلِّيًا لِلْقُلوب، ويغدُوَ مُرشِدًا لمَوْلانا إلى الخلود. كان شَمْسٌ في أثناء الدّوَرانِ يُشيرِ إلى السّماءِ، الطّريقِ الواضحِ الذي هو المَدْخَلُ العظيمُ لِلْوجودِ الحقّ. وقد سجّلَ سُلْطانُ وَلَد في ذِكْريات ذلكَ اليومِ لِسَماعِ شَمْسٍ في قُونِيَةَ: نظَرْتُ فلَمْ أجِدْ مَشْهَدًا أجملَ، ولَحْظةً أكثرَ إفْراحًا، مِن مَشْهَدِ دَوَرانِ شَمْسٍ ولَحَظاتِ دَوَرانه.

أَحَدُ الفُضوليّينَ، في دَقائق الهيَجانِ والتوَثّب والوَجْد، سألَ مَوْلانا بحِدّةٍ:

ـ دَوَرانُ شَمْسٍ ما سَببُه؟ ـ ولِأَجْلِ مَنْ؟

ـ هَيَجانُ العِشْق، والشّوقُ إلى الوجود. لعلّكَ لا تعْلَمُ أنّ الإنسانَ إنّما يَحْيا ببركة العِشْق. هو في هذه اللّحْظة يدرِكُ ويحِسُّ جيّدًا بجَوهَرِ وجوده.

ـ ولِماذا لا يبيِّنُ الأَسْرارَ الخفيّةَ بطَريقةٍ عَقْلانيّة؟

ـ اصمُتْ، فإنّ بَحْرَ محبّةِ شَمْسٍ أخَذَ بالجيَشان. كُلُّ ما يقومُ به إنّما ينجِزُه بطَريقةٍ عَقْلانيّة ومنطِقيّة.

شَمْسٌ يدورُ، ودَوَرانُه رَمْزٌ وإشارةٌ للعارفينَ، الذين ينظُرونَ إليه في حالٍ من الهيَجانِ والتّأثُّر، ويرتَوونَ مِن ذلك اليَنبوعِ الفَيّاض.

[٢٨٠] كان شَمْسٌ يقفِزُ مِن موضِعٍ إلى موضِعٍ آخَر، وهذا رَمْزٌ للاشتياقِ إلى الاتّصال بالعالَم العُلْوِيّ.

كان شَمْسٌ يضْرِبُ الأرضَ بقَدَمَيه، وتلكَ إشارةٌ إلى أنّه في هذه الحال يتحكَّمُ بزِمام نفسِه، ويَدُوسُ بقَدَمِ الهِمّة على كُلّ الأَغْيار، أو ما سِوى الله سُبْحانَه.

وكان شَمْسٌ يَضْرِبُ إِحْدَى كفَّي يدَيه بالأُخرى، حتّى كأنّ دَوِيَّ تصفيقِ يدَيه كان يكسِرُ صَمْتَ السّماءِ الموحِشَ، ويُدخِلُ مُغنِّيَ الكائنات في وَجْدٍ وتأثّرٍ. كانَتْ أنغامُ الدُّفِّ والنّاي الثّمِلةُ قد حوّلَتْ شَمْسًا، الذي يدور، إلى شَمْسٍ عاصِفٍ. أي إنّ كُلَّ شيء ما خَلَا العِشْقَ لا قِيمةَ له.

عندَما كان شَمْسٌ في تَبْريزَ كان يتضرّعُ إلى الحقّ سُبْحانَه: اجْمَعْني بِأحبّائكَ. ويعترفُ شَمْسٌ في كتابه «**مقالات شَمْس**» قائلًا: في إِحْدى اللّيالي رَأيتُ في المَنامِ أنّه قِيلَ لي: سنَجْمَعُكَ بأحَدِ أحبّائنا. فسألْتُ: ذلكَ الخِلْصُ أينَ هو؟ ـ فقِيلَ: في الرُّومِ الشّرقيّة[١]. جاء شَمْسٌ ثانيةً إلى الرُّومِ لِيتجلّى، ويكسِرَ التّقاليدَ، ويقولَ: مَتَى وُجِدَ عِشْقٌ وُجِدَ إنسانٌ، ومَتَى وُجِدَ إنسانٌ وُجِد نشاطٌ وسُرورٌ وابتهاج. كان شَمْسٌ يريدُ أن يخبِرَ أهلَ قُونِيةَ بأنّه أتى بمَشْروعٍ جديدٍ، هَدِيّةً لهم،، وهو أنّه في المستقبلِ يكونُ العَزْفُ والغِناءُ والسَّماعُ والدّوَرانُ في كُلّ يومٍ أهمَّ برنامجٍ في حَياة المولَويّين. العِرْفانُ العِشْقيُّ دَرْسٌ يجِبُ أن يُحصَلَ علَيه في مدرسة الحال، وإنّه في هذه المدرسة سيتعلَّمُ النّاسُ أنّ العاشِقَ مضطَرِبٌ وثائرٌ، العاشِقَ هو الخالِقُ عَيْنُه.

يدورُ شَمْسٌ هائِجًا وصائِحًا، وبدَوَرانه يقدِّمُ رسالةً لِلْمُشاهِدينَ ولِلْآتينَ، يطلُبُ فيها مِنهم أن يخرُجوا مِن مَقْبرة الجسَد، أو ـ بِقَولِ عَينِ القُضاة الهمَذانيّ ـ يخْلَعُوا نَعْلَي الدّنيا والآخِرة؛ لِكَي يُشاهِدوا جيّدًا بنَظْرةٍ واحِدةٍ الأقاليمَ السَّبعة، ويَرَوا وَسْطَ ذرّةٍ واحِدةٍ شَمْسَ البقاء، ويُبصِروا في قَطْرةٍ واحِدةٍ البَحْرَ كلَّه. أسْلَمَ شَمْسٌ رُوحَه وكيانَه، غيرَ مهتمٍّ، لِيَدِ السَّماع. السَّماعُ مِن أَجْلِ لِقاءِ مَوْلانا، السَّماعُ لاحترامِ العَظَمة العِرْفانيّة

---

١ ـ مقالات شَمْس.

لمَوْلانا، ورُبّما في أَعماقِ الدّوَران استطاعَ أن يفهَمَ مَوْلانا فَهْمًا صحيحًا.

في تَصوُّرِ شَمْسٍ، السَّماعُ أساسٌ لتصفية الإنسان وتزكيته. وعَلَى أهل قُونِيةَ جميعًا أن يعْلَمُوا هذا، وأن يتسابقوا في ترتيب هذا النّوع مِن المحافِلِ وإجرائه، في المستَقْبَل، وأن يَعُدّوا ذلكَ عِبادةً؛ لأنّه مفيدٌ ومؤثِّرٌ، وواجِبٌ من أَجْلِ الحياة.

ـ ثُوروا، ثُوروا؛ فإنّنا أهلُ شِعار
وغيرُ العِشْق، غيرُ العِشْق، لا عَمَلَ لنا
ـ وفي هذا التُّراب، في هذا التُّراب، في هذه المزرعة الطّاهرة
غيرَ العِشْق، غيرَ العِشْق، لا نزرعُ شيئًا

الهيَجانُ الصّوفيّ

كان رَقْصُ شَمْسٍ مُظْهِرًا لِلهَيَجانِ الصّوفيّ والقُدرةِ السِّحريّة لِلْوَصْل. كان تلاشيًا مِن أَجْلِ تعريفِ العِشْقِ القاهِرِ لِلْجَسَد لدى النّاس المتجرِّدين؛ فإنّكَ إذا كُنتَ ـ حقيقةً ـ عاشِقًا مُخْلِصًا كان علَيكَ أن تُبعِدَ كُلَّ التّعيّناتِ عن وجودِكَ؛ لِكَي يغدُوَ وجودُكَ مُتنزَّلًا للتّجليّاتِ السّماويّة والإلهاميّة.

يُنقَلُ عن السُّهْرَوَرْدِيّ، في شأن الرّقصِ العِرْفانيّ، أنّه أظهَرَ في شأن السَّماعِ الصّوفيّ مِثْلَ هذه العقيدة:

ـ قُلْتُ للشّيخ: مِن أَجْلِ أيّ شيءٍ يأتي الرَّقْصُ؟

ـ فأجابَ الشّيخُ: يريدُ الرّوحُ أن يرتفعَ، مِثْلَ الطّائر الذي يريدُ أن يَرْميَ بنَفْسه مِن القَفَص. قفَصُ الجسَدِ يكونُ مانعًا. طائرُ روحِكَ يَقْوى، فينفصِلُ عن قَفَص الجسَد. فإذا كان لِلطّائر قوّةٌ عظيمةٌ كسَرَ القفَصَ وانصَرَف. وإذا لم تكُن له هذه القُوّةُ واضطربَ وحَرّكَ القفصَ معَه، ظهرَ في هذه الأثناء مَعْنَى الغَلَبة مِن جديد. طائرُ الرّوحِ يريدُ أن يرتفعَ، وإذا لم يستطِعِ القفزَ مِن القفَصِ فسيحْمِلُ القفَصَ معَه أيضًا. ومعَ أنّه يَهُمّ أن يرتفعَ مئةَ مرّة، يعجِزُ الطّائرُ عن تخليصِ نفسِه مِن القَفَص والارتفاعِ وحيدًا. إذ يرفَعُ الطائرُ القفَصَ، ويقَعُ القفَصُ مِنْ جديدٍ على الأرض[1].

---

١ ـ مِن كتاب «حقيقة العِشْق» لِشهاب الدّين السُّهْرَوَرْديّ، شَيخ الإشراق.

كان شَمْسٌ أكثرَ إيمانًا بفائدةِ الرَّقْصِ مِن السُّهْرَوَرْديّ؛ كان مِثْلَ مَوْلانا يعتقدُ أنّ:

[٢٨٢] نَحْنُ مِنَ الأَعْلى، وإلى الأَعْلى نَذْهَبُ

نَحْنُ مِنَ البَحْرِ، وإلى البَحْرِ نَذْهبُ

نَحْنُ لَسْنا مِنْ هناكَ، ولَسْنا مِن هنا

نَحْنُ مِنَ اللّامكان، وإلى اللّامكانِ نَذْهبُ(١)

يَرَى شَمْسٌ أنّ الإنسانَ مَظْهَرٌ ومَجْلًى للعالَم الأكبر، ويريدُ لِلإنسان أن يعْرِفَ نفسَه، ولهذا السَّبب يقول:

تَرَى الجميعَ في نفسِكَ: مُوسَى وعيسى وإبراهيمَ ونُوحًا وآدَمَ وحَوّاءَ والخَضِر وإلياس، علَيهِمُ السّلام، أنتَ عالَمٌ لا حُدودَ له، فما شأنُ الأَرَضِينَ والسّماوات؟(٢)

كان، بعَمَله وسُلوكِه وقولِه، يريدُ أن يرسُمَ في الأذهان هُوِيّةً استثنائيّةً لِلْبشَر، ويقولَ للإنسان إنّه لَنْ يستطيعَ أن يسْمُوَ على ذاته وعَلَى «أَناه» ويَرَى مَجْلاه، وفي النتيجة يستَلْهِمُ مِن داخِله، إلّا عندَما يستَبْدِلُ بالعَقْلِ الجُزْئيّ والفِكْرِ العِشْقَ؛ لأنّ العِشْقَ أساسُ الغِنى الدّاخليّ، وأداةُ اتّصالِ الإنسانِ بالحقيقة الأزَليّة.

تعلّقْتُ بكأسِ الشّراب، أَرقْتُ دَمَ الفِكْر

امتزَجْتُ بِحَبيبي؛ لأنّني في حِجاب

صَلَبْتُ الفِكْرَ؛ لأنّ الفِكْرَ يصْحُو وينتَبِه

أَتضايقُ مِنَ الفِكْر، أنا مَحْزُونٌ من الفِكَر

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَلية ١٦٨٠.

٢ ـ مقالات شَمْس تَبْريز.

فِي جِسْمي رُوحٌ آخَر، وفِي رُوحي مَلِكٌ عظيمٌ

ومعَ آني آنٌ آخَر؛ لأنّني بذلكَ أدرَكْتُ وفهِمْتُ[1]

كان شَمْسٌ يَرْقُصُ، وكان السَّماعُ يتواصَلُ، وكان النّاسُ ينظُرونَ إلى هذا المشْهَد البديع بعَجَلةٍ. وعندَئذٍ، تقدّمَ عَلاءُ الدّين، الابنُ الأصْغَرُ لمَوْلانا، بإشارةٍ مِنْ عَدَدٍ من رجالِ المحفِل الأخلاقيّ في قُونِية، إلى أبيه وقالَ بلَهْجةٍ آمِرةٍ:

- مَوْلانا، لو سمَحْتُم، هذه المَشاهِدُ تغدُو مبتذَلَةً تمامًا، وإنّ رُوحَك وشخصيّتكَ في خَطَر.

- أيُّ شَخْصٍ أرادَ قَتْلي؟

- أَهْلُ المدينةِ جَميعًا أخذَتْهمُ الحَماسةُ والغضَبُ، متسائلينَ: ما هذه الحالُ؟ - مَنْ هذا الشّخصُ؟ - وأيُّ جُنونٍ يجري؟ - رَقْصٌ مِن أَجْلِ ماذا؟

[٢٨٣] - لَعلّ الذي يقتُلُني غيرُ هذا؟ دَعِ المصيرَ المحتومَ يظهر هنا. نَعَمْ، في هذا اليوم...

عندَئذٍ أَمَرَ شَمْسٌ التّبْريزيُّ بأن يُوقَفَ السَّماعُ، وجاء مُسْرِعًا إلى مَوْلانا، فدَقَّ بكفِّه على صَدْرِ عَلاء الدّين، وقال لَه: لا يجوزُ أن تُحدِّثَ مَوْلانا على هذا النّحو. وبعْدَئذٍ أشار إلى مَوْلانا أَنْ:

- باشِرِ السّماعَ، فإنّ الذي طلَبتَه بالسَّماع سيزداد[2]..

- سُلْطانُ وَلَد، ابنُ مَوْلانا الآخَر، اقتربَ وقالَ لِشَمْس:

١ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٣٧٢.

٢ـ أنشدَ العِراقيّ:

نحوَ سَماعِ الطّهارةِ أفتحُ نافذةً لِكَي تدخُلَ شَمْسُ الغَيب مِن نافذتي

ـ تعْلَمُ أنّني صادقٌ في قَولي، إنّ كِرّا الكبيرةَ، جَدّتي، رَغّبَتْ مَوْلانا مَرّاتٍ كثيرةً بالسَّماع، فإنّه في ابتداءِ الطُّفولة، كان والدي يَرْقُص...

قطَعَ شَمْسٌ بامتعاضٍ كلامَ ابنِ جلال الدّين الكبير، وقالَ:

ـ حانَ الآنَ أن يُجْرِيَ والدُك الدّوَرانَ العِرْفانيّ بَعيدًا عن إِظْهار أيِّ حَظٍّ مِن حُظوظ النّفس. والدَّوَرانُ الصّوفيُّ له آدابٌ ورُسومٌ لابدَّ مِن الإحاطة بها، خاصّةً بينَ النّاس وفي السّاحات.

فقالَ سُلْطانُ وَلَد بهُدوء:

ـ يقينًا سيُجْري هذا العمَلَ، سيَجْعَلُ هذا الطّريقَ مَشْرَبًا وأسلوبًا، بِشَرْطِ أن تَسْمَحُوا لنا اليومَ بالذّهابِ إلى الخانِقاه، وتأذنُوا للنّاسِ المتعَبين المنهَكينَ بالذّهابِ إلى بيوتهم. وتعْلَمونَ بأنّني في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى الاستراحة.

عندَ ذلكَ، صاحَ عَلاءُ الدّين: إذا أَجْرى مَوْلانا الدّوَرانَ فإنّ واقعةً هائلةً ستحصُلُ في قُونِيَةَ. رَقْصُ مَوْلانا سيكونُ سببًا لِتمرُّدِ النّاس وعِصْيانهم.

ـ ألقى مَوْلانا نَظْرةً على وَجْهِ شَمْسٍ الملتهِبِ العاصِف، وخاطَبَ سُلْطانَ وَلَد وأبناءَه قائلًا:

ـ إنّ لِلْعارفينَ حالةً وضَرورةً شَبيهةً بالمَخْمَصةِ والاستِسْقاء(*)، ورَفْعُ ذلكَ والتخلّصُ منه لا يحصُلُ إلّا بالسَّماعِ والتَّواجُد والأَصْوات. اليومَ لَيْسَ لَدَيَّ حالُ السَّماعِ، لكنّه بَدْءًا من غَدٍ سَأرَتِّبُ مجلسَ السَّماع، وسأَعْزِفُ الأنغامَ في مَدْحِ المحبوب، وسأُوصِلُ الهيَجانَ الشّعْريَّ الذي يجيشُ به صَدْري، والهيَجانَ الذي

* ـ يريدُ أنّ السَّماعَ تُبيحُه ضرورةٌ في نفوس العارفين، شبيهةٌ بالضّرورات التي تُبيح المحظورات، كالجوعِ والظّمأ المفرطَيْنِ [المترجم].

حدَثَ لي مِن لِقائي الجديد لِشَمْسٍ [٢٨٤]، بمُساعَدةِ الأنغامِ المطْرِبة للنّاي والدُّفّ والرَّباب، إلى آذانِ النّاس. وقد حانَ وقتُ أن

نَـــدْخُلَ في الـــرَّقْصِ كالـــذّرّات ونَـــأتيَ مُـــسَخَّرينَ لِشَمْـــسِكَ

وفي كُـلِّ سَـحَرٍ، مِـنْ مَـشْرِقِ العِشْق نَطْلُـعُ نَحْـنُ كما تطْلُـعُ الـشّمْسُ (١)

ومعَ كلّ المخالَفاتِ التي ستَظْهَر، ومعَ كلّ العَداواتِ التي سيوجِّهُها إلَيَّ الأعداءُ المتعصّبونَ، سَأعيشُ معَ شَمْسٍ الجوّابِ للآفاق، معَ شَمْسٍ الذي هو مُرشِدُ سالكي طريقِ الحقّ. وسيبقَى صَوتي وصوتُه يتردَّدانِ على الدّوام في قَلْب أمواج الكائنات. وعَلَى عَلاء الدّين [ابن مَوْلانا الأصغر] أن يعْلَمَ أنّ أباه لا يخافُ الحوادِثَ المرعِبة.

اقتربَ عَلاءُ الدّين مِن والِدِه وقالَ:

ـ يقولونَ: إنّ زاهِدًا مُلازِمًا لِلْخَلْوة، مِثْلَ والِدِكَ، مُبتَلًى بعِشْقٍ فاضِح. بِماذا أُجيبُ أنا النّاسَ؟ ـ أينَما ذهَبْتُ يُتْعِبْني ويُؤلِمْني ويُؤذِني طَعْنُ النّاسِ وهُزؤهم وسُخريتُهم، كلَدْغِ الثُّعبان.

فأجابَ مَوْلانا:

ـ علَيكَ أن تعْلَمَ أنّ أباكَ، منذُ زَمَنٍ بعيدٍ، تخلّى عن الحياة والمنزِلة، وتركَ البَحْثَ والقِيلَ والقال. وقد نَسِيتُ طلَبَ الجاه، ولَسْتُ أخشى التّشهيرَ والعار. أَجِبِ الشّاتمينَ والقاذِفينَ بأنّ مَوْلانا صار عاشِقًا، وهذا العِشْقُ جعَلَ مَوْلانا ثَمِلًا ومصفِّقًا ودَوّارًا. لِيَذْهَبوا وليقرؤوا «رسالة في العِشْق» لِسَيف الدّين الباخَرْزيّ، الذي قالَ في هذا الشأن:

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٥٥٥.

العِشْقُ عندَ السّالِكِ سَهْمٌ طَيّارٌ جَميلُ التّثنّي، معَ سيفٍ طَيّار مُغمَدٍ، وسوءُ سُمْعةٍ لروحِ الفَتَى.

ـ النّاسُ يقولونَ إنّ أباكَ مجذوبٌ. أَلَيْسَ هذا عَيبًا وعارًا، أَبتاهُ؟

ـ قُلْ لهم: تقولونَ الصّوابَ، العَيبُ والعارُ في عالَمِ العِشْقِ ممتنِعُ الوجود، ولَيْسَ على المجذوبينَ تَكْليفٌ، كما هي حَالُ المَجانين:

إنّ فِكْرَنا سَهْمٌ، مِنَ الله، انطلَقَ في الهواء

فكَيْفَ يبقَى في الهواء؟ ـ إنّه يَعودُ إلى الله

والدُّنْيا تتجدّدُ في كُلّ لَحظةٍ، ونَحْنُ

لا عِلْمَ لنا عن تجدّدها في ثَباتِها [الظّاهر]

والعُمرُ يتجدَّدُ دائمًا، كما يتجدّدُ ماء النّهرُ

بينَما يبدُو مستمِرًّا في الجَسَد متواصِلًا[1]

ـ [٢٨٥] بعضُ أَهْلِ قُونِيَةَ يحسَبونَ أنّك جُنِنْتَ، وتَجِبُ مُداواتُكَ.

ـ نَعَمْ، أنا مجنونُ العِشْق. فإذا كانوا لهذا السَّببِ يعيِّرونَكَ أو يشْمَتونَ بكَ، فلا تنزَعجْ؛ لِأنّ العارَ لَنْ يلتصِقَ بأبيكَ وأُسْرَتِكَ.

ـ تعالَ، لِتَعْشَقْ أبناءَكَ وأُسْرتَك، لا شَمْسًا التّبْريزيَّ المتشرِّدَ التّائه.

ومِن سَماعِ هذا الكلامِ، استبدَّ حُزْنٌ مُميتٌ بِكُلّيّةِ وجودِ مَوْلانا، فطَفِرتِ الدّموعُ مِن عَينَيه، وتمتمَ:

---

١ ـ المثنَوي: ١/١١٥١ ـ ٥٣.

جـاءَ سُكْرُ رَأْسـي، جـاءَ نُـورُ نَظَـري
وإِنْ شِـئْتَ شَـيئًا آخَـرَ، فـإِنّ شَـيْئِيَ الآخَـرَ جـاءَ
جـاءَ قـاطِعُ طَريقـي، جـاءَ كاسِـرُ تَـوْبَتي
وذلكَ الذي هو يُوسُفُ الفِضّيُّ الصَّدْرِ، جاءَ إلى صَدْري
فانظُرْ إلى بُسْتانِه ورَبيعِه، وانظُرْ إلى خَمْرِه
وانظُرْ إلى ذلكَ الهَضْمِ وسُهولَتِه؛ لأنّ هاضومِيَ(*) قد جاءَ
ولِماذا أَخْشَى الموتَ، وقد صارَ هو ماءَ الحياة
ولِماذا أَخْشَى الطّعْنَ، وقد صارَ هو تُرْسي
واليومَ أنا سُلَيمانُ، وقد أعطيتَني الخاتَمَ
وصار تاجُ الملوكِ فوقَ مَفْرِق رأسي
وقد آنَ أن أشرَبَ المُدامَ، لِكَي يتألّقَ عَقْلي
وقد حانَ أن أطيرَ، فقد جاء جَناحي وريشي[1]

أَلْقَى مَوْلانا نَظْرةً متفحِّصةً على ابنه وقالَ: لَعلّ العَقْلَ يقتضي أن لا يُقامَ مِثْلُ هذا العَرْضِ في قُونِيةَ أيضًا، ولَعلّ مِن العَقْلِ أن لا يتوجّهَ شَمْسٌ إلى السَّماع. وأنتَ، أَتنشُدُ سَلامةَ رُوحِ والِدِكَ وجِسْمِه أم ضجّةَ الخصومِ وجلَبَتَهم؟ أمّا أنا فقد أَسَلَمْتُ قَلْبي لِمَحبّة شَمْسٍ، ووُجودُه مَجْلًى لِكُلّ أَشْواقي وآمالي. فدَعِ الحُسّادَ والمعاندينَ يقولوا ما في قُلُوبهم. ولَيْسَ عندي أَدْنى شكٍّ في منزِلة شَمْسٍ وفي إرشاداته العِرْفانيّة

* ـ أثبتْنا تعبيرَ «هاضُوم» مُقابِلًا عربيًّا للّفظ الفارسيّ «گل شَكَر»، ومعناهُ في الأصل: مُرَبّى الوَرْد، المؤلَّفُ من السُّكّر ووَرَقِ الورد الأحمر. ولأنّه كان يُعتقدُ أنّه يساعدُ على هَضْم الطّعام، جعَلْنا مقابلَه العربيّ «هاضوم». فإنّه في صِحاح الجوهريّ: الهاضومُ الذي يقال لهُ الجُوارِشْن؛ لأنّه يهضمُ الطّعامَ، أيْ يكسِرُه [المترجم].

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٦٣٤.

والحقيقيّة. وابتغاءَ التخلُّصِ مِن الألَم، تمسَّكْتُ بأَذْيالِ شَمْسٍ، وليكُنْ ما يكونُ:

مِنْ جَديدٍ أمضي إلى الأَسْرار، أَمْضي إلى جانـبِ ذلـكَ الحبيـب

أَسْمَعُ تغريدَ البُلْبُل، أمضي إلـى الـوَرْدِ وريـاضِ الـوَرْد

[٢٨٦] فإلى مَتَى هذا الحَياءُ والخجَلُ، أحْرِقِ الخجَلَ، وتعـالَ

أَصْحَبُ القلْبَ، وأمضي إلى ناحيةِ المعشوقِ مَسْرورًا

لـم يبـقَ عنـدي صَـبْرٌ؛ لِكَـي أسـتَمِعَ إلـى مـا يجـيشُ بـه صَـدْري

ولَـمْ يبـقَ عنـدي عَقْـلٌ؛ لِكَـي أهتـديَ إلـى الطّريـقِ

ومـا دامَـتْ عَـينُ سُـوءٍ لـم تَـصِلْ إلَـيَّ مِـنْ محتـرِفي الحَـسَد

فسَأَضَعُ يَدِي في يَدِ الحبيب، وأمضي إلـى كَنَـفِ الغـار

إنّ دَرْسَ الرُّؤسـاءِ الجميلـينَ يكـونُ مِـن دون عَقْـلٍ وصـامِتًا

وعنـدَما يكـونُ دَرْسـي خامًـا أَلْجـأ إلـى التّكـرار(١)

ويروِي سُلْطانُ وَلَد، الابنُ الأكبرُ لمَوْلانا جَلالِ الدّين محمّد، قائلًا: في السّفَر الثّاني لِشَمْس،بَدَا كأنّ مَوْلانا كان يُحِسُّ بأنّه في المستَقْبَل القريبِ جِدًّا سيُبتلَى بألَم الفِراق الدّائم لسُلْطانِ المعشوقينَ [يريدُ شَمْسًا التّبريزيّ]؛ ولهذا السّبب ازداد اهتمامُه بالسَّماع، وكثيرًا ما كان يُمضي ساعاتِ حياته بالرَّقْص والدّوَران:

نَهـــارًا ولَـــيلًا، رقَـــصَ في الـــسَّماع

ودارَ عَلَـــى الأرضِ كـــدَورانِ الفَلَـــك

١ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٣٩٧.

لـــم يكُـــنْ لَحْظَـــةً مِـــن دُونِ سَـــماعِ ورَقْـــصٍ
لـــم يَـــسْترحْ لَحظَـــةً في نَهـــارٍ ولَيـــلٍ
فحَـــــدثَتْ ضَـــــجّةٌ في المدينـــــة
وما المدينةُ؟ ـ قُلْ: عَلَى امتدادِ الزّمانِ والدَّهْر
[مُفادُها] أنّ مِثْلَ هذا القُطْبِ والمفتي في الإسلام
الـــذي هـــو في الكَـــوْنَينِ شَـــيْخٌ وإمـــام
يَهْتـــاجُ ويَثُـــورُ كالعاشِـــقِ المتَـــيَّم
حِينًـا يكـونُ خَفِيًّـا، وحِينًـا يكـونُ جَلِيًّـا[1]

---

١ ـ مِن مثنوي سُلْطان وَلَد.

ـ نحنُ حَيّانِ، بِنُورِ الكبرياء
غريبٌ كلٌّ منّا عن الآخَر ومتعارِفانِ تمامًا
ـ وما شَمْسُ تَبْريزَ إلّا ذريعةٌ
نحنُ موجودانِ بحُسْنِ اللّطف
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٥٧٧)

العارفُ إلى الدَّوَران، والصّوفيُّ..

مثْلَما كانَ مُتوَقَّعًا، صار السَّماعُ والسُّكْرُ والوَجْدُ والرّقْصُ عندَ شَمْسٍ، في مدينة قُونِيةَ عاصمةِ سَلاجقة الرّوم الشّرقيّة، باعثًا على البَحْثِ والدَّرْس في المحافل الدّينيّة والعِلْميّة، وعلى إثارةِ فئات النّاس. فلا مُبالاةُ شَمْسٍ بالأصول التي كانَتْ مَحَلَّ إعزازٍ واحترامٍ عندَ جماعةٍ، وهَتْكُه حُرْمةَ المحَرَّمات، أثارا أَحْكامَ المُخالفينَ. وأوجَدَ تَغيّرُ القِيَمِ انقلابًا في أفكار المتفرِّجينَ والمُشارِكينَ في السّماع في قُونِيةَ، دفَعَ جماعةً مِن المعترِضينَ والحاسِدِينَ الجُهّال إلى أن يَحْمِلوا في أيديهم سَوْطَ الانتقادِ، ويضْرِبوا عَلَى الأرضِ في المحافِلِ والمجالِس احتِجاجًا على تجاوُزات شَمْسٍ لِلْأَعراف، ويُطْلِقوا العِنانَ لِأَلسنتهم، ويقولوا: إنّ شَمْسًا في هذه المرّة جاء ليغيِّرَ العقائدَ والقِيَمَ والمقدَّسات. وأَقْسَمَ المُخالفونَ إنّهم كانوا يَعُدّونَ شَمْسًا إبليسَ الزّمان. وكانوا يقولونَ إنّ هذا المَظْهَرَ للشّرّ المطْلَق قَبِلَ السَّماعَ بِكُلّ سيِّئاتِه وصُوَرِ فَساده. وكانوا يتصوّرونَ أنّ كمالَ مَطْلوبِ المتشرِّدِ التَّبريزيّ هو إشاعةُ النِّفاقِ والفَسادِ بينَ النّاس. وكانوا على قَناعةٍ مِن أنّه في المستَقْبَلِ سَيؤولُ الفَسادُ في مجتمَع قُونِيةَ إلى حَرْبٍ واقتتالٍ بينَ الإخوة، ونفاقٍ. وسيكونُ شَمْسٌ هو المبعَثَ الأساسيّ لِلْفَساد.

إضافةً إلى ذلكَ، كان يُعرَضُ هذا السّؤالُ المنتظِرُ القَلِقُ، في تَضاعيفِ تَحْليلاتِ أَهْلِ قُونِيةَ وأَقاويلهم:

مَنْ شَمْسٌ هذا؟ ـ لِماذا لا يُوضِحُ رِسالتَه بنَفْسه؟ ـ مِن أينَ جاء؟. [٢٨٨] لِماذا سيعْرِضُ تناقضاتِه الفكريّةَ، التي ظاهِرُها جميلٌ وفَتّانٌ وباطِنُها كالشّيطان، في مدينةِ قُونِيةَ؟ كان هؤلاءِ يقولونَ إنّ شخصيّةَ شَمْسٍ مبهَمةٌ ورامِزةٌ. شَمْسٌ سَخِرَ مِن عَقائدِ النّاس. في نَفْسِ شَمْسٍ مطالِبُ لا يقولُها لِكُلِّ أَحَدٍ. شَمْسٌ حادُّ الطَّبْعِ ومُشاكِسٌ، ولا يَأذَنُ لِأَحَدٍ بأن يناقشَه. وحتّى فُضَلاءُ الزّمانِ الماضي وعارِفوه، مِثْلُ أبي يَزيدَ والحلّاجِ وشِهابِ الدّين السُّهْرَوَرْدِيّ ومُحْيي الدّين بن عَرَبّي والفَخْرِ الرّازيّ، لا يقبَلُهم شَمْسٌ، ويعتقدُ أنّهم أيضًا قَدِ ارتكبوا أخطاءً. ويعترِفُ شَمْسٌ بالاغترارِ والتّفاخُر، فهو وَحْدَه يستطيعُ أن يَدُلَّ النّاسَ جميعًا على العالَم المتعلِّق بالإنسان، كما هو علَيه حَقيقةً، ويصِفَ أجزاءَ هذا العالَم ودقائقَه. ولكنّه هو، بمَعُونةِ مَدَدِ العِشْقِ السِّحْريّ، قادرٌ على أن يعرِّفَ هذا العالَمَ، ويبيّنَ كيفيّتَه ومعرفتَه لِلْمُهتَمّينَ بذلكَ، ومِن خِلال ذلكَ يتّصِلُ بالعُشّاق الحقيقيّينَ في العالَم.

وقد أَعْلَنَ مُخالِفُو شَمْسٍ وأعداؤه أنّ شَمْسًا، بمُساعَدةِ مَوْلانا، يريدُ أن يخْلَعَ عَلَى السَّماعِ والرَّقْص شيئًا مِن التَّجِلّةِ والاحترامِ والتّقدير، ويدعُوَ النّاسَ إلى أن يُمْضُوا ساعاتٍ مِن اللّيلِ والنّهار في جَلَساتِ السَّماع المُسْكِرة المُطْرِبة. كان شَمْسٌ يريدُ، بِمُساعَدة أَنفاسِه الحارّةِ التي تستعينُ بالسِّحْر، أن يجعَلَ مَوْلانا أيضًا عاشِقًا للرَّقْص مُتيَّمًا به، ويعلِّمَه أنّ عَلَيه أن يفْهَمَ في حَلْقة الدّراويش الدّوّارين سِرَّ الجُنونِ والهُيام والوَلَه، فهمًا صَحيحًا. وفي المحافِلِ المختلفة، أُعلِنَ أنّ شَمْسًا بَيّنَ صَراحةً أنّ:

السَّماعَ فَريضةٌ عَلَى أَهْل الحال. وهو لِأَهْلِ القَلْبِ واجِبٌ، وأَنينُ النّاي وأَلْحانُ الدُّفّ والرَّبابِ وَحْيٌ ناطِقٌ طاهِرٌ، وراحةٌ لِأَرواحِ الأَحْياء.

لا يُقيمُ شَمْسٌ وَزْنًا لِلْعَقْلِ والمنطِقِ والاستدلال، ولا يَعُدّ هذه الملَكاتِ ضَروريّةً لإدراكِ الحقائق. شَمْسٌ شاعِرُ مَديحِ العِرْفان، وكان يَعُدُّه أهمَّ مُبَيِّنٍ لخصائصِ الحياة المعْنَويّة للنّاس، وأخطرَ مُعرِّفٍ لارتباط الإنسان بالحقيقة. وينبغي أن تَحُلَّ قُونِيَةُ في هذه المرّة لُغزَ شَمْسٍ. يبارِزُ شَمْسٌ، بكَلِماتِه وسُلوكه، عاداتِ النّاس، وحاجاتِ زَمانهم، وأصغرَ جزئيّاتِ أمورِ حياتهم. وهو لا يقبَلُ أيَّ إنسانٍ، ولا يريدُ أن يفْهَمَ عظَمَةَ السّابقينَ، ويعتقِدُ أنّه عَلَى الجميعِ أن يفهَمُوه. ومِن خاصِّيّاتِه الأخلاقيّة، أنّه يتجاوَزُ حَدَّه دائمًا بِتَحْليقٍ كبير، [٢٨٩] وينفي الآخَرين. وقد صارَ مِن أهمّ وظائفِ المحافِلِ الرّوحانيّة في قُونِيَةَ، أن تطْرُدَ هذا الطّاغيةَ المتمرِّدَ المتشرِّدَ، أو تُسْكِتَه وتقمعَه كان شَمْسٌ في أثناء الدّوَران مسرورًا بصياح المخالفين ونمائمهم:

أَتينــا بالعــارفِ إلــى الــدَّوَران، والـصّوفيِّ إلـى السَّماع

وأَلْقَينا الشّاهِدَ في الرَّقْصِ، والحـائرَ في الـشّراب

جلَسَ شَمْسٌ معَ مَوْلانا جَلالِ الدّين في زاويةٍ مُخْتَلًى كان مَعْبَدًا لِلْعِشْق، وأغلَقَ البابَ أَمامَ الأَغْيار، حَيْثُ لا أحَدَ يسْمَعُ صَوْتَ شَمْسٍ، ولم يكُنِ المُخالفونَ يعْلَمونَ ماذا يحدُثُ هناك. ومِنَ المناسِبِ هنا أَنْ أنقُلَ مِن كلام الأفلاكيّ وسِپَهسالار [مؤلِّفَيّ سيرتَين لمَوْلانا] رِواياتٍ معتَمَدةً لِما حدَثَ في عَوْدة شَمْسٍ إلى قُونِيَةَ. وإنّه مِن التّوفيق أنّ شَمْسَ الدّين أحمد الأفلاكيّ، مؤلِّفَ كتابِ «**مناقِب العارفين**»، يُعَدُّ مِن مُعاصِري مَوْلانا وابنه سُلْطان وَلَد؛ وأنّ فَريدونَ بنَ أحمد سِپَهسالار، الذي أَلّفَ رِسالةً في أَحْوالِ مَوْلانا، مِن العارِفين الذين أدركوا محضَرَ مَوْلانا، بإخلاص.

وقد كتَبَ سِپَهسالارُ يقولُ: إنّه بعْدَ رُجوعِ شَمْسٍ إلى قُونِيَةَ، امتزجَ حَضْرةُ مَوْلانا بشَمْسِ الدّين أكثرَ مِن قَبْلُ، وأظْهَرَ له مِن الإخلاصِ ما يتجاوَزُ الحدودَ، وكانا مُستغرَقَين في الحديث لَيلًا ونَهارًا.

وكَتَبَ الأفلاكيُّ في «مناقب العارفين»:

إثْرَ عَودةِ شَمْسٍ... كان مَوْلانا شَمْسُ الدّين يُثْني على جُهودِ حَضْرةِ سُلْطان وَلَد وألطافِه في خِدْمة مَوْلانا جَلال الدّين، ويبتشُّ لذلكَ ويقولُ:

ـ قُلْتُ لِسُلْطان وَلَد كذا، فقالَ كذا، وأجابني.

الآنَ، المُرادُ مِن مَوْهِبة الحقّ تعالى حالَتانِ: الأُولَى «سَرْ [فارسيّة بمَعْنَى رَأس]»، والثانيةُ «سِرّ». قَدَّمْتُ الرّأسَ [سَرْ ـ بالفارسيّة] فِداءً في طَريق مَوْلانا، بإخلاصٍ تامّ؛ وأعطَيْتُ «سِرِّي» لِسُلْطان وَلَد؛ لِيكونَ حضْرةُ مَوْلانا شاهِدَ حالٍ. لو كان لِسُلْطان وَلَد عُمرُ نُوحٍ، وقَضَى ذلكَ كُلَّه في العِبادة والرّياضة، لَمَا تيسَّرَ له هذا الذي وَصَلَ إليه مِنّي في هذه الرّحلة(*). آمُلُ أيضًا أن يظفَرَ مِن حَضْرتكم بنَصيبٍ، ويصِلَ إلى كَمالِ الشّيخيّة، ويغدُوَ شَيْخًا كاملًا.

[٢٩٠] كذلكَ يَرْوي سِپَهسالار:

بعْدَ مدّةٍ طويلة، طلَبَ شَمْسُ الدّين التَّبْريزيّ يَدَ فَتاةٍ اسْمُها كيميا، كانَتْ قد رُبِّيت في حِجْر حَرَمِ حَضْرة مَوْلانا؛ لِتكونَ زَوْجًا له. فلَبّى مَوْلانا مُلْتَمَسه بِسَعادةٍ تامّة. ولِأنّ الزّمانَ كان شِتاءً، رتّبَ مَوْلانا خَيْمةً في منزِلٍ شَتْويّ في إيوانٍ.. إذ زُفَّ شَمْسُ الدّين هناكَ. تِلْكَ الخَيمةُ الشَّتْويّةُ جعَلَت...عَلاءَ الدّين، الذي كان الابنَ المتوسِّطَ لِمَولانا، وكان في الحُسْنِ واللّطافة... وَسِيمَ العالَم، كلّما جاء لِتَقْبيلِ يَدِ والِدِه ووالدته ومَرَّ بِصَحْن الإيوان... يُثيرُ غَيرةَ شَمْسِ الدّين. حتّى إنّه قالَ له مرّاتٍ كثيرة بِطَريق... النّصيحة:

---

* ـ مِن كَلامِ شَمْسٍ في محضَرِ مَوْلانا جلال الدّين وابنه سُلْطان وَلَد، والرِّحْلةُ هنا رِحْلةُ شَمْسٍ وسُلْطان وَلَد في طَريقِ العَودة بِشَمْس مِن دِمَشْقَ إلى قُونِية [المترجم].

ـ أَيْ نُورَ العَيْن، مهما كُنتَ متحلّيًا بآدابِ الظّاهر والباطِن فعَلَيكَ بعْدَ الآنَ أن تقلّلَ مِن هذا التّردُّد.

هذه الكلمةُ أزعجَتْه... وعندَما خرَجَ وحَكَى ذلكَ لجماعةٍ، اغتنمَتِ الجماعةُ الفُرْصةَ وقالَتْ له:

ـ أَمْرٌ عَجيبٌ. جاءَ الآفاقيُّ «شَمْسٌ المتشرِّدُ»، ودَخَلَ بيتَ مَوْلانا، ثمّ لا يسْمَحُ لِحَبيبِ صاحِبِ البيت بالمرور في بيته!؟

استطاعَ المخالِفونَ لِشَمْسٍ ومَوْلانا أن يَصْحَبوا عَلاءَ الدّين، وأن يثرثِروا ضِدَّ شَمْسٍ في المحافِلِ والمجالِس، ويقدِّموا مَوْلانا للنّاس عَلَى أنّه مجنونٌ، وشَمْسًا عَلَى أنّه ساحِرٌ، ليُعِدّوا مُقدِّماتِ ثَورةِ عوامٍّ قُونِيةَ عَلَيه.

مُرافَقةُ عَلاءِ الدّين محمّد، الابنِ الأصغَرِ لمَوْلانا، وتناغُمُه مَعَ المخالفينَ لِشَمْسٍ، كانا توفيقًا كبيرًا لِأَعداء أُسْرةِ مَوْلانا. ومِن ناحيةٍ أخرى، جاء في رِواية الأَفْلاكيّ في «**مناقب العارفين**»، أنّ مَوْلانا بعْدَ الاتّصالِ بشَمْسٍ كان قد قطَعَ رِباطَ المحبّةِ والأُلْفةِ والصُّحْبة معَ الأحِبّة والأقرباءِ بغتةً، حَتّى إنّه أحيانًا لم يكُنْ يَرَى أولادَه وأحِبّاءَه لِأيّامٍ أيضًا، وهكذا قال في غزَليّة:

عِنــــدَما رأيــــتُ أنّ رُوحِـــيَ رُوحُـــك

صِــرْتُ غَريبًـا عــن الأقــارِبِ، مِــنْ أَجْلِـكَ

ومِــنْ عِــشْقِكَ هجَــرْتُ بَيــتَ سُــكْنايَ

صِرْتُ قَرينًا لِألَمِ عِشْقِكَ، أسْكُنُ معَه في بَيتٍ واحِدٍ

فتعــالَ، يــا مَــنْ يَنْــشُدُ أَسْــرارَ العــالَم

[٢٩١] انظُــرْ إلــيَّ، فقَــدْ صِــرْتُ أنــا أَسْــرارًا

تعـالَ، أيُّهـا المعـشُوقُ، فقَـدْ صِـرْتُ

حَتّـى يَـوْمِ القِيامـةِ مُقيمًـا في حَانـةِ الخَمّـار

انقطَعْـتُ فَتْـرةً عَـنِ الأَغْيـار

والآنَ صِـرْتُ أَغْيـارًا مـعَ نَفْـسي

وكُنْـتُ مَحْبُوسًـا كالنُّقطَـة

لِأنّنـي دُرْتُ حَـوْلَ النّقطَـةِ مِثْـلَ الفِرْجـار

تعـالَ، فقَـدْ صِـرْتُ مِـنْ عِـشْقِكَ مَجْنونًـا

وإن كُنْـتُ مَدينـةً، فقَـدْ صِـرْتُ خَرِبًـا مهـدَّمًا

قـرَأْتُ حِكايـاتِ العاشـقينَ لَـيْلًا ونَهـارًا

والآنَ، في عِـشْقِكَ، صِـرْتُ حِكايـةً[١]

صار شَمْسُ التَّبْريزيُّ مَلَكَ إلهامِ جَلال الدّين البَلْخيّ. ويعترفُ جَلالُ الدّين في كتاب المثْنَويّ بأنّه يتصوّرُ أحيانًا أنّه هو ومعشوقَه، شَمْسًا التَّبْريزيّ، لَيْسا شخْصَين، بَلْ هما شَخصٌ واحِدٌ:

قـالَ: قَـدْ فَنيـتُ فِيـكَ حتّـى إنّـي

مُلِئـتُ مِنْـكَ مِـنَ الـرّأسِ إلـى القَـدَم

ولَـيْسَ عنـدي مِـنْ وجـودي سِـوى اسْـمٍ

لَيسَ في وجودي إلّا أنـتَ، أيُّها المُرادُ الجَميلُ

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزليّتان ١٤٩٩، ١٥٠٠.

ولهـــذا الـــسَّببِ فَنِيـــتُ أنـــا هكـــذا

فِيـكَ، كمـا يَفْنـى الخَـلُّ، يـا بَحْـرَ العَـسَل (١)

كان مَوْلانا يقصُّ حكاياتِ حياته الحُلْوةَ والمرّةَ بكُلّ إخلاصٍ لحبيبه، وكأنّ هذه الحكاياتِ كانَتْ في طُولِ صَحيفة الأزَل والأبَد، ولَمْ تكتمل. وهذا مَعْلَمُ حاجةٍ رُوحيّة عميقةٍ، لَدَى مَوْلانا، إلى مُواسٍ مُشارِكٍ في اللّغةِ، خبيرٍ بالآلامِ، متجرِّدٍ منفصِلٍ عن نفسِه، مُبيِّنٍ لِلَحَظاتِ لِقاءِ مُوجِدٍ لِلْعِشْق، يُزيلُ التّلوّثاتِ والتعلّقاتِ مِن وجود العاشق. وفي هذا الشّأن أنشَدَ مَوْلانا:

انقَـــضَى اللّيـــلُ، ولـــم تكتَمِـــلْ حِكايتُنـــا

ولابُـــدَّ مِـــن رِوايـــةِ الحِكايـــةِ كلّهـــا

والله، إنّـــه مِـــنْ زَمـــانِ آدَمَ إلـــى يـــومِ القِيامـــة

[٢٩٢] لـم تَقْـصُرْ هـذه الحِكايـةُ، ولـم تَطُـلْ (٢)

والمُسلَّمُ أنّ شَمْسًا كان يعْلَمُ أنّه بمجيئه إلى الرّوم الشّرقيّة ستزدادُ حِدّةُ عَداوةِ المخالِفينَ المتعصِّبين، لَه، وسيتّهمُه العَوامُّ بالسِّحْر، لكنّه كان علَيه أن ينجِزَ مُهِمّتَه بالتّضحية وبِتَحمُّلِ كلّ المنغِّصات، ويحوِّلَ مُلّا الرّومِ إلى عارِفٍ مُخْلِصٍ ومُضَحٍّ، ويُضْرِمَ النارَ في غابة فِكَر جَلال الدّين لِسَنواتٍ، على نَحْوٍ يكونُ فيه بَعْدَه ـ كما يقولُ الأستاذُ الدّكتُر شفيعي كَدْكني ـ باحثًا عن مِضْرابٍ [ريشة العازف] جديدٍ؛ لِكَي يهدِّئ رُوحَه القَلِقَ لِمُدّةٍ. ويمكِنُ عَرْضُ هذا السّؤال: ماذا كان هذا العِشْقُ الذي انشغَلَ به مُدرِّسُ قُونيَةَ الكبيرُ؟. أجابَ الأستاذُ الدّكتُر شفيعي كَدْكَني عن هذا السّؤال عَلَى هذا النّحْو:

---

١ ـ المثنَوي: ٥/٢٠٢٣ ـ ٢٥.

٢ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٢٠١.

«إنّ عِشْقَ مَوْلانا شَمْسًا التَّبْريزيَّ هو، عَلَى الحقيقة، عِشْقُه الإنسانَ الكامِلَ. وعندَ الصّوفيّة، أنّ الإنسانَ الكامِلَ كان له على امتدادِ التّاريخ تجلّياتٌ مختلفة. الإنسانُ الكامِلُ لَهُ في كُلّ عَصْرٍ تَجَلٍّ وظُهورٌ[1]».

---

١ ـ من مقدّمة أ.د. شفيعي كَدْكَني لكتابه «گزيدهٔ دِيوان شَمْس»، ص ١٧.

ـ قالَ أحَدُهُم: إنّ هذا السَّماعَ
يقلِّلُ الجاهَ والشُّهْرةَ والحَياء.
ـ لا أُريدُ الجاهَ؛ لأنّ العِشْقَ
هو جاهي في الدّارَيْن.
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٢٠٦٣)

مَرْحَبًا، أَيْ شَمْسُ المضِيءُ لِقَلْبي

كان شَمْسٌ في نَظَر جَلال الدّين البَلْخيّ عالِمًا مُحَسِّنًا وعارِفًا بارِزًا وممتازًا، جَذَبَ إليه، كما يقولُ المخالِفونَ والحاسِدونَ، مَوْلانا وسَحَرَه، كالجوهَرِ اللّألاء، وكان في السَّيْرِ والسُّلوك جديرًا بكُلّ ثَناءٍ... ويَفيضُ كلامُه بالنّشاط والهَيَجان والإثارة.

كان مَوْلانا يقضي لَحَظاتِه وأوقاتَه الجميلةَ في قُونِيةَ إلى جانبِ شَمْسٍ، الذي بِعَودته غرِقَ في الأَشْواقِ وكان يُحِسُّ في نفسِه بهيَجانٍ عَجيبٍ. كان كُلُّ صَباحٍ وكُلُّ مَساءٍ عندَه مَوْلِدًا لِأَسْرارٍ جديدة، يجِبُ أن يَكْشِفَ السِّتارَ عن وَجْهِها شَمْسٌ الجَوّابُ للآفاق. لَمْ يكُنْ ثَمّةَ طَريقٌ للفِكَر البعيدة في مُخْتَلَى مَوْلانا، وكُلُّ الأغلالِ التي قَيّدَتْ بها التقاليدُ القديمةُ يدَي مَوْلانا وقَدَمَيه كانَتْ تُفَكُّ واحِدًا إثْرَ الآخَر بِمَدَد شَمْسٍ، بيُسْرٍ وسهولةٍ. جعَلَ شَمْسٌ شُعاعَ حَياةِ مَوْلانا أكثَرَ إشراقًا، وظهَرَتْ عندَ مَوْلانا الإبداعيّةُ الفنّيّةُ والهيَجانُ العِرْفانيّ. وإنّ سُرورَ مَوْلانا، وتوثُّبَه، وامتلاءَه بالتّفتّحِ والإشراقِ، مبْعَثُها مجيءُ دَولةِ العِشْق. وفي تصوّرِ المؤلِّفِ(*) أنّ شَمْسًا التّبْريزيّ نفسَهٌ كان يَرَى نفسَه غالبًا غارِقًا في أمواجِ نُور شَمْسِ مَوْلانا، الذي صارَ أساسًا لِجَذْبه. ونَرَى هذا السُّكْرَ واضحًا في كثيرٍ مِن منظوماته الغنائيّة:

---

* ـ يعني الأستاذ عطاء الله تديّن [المترجم].

كُنتُ مَيْتًا، صِرْتُ حَيًّا، كُنتُ باكيًا، صِرْتُ ضاحِكًا

جاءت دَولةُ العِشْقِ، وصِرْتُ أنا دَوْلةً راسِخةً[1]

[٢٩٤] وقد وصَفَ شَمْسٌ عَظَمةَ هذه اللّحَظاتِ المقدَّسة في كتابه «**مقالات شَمْس**» على هذا النّحو:

كُتِبَ عَلَى شاهِدَةِ قَبْرٍ:

«عُمرُ هذا كان ساعةً واحِدةً» وإنّ لي مِن العُمر هذه السّاعةَ التي جَلَسْنا فيها معَ حَضْرة مَوْلانا في زاوية خَلْوةٍ. في هذه السّاعةِ، هو في العالَمِ القُطْبُ[2]. كمْ أنا مسرورٌ بصُحْبتِكَ التي أعطَتْني هذه المحبّة.

اللهُ يعطيكَ قَلْبي هذا. ما ذلكَ العالَمُ، وما هذا العالَمُ عندي؟ ـ وما قَعْرُ الأَرْضِ، وما أعلى السّماءِ عندي؟ كُلُّ مكانٍ يصلُحُ إلى جانبك.

تعهّدَ شَمْسٌ بأنّه ما دام حَيًّا، فسَيَحْيا بعِشْقِ مَوْلانا، ويموتُ بعِشْقه.

ونريدُ نَحْنُ، بِمُساعَدةِ الكتابات التي بقيَتْ لنا مِن القُرونِ والأعصار الخالية، أن نبسُطَ الجناحَين، ونطيرَ نحْوَ مُخْتَلَى شَمْسٍ ومَوْلانا، ونرى: ماذا حَدَثَ هناك؟ ـ وما النّكاتُ التي كانا يتحادَثانِ فيها؟ ـ ولِماذا صار مَوْلانا المتفضِّلُ، والمتكلِّمُ، مَسْحورًا بكَلامِ شَمْسٍ الآفاقيّ؟ ـ ولماذا تتجلّى أَمامَه في أكثَرِ أناشيده الغِنائيّة سِيماءُ شَمْسٍ؟

وقد تصرّمَتِ القُرونُ، وبقيت حِكاياتٌ لِلْقُرون الآتية. حِكاياتُ مَوْلانا وشَمْسٍ يجِبُ التماسُها في كَلامِهما، وفي أَشْعارِ مَوْلانا، وفي كتاب «**فيه ما فيه**» لمَوْلانا، وفي «**مقالات شَمْس**»، ولَيْسَ في كُتُب التّذاكِر والسِّيَر.

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ١٣٩٤.

٢ ـ مقالات شَمْس تَبْريزي ص ٦٣٨.

يقولُ مَوْلانا: إنّني في أيّامِ الخَلْوة الجميلةِ أَمامَ شَمْسٍ، كنتُ أُحِسُّ بأنّ رُوحَ هذا الآفاقيّ[1] ذو ماهِيّةٍ ناريّة؛ كُنتُ أُحِسُّ بِجاذبيّةٍ وسِحْرٍ في نَظَراته. ولَسْتُ أدري لِماذا في تِلْكَ اللّحَظاتِ كان يخطُرُ في فِكْري أنّ الفِراقَ سيفصِلُ أحَدَنا عن الآخَر سريعًا؟ لَسْتُ أدري لِماذا كُنتُ أنظرُ لِدَقائقَ نَظَراتٍ متحسِّرةً إلى المشْهَدِ البديع الذي كنّا نراه؟.

يَرْوي مؤلِّفُ كتاب «**مناقب العارِفينَ**» عن حَرَمِ مَوْلانا، كِرّا خاتون، ما يأتي: في أَحَدِ الأيّام، في صَميمِ الشّتاء، كان مَوْلانا جالِسًا معَ حَضْرةِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ في المُخْتَلَى، وكان مَوْلانا متَّكِئًا على رُكبة شَمْس الدّين، وكنتُ أنا قد وَضَعْتُ أُذُنًا واعِيةً على شِقٍّ في المُخْتَلَى [٢٩٥] باتّجاههما؛ لِكَي أَسْمَعَ: ما الأسرارُ التي يُذيعانِها، وما الذي يجري بينَهما. أشارَ حَضْرةُ مَوْلانا لِجَناب شَمْسِ الدّين:

ـ نقيمُ الصّلاةَ، فتأمَّمْ بنا.

قالَ شَمْسٌ:

ـ في وُجودِكَ، لا إمامةَ لِأَحَدٍ.

وفي النّهاية، قامَ مَوْلانا مِن مكانه، وتأمَّمَ.

إنّ نَقْلَ قِصّةٍ جَميلةٍ لِعاشِقٍ ومَعْشُوقٍ مِثْلِ شَمْسٍ ومَوْلانا، ووَصْفَ فِراقِ ذَيْنِكَ الاثنَين ووِصالهما، لَيْسَ عَمَلًا ميسَّرًا. يجِبُ أن تُقرأَ قِصّةُ المتألِّمينَ خِلْسةً، والعاشِقُ يجِبُ أن يؤثِّر فيه أَلَمُ العِشْق والتحرُّقِ عندَ المتألِّمينَ. ومَن ذا الذي في مَقْدُوره أن يصِفَ صَفاءَ سَماءِ مجالِسِ شَمْسٍ ومَوْلانا، جيِّدًا؟ أو يَصِفَ، بِمُساعَدةِ كلامِ مُناظِرٍ سِحْريٍّ، محافِلَ خَلْوتهما؟

انظُروا، كيفَ يَرَى شَمْسٌ، الذي هو مُوجِدُ حَياةٍ جديدةٍ لِمَوْلانا، في مِرْآة رُوحِه

---

١ ـ كان ذلكَ لَقَبًا يُعطيه مخالفُو شَمْسٍ في قُونِيةَ له، بمَعْنى: المتشرّد، جوّاب الآفاق [المؤلّف].

فِكَرَه الباطنيّة. فاسْمَعُوا دَوِيَّ صَوْتِ شَمْسٍ الأخّاذِ إذ قالَ:

ـ إنّ قَولًا واحِدًا لِمَوْلانا يَعْدِلُ عندي ألْفَ دينارٍ؛ لِأنّ البابَ الذي كان مُغْلَقًا يُفْتَحُ بسببه. واللهِ، إنّي في مَعْرِفة مَوْلانا مقصّرٌ. لا نِفاقَ ولا تكلُّفَ ولا تأويلَ في قولي:

ـ إنّي في مَعْرِفة مَوْلانا مقصِّرٌ.

في كُلّ يومٍ أعلَمُ شَيئًا جَديدًا عن حاله وأفعاله، لم يكُنْ معلومًا عندي قبْلُ(١).

بعْدَ ذلكَ خاطبَ شَمْسٌ مُتيّمي مَوْلانا، قائلًا:

ـ اعرِفُوا مَوْلانا جيّدًا؛ لِكَي لا تُدْهَشوا بعْدَ ذلكَ.

عَينُ الصّورةِ والكلامِ الجميل الذي يقولُه، ما دُمتُم لم ترضَوا به، لِأَنّ خَلْفَ هذا الكلامِ شيئًا، اطلُبُوه مِن مَوْلانا.

شَمْسٌ التّبْريزيُّ، قَوْسُ قُزَح سَماءِ العِرْفان، له الحَقُّ في أَنْ يقولَ مِثْلَ هذا أَمامَ مُطْرِبِ عالَمِ الحقيقة وناظِمِ مديحه؛ لأنّ جَلالَ الدّين مَوْلانا أنشدَ في كتاب «**المثْنَويّ**» الجميل:

[٢٩٦] تِلْـكَ الكلمـةُ التـي أخفَيتُهـا عـن آدَمَ

أَقولُهـا لَـكَ، يـا مَـنْ أَنْـتَ جُملـةُ أَسْـرارِ العـالَم

تِلْـكَ الكلمـةُ التـي لـم ينطِـقْ بهـا المـسيحُ

ولَـمْ يـذكُرْها الحـقُّ، غَيـرةً عَلَيهـا، إلّا لَنـا(٢)

ويعترفُ شَمْسٌ بأنّ الأوقاتَ التي قَضاها بِقُرْبِ مَوْلانا كانَتْ فيها ذرّاتُ وجودِه كلُّها في حالِ اهتياجٍ وتأثّرٍ مِن فَرْط السّرور والابتهاج. وكان مَوْلانا يَعُدُّ زمانَ لقائه

---

١ ـ مقالات شمس.

٢ ـ المثنوي: ١/ ١٧٤١ ـ ٤٢.

شَمْسًا زمانَ اهتياجِه ووَلَهِه واضطرابِه. وفي تِلْكَ الأيّام، كان شَمْسٌ يجلسُ عندَ باب المُخْتَلَى ويجعَلُ مَوْلانا في داخِلِ الحُجْرة، وكلّما شاءَ أحَدٌ أن يلْقَى مَوْلانا كان يقولُ لَه: ماذا أحضَرْتَ، وماذا تُعطي مقابِلًا لِكَي أُظْهِرَه لكَ؟

كان شَمْسٌ يريدُ أن يكونَ مَوْلانا له وَحْدَه؛ لأنّه كان يعْلَمُ القَصْدَ مِن لِقاء جماعةٍ مِن أهل قُونِيَةَ مَوْلانا، وأنّ الدّوافعَ إلى ذلكَ إنّما هي أن يدفعوه مِن جديدٍ، بالكلامِ، إلى الدَّرْسِ والبَحْثِ والقِيلِ والقال.

وكان شَمْسٌ قد قالَ لِمَوْلانا مِرارًا:

امْحُ الأَوْراقَ، إذا كُنتَ شَريكًا لَنا في الدَّرْس

لأنّ دَرْسَ العِشْقِ لا يتّسِعُ لَهُ الدّفترُ

وكان شَمْسٌ أيضًا مخالِفًا لِلْجُلوسِ في الخَلْوة والانزواء؛ ولهذا السَّبب عقَدَ عدَدٌ مِنَ الأشخاصِ الذين كانوا لِسَنواتٍ يسْلُكونَ طريقَ الرّياضةِ والاختلاءِ العَزْمَ عَلَى أن يَطْرُدُوه مِن قُونِيَةَ؛ ذلكَ لِأَنّ شَمْسًا كان ينشُدُ العِشْقَ والنّشاطَ، لا الانزواءَ والاختلاءَ والرّياضة. كان العِشْقُ والحُبُّ هو الأسلوبَ الذي دافعَ عنه شَمْسٌ، وكان يريد أن يُشيعَ تلكَ الأمانةَ التي كان قد أتى بها هَديّةَ مُسافِرٍ [أَرْمغان ـ بالفارسيّة] مِن خُراسانَ العُظْمى معَه، بينَ أفرادِ النّاس. كانَتْ مقاومةُ المُرائينَ، ومُعارَكةُ الانزواءِ في الخَلْوة والمتعصِّبينَ، ومُوادّةُ المتعشِّقينَ والمحبِّينَ، الأسلوبَ الذي في هذه المرّة يتحدّثُ عنه شَمْسٌ جِهارًا، ومِن دون أن يخشَى عاقبتَه، في كُلّ مكانٍ، وفي المحافِلِ جميعًا. ولَيْسَ مِن دُون سَبَبٍ أن كان مَوْلانا يَصيحُ ويقولُ لِمُخالفي شَمْس:

ـ لَيْسَ شَمْسٌ عالِمًا أكبرَ فقط، بل حقيقةَ ذلكَ.

كان فَضاءُ قُونِيَةَ بعْدَ مجيء شَمْسٍ ممتزِجًا بالتُّهَم والشّكاوي والسُّخْرِيات اللّاذعة

والاعتراضاتِ والقِيلِ والقال، وكانَتِ الصّيْحاتُ والأَصْواتُ المرعِبةُ تصِلُ إلى الأسماع. وقد زادَ تعظيمُ مَوْلانا شَمْسًا، وإكرامُه إيّاه الذي لا حُدودَ له، اضطرامَ نارِ الحَسَدِ والحِقْدِ بينَ أصحاب النّوايا السَّيِّئة. [٢٩٧] ولَمْ يكُنْ شَمْسٌ نفسُه غيرَ مُبالٍ أمامَ هذه الأحداث، وكانَ يقولُ: لابُدَّ مِن اللُّطْف، ولابُدّ مِن القَهْر، وشَمْسٌ جامِعٌ لهذَين.

وعندَما سألَ ابنُ مَوْلانا الأصغرُ، عَلاءُ الدّين، أباه في شيءٍ مِن الغضَب:

ـ كيفَ تتّبعُ بَشَرًا متشرِّدًا مَجْنونًا لَيْسَ لَدَيه تَوازُنٌ رُوحيّ؟

أجابَ مَوْلانا:

ـ اعلَمْ، بُنَيَّ، أنّ شَمْسًا شَيْخٌ كامِلٌ. الإنسانُ الذي يقولُ: بعضُهم كاتِبٌ لِلْوَحْي، وبعضُهم مَحَلٌّ لِلْوَحْي، فاجتهِدْ لِكَي تكونَ مَحَلًّا لِلْوَحْي وكاتِبًا للوَحْي[1]، لا يمكِنُ أن يكون مجنونًا، بَلْ هو رَجُلٌ عظيم:

لَوْ أنّ رَأْسَ كُلِّ شَعْرةٍ مِنّي غدَا لِسانًا
لَمَا تهيَّأ لي وَصْفُ لُطْفِ شَمْسٍ في بيان
مَرْحَبًا، أَيْ شَمْسُ المضِيءُ لِقَلْبي
يا مَنْ ضِياؤكَ نارٌ تُحْرِقُ غَمّي وحَزَني[2]

كان مَوْلانا، لَيْلًا ونَهارًا، بِسببِ الوَجْد والاهتياجِ الذي أدركَه مِن رُجوع شَمْسٍ، يُنشِدُ الأشعارَ، أو يَدُورُ حولَ نفسِه، أو يجلسُ معَ مُراده في خَلْوةٍ. وكان مِن نتيجة تأثُّرِ مَوْلانا الشّديدِ في السَّماع أن صارَ عدَدٌ مِن مُحبّيه مِن أَصْحابِ الفَضْلِ والذّوق، كالقاضي شَمْسِ الدّين المارِدينيّ وسِراج الدّين الأُرْمَوِيّ، مجذوبينَ إليه، وأخذوا يَدورونَ حولَ

---

١ ـ مقالات شَمْس تَبْريزي.
٢ ـ المثْنَوي: ٥/٢٣١٧ـ؟

شَمْسٍ كالفَراشات. وقد أثارَتْ رغبةُ أَصْحابِ مَوْلانا بالسَّماعِ والطَّرَب غضَبَ عدَدٍ كبيرٍ مِن رِجال محافِلِ قُونِيةَ. كان سُلْطانُ وَلَد على عِلْمٍ مِن أنّ قُونِيةَ ستَشْهدُ حَدَثًا دَمَويًّا، إذ كان الظَّمَأُ إلى الانتقام مِنْ شَمْسٍ وأَحِبّاء شَمْسٍ تُؤجِّجُ نِيرانُه في كُلّ مكانٍ، حتّى في دُور العبادة. وغمَرَتْ أَمْواجُ الحِقْدِ والعَداوة كلّ مَوْضِع. أمّا شَمْسٌ ومَوْلانا فكانا مَأخوذَين بالسَّماعِ مِن دُونِ انشِغالٍ بأيّ شيءٍ آخَر، حتّى كأنّ رُوحَيهما كانا يَنشُدانِ أن يتحرّرا مِن ضِيق قَفَصَي جَسَدَيهما، ويبسُطَا جَناحَيهما إلى القَدْر الأَقْصى.

وعندَما وَصَلَ شَمْسٌ ومَوْلانا إلى الكَمالِ، أهملَا عِنادَ المُرائينَ وكَراهيتَهم. ومِنْ وِجهةٍ ما، شَمْسٌ مُحِبٌّ للإنسان، ومِنَ المؤسِفِ أن يعيشَ في مُحيطٍ مُظْلِمٍ ومتعصِّبٍ، فقد كان قلْبُه يتوقُ إلى أن يكونَ بينَ النّاس، ويتحدّثَ إلى النّاس، ويَبثَّ حَديثَ القَلْب مِن دُون إقامةِ وَزْنٍ لِمُقتضَياتِ الزّمان والمكان. لكِنّ البائسينَ المُنْحَطّينَ لَم يكونوا يأذَنونَ بذلكَ، وهذا ما اعترَفَ به في قُونِيةَ وقالَه. لا أَستطيعُ أن أقولَ الحقيقةَ؛ إِذْ بدَأتُ بقَوْلِ الحقيقة [٢٩٨] فأَخْرَجُوني، ولو أكمَلْتُ قولَ الحقيقة لَأَخْرَجوني دَفعةً واحِدةً مِن المدينة كلّها. كان عَلَيَّ أن أَذهبَ إلى الجِبالِ والصّحاري، لو أنّني بدأتُ بقَولِ الحقيقة. والمؤسِفُ أنّ هذا يستمرُّ. عَلَى القُلُوبِ أَقْفالٌ، وعَلَى الألسنةِ أقفالٌ[١]، وعَلَى الآذانِ أقفال. أَهْلُ هذا الرُّبعِ المسكون، كُلُّ إشكالٍ يقولونَه يجدون لَه إجابةً. جَوابٌ في جَوابٍ، وقَيدٌ في قَيْد، وشَرْحٌ في شَرْح. كلامي يقدِّمُ لِكُلّ سُؤالٍ عشَرَةَ أَجْوبةٍ لَيْسَتْ مَسْطورةً في كتابِ البتّةَ، بذلكَ اللُّطْفِ وبذلكَ الطَّعْم؛ مثْلَما يقولُ مَوْلانا: منذُ أن تعرّفتُكَ صارَتْ هذه الكتُبُ في نَظَري مِن دُون طَعْم[٢].

---

١ ـ من مقالات شَمْس.

٢ ـ من مقالات شَمْس تَبْريز.

يعتقِدُ شَمْسٌ أنّه يوجَدُ في وُجودِ البَشَر إِحْساسٌ عاطفيٌّ مصدَرُه العِشْقُ. وهذا العِشْقُ الذي لا يتناهى، عندَما يتجلّى تبدَأُ حَياةٌ جديدةٌ لِتَعرُّفِ حقائقِ الوجود والكائناتِ وفئات النّاس؛ لِكَي يعْرِفَ الإنسانُ العَدوَّ، ويعْرِفَ الصّديق:

لِكَـــي تعْـــرِفَ الـــصّديقَ مِـــن العَـــدُوّ
لابُـــدَّ لَـــكَ مِـــنْ حَيـــاةٍ جديـــدة
والأعْـداءُ الـذين ظـاهِرُهم أصـدقاءُ، كثيـرون
ولابُـــدَّ مِـــن صَـــديقٍ مُـــواسٍ[١]

كان مقصودُ شَمْسٍ، بِهذه «الحياةِ الجديدة»، اكتشافَ جَلال الدّين البَلْخيّ، إلى حَدّ أنّه يقولُ: «المقصودُ مِن وُجودِ العالَم التقاءُ حَبيبَينِ يتوجَّهُ كُلٌّ منهما ناحيةَ الآخَر، مِن أَجْل الله سُبحانَه، بعيدًا عن الأهواء»[٢]. وجَلالُ الدّين البَلْخيّ، على غِرار شَمْسٍ، انقادَ للتصوّفِ العِشْقِيّ باشتياقٍ، وقَبِلَ أهدافَه. وقد نَبّهَ شَمْسٌ جَلالَ الدّين عَلَى أنّ الاعتقادَ والعِشْقَ يشجّعانِ، ويبدّدان المخاوفَ، قائلًا له: كُلُّ اعتقادٍ نشَّطَكَ وقَوّاكَ حافِظْ عَلَيه، وكُلُّ اعتقادٍ جعَلَكَ بارِدًا فاتِرًا ابتَعِدْ عنه؛ ذلكَ لِأَنّ المُطرِبَ الذي لَيْسَ عاشقًا، والنّائحَ الذي لَيْسَ متألّمًا، يفتّرانِ الآخَرينَ ويَذْهَبانِ بِنَشاطِهم وحيويّتهم[٣].

وكان مَوْلانا يعتقِدُ أنّه في يومٍ مِن الأيّام سينفُذُ تصوّفُ العِشْقِ في أقطار القُلُوبِ والأَرْواح عندَ بني الدّنيا. لكنّه ما كان راضِيًا عن أَهْل قُونِيةَ. ورَوَى الأفلاكيُّ أنّه قالَ يومًا: «واأَسَفاهُ، إنّ أَهْلَ قُونِيةَ يَمَلُّون سَماعَنا المملوءَ بالماءِ والرّونق والإِشْراق.

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٣١٥٦.
٢ ـ مقالات شَمْس، ص ٦٢٨.
٣ ـ السّابق.

والوزيرُ والأميرُ يطعُنونَ، وهم غيرُ راضينَ بِمَباهِجِنا ومَلاذِّنا هذه. وفي آخِرِ الأمر، يكونُ أهلُ الأَزْمانِ الآتيةِ مُحِبِّينَ للسَّماع، وأربابَ مُتْعةٍ وسُرور، ويُحيطُ العِشْقُ بالعالَم كلّه، ويغدُو النّاسُ كافّةً عاشِقينَ لِكلامِنا.

وكانَتْ شَجاعةُ العِشْقِ هذه هي التي اضطَرَّتْ جَلالَ الدّين، مِثْلَ الإمامِ أحمد الغزاليّ، إلى أن يَهَبَ ثروتَه وذخيرتَه للمساكين. [٢٩٩].

ومعَ كُلّ إيثارِ جَلال الدّين وبَذْلِه، كان الحِقْدُ والبُغْضُ والعِنادُ وإثارةُ الفِتَن والمشاكَسةُ والعَداوةُ لِشَمْسٍ تزدادُ يومًا إثْرَ يومٍ، وكانَتْ رائحةُ الدَّمِ والقَتْلِ تُشتَمُّ في فَضاء قُونِيةَ. كان جَلالُ الدّين مَسْرورًا كثيرًا بِشَمْسٍ؛ وفي رِواية الأفلاكيّ أنّه قالَ في هذا المعنى:

غسَلْتُ قَلْبي مِن العُلُوم، فظَفِرْتُ بالمعرفة

وتخلَّيْتُ عن ظُلْمةِ الوجود، فظَفِرْتُ بالضّياء

كُنتُ عاشِقًا للدّفتر، كالعَطّار(*)، كُنتُ أجْلِسُ متصدِّرًا مجلِسَ الأُدَباء، وعندَما شاهدتُّ جَبينَ السّاقي، سَكِرْتُ وكسَرْتُ الأقلام. وفي مَعْمَعةِ مُبارَزةِ الحاسِدينَ لِشَمْسٍ في شأن السَّماع، قالَ مَوْلانا:

إذا كُنتَ مُنكِرًا لِسَماعِ العاشِقينَ	**حُشِرْتَ يومَ القيامةِ معَ الكِلاب**
وإذا صِرْتَ غُلامًا لِشَمْسِ التَّبْريزيّ	**فَصِحْ: «الحُمْدُ لَكَ يا مُسْتَعانُ»**
فشَمْسُ التَّبْريزيُّ يفْتحُ طَريقَ الشّرق	**إذا صِرْتَ صَامِتًا وعالِمًا لِلْأَسْرار**(١)

---

*ـ يعني الصّوفيَّ والشّاعِرَ الكبير فريدَ الدّين العطار.

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّتان ٢٠٢٩، ٢٠٣٠.

يقولُ الدّكتُر صاحِبُ الزّمانيّ في كتابه «الخَطُّ الثالث» [بالفارسيّة: خطّ سِوُّم]: الشّعرُ والموسيقا والسَّماعُ، في تصوّفِ العِشْق، وَسِيلةٌ لا هَدَفٌ؛ وسيلةٌ لِتَلْطِيفِ العواطف، وسببٌ لتَقْليلِ الخشُونةِ والغِلْظة والقَسْوة، ومعالَجةٌ لِلْهِجْران، ومُداواةٌ لِلْوَحْدة. وما قالَه جَلالُ الدّين البَلْخيّ أفعَلُه في غاية الطّاعة، أَسْعَى وأصرُخُ لَعَلّي أستطيعُ أن أُوصِلَ أَصْحابي إلى الجَمال والكَمال والحال.

ويعتقد أ.د. شفيعي كَدْكَني أنّ أغلَبَ غزَليّاتِ مَوْلانا ممثِّلٌ مدهِشٌ وموفَّقٌ لِلَحَظاتِ حَياته. الشّعرُ عندَه تجربةٌ؛ وهذه التّجارِبُ مهما تنوّعَتْ في الموسيقا واللُّغةِ والتّصْويرِ تتمتّعُ بِوَحْدَةٍ لابُدَّ من تسميتها «وَحْدةَ الحال»[1].

ولِأَنّ كُلَّ غزَليّةٍ نِتاجُ جَيَشانِ صَدْرِه اللّاواعي، ولأنّ أغلَبَها ظهَرَ بتأثيرِ الموسيقا والوَجْدِ والهيَجان والسَّماع، كانَتْ وَحْدةُ الحال هذه أكثرَ وضوحًا. وفي أَحْلَكِ أَدْوارِ تاريخِ الصّراعات والنّزاعات العَقَديّة، كان جَلالُ الدّين يَعُدُّ السَّماعَ[2] شافِيًا وإكسيرًا لِآلامِ البشَر وأَوْجاعِهم العميقة، إذ أنشَدَ:

يــا أللهُ، أَعْــطِ المُطْــــرِبِــينَ عَــسَلًا

ومِنْ أَجْلِ الضّرْبِ والعَزْف، أعطِهم أيْدِيًا مِن حَديد

ولِأَنّهـــم وقَفُـوُا الأيــدِيَ والأقْــدامَ لِلْعِــشْق

١ـ مِن مقدّمة كتاب «گزيدهٔ ديوان شَمْس تَبْريزى»، ص ٣٧.

٢ـ قالَ الشّيخُ فريدُ الدّين العطار في واحِدةٍ مِن غزَليّاته، في موضوع السَّماع:

عندَما يَصْحُو العاشِقونَ ممّا هُمْ فيه ... يدخلونَ في صَلاةٍ أمامَ المعشوق

وأمامَ شَمَع جبينه، كالفَراشات، ... يَحْسِرونَ عن رؤوسهم، ويَقْدُمونَ مرفوعي الرُّؤوس

قَمَرِيُّو الوجوهِ جميعًا أُسارى عندَكَ ... فإلى مَتَى يأتونَ مصوِّبينَ رؤوسَهم ومُصَعِّدينَها؟

ارْفَعِ الحِجابَ؛ لِكَي يأتيَ أهلُ عالَمِ الرّوح ... راقصينَ، مكشوفينَ، رُفِعَتْ عنهم الأستار

أَعطِهِــــمْ أيــــضًا أيْــــدِيًا وأَقْــــدامًا حقيقيّـــــةً

ولِأنّهـــم مَلَـــؤوا آذانَنـــا مِـــنَ الرّســـالة

أَعْطِهِــمْ مِئــةَ عَــينٍ تُبْــصِرُ حَــظَّ الملــوك

يَنُوحُــونَ في العِــشْقِ نُــواحَ الحَمــام

فَــأَعْطِهِمْ مِــنْ أَلْطافِــكَ بُرْجًــا حَــصينًا

ولِأنّهــم أَطْرَبُــوا العُقــولَ بِمَــدْحِكَ وشُــكْرِك

أَعْطِهِـــمْ أيـــضًا شُـــكْرًا واسْتِحْـــسانًا

وقَــدْ سَــقَوُا الأكْبــادَ مِــنَ الأنغــام

فاسْــقِهِمْ أنــتَ أيــضًا مِــنَ الكــوثَرِ مــاءً مَعِينًــا[1]

وفي غزَليّاتِ ديوانِ شَمْسٍ يكونُ الإنسانُ وشَمْسٌ مَحَلَّ ثَناءٍ؛ باعتبارِ أنّ الإنسانَ قد وافقَ في «يَوْمِ أَلَسْتُ»[*] على حَمْلِ الأَمانة. وفي عَقيدة العارِفينَ أنّ الأمانةَ التي أَبَتِ السَّماواتُ أن يحمِلْنَها هي العِشْقُ. وعندَ شِهاب الدّين السُّهْرَوَرْديّ نِكاتٌ جَميلةٌ ومؤثِّرةٌ وجَذّابةٌ في شأن العَقْل والعِشْق. أَنقلُها فيما يأتي:

العِشْقُ عَمَلٌ كيميائيّ يُوجِبُ تغيُّرَ مُذابِ تُرابِ المعْشُوق، ثمّ بِبَركةِ ذلكَ تَبرُزُ كُلُّ الإمكانيّاتِ المتجاوِزة لِطاقة البشَر عندَ العاشِقِ فِعْليًّا، حتّى إنّ المعْشُوقَ يغدُو في النّهاية كالمَلَك، مُتَجَلّى لِأَنوارِ الحقّ. ولِلْعَقْلِ سَيْرٌ في عالَمِ البقاء، ولَه صِفةُ الماء، وحَيثُما حَلَّ

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٢٣٤٣.

* ـ إشارةٌ إلى ما جاءَ في الذّكر الحكيم مِن تجلّي الحقّ تعالى عَلَى الأَرْواح، وهي في عالَمِ الذّرّ، وقوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟» وقولِها في الإجابة: «بَلَى». ورَأْيُ المؤلِّف هنا أنّ الأمانةَ التي حَمَلَها الإنسانُ هي الإقرارُ بالرُّبوبيّة لِله ـ سبحانه ـ قبْلَ المجيء إلى هذه الدّنيا، والالتزامُ بما يترتّبُ عَلَى هذا الإقرارِ في حركة الإنسان في هذه الدّنيا. وهذه الفكرةُ كثيرةُ التردّد في الأدب الفارسيّ شِعْرًا ونثرًا، وكذا في العِرْفان الفارسيّ [المترجم].

ظَهَرَتِ الخُضْرةُ والحُسْنُ والرّونقُ. والعَقْلُ والعِشْقُ أَحَدُهُما ضِدٌّ للآخَر، ولا يتّحدانِ. وحيثُما ألقتْ شُعْلةُ نارِ العِشْقِ شُعاعًا تجمّدَ العَقْلُ، واشتَغلَت المَطْبعةُ. وقد أنشَدَ مَوْلانا:

إنّ عِـــشْقَ المُطْلَـــقِ يتحَقّـــقُ مِـــنَ الغَيْـــب

وهذا النّقاشُ والجِدالُ كُلُّه يصْنعُه حَبيبٌ لا نظيرَ لَـهُ

فإنْ شِئْتَ سَمِّه عِشْقًا، وإن شِئْتَ عَدَمًا، وإنْ شِئْتَ وُجودًا

لكنّـــهُ يَـــصْنَعُ الأَســـاطيرَ بِـــسِحْرِه

ولَـــوْ جَلّـــى وُجُـــودَه لِـــشُهودِه

لفَـــتَنَ نَفْـــسَه بِجَمالِـــه وسِـــحْرِه

وقـــد جَلّـــى الظّـــاهِرَ والبـــاطِنَ مَعًـــا أَمـــامَ الخَلْـــق

وهـــو يُـــسَمِّيهما في الظّـــاهِرِ لَيْلـــىَ والمجنـــون

وياقُوتُه الممتَزِجُ بالرّوح، يخلُقُ مِئةَ رُوحٍ بِنَفْخةٍ واحِدة

وغَمْزتُه السّافِكةُ لِلدّماء، تُجْري في كُلّ لَحْظةٍ مئةَ دَمٍ

نعَمْ، مِثْلَما يقولُ العارِفُ، العِشْقُ هو بُراقُ السّالِكينَ ومرْكَبُ السّائرينَ، وكُلُّ ما يدّخِرُه العَقْلُ في خَمسينَ عامًا يُحْرِقُه العِشْقُ في لَحْظةٍ واحِدة، فيطهِّرُ العاشِقَ ويُصَفِّيه. وقد كان شَمْسُ التَّبْريزيّ مَدّاحًا لِلْعِشْقِ الحقيقيّ، ومُحْترِقًا بِأَتُّونِ العِشْق، وقدّمَ مَوْلانا لِأَهْلِ الدّنيا أيضًا في زُمْرةِ مُحترِقي نارِ العِشْق.

ـ أيُّها العُشّاقُ، أيُّها العُشّاقُ، أنا عاشِقٌ عاقِلٌ
ومعَ شَمَعِ وِصالِه في الدّنيا، أنا فَراشةٌ، أنا فَراشة
ـ وقد أَضعْتُ المعشوقَ، فإلى مَتَى هذا الاضطرابُ؟
فلا تغفُلْ عَنّا وتُهْمِلْنا، فإنّني عاقِلٌ، إنّني عاقلٌ
مَوْلانا

عامٌ مملوءٌ بالضّجيج والصَّخَب

أُثبِتَ في تاريخِ مدينة قُونِيَة أنّ سَنةَ ٦٤٤ هجريّة سَنةٌ عاصِفةٌ، سَنةٌ مملوءةٌ بالضّجيج والصَّخَب والوَحْشة والغَضَب وقَلَق النّزاعات، سَنةٌ لِأَعمالِ التسلُّطِ والحِقْد وسُوءِ النِّيّة والخِصام، التي كان مبعَثُها قِصَرَ نظَرِ جماعةِ المُرائين والمتعصِّبين. وفي تلكَ السّنة نجِدُ مَوْلانا، الذي كان يَرَى نفسَه مستغنيًا عن كلّ شيءٍ، متعلِّقًا بِأَذْيالِ شَمْسٍ، كأنّه طِفْلٌ يرتَسِمُ في نَظَراته آلافُ الأسئلة، ومنشَغِلًا معَه بالبَحْث والتفحُّص والمناقشة. معَ أنّ شَمْسًا فيما يتّصِلُ بِعِلْمِ مَوْلانا، قَدِ اعترفَ بوضوحٍ في كتابه «**مقالات شَمْس**» بأنّ مَوْلانا في العِلْم والفَضْلِ بَحْرٌ، وحتّى تلكَ السّاعةِ لَيْسَ في رُبعِ البسيطة المسكونِ مِثْلُه في جُملة الفُنون[1]. هذا، معَ أنّ جَلالَ الدّين صار مُتَيّمًا بكلامِ شَمْسٍ الجديدِ، حتّى إنّه لازَمَ أُستاذَ العِشْق، وصار بتعبيرِ المرحومِ بديع الزّمان فُرُوزانْفَرْ، تلميذًا بِكُلّ حِذْقٍ ومَهارة.

كان مَوْلانا يُحِسّ بأنّه قد أُخرِجَ مِن العالَم الذي هُيِّئ له مِن قَبْلُ، وعَلَيه أن يخطُوَ في وادي الحقيقة، مُسْتَعينًا بالأَدَواتِ الأُخَر التي علّمَه إيّاها العِرْفانُ الإيرانيُّ عندَ شَمْس، ووُضِعت أَمامَه. وبِأَنوارِ العِشْق، أوضحَ شَمْسٌ لمَوْلانا كلَّ ما كان عندَه خافِيًا مُتوارِيًا في غِلالات الظُّلْمة. وفي الأَصْل، كان شَمْسٌ قد جاء مِن أَجْلِ أن يحرِّرَ هذا

---

١ ـ مقالات شَمْس تَبْريزي، ص ٧٣٠.

العَبْدَ اللّطيف (مَوْلانا)، الذي كان أَسيرًا وَسْطَ قَومٍ قُساةٍ غِلاظِ القُلُوب، يؤذونَه[١].

[٣٠٢] رَأَى مَوْلانا أَمامَه بَحْرًا زَخّارًا، عالِمًا مُطّلِعًا على كُلّ عُلُوم عَصْرِه ومعارفه. كان حُضورُه أمامَ شَمْسٍ في أَوّلِ الأمر مَصْحوبًا بشيءٍ مِن الخوفِ والاضطراب، أمّا عندَما عَلِمَ مَوْلانا أنّ نارَ الاشتياقِ، التي ظَلّتْ تُحْرِقُ وجودَه عَلَى امتدادِ سِنينَ، مشتعِلةٌ في شَمْسٍ أيضًا، فقد هَدَأَ واطمأنَّ، واستطاعَ أن يُفْشيَ له بِأَسْرارِ قَلْبه بإخلاصٍ، ويسْمَعَ إجاباتٍ، كان تذكُّرُها فيما بعْدُ يُلْقي مَوْلانا في حُمّى وأَلَم.

وفي مَدْرسةِ شَمْسٍ، في مَكْتبِ شَمْسٍ العاصِف، تعلّمَ مَوْلانا دُروسَ الهيَجانِ والوَجْدِ والحال، وعلى سُلَّمِ العِشْق صَعِدَ إلى سُقوفِ الملَكوت. وفي تِلْكَ اللّحَظاتِ استطاع، كما ينبغي، أن يَصِفَ عَظَمةَ الكائنات وجَلالَ خالِق الكائنات، وأن يُعْلِنَ أنّ العِشْقَ مُعْجِزةٌ إلهيّة، وأنّ العارِفينَ مظْهَرٌ لِلْعِشْق.

قرَأَ مَوْلانا كلمةَ «الغَيب» المملوءةَ بالفَخامةِ والعظَمَة مِرارًا، وسَمِعَها، لكنّه لم يستطِعْ أن يدْرِكَ معناها جيّدًا. أمّا أَنْفاسُ شَمْسٍ فهي التي أضاءت قَلْبَ مَوْلانا، وبلَغَتْ به أن أنشَدَ في شأن الغَيْب:

إنّ لِلْغيبِ سَحابًا وماءً آخَرَيْنِ كما أنّ لَهُ سَماءً وشَمْسًا أُخْرَيَين

ولا يَظْهَرُ ذلكَ إلا لِلْخاصّة أمّا الباقونَ ففي لَبْسٍ مِن خَلْقٍ جَديد[٢]

تعلّمَ مَوْلانا سِرَّ هذه الكلمةِ في مَحْضَر شَمْسٍ، وتعلّمَ أنّ عالَمَ الغَيبِ عالَمٌ مُضيءٌ وجَميلٌ، فهو عالَمٌ يسخِّرُ السّالِكَ والعارفَ والزّاهدَ لِلشَّوْقِ والجَذْب الإلهيّ، ويلهِمُه ذلكَ. وفي ذلكَ العالَم، ستُشاهِدُ أَعْينُ النّاس الحقائقَ جيّدًا.

١ ـ مقالات شَمْس، ص ٦٢٢.

٢ ـ المثنوي: ٢٠٤٦/١ ـ ٤٧.

عالَمُ الغَيْبِ هو عالَمُ العُروج، عالَمٌ يحْكُمُه السّكونُ والهدوءُ والطُّمَأنينةُ، وكُلُّ ناظِمِي مَديحِ جَلال العالَم والخَلْق يُريدون أن يَصِلوا إليه. وقد قالَ مَوْلانا لِلْعُشّاق الذي يُحْيُون اللّيالي:

إنّ جَماعةً مِن فَلاسِفةِ اليونان، كالسُّوفْسَطائيّينَ، كانوا يعلِّمونَ النّاسَ العِلْم، وفي مُقابِلِ ذلك كانوا يأخذُونَ منهم مالًا، ولا شأنَ لهم بالحقيقة. وكانَ آخَرونَ منهم يتعلّمونَ مَعْرِفةَ النّفس وتعرّفَ الحقيقة، لكنّ الوَسائلَ التي كانَتْ في مُتناوَلِهم أو يُعَلّمونَها لِلْمُهتمّينَ أو يوصونَهم بها لم تكُنْ مؤثِّرةً ومفيدةً ودقيقة. أمّا شَمْسٌ فقد أَسْمَعَ عُشّاقَ الحقيقة نَغَمًا جديدًا، وأنارَ كُلَّ ظُلُماتِ وجودي، وأَرشَدَني إلى مُخْتَلَى التّوحيد. وبِقُوّة العِشْق، الذي هو الأساسُ لِتَصْفيةِ الإنسان وتَزْكيتِه وتَعاليه، أضاءَ قَلْبيَ المتعَبَ المشتاق، وأَثبتَ [٣٠٣] أنّ حقيقةَ وجودِ الإنسان لَيْسَتْ زَمانيّةً ولا مَكانيّةً، والإنسانَ العاشِقَ مُتخَطٍّ لِحُدودِ الزّمان والمكان. نعَمْ أَرشَدَني إلى أَتُّونِ العِشْق.

تذهَبُ رِوايةٌ لمُؤلِّفِ كتاب «**مناقب العارفين**» إلى القَوْلِ إنّ مَوْلانا المسْتَغْنيَ، في مَجيء شَمْسٍ الثاني إلى قُونِيَةَ، تَرَكَ التّدريسَ والوَعْظَ، وجلَسَ لِلسَّماع والرَّقْص، وبَدّلَ اللّباسَ الدّينيّ التّقليديّ، إذ أَمَرَ بِأَن يُصنَعَ له مِن قُماش الهِنْدْباري (*) بُرْدٌ، ووَضَعَ عَلَى رَأْسِه قَلَنْسُوَةً مِن الصُّوفِ العَسَليِّ [الأصفر اللّون]، وارتدَى قَميصًا مفتوحًا مِن الأمام، وانتعلَ حِذاءً مَوْلَويًّا، ولَفّ عِمامةً ذاتَ عَذَبَتَين مِن خَلْف. وأَمَرَ بأن يُصْنَعَ رَبابٌ ذو سِتّ حُجُراتٍ؛ لأنّه في القديم كان الرَّباب رُباعيًّا. وبعدَئِذٍ، رتّبَ مَجالِسَ السَّماعِ، فامتلأَتْ أَطْرافُ العالَم بِهَيَجان العاشقينَ وتحرّقهم وضَجّتهم،

* ـ يبدو أنّه نوعٌ من البُرود، يُؤتَى به من بلادِ الهند، وقُماشُه مخطَّطٌ [المترجم].

وتوجّهَ النّاسُ كِبارًا وصِغارًا، أَقوياءَ وضُعفاءَ، عُلَماءَ وعامّةً، وكُلُّ أَهْلِ القلوب، نَحْوَ مَوْلانا. صار النّاسُ جميعًا مُنْشِدين لِلشّعْر، أهلَ طَرَبٍ. وبِمُشاهَدةِ سَماعِ شَمْسٍ والنّاسِ، صارَ مَوْلانا يغْرَقُ في الاشتياقِ والوَجْد، ويُنْشِد:

اعـزِفْ نَغَمًـا أَقْـوى، بِنَـشاطِ شَـرابٍ أَحْمَـر

إنّهـا صَـدَفةٌ طَـوَتِ البحْـرَ، هـذه التـي أَتَـتْ لِيَـدِه بالـدُّرّ

أَلَا، أَيُّهـا الـسّاقي، ائتِنـي بِـشَراب أَحْمَـرَ

فإنّ الرّأسَ الذي تمكّنَ السُّكْرُ مِنه، تحرّرَ مِن خَيالِ الثّرثَرة

ونـاوِلْ رُوحِـي قَـدَحًا يَحْمِلُنـي إلـى الـسّماء

ولا تُـسْلِمْني إلـى تَفْكيـرٍ يَنْحَـدِرُ بـي إلـى أَسْـفَلَ

لَسْتُ غَمًّـا، ولا عاشِـقًا لِلْغَـمّ، تحرّرْتُ مِن الغَمّ

إذ صِـرْتُ صـديقَه عنـدَما أَوصَـدَ بـابَ الظُّلْـم[1]

المُخالِفونَ والحاسِدُونَ الذين كانوا يَرَونَ مجالِسَ سَماعِ مَوْلانا، أو كانوا يَسْمَعُون أخبارَها مِن الأَغْيار، كانوا يَسْلِقُونه بِأَلْسِنةٍ حِدادٍ، ويقولون:

ـ واأَسَفاهُ، إنّ فقيهًا عالِمًا فاضِلًا جُنَّ بَغْتةً، وغدَا مُختلَّ العَقْل مِن أَثَر مُداوَمةِ السَّماعِ والرّياضة والمُجاهَدة، وصارَ مجذوبًا. يقولُ الأُستاذ فُرُوزانْفَر: عادِيٌّ تمامًا كَمْ كانَ تأسيسُ السَّماعِ وتَرْكُ التّدريسِ ـ مِن جانِبِ مُفْتٍ ومدرِّسٍ في مُحيط قُونِيةَ ـ قَبيحًا وسيِّئَ المَظْهَر بينَ الفُضَلاء.

المُراقِبونَ لِأُسْرة مَوْلانا والحاسِدونَ لها، مِن أَهْلِ قُونِيةَ والوافِدينَ إليها، كانوا يُضْمِرُونَ حَسَدًا لهذه الأُسْرةِ منذُ زَمَنٍ بعيد؛ لِما كانوا يرَوْنَه من ازْدِهارِ الطّريقةِ

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٢٢١٣.

واحترامِ والِدِ مَوْلانا والمنزِلةِ العَلِيّة التي ظَفِرَ بها. وفي هذه الأثناء، اغتنموا الفُرْصةَ، وأخذوا يَعْرِضُونَ فِكْرةَ تَحْريمِ السَّماع.

[٣٠٤] كانَ المُخالِفُونَ واضِحِينَ في شأن إِزْعاجِ مَوْلانا، وكانوا يقولونَ: إنّ شَمْسًا التَّبْريزيَّ في الظّاهِرِ شَخْصٌ مُهْمِلٌ ومحتقِرٌ لِلرُّسوم والتّقاليد، ويبحَثُ عن المُنْكَرات. وهو مُبتدِعٌ لا يُعْرَفُ دِينُه ومذْهَبُه. وقد أوردَ الأفلاكيُّ في كتابه «**مناقِب العارفين**» قولَه:

في أَحَدِ الأيّام، اتّخذَ أَحَدُ مَشاهيرِ المُخالِفينَ في قُونِيةَ سَبيلَه إلى مَوْلانا، مِن أَجْلِ الإنكارِ والعِناد، فسأَلَ مَوْلانا:

ـ الشَّرابُ حَلالٌ أو حَرامٌ؟

وكانَ غرَضُ السّائِلِ عِرْضَ شَمْسِ الدّين الطّاهر، وكان شَمْسٌ يتجنّبُ دائمًا المُحَرَّمات، ولم يكُنْ مُدَنَّسًا.

فأَجابَ مَوْلانا بِطَريقِ الكِناية وإِظْهارِ الامتعاضِ والسُّخْريّة:

كَمْ شَرِبَ؟ ـ لِأَنّه إذا صُبَّ وِعاءُ شَرابٍ في بَحْرٍ، لا يتغيّرُ ماؤه ولا يُكدَّرُ، ويكونُ الشُّرْبُ والاغتسالُ مِن ذلك الماء جائزًا، أمّا الحَوْضُ الصّغيرُ فتُنجِّسُه قَطْرةُ شَرابٍ يقينًا. وهكذا، كُلُّ ما يقَعُ في وِعاء المِلْح يأخُذُ حُكْمَ المِلْح. والجوابُ الصّريحُ هو أنّه: إن شَرِبَ شَمْسُ الدّين فلْيكُنْ ذلكَ، فإنّ كُلَّ شيءٍ مُباحٌ له؛ لِأَنّ له حُكْمَ البَحْر. أمّا إذا شَرِبَ فُضُوليٌّ مِثْلُكَ فإنّه حَرامٌ، وحَتّى خُبْزُ الشّعيرِ حَرامٌ عَلَيكَ.

وكثيرًا ما قالَ مَوْلانا لِلْمُخالِفينَ: هذا العارِفُ التَّبْريزيُّ شُعاعٌ مِن السّماء، يضيءُ القُلُوبَ المُنكَسِرَةَ عندَ ذوي الاشتياق. وقد صارَ قَلْبي، مِن نُورِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ اللّألاءِ، مغمورًا بالاهتياجِ والاشتياق. ومعَ شَمْسٍ، ظَفِرْتُ بمَنزِلةٍ رفيعةٍ قادرةٍ على

كُلّ شيء. وبإيمانِنا بالدّينِ وبالحقيقة، أَلْقَينا الرُّعْبَ في قُلُوبِ أَهْلِ الرّياء والنّفاق.

إنّ مَشْرَبَنا مَشْرَبٌ عالَميٌّ لا تتّسِعُ له مضائقُ التّعصُّب. وقد جعَلْنا الإيمانُ بالعِشْق غيرَ مُبالينَ. ما نَحْنُ مِنَ المَجانينِ، وها نَحْنُ نُنادي: لَيْسَ بينَ العِشْقِ الكُلِّيِّ والعَقْلِ الكُلِّيِّ تَباينٌ البتّةَ. وقد كُنتُ، قبْلُ، أَسيرَ قَيدِ الكُمّلِ الواصِلينَ لِحَضْرة الحقّ، وأنا الآنَ كذلكَ. والصّحيحُ أنّ شَمْسًا التَّبْريزيَّ وأنا، نعتقِدُ أنّ العِشْقَ جَوْهَرٌ أَصْليٌّ وأَساسٌ لِلْعِرْفانِ السّاعِي، وأنّه مِعْراجٌ[1] إلى سَماءِ سُلْطانِ [٣٠٥] الجَمال، وفَضيلةُ العَشْرةِ آلافِ فَضيلة[2]. ومنذُ أن رَأيتُ شَمْسًا، ودَفَنْتُ رَأسي في مِحْرابِ عِشْقِه، أَخَذَ العِشْقُ يتدفّقُ على وُجودي مِنْ كُلّ أَنحاءِ الوجود. ويعْلَمُ المؤدَّبونَ في قُونِيةَ أنّ غايةَ شَرَفِ العِشْقِ، والعاشِقِ المُخْلِصِ في العِشْق، تَتجلّى في التّوحيد والوَحْدانيّة. وهذه هي الحَماسةُ الرُّوحانيّةُ والعِرْفانيّة لِلْعِشْق.

١ـ العِشْقُ مِعْراجٌ إلى سَقْفِ سُلْطانِ الجَمال ... فاقْرَأْ في وَجْهِ العاشِقِ قِصّةَ المعراج
(ديوان شَمْس: الغزلِيّة ١٣٣)

٢ـ أيُّها العِشْقُ ذو الأَلْفِ اسْمٍ، الطّيّبُ الشّراب ... يا فَضيلةَ العَشْرةِ آلافِ فضيلة
(ديوان شَمْس: الغزَليّة ١٣٢٥)

ـ أُولئكَ المحْتَسُون شَرابًا صِرْفًا
وأُولئكَ المُحْيُونَ اللّيلَ في المِحْراب
ـ لا أحَدَ مِنهم فوقَ اليابسة، بَلْ هُمْ جَميعًا في الماء
ولا أحَدَ مِنهم يَقِظٌ، بَلْ هُمْ جَميعًا رُقود
الخيّام

شَمْسٌ والشّهادةُ

ما كان المحْفِلُ الرُّوحانيُّ في قُونِيةَ يُريدُ أن يظَلّ، أكثَرَ من هذا، ناظِرًا لا مُبالِيًا إلى إِجْراء حَفَلاتِ السَّماعِ والدّوَرانِ المديدة في بُيوت قُونِيةَ وميادينها، خاصّةً أنّ المَوْلَوِيّينَ الدّوّارِينَ ادّعَوا أنّ السَّماعَ مُحَرِّكُ القُلُوبِ إلى عالَمِ الغُيوب. وفي رَأْي شَمْسٍ ومَوْلانا أنّ الرّقْصَ يَهَبُ النّاسَ هُدوءًا مُحَبّبًا، وأنّه في تِلْكَ اللّحَظاتِ يُثيرُ في القُلُوبِ الحَيَوِيّةَ والشّوقَ إلى الحياة. يقولُ مَوْلانا:

يَــنهَضُ، يَثُــورُ، يَطِيــرُ، يُــضيء، يَهَــبُ
يُحْــرِقُ، يَــشْتَعِلُ، يجــذِبُ، يَمُــوتُ، يتــنفّس
امتِــــدادُ الأيّـــــامِ مَــــسْرَحُه ومُــــضطَّرَبُه
والـــسّماءُ مَـــوجٌ مِـــن غُبـــارِ طَرِيقِـــهِ

اتّهمُوا شَمْسًا بأنّ أقوالَه وأفعالَه تنطوي على رسالةٍ مشوِّشةٍ لِلْأذهان، باعِثةٍ عَلَى الجُنون، وبأنّه يَرَى، مِثْلَ عَيْنِ القُضاة الهمَذانيّ، أنّ ما يُسَمّى العَيبَ والعارَ ممتنعُ الوُجودِ في عالَمِ العِشْق. ولدَيه أمَلٌ بأن يغيِّرَ بقوّةِ الشّعورِ والإحساسِ وتَذَوّقِ الموسيقا معرفةَ الفَضاءِ الواسِع لِلْمُجتمع، لِكَي يرفَعَ مَوْلانا المسْحُورُ الصّوتَ هنا وهناكَ، ويقولَ بمُبالغةٍ: إنّ ما يقولُه شَمْسٌ هو غالبًا ينشَأُ عن الإلهام والإِشْراق، وإنّه يغوصُ في سِرّ الحياة، واهتمامُه الخاصُّ منصَرِفٌ إلى سَعادةِ أفراد البَشَر جميعًا وتوفيقهم.

[٣٠٧] قالَ هؤلاءِ إنّ شَمْسًا إمّا لا دِينيٌّ، وإمّا يَدينُ بِدِين الحُبّ. وكُلُّ مَن يختارُ منهجَه وطريقتَه يغدُو مضطَرِبًا ومتشرِّدًا وفَوْضَويًّا. وكلامُ شَمْسٍ، كالشّهابِ الثاقِبِ، يحرِّكُ كُلَّ سامِعٍ عاقلٍ ويَهُزُّه ويغيِّرُه. وعندَما عجَزَ أصحابُ النّوايا السَّيّئة، بلَطائفِ الحِيَل، عن إفسادِ العلاقة بينَ مَوْلانا وشَمْسٍ، توسَّلوا لِذلكَ آلةً مِن آلاتِ المَوْت، نبَذَها العُرْفُ الإنسانيّ والأَدْيانُ والمذاهِبُ جميعًا منذُ زَمَنٍ بعيد. صَمّمَ هؤلاءِ على أن يقتلوا شَمْسًا غِيلةً وبغتةً؛ لِكَي يُخمِدُوا صوتَ مَدّاحِ الحقيقة، مَظْهَرِ إشْراقِ عِرْفان إيران، الذي أساسُه عِبادةُ الله، ومَحبّةُ الإنسان، وتزكيةُ النّفس، إلى الأبَد. مَدّاحُ العِشْق الذي يجيشُ مِن القَلْب، ويتحوّلُ مآلًا إلى عِشْقٍ إلهيّ، عَلَيه أن يَموتَ قبْلَ أن يموتَ؛ لأنّه حَتّى ذلكَ الوقتِ، كان عَصِيًّا على المُتعصِّبينَ أن يُدرِكُوا أنّ الإنسانَ الحقيقيّ مَعِينٌ لِلْفُيوضات الإلهيّة. وبسببِ المنزِلةِ العالية التي يحتلُّها، يستطيعُ بمَدَدِ العِشْق أن يرتادَ عالَمَ ما وراءَ الطّبيعة. وكان شَمْسٌ يُسَمِّي نفسَه رَجُلَ عالَمِ العِرْفان العِشْقيّ القَوِيَّ، وكان يقولُ بشجاعةٍ: مَنْ يعرِفْ نفسَه فسيعرِفُ يقينًا خالِقَ الكائناتِ معرفةً صحيحة. ومِثْلُ هذه المعْرِفةِ المقترنة بالاعتقادِ والإيمانِ ستَهَبُ الرّوحَ سَكينةً مُحبَّبةً. وفي هذا المَسيرِ، سيكونُ العِشْقُ رفيقَه وصاحبَه. وإنّه، اعتمادًا على القُدْرة الخالِدَةِ الخالِقَة لِلْعِشْق، يُستطاعُ تهدئةُ المحيطاتِ الزّخّارة للنّكَد والشّقاء. هذا الموجودُ المُختارُ [شَمْسٌ]، لم يقبَلْه عدَدٌ مِن سَطْحِيّي قُونِيَةَ، وكانوا يقولون عنه إنّه مجنونٌ ومَحْجورٌ.

قَوْسُ قُزَحِ(*) سَماءِ العِرْفان هذا، الذي ادّعَى في كُلّ مكانٍ أنّ التّجلِّيَ الجَماليّ

* ـ هذه استعارةٌ تصريحيّة لِشَمْسِ التّبْريزيّ. وقَوْسُ قُزَحَ السّماء سُمِّيَتْ بذلك لتلَوُّنها، من «القُزْحة» بمعنى: الطّريقة المؤلَّفة من صُفْرةٍ وحُمْرةٍ وخُضْرةٍ، أو لارتفاع هذه القَوْس في السّماء، من قَزَحَ: ارتفعَ. أو قُزَحُ مَلَكٌ موكَّلٌ بالسَّحاب، فنُسِبتْ إليه القوسُ [المترجم].

هو الأساسُ الذي بُنِيَ عليه الوجود، وأنّ العِشْقَ هو أوّلُ ظاهرةٍ في الحياة، يجِبُ ـ في حُكْمِ المُتعصّبينَ ـ أن يُقتَلَ. شَمْسٌ التَّبريزيّ، المُنادي إلى الحقائق الإلهيّة، الذي أَعلنَ مِرارًا أنّ الجَمالَ السَّرْمَديَّ انعكاسٌ للحقائق الأزَليّة، يَجبُ أن يُقَطَّعَ بِشَفْرةِ سِكِّينٍ، ويُمزّقَ صَدْرُه. لابدّ مِن أن يُداسَ بِساطُ السَّماعِ تحْتَ أقدامِ رِجالِ السَّوء، ضيِّقي الأنظار، وأن يُحْرَقَ طالِبُ العِرْفان الإيرانيّ القديم، شَمْسٌ، في النّار التي أضرَمَها، ويصبحَ رَمادًا، شَمْسٌ هذا الذي انشغَلَ بأعماقِ العالَم الدّاخليّ للنّاس، وسَبَرَ مَرّاتٍ كثيرةً أعماقَ الرّوحِ العظيم لمَوْلانا.

فلَعَلّ ضَالِّي قُونِيَةَ ما كانوا يعْلَمونَ أنّ قَلْبَ شَمْسٍ أَتُّونٌ مملوءٌ بنارِ الشّوق، ومن أجْلِ ذلكَ يكونُ عَلَيهم أن يُكرموا حانتَهُ(*)؛ لأنّه يختزِنُ نارَ العِشْق في قَلْبه، وبِشُعَلِ هذه النّار يتجلّى العِشْقُ. [٣٠٨] ولأنّها مَحَلٌّ لِلْعِشْقِ تكونُ صانعةً لا مُحْرِقةً، وهذه الشّعْلةُ السَّرْمَديّةُ لا تستطيعُ أَيدي البشَر أن تُطفئها. وقد فتَحَ شَمْسٌ فُتوحًا في سَيْره وسُلوكه العِرْفانيّ:

لَـوْ أُتـيحَ لَـكَ فَـتْحُ البـابِ مَـرّةً واحِـدةً

لَرأيـتَ في داخـلِ الـصّدْرِ الـشّمْسَ

عَدَّ المُعانِدُونَ والمُخالِفُونَ سُكْرَ شَمْسٍ العِرْفانيَّ في أثناء السَّماع أعظمَ وسيلةٍ وذريعةٍ لِلْوُصولِ إلى إنهاء وجوده. تبًّا لِأَفهامِ المُعاندينَ والمُخالِفينَ.

إنّ إِطْفاءَ ضِياءِ شَمْسٍ المُنيرِ للعالَم لَيْسَ عَمَلًا عَقْلانيًّا، ولا منطِقيًّا، ولا إنسانيًّا، لكنّه عندَما يتوارَى المنطِقُ يَعْمَى مُريدُو السُّوءِ يقينًا، ويضَعُونَ حِجابًا أمامَ فَعاليّاتهم العقليّةِ والذّهنيّة. وكان أَنْ رَبَّى شَمْسٌ اللّياقةَ والسُّموَّ والعظَمةَ في نُفوس فئاتِ الناسِ المُخْلِصينَ المؤثِرينَ عَلَى أَنفُسهم في قُونِيَةَ، عَلَى نَحْوٍ جعَلَ المخالفينَ له عاجِزينَ

* ـ الحانةُ في الأصْلِ حانوتُ الخمّار، والاستعمالُ هنا على سبيل المجاز [المترجم].

عن تحمُّلِ تأثيرِه وفعاليّته. كان هؤلاءِ يتصوّرونَ أنّ شَمْسًا إن بقيَ حَيًّا، وواصَلَ فعاليّتَه المستمرّةَ التي لا تَكِلُّ، سيسوقُ كُلَّ القُونَوِيّينَ إلى عِرْفانه الخاصّ، الذي هو مَحَبّةُ الإنسانِ لِلْعِشْق والنّشاطِ والاستفادةِ مِن مَواهِب الطّبيعة. وعَلَى شَمْسٍ - في شِرْعة هؤلاء - أن ينصَرِفَ إلى دِيارِ العَدَم دائمًا.

شَمْسٌ هذا يجِبُ - في قَوْلِ المتعصِّبينَ أو في حُكْمِهم - أن يُقتَلَ، مِثْلَما قِيلَ. وكُلُّ إنسانٍ يُصفِّي نفسَه مِن الهَوَسِ والهَوَى والتعصُّب، سَينالُ نِعْمةَ لِقاءِ المطلوب، الذي هو الحضورُ في جَنابِ البارئ تعالى. ويحدُثُ أحيانًا أن يصِلَ الإنسانُ إلى مَقامٍ يَرَى فيه الحقائقَ كُلَّها في نفسِه.

تمثّلَتْ جِنايةُ شَمْسٍ في أنّه عجَزَ عن أن يُفهِمَ المُخالِفينَ ظاهرةَ العِشْق. وقد قالَ شَمْسٌ مَرّاتٍ: إنّ العِشْقَ يتفتّحُ ويزدَهِرُ فقط في أفئدة أَربابِ الشَّرَف والفُتوّة والإباء. والعِشْقُ في ذاته يُهْدِي الطّهارةَ والعِفّةَ والنّقاءَ. وإنّه بِمُساعدةِ هذه الأَجْنحةِ، يعْرُجُ الإنسانُ إلى ما وراءَ الكائنات، معَ أنّ مَوْلانا قالَ في هذا الشأن:

يَظْهَرُ العِشْقُ مِن أَنينِ القَلْب
ولا مَرَضَ مِثْلُ مَرَضِ القَلْب
ومَذْهَبُ العاشِقِ متميِّزٌ عَن بَقيّةِ المذاهِب
فإنّ العِشْقَ أَسْطُرْلابُ[1] أَسْرارِ الله
[٣٠٩] والعَقْلُ، في شَرْحِ العِشْقِ، مِثْلُ حِمارٍ نامَ في الوَحَل

---

١ ـ آلةٌ صغيرةٌ كانوا يستعملونها في مُراقبة مواقع النّجوم والأجرام السّماويّة، ومعرفة الوقت، والجهات الأصليّة [المترجم].

فشَرْحُ العِشْقِ وفِعْلِه، قالَه لَنا العِشْقُ نفسُه[١]

ما كانَ المُخالِفُونَ المُنحَطّونَ يَعُدّونَ هذا الكلامَ منسَجِمًا وقَواعِدَ العِلْم والمنطق. وكانوا يقولونَ: إنّ هذه مِن ضُروبِ الثَّرثرة والشَّطْحِ والتّهويم، والمُثَرْثِرُ والشّطّاحُ والمُهَوِّمُ يجِبُ أن ينالَ كلٌّ منهم جَزاءَ أعمالِهِ وأَقوالِه ودَعاوِيه البعيدة عن العقل.

كان المخالِفُونَ والمعانِدُون يقولون إنّ شَمْسًا مِن المُبَشِّرينَ الغَوغائيّينَ بالعِشْق، إذ بلَغَ مرحلةَ الجُنون بسبب فَرْطِ الكِبْر والعُجْبِ وحُبِّ النّفس. ولهذا السَّببِ، لَيالي شَمْسٍ هي لَياليَ التّأثُّرِ والسُّرورِ والوَجْدِ والسَّماع، وهو يدعو شُبّانَ قُونِيَةَ إلى عِشْق الجَمال، وإلى عالَمِ العِرْفان المستفيدِ مِن الموسيقا؛ لِكَي يَقْوى في أذهانهم وفي قُلوبهم حُلُمُ السَّماعِ والرَّقْصِ الجماعيّ، ويعتادوا عليه. ولابدّ مِن مُبارزةِ عاصفةِ الجَذْبِ والهيَجانِ التي أثارها شَمْسٌ، ولابدّ مِن تَعْطيلِ جَلَساته.

كَمْ هم فاقِدونَ لِلْإنصافِ أولئكَ المظْلِمُو التفكير. بَلْ كانَتْ لَحَظاتُ شَمْسٍ وأيّامُه ولَياليه وَقْفًا عَلَى تَرْبيةِ النّاس وإرشادِهم إلى سَواء السَّبيل، وكان يدعوهم إلى مَعْرِفة أنفسِهم. كانَتْ لَيالي شَمْسٍ كُلُّها تَضرُّعًا ومُناجاةً وتَحرُّقًا وذَوَبانًا:

لا يَعْلَمُ حالَ لَيالِيَّ إلّا شَخْصٌ مِثْلي

فأنّى تعْلَمُ أنتَ كَيْفَ يَمْضي لَيلُ المحتَرِقينَ؟

كان أمَلُ شَمْسٍ مِن العُروجِ عَلَى سُلّمِ الوجودِ كَسْبَ معارِفَ في العِشْقِ والعِرْفان ممّا وراءَ الطّبيعة. ولم يكُنِ الحاسِدُونَ، عُمْيُ القلوب، يدرِكُونَ معانيَ فِكَرِ شَمْسٍ المُتعاليةِ التي تَفيضُ مِن يَنبوعِ العِشْق. كان شَمْسٌ مُرَبِّيًا ومُرادًا لِلْمُشتاقين، الذين أمّلوا أن يَمْلَؤوا فضاءَ الطّبيعة الرّمزيَّ بالمعرفةِ والمَجالات العاطفيّة.

---

١ ـ المثنوي: ١٠٩/١ ـ ١١٠، ١١٥.

كان المُخالِفُونَ مُستائينَ من أنّ فئاتِ النّاسِ وجَماعاتهم، خاصّةً الشُّبّانَ، ينجَذِبونَ إلى فِكَر شَمْسٍ كما ينجَذِبُ المغناطيسُ إلى الحديد. وقد حدَثَ ذلكَ عَلَى نَحْوٍ خاصٍّ حِينَ أَخَذَ مُحِبُّو شَمْسٍ يقولونَ بَعْدَ أَمدٍ قصيرٍ: إنّ الاضطرابَ الذّهنيّ والإحساسَ باليأس قد زالا مِن ساحة وجودهم، وكانوا يتصوّرونَ أنّ شَمْسًا مَلْجأُ المؤمِّلينَ والرّاجينَ. وقدِ اعتقدوا بأنّ لَدَيه رِسالةً مقدَّسةً، وشَبيهةً بالمعْجِزة، لِإرشادِ النّاس وتوجيههم إلى تعرُّفِ ذَواتهم، وكانوا يُحِسّون بأنّ في كلامِه هَيَجانًا وإثارةً يُسكِّنانِ الآلامَ والأسقام. وأذاعَ عُمْيُ البصائر في قُونِيةَ، في المحافلِ والمنتدَياتِ، أنّ خَلْفَ ظاهِرِ شَمْسٍ المُوَقَّرِ باطنًا مُعْوَجًّا وهَوَسًا وهَوًى. وإضافةً إلى ذلكَ، لَدَيه ملامحُ مُبْهَمةٌ وغامضةٌ، ويتبيّنُ مِن تصرّفه أنّه عَشَّش [٣١٠] في قَلْبه وذِهْنه ابتداعٌ وفِكَرٌ سَوْداويّة. وقد مزَجَ التّقوى والسَّماعَ والمُطايباتِ والسُّخْريةَ معَ شيءٍ مِن التّفاهات. وفي النّتيجة، ابتَلَى جَلالَ الدّين البَلْخيّ بالتّفاهةِ واعوجاجِ التفكير المنفِّر. ولِأَنّ جَلالَ الدّين صار فاقِدَ الإرادة، أخذَ يرى نُبوغًا صَحيحًا في كلام المتشرِّد التَّبْريزيّ. ولا شكَّ في أنّه سُحِرَ وجُذِبَ، في الوَقْتِ الذي يمكِنُ فيه تلمُّسُ عَجْزِ شَمْسٍ الكبيرِ جَيّدًا، في كلامِه الطّنّان الفارغ.

قرّرَ المُعانِدُونَ بإصرارٍ أنّ شَمْسًا يجِبُ أن يُقتلَ سريعًا، إذ كانوا يَعُدّونَ شَمْسًا جهنّمَ آخِرِ الزّمان، ويَرَوْنَ فيه شَيْطانًا مَريدًا، ويقولونَ: لابدّ، ابتداءً، مِن أن يُقتلَ بضَرَباتِ سِياطٍ تُجْرى في حُجْرةٍ مظْلِمة، وهناكَ يُقطَّعُ بأَسْوَأ طريقةٍ قِطْعةً قطعةً لِأنّه - مِثْلَ مَوْلانا - قالَ:

ضَعُوا القُطْنَ في أُذُنِ حِسِّكم الأَسْفَلِ
وحُلُّوا رِباطَ الحِسّ مِنْ أَمامِ أَعْيُنِكم

وَلْتُخلِّصُوا أنفسَكم مِنَ الحِسِّ والأُذُنِ والهواجِس

حَتّـــى تَـــسْمَعُوا نِـــداءَ: «ٱرۡجِعِيٓ» (*)

إنّ سَـــيْرَ الظّـــاهِرِ هـــو قَولُنـــا وفعْلُنـــا

وأمّـا سَـيْرُ البـاطِنِ فيكـونُ في أعـالي الـسَّماء

فالحِسُّ لَـمْ يَـرَ إلّا اليـابِسَ؛ لأنّـه وُلِـدَ مِـن اليـابِس

أمّا عيسى الرُّوح فقد مَشَى بِقدَمَيه على الماء(١)

وكان شَمْسٌ قد قال لمَوْلانا: كَمْ أنا مسرورٌ(٢) بصُحْبتكَ التي أعطَتْني مِثْلَ هذه المحبّة. أعطاكَ اللهُ قلبي(٣) هذا. ما قِيمةُ هذه الدّنيا، وما قِيمةُ تلكَ الدّنيا، عندي؟! ما قَعْرُ الأرض، وما [٣١١] أعالي السّماء؟!

* ـ هذه إشارةٌ إلى قَوله تعالى: «يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ» (الفجر/٢٧، ٢٨). ومعنى البيت: احفَظُوا أنفسَكم من مطالب الحِسّ والنّفس وأَعْراضِ الحياة الدّنيا، لِتكونوا مِنْ جُملة النّفوسِ المطمئنّة، التي عندَ انتهاء الأجَلِ تحصُلُ عَلَى أَجْملِ مكافأةٍ يحصُلُ عليها بَشَر [المترجم].

١ ـ المثْنوي: ٥٧٠/١ وما بعْدُ

٢ ـ مقالات شَمْس، ص ١٨٩.

٣ ـ أثبتَ الشّيخُ عبدُ الله الأنصاريّ، في تفسير الآية: «وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ» (الأنفال/٢٤) قولَه: «إنّ سالكي طريقِ الحقيقةِ فِرْقَتانِ: عُلَماءُ وعارفونَ. عُلَماءُ وَجَدُوا قلوبَهم؛ وعارِفونَ فَقَدُوا قُلوبَهم وهذه الآيةُ رَمْزٌ غريبٌ، وإشارةٌ عجيبة. فإنّه في البدايةِ لابدّ من القَلْب، وفي النّهايةِ القلبُ مُجابٌ. ومادامَ السّالكُ معَ القلب فهو مُريدٌ؛ ومِن دُونِ القَلْب يكونُ مُرادًا. في البَدْءِ لابدّ مِن القَلْب؛ لأنّه مِن دُون القَلْبِ لا يمكِنُ طَيُّ طريقِ الشّريعة. وفي النّهاية، البَقاءُ معَ القَلْب ثُنائيّةٌ، أو اثنَينيّةٌ؛ والثُّنائيّةُ بُعْدٌ عن الحقّ في شأنِ بِداية الأَمْرِ قالَ: «لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ» (ق/٣٧)، وفي شأن النّهاية قالَ: «يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ».

وقدْ قِيلَ: صاحِبُ القَلْبِ أربعةُ أَشْخاصٍ: زاهِدٌ، قَلْبُه أَضْناهُ الشّوق. وخائفٌ، قَلْبُه منكَسِرٌ بالدّمع. ومُريدٌ، قَلْبُه استعدّ لِلْخِدْمة. ومُحِبٌّ، قَلْبُه مرتبطٌ بالحَضْرة. جاء وَحْيٌ إلى داوودَ:

أَيْ داوودُ، البيتُ الذي يليقُ أن يكونَ مَيدانَ مُواصلَتِنا، طَهّرْه مِن غَيرِنا، انشَغِلْ بنا. فقالَ دواوودُ: أيُّ بَيتٍ يليقُ بجلالكَ وعظَمتكَ؟ ـ فجاء النّداءُ: قَلْبُ العَبْدِ المؤمنِ، أَيْ داوودُ، أينَما رأيتَه رأيتَ بَيْدَرًا محترِقًا، لأنّه في طَريقِ البَحْثِ عنّا يطْلُبنا بحُرْقةِ العِشْق، فحدِّدْه [البيتَ] في ذلكَ الموضع؛ لِأَنَّ خَيْمةَ قُدْسِنا لا تُضْرَبُ إلّا في ميدان =

رَأى أهلُ الظّاهِرِ أنّ هذا الكلامَ مِن صِنْفِ المَقُولات الفِرْعَونيّة، وأنّ قائلَه مستحِقٌ لِلْإفناء.

حُكِمَ عَلَى شَمْسٍ بالموتِ بالتّعذيبِ والإيذاءِ الجَسَديّ؛ لأنّه خاطَبَ جَماعةً مِن أَهْلِ النّفاقِ المُتاجِرينَ، الخالي الوِفاضِ مِن العِلْم والحِكْمة، بِلَهْجةٍ صَريحةٍ قاطِعة، قائلًا: أيّةُ فائدةٍ لهؤلاء المُرائينَ مِن لِقاءِ الأُمَراء(*) وحَديثِهم؟ - إذا كان لله عِبادٌ يَمُرّونَ فوقَ الحوضِ والنّهر، ولا أقولُ فوقَ البَحْر، فلا تبتلُّ أَذْيالُ ثيابهم، فلَيْسُوا هم هؤلاء؛ إذ إنّ مسألةَ ابتلالِ الذَّيلِ لَيْسَتْ لهؤلاء، بَلْ هؤلاءِ يَغرقُونَ، ولِلْأُمراء مِن لقائهم أذًى؛ لِأَنّ القابليّةَ والتّقليدَ اللّذَين يمتلكونَهما يُغطِّيانِ بسبب هؤلاء. هؤلاءِ كالفأر، يخرِّبونَ بَيتَ الإيمان. وقد ظَلَّ شَمْسٌ حتّى اللّحَظاتِ الأخيرة مِن عُمرِه يقاومُ هذه المجموعةَ السّيئةَ، ويبارزُها بِشَجاعةٍ وبطولة.

= المحترقِ القلوب. وهو [قلْبُ العَبْدِ المؤمن] مَحَلُّ معرفتنا، ومحرابُ وِصالِنا، وخَيْمةُ اشتياقِنا، ومَقَرُّ كلامِنا، وكنزُ بيتِ أسرارِنا. وكُلُّ شَيءٍ يحترِقُ يغْدُو عديمَ القِيمة، والقَلْبُ الذي يحترقُ يغْدُو ذا قِيمة. الرّسولُ (علَيه الصّلاةُ والسّلامُ) قالَ: قُلُوبُ عِبادِ الله أَوْعِيةُ حَضْرةِ الله، وأنا أُحِبُّها أطهَرَ وأَصْفَى وأرقَّ وأثبتَ. لأنّ قُلوبَ عُشّاقِ الأمّة هي كؤوسُ شَرابِ الرُّبوبيّة، وكلّما كان القَلْبُ أصْفَى مِن الأوشاب، وأرأفَ بالمؤمنين، كان عنْدَ حَضْرةِ العزيزِ أعزَّ. فاعمَلْ على أن تُعِزَّ قلْبَك، وتحفظَه مِن كُدوراتِ الهوى وهَوسِ الشّهْوة؛ لأنّه لَطيفةٌ ربّانيّةٌ ومحَطُّ نَظْرةٍ سُبْحانيّة.

* - أي المخْلِصين في محبّتهم لِلْحقّ تعالى، العارفين لوَحْدانيّته وجَلاله سُبْحانه [المترجم].

ـ ما مِعْراجُ الفلَك؟ ـ إنّه هذا العَدَم
العَدَمُ هو المذهَبُ والدّينُ لِلْعاشِقين
ـ ولَيسَ لِأَحَدٍ، ما لَمْ يَفْنَ،
طريقٌ إلى حَضْرة الكِبْرِياء
(المثْنَوي: ٦/٢٣٥، ٢٣٤)

عَلاءُ الدّين عَدُوٌّ شَمْسٍ

سَعَى المُعانِدُونَ والمُخالِفُونَ لِشَمْسٍ، يَدًا بيَدٍ، إلى إنزالِ هذا الرّجُلِ الشّجاعِ المِقْدام في ميدان العِرْفان مِن عَلْيائه، بكُلّ ثَمَن. وكان شَمْسٌ يقاوِمُ بِجُرأةٍ وجَسارةٍ كُلَّ أصنافِ الظُّلْمِ والتُّهَم والنّمائم التي يقومونَ بها، ويتحدّثُ بِحَماسةٍ وحَرارةٍ، ولا يسْكُتُ لِلَحْظةٍ. كان الأعداءُ جادّينَ في تَشْديد ضَرَبات الاتّهامِ بخِسّةٍ. قالوا لِشَمْسٍ: مِن الأفضَلِ أن تسْكُتَ، إنّ رُوحَكَ في قُونِيةَ في خَطَر. لا يُريدُ النّاسُ أن يَرَوْكَ مَرّةً أُخرى، فقد أبعدتَّ مَوْلانا عنهم.

أَهْلُ قُونِيةَ المُمْتَعِضُونَ المعترِضُونَ يرغبون في أن يُطاحَ بِشَمْسٍ، وأن يَغيبَ عنِ الأنظار؛ لِكَي يستطيعوا بِحُريّةٍ أن يشاهِدُوا مُحَيَّا جَلالِ الدّين مَوْلانا المبهِجَ بينَهم، عن كَثَب.

أمّا شَمْسٌ فكان يقولُ: أُريدُ أن أُغيِّرَ كُلَّ إحساسٍ وإدراكٍ ورؤيةٍ لَدَى أَهْلِ قُونِيةَ. وأَنا أُعوِّلُ عَلَى مَوْلانا، فمَوْلانا هو الذي يعطيني القوّةَ. ومعَ كُلّ صُوَر الظُّلْمِ التي يُجيزُها المخالِفُونَ لي، لَدَيَّ في قَلْبي أنغامٌ مِن أَجْلِ الطّريقِ الذي اخترتُه، عَلَيَّ أن أَعزِفَها تدريجيًّا. وسيَحْدُثُ مَوْتي عندَما تتحقّقُ فِكَري الملكوتيّة. والأَحْكامُ المتعجّلةُ لِلنّاس ستُنْسى سريعًا. وعِزّةُ النّفْسِ والتحمّلُ عندي، وعندَ مَوْلانا، لَنْ تَجْرحَهُما تُهَمُ

المخالفينَ البتّةَ. والطّريقُ الذي اخترْناه مِن أَجْلِ معْرِفةِ النّفْس ومعْرِفة الرّبّ [٣١٣] استمَدَّ مِن قَلْبَيْنا القوّةَ والفِكْر. وهذا الدّوِيُّ السَّماويّ، الذي هو عِشْقُ الله تعالى، لَنْ يُنْسَى في قُرونِ المستَقْبَل وأَعْصارِه أيضًا.

ونَحْنُ نُريدُ للنّاس أن يُصْبِحوا أَخْلاصَ[1] مُخْتَلَى التّوحيد، أَخْلاصًا لِأَنفُسِهم، لِلنّاسِ، وفي المكانِ الذي يوجَدُون فيه يكونونَ مُحِبّينَ بِإخلاصٍ، ويعشقون. نَحْنُ نقولُ: اعشَقُوا؛ لِكَي تَسيروا في رَكْبِ المَجَرّات والكائنات. نَحْنُ نقولُ: اعْرِفوا أنفُسَكم جَيّدًا؛ لِكَي تَسمَعُوا نِداءَ الحقّ المُزيِّنِ لِلْقُلوب بالآذان والعُقُول. أنا ومَوْلانا سنكونُ دائمًا عازِفي أنغامِ العِشْقِ، وشُعَراءَ مديحه. الدَّوِيُّ المحبَّبُ لِصَوتِ مَوْلانا، وأَشْعارُه وكلامُه، سَتُدخِلُ أناسَ الدّنيا جَميعًا، وذرّاتِ الفَضاءِ حتّى الموجودةَ منها في أَطْرافِه، في حالٍ مِن الوَجْدِ والاشتياق.

قالوا لِشَمْسٍ: أنتَ مُبتَدِعٌ، وتَبَعًا لِذلكَ يجِبُ أن تغادرَ قُونِيةَ، وإلّا فستُقتَل. فكانَ شَمْسٌ يقولُ: أنا أَرَى حَياتي، الموجودةَ الآنَ وراءَ هالةٍ مِن الظُّلْمة، كُلَّها، أَراها جيّدًا. وهذا آخِرُ مَلْجَأ لي، فقُونِيةُ هي المكانُ الذي لابدّ لي مِن أن أقولَ الحقائقَ فيه؛ وبعْدَ ذلكَ سَأمضي إلى مكانٍ أغيبُ فيه عن الأنظار، ولا يعودُ لي من أثَر. لَسْتُ مُبتَدِعًا. أُريدُ أن أربّيَ شخصًا مؤمِنًا معتقِدًا عارِفًا مُخلِصًا، يكونُ شَمَعًا وقِبْلةً لِلْجَمْع، أكشِفُ له الحقائقَ، فلا يكونُ مِثْلَ إبراهيمَ - الذي هو مِن أَصْدقائي الدّمشقيّينَ - حائرًا في مُفتَرَقِ طُرُق الحياة. وكان إبراهيمُ هذا، بعْدَ قراءته أَشْعارَ الخَيّام، قالَ لي مَرّاتٍ: إنّ الخيّامَ مشتّتُ الذّهْنِ ومتحيِّر... فأجبتُه: نَعَمْ، هو كذلكَ في أَشْعارِه، خاصّةً حَيْثُ أنشَدَ:

---

١ ـ جَمْعُ خِلْص، وهو الفائقُ في الإخلاص [المترجم].

يـــا مَـــنِ الفَلَـــكُ خَـــرِبٌ مِـــنْ حِقْـــدِكَ

الظُّلْـــمُ والجَـــوْرُ أُسْـــلوبٌ قَـــديمٌ لَـــكَ

إنّه يصِفُ حالَه هو، فقد كان حائرًا قَلِقًا. والخُلاصةُ أنّه يتّهمُ الفَلَكَ، يتّهِمُ زَمانَه، حَظَّه. يقولُ أمثالَ هذه الكلماتِ في الظُّلْمة. أمّا أنا فأحْسَبُ أنّ المؤمِنَ لا يكونُ حائِرًا. المؤمِنُ هو الذي أَلْقَتِ الحَضْرةُ أمامَه النّقابَ، ورفعَتِ الحِجابَ، وهو يَرَى مقصودَه، ويتعبَّدُ عِيانًا في عِيانٍ. المؤمِنُ، المعتقِدُ، العارِفُ نفسَه، لا تُعشّشُ الحَيْرةُ والاضطِرابُ والقَلَقُ في وجوده كالسُّوس، ويرى أنّ السّيِّئاتِ كُلَّها مِن ذاتِ نفسِه، والحسَناتِ مِن البارئ تعالى. نُريدُ أن نُربّي مؤمِنًا معتقِدًا يرفعُ النّقابَ مِن أمامِ عينَيه. وكُلُّ فَسادٍ [٣١٤] وقَعَ في العالَمِ مصدَرُه أنّ الأشخاصَ لم يُريدوا أن يخالفوا النّفسَ الأَمّارة. وعَقيدتُنا هي أنّه يجِبُ إهمالُها دائمًا وقَمْعُها؛ لِكَي تَدْعو إلهةُ العِشْقِ الإنسانَ إليها، وإذْ ذاكَ سَيَرى الإنسانُ شَمْسًا جديدةً تَسْطَعُ عَلَى دقائقِ حَياتِه ولَحَظاتِها.

أوجَدَ الخلّاقُ سُبحانَه العِشْقَ مِن أَجْلِ معرفةِ الإنسان، وأنا ومَوْلانا بفَضْلِ العِشْق اقترَبْنا مِن خَالِق الكائنات، وعرَفْنا هذا الخالقَ. والعاشِقُونَ جميعًا يَرَوْنَ كُلَّ شَيءٍ عَلَى حقيقته؛ لِأَنّهم ينظُرونَ بِنُور الله. ونَحْنُ مُسْلِمانِ، ونقولُ إنّ طاعةَ الإنسانِ هَوَى نفْسِه كُفْرٌ. يكتُبُ مؤلِّفُ كتابِ **«مناقب العارفين»** قائلًا:

في تِلْكَ الأوقاتِ، حدَثَتْ في قُونِيةَ ضَجّةٌ عظيمةٌ، إذْ تَساءلَ النّاسُ:

- عَجَبًا، أَشَمْسُ الدّين وَلِيٌّ أم لا؟ كانَ كُلُّ واحِدٍ يقولُ شيئًا، ويؤمِّلُ مُحادَثتَه لَعلّه يفْهَمُه. أمّا هو فكان يَفِرُّ مِن المجامِعِ والمحافِلِ والنّاس. وعندَما كان يوجَدُ في المجامِعِ كان عدَدٌ مِن المخالِفينَ يقاطِعُونَه، ويتحدّثونَ في أثناء كَلامِه. وفي أحَدِ الأيّام، قال مَوْلانا شَمْسُ الدّين بانزِعاجٍ:

ـ مَنْ يُدْخِلُ كلامًا في أَثْناءِ كَلامي تكونُ عاقِبتُه عاقِبةَ شَرَف لَهاوري، الغَرَقُ في ماءٍ أَسْودَ آسِنٍ. فقد رَأَى في المنامِ أنّه يَغوصُ في ماءٍ أَسْوَدَ مُنْتِنٍ ويحرِّكُ إصْبَعَينِ مستغيثًا: أَنْ يا مَوْلانا شَمْسُ الدّين ساعِدْني. لم يَعِظْه هذا، فبدَأ يجيءُ إلَيَّ مِن جديد، ويشْرَحُ الفَرْقَ بينَ مُعجِزاتِ الأنبياء وكَرامات الأَوْلياء... وفي النّتيجة: ما أنا وحَدِيثَ الأَوْلياء؟ ـ ماذا يُهِمُّكَ أن أَكونَ وَلِيًّا أو غيرَ وَليّ؟ اسمَعْ كلامي[1].

كتَبَ سِپَهْسالارُ في كتابه «الرّسالة»:

«كُلّما وجَدَ مُخالِفُو شَمْسِ الدّين فُرصةً انهَمَكوا بالاستخفاف به، وقاموا بحَرَكاتٍ تبعثُ على الإزعاج. وعندَما تجاوزَ الأمرُ الحُدُودَ، قدّمَ شَمْسُ الدّين عَلَى سَبيل الحكايةِ وَصْفًا سَريعًا لِسُلْطان وَلَد، ابنِ مَوْلانا، على هذا النّحْو:

ـ هذه المرّةَ، يُستفادُ من حَرَكاتِ هذا الجَمْعِ أنّ لَدَيهم قَصْدًا إلى قَتْلي، وسَأغيبُ على نَحْوٍ لا يجدُ فيه أَحَدٌ أثرًا لي.

أَخَذَ مُخالِفُو شَمْسٍ، بِحِمايةٍ صريحةٍ مِن عَلاء الدّين محمّد، الابنِ الأَصْغَرِ لمَوْلانا، يُطْلِقُونَ [٣١٥] في الأَحْياءِ والحاراتِ في قُونِيةَ أقوالًا قاسيةً ضِدّ شَمْس، ويُشيعونَ بينَ النّاس أنّه لا دِينيٌّ وغيرُ مُسْلِم. وكانوا يقولونَ: إذا شاءَ أَهْلُ قُونِيةَ النّجاةَ مِن عَارِ سَماعِ شَمْسٍ ووَجْدِه، إذا شاؤوا تَقْويضَ أركانِ السَّماع، وإعادةَ مَوْلانا جَلال الدّين مِن جَديدٍ إلى التّدْريس، فلابُدّ مِن أن يُقَطَّعَ شَمْسٌ قِطْعةً قِطْعةً، أو يُحْرَقَ في جَحِيم نار.

وابتغاءَ أن يُفهِمَ مَوْلانا المخالِفينَ والسُّذّجَ أَنّ شَمْسًا رَجُلٌ مؤمِنٌ ومُحِبٌّ لله، كان يقدِّمُه في كُلّ مكانٍ ويعرِّفُه لِلآخَرينَ بأنّه مُعِزُّ الدّين، وسِرُّ الله، ويُنْشِدُ:

---

١ ـ مقالات شَمْس تَبْريز، ص ١٢٠.

شَـــيْخِي ومُـــرادي، دَائـــي ودَوائـــي

أَعلَنْتُ هـذه الكلمـةَ: أنـتَ شَمْـسي ومَعْـشوقي

أَمـوتُ مِـنْ عِـشْقِكَ؛ لِأَنّـكَ مَلِـكُ العـالَمَيْنِ

وما دُمـتَ تنظرُ إلَـيَّ، أنـتَ شَمْـسي ومَعْـشوقي

أَنْمَحـي أمامَـكَ، حتّـى لا يبقَـى مِنّـي أثَـر

وهذا هـو شَـرْطُ الأدَب، يـا شَمْـسي ومَعْـشوقي

أنتَ كَعْبتي، أنتَ مَعْبَدي، أنتَ ناري، أنتَ جَنّتي

أنـتَ مُـؤنِسُ زَمـاني، أنـتَ شَمْـسي ومَعْـشوقي

ومِـنْ أَيـنَ لِجبريـلَ الـشّهير القُـدْرةُ علـى أَنْ

يـدلّني علَيـكَ، يـا شَمْـسي ومَعْـشوقي

وأيـنَ حـاتِمٌ الطّـائيّ، لِكَـي يقبِّـلَ الرِّكـابَ

عنـدَ سَـخائك وبَـذْلِكَ، يـا شَمْـسي ومَعْـشوقي

فإن لم يكُنْ هذا الكلامُ الموزونُ، على الحقيقة، نِتاجَ إلهامِ القُدْرةِ السِّحْريّة لِلْعِشْق، فماذا يكونُ؟

وهذه الأشعارُ، كما يقولُ الأستاذُ فُرُوزانْفَر، تنفِرُ منها قُلوبُ أَهْلِ الظّاهر، وتَعافُها أَذْواقُ العَوامِّ السَّطْحيّينَ، والأكثرُ أن تكونَ سببًا للإنكار.

وفي النّهاية، حانَتْ تلكَ السّاعةُ المشؤومة، ولم يبقَ إلّا لَحَظاتٌ لِكي يكونَ عَلَى شَمْسٍ أن يترُكَ قُونِيَةَ ببطولةٍ وشجاعة، وبَدأ ناقوسُ الفِراق يَدُقّ. نزَلَتْ شُعْلةٌ مِن السّماء، ويجبُ أن يحترقَ كلُّ شيء. كان لِزامًا أن لا يَصِلَ صوتُ شَمْسٍ الحبيب إلى

آذانِ النّاس لِبَعْض الوقت. يَدُ المُعانِدينَ الثّقيلةُ قرّرَتْ أن تَدُقّ حَنْجَرةَ شَمْسٍ؛ لِكَي تُسْكتَ وتُخنقَ إلى الأبد. ولَعلّ وظيفةَ آخَرينَ أن يُمْسِكوا بمِشْعَلِ «مَعْرفةِ الذّات» بأيديهم، ويُنيروا المجتمَعَ المُظْلِم. كانَتْ شَراراتٌ تُضيءُ سَماءَ قُونِيَةَ المُظْلِمة.

كأنّ عاصِفةً مِن الجَذْبِ والهيَجانِ والحَماسةِ بدأَتْ بغتةً تتحرّكُ، وتَلُفُّ الفِكْرَ والفَنَّ وكُلَّ أنواعِ النّتاج العقليّ معًا، وتَحْمِلُها معَها إلى آفاقٍ بعيدة. وفي تِلْكَ اللّيلةِ المُظْلِمةِ المخيفةِ الموحِشة، كان شَمْسٌ، كما هي الحالُ في كُلّ لَيلةٍ، جالسًا بِقُربِ مَوْلانا ويقولُ له:

ـ في ضَميري بِشارةٌ، أَعْجَبُ مِن الذينَ، مِن دُونِ أن يَسْمَعوا هذه البِشارةَ، [٣١٦] يكونُونَ مَسْرورينَ. فلَيتَهم يأخُذُونَ مِنّا ما هو موجودٌ في قُلُوبنا، وعندَئذٍ يُسَرُّونَ، لَيتَهم يأخذُونَ ما نملِكُه كُلَّه، ويُعطُونَنا ما هو لنا، عَلَى وَجْه الحقيقة[1]. أكونُ مُتواضِعًا جدًّا حَتّى أمامَ المُرائينَ والمُخالِفينَ لي في قُونِيةَ. وعَلَى مَوْلانا أن يعْلَمَ أنّني في الكُرةِ الأرضيّةِ كُلّها عندي حَبيبٌ واحِدٌ، هو أيضًا مَوْلانا. وإنّني، بِعَوْنِ مَوْلانا، قادرٌ بالكلامِ والمنطقِ على قَهْرِ كُلّ الأَعْداء وهزيمتهم. وأُحِسُّ الآنَ أنّه حانَ وَقْتُ الذّهاب، فعَلَيَّ أن أتركَ قُونِيَةَ، ولكن كَيفَ أَتركُ مَوْلانا؟ ما أَطلُبُه أن يذكُرَ الأعداءُ بألسنتهم ماذا أفعلُ أنا حتّى يطلُبَ منّي عَلاءُ الدّين ـ ابنُ مُرادي ـ أن أخرُجَ مِن هذه المدينة بما أمكنَ مِن السُّرعة. وعَلَى مَوْلانا أن يعْلَمَ أنّ السَّماءَ نفسَها، هي مِن دُونه سِجْنٌ مُظْلِمٌ عندي، ولا مَعْنى لها.

كان شَمْسٌ ببيانه، يريدُ أن يتحدّثَ عن أَلَمِ الفِراق بأكبرِ قَدْرٍ مِن التأثير، ويوضِحَ عِشْقَه المُكَوَّنَ مِن جَذَباتٍ روحانيّة وعِرْفانيّة، ويَجيشُ عَلَى نَحْوٍ لا يُقاوَمُ في قلبه وروحه. كان يريدُ أن يعْرِفَ جيّدًا: هَلْ هو جَديرٌ بالإقامة في قُونِيةَ في منزلِ مُراده، أو

---

١ ـ مقالات شَمْس، ص ٢٣٦.

أنّ دفترَ الأيّام تنافرَتْ صَفَحاتُه، وتَوارَى صَفاءُ الباطِن تحْتَ سُحُبِ الخوف والتّحفّظ السُّود.

ويعتقِدُ المؤلِّفُ أنّ مَوْلانا أنشَدَ الأبياتَ الآتيةَ مِن وَحْي الأُمورِ التي حدَثَتْ في تِلْكَ اللّيلة بينَه وبينَ شَمْسٍ:

لَستُ أنا الّذي أتحدّثُ حَديثَ نِعْمتِه

لِأنّني ثَمِلٌ وفاقِدٌ الوَعْيَ مِن تذوّقِ طَعْمِ محْنتِه

وإِنْ أنا نُحْتُ منه كالرَّبابِ، فلَيْسَ ذلكَ شِكايةً

فإنّني كالرَّبابِ، في حِضْنِ رَحْمتِه

وإذا غَيّرْتُ اللَّحْنَ فَلَيْسَ ذلِكَ مِنّي

لِأنّ كُلَّ عِرْقٍ مِن عروقي مرتبطٌ بِعَزْفِهِ وضَرْبتِه[1]

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٢٢٤٩.

ـ يا قِبْلَةَ الفِكَرِ، يا أَسَدَ الله في الغابات
يا مُرشِدًا في أَودية التّيه، إنّكَ تدخلُ الرّوحَ كالعَقْل،
فلَعلّكَ تكونُ رُوحًا مئةً بالمئة، أو لَعلّكَ خَضِرُ الزّمان،
أو لَعلّكَ ماءُ الحياة، فإنّك تمضي مُتَوارِيًا عن الخَلْق
مَوْلانا

آخِرُ لِقاء

تُعَدُّ أخرى لَيالي اللّقاء بينَ مَوْلانا وشَمْسٍ، وأُخْرى لحظاتِه في مَحْضَرِ مَوْلانا، أكثرَ الدّقائقِ واللّحَظاتِ غَمًّا في حَياةِ شَمْس. وفي تلكَ اللّحَظات، كان يجِبُ أن تغدُوَ لَذّةُ الكلامِ والمُجالَسةِ والمؤانَسةِ، التي هي لَوازِمُ عِشْقٍ مُسْكِرٍ، ضَحيّةً في مَعْبَدِ إلهةِ العِرْفان؛ لِكَي يرتاحَ المخالِفُونَ المنحطُّونَ في قُونِيةَ مؤقّتًا. مَأجُورونَ حاقِدُون أشدّاءُ جَبّارونَ، في ظُلْمةِ اللّيلِ، تَسلّلوا إلى مَحَلّ إقامة مَوْلانا وشَمْس. كان هؤلاءِ يريدونَ أن ينفِّذوا خُطّتَهم الشّيطانيّةَ في تلكَ اللّيلة المصيريّة، بِكُلّ ثَمَنٍ ممكن. وقد غَطّى الوَجْهَ الجهنّميَّ لهؤلاء، نِقابُ الأنانيّةِ وحُبِّ الجاه والعصبيّة النّاريُّ. وفي النّهاية، أَمَرَ ذَوُو الصّفاتِ الشّيطانيّةِ أن يصْمُتَ صوتُ العِشْق المُشَوِّقُ، ويُقتلَ شَمْسٌ. صارَتْ هذه الجماعةُ التي تخبِطُ خَبْطَ عَشْواءَ مُطيعةً للرّسومِ والأَعْرافِ والعادات الشائعة في الزّمان والمكان. ولهذا السّبب، رأت أَنْ تُسَدِّدَ ضَرْبةً مُنكَرةً لِجَسدِه، وتقطِّعَ القَدَّ المِقْدامَ للشَّيخِ التَّبْريزيّ إرْبًا إرْبًا.

كانَ شَمْسٌ، مِن دُونِ مُبالاةٍ، وبِخُلوصِ نيّةٍ، يواصِلُ بِكلماتِه مُخاطَبةَ حَبيبه:

ـ يَعْلَمُ مَوْلانا أنّ الحقيقةَ خالدةٌ باقية، وأنا منذُ زَمَنٍ بعيدٍ أدرَكْتُ الحقيقةَ جيّدًا وبِكُلّيّة وجودي، ثمّ جعَلْتُكم تَلْمِسُونَها، على خَفائها، وكُنتُ أَظنّكم ممّن يُحبّونَها ويشتاقونَ إليها. ولهذا السّبب، أمسَكْتُ بِيدِكَ لنذهبَ [٣١٨] إليها معًا، وفي النّهاية

نَتَحسّسُ ذاتَها في كُلّ ذَرّات الكائنات. تَذَكّرِ اللّحَظاتِ التي قَدِمْتَ فيها مُرتجفًا خائفًا إلى عالَمِ العِرْفان العِشْقيّ. وقدِ استَدْعَى جَمالُ تلكَ اللّحَظاتِ العظيمةِ، وجاذبيّتُها، أنّكَ كُنتَ ترتَجِفُ مِن فَرْط الذَّوْقِ والوَجْد والشّوق؛ أمّا اليومَ فإنّكَ، كالطّودِ الرّاسِخ، تُواجِهُ الحادِثات. أُريدُ، في المستَقْبَل، ألّا يحطّمَ أَلَمُ الغَمّ والفِراقِ قلبَكَ ووجودَك، وإرادتَك خاصّةً؛ ذلكَ بِأنّني أُؤنِسُ أنّ لَحَظاتِ الفِراق والهِجْرانِ المؤلمةَ قد أَنَتْ، ففَكِّرْ بالعِشْق، واضبِطْ أعصابَك وإحساساتِك. إنّكَ تَعْلَمُ أن البُعْدَ ومُرورَ الزّمان مُنهِكانِ لِلْعاشِق والمعشوق، ويتركانِ أثرًا في أعماق الرّوحِ والقَلْب. علَيكَ أن تسلِّمَ بأنّ العِشْقَ يعني الهِجْرانَ، يعني البُعْدَ والنّأي. والأَصْلُ أنّ طَعْمَ العِشْقِ حُزْنٌ وأَلَمٌ وهِجْران.

يعلَمُ مَوْلانا أنّه مادامَ شَمْسٌ موجودًا هناك عِشْقٌ، وما دامَ العشقُ موجودًا فإنّ مَوْلانا أَمامَ باصِرَتَيَّ يتلألأُ مِثْلَ كَوْكبِ الزُّهَرة. سيظلُّ نَبْضُ قَلْبي عَلَى الدّوامِ يتردّدُ نَغَمًا محُبَّبًا في فَضاءِ وجودي؛ وذلكُمْ أيضًا صَدَى الاسْمِ الشّريف لِجَلال الدّين، مَوْلانا. ومعَ أنّني، في الظّاهر، لَنْ أراكُمْ مرّةً أخرى، سَيكونُ رُوحِي وقَلْبي، فوقَ شَريطِ الزّمان المرتجِفِ، في اختيارِكم. كُلّما شِئْتَ، في آناءَ اللّيلِ وأطرافِ النّهار، سأكونُ أمامَكَ، سأقِفُ عِيانًا ومُشاهدةً. يقينًا ستَسْمَعُ صَوتيَ المتألِّمَ المتهدّجَ إذ أقولُ مُلْتَمِسًا:

ـ يا مَوْلانا، أَسْعِفِ العاشقينَ، تذكّرْني.

يعْلَمُ مَوْلانا أنّني كُنتُ أَعيشُ في قُونِيَةَ معظَمَ اللّيالي والأيّامِ في وَحْدَةٍ وخَلْوةٍ معَ مَوْلانا، وكُنتُ أنشُدُ، في هذه الخَلْوةِ الصّوفيّةِ الشّبيهةِ ببيتِ نارِ العِشْق، أن أسلِّمَكَ ميراثَ العِرفانِ الإيرانيّ وكأنّه الكنزُ القيِّمُ؛ ابتغاءَ أن تُهْديَه بِوَساطةِ أشعارِك العِرفانيّة المؤثِّرة إلى قُلُوب أُناسِ المستقبل. عَلَى أَهْلِ الدّنيا أن يعلَمُوا أنّ العَصْرَ عَصْرُ معرفةٍ، والزّمانَ زَمانُ عِلْمِ الإنسانِ، أو معرفةِ الإنسانِ نفسَهُ. وإذا لم يعْرِفِ الإنسانُ نفسَه فَلَنْ

يعْرِفَ الله تعالى. أَهْلُ الأعصُرِ الآتيةِ سيُدرِكُونَ، مِن طَريق مَوْلانا، أنّ شَمْسًا رِنْدٌ(*)، وقد كانَ مِن الرُّنودِ المُحْرِقينَ لِلْعالَم، ويجِبُ أن أُقيَّمَ بِمعاييرِ العِشْقِ وقِيَمِ العِشْق، لا بِمعاييرِ العَقْل وقِيَمه.

على مَوْلانا أن يعْلَمَ أنّ الشّيخَ أَوْحَدَ الدّين الكَرْمانيّ أخذَني معَه في بغدادَ إلى السَّماعِ، وأكرمَ وِفادتي، ثمّ اصْطَحبَني إلى خَلْوته، وفي يومٍ قالَ لي:

ـ ما الرّأيُ في أن تكونَ معَنا؟

ـ قُلْتُ: [٣١٩] شَريطةَ أن تَجْلِسَ هكذا جِهارًا، ومِن دُونِ رِياءٍ وتَظاهُر، أَمامَ المريدينَ تَشْرَبُ الخَمْرةَ، وأنا لا أَشْرَبُ.

ـ قال: ولماذا لا تشْرَبُ أنتَ؟

ـ قُلْتُ: لِكَي تكونَ أنتَ فاسِقًا حسَنَ الحظّ، وأكونَ أنا فاسِقًا سيّئَ الحظّ.

قال: لا أَقْدِرُ.

قُلْتُ بعْدَ ذلكَ كلمةً، فانزعَجَ، ووَضَعَ يدَه على جَبْهته ثلاثَ مَرّات. ثمّ بعْدَ ذلكَ اليوم، قالَ أَوْحَدُ الدّين لِأَصْحابه: شَمْسٌ أُعجوبةُ الزّمان.

يعلَمُ مَوْلانا جيّدًا بأنّ جَماعةً في قُونِيةَ، منهم عَلاءُ الدّين ابنُكَ، قالوا: إنّ شَمْسًا مجنونٌ ومخبَّلٌ وجاهِل. ومعَ كُلّ ما أنا عَلَيه مِن جُنونٍ، هَزَمْتُ كثيرًا مِن العاقلين. ومعَ جَهْلي وَضَعْتُ العالِمينَ تحتَ إِبْطي. كان في قَلْبي بِشارةٌ، كأنّني كُنْتُ أطيرُ، لَسْتُ فوقَ الأرض، حتّى وصَلْتُ إليكُمْ وذكَرْتُ لَكُمُ البِشارةَ؛ والآنَ سأطيرُ مُسْرِعًا في آفاقٍ بعيدة.

يعلَمُ مَوْلانا أنّني سَهْلٌ مِثْلُ رَاحة الكَفّ؛ إذا عرَفَ إنسانٌ طَبْعي استراحَ ظاهرًا

* ـ تعني الرِّنْدُ الذكيَّ المحتالَ المتجاوزَ لِمُتعارَفِ النّاس في مجتمعِه، المجاهِرَ بآرائه. وفي التّصوّف: مَنْ ظاهِرُه في المَلامة وباطنُه في السّلامة، ومَنْ لا يتقيّدُ إلّا بأحكامِ الحقّ، سُبحانَه [المترجم].

وباطنًا. لكنّني آسَفُ لِأَنّ المُرائينَ في قُونِيةَ لم يستطيعوا أن يفهموني. لِمَوْلانا جَمالٌ أخّاذٌ. ولي جَمالٌ، ولي قُبحٌ أيضًا. وكان مَوْلانا قد رَأى جَمالي. وفي هذه المَرّةِ لا أُجامِلُ، وأفعَلُ القبيحَ؛ ابتغاءَ أن يَرَى الجميعُ جَمالي وقُبْحي.

كان مَوْلانا هادئًا وصامِتًا، هُدوءًا يُشْبِهُ الهدوءَ الذي يَسْبِقُ طُوفانَ البَحْر، كانَ خافضًا رَأْسَه، ويسْمَعُ كلامَ محبوبه بعِنايةٍ.

واصَلَ شَمْسٌ القولَ:

ـ أنا حَزينٌ مِن أنّ النّاسَ (أَهْلَ قُونِيةَ) الذي يُعادُونَني يَحْسَبون أنّهم يُسيئون إلَيَّ. لَيْسَ الأمرُ كذلكَ، هذا غَلَطٌ، إنّهم يُحْسِنونَ إلَيَّ ويَزيدونَ محبّتي لهم. وهذا سِرُّ أنّني لم أُرِدْ حَتّى هذه اللّحظة، معَ كُلّ هذه التُّهَم والشّماتات والإيذاءات، أن أترُكَ ثَرَى قُونِيةَ الخِصْبَ الشّبيهَ بالعنبر.

عَلَى مَوْلانا أن يَعْلَمَ أنّ قُدْرَةَ شَمْسٍ، معَ تَرْكِ تُرابِ قُونِيةَ، لا تُنتقَصُ، وسيزدادُ التعلُّقُ بِمَوْلانا يومًا بعْدَ يوم، مِثْلَما يغدُو هَيَجانُ جلالِ الدّين وضَجيجُ رُوحِه الذي لا يُسَكَّنُ غازِيًا لِأَقطار العالَم.

يَعْلَمُ مَوْلانا أنّني مُطّلعٌ جيّدًا على كُلّ عُلُوم الدّنيا الفعليّة، وصَاحِبُ نَظَر؛ ومِن بَينِ كُلّ العُلُومِ التي تُدَرَّسُ في دُور العِلْم، أنا أستاذٌ لِعِلْمٍ [٣٢٠] لا يُعلَّمُ في أيّ مكانٍ في الدّنيا. أنا أستاذُ العِشْقِ وعاشِقٌ مُمارِسٌ، وأَفتخِرُ بِمَعْرفة دقائقِه وجَماله. وعندَما عَشِقْتُ كُنتُ أَحْصُلُ عَلَى كُلّ شَيءٍ، عَلَى كُلّ المُرادات باشتياقٍ كثير. رَأيتُ الدّنيا في بَحْرٍ متلاطم. كان صوتٌ واضحٌ، بالقُدْرة السّحريّة للطّبيعة، يقولُ لي:

ـ هناكَ حياةٌ في قَلْبِ هذا البَحْر، سأَلْتُ عن اسْمِ البَحْر فقِيلَ: هو بَحْرُ العِشْق. والعارِفُ العاشِقُ يستطيعُ أن يجِدَ حُضورَه في مَمْلَكةِ العِشْق، ويُحِسَّ بِصَوْتِ تَسْبيح

الوجودِ في ذَرّات العالَم. وأُقسِمُ أنّني في المستَقْبلِ سَأختارُ زَاوِيةً في دِمَشْقَ، أو في بُقْعةٍ أخرى في العالَم، وأُغلِقُ فَمي وأَصْمُتُ، لا أقولُ شيئًا؛ لِأَنّ رسالتي، مَرّةً أخرى، قد وَصَلَتْ إلى النّهاية، ومَوْلانا هو الذي ينبغي أن يكونَ المُدافِعَ عن العِرْفان العِشْقيّ، والمُفَسِّرَ لمعرفةِ النّفس وعِلْمِ الإنسان، فوقَ وَجْهِ البسيطة. لا شيءَ بعْدَ الآنَ يَثْبُتُ في قَلْبي ويَضطرُّني إلى التأوّه؛ فبَعْدَ الآنَ، مَوْلانا هو الذي ينبغي أن يحتضِنَ النّايَ الحزينَ، ويحرِّكَ الأرواحَ والأَجْسادَ بِصَوْتِ النّاي المُحْرِق نَحْوَ الرَّقْص والدّوَران. يتحدّثُ عن الهِجْرانِ والبُعْد، ويبيِّنُ[1] أمواجَ جَذَباتِه الرّوحيّةِ مِن طَريقِ كتاب النّاي والرَّقْص.

عَلَى مَوْلانا أن يعْلَمَ أنّ هذه اللّيلةَ هي لَيلةُ الوَداع، هذه اللّيلةَ ينيرُ القمَرُ بِعِشْقٍ أكثَرَ، هذه اللّيلةَ كُلُّ بَراعِمِ بَساتينِ العِشْقِ الجميلةِ ستتفتّح، والبلابلُ فوقَ كُلّ أَشْجارِ رِياضِ الوَرْد ستُزَقْزِقُ، وستقولُ لِأُناسِ الغَدِ الآتي إنّ العِرْفانَ الإيرانيَّ سيبقى خالِدًا[*]، وستبقى أيضًا إيرانُ، التي هي قاعدةُ العِرْفانِ الكبيرة، ما أضاءَتِ الشّمْسُ في السّماء وتلألأَ القمَرُ والنّجومُ، كالحَجَرِ الأَصَمّ الرّاسِخ، مخلّدةً في الكائنات.

وإذا كُنتُ في هذه اللّيلةِ أتحدّثُ وَحْدي، فما ذلكَ إلّا لِأنّ لَدَيَّ هيَجانًا ونَشاطًا، مِن عِشْقِ مَوْلانا؛ فأنا مِنْ ذلكَ في حُمَّى وأَلَم. ومِثْلَ المتنبِّئينَ، أُقِرُّ بأنّ العِرْفانَ الإيرانيَّ بعْدَ ألفِ سنةٍ سَيَعُمّ كُلّ جِهاتِ الأَرْضِ، كأَنوارِ الشّمْسِ الذّهبيّة، ويُضيء ظُلُماتِ باطن الإنسان. وإنّ اسْمَي مَوْلانا وشَمْسٍ سيتخطّيانِ الأوديةَ والمدائنَ والحدودَ، ويقولانِ

١ـ " أَرْقصُ أَمامَه، كالذّرّة، كُلَّ سَحَرٍ وهذه عادةُ عُبّادِ الشَّمْس

* ـ هنا تركيزٌ كبيرٌ من المؤلِّف على «إيرانيّة» عِرْفان شَمْس. وذلك مفهومٌ حين نتذكّر القَصْدَ التّربويّ في تنشئة الأجيال على حبّ وطنهم وأمّتهم لكنّ الصّدْقَ يستدعي أنّ نذكِّرَ القارئَ العربيّ الكريم بأنّه ليس لدى شَمْس تَبْريز، ولا لدى جلال الدّين الرّوميّ، أيُّ نزوعٍ قوميّ،وهما اللذانِ نشأا في ظلّ الفضاء الإنسانيّ الكونيّ للقرآن الكريم والتصوّف [المترجم].

لِأَهْلِ الأَرْض: إنّ عَصْرَ عُشّاقِ المادّة سينتهي؛ لِأَنّ المادّيّةَ [٣٢١] وعِشْقَ المادّة لَيْسَ لهما أُسسٌ ودعائمُ في مجتَمَعِ أَصْحابِ النّظَر والعُلَماء ومُحِبِّي الله. عَلَى مَوْلانا أن يعْلَمَ أنّني، في قابِلِ الأيّامِ، أَلجِمُ اللّسانَ لِكَي أَسْمَعَ صَوْتَ القَلْب عَلَى نَحْوٍ أَفضلَ:

أُدِيرُ ظَهْري إلى الرُّوح ووَجْهي إلى القَلْب
وكُلُّ ما قالَه قَلْبي أنفِّذُه كما هُوَ

وعَلَى مَوْلانا أن يعْلَمَ أنّه لَيْسَ مِن دَأْبِي أن أدوِّنَ الأمورَ؛ لِأَنّني لا أكتبُ شيئًا. وبِناءً عَلَى هذا، سيبقَى مِن آثاري رسائلُ أو كتاباتٌ قليلةٌ. وفي عُهْدةِ مَوْلانا أن يحتفِظَ بآثارٍ مُدَوَّنةٍ له؛ وهذا أَمْرٌ مِنِّي لَكَ: عَلَيكَ، بِكَلامِكَ وبِأَشعارِكَ، أن تُحرِّرَ النّاسَ الذين يخافون الحياةَ وسُمُومَها... ويَدْري مَوْلانا جَلالُ الدّين يقينًا أنّني لا أَخْشى القَتْلَ؛ فأيُّ خَشْيةٍ لِلْبَطّ مِن الطّوفان. أُحِسُّ في داخلي باشتياقٍ عِشْقيّ إلى الرّجوعِ إلى بُسْتان الملَكوت، ومِن فَرْطِ المَحبّةِ أَعُدُّ الثّواني. أمّا وجودي إلى جانبكم فيُعطيني أَمَلًا وهيَجانًا، كأنّني حَتّى الآنَ يجِبُ أن أتمتّعَ بِمَضامينِ العِرْفانِ العِشْقيّ الواسعةِ التي لا ضِفافَ لها، وكالمِرْآة، كُنتُ مقتطِفًا لِلْخَيالِ مِن جَمالكَ، وأكونُ الآنَ، وسأكونُ في المستقبل.

كان المخالفونَ والخُصومُ اللّؤماءُ، الذين كانوا يتنقّلونَ في ظُلْمة اللّيل كاللّصوصِ متسلّحينَ بِخَناجِرَ حادّة وسامّة، يقتربون مِن منزِل مَوْلانا. كان أَحَدُهم يقولُ[1] بِصَوتٍ مرتفع: سَأَغْرِزُ رأسَ الخِنْجَرِ في قَلْب شَمْس. وأعلنَ آخَرُ بتفاخُرٍ:

١ـ يا مَنْ وَجْهُكَ كالوَرْد، وضَفيرتُكَ كالشّمْشاد، إنّ رُوحي، عندَما يكونُ مُغتمًّا مِن أجْلِكَ، يكونُ مَسْرورًا
النُّقودُ التي لَيْسَتْ نَقْدَ غَمِّكَ هي تُرابٌ وسِوى كَيْلِ ريحِ هَوَسِكَ رِيحٌ لا طائلَ مِن وَرائه
ولَدَى السَّماءِ والأَرْضِ خَبَرٌ، ولَدَيهما عِلْمٌ فإنَّ السّماءَ، كالأَرْضِ، منقادةٌ لأَمْرِك =

سأفصِلُ رأسَه عن بَدَنه بالسّكين ، وسأتفرّجُ بِسُرورٍ على رَقْصِ شَمْسٍ وهَيَجانه وهو يتخبّطُ في دَمِه، أي في أثناء خُروجِ رُوحِه، وسأدوسُ عَلَيه قَصْدًا إلى إماتته. وقالَ ثالثٌ:بِعَدَدِ الأيّامِ التي أقامَها شَمْسٌ في قُونِيةَ، سأغرِزُ رأسَ الخِنْجَر في جَسَدِه وفي عَينَيه وفي قَلْبه، ثمّ بعْدَ ذلكَ، ولِأَوّلِ مَرّةٍ في حياتي، سَأَشْربُ الخمْرَ، وأرقصُ فوقَ جَسَده. في هذه اللّيلة، سيتخلّصُ أهلُ قُونِيةَ مِن مُبْتدِعٍ جَثَمَ وجودُه، كالكابوسِ، فوقَ أَجْسادِ البُلَهاء.

= فاكشِفْ عن وَجْهِكَ، واكسِرْ خُمارَ العالَمَيْنِ
أَلَيْسَ هذا اليومُ ميعادًا لأَنواعِ خُمارِك؟
ومَعَ أنّ الشّمْسَ، في هذا الزّمانِ، فَريدةٌ ووَحيدةٌ
فإنّ الشّرقيّينَ الذين هي في صَفّهم آحادٌ
ويجعَلُ الأكاسرةُ تُرابَ حِذائكَ، واللهِ، تاجًا،
وكُلُّ مَنْ عَشِقَ شِيرينَكَ هو مِثْلُ فَرْهاد
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٤٢٢)

ـ وبَعْدَ هذا، نَبْحَثُ عن الحَبيب فوقَ السّماء
لأنّنا بحثنا عن الحَبيبِ في الأرض، فلَمْ نَجِد
ـ إنّ خاتَمَ مُلْكِ سُليمانَ جَديرٌ بالبَحْثِ والطّلَب
فهناكَ حَلَقٌ، وبَحَثْنا عن الفَصِّ، فلم نجِدْ
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٤٢٦)

هِجْرانٌ في الشَّيخوخة

المجموعةُ التي كانَتْ تقتربُ بغُرورٍ وتعاظُمٍ مِن مَحَلِّ إقامةِ مَوْلانا، مِن أَجْلِ قَتْلِ شَمْسٍ بسُرورٍ واغتباطٍ، كانوا ستّةَ أَشْخاصٍ، وكان قائدُها وَفْقًا لِإحْدَى الرّواياتِ عَلاءَ الدّين، ابنَ مَوْلانا الصّغير. كانَتْ هذه المجموعةُ تَنقلُ الخُطَا ثَمِلةً وحَريصةً ومُسْرعةً. وكان عَلاءُ الدّين يَحُكُّ أَسْنانَه بعضَها ببعض، وخاطَبَ مُشاركيه في التّفكير قائلًا: بلَغَ مِنْ جَسارةِ شَمْسٍ عَلَيَّ أنّني ما كُنتُ أَقْدِرُ على أن أذهبَ إلى منزِلِ والِدِي في الوَقْتِ الذي أشاءُ وبحُرّيّةٍ، وأتحدّثَ حَتّى معَ كيميا [زَوْجِ شَمْس] التي كَبِرْتُ وإيّاها معًا، ولَعِبْنا معًا. إنّ شَمْسًا بارعٌ في إثارةِ عَواطفِ الأفراد، وساحِرٌ، ومثيرٌ، ويحرِّكُ النّفوسَ. وعَجيبٌ أنّه مُسَلَّمٌ عندَ والدي أنّه مُبشِّرٌ بارتقاءِ الإنسانِ والقِيَم الإنسانيّة، في حِينِ أنّ كُبَراءَ قُونِيَةَ يعتقدون أنّه شَيطانٌ مُجَسَّمٌ. أخذَ الجُناةُ يقهقِهونَ، وقالَ أحَدُهم ضاحكًا: لا تقلَقْ يا عَلاء الدّين؛ فقد حانَتِ اللّحَظاتُ الأخيرةُ مِن حَياة شَمْس. كانَتْ عُصْبةُ الجُناةِ قد صارَتْ أُلْعوبةً لميولِ المرائين المتظاهِرِينَ. وها قد سُلّتِ الخناجِرُ مِن الأغماد. ستّةُ أَشْخاصٍ قَتَلةٍ في ظَلامِ اللّيل كانوا يُلَوّحونَ بِأَسْلحتهم في الفضاء، يَسارًا ويَمينًا وأمامَ بالدّوَران، كأنّهم كانوا في حالِ تَمرُّنٍ وتَدَرُّبٍ قبْلَ حَمْلةٍ منتظَرةٍ، وكانوا يُجَسّمونَ مَلامحَ شَمْسٍ أمامَ أعينهم. لَعلّهم ما كانوا يَدْرونَ أنّ الله تعالى إذا جاء بكائنٍ إلى عالَمِ الوجودِ فلَيْسَ ذلكَ مِن أَجْلِ أن يكونَ [٣٢٣]

غَرَضًا لِأَطماعٍ وأهواءٍ، مَبْعثُها حَسَدُ هذا وذاكَ، والانتقامُ العاجِلُ، والقِصاصُ الفَرْديّ اللّامَشْروعُ مِن دُون مُحاكمةٍ. أَحَدُ الأشخاصِ السّتّة سَمِعَ صوتَ ديكٍ في غَيرِ أوانِ صِياحه، فقالَ: عَجِّلوا فإنّ الصُّبْحَ الصّادِقَ قد اقترب.

في مَحَلِّ إقامةِ شَمْسٍ ومَوْلانا، أو في خَلْوَتهما، كان العارِفانِ اللّذان كانا كانونًا لِلْعِشْقِ والشّوقِ والهيَجان يُبيّنانِ أَحاسيسَهما الدّاخليّةَ في شأن أَسْرارِ الكائنات. وكان شَمْسٌ يُدْرِكُ جيّدًا أنّه سيُنفَى سَريعًا مِن منزِله السَّماويّ، وكان يقولُ وعَيناهُ مُخْضلّتانِ بالدّموع:

ـ يا مَوْلانا ، أعلَمُ أنّني أوّلُ نَجْمٍ سَطَعَ في سَماء قَلْبِكَ، وفي هذا الشّأنِ أيضًا أعلَمُ جيّدًا أنّ أنوارَ هذه المحبّة العِرْفانيّة لن تنطفئ في أُفقِ وجودِكَ. لكنْ علَيكَ أن تعْلَمَ أنّه يُرى فوقَ سَماءِ قَلْبي الآنَ ضَوءٌ ملائمٌ لِأَنجُم كثيرة. وهذه الأنوارُ هي الآثارُ العِرْفانيّةُ التي أخذَتْ بِيَدي في خِطّة تَبْريزَ الخِصْبة، وفي خُراسانَ الكُبرى وبغدادَ ودِمَشْقَ، وأَرشدَتْني.

كان جَلالُ الدّين البَلْخيّ يَحْدِسُ بأنّه مَعَ ذَهابِ شَمْسٍ مِن قُونِيَةَ لَنْ يَقِرَّ له قَرارٌ ولَنْ يهدأَ له بالٌ، وسيكونُ هِجْرانُه مُحْرِقًا إلى الأبد. ولهذا السّببِ، بَيّنَ هيَجاناتِهِ الرّوحيّةَ وفَيضاناتِهِ العاطفيّة، التي لا يُعْلِمُ بها كُلَّ أحَدٍ، لِمَحْبوبه ومُراده، على هذا النّحْو:

ـ لَسْتُ أَدْري لِماذا قَلْبي في هذه اللّيلة منقبضٌ، وأجِدُني في حاجةٍ إلى البكاء، ولَعلّه بكاءٌ مِن أَجْلِ الرّجُلِ الذي في المستَقْبَلِ سيكونُ في قُونِيَةَ وحيدًا وحيدًا، وسيواجِهُ جَبَلًا مِن المشكلات... أو بكاءٌ مِن أَجْلِ الاضطرابِ والتشرّدِ والبَحْثِ مِن جديدٍ عن زمانِ وَصْلِ المعشوق، الذي رُبّما لا يَحصُل. شَيْخي، مُرادي، شَمْسي، معشوقي، يعْلَمُ أهلُ قُونِيَةَ أنّني ثَمِلٌ مِن شَرابِ الشّوق الخالد لِوِصالِ المحبوب. وكُلُّ لَحْظةٍ تمرّ من عُمري أرى نفسي فيها أكثَرَ ارتباطًا بكَ وتعلّقًا. أنا مُريدُكَ، ولولا وجودُكَ لَما كان لِلْحياةِ عندي

أيّةُ جاذبيّة. والآنَ، إذ لابدَّ مِن أن تتركَني، أرى الطّبيعةَ حزينةً، وأرى نَفْسي مضطَرِبًا ومشتّتَ الذّهن. وقد ظَهَرَ عذابٌ مُقيمٌ في رُوحي وجِسْمي. ولَسْتُ أدري ما الحوادثُ التي سَتَجِدّ في المستقبل. ولا أعلَمُ، أساسًا، ماذا يريدُ شياطينُ قُونِيَةَ مِنّي ومِنكَ. لِماذا يَعْجِزونَ عن [٣٢٤] أن يَقْبَلوا المبشِّرَ بِدُنْيا الوِصال، والمفسِّرَ لِعالَمِ العِرْفان العِشْقيّ.

ألا لَيتَ أيّامَ عُمري تُؤذِنُ بِوَدَاعٍ؛ لِأنّني ما عُدتُّ أَحتمِلُ البتّةَ الفِراقَ والهِجْرانَ في الشّيخوخة. لَيتَني أمتلكُ القُدْرةَ على أن أمنعَكَ مِن الذّهاب، أو إذا ما سَمَحْتَ ووافقتَ أسافِرُ وَراءَ الشّمْسِ حَيثُما يمّمتَ مِثْلَ الظّلّ.

لا أُريدُ أن أكونَ شاهِدًا لِمَوتِ اللّذّات المعْنَويّة الرّوحيّة في العالَم، وعاجِزًا بعْدَ الآنَ عن الاستفادةِ مِن وجودكَ. لَسْتُ أدري: هَلْ سأراكَ مرّةً أُخرى في قابِلِ الأيّام!؟ ثمّ بعْدَ ذَهابِكَ، هَلْ ستتخطّى عَينايَ الأسبابَ كما كانتا سابقًا. لا أعلَمُ ما إذا كان سَيْرِيَ العُروجيُّ سيتوقّف. وإذا كان الإسكندَرُ ومُعظَمُ المشتاقينَ لِماءِ الحياة لم يَصِلوا إلى يَنبُوعه الزُّلال، فإنّني أَحمَدُ اللهَ لِأنّني وصَلْتُ إليه، وشَرِبتُ جُرعةً مِن خَمرة وادي الحقيقة المسْكِرة. ولهذا السّبب، سنبقَى أنا وأنتَ خالدَيْنِ في عَرْصةِ الحياة الثقافيّة والأدبيّة في إيران، وربّما في العالَم. وما بَقِيتِ الشّمْسُ تضيءُ، سَيظلُّ شَمْسٌ أيضًا ينثرُ النُّورَ في قلوبِ المشتاقين.

وقد بَدَأْتُ الحياةَ منذُ اليومِ الذي اشتمَمْتُ فيه عِطْرَ كلامِكَ، وفي تِلْكَ اللّحظاتِ أسلَمْتُ لكَ كُلّيّةَ وجودي ورُوحي وقَلْبي. وإنّ إدراكاتي الصّوفيّةَ، ومعانِيَكَ المملوءةَ بالالتذاذِ والهيَجان، وكلامَكَ الحارّ، يصْعُبُ فَهْمُها لِأنّ مَضايقَ القِيل والقال لا تتّسِعُ لها؛ فإنّها مِن مَقولات عالَمِ الحال:

ومـــاذا تَعْلَـــمُ عنّـــي إلّا القليـــلَ؟

ومـاذا تعْلَـمُ مِـن آلافِ أَسْـرارِ عِـشْقي غيـرَ واحِـد؟

وفي البَـدْءِ كـانَ إبلـيسُ أُسـتاذًا لـي

وبعْـدَ ذلـكَ صـار إبليسُ قِياسًـا إلَـيَّ مُجَـرَّدَ هَبـاء

وقـد جعَلَني [الحقُّ] حُـرًّا كـشَجَرِ الـسَّرْوِ والسَّوسَن

وجعَلَنـي سَـعيدًا كـأنّني الـسَّعْدُ والإقبـالُ

وكتَـبَ اسْـمي في كِتـابِ الأبـرارِ الأَطْهـار

وكُنـتُ مِـنْ أَهْـلِ الجَحـيم، فـوهَبَني الجنّـة

وكُنْـتُ أَسِـيرًا في قَعْـرِ البِئْـر

أُمـضي النّهـارَ واللّيـلَ في التّـأوّه والأنـين

وقـد تأوّهْـتُ، فـصارَتْ آهتـي كالحَبْـل

[٣٢٥] صـارَتْ حَـبْلًا معلَّقًـا في البِئـر مِـن أَجْلـي

فأمسَكْتُ بذلكَ الحَبْلِ، وخَرَجْتُ مِن [بِئر المعصية]

وصِرْتُ سَعيدًا، وضاحِكًا، وسَمينًا، ومتورِّدَ الوَجْه

وقَبْـلَ ذلـكَ كنـتُ في ضِـيقٍ ضَـعيفًا

والآنَ لا يَـسَعُني العـالَمُ كلُّـه

فمَرْحَبًـا يـا شَمْـسِيَ المفْـرِحَ لِقَلْبـي

يـا مَـنْ ضِـياؤكَ نـارٌ مُحْرِقـةٌ لِغَمّـي

لا تُـزِلْ ظِلَّـكَ عـن رَأْسـي

فَـلا قَـرارَ لـي، لا قَـرارَ لـي، لا قَـرارَ

وفي هذه اللّيلة، إذا أنتَ تركتَني فسيستقِرُّ في رُوحي وفي قَلْبي جُرْحٌ لا يندَمِلُ.

وقد جِئتَ لِتُزيلَ السُّحُبَ المظْلِمةَ مِن أُفق وجودي. كُنتُ دائمًا أُبشِّرُ نَفْسي بأنّكَ شَمْسُ الوجود التي لَنْ تغرُبَ مِن سَماء حياتي. والآنَ، أنا مضطرٌّ لِأَن ألجأَ إلى زاويةٍ، وبعيدًا عن النّاس أختارُ الصّمْتَ. أَجْلِسُ، وبِذَكرى الأيّامِ الحُلْوة التي كُنتُ فيها إلى جانِبِكَ أَسْكُبُ مِن عَينَيَّ دُموعَ الحَسْرة. فهَلْ يَنْوي شَمْسٌ أن يُسْلِمَني مرّةً أُخرى إلى قَبْضةِ الوَحْدة والغَمّ والغُصَص؟

عندَ هذه النّقطة، قطَعَ شَمْسٌ كلامَ مَوْلانا، وقالَ ـ وكان شَمْسٌ يتكلّم بِطَريقِ الرّمْزِ والكِناية، وكان هذا آخِرَ كَلامِ شَمْسٍ، لَعلّ عالَمًا لِلْمَعْنى تجلّى في تَضاعيفِ كلامه بِعَظَمةِ الطّبيعة وظَرافتها ـ:

ـ يا مَوْلانا، يُريدُ قَلْبي أن أَشْرحَ لَكَ، ولهذا السّبب أتحدّثُ بِطَريقِ الرَّمْز، وأُكمِلَ. والشّرْحُ نفسُه وَقاحةٌ أمامَكم، ولكنْ عندَما أَذِنْتُم بهذه الوقاحةِ، أَذِنتُم بها لأنَّ اليَنبوعَ واحِدٌ.

هذا الدّاعي [شَمْسٌ] لَيْسَ مقلِّدًا، وقد سَمِعَ مُحِبُّو حَضْرَتِكم كلامَ هذا الضّعيف. وقد رأيتُ كثيرًا مِن الدّراويش الأَعِزّاء، وظَفِرْتُ بِمُجالستهم، وعرَفْتُ الفَرْقَ بينَ الصّادِقِ والكاذِبِ، مِن جِهةِ القَوْلِ ومِن جِهة الحَرَكات. ولِكَي لا يكونَ قلْبُ هذا الضّعيف مُعْجَبًا جِدًّا ومُختارًا فإنّه لا ينزِلُ في كُلّ مكانٍ، وهذا الطّائرُ لا يلتقِطُ كُلَّ حَبّة[1].

وعَلَى مَوْلانا أن يجتهدَ لِكَي يحصُلَ في القَلْب استقرارٌ وثَبات. والإنسانُ التّقِيُّ هو الذي يكونَ مُنْكَسِرَ القَلْب، وقد كان السّابقونَ منكَسِري الأجساد.

[٣٢٦] إنّ معْرِفةَ جَماعةٍ مِن أَهْلِ قُونِيَةَ أَصْعبُ مِن معرِفة الحقّ، وقد اضطَرَّني هؤلاءِ إلى تَرْكِ الإقامة ههنا. وإذا آذَوني فإنّني لا أَغْدُو إلّا أَقْوى، وإلّا أعظمَ. وأنا قادرٌ

١ـ من مقالات شَمْس.

على إجابةِ كُلِّ مُدَّعِي قُونِيةَ تَفْصيلًا، وقد رَأى أولئكَ شَمْسًا في الظُّلْمة. ولو أنّ أهلَ الرُّبعِ المسْكُونِ جميعًا كانوا في وِجْهةٍ، وكُنتُ أنا وَحْدي في وِجْهةٍ، لقدّمْتُ إجابةً لِكُلّ مُشْكِلٍ لَدَيهم، مهما كانَ، ولَما فرزْتُ من القَوْل، ولَما غيّرْتُ الكلامَ، ولَما قفزْتُ مِن غُصنٍ إلى غُصن... كُلُّ ما يذكرُه أهلُ هذا الرّبعِ المسْكونِ مِن مُشْكِلاتٍ يجدونَ لَدَينا جَوابًا حاضرًا له، ولِكُلّ ما لدَيهم مِن مُشكلاتٍ جَوابٌ في جَواب، وقَيدٌ في قَيد، وشَرْحٌ في شَرْح. يتضمّنُ كلامي لِكُلّ سؤالٍ عَشْر إجاباتٍ لَيْسَتْ مَسْطورةً في أيّ كتابٍ بِذلكَ اللُّطْف، وذلكَ الطَّعْم. وقد قالَ لي مَوْلانا مَرّاتٍ كثيرةً: عندَما عرَفْتُكَ [يا شَمْسُ] صارَتْ هذه الكُتبُ عندي تافهةً[1]. إنّ مُحادثةَ جَماعةٍ مِن الجُهّال في قُونِيةَ مُضِرّةٌ جِدًّا. وفي اعتقادي أنّ التّحدُّثَ معَهم حَرامٌ، وفي الأساسِ أنّ مُحادثةَ الجُهّالِ أمرٌ غيرُ معقول. كُنتُ أريدُ شَخْصًا مِن جِنْسي، أَجْعلُه قِبْلةً وأتوجّهُ إليه، فقد مَلِلْتُ نَفْسي، ومهما فَهِم مَوْلانا مِن هذا الكلامِ الذي أقولُه، ذلكَ لِأنّني مَلِلْتُ نَفْسي. والآنَ، إذ جَعَلْتُ مَوْلانا قِبْلةً، أخَذَ يفهمُ ما أقولُه. يدْرِكُ حَتّى أصعبَ أقوالِ السّابقين وأعقدَها. فإنّني أُوضِحُ المُرادَ مِن ذلكَ، والمقصودَ منه، فيغدُو سَهْلًا كراحة اليَد. وفي هذه المدّة التي كُنتُ فيها معَه، صارَ كثيرٌ مِن الأَسْرارِ واضحًا عندَه. والآنَ، إذ حانَ الانصِرافُ، لا أجِدُ في نَفْسي راحةً، لا راحةَ السَّماعِ، ولا راحةَ الكلام، لا الحال ولا القال.

يَسْألونَني: لِماذا جئتَ إلى قُونِيةَ؟ كان مُوسى عَلَيه السّلامُ - معَ ما كان يتحلّى به مِن جَلالٍ كاملٍ - يبحَثُ عن الخَضِر مِن أَجْلِ الكمال:

تَعلَّـمْ مِـنْ كَلـيمِ الحـقّ، أَيُّهـا الكـريمُ
وانظُـرْ إلـى مـا يقولُـهُ الكَلِـيمُ مِـن الـشّوق

---

١ ـ مقالات شَمْس، ص ١٨٦.

فمَـعَ هـذا الجـاهِ والنُّبـوّةِ اللّـذَين لَـهُ [قـال:]

أَنا طالِبٌ لِلْخَضِر، بريءٌ مِن الغُـرورِ والعُجْـب(١)

وأنا أيضًا، مِن أَجْلِ كسْبِ استنارةٍ أكثرَ طَلَبتُ مَوْلانا. وعَلَى مَوْلانا أن يعلَمَ أنّه مِن بَينِ الأَفْرادِ المعدودينَ الذين استطاعوا أن يَحْمِلُوا الأمانةَ، ويَصِلُوا إلى القَصْد. [٣٢٧] تِلْكَ الأمانةُ التي قالَتِ السّماواتُ والأرضُ جِهارًا إنّ حَمْلَها لَيْسَ مِن شأننا. مَوْلانا هو مُرادي، وهذا هو الشيءُ الذي يَجِبُ أن يعْلَمَه الآتُونَ. ولو بَقِيتُ عندَكَ لكَشَفْتُ كثيرًا مِن الأسرار. أمّا آخِرُ وَصاياي لكَ فهي: أن تَبْحَثَ عن حَضْرة الحقّ لَيْسَ في السّماوات، ولا في الأرض، بَلْ في قَلْبِ المؤمن. وحتّى إن ذهَبْتَ إلى العَرْش فلا فائدةَ في ذلكَ؛ وحَتّى إن ذهَبْتَ إلى ما فوقَ العَرْش، أو نزَلْتَ تحتَ الأَرَضِينَ السَّبْع، فلا فائدة. يَجِبُ أن يكونَ بابُ القَلْبِ مفتوحًا. لا تَكْسِرْ قَلْبًا، فإنّكَ إنْ كسَرْتَ قَلْبًا اهتزَّ العَرْشُ(٢).

وعندَما سَكَتَ شَمْسٌ، بَدَا مَوْلانا حَزينًا، وكان يستمِعُ إلى كَلامِ مُرادِه بعنايةٍ واهتمام. وبعْدَ ذلكَ قالَ: إذا كان أَشْياخُ الطّريقِ في تَبْريزَ يُسمّونَكَ كامِلًا التّبْريزيّ، فأنا أُسَمّيكَ «العاشِقَ المُخْلِصَ في الكائنات». إنّ لَدَيكَ القُدْرةَ على أن تُدخِلَ، بِكلامِكَ، الأكابِرَ والعُلَماءَ في قُونِيَةَ في جَلَبةٍ عَظيمة وضجيج. والآنَ، أُعلِنُ بِصَراحةٍ: إنّ عُلَماءَ الظّاهِرِ مُطّلِعُونَ على أَخْبارِ الرّسول، وحَضْرةَ شَمْسَ الدّين مُطَّلِعٌ عَلَى أَسْرارِ الرّسول. وهذا الأمرُ، لا تستطيعُ جَماعةٌ مِن أَهْلِ قُونِيَةَ أن تُسَلِّمَ به. وهؤلاءِ المُدَّعُونَ مَسْرورونَ

---

١ ـ المثنَوي: ٣/١٩٦٤ ـ ٦٥.

٢ ـ رَوَى الرّسولُ عن الحقِ أنّه قالَ (ما مَعْناه):
«إنّني لا يَسَعُني وعاءُ العُلُوّ والانخفاض،
ولا تَسَعُني الأرضُ ولا السّماءُ، بَلْ ولا العَرْشُ»
فاعلَمْ هذا يقينًا، أيّها العزيز
«بَلْ يَسَعُني قَلْبُ المؤمِن»، فيا عَجَبًا
فإذا طَلَبْتَني فاطْلُبْني في تلك القلوب
(المثنوي: ١/٢٦٦٦، ٦٨)

بالنّفاقِ وبالمحبّةِ والإخلاصِ الظاهرَين، وفيما بَينَهم يَتحاسَدُون. وكُلُّ أَمَلِهم أن تَلْجَأ إلى الجِبال والصحارِي؛ لِأنّ شَمْسًا أتى بِهَدِيّةٍ عُنوانُها مَحَبّةُ الإنسانِ وتَبادلُ العِشْقِ والمودّة. الذينَ لا يَرونَ إلّا الظّاهِرَ عَدُّوا هذه الهديّةَ السّماويّةَ خَطَرًا عَلَيهم، وعَلَى مَنزلتهم وقُدْرتهم. وقد تمرّدوا وعَصَوا؛ لأَنّ السّاحِرَ التَّبْريزيّ يقولُ كَلامًا باطلًا، ويُضِلُّ النّاس. بينَما أعترفُ أنا بأنّكم مُنْشِدُونَ لِمَديح المعرفة، وبأنّكم أطْلَعْتُموني عَلَى أَضْرارِ الغُرورِ العِلْميّ والذِّهْنيّ، وشَرّحْتُم هُوِيّةَ العَقْلِ الجُزئيّ جَيّدًا، واعتبرتُم العِشْقَ مُصْلِحًا ومفتاحًا لِلْمُشْكلات:

مُنذُ أن صِرْتَ نَديمي، أيُّها القَمَرُ السّالِبُ لِقَلْبي،

أخَذَ نُورُ القَلْبِ يَقْفِزُ مِن فمي كالمِصْباح[1]

العِشْقُ قادِرٌ على أن يَحُلَّ التضادَّ داخِلَ الأمورِ الجامِعة، وهذه عُصارةُ تَعْليمِكَ وجَوْهَرُ فِكَرِكَ وتَوْجِيهاتكَ. وكُلُّ مُشْكِلٍ موجودٍ هو، كما تقولُ، مِن الإنسانِ نَفْسِه، وينبغي أن يُحَلَّ بِطَريقِ العِشْق. [٣٢٨] لأنّ:

وَسْطَ حِجابِ الدّماءِ، يكونُ لِلْعِشْقِ رِياضُ وَرْدٍ

ولِلْعاشِقينَ مَعَ جَمَالِ العِشْقِ، الذي لا كَيْفَ لَه، شُؤونٌ

يَقولُ العَقْلُ: «إنّ الجِهاتِ السِّتَّ هي النِّهايةُ، ولا طَريقَ وراءَها»

فيقولُ العِشْقُ: «هناكَ طَريقٌ، وقد مَشَيتُه أَنا مَرّاتٍ»

ويَقولُ العَقْلُ: «لا تَضَعْ قَدَمَكَ، فلَيْسَ في الفَناءِ إلّا الشَّوْكُ»

فيقولُ العِشْقُ: «هذه الأَشْواكُ لِلْعَقْلِ، الموجودِ فيكَ»[1]

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ١٨٣١.

لم يُدْرِكْ كُبَراءُ قُونِيَةَ حَتّى الآنَ قُدراتِكَ العِلْميّةَ والفِكْريّةَ والرّوحيّة والعِرْفانيّة، وسيُدْركونَ ذلكَ سريعًا. وإذا كانوا في ظاهِرِ الأَمْرِ لا يُريدونَ أن يَعُدُّوا لِقاءَنا نَحْنُ ـ الاثْنَين ـ واحِدًا مِن أكثَرِ أَحْداثِ الزّمانِ حَماسةً، فلاشكّ في أنّهم لا يَقْدِرُونَ عَلَى الاعترافِ بإدراكِكَ ورُؤيتِكَ العَميقةِ في المسائلِ العِلْميّة والعِرْفانيّة. فهؤلاءِ لا يُريدونَ أن يفكّروا بِعُمْقٍ أكثرَ قليلًا في مسألة: كيفَ تحوّلَ جَلالُ الدّين، فَقيهُ قُونِيَةَ الوَقورُ الرّزينُ، بغتةً إلى عاشِقٍ محترِفٍ. تصوّرَ الحُسّادُ الجَهَلةُ تلاطُمَ أَمْواجِ رُوحِيَ العاشِقِ سِحْرًا وجُنونًا. أنا أرى فيكَ عارِفًا مُوَحِّدًا مؤمِنًا ذا قُدْرةٍ عَظيمةٍ في الثّورةِ الباطنيّة الرّوحيّة. وسَأُجَلّي أقوالَكَ وإرشاداتِكَ في المستَقْبَل، يقينًا، في أَشْعارِي وأناشيدي؛ لِكَي تَبْعثَ في أَنفُسِ القُرّاء والسّامعينَ هيَجانًا ووَجْدًا شَبيهًا بالسِّحْر، عَلَى نَحْوٍ تَخلُدُ فيه فِكَرُكَ وتَصوُّراتُكَ المُتعالِيةُ في نَسِيج منظوماتي وأناشيدي، مِثْلَ تَيّارٍ مُثيرٍ باعِثٍ للاهتزازِ والتّحْريك. ويعْلَمُ الجميعُ، وأَصْحابُ القُلُوبِ خاصّةً، أنّكَ حَبَوْتَ الموروثَ المعْنَويَّ الصّوفيّ عُمْقًا وغِنًى في العِشْقِ والحالِ والهيَجان. وأقولُ أيضًا: إنّكَ في مدّةِ الأَشْهُرِ الثلاثةِ التي كُنتُ فيها إلى جانبكَ، في رِحْلَتِكَ الأولى، أَدّيتَ المطلوبَ في المجالاتِ العِرْفانيّة المثيرة لِلْبَحْثِ جميعًا. وآمُلُ أن أوضِحَ عَقائِدَكَ العِشْقيّةَ في المستَقْبَلِ القَريب في أَشْعاري، على نَحْوٍ صَريحٍ، وأُعْلِنَ أنّ مُرادَ شَمْسٍ، محبوبي، مِنَ العِشْقِ والجَمالِ كان مُنصَرِفًا إلى أُفقٍ أَسْمَى مِن الجَمالِ الظّاهريّ؛ أي إنّه كان في التّغَنّي بالمعاني الإلهيّةِ المُشْرِقة الخالِدة، في الاتّصالِ بالحقّ وهَجْرِ كُلّ ما عَداه. وقد وَصَفَ جَلالُ الدّين البَلْخِيّ، في دِيوان شَمْسٍ، شَمْسًا على هذا النَّحْو:

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ١٣٢.

حِينًا تَدْخُلُ الصَّدْرَ، وحِينًا تَطْلُعُ مِن الرّوح

حِينًا تَميلُ إلى الهَجْر، أيّةُ آفةٍ أنتَ وأيُّ بَلاء!

حِينًا يكونُ لَكَ جَمالُ الأَصْنامِ [الأيْقُونات]، وحِينًا تكونُ من مُحَطّمي الأصنام

وحِينًا تكونُ لا هذا ولا هذا، أيّةُ آفةٍ أنتَ وأيُّ بَلاء!

[٣٢٩] سَعَى الإنسانُ بِالقَدَم، وطارَ الملَكُ بالجَناح

ولَمْ تُرَ أنتَ بِغَيرِ العَجْزِ، فأيّةُ آفةٍ أنتَ وأيُّ بَلاء!

أنتَ مِثالٌ لِلَذّةِ السُّكْرِ، وقَدْ جَلَسْتَ وَسْطَ العَين

وسَدَدتَّ طَريقَ الفَهْم، فأيّةُ آفةٍ أنتَ وأيُّ بَلاء!

أَيّةُ سَعادةٍ أنتَ وأَيّةُ فائدة، أيّةُ نارٍ وأيُّ دُخان!

أيُّ مِجْمَرٍ أنتَ وأيُّ عُود، أَيّةُ آفةٍ أَنتَ وأيُّ بَلاء!

أَيّةُ راحَةٍ أنتَ وأيُّ رُوح، أَيّةُ سَفينةٍ وأيُّ نُوح

أيّةُ نِعْمةٍ أنتَ وأيُّ فُتُوح، أَيّةُ آفةٍ أنتَ وأيُّ بَلاء!

أنتَ عِشْقٌ لِلْعالَم كُلّه، لكنّكَ مُحْتَجِبٌ عن الجميع

مُحْتَجِبٌ أنتَ وظاهِرٌ كالرّوح، أيّةُ آفةٍ أنتَ وأيُّ بَلاء

اجْعَلْني أَغْلِ كالقِدْرِ، ولا تَقُلِ اسْكُتْ، أيّةُ ضَجّةٍ أنتَ؟

أيُّ مَكانٍ للصَّبْر والصَّمْت؟ أيّةُ آفةٍ أنتَ وأيُّ بَلاء!(١)

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ٣٠٤٥.

كثيرٌ مِن أَناشيدِ جَلال الدّين البَلْخيّ المنشّطةِ لِلْقَلْب إمّا خِطابٌ لِشَمْسٍ، وإمّا تصويرٌ لِكَلامِ شَمْس، الذي له تأثيرٌ كبير[١] في دَفَقاتِ الفِكْر الخَلّاق عندَ جَلال الدّين.

بدأَتْ لَحَظاتُ نِهايةِ لِقاءِ هذَين الرّجُلَين الكبيرَين في وادي العِرْفان بِحادثةٍ مؤلمة، انتهَتْ بفِراقٍ وهِجْرانٍ دائمَين. وقد تحوّلَ هذا الهِجْرانُ إلى مَجالاتٍ أَساسيّة في تفكيرِ مَوْلانا وأَحاسِيسِهِ. ومِن ذلكَ، أُنشودةٌ عِشْقيّةٌ مثيرةٌ جَميلةُ الإيقاعِ، كما يأتي إذْ أنشَدَ في خِطابِ شَمْس:

حـانَ وَقْـتُ أن أَغْـدُوَ مَجنونًـا مُقَيَّدًا بسِلْـسِلَتِكَ
وأن أَلْطِـمَ القَيْـدَ، وأَغْـدُوَ غَريبًـا عـن الجَميـع
أُقـدِّمُ الـرّوحَ فِـداءً، ولا أعـودُ أتحمّلُ عـارَ رُوحٍ كهذا
وأَحْـرِقُ البيـتَ، وكالنّـارِ أَمْـضي نَحْـوَ الحانـة
ومَا لَـمْ أَجِـش، وأَكُـنْ مِـنْ دَنِّ العـالَـمِ هـذا شـابًّا
مَتَـى أَغْـدُو نَـدِيمَ شَـفةِ تِلْـكَ الكَـأسِ مِـن الـشَّراب؟!
أَبْـسُطُ جَنـاحَيَّ في البُـسْتانِ، كالـشّجرة،
وإذا بُـذِرْتُ في طَريـقِ الفَنـاءِ هـذا صِـرْتُ كالحَبّـة
أَنـا كأُسْـطورةِ القَلْـب، لا بَـدْءَ لـي ولا نِهايـة
ومـا دُمْـتُ في قُلـوب العُـشّاق، أَغْـدو كالأُسْـطورة[٢]

١ـ كلّما فَرَرْتُ مِنْكَ، تخاصَمْتُ معَ عشقِكَ وفي رأسي، يأتي عشقُكَ مِنَ الجِهات السِّتّ
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٦٢١)

٢ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ١٦٥٠.

ـ يُخادِعُ عَدُوّي، فلا تَسْمَعْ خِداعَه
لا تدَعْ رُوحِي وقَلْبي في غَمٍّ وغُصّة، لا تذهَبْ
ـ لا تُفرِحْ عَدُوّي وعَدوَّكَ، بالله عَلَيكَ
لا تَسْمَعْ حِيلةَ العدوّ، لا تؤذِ الحبيبَ، لا تذهَبْ
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغَزَليّة ٢١٤٤)

لَيلةُ المصيرِ الحالِكةُ

سِتّةٌ مِن المخدُوعينَ المتشرِّدينَ الحاقِدينَ في قُونِيةَ، بِقيادةِ عَلاء الدّين، ابنِ مَوْلانا الأصغر، الذي كان مُستجيبًا جِدًّا لِتَلْقيناتِ السَّفِلةِ المنافِقينَ في المدينة، اتّخذوا قَرارًا بِأَنْ يأتوا مُسْرِعينَ إلى حُجْرة جَلال الدّين ممتلئينَ عَداوةً وانتقامًا. ولم يكُنْ هؤلاءِ السّتّةُ مُمَثِّلينَ لجُمْلةِ المجتَمع العِلْميّ في قُونِيةَ، بَلْ كانوا مِن العَوامّ السُّقّاطِ الذين هم كالأنعامِ، ومِن أَشدِّ شبابِ المدينة أُمّيّةً، ومِن المأمورِينَ المستأجَرينَ لِتَنْفيذِ النّيات القَذِرةِ لِلْمُجْرمينَ المُرائين. قرّرَ هؤلاءِ أن يستَعْمِلوا كُلَّ ما أُوتُوا مِن قُدراتٍ وإمكانيّات في أن يُزِيلوا مِن ساحةِ دُور العِلْم في قُونِيةَ تَيّارَ العِرْفانِ العِشْقيّ الذي أتى به شَمْسٌ، الذي كان يتّسِعُ يومًا بعْدَ يومٍ، وظهَرَ له أَنصارٌ مفكّرونَ.

كان الحاسِدُونَ والنّاقِدُونَ الضّيِّقُو النّظَرِ يزعمونَ أنّ فِكَرَ شَمْسٍ الجديدةَ مملوءةٌ باللّهو والتّلذّذِ ومُخالفةِ التقاليدِ الأساسيّة القديمة لِلْمُجتمع. وقد نُظِّمَتْ مُؤامرةُ القَتْل على قَدْرٍ مِن الدّقة والمهارة تُرِكَ فيه طَرِيقُ الدّفاعِ عن المحرِّضينَ مفتوحًا، ووُعِدوا بِأَنْ يُعفَوا مِن الاعتقال أو الجزاء. وفي المقابِلِ، ما كان ينبغي السّماحُ بِأَنْ يظلّ شَمْسٌ مرّةً أخرى حَيًّا. يجِبُ أن يتعرّضَ لِضَرَباتِ السّكاكينِ والخناجِر وجُموعِ الأَكُفّ، والرَّكْلِ بالأَقْدام، ثمّ يُلقَى جَسَدُه لَيلًا في حُفْرةٍ أو بئرٍ عميقةٍ ومتروكةٍ. وتكونُ الخُطّةُ التّنفيذيّةُ لِلْمُؤامرة على هذا النَّحْو: بِكُلّ ذَريعةٍ وحِيلةٍ ممكنةٍ، يُدْعَى شَمْسٌ مِن حُجْرة مَوْلانا

[٣٣١] إلى الخارج، ثُمّ في أثناءِ خُروج شَمْسٍ تُطفَأُ شُموعُ الحُجْرة؛ ثمّ بعْدَ ذلكَ، وفي سُرْعةٍ بالغةٍ وفي أقصَرِ مُدّةٍ، يُسْلَمُ هذا الذي هو دائرةُ معارِفِ العِشْق في الظّلامِ إلى القَتْل. هذه المجموعةُ الخبيثةُ انخدَعَتْ بالفِكَر الشّيطانيّة لِلْمُدّعينَ، الذين كانوا يَرْسُمونَ شَمْسًا في صُورةِ خَطَرٍ منتظَرٍ ومُهدِّدٍ لِلنَّسْلِ الشّابّ والأُسَر في قُونِيةَ. كانوا قد قالوا لهم: إنّ فِكَرَ شَمْسٍ أَخطرُ على الاجتماع مِن الطّاعون والوَباء. إنّ قتْلَ شَمْسٍ وظيفةٌ وِجْدانيّةٌ وأخلاقيّة وإنسانيّة، خاصّةً أنّ هذا الخطَرَ العظيمَ في المستَقْبَلِ القريب يُلقِي رُوحَ جَلالِ الدّين، فَقيهِ قُونِيةَ الكبير، في مخاطرة؛ لأنّ شَمْسًا السّاحِرَ ترَكَ بِسِحْر كلامه تأثيرًا في تَقْواهُ وعِلْمِه وأخلاقه وسُلوكه.

هذه المجموعةُ الجاهِلةُ، غيرُ جَديرةٍ بأن تفْهَمَ فَهْمًا صَحيحًا جِهاتِ المحبّةِ الصّميميّةِ والتعلّقِ الشّديد، والترابطِ الذي لا تنفَصِمُ عُراه بينَ جَلالِ الدّين البَلْخيّ وشَمْس. فقد كانَتْ شُعَلُ الانتقامِ المحْرِقةُ تتوهّجُ في أعينهم. كان المتشرِّدونَ المتسلِّحونَ مَسْرورينَ، تحْتَ أَنْوارِ القَمَرِ وغَمَزاتِ النّجومِ المتراقصة، بِأَن يُوَجِّهوا أوّلَ ضَرْبةِ سِكِّينٍ لِجَسَدِ شَمْسٍ، عَلَى نَحْوٍ يُقتَلُ فيه في لَحْظةٍ واحدة. كانَتْ تلكَ لحظاتٍ سريعةَ المرور، مَخُوفةً، حَسّاسةً، وكان الحِقْدُ والعَداوةُ والتعصّبُ الشّيطانيّ قد انتصبَتْ وَجْهًا لِوَجْهٍ أمامَ الهيَجانِ والحَرارةِ والاشتياق العِرْفانيّ. كان عَلاءُ الدّين كُلّما اقتربَ مِن حُجْرةِ أبيه ازدادَ وَحْشةً واضطرابًا وتَوبيخًا، منبعثةً مِن وِجْدانِه.

وفي آخِرِ الأَمْر، وصَلُوا إلى حُجْرة مَوْلانا. كان شَمْسٌ ذُو القُدْرةِ العِرْفانيّةِ العجيبة، المعتادُ على الأَلَم، الذي كان كُلُّ شيءٍ واضِحًا أمامَ عَينَيه المبصِرتَين لِلْحَقيقة، ينظُرُ بِرُوحيّةٍ قويّة إلى طَلْعة محبوبه. فالعارِفُ المُخلِصُ المؤمِنُ المعتقِدُ ذو الإيثار، مُطَّلِعٌ

على دَخيلةِ جَلال الدّين. كان نظَرُه المتفحِّصُ يُحيطُ بِأُفقِ قُونِيةَ كلّه. وفي تِلْكَ اللّحَظاتِ الحاسِمة، بَدَا الأمرُ وكأنّ كُلّ القُدْرةِ العِرْفانيّة عندَ شَمْسٍ قد تركّزَتْ في نظَره.

كانَ جَلالُ الدّين يَسْعَى لِكَي يحتفِظَ بِهُدوئه ورَباطة جَأْشِه. لم يَدْخُلْ عاشِقٌ، له هذه القُدْرةُ العَصِيّةُ على الوَصْفِ، البتّةَ في عِراكٍ معَ العِشْق. وقد قدّرَ اللهُ سُبْحانَه أن يحترِقَ جَلالُ الدّين، في المستَقْبَل، مِن هِجْرانِ شَمْسٍ احتراقَ الشَّمَع، وأن تنهلَّ مِن عينَيه جَواهِرُ الدّموع.

أَلْقَى عَلاءُ الدّين نظَرَه المضطَرِبَ مِن فَتْحةِ بابِ الحُجْرةِ إلى داخلها، ومِن أَوّلِ نَظْرةٍ انتبهَ إلى أنّ والِدَه كان مُشتّتَ الذّهْنِ كثيرًا، ولم يَلْحَظْ نَظَراتِ ابنه. كان الابْنُ يردّدُ نظَرَه مِن وَجْهِ الأبِ إلى مَلامحِ شَمْسٍ، ثمّ مِن مَلامِح شَمْسٍ إلى وَجْه الوالِد. كان شَمْسٌ يتحدّثُ عن الآمالِ التي تبدّدَتْ، وعن آلالامِ والحِرْمانِ والفِراق. [٣٣٢] صَعّدَ جَلالُ الدّين الآهاتِ المُرّةَ والحارّةَ مِن صَدْره، وكان مُتعَبًا ومُنهَكًا. سأَلَ مُرادَه:

ـ لا أَعلَمُ لماذا قَلْبيَ اللّيلةَ في رَمضاءَ ونار. جِئتَ أنتَ إلَيَّ فحرّرتَني مِن أَلَم الوَحْدة المُتْعِب للرّوح. كان ينبغي أن تغدُوَ مُسَلِّيَ قَلْبي، لا أن تقولَ: أَذْهَبُ مِن هنا، إلى أينَ تَذهَبُ؟ ـ أينَ مَقْصِدُكَ؟ أجابَ شَمْسٌ بِصَوتٍ مرتجف:

ـ حَيثُما تُوجَدُ مملكةُ العِشْقِ يكونُ مكاني. أُسْلِمُ نَفْسي لِلشَّمْس، أمضي إلى ناحيةِ المعشوق. مَيدانُ فِكَري الدّاخليُّ هو العِشْقُ، أَذهَبُ إلى حَيثُ يوجَدُ عالَمُ الانفعالاتِ العِشْقيّة.

(ابتسَمَ عَلاءُ الدّين، الذي سَمِعَ هذه الكلماتِ، ابتسامةً ساخِرةً... أي: الفِرارُ مُسْتَحِيلٌ، وعمّا قَريبٍ سَتُرْدَى).

وإذ أَحَسَّ مَوْلانا بأنّ رُوحَه وفِكْرَه ضَجِرانِ ومسْتعِدّانِ لِلْحَركة، أرادَ أيضًا أن

تدومَ لَحَظاتُ الحضورِ والوَصْل، وأن يواصِلَ الحبيبُ الكلامَ، ولذلكَ قالَ:

ـ لَسْتُ أكثرَ مِنْ ذَرّةِ غُبارٍ تحتَ قدَمِكَ... ولَمّا يَأْنِ أن تُسْلِمَ هذه الذّرّةَ لِلْعاصفة، وتمضيَ مِن هذا المكان. إنّ وجودي، وكَينُونتي، وسَلامتي، وانطلاقي، مرتبطةٌ بكَ. وقد كُنتُ أَعِيشُ على أمَلِ عَودتِكَ مِن دِمَشْق.

ـ إذا كانَ مَوْلانا يَعُدُّ نفسَه ذَرّةً فإنّني أعتقِدُ أنّها شيءٌ ينطوي عَلَى ما لا يَقِلُّ عن شُموسِ الأفلاك، لكنّه ينبغي أن يَرَى في هذا الشّأن أنّ متمرِّدي قُونِيةَ وابنَ مَوْلانا العزيزِ، أي عَلاءَ الدّين، قد ثاروا عَلَيَّ، ومَعَ هذا تُريدونَ أن أبقَى عندَكم؟. أطرقَ مَوْلانا، ولم ينبِسْ ببِنْت شَفةٍ، صَمتَ البَحْرُ. واصَلَ شَمْسٌ القولَ:

ـ تذكّرْتُ حِكايةً عن أبي يَزيدَ، في هذه اللّحَظاتِ الحسّاسةِ المتّصلة بفِكْرة أنّ الزّمانَ لَدَيه مَيْلٌ إلى التّجدّد، وقد استَلْهَمْتُها مِن إلهة العِشْق، وأنقلُها إليكَ. عندَما كان أبو يَزيدَ يذهبُ إلى الحجّ كان يُحِبُّ أن يكونَ وحيدًا، لم يَكُنْ يَشاءُ أن يصْحَبَ أحَدًا. في يومٍ، رَأى شَخْصًا كان يمشي أَمامَه. نظَرَ إليه، إلى سُرعة مَشْيه وانطِلاقه، فكان يَحْصُلُ له من ذلك نشاطٌ. فأخذَ يسألُ نفسَه: عجبًا، أَأُرافقُه، أَأَتْركُ طريقةَ السَّيْرِ وَحيدًا، فإنّها صُحْبةٌ ممتازةٌ جدًّا؟ فكان يقولُ: أكونُ رفيقًا لِلرّفيق الأَعْلَى. فكُنتُ أُحِسُّ مِن جَديدٍ بأنّ محبّةَ صُحْبةِ ذلكَ الشّخْصِ تتفوّقُ عَلَى محبّة الذّهابِ وَحِيدًا.

وفي أثناءِ تَرْديدِ النّظَرِ في مسألةِ أيًّا مِن الأمرَين أختارُ، نظَرَ ذلكَ الشّخْصُ إلَيَّ [٣٣٣] وقالَ:

ـ في البَدْءِ تأكّدْ مِن أنّني أَقبَلُكَ رَفيقًا. استبدّتِ الدّهْشةُ بِأَبي يَزيدَ وأخَذَ يقولُ في نفسِه: كيفَ اطّلَعَ ذلكَ الشّخْصُ عَلَى ما عَنّ في خاطري. في تِلْكَ اللّحَظاتِ عجّلَ ذلكَ الشّخْصُ خُطاه.

والآنَ أَتساءلُ أنا: هَلْ يريدُ مَوْلانا أن أبقَى في قُونِيَةَ، وأَغرقَ في خِضَمِّ سُكْرِ العِشْق وذُهوله؟ ـ أو يجِبُ عَلَى شَمْسٍ أن يَهْوِيَ في دُوّامة نِسْيانٍ دائم؟ أجاب مَوْلانا:

ـ إذا كان نشاطي، بَعْدَ صَمْتِ مَجامعِ الدَّرْس، قد ازدادَ فما ذلكَ إلّا لِأَنّ نارَ عِشْقِكَ[1] قد بعثَتْ فيَّ القوّةَ والحرارة. علَيكَ أن تعْلَمَ أنّ عَطَشي باقٍ إلى الآنَ. كُنتَ أنتَ نَجْمًا يُضيء لَيليَ المظْلِمَ. ولكنْ واأَسَفاهُ، حتّى الآنَ لم أُدركِ الحقيقةَ كما ينبغي، وما أكثرَ أسئلتي التي بقيَتْ من دون إجابة!

ـ ابنُكَ عَلاءُ الدّين يرى أنّني مبتدِعٌ، ويقولُ إنّني أرى النّاسَ في المَنامِ وأنزِعُ منهم عقولَهم. كيفَ أقدرُ على تحمّلِ استمرار الأذى؟ ـ لماذا لا يريدُ مَوْلانا، أساسًا، إيضاحَ إحساسِه الدّاخليّ بِصِياحِ الغَضَبِ أمامَ وَلَده ومُحِبّيه والأَشْخاصِ الذين يدافعونَ عنه؟. يعْلَمُ مَوْلانا أنّ الجَنابَ الإلهيّ نُورٌ على نُورٍ، بَهْجةٌ على بَهْجة، جَمالٌ عَلَى جَمال، كَرَمٌ عَلَى كرَم، وماذا قُلْتُ أنا أكثرَ مِن التّغنّي بالذّاتِ السَّرْمَديّة؟ ـ أنا مَدّاحٌ لِلعِشْقِ والهُيام، أيُّ شَيءٍ غيرُ ذلكَ؟. هذه هي عقيدتي. وأَقولُ جِهارًا: العِشْقُ سَعادةٌ مُطْلَقة. وأَقولُ لِلْعارفينَ: إنّ دُنيا أُخرى كُلُّها نُورٌ في انتظارِكم. لا جَريرةَ لي غيرُ ذلكَ، فهَلْ يجِبُ أن أُطْردَ بِجُرْمِ مَدْحِ العِشْق وقَولِ الحقيقة؟

ـ لَعَلّ عَلاءَ الدّين في غَفْلةٍ عن كَيْدِ هؤلاء.

ـ يَعلَمُ مَوْلانا أنّ مَن يشتُمُني يَسُرُّني بِشَتْمه إيايَ، ومَن يُثْني عَلَيَّ يُؤلِمُني ثَناؤه عَلَيَّ. لِأَنّ الثّناءَ الحقيقيَّ لا ينبغي أن يأتي بعْدَه إنكارٌ. أمّا ولَدُكم عَلاءُ الدّين فإنّه مُنافقٌ. ألا تعْلَمُونَ أنّ المنافِقَ أَسْوَأُ مِن الكافر «إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ

---

١ ـ إنّ جُمْلَةَ أَجْزاءِ التُّرابِ عاشقةٌ مِثْلَنا　　لكِنْ أنتَ، أيّها الرّوحُ الطّاهِرُ، أندَرُ عاشقٍ
(ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٣٠٢٧)

مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء /١٤٥].

ـ لَيْسَ عَلاءُ الدّين منافقًا، بَلْ يَرَى أنّ شَمْسًا لم يستَطِعْ [٣٣٤] حتّى الآنَ أن يجعلَ جماعةَ المتعصّبينَ الغِلاظِ الأَكْبادِ يعتقدونَ بوِلايته، ويؤمنونَ بِصَلاحه.

ـ عَلَى مَوْلانا أن يعْلَمَ أنّه في عَهْد نُوحٍ، عَلَيه السّلامُ، كانَتِ الدّنيا عامِرةً عَلَى نَحْوِ أنّه كان بينَ المدينةِ والأُخْرى أَقَلُّ مِن مَسِيرِ يَومٍ واحِد. وكان النّاسُ يتعجّبونَ تعجّبًا شديدًا حين تطولُ المَسافةُ بينَ مدينةٍ وأخرى، حتّى إنّهم إذا امتدّ السّفَرُ لِيَومٍ كاملٍ قالوا: طويلٌ جِدًّا. وفي الجُمْلة، دَعَا حَضْرةُ نوحٍ [عليه السّلامُ] لمدّة أَلْفِ سنةٍ إلّا خَمسينَ عامًا، وفي كُلّ يومٍ كان يَزورُ كثيرًا مِن الأماكن، وفي كُلّ يومٍ كان في كُلّ مكانٍ يَمُرُّ به يُضْرَبُ خَمسَ مَرّاتٍ ويُجرَح، ولكنّه لم يتخلَّ عن الدّعوة، وفي النّتيجة آمنَ بِدَعْوته سَبعونَ شخصًا:

ظَلَّ نُوحٌ يَدْعُو لِتِسْعِ مِئةِ سَنةٍ

وكان إنكارُ قَومِه يزدادُ لَحْظةً بعْدَ لَحْظة

فهَلْ تَراهُ لَوَى العِنانَ عن القَوْلِ قَطُّ؟

وهَلْ تَراهُ رقَدَ قَطُّ في غارِ الصّمت؟[1]

نحْنُ أيضًا رَأينا هنا التُّهَمَ والحِجارةَ والسَّبَّ والتّواقُحَ الزّائدَ، لكنّنا لم نتوقّف. كان مقصودي مِن المجيء إلى قُونِيةَ لِقاءَ حَبيبَينِ، يتقابَلانِ، مِن أَجْلِ الله، بعيدًا عن الهوى. أنا مُرتاحٌ عندَ مَوْلانا، كُنتُ أَبحَثُ عن النُّور، وفي النّارِ أيضًا نزَلْتُ. وقد حاوَلْتُ أن لا أتسبّبَ في أن يقَعَ غُبارُ التّشويشِ والألَم على خاطِرِ مَوْلانا. إنّ مَجيءَ رجالِ الحقّ إلى كُلّ أَرْضٍ، يكونُ مِن أَجْلِ حِكْمةٍ، ولكنْ مَن ذا الذي يعْلَمُ ومَنْ ذا الذي يفهَمُ؟

---

١ ـ المثنوي: ٦/١٠ ـ ١١.

فقال جلالُ الدّين البَلْخيُّ:

ـ كان مَقْدَمُكَ إلى هذه البلاد فَيْضًا إلهيًّا. وكُلُّ مَنْ يَرَى شَمْسًا بِعَيْنِ العِرْفان، كُلُّ مَنْ يفهَمُكَ، يكونُ قد فَهِمَ الأبَديّةَ جيّدًا، والذين يخالفونَكَ لا يريدون حَتّى الآنَ أن يدُرِكوا السّعادةَ المطْلَقة. وقد جئتَ أنتَ لِكَي تُحرِّرَني وتحرِّرَ النّاسَ مِن الاضطرابات والتشوّشات الرّوحيّة، وتدفعَنا إلى الأُفقِ الأَعْلى، أو الأُفقِ المُبين. وإذا كان أولئكَ لم يفهَمُوا المفهوماتِ العاليةَ لِلْمَحبّة والعِشْقِ، فَلَيْسَ الذّنبُ ذنبَكَ. وقد رَوَى شِهابُ الدّين السُّهْرَوَرْديّ في كتابه «رِسالة في حَقيقة العِشْق» قولَه: «لا يأذَنُ العِشْقُ لِكُلّ أحَدٍ بِأَنْ يصِلَ إليه، ولا يَأوي إلى كُلّ مكانٍ، ولا يظْهَرُ لِكُلّ عَينٍ». ولِأَنّ مُدَّعِي قُونِيةَ مُنكِرونَ لِلْعِشْق، وجاهلونَ لِتَجلّياته، ولَيْسَ لَدَيهم القدرةُ على فَهْمِه، كانوا يُريدونَ بِذَهابِكَ أن يُطفِئوا هذا السِّراجَ. بينَما تعْلَمُ [٣٣٥] أنتَ نفسُكَ أنّ شَمْسَ العِرْفان لا تنزِلُ إلى ما تَحْتَ السَّحاب. ومادامَ هؤلاءِ لا يفهمونَ حقيقةَ عِشْقي وتَهْيامي، سيظلُّونَ مُشتَّتي الأذهانِ ومضطَربينَ عَلَى الدّوام. ألا لَيْتَ حُسّادَ قُونِيةَ العُمْيَ القلوبِ يفهمون طبيعةَ عِشْقي. وفي الخِتام أقولُ: لَيْسَ في وُسْعِ أحَدٍ البتّةَ أن يشوِّشَ هُدوئي الرّوحيّ. وتعلَمُ كَمْ مِن اللّيالي والأيّامِ سَهِرْتُ مِن أَجْلِ رُؤيتِكَ، لِكَي تجيءَ، عائدًا مِن دِمَشْق. وإذا ما بَقِيتُ حَيًّا بَعْدَ ذَهابِكَ فما ذلكَ إلّا لأنّني أُؤَمِّلُ أن أَلقاكَ مرّةً أُخرى. وبعْدَ ذلكَ هَمَسَ: لَيتَني في هذه اللّيلةِ أَبقَى حَيًّا حَتّى الصّباحِ، فأرى نهايةَ هذه اللّيلةِ المظْلِمةِ المقرِّرة لِلْمَصير!

كان في نَظَراتِ شَمْسٍ عالَمُ سِرٍّ خَفيٍّ، إذ شَمَخَ بِرَأسِه وكأنّه تذكّرَ أمرًا كانَ علَيه في تِلْكَ اللّحَظاتِ التي تمرُّ سِراعًا أن يبيّنَه؛ ولهذا السّبب قالَ:

ـ يا مَوْلانا، نَحْنُ لم نتعلَّمْ هذا العِشْقَ في مَدْرسةٍ، ولم نحصُلْ عَلَيه بِحَرْبٍ

ومَعْركةٍ، حصَلْنا عَلَيه بالتّدريج. والآنَ، إذ عَلَينا أن نغادِرَ المكانَ، نقولُ: إنّ سُلْطانَ وَلَد، ابنكم الأكبرَ، في طريقِ العَودةِ مِن دِمَشْق، وفي أثناء السَّيرِ في الطَّريق، سألَ أسئلةً وسَمِعَ إجابات. وأقولُ: إنّني قُلْتُ له كُلَّ الأَسْرارِ التي أستطيعُ قَولَها، بإخلاصٍ وصِدْق. لِكَي يكونَ حَضْرةُ مَوْلانا شاهِدَ حالٍ على أنّه لو قُدِّرَ لِسُلطان وَلَد أن يعيشَ عُمرَ نُوحٍ، ويقضيَ ذلكَ العُمرَ كُلَّه في العِبادة والرّياضة، لَما تيسَّرَ له ما وَصَلَ إليه مِنّي في هذا السَّفَر. وآمُلُ أن يظْفَرَ مِن حَضْرتِكم أيضًا بِنَصيبٍ، ويصِلَ إلى تَمامِ الشّيخيّة، يغدُوَ شَيْخًا كامِلًا. سيكونُ سُلْطانُ وَلَد، بعْدَكم، القَمَرَ المنيرَ في سَماء قُونِيةَ، وسيَحْمِلُ أَسْرارَ العِرْفان إلى الآتِينَ هَدِيّةً.

عَلَى مَوْلانا أن يعْلَمَ أنّه لا أحَدَ البتّةَ قادرٌ على القيام بوظيفةِ تَعْليمِ العِرْفانِ وإرشادِ السّالكين مِثْلَه، بَعْدَ والِدِه، كما ينبغي. إنّ كَلامي كُلَّه يأتي على وَجْه الكِبْرياءِ والتّعاظُم. نعَمْ، إنّ عَمَلي يخالِفُ عَمَلَ أكثريّةِ أَهْلِ قُونِيةَ؛ فكُلُّ شَيء يَقبلونَه أرفضُه أنا، وكُلُّ ما يَردّونَه أَقبلُه أنا. فهم يَجْرونَ وَراءَ عَلاءِ الدّين، ابنِ مَوْلانا الأصغر، الذي يخالِفُ والِدَه ويخالِفُني بِعِنادٍ وإصرار، ويصادِقُ الأعداءَ ويرافقُهم. وقد مَضَى في طريقٍ منْحَرِفٍ جدًّا، حتّى كأنّه شرٌّ مُطْلَق، وما أَجملَ أن يكونَ بعيدًا عن مَوْلانا! وهو الذي اختبَأَ في كَمينٍ، وهو الذي يريدُ أن يمزّقَني إرْبًا إرْبًا.

سَمِعَ عَلاءُ الدّين هذه الكلماتِ جيّدًا، وقد عَزَمَ عَلَى أن يقتُلَ شَمْسًا.

بعْدَئذٍ قال مَوْلانا بتأثّر:

ـ أنتَ تقولُ إنّكَ تَعيشُ عَلَى أَملِ لِقائي، أمّا أنا فكيفَ أَحْتمِلُ الألَمَ الحاصِلَ [٣٣٦] مِن البُعْدِ والفِراق والحِرمان، وكيفَ أُعوِّضُ ما خَسِرْتُه؟. وأنتَ تعْلَمُ أنّنا حينَ نكُونُ مَعًا نَغْرِسُ ـ نَحْنُ الاثنَيْنِ ـ بِما عندَنا مِن هيَجانٍ وتشوّقٍ فَسائلَ العِرْفان في

القُلُوب كلّها.. أَمّا الآنَ... فإنّ القَضاءَ والقَدَرَ لَدَيهما عَرْضٌ آخَر. أنا الذي لَسْتُ موافِقًا عَلَى ذَهابكَ مِن قُونِية، ولكنْ... ـ سكتَ جَلالُ الدّين لِلَحَظاتٍ ثمّ استأنفَ الكلامَ ـ ألا يكونُ مُرادي شَمْسٌ يَخْشَى الموتَ أو الضّياع؟

اضطَربَ شَمْسٌ مِن هذا الكلام كثيرًا، وتأثّر، وأخَذَ يُزمجِرُ كالرّعد، وأجابَ مَوْلانا:

ـ المُضحُّونَ بِأَرواحِهم، مِثْلَ شَمْسٍ، يطلبونَ الموتَ مِثْلَما يطلُبُ الشّاعِرُ القافيةَ... والمريضُ الصّحّةَ والسّلامةَ، والمَحْبوسُ الخلاصَ... وأطفالُ المدْرَسةِ يومَ الجُمُعة... الاعتقادُ والعِشْقُ يُشجّعانِ الإنسانَ، ويُزيلانِ كُلَّ المخاوِف... لكنّني لا أُريدُ أن أَفقِدَ السّعادةَ المُطْلَقةَ في لِقائكَ... فقالَ مَوْلانا:

ـ تعْلَمُ أنّ أَهْلَ قُونِيةَ يقولون إنّ جَلالَ الدّين صار عابِدًا للشَّمْس، وأنا لا أَخْشى هذه التُّهَمَ، لكنّني لا أريدُ أن يعتبرَ هؤلاءِ مُرادي وشَيْخي ساحِرًا ومُشَعْوِذًا وآفاقيًّا..

ـ عَلَى مَوْلانا أن يعْلَمَ أنّني، معَ كُلّ الآمالِ التي يختزنُها قَلْبي، لا أُريدُ أن أكونَ بعيدًا عن الكانونِ الإلهيّ لِعِشْقِكَ، معَ أنّني أعلَمُ أنّ مَوْلانا غيرُ قادرٍ لأسبابٍ عَلَى أن يمْنَعَ ابنَه عَلاءَ الدّين مِن أن يُلفّقَ عَلَيّ بينَ العامّة والخاصّة في قُونِيةَ الأكاذيبَ والتُّهَمَ والأباطيلَ، ويؤنِّبَ والِدَه. ولهذا السّبب، أَترُكُ هذا المكانَ فأكونُ أنا وأنتَ بعيدَيْنِ عن طُوفانِ التُّهَم.

اضطربَ مَوْلانا، وقالَ:

ـ أَخْشَى مِن هُجومٍ لَيْليّ لِلْأَعداء. وأكبرُ أمَلٍ عندي هو أن يقتُلَني المخالفونَ قبْلَ أن يُلْحِقُوا بكَ أيَّ أذًى. إنّ قُونِيةَ الآنَ كانونٌ لِلْفِتْنةِ والدَّسّ والتآمُر، إنّها مكانٌ ينهَمِرُ مِن سَمائه حِجارةُ الفِتْنة. إذا رحَلْتَ أنتَ مِن هنا فإنّ الهدوءَ يرتحِلُ مِن بلاد الرّوم. وتعْلَمُ أنتَ أنّ جَلالَ الدّين في مَحْفِل إفاضاتِكم العِرْفانيّةِ لا يُحِسُّ بالتّعَبِ ومُرورِ

الوقت، وهو طَليقٌ مِن قَيدِ السّاعةِ[١] والوَقْتِ، [٣٣٧] وكيفَ ولماذا، ومِن التعلّقاتِ المادّيّة لِلْحَياة، التي تَتحقّقُ في ظَرْفِ الزّمان. إذا كان المخالِفُونَ بِأنظارِهم الضّيّقة... قطَعَ شَمْسٌ كلامَ جَلالِ الدّين وخاطَبه قائلًا:

ـ وَسْوَسةُ قَتْلي مِنْ أَجْلِ ماذا ومِمَّن؟

ـ مِن أَجْلِ الحَوادِثِ التي وقعَتْ في المدينة، ومِن الأشخاص الذين يحسُدونَنا لِما بينَنا مِن المحبّة والحَميميّة. تَذْكرُ عندَما اكتملَ بِناءُ مَدْرسةِ جَلال الدّين قَرطاي الكبيرة، إذ أَعدَّ قَرطاي حَفْلًا، ودَعَا كُبراءَ المدينة، في ذلكَ اليومِ جَرَى نقاشٌ بينَ الكُبَراء الحاضرينَ في المَجْلِس في شأن: أيُّ شَخْصٍ يكونُ صَدْرَ المجْلِس؟ في ذلكَ اليومِ أنتَ أيضًا جَلَسْتَ في آخِر المجْلِس، فسأَلني أَحَدُ الفُضوليّينَ مُعاندًا: أيُّ واحِدٍ هو صَدْرُ هذا المجْلِس؟ فأَجبْتُ: صَدْرُ العُلَماءِ في وَسَطِ الصُّفّة، وصَدْرُ العارِفينَ في زاوية المنزِل، وصَدْرُ الصُّوفيّةِ في جانب الصُّفّة. وفي مَذْهَبِ العاشِقينَ يَجلِسُ الصَّدْرُ قُرْبَ الحبيب. وعلى الفَوْر قُمتُ مِن مكاني وجئتُ إلى قُربِكَ، فجَلَسْتُ إلى جانبك. وعندَما جئتُ إليكَ أَطْلَقَ الحاسِدُونَ أَلْسنةَ الاعتراض. وفي اليومِ التّالي عَلِمْتُ أنّ مُؤامرةً عَلَى وَشْكِ التّنفيذ، إذ كانوا يخطّطونَ لِأَن يُبعِدُوني عنكَ. أُريدُ أن أُبقِيَكم بعيدينَ عن أَذَى مُريدِي السُّوء. ويومَ رجَعْتَ إلى قُونِيةَ مِنَ المُهاجَر تحقيقًا لِرَغبتي والتِماسي، تفتّحَ خاطِري كما يتفتّحُ الوَرْدُ مِن أَثَر نَسيمِ الصَّبا. أرادَ مُريدِيَّ الاعتذارَ، وأقاموا المآدِبَ. ومِن أَجْلِ إرضاءِ خاطِركَ، رَتّبتُ في اليومِ نفسِه حَفْلةَ سَماعٍ لَيلًا في

١ـ اخرُجْ لِساعةٍ مِن إطار السّاعة [الزّمان] أيّها القَلْبُ لِكَي تَحرّرَ مِن سُلْطانِ الكَيفيّة والعِلّيّة
وإنّه لا عِلْمَ للزّمانِ عن اللّازَمان لأنّه لا طريقَ إلى تِلْكَ النّاحيةِ غيرُ الحَيرة
(المثنَوي: ٣/٢٠٧٨)

منزِلي، ودَعَوتُ النّاسَ إليها. وبِسببِ شَوْقِ السَّماع، تركْتُ المدرسةَ والدُّروسَ، وسَعَيتُ إلى أن أَكونَ لَيلًا ونَهارًا في خِدْمتكَ بالتّواجُد والسَّماع. وفي قُونِيَة، كان حَديثُ تحريمِ السَّماعِ والرَّقْص مُتداوَلًا في المجالس. السَّفِلةُ لا يعْلَمُونَ أنَّنا نَرَى في الموسيقا والسَّماعِ رُوحانيةً ومَعْنَويّةً. هؤلاءِ الذين لا انشغالَ لهم بالمَقُولات الصّوفيّة يعتبرونَكَ مُشَوِّقي، وقد نَصَحوني مِرارًا[1] وحَذّروني بأنّه عَلَيَّ أن أَترُكَكَ، وإلّا فأنا في انتظارِ حادثةٍ مُوجِعة.

١ـ أَنشدَ مَوْلانا في هذا الشأن:

قالَ: أيُّها النّاصِحُ، اصمُتْ عن بَعْضِ النُّصح — أَقِلَّ مِن النُّصْحِ؛ فإنّه قَيدٌ قاسٍ جِدًّا

وقد صار قَيدي أشدَّ قَسْوةً مِن نُصْحِكَ — ذلكَ لِأَنّ عالِمَكَ ما عرَفَ العِشْقَ

(المثْنَوي: ٣/٣٨٣٢ـ٣٣)

ـ قالَ أحَدُهُم: «ماتَ الشّيخُ سَنائي»
إنّ مَوْتَ شَيخٍ كهذا لَيْسَ أمرًا يسيرًا،
ـ فلا تذكُرْ شَمْسًا، مفخَرَ التَّبْريزيّينَ
فكُلُّ إنسانٍ ماتَ في العالَمينِ، وشَمْسٌ لم يَمُتْ
(ديوان شَمْس تَبْريز، الغزَليّة ٩٩٧)

باتّجاهِ المصير

في تِلْكَ اللّحظاتِ الحاسمة، وبِأَمْرٍ مِن عَلاءِ الدّين ابنِ مَوْلانا، دَخَلَ أحَدُ المعانِدينَ الحُجْرةَ، وكان قَبْلُ قد أغمدَ خِنجرَه في غِمده احترامًا لمَوْلانا، دُخولًا سَريعًا أطفأَ الشّموعَ، وأدخلَ الحُجْرةَ في ظَلامٍ. وفي ظَلامٍ مُؤلمٍ ومُوحِشٍ، كان هذا الكلامُ يصِلُ إلى الأَسْماع:

ـ يا شَمْسُ الدّين، تعالَ إلى الخارج، وإلّا أخرَجْناكَ قَسْرًا.

سألَ شَمْسٌ:

ومَنْ أنتُمْ، حتّى تَدْعُوني إلى الخارج؟

ـ جَمْعٌ مِن مُحِبّيكَ في انتظارك...

في أَطْباقِ الظّلام سُمِعَتْ قهقهةٌ. فسألَ شَمْسٌ:

ـ كأنّ أَرْواحًا شِرِّيرةً جاءَتْ إلى هنا. إذا كنتُم تضحكُونَ ابتهاجًا بِمُؤامرتكم الشّيطانيّة، فإنّني أتبسَّمُ مِن جَهالة المُرائينَ في قُونِيةَ. وقد فقدتُّم حِسَّ الاحترامِ والنّقاء، وجئتُم إلى مَحْفِلنا على طَريقةِ المُجْرِمينَ الجُناة. ارجِعُوا، لا تدَعُوا مَوْلانا جَلالَ الدّين مُكدَّرَ الخاطِر.

مرّةً أُخرى، عَينُ القَهقَهاتِ الشّيطانيّة كان يُسْمَعُ، وقالَ بِلَهجةٍ آمِرة:

ـ لِيخرُجْ شَمْسٌ مِن مَحْضَر مَوْلانا. اقتربَ طُلوعُ الفَجْر، وقد حَانَ حِينُ استراحةِ مَوْلانا.

[٣٣٩] قام شَمْسٌ مِن مكانه في الظُّلْمة وقالَ:

ـ يا مَوْلانا، إنّهم يُنادُونَني لِلْقَتْل.

قالَ مَوْلانا بِصَوتٍ يُسْمَعُ مِنه دَوِيُّ الاعتراض:

ـ إنّ رِجالَ اللهِ كالجِبال، لا يَخْشَونَ أعاصيرِ الحادثاتِ، ولا يُسَلِّمونَ، خاصّةً أنّكَ مِن تَبْريزَ الخالدةِ، ومُرَبٍّ، وتعْلَمُ أنّ عُشّاق العالَم لا يموتونَ. ومِن جَديدٍ، الصّوتُ نفسُه بِقَصْفِ الرَّعْدِ كسَرَ صَمْتَ اللّيل.

ـ نَدْعُو مَوْلانا شَمْسَ الدّين إلى المبارَزة.

خرَجَ شَمْسٌ مِن الحُجْرةِ مِن دون أن يقولَ: وَداعًا، أو يعانِقَ مَوْلانا إيذانًا بالوَداع. أمّا طَنينُ آخِرِ كَلام شَمْسٍ فقد بقيَ في المكان هكذا:

ـ يُنادُونَني للقَتْل.

كان مَوْلانا جَلالُ الدّين هادئًا كالبَحْر، إذ كان جالِسًا في مكانه، ومَنْ ذا الذي يقدِرُ عَلَى أن يُعبِّرَ عن قُدْرته الباطنيّة العظيمة، أو يصوِّرَ بالكلماتِ ويرْسُمَ عَلَى الورَقِ ما كان يَمُرُّ في ذهنِ مَوْلانا في تِلْكَ اللّحظات المؤلمة. أمّا المُسَلَّمُ به فهو أنّ شَمْسًا كان يتقدَّمُ نحْوَ فَضاءِ التّضحية مِن أَجْلِ حِفْظِ الميراثِ النّفيسِ لِلْعِرْفان الإيرانيّ. وهو، حَتّى في اللّحَظاتِ الأخيرةِ، ما كان يستمِدُّ العونَ مِن مُراده مَوْلانا. كان مُتظاهِرُو قُونِيةَ يَدْعُونَ رَجُلًا عظيمًا إلى تقديم الرُّوحِ في مَذْبَحِ المبادئ؛ أي ليقتلُوه.

أكانَ ممكِنًا، بإراقةِ دَمِ شَمْسٍ، أن يُطفَأ مِصْباحُ العِرْفان؟ ـ أكانَ الظّمَأُ إلى الانتقامِ يُرْوَى بِمَوتِ شَمْس؟ ـ أكانَتْ شَمْسُ العِرفانِ الإيرانيّ تَتوارى في مُحاقِ(*) الظّلام؟

* ـ المُحاقُ مِن الشَّهْرِ: ثلاثُ لَيالٍ مِن آخِرِه، يشتدُّ فيها ظَلامُ اللّيل [المترجم].

غاصَ مَوْلانا جَلالُ الدّين في تفكيرٍ عميق: لماذا يجِبُ أن يَقتُلَ إنسانٌ إنسانًا آخَرَ؟ ـ لماذا يجِبُ أن يُوجَدَ بين أَفْرادِ البَشَر الظّمأُ إلى الانتقام؟

إذا كانَـتْ هـذه الجـداولُ جارِيـةً مِـنْ بَحْـرٍ واحِـد

فلمـاذا كـانَ هـذا عَـذْبًا فُراتًـا، والآخَـرُ سَـمًّا زُعافًـا؟

وإذا كانَتْ جُملةُ النّاسِ قد جاءَ تْ مِن صُنْعِ يَدٍ واحِدةٍ

فَلِمـــاذا كـــانَ هـــذا صـــاحِيًا، وذاكَ ثَمِـــلًا؟

وإذا كانَـــتِ الأَنْـــوارُ كُلُّهـــا مِـــنْ شَـــمْسِ البَقـــاء

فمِنْ أينَ جاء الصُّبْحُ الصّادِقُ والصُّبْح الكاذِب؟[1]

[٣٤٠] شَياطينُ الشّرّ والإجرامِ تَحَلّقُوا حَولَ شَمْسٍ غاضبينَ ضاجّينَ بالقيلِ والقال. لم يكُنْ شَمْسٌ، بسببِ إيمانه الرّاسخِ بالحقّ والحقيقة والمعرفة، يريدُ أن يَسْتَسْلِمَ كالعُصفُور، أمامَ العاصفة. كانَتِ الخناجِرُ الحادّةُ تنزِلُ بقَسْوةٍ في جَسَدِ إنسانٍ مُخْلِصٍ، واحِدًا إثْرَ الآخَر. كان شَمْسٌ يصيحُ، ويقاومُ ستّةَ أفرادٍ أَوْباشٍ مِن أَهْلِ قُونِيَةَ، باليَدِ والصَّفْع. ومعَ أنّ جسَدَه تلطّخَ دَمًا مِن ضَرَباتِ خَناجِرِهم المبدِّدة لِلْقُوّة، ظَلّ منشغِلًا بالجِدالِ مِن دُونِ أن تكونَ لَدَيه خَشْيةٌ مِن الموت. وقد فصَّلَ الأفلاكيُّ في كتابه «**مناقب العارفين**» القَولَ في رَسْمِ صُورةِ تلكَ اللّيلة البائسةِ السَّوداء، على هذا النّحو:

«كانَ مَوْلانا شَمْسُ الدّين... في إحدى اللّيالي جالِسًا عنْدَ مَوْلانا في الخَلْوة... أشارَ شَخْصٌ مِن الخارج برِفْقٍ [طالبًا] منه أن يخرُجَ. وفي الحالِ، نهَضَ وقالَ لحَضْرةِ جَلالِ الدّين:

---

١ ـ المثنوي: ١٦١٢/١ ـ ١٤

ـ يُنادُونَني إلى القَتْل.

وبَعْدَ توقّفٍ طَويل، قالَ مَوْلانا:

ـ المَصْلَحة!

ويُقالُ إنّ سَبْعةَ أَشْخاصٍ مِن أربابِ الحقارة والحسَد والعِناد... وقَفُوا في كَمينٍ، وعندَما واتَتْهم الفُرصةُ سَحَبوا السّكاكينَ، فصاحَ مَوْلانا شَمْسُ الدّين صيحةً أفقدَتْ تِلكَ الجماعةَ وَعْيَها، وعندَما استعادوا وَعْيَهم لم يشاهِدُوا غيرَ بِضْعِ قَطَراتِ دَمٍ. ومنذُ ذلكَ اليومِ لم تُرَ عَلامةٌ وأثَرٌ مِن ذلكَ الذي هو سُلْطانُ المعنى. وأولئكَ الحُقَراءُ الذين أَثاروا تلكَ الفِتْنةَ لم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حَتّى قُتِلَ بعضُهم، وأُصيبَ بعضُهم بالفالج، ووقَعَ واحِدٌ مِنهم أو اثنانِ مِن السَّطْح فهلَكوا. وظهَرَ لِعَلاءِ الدّين، ابنِ مَوْلانا، حُمّى مُحْرِقةٌ وعِلّةٌ عَجيبة، ثمّ وافَتْه المنيّةُ في حَياة والِدِه.

وقد أضافَ الأَفْلاكيُّ في نِهاية رِوايته:

اجتمَعَتْ كلمةُ بعضِ الأَصْحاب على أنّه عندَما جُرِحَ مَوْلانا شَمْسٌ بأيدي تِلْكَ الجماعة تَوارَى عن الأنظار.

وقالَ عبدُ الرّحمن جامي في كتابه «**نَفَحات الأُنْس**»: «عندَما صَحا أَوْباشُ قُونِيَةَ لم يَرَوا غيرَ قَطَراتِ دَمٍ، ومنذُ تِلْكَ السّاعةِ إلى اليومِ لم تَظهَرْ عَلامةٌ لسُلْطانِ المعنى هذا...»

لم يستَطِعْ مُتشرِّدُو قُونِيَةَ، الذين سَحَبُوا السّكاكينَ في الظّلام، أن يقاوِمُوا صَوْلاتِ شَمْسٍ، فقد جُرِحَ كُلٌّ مِن السّتّة، ووقَعُوا عَلَى الأرض. وعندَما شاهدَ عَلاءُ الدّين [٣٤١] أنّ شَمْسًا مجروحٌ، انتزعَ السّكّينَ مِن يَدِ أَحَدِ المخالفينَ، وأخَذَ يهاجمهم بِلا رَحْمة. فاضطُرّ بَعْدَ ذلكَ إلى أن يترُكَ المكانَ، ويَأوي إلى حُجْرة والِدِه. واستمرّ الجدالُ طَويلًا.

واحِدٌ منهم، كان قد أمسَكَتْ به قَبْضةُ شَمْسٍ، كالعُصْفُور في العاصفة، قالَ بِعَجْزٍ والتماسٍ:

- يا مَوْلانا، لَعَلّي ارتكبْتُ جُرْمًا يستوجِبُ أن أُقتَلَ الآنَ؟

تبسّمَ شَمْسٌ وقالَ: ماذا تقولُ يا رُجَيْلُ، كنتُم تُريدونَ أن تقتلُوني، لعلّكَ لا تعلَمُ أنّ المعرفةَ لا تموتُ بَتاتًا، و أنّ المِصْباحَ الذي أشعَلَتْه يدُ الحقيقة لا ينطفئ.

شَمْسٌ المتعَبُ المنهَكُ، وقَطَراتُ الدّم تنصَبُّ مِن جَسَدِه عَلَى الأرض، تَرَكَ قُونِيةَ بِهُدوءٍ تامٍّ إلى إِحْدى قُراها الخضراء، حَيثُ كان قد عمِلَ معلِّمًا لِوَقْتٍ طَويل. كان شَمْسٌ مسرورًا في داخله؛ لِأَنّ أعداءَه لم يستطيعوا أن يتغلّبوا عَلَيه ويقتلُوه. كان شَمْسٌ يعلَمُ أنّ طَهارةَ الذَّيلِ والتّقوى والاستقامةَ والعِرْفانَ، لا يهزِمُها البتّةَ المتواقِحُونَ والمُراؤون.

فيا عَجَبًا، كُلُّ ذلكَ الألَم، كُلُّ ذلكَ الدّم، لم تستطِعْ أن تُزلزِلَ إرادةَ شَمْس. الشّمْسُ التي كان شَمْسٌ شاهَدَ طُلوعَها مِن المشْرِق، لم تتوقّفْ حَتّى لِيومٍ واحِدٍ عن الإشراق. الرّسولُ القديمُ لِلْعِرْفان، الذي كان ثَمِلًا بِخَمْرةِ الوَحْدة، نفَضَ غُبارَ المجادَلة عن وَجْهِه وثيابِه، وبالتّدريجِ التأمَتْ دِماءُ جُروحِه. اللّحَظاتُ المملوءةُ بالهيَجان، التي تَصْحَبُ الانتقالَ مِن مكانٍ إلى مكانٍ آخَر، إلى المكانِ الذي يُسْلَمُ فيه الرّأسُ إلى تُرابِ قَدَمِ عاشِقٍ آخَر، كانَتْ قد حانَتْ. وإذا ما أُغلِقَتْ كُلُّ الأبواب في وَجْه العارف فإنّه سيمضي إلى مُخْتلَى العِشْق. كان شَمْسٌ ينقُلُ الخُطا إلى مَعْبَدِ العِشْقِ مُحَمَّلًا بالخواطِرِ والحوادِث، وكأنّه في تِلْكَ الدّقائق قد اطّلَعَ مِن طَريق الإشراق والإلهام عَلَى أنّه حتّى الآنَ لم يَحِنْ مَوتُه الظّاهريّ. فأمامَه مُهِمّةٌ أخرى، وعَلَيه أن يمضيَ مِن قُونِيةَ إلى مكانٍ غيرِ معلوم. انزلقَ شُعاعٌ مِن الشّمْسِ، التي كانَتْ

في الأُفق في حالِ بُزوغٍ، عَلَى جَبينِ شَمْس. اجتازَ آخِرَ تَلّةٍ كانَتْ تفصِلُ قُونِيةَ عن قُراها. وفي هذا المكان توقّفَ قليلًا، ومَرّةً أُخرى نظَرَ بإمعانٍ إلى قُونِيةَ، التي كانَتْ مُضاءةً تحتَ أَنوارِ شَمْسِ الصّباحِ المشْرقة. انهلّتْ قَطَراتُ دَمْعٍ مِن عَينَيه، ودَمْدَم: إنّ قُونِيةَ رائعةٌ، أمّا خَلْوةُ العِشْقِ فأَجمَلُ. [٣٤٢] بعْدَ ذلكَ تقدّمَ مُسْرِعًا نَحْوَ مقصِدٍ مجهول... وقد تجسّمَتْ أمامَ عينَيه عظَمةُ العِرْفانِ وخُلودُه، وأَحسَّ بِذلكَ مِن جديدٍ مِثْلَ جَرَيانِ الدّمِ في عُروقِه وجِلْده؛ كان ذَرّةً، وبعْدَ ذلكَ لم يَعُدْ موجودًا.

كان لَدَى مَوْلانا ترنّمٌ مُحْرِقٌ وإلهيٌّ، فسأَلَ ولَدَه عَلاءَ الدّين: لِماذا عَقَدتَّ العَزْمَ عَلَى قَتْلِ شَمْسِ الدّين؟ ـ أنكرَ عَلاءُ الدّين ذلكَ وقال: إنّه حِفاظًا عَلَى رُوحِ شَمْسِ الدّين اضطُرِرْنا إلى أن نُخرِجَه لَيلًا مِن قُونِيةَ، ولولا ذلكَ لَكانَتْ حَياتُه في خَطَر. وعندي عِلْمٌ أنّه البارحةَ استعدّ عدَدٌ كبيرٌ لقَتْله، وخرَجُوا مِن أَجْلِ الفَتْكِ به.

مَوْلانا الذي كان قد سَمِعَ صَدَى صِياحِ شَمْسٍ، سأَلَ ابنَه: هَلْ جُرِح شَمْسٌ؟ ـ وعندَما سَمِعَ إجابةً بالنّفي نهَضَ مِن مكانه، وبِمُساعَدةِ ابنه خرَجَ مِن الحُجْرة المظْلِمة، وتحتَ أَنوارِ النُّجومِ كان يَرَى بُقَعَ قَطَراتِ الدّم فوقَ الأرض.

انحنَى مَوْلانا، وأخذَ يشتمُّ قَطَراتِ الدّمِ بِعِشْقٍ، وبعْدَ ذلكَ نهَضَ مِن مكانه وقال لِعلاءِ الدّين الذي كان ينظُرُ إلى هذا المشْهَدِ المؤلم:

ـ يا وَلَدي، في المستَقْبَلِ ستكونُ حَياتُنا مملوءةً بالدّماء والآلام. لكنِ اعلَمْ، وكُنْ مُطمئنًّا، بأنّ عِرْفانَ الشَّرْقِ سيكونُ مزدهرًا. أنتَ جَرَحْتَ إنسانًا لأنّه كان مُنْشِدًا مَديحَ العِشْقِ، عِشْقِ الحَياةِ والإيمانِ بالإنسان. وفي المستَقْبَلِ سأقولُ كلامًا وأُنشِدُ أناشيدَ؛ لِكَي يعْرِفَ النّاسُ في هذا العالَم شَمْسًا، كما ينبغي ويَليقُ بِمَقامه، ويتحسَّسُوه في

أعماقِ وجودهم. لا قُوّةَ قادرةٌ عَلَى أن تَحرِمَني مِن التّعريفِ بِفَضْل شَمْسٍ، وتَسُدَّ طريقَ مقاصِدي العِشْقيّة. وإنّه في مَشْربِ عِرْفانِ الشّرْقِ، يمثّلُ الفِراقُ والبِعادُ والهَجْرُ وتحمّلُ الألَم أساسَ الحياة ومبْدَأها. ولا يوجَدُ عارِفٌ مِن دُون ألَم. ونحْنُ نقولُ:

ذَرّةُ ألَمٍ خيرٌ مِن الآفاقِ كُلّها.

وكُلُّ إنسانٍ يضْرِبُ أَنصارَ العِرْفانِ، سيتقوّضُ أساسُ وجودِه ويغدُو عالِيهِ سافِلَه. وآسَفُ، أيّها الابنُ العاقُّ، لِأَنّه كان لَكَ إسْهامٌ كبيرٌ في إيلامِ شَمْسٍ(١) وإيذائه، وهو الكاشِفُ عن العالَمِ السَّرْمَديّ والمتحدِّثُ كثيرًا عن عالَمِ الغَيب، عالَمِ ما وراءَ المادّة. تُريدُ أنتَ بِلا مُبالاةٍ أن تُغلِقَ مدرسةَ [٣٤٣] المعرفةِ والعِلْم إلى الأبد. وعلَيكَ أن تعْلَمَ أنّ العِقابَ الإلهيّ قَريبٌ، وأنّكَ أنتَ وأصحابَكَ لن تكونوا مِن دُون نصيبٍ منه.

شُوهِدَتْ أَماراتُ الخَوفِ والاضطرابِ في وَجْهِ عَلاء الدّين، على نَحْوٍ بدا فيه أنّه كانَ يُحِسُّ بأنَّ الأرضَ ترتجُّ تحْتَ قَدَمَيه.

كان عَلاءُ الدّين يرتجِفُ... وكانتِ الأرضُ أيضًا تحتَ قدَمَيْه تبدُو له كذلكَ. لم يكُنِ المُتظاهِرونَ والمُراؤونَ قادرينَ على الاحتفاظ بِتَوازُنِهم الرّوحيّ والجِسْميّ أمامَ عَظَمةِ الحقيقة وفَعاليّتها. إنّ أظهَرَ عَلامةٍ لهذا الصّنفِ مِن الأفراد، الذينَ لا إيمانَ في قُلُوبِهم، إنّما هي الوَحْشةُ والخَشْيةُ.

كانَ شَمْسٌ ينقلُ الخُطا بينَ أنغامِ الطُّيورِ وتحْتَ أنوارِ شَمْسِ الصّباح، نَحْوَ المَعْبَدِ الجديد لِلْعِرْفان. كان يُفكِّرُ بِغَرْسةِ العِرْفانِ المثْمِرة التي غُرِسَتْ في قُونِيةَ. وقد

١ـ الظّلُّ في قَوله سُبحانَه: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ صُورةُ الأولياء ... لأنّها دَليلُ نُورِ شَمْسِ الله
فانصَرِفْ عن الظّلّ، واظفَرْ بالشّمْس: ... تَعلّقْ بِأذيالِ المَلِكِ شَمْسِ التَّبْريزيّ
(المثنوي: ١/٤٢٨، ٤٣٠)

امتزجَ في نفسِه العِشْقُ والعِصْمةُ والوَجْدُ والهيَجانُ، بعضُها ببعضٍ. كان يفكِّرُ بالعِشْق، يَنبوعِ الوجودات، وبِخُلودِ العِرْفانِ الإيرانيّ الذي سيبقَى مَصُونًا مِن حَوادثِ القُرون والأَعْصار، كالحِجارة مِنَ الصَّوّان. استعادَ رُوحُ شَمْسٍ هدوءَه، وبدأَتْ لَحَظاتُ الشّوق والوَجْد، وبدأَتِ الأَشْجارُ والرُّبا والجبالُ بالرَّقْص، وابتعدَتِ الغُصَصُ وضُروبُ اليأسِ عن وُجوده. كان شَمْسٌ يسيرُ نَحْوَ الرّاحة، وكأنّه مِن كُلّ خَيْطِ شعاعٍ مُضيءٍ لِلشَّمْسِ أخذَ واحِدٌ مِن أَمثالِ جَلالِ الدّين يرقُصُ أمامَه منتشِيًا مهتاجًا. عَلَى مَقْرُبةٍ مِن شَمْسٍ، أُناسٌ وَقِحُونَ كانوا أَصْنامًا مِن عالَم النّاسوت يعزِفُونَ أنغامًا منسَجِمَةً موزونة. صارَ العالَمُ، كُلُّه، أمامَ عينَيه، مَحَلًّا لِتَجلّي العِشْق. وفي تِلكَ اللّحَظاتِ المملوءة بالهيَجانِ، صار شَمْسٌ كالمِرْآة، التي بسببِ جاذبيّتها انعكسَ فيها كُلُّ شيء، كلُّ محاسِنِ الطّبيعة، كُلُّ زَوايا الدّنيا الرّمزيّة. كان دَوِيُّ كلامِ شَمْسٍ يُسْكِتُ كُلَّ أصواتِ الطّبيعة، كان شَمْسٌ يصِفُ الجَلالَ الإلهيّ.

في اليومِ الذي بَدَأَ فيه شَمْسٌ [1] ينتقِلُ مِن قُونِيَةَ إلى مَصيرٍ جَديد، كان الصُّبْحُ الصّادِقُ

---

١ ـ هَلْ قُتِلَ شَمْسٌ في قُونِيَة؟ ـ لا يمكنُ الإجابةُ عن هذا السّؤال صَراحةً وبوضوحٍ وقَطْع. وقد ذكرَ الأفلاكيُّ في كتابه «مناقب العارفين» أنّ سبعةَ أَشْخاصٍ مِن الحُسّاد كانوا يَدًا واحِدةً، وقد تواروا في كمينٍ لِكَي يقتلوا شَمْسًا. وعندَما واتتهم الفُرصةُ طعنوا شَمْسًا بسِكّين. فأطلقَ شَمْسٌ صَيحةً أفقدَتْهم وَعْيَهم. وعبدُ الرّحمن جامي في كتابه «نَفَحَات الأُنس» نَقَلَ عَيْنَ ما ذكرَه الأفلاكيّ، ويضيفُ إليه أنّه عندَما استعادَتْ تلكَ الجماعةُ وعْيَها لم يَرَوا غيرَ عِدّة قَطَراتِ دَمٍ، وأنّه منذُ تلكَ السّاعةِ حتّى اليوم [اليومَ الذي كتبَ فيه هذه المعلومات] لم يظهَرْ لِشَمْسٍ أثر. ثمّ بعْدَ هِجْرة شَمْسٍ شاعَ نبأُ قَتْله في قُونِيَة. ولكنَّ جَلالَ الدّين البَلْخيّ وسُلْطانَ وَلَد لم يؤيّدا هذا الخبر. ولو أنّه ثبتَ لمَوْلانا أنّ شَمْسًا [٣٤٤] قُتِلَ في قُونِيَة لما كانَ سافرَ إلى دِمَشْقَ البتّةَ مِن أَجْلِ لِقاء معشوقه، ولم يَقِرَّ له قَرارٌ في طَلَب مطلوبه. فإنّ جَلالَ الدّين البَلْخيّ، بعْدَ ستّة أَشْهرٍ أقامَ فيها في دِمَشْق ولم يستطِعْ أن يجِدَ خلالَها شَمْسًا، أدركَه اليأسُ فعادَ إلى قُونِية. وفي المثْنَويّ (ج ٢/١١١٣ ـ ١٥)، في هذا الشأن، جاء قولُه:

وها أَنَذا دائبُ الدّوَرانِ حَوْلَ الشّمْس، فما أعجَبَها! ولا سَبَبَ لهذا سِوى جَلالِ الشَّمْس

وهذه الشّمْسُ مُطّلِعةٌ عَلَى الأسباب لكنّها غيرُ مرتبطةٍ بحبالِ الأسباب

=

لِلْعِرْفان [٣٤٤] الشّرقيّ، العِرْفانِ الإيرانيّ الأصيل الذي لا نهايةَ لِلْبَحْث فيه، قد بزَغَ.

شَمْسٌ لا يموتُ، شَمْسٌ لَنْ يموتَ، شَمْسٌ ومَوْلانا سيبقَيانِ خالِدَين. هذانِ الاسْمانِ سيَذْهَبانِ مِن قارّةٍ إلى قارّة أُخرى، ومِن مجَرَّةٍ إلى مَجَرّةٍ أكبرَ، وسيرَى العاشِقُونَ في القُرونِ والأعصارِ الأضواءَ الحقيقيّةَ للفِكْر السَّماويّ، في كانون فِكَر هذَين وآثارِهما(١):

لَـــوْ لَـــمْ يكُـــنِ الخَلْـــقُ مُحْجـــوبينَ كَثيفِـــينَ
ولَـــــوْ لَـــــمْ تكُــــنِ الحُلُـــــوقُ ضَـــــيّقةً ضَـــــعيفةً
لَأعطَيْـــــتُ في مَـــــديحِكَ حَـــــقَّ المعنـــــى
ولَتفَوّهْـــــــتُ بِغَيْـــــــرِ هـــــــذا المنطِـــــــق
وإنّ شَـــرْحَ أَحْوالِـــكَ لِأَهْـــلِ الـــدُّنيا كالغَيـــب
فَلْأَكْتُمْـــــهُ في داخلـــــي كأنّـــــهُ سِـــــرُّ العِـــــشْق

= وقد قطَعْتُ الأمَلَ آلافَ المرّات مِمَّنْ؟ـ مِنْ هذه الشَّمْس! فهَلْ تُصَدّقُ قَولي؟

وقد ذكرَ سُلْطانُ وَلَد، ابنُ مَوْلانا، في كتابه «وَلَدْ نامه» قولَه: عندَما عَلِمَ شَمْسٌ بِعَداوة حُسّادِ قُونِيَةَ الحَقَراء ومؤامرتهم، قالَ في أحَدِ الأيّام لمَوْلانا: هؤلاءِ الأدْعِياءُ يريدونَ أن يُبعدوني عنكَ بِكُلّ وسيلةٍ ممكنة، وبعْدَ ذَهابي يُظهرونَ الابتهاجَ والسّرورَ، ولكنْ:

أريدُ هذه المرّةَ أن أذهبَ على نَحْوٍ لا يعلَمُ فيه أحَدٌ أين أنا
صاروا جَميعًا عاجِزينَ في الطّلَب لا يعلَمُ أحَدٌ أين أنا
وبغتةً ضاعَ مِن بَينِ الجميع لِكَي تذهبَ الأحزانُ كلُّها مِن القَلْب

١ ـ كتَبَ مؤلّفُ كتاب «بُستان السّياحة» في موضوعِ كيفيّة قَتْل شَمْسٍ، قولَه: «يُحكى أنّه في إحْدى اللّيالي كان شمسُ الدّين يتحدّثُ في الخَلْوةِ معَ مَوْلانا، ويرفعُ أعْلامَ الطّريقة في أعالي الحقيقة. وبغتةً، أشارَ شَخْصٌ مِن خارجِ الباب إلى شَمْس. فقالَ مَوْلانا: مَنْ؟ ـ فقالَ حَضْرةُ شَمْس: يَدْعُونَني إلى القَتْل. وعندَما خرجَ سَمعَ مَوْلانا صيحةً، فخرجَ مُسْرِعًا. وعندَما نظَرَ، رأى قطرةَ دَمٍ مُراقةً. ومنذُ ذلكَ الوَقْتِ إلى الآنَ، بقيَ من شمسِ الدّين اسْمٌ فقط، كالعنقاء. ويقول بعضُهم: إنّ شمسَ الدّين قال لمَوْلانا في المنام: قُتِلْتُ وأُلقِيتُ في بئر. وعندَما استيقظَ مَوْلانا ذهبَ إلى بئرٍ وأخرجَ جسَدَ يُوسُفَ مِصْرِ الولايةِ مِن البئر، ودفنَه في مكان مناسب». وقد شاهدَ كاتبُ هذه الأسطر في أثناءِ رحلته إلى قُونِيَةَ مَزارَ شَمْسٍ، الكائنَ بالقُرب مِن مزار مَوْلانا، الذي هو مَطافُ أصحابِ القُلُوب.

[٣٤٥] إنّ مادِحَ الشَّمْسِ مَدّاحٌ لِنفسِه، عَلَى الحقيقة

كأنّـهُ يقـولُ: إنّ عينَـيَّ مُبْـصِرتانِ، ولَيـسَتا رَمْـداوَيْنِ

وذَمُّ شَـمْسِ العـالَـمِ هـو ذَمٌّ لِلـنَّفْس

كـأنّ فاعِلَ ذلكَ يقولُ: إنّ عَينَيَّ عَمْياوانِ مُظْلِمتانِ كَليلَتانِ

وإنّ مَـدْحَكَ عنـدَ المسجونينَ ظُلْـمٌ لَـهُ

فعَلَـيَّ أن أنطَلِـقَ بِـهِ إلـى مَحْفِـلِ أَهْـلِ الـرّوح[1]

---

١ ـ المثنَوي: ٣/٥ وما بعْدُ

بحثٌ قصيرٌ في شَأْنِ دِيوانِ شَمْسٍ والمثْنَوي

أَحَدُ المُحققِّينَ المدقِّقينَ في شأن مَوْلانا قَدّمَ مِثْلَ هذه الإفادةِ في شأن شَمْسِ الدّين محمّد مُلْك دادْ التَّبْريزيّ: «نعلَمُ أنّ حَياةَ شَمْسٍ مغلَّفةٌ بغِلالةٍ مِن الإبهام، وأنّ علاقةَ مَوْلانا بهذا الرَّجُلِ الطّاعِنِ في السِّنّ إحدى أكثَرِ الوقائعِ إثارةً لِلْعَجَب وانطواءً عَلَى الأسرار...».

ولَسْتُ أَدري لِماذا نَمّى هذا المحقِّقُ المحترَمُ مِثْلَ هذا الانطباع عن صُوفيَّيْنِ، أو قَلَنْدَرَيْنِ[1]، معَ ما لَدَيه مِن صَفاءٍ في الذّهن والألْمعيّة، وما رَسَمَه بالكلماتِ على صَفَحاتِ الورَق، معَ أنّه لو نظَرَ بعِنايةٍ إلى لَطيفةِ العِشْق الغَيبيّةِ، وتوفّر له الاطّلاعُ الكافي عَلَى الكَراماتِ والمعجِزات التي يحقّقُها العِشْقُ، وتأمّلَ عِرْفانيًّا أشعارَ مَوْلانا وغزَليّاته، واندمجَ بالآمالِ القديمة لمَوْلانا وتجاربه، [لو حصَلَ ذلكَ كلُّه] لَما ظلّ لُغْزُ اللّقاءِ والعلاقةِ اللّذَيْنِ حَصَلا بين ذَينِكَ الصّوفيَّيْنِ العظيمَيْنِ، اللّذَيْنِ كانا ـ باعترافِ العلّامةِ جَلال الدّين هُمائي ـ مِن أَولياء الحقّ، خَفِيًّا على باحثٍ حقيقيّ. وقد كان مِن كَراماتِ شَمْسٍ أن شَيخَ بَلْخ طَوَى بمُساعدته المَسافةَ مِن مَقامات التّبتُّلِ إلى مَقامِ الفَناء، دَرَجةً دَرَجةً. وفي النّهاية، يمكِنُ القَولُ إنّه في شُعاعِ آراءِ شَمْسٍ وفِكَره يجيءُ قولُ مَوْلانا جَلال الدّين:

أَنــــا الحــــائِرُ مِــــنْ مُلاقاتِــــكَ

حتّــى صِــرْتُ كخَيــالٍ مِــن خَيالاتِــكَ

---

١ ـ القَلَنْدَرُ: فارسيّةٌ، معناها: دَرْويشٌ متجرِّدٌ ومتجوِّلٌ، ولا ينتسِبُ إلى طَريقةٍ بعَينها [المترجم].

وإنّ فِكْـري وتَـصَوُّري مِـنْ كلامِـكَ

حَتّى كـأنّ أَلْفاظَكَ وعباراتِكَ هي أنا

ومعَ هذا التّفاوُتِ بينَ الرَّجُلَين، لَوْ لم يكُنْ شَمْسٌ موجودًا لَما وُجِدَ الدّيوانُ الكبيرُ وكتابُ المثْنَوِيّ، اللّذانِ هما أَكْبرُ [٣٤٧] الآثارِ الخالدةِ في الأدَب الفارسيّ، وأكثرُها جَدارةً بالقِراءة، وأعظَمُها قِيمةً وقَدْرًا. وهذا جَلالُ الدّين في لَحَظاتِ الوَلَه يصوّرُ وَضْعَه النّفسيَّ في السَّيْرِ والسُّلوكِ بعِشْقٍ وتحبُّبٍ، على هذا النّحْو:

أَفْـرُكُ عَيـنَـيَّ مُتَـسائلًا: أَهـذا مَنـامٌ أَمْ خَيـال؟!

لا أُصَـدِّقُ، عَجَبًـا أَيُّهـا الحبيـبُ، أنّ هـذا أنـا

نعَـمْ، هـذا أنـا، ولكِـنْ خرَجْـتُ مِـنَ «الأَنـا»

وأَخذَ جِسْمي يَنْحَلُ حَتّى صِرْتُ كالهلالِ، مِنْ أَثَرِ بَدْرِك

أَنـتَ نَفْـخُ صُـورِ القِيامـة، وأَنـا جَـسَدُ مَيْـتٍ

أَنـتَ رُوحُ الرّبيـعِ الجَديـد، وأَنـا الـسَّرْوُ والـسَّوسَنُ

قُلْـتُ أَنـا نِـصْفَ الأَمْـرِ، فقُـلْ أَنـتَ البـاقيَ منـه

أَنـتَ العَقْـلُ المحْـضُ، وأَنـا غَبِـيٌّ جِـدًّا

رَسَمْتُ أنا صُورةً، وإِعْطاءُ الرُّوحِ مِن شأنكَ أنتَ

أَنـتَ رُوحُ رُوحِ الـرّوحِ، وأَنـا قالَـبُ الجَـسَد

ومعَ أنّ كُتّابَ التّذاكِر(*) في عَصْر مَوْلانا جَلالِ الدّين، كالأَفْلاكيّ وسِپَهْسالار،

* ـ جَمْعُ تَذْكرة، ويُعنَى بها هنا المجموع، أوالكتاب، الذي تُجمَعُ فيه تَراجِمُ الشّعراء أو الأدَباء أو المؤلِّفينَ أو الأَولياء [المترجم].

ذكَروا أنّه في السَّفَر الثاني لِشَمْسٍ إلى قُونِيَةَ واختفائِه بَغتةً انزَعجَ جَلالُ الدّين وبَكَى وناحَ واضطَرَبَ، حَتّى إنّ ابنَه رَسَمَ بالكلماتِ وبمَقاطِعِ الشّعْر ملامحَ والده عَلَى هذا النّحْو:

وَصَــلَ صَــوتُه وتحــسُّرُه إلــى العَــرْش

وسَــمِعَ أنينَــه الكبيــرُ والــصّغير

انداحَ طُوفانٌ مِن الآلامِ والغُصَصِ والوَلَه في كُلِّيّة وجودِ مَوْلانا حتّى إنّه اضطُرَّ إلى أن ينشغلَ في جَلَساتِ السَّماع بإنشادِ الغزَليّات، أو ينهَمِكَ في حُجْرة مُختلاه بالتضرّع والدّعاء. كأنّما فِراقُ شَمْسٍ وهِجْرانُه كان يَضطَرُّه إلى أن يتعشّقَ خَيالَه وصُورتَه المحفوظةَ في ذِهْنه، ويكونَ فِكْرُه باحِثًا في الموجوداتِ عن معشوقِه، أو ـ كما يذهَبُ أحَدُ الأقوال ـ كان شَمْسٌ هو الذي يُلقِّنُه الشِّعْرَ، ويُشَوِّقُه إلى مجالِسِ السَّماع، ويُلْهِمُه أشعارًا لأنّها كانت تخرجُ من سُوَيداءِ قلبه كانت تبدو بديعةً نديّةً مثيرةً لِلْعِشْق. أو كما يقول الأستاذ الدّكتُر غُلامْحُسَين يوسُفي: «... تَصْويرُه في الشّعْرِ نَضِرٌ جَميلٌ بارعٌ مُثيرٌ للإعجاب![1]».

كان مَوْلانا، مِثْلَ فريد الدّين العطّار، طَلًّا ونَدًى من البَحْر؛ لأنّه غاصَ في بَحْرِ شَمْسٍ. ويذهَبُ بعضُ الباحثينَ إلى أنّ السَّماعَ والشّعرَ وشَمْسًا جعلَتْ مَوْلانا ناسيًا نفسَه، وجعلَتْ وجودَه وكلامَه مُثيرًا ومنشِّطًا ومُهيِّجًا، مِثْلَ أنينِ النّاي. كان كانونُ [موقِدُ] إلهامه نَقاءَ العِرْفان ونِداءَه المتعالي. أمّا رِينولْدْ أَلين نيكلْسُون ـ المترجِمُ والمفسِّرُ الإنكليزيّ الشّهيرُ الذي ترجَمَ مثْنَوِيَّ مَوْلانا إلى اللّغة الإنكليزيّة وشرَحَه ـ فيعتقدُ أنّ المثْنَويَّ وديوانَ شَمْسٍ يتدفّقانِ مِن مجْرَيَيْنِ متباعِدَين؛ أحَدُهما نَهرٌ كبيرٌ وعَظيمٌ وهادئٌ وعميقٌ، والآخَرُ [٣٤٨] تَيّارٌ كالسَّيْلِ صاخِبٌ مُجَلْجِل. والسّؤالُ المعروضُ هو:

١ـ من كتابه «چشمهٔ روشن»، ص ٢١١.

هَلْ لِقاءُ شَمْسٍ وحالُ الجَذْبِ التي حصَلَتْ لمَوْلانا بعْدَ فِراقِ سُلْطانِ المعشوقين هذا، هما اللّذانِ استلزَما أن ينتقِلَ مَوْلانا إلى عالَم النَّظْمِ والإنشاد؟

عن هذا السُّؤال يجيبُ المرحومُ الأستاذُ جَلالُ الدّين هُمائي على هذا النَّحْو:

«... كتبَ بعضُهم يقولُ: إنّ مبدَأَ ظُهورِ شاعِرِيّة مَوْلانا كانَ عندَما ظَفِر بلِقاءِ شَمْسٍ. وقبْلَ ذلكَ لم يكُنْ ثمّةَ أَيُّ ذِكْرٍ لِمَرحلةِ شِعْرٍ وشاعريّة. وقد دلّ عَلَى ذلكَ أيضًا ظاهِرُ كلامِ «مَثْنَوي» سُلْطان وَلَد، حيثُ يقولُ:

صارَ الشّيْخُ المفتي، بِسَببِ العِشْقِ، شاعِرًا

صارَ ثَمِلًا، معَ أنّه كان زاهِدًا

لَيْسَ مِن الخَمْرةِ التي هيَ ابنةُ العِنَب

فإنّ الرُّوحَ النُّورِيَّ لا يحتسي إلّا خَمرةَ النُّور

أمّا تَصْديقُ أنّ مَوْلانا ظَلّ حَتّى سِنّ التاسعةِ والثلاثين خِلْوًا مِن القُدرة على إنتاج الشِّعْر، وأنّه ابتداءً مِن ذلكَ العُمر أُعْمِلَتْ شِعْرِيّةٌ لها كلُّ هذه القوّةِ وتمكُّنِ الطَّبْع والإحاطةِ بفُنون البلاغة وأَمارات الفصاحة، فيبدُو في الظّاهر أمرًا صَعْبًا. معَ أنّ ظُهورَ هذا النّوعِ مِن خَرْقِ العادات هو بمَدَدِ توفيقِ الجَذْب الإلهيّ، وتأثيرِ كيمياءِ العِشْقِ المعجزةِ التي يستترُ فيها خاصّيّةُ قَلْبِ الماهِيّات، وتُسَهِّلُ المشكلاتِ، وتجعَلُ الممتنعاتِ ممكنةً. ولا يمكنُ أيضًا إنكارُ أنّ العِشْقَ قد صنعَ مِن هذا الكثيرَ، ويَظلُّ يصنَعُ[١]. ولا يمكنُ وَزْنُ هذه الحقائق بميزانِ عقول الطّائشين، وينبغي أن تُسْمَعَ الكلماتُ بحقيقتها.

---

١ ـ مقدّمة المرحوم الأستاذ جَلال الدّين هُمائي لديوان شَمْس تَبْريز الذي أُصْدِرَ بعناية السيّد منصور مُشْفق [الأصل].

أمّا شَيخُ = بَلْخ الذي يقولُ في ديوانه بِلا مُبالاةٍ:

لا تَلُـمْ أيّهـا الحبيـبُ، انظُـرْ إلـى يـومِ القِيامـة

أَنـا مَـوجٌ، كُلّـي جَيَـشانٌ، ولَـدَيّ دُرَرُ بَحْـرِك[١]

هذا الصُّوفيُّ المتيَّمُ، الذي اقترنَ نَجْمُه بنَجْمِ شَمْسٍ = فيجيبُ سُؤالَ النّاسِ في شأنِ كيفَ تحوّلَ فَقيهُ الرّومِ الشّرقيّة العالي القَدْر إلى شاعِرٍ مُنشِدٍ للغزَل، على هذا النّحْو:

كـــانَ المُـــــــصْحَفُ في يَـــدي دائمًـــا

أمّـــا في العِـــشْقِ فقَـــدْ أمـــسَكْتُ بالـــصّغانة(*)

وفي الفَـــمِ الـــذي كـــان فيـــهِ التّـــسْبيحُ

شـــــعْرٌ ودُوبَيْـــــتُ ورُبـــــاعيّ[٢]

نعَمْ، العِشْقُ والولَهُ والجَذْبُ والهِجْرانُ والتّسليمُ والفَناءُ في العِشْق، التي كانَتْ قد امتزجَتْ بالسَّماع، جعَلَتْ مِن فَقيهٍ مَشْهورٍ شاعِرًا مُنشِدًا لِلغزَل وعاشِقًا محترِفًا. وهذه المسألةُ - وَفْقَ قَولِ مَوْلانا - لا يدركُها أيُّ إنسانٍ؛ لأنّه

[٣٤٩] لَيْسَ في وُسْعِ غِرٍّ أن يـدْرِكَ حـالَ مَنْ أنـضجَتْهم التّجـارِبُ

فلابُـــدّ مِـــن إيجـــازِ الكـــلامِ، والـــسّلام

مَنْظوماتُ مَوْلانا لابُدَّ مِن أن تكونَ نِتاجَ هَيَجانٍ واشتياقٍ، وجَيَشانُ العِشْقِ هو الذي هو أَلْقى شُعْلَةً في جِسْمِه ورُوحِه، تمزِجُ الكلامَ والأصواتَ؛ لِكَي يتحادثَ معَ المحبوب مِن دُون هذه الثلاثة. وعندَما تكونُ هناك آلةٌ، كالصَّنْج(**)، يعزِفُ الألْحانَ

---

١ - ديوان شَمْس تَبْريز، الغزَليّة ١٦١٢.

* - آلة موسيقيّة، وهذه الكلمة تعريبُ للفارسيّة «چغانه» [المترجم].

٢ - ديوان شَمْس تَبْريز، الغزَليّة ٢٣٥٢.

** - آلةٌ بأوتارٍ يُضربُ بها، معرَّبة «چنگ» الفارسيّة [المترجم].

المختلفةَ، ويخاطِبُ سُلْطانَ المعشوقينَ شَمْسًا على هذا النّحْو:

أَنتَ الخَمْرةُ وأَنا الإبريقُ؛ أَنتَ الماءُ، وأنا النّهرُ

في أيّ مكانٍ أنا ثَمِلٌ، وساقِيَّ هو أَنْتَ؟

أنتَ الأذُنُ، أنتَ العَينُ، ومِنَ الجميعِ المختارُ هو أنتَ

أَنتَ يُوسُفُ المسْروقُ، فتعالَ إلى السُّوق

أَنتَ ضِياءُ النّهار، أَنتَ السُّرورُ المبدِّدُ لِلْغَمّ

أَنتَ القَمَرُ المنيرُ لِلّيل، تعالَ أيّها السَّحابُ النّاثِرُ للسُّكّر

مَوْلانا في أَثْناءِ إنشادِه الغزَلَ، يكونُ كالقَلَم في يَدِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ، وهذا العِشْقُ الصّوفيّ كان ينبعثُ في نفسِه معَ الاستماعِ لِكلامِ معشوقه. ولَوْ لم تظهَرْ مخطوطاتُ كتابِ «**مقالات شَمْس**» بِمَساعي المستشْرِق الألمانيّ هِلْمُوت رِيتر والأستاذ عبد الباقي گلبينارلي، في الذّخائر الخطّيّة لمكتباتِ تُرْكِيةَ الكبيرة، لَما عَلِمْنا مَن يكونُ شَمْسٌ هذا، حتّى جعَلَه جَلالُ الدّين البَلْخيّ ذريعةً لامتحانِ طَبْعه الشّعْريّ. وهو «حَقيقةً، يبعثِرُ الفِكَرَ التي يُعالجُها... وكَلامُه - كما يقولُ الأستاذُ محمّد علي مُوحِّد [محقّقُ المقالات] - معَ كُلّ ما ينطوي عَلَيه مِن صُوَرِ اضطرابٍ ونَقْصٍ، يتلألَأُ كالألْماسِ وَسْطَ «المقالات». وابتغاءَ تقديمِ نَموذجٍ، أنقُلُ هنا جُمَلًا قابِلةً للتأمّل مِن كلامه:

«يقولُ كَليمُ الله: «أَرِني». وعندَما عَلِمَ أنّ ذلكَ خاصٌّ بِأَتْباعِ محمّد أَخَذَ يطْلُبُ: «اللّهمَّ، اجعَلْني مِنْ أمّة محمّد» (عَلَيه الصّلاةُ والسّلام). كان يُريدُ مِن «أَرِني» عَينَ: «اجعَلْني مِنْ أمّة محمّد». عندَما رأى شُعاعَ رَجُلٍ اعتلى ذلك الجبلَ، فصَغُرَ الجَبَلُ، قال: لَيْسَ هذا مِن شأني، بَلْ: اجعَلْني مِن أمّة محمّد.

قالوا: الآنَ، اذهَبْ إلى حَضْرة الخضر لِعِدّة أيّام. الخضرُ أيضًا يقولُ: «اللّهمَّ، اجعَلْني مِنْ أُمّة محمّد». هناك نُورٌ آخَرُ يُغِيرُ عَلَى مُوسى والخضر. تنظُرُ إلى عيسى فتراهُ في ذلك النُّورِ حَيْرانَ. تنظُرُ إلى موسى فتراهُ في ذلك النُّورِ حَيْرانَ. لِمُحمّدٍ نُورٌ طَغى على الأنوارِ كلّها. وفي الآخِر، انظُرْ، هَلْ تجِدُ أنّ تلكَ الخَلْوةَ وذلك الذّكْرَ مِن سُنّة محمّدٍ ومُتابعته؟ نعَمْ، كان لِمُوسى إشارةٌ: «أَربعينَ لَيْلةً». ثمّ، أينَ مُتابعةُ محمّدٍ حتّى لا يقْدِرَ مُوسَى على تحمُّلِ تَمنِّيها، بَلْ يقولُ: «اجعَلْني مِن أهدابِ سَرْجه»[1].

عندَما كان مَوْلانا يسْمَعُ هذه الأمورَ التي يأتي ذِكْرُها بِطَريقةٍ عِرْفانيّة عَلَى لِسانِ مُرادِه، كان [٣٥٠] يرفَعُ الصّوتَ ويُنشِد:

ما أَجْملَ الشَّمْسَ التي لا نهايةَ لها، التي تتحدّثُ عنها

أَأَنتَ نُورُ ذاتِ الله، أَأَنتَ اللهُ، لا أَعلَمُ

آلافُ الأَرْواحِ اليعقُوبيّةِ تَظَلُّ تحترِقُ مِن هذا الجَمال

فلماذا أنتَ، أَيْ يُوسُفَ الجَمِيلينَ، في هذه البئر، لا أَعلَمُ[2]

ومِن شُعاعِ العِشْقِ، كان رُوحُ جَلالِ الدّين يغدُو أكثرَ إِشْراقًا، وكان يتخلّصُ مِن نفسِه، ويخاطِبُ كانونَ إلهامه وإِشْراقِه:

في كُلّ لَحْظةٍ يَصِلُ نِداءُ العِشْقِ مِن اليَسارِ واليمين:

نَحْنُ نَمْضي إلى الفَلَك، فمَنْ لَدَيه عَزْمٌ على الفُرجَةِ وإمتاعِ النّظَر؟

١ـ مقالات شَمْس، ص ٢٨٤.

٢ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغزَليّة ١٤٣٧.

فقَـدْ كُنّـا في الفَلَـك، كُنّـا أَصْـحابًا وأصْـدِقاءَ لِلْمَلَـك

ومِـن جَديـدٍ، نـذْهَبُ جميعًـا إلـى عَـينِ المكـان، فتِلْـكَ مَـدينتُنا

نَحْـنُ أَسْـمى مِـن الفَلَـك، وعنـدَنا زِيـادةٌ عَلَـى الملَـك

فَلِمــاذا لا نتجــاوزُ الاثْنَـينِ، إنّ مَنزِلَنــا هــو الكِبْريــاءُ

الحَــظُّ الــشّابُّ حَبيبُنــا، وبَــذْلُ المُهَــجِ عَمَلُنــا

وأَميــــرُ رَكْبِنـــا فَخْـــرُ الـــدّنيا، المُـــصطَفَى[1]

كان العِشْقُ، عندَ فَقيهِ الرّومِ الشّرقيّة، كالمِعْراج إلى سَقْفِ سُلطانِ الجَمال، فقد كان الشّيخُ التَّبْريزيّ، عَلَى الحقيقة، يُمْسِكُ بيَدِه ويأخذُه إلى تِلْك الناحية.

وفي شأن «**المقالات**»، التي صار جَلالُ الدّين بالاستماعِ إليها مِن لِسانِ مُرادِه مُشَتّتَ الذّهنِ ومتغيّرًا، هناك أَقْوالٌ كثيرةٌ أُرجئها إلى طَبْعتي الثانية للكتاب. وأختِمُ هذا القِسْمَ بشيءٍ مِمّا كتبَه الأستاذُ محمّد علي مُوَحِّد [محقّق كتاب «مقالات شَمْس»]:

مَقالاتُ شَمْسٍ مِن ناحيةِ طَلاوةِ الكلامِ في أَوْجِ الكَمال، وتُعَدّ مِن أَجْملِ التُّحَف الخالدة في النّثْرِ الفارسيّ، وأكثَرِها خلابةً وسِحْرًا. أمّا مِن ناحية المعنى فهي كَنْزٌ فَذٌّ ووثيقةٌ مُوفَّقةٌ وعزيزةٌ جِدًّا لِرَجُلٍ عظيمٍ كان مَوْلانا يُسمّيه «مَوْلى الأَسْرار[2]» و«سُلْطانَ المعاني[3]»، وكان يَرَى نفسَه في مَقامِ التَّسْليمِ والخضوعِ

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغزَليّة ٤٦٣.

٢ ـ مولَى أَصْحابِ الأَسْرارِ — الذي يظلّ يُعْطي السُّعَداءَ السّعادة
هو قَرارُ الرّوحِ شَمْسُ الدّين التَّبْريزيّ — فلا جعَلَ اللّهُ لِرُوحي ابتعادًا عنه

٣ ـ السُّجودُ كلُّه، أَوْجُه وحَضيضُه، — لِشَمْسِ الدّين سُلْطانِ المعاني

له كالحَمَلِ الوَديعِ في يَدِ الرّاعي[1]. وهذه الوثيقةُ حامِلةٌ لِرسالةٍ جَعَلَتْ مَوْلانا عارِفًا مِنْ طِرازٍ خاصّ[*]، وهي - تَحْقيقًا - مِفْتاحٌ لِفَهْمِ آثارِه الشّريفة، وجَوْهرٌ - معَ كُلِّ ما فيه مِن تَكسُّر - يُقَدَّرُ بآلافِ الدّنانيرِ الكاملةِ العِيار.

[٣٥١] فلِنَمْضِ إلى غَرَضِنا، وَلِنتحدّثْ عن «ديوان شَمْس»، الذي شغلَ لِزَمَنٍ طويل سالكي طَريقِ المعرفةِ في كلّ مَشْرَبٍ ومَسْلَكٍ، خاصّةً طالبي اللّطيفةِ الغَيبيّة، المُسَمّاةِ: العِشْقَ الصِّرْفَ. أولئكَ الذينَ، مِثْلَ مَوْلانا، «سَكِروا مِن جَامِ عِشْقِ شَمْسِ الدّين[2]». فهو ديوانُ الجَذْبِ والهَيَجانِ والحالِ، الذي كان يَسْكُبُ الأنوارَ المرقِصةَ لِشَمْسِ العِشْقِ المشْرِقة المتّقدة على كَلِماته ومَصاريعه[3].

وفي أكثَر غزَليّاتِ «ديوانِ شَمْس» يُطالعُنا إمّا مَلامحُ شَيْخِ تَبْريزَ الرّمزيّةُ، وإمّا أخبارُ صَلاحِ الدّين زَرْكُوب، وإمّا مُحَيَّا حُسامِ الدّين چَلَبي المحبوب. وهو - في رِوايةٍ - انعكاسٌ لِرُوحِ مَوْلانا المضطَرِبِ وجَسَدِه المتعَبِ مِنَ الهَجْر. وبناءً عَلَى ذلكَ، يمكِنُ قَطْعًا القولُ: إنّ هادِيَ جَلالِ الدّين في إنشادِ الغزَليّاتِ الصّافيةِ الباعثةِ عَلَى المحبّة هو رُوحُ العُشّاقِ، الذي كان قد رَسَخَ في رُوحِ مَوْلانا المضْطَرب، وكان قَلْبُه المفعَمُ بالعِشْق تحتَ تَصرُّفِ هذه الغزَليّات. الشّعْرُ في مُعْجَمِ مَوْلانا لَيْسَ رَقْصًا بالكلمات، ولَيْسَ أَشْباحًا

١ـ يا مَنْ أنتَ نِداءٌ ودَعْوةٌ مِن ذلك العالَم — يا مَنْ جئتَ لِكَيْ تدعوَني
كُنّا منتظرِينَ لِكلامِكَ — فعُدْ إلينا، إنّكَ رَسُولٌ مِن اللّامكان
- نحنُ عندَك أمانةُ شُعَيب — فارعَنا بِمَحبّةٍ ورَحْمة

* ـ يريد: جعلَتْ مَوْلانا عارفًا متميّزًا [المترجم].

٢ـ تَغدُو ثَمِلًا مِن جامِ عِشقِ شَمْسِ الدّين — إذا كُنتَ مِن جُمْلةِ نَيِّري القُلُوب

٣ـ أيّها السّاقي، أينَ ذلكَ اللّطفُ يومَ أن كُنتَ ـ كالشّمْس ـ — تَسْكُبُ النّورَ المرقِصَ في الذّرّات
(ديوان شَمْس)

وخَيالاتٍ، بَلْ هو تَأَثُّراتٌ إلهاميّةٌ، فَيضٌ خالدٌ وثابتٌ لِلْعِشْق، العِشق لِكانونِ الحقيقة، لِنُورِ الأَنْوار، العِشْق لِلْجَمال، وأخيرًا: العِشْق للإنسانِ الكامل.

ولَيْسَ شَمْسٌ وَحْدَه على هذه الحال، بَلْ كثيرٌ مِن الأشخاصِ الذين بعْدَ هِجْرانِ شَمْسٍ لمَوْلانا كان نورُ المعرفةِ يتلألأُ في نَواصيهم، وكانوا قد نالوا مِن فَيْضِ رُؤيةِ الباطِنِ مَقاماتٍ، كانوا يَطيرونَ بِرُوحِ مَوْلانا الظّامئ المُعَنّى المضطَرِبِ إلى شُرْفة العَرْش. وقد انعكسَتْ هَيَجاناتُ هذه الدقائقِ المؤثِّرةِ في ديوان شَمْس. المفهوماتُ التي كان يُحِسُّ بها ولم يستَطِعْ أن يَبوحَ بها للآخَرين، كانت تُهِمُّهم في السَّماعِ الخالِقِ لِلرُّوح.

ويقولُ أَحَدُ المتعمّقينَ في دَرْس مَوْلانا:

«ديوانُ شَمْسٍ كالبَحْرِ، زاخِرٌ بالحركة مَوّارٌ بالحياة».

«وتحتَ الظّاهِرِ لَمعانٌ وهُدُوءٌ دُنْيَويٌّ مملوءٌ بالخَفَقانِ والحياة والحرَكة».

«ينطوي عَلَى كُلّ ما هو مستحيلٌ في الحياة!».

[٢٥٢] وابتغاءَ التّمثيلِ وتقديمِ النَّموذج، آخُذُ بيَدِ القارئ القَويّ القَلْبِ إلى مَدارِ عِشْقِ شَمْسٍ ومَوْلانا:

هـذا هُـوَ ذلـكَ النّهـرُ الـذي يُـديرُ الفَلَـكَ الأزرقَ

هـذا هُـوَ ذلـكَ الوَجْـهُ الـذي يحيِّـرُ القمَـرَ والزُّهَـرة

هـذا هُـوَ نُـوحٌ الـذي لَـوحُ المعرفـةِ سَـفينتُه

وكُـلُّ مَـنْ لا يـدخُلُ إلـى سَـفينته يُغرِقُـهُ بالطّوفـان

وكُـلُّ مَـنْ يرتـدي خِرْقـةً، مِنـه، يرفَـعُ خِرْقـةَ الفَلَـك

وكُـلُّ مَـنْ يظفَـرُ بِلُقْمـةٍ مِنـه، يجعَـلُ لَـهُ حِكْمـةَ لُقْمـان

وهذا الكلامُ ماءٌ مِن بَحْرِ العِشْق، الذي لاضِفافَ له

وما دامَ يُعطي العالَمَ ماءً، يظَلُّ يجعَلُ لِلْأَجْسامِ أَرْواحًا

وإذا تقدّمْتَ في طَريقِ العاشِقينَ بالفَقْرِ والصّدْق

جعلَكَ شَمْسُ التَّبْريزيّ مُصاحِبًا للرّجال[1]

وقد حدَثَ لأَوّلِ مرّةٍ أن زُيِّنَ ديوانُ شَمْسٍ في الهند بحِلْية الطّبع. والمؤسِفُ أنّ هذا الدّيوانَ المشتَمِلَ على خمسينَ ألفَ بيتٍ متداخِلٌ معَ أَشْعارِ شُعَراءَ آخَرين، ومِن ذلكَ أنّ مئتَي غَزَليّةٍ منه لِشاعرٍ اسْمُه شَمْسُ المَشْرِقيّ. لكنّ اثنَيْنِ مِن الأساتذة المشهورينَ والمدقّقين في دَرْس مَوْلانا القَليلي النّظيرِ في بلادنا، أي المرحومَيْنِ بديعَ الزّمان فُروزانْفَر وجَلالَ الدّين هُمائي، نَشَرا دائرةَ معارف العِشْق هذه بعْدَ مُقابَلَةِ أكثرِ مخطوطاتِ الدّيوان الكبير ثقةً وضبْطًا، وقدّمَ كُلٌّ منهما لِطَبعته بمُقدّمةٍ مُسْهَبةٍ وخليقةٍ بالقراءة. وقد جُدّدتْ طِباعةُ نَشْرتَيهما مرّاتٍ حتّى الآنَ، بسببِ نَفادِ النُّسَخ التي تُطبعُ في كُلّ مرّة. وعِدّةُ أبياتِ منظوماتِ مَوْلانا الغزَليّة بالفارسيّة والعربيّة والمُلَمّعات[*]، عَدَا الرُّباعيّات، ٣٦٣٦٠ بيت. أمّا رُباعيّاتُ مَوْلانا فقد نُشِرَتْ بعِناية المدقِّقِ المشهور في دَرْس مَوْلانا المرحومِ الأستاذ أُلْفَتْ.

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز، الغزَليّة ٧٣٠.

* ـ شكلٌ شِعْريّ فارسيّ، يكون أحَدُ مِصْراعَي البيت فيه فارسيًّا، والآخَرُ عربيًّا، أو يكونُ فيه بيتٌ بالفارسيّة والآخَرُ بالعربيّة [المترجم].

المثْنَوِيُّ دائرةُ معارفِ التّصوّف والعِرْفان

المثْنَويُّ أكثَرُ تجلّياتِ الذّوقِ العِرْفانيّ لجلالِ الدّين الرّوميّ جَدارةً بالقراءةِ وامتلاءً بالهيَجانِ وقُدرةً عَلَى التَّعليم. ويبدَأُ الكتابُ الأوّلُ(*) منه بِروايةٍ باعثةٍ على الاعتبار لِشَكْوى النّاي مِن الفراق حتّى نهايةِ الكتابِ السّادس، إذ يتناوَلُ قِصَصًا متنوّعةً وجَديرةً بالقراءة متداخلةً، مَبنيّةً عَلَى أساسِ اللّطيفةِ الغَيبيّة المُسَمّاةِ العِشْقَ، الذي هو طَبيبٌ لِجُمْلة عِلَلِ الإنسان ودَواءٌ لِلغُرورِ والكِبْر.

وعندَ كثيرٍ مِن المدقّقينَ في دَرْس مَوْلانا، الأساسُ والمِحْوَرُ لمدرسة مَوْلانا أُسْلُوبًا ومقصودًا هو رَكيزةُ العِشْق، الذي يعطي لِسالكي الطّريق المولَويّ الهيَجانَ والدّوَرانَ والنَّماءَ والنّشاطَ والضّياء. فبعدَ أن عادَ جَلالُ الدّين مِن دِمَشْقَ، إذ شاهَدَ شخصيّةَ شَمْسٍ في نفسِه، انشغلَ بالسَّماعِ والرَّقْصِ إلى جانب مُغَنِّي المدينة، ولم ينشَغِلْ بالمطالعةِ ونَشْرِ المعارِفِ إلّا في ساعاتِ الرّاحة. ولهذا السّببِ، لم يتمكّنْ مِن مُساعدةِ الطّالبينَ وإرشادهم. ومِن هذه الوِجْهة، كان يريدُ أن يحوِّلَ أداءَ هذه الوظيفةِ إلى واحِدٍ مِن مُحِبّيه الذين يُعتمَدُ علَيهم وأَهْل الوَرَع والتّقوى، فوقعَ الاختيارُ عَلَى صَلاح الدّين فَريدُون زَرْكُوب، الذي كان رَجُلًا عاديًّا وأُمِّيًّا. وقد كتبَ الأُستاذُ الدُّكْتُر عبدُ الحُسَين زَرّين كُوبْ في هذا الشأن قولَه:

«كانَ صَلاحُ الدّين مِن مُريدي سيّد بُرهان الدّين محقّق ومُحِبِّه. ويقولُ الأفلاكيُّ: إنّ سيِّدَ بُرهان عندَما كان قد قالَ: «أَسْلَمْتُ «قالي» إلى مَوْلانا جَلالِ

---

* ـ كتابُ «المثْنويّ» لمولانا جلال الدّين الرّوميّ ـ رحمهُ الله ـ مؤلّفٌ من ستّة كتب، أو أجزاء [المترجم].

الدّين و [٣٥٤] «حالي» إلى الشّيخِ صَلاحِ الدّين... جعَلَ مَوْلانا صلاحَ الدّين خليفتَه. وقد جاءتْ هذه القضيّةُ على المريدينَ، الذين كانوا يَرَونَ أنّ زَرْكُوبَ ساذَجٌ وبسيطٌ وعامّي، ثقيلةً قاسيةً»[1].

وكان كثيرونَ مِن مُحِبّي مَوْلانا، وحَتّى مِن أَخْلاصِه، يَرَونَ أنّ زَرْكوبَ غيرُ مؤهَّلٍ لإرشادِ السّالِكين. وقد ذكَرَ سُلْطانُ وَلَد، ابنُ مَوْلانا، في كتابه «وَلَدْ نامه» قولَه: «كان عامِّيًّا خالِصًا، وساذَجًا وجاهِلًا، والحسَنُ والسَّيّئُ عندَه سِيَّانِ. كان لَدَى مَوْلانا إيمانٌ راسِخٌ بِصَلاحِ الدّين، وقد حدَثَ أنّه كلّما ازدادَ احترامُ مَوْلانا إيّاهُ وإكرامُه، ازدادَتْ عداوةُ النّاس له. وفي إجابة مَوْلانا عن سُؤالِ أَصْحابه، الذين كانوا يقولون: «إنّ زَرْكوبَ رَجُلٌ أمّيٌّ»، كان يقولُ اقتباسًا مِن أقوال العارِفين السّابقين: «العِلْمُ هو الحِجابُ الأكبرُ». وأنشدَ مَوْلانا في المثْنَويّ:

لا يكتُبُ أحَدٌ عَلَى ورقةٍ مكتوبةٍ، البتّةَ

ولا يغرِسُ أحَدٌ فَسيلةً في موضعٍ مَغْرُوس

فالكاتِبُ يبحَثُ عن ورقةٍ غيرِ مكتوبةٍ

والغارِسُ يضَعُ البِذْرةَ في موضعٍ لم يُبذَرْ فيه

فكُنْ، أيُّها الأخُ، موضِعًا لم يَغْرِسْ فيه أحَدٌ

كُنْ ورقةً بيضاءَ لم يكتُبْ عَلَيها أحَدٌ شيئًا[2]

في وقتٍ مِن الأوقات، زادَتْ علاقةُ مَوْلانا بِصَلاح الدّين عن الحدّ، حتّى إنّه في سُوقِ الصّاغةِ في الرّوم الشّرقيّة استبدَّ به حالٌ فأخذَ يدورُ أمامَ دُكّانِ صَلاحِ الدّين،

---

١ ـ من كتاب «جستجو در تصوّف ايران»، ص ٢٩٩.

٢ ـ المثْنَوي: ١٩٦٣/٥ ـ ٦٥.

فخرَجَ صلاحُ الدّين مِنْ دُكّانه صائحًا، ثمّ عَلَى وَقْعِ مَطارِقِ صُنّاعه انشغلَ مَوْلانا بالسّماع. وقد امتدّ هيَجانُ مَوْلانا العجيبُ هذا لِساعاتٍ، إلى أن نالَ التّعَبُ مِن صلاح الدّين، فاستأذنَ حَضْرةَ مَوْلانا قائلًا: لَيْسَ لَدَيَّ طاقةُ السَّماعِ التي لَدَى مَوْلانا؛ ذلكَ أنّني ضعُفتُ مِن تأثيرِ الرّياضات والمُجاهَدات..

وبعْدَ شَمْسٍ كان مَوْلانا مُولَعًا بصَلاحِ الدّين، الذي أنشدَ باسْمِه واحدةً وسبعينَ غزَليّةً، وأمرَ ابنَه سُلْطان وَلَد بِأنّ يتزوّجَ مِن كريمةِ الشّيخِ صلاح الدّين، «فاطمة خاتون». وقد حصَلَ هذا الزّواجُ عامَ ٦٤٧هـ. ولمدّةِ عشَرَةِ أعوامٍ، ظلّ صَلاحُ الدّين هو الذي يتولّى أمْرَ إرشادِ المُريدينَ وأعمالَ الشّيخ، إلى أن توفّاه اللهُ عامَ ٦٥٧هـ. وأَوْصى قُبيلَ وفاتِه بأن لا يُعْمَلَ عَزاءٌ في مَراسِمِ تشييع جِنازته، وأن يُوارَى الثَّرَى على صَوْتِ السَّماع[1]. ويذكُرُ كُتّابُ التّذاكِرِ [٣٥٥] المعاصرونَ لمَوْلانا في هذا الشأن قولَهم:

«... قَدَمَ مَوْلانا، فكشفَ عن رأسِ صَلاح الدّين، وأخذَ يَنْعِرُ [يصيح بخَيْشومه] ويتأوّه، وأمَرَ بأن يبشِّرَ قارِعُو الطُّبول. وقامَتِ القيامةُ مِن نَفيرِ النّاس. وكان يتقدّمُ الجِنازةَ ثماني مجموعاتٍ مِن القَوّالين [المغنِّينَ]، وحَمَلَ جِنازةَ الشّيخ الأصحابُ الكِرامُ، وظلّ مَوْلانا يمشي حَتّى ضريحِ والِده، بَهاء وَلَد، وهو يدُورُ حولَ نفسِه ويُنْشِدُ. ودُفِنَ في جِوارِ سُلْطان العلَماء [والِد مَوْلانا] في عام ٦٥٧

١ ـ جاءفي كتاب «وَلَدْنامه» قولُ سُلْطان وَلَد:

قالَ الشّيخُ: في جِنازتي ... أحْضِروا الطّبولَ الكبيرة، واضربوا عَلَى الدّفوف
وامضُوا نَحْوَ قَبري راقصينَ ... مبتهجينَ مَسْرورينَ ثَمِلينَ مُصَفّقين
لِكَي يُعْلَمَ أنّ أَولياءَ الله ... يَمضُونَ إلى اللّقاءِ مَسْرورينَ ضاحكين

مِن الهجرة. وأنشدَ مَوْلانا في رثائه شِعْرًا، بيتُه الأوّلُ قولُه:

يا مَنْ مِنْ هِجْرانِكَ بكَتِ الأرضُ والسَّماءُ

وجلَسَ القلْبُ وسْطَ الدّم، وبكَى العَقْلُ والرُّوح

ويقالُ إنّ مَوْلانا وجَدَ في جِوار صلاحِ الدّين هُدوءَه، الذي إبّانَ فِراقِ شَمْسٍ أحاطَ بأساسِ رُوحِه وجَسَده. ويبدو الأمرُ كما يقولُ الأستاذُ بديعُ الزّمان فُرُوزانفَر: «تلكَ النّارُ التي اشتَعَلَتْ في رُوحِ مَوْلانا بافتقادِ صُحْبةِ شَمْسٍ واضطَرَمَتْ، انطفأتْ بماءِ لُطْفِ صلاح الدّين وتَسْكابِ فَيْضِه»[١].

ثمّ بعْدَ وفاةِ صلاحِ الدّين بعِدّة سنواتٍ، كان لِشابٍّ ممتلئٍ بالهيَجانِ والحالِ ومطَّلِعٍ ووَرِعٍ ـ كان هذا الشّابُّ مِن أبناءِ الأَخِيّينَ، أو فِتْيانِ قُونيةَ، واسْمُه حُسامُ الدّين حَسَن چلَبي، وكانَتْ أُسْرتُه قد جاءَتْ من أُرْمِيةَ إلى الرّوم الشّرقيّة ـ أن يصبحَ خَليفةً لِصلاحِ الدّين زَرْكوب، بِمُوافقة مَوْلانا وأصحابه. والمعروفُ أنّه باقتراحِه هو ورَغْبته، نظَمَ مَوْلانا كتابَه «المثْنَويّ». ولهذا السَّبب، سَمّى مَوْلانا حُسامَ الدّين في مقدِّمة المثْنَويّ: «مفتاحَ خَزائنِ العَرْش، وأمينَ كُنُوزِ الفَرْش، وأبا يزيدَ الوقْتِ، وجُنَيدَ الزّمان». ومِن وِجْهةٍ أُخْرى، كانوا في قُونِيةَ يُسَمّونَ هذا الشّابَّ «أخي تُرْك»؛ لأنّ آباءَه وأجدادَه كانوا مِن الكُبَراءِ والمشايِخِ في طريقة «الفُتوّة». وكان الفِتْيانُ يُسَمّونَ شيخَهم «أَخِي».

وقد بلَغَ مِن مَحبّةِ مَوْلانا لِحُسامِ الدّين، الذي صار هو ومُرِيدوهُ مِن جُملةِ أَصْحابِ مَوْلانا وأخْلاصِه، أن صارَ ذِهْنُه ـ كما يقولُ الأستاذُ فُرُوزانْفَرْ ـ: «لا يتفتّحُ

---

١ ـ شرح حال مولوى، ص ١١١.

عندَما لا يكونُ چلبي موجودًا، وفي المجْلِسِ الذي يغيبُ عنه چلبي كان الفُتورُ يُلِمّ بِمَوْلانا، ولا يتحدّثُ في المعرفة»[١].

في يومٍ مِن الأيّام، إِذْ كانَ حُسامُ الدّين جالسًا في محضَرِ مُرادِه مَوْلانا، خاطَبَ مَوْلانا قائلًا:

«كثيرًا ما انشغلَ أصحابُنا في المجالِسِ بِقِراءةِ أَشْعار سَنائي والعَطّار، ولَدَيَّ رغبةٌ في أن يعمَلَ حَضْرةُ مَوْلانا ـ عَلَى طريقةِ كتابِ «إلهي نامه» لِسَنائي الغَزْنَويّ، وهو المعروفُ بـ «حَديقة الحقيقة»، أو كتابِ «مَنْطِق الطّير» لفريد الدّين العطّار ـ عَلَى نَظْمِ المطالِبِ العِرْفانيّة شِعْرًا.

فابتسَمَ مَوْلانا، وأخرجَ مِن عِمامته، حالًا، وَرَقةً تنطوي على الثّمانيةَ عَشَرَ بيتًا الأُولَى مِن المثْنَويّ، وأَسْلَمها إلى حُسامٍ لِكَي يقرأها، ويبدو الأمرُ كما يقولُ الأستاذُ زَرّين كُوبْ: «... وبعْدَ ذلكَ واصَلَ مَوْلانا نَظْمَ المثْنَويّ بتأثيرِ قُوّةِ جَذْبِ حُسامِ الدّين، وكُلُّ ما كان مَوْلانا يقولُه، كان حُسامُ الدّين يكتبه»[٢].

وفي مُقابِلِ كتابِ «حَديقةِ الحقيقة» لِسَنائي، الذي كان اسْمُه «إلهي نامه»، سَمّى مَوْلانا كتابَه المثْنَويَّ: «حُسامى نامه» [بالفارسيّة بِمَعْنَى «الكِتاب الحُساميّ»، أو «كتاب حُسام»]. وفي اللّيالي، كان حُسامُ الدّين يجلِسُ في حُجْرة مَوْلانا: يكتبُ ويقرَأُ بصَوته الجميلِ ما كان مَوْلانا يتْلُوه عَلَيه مِن نَظْم المثْنَويّ. وفي بعضِ اللّيالي، كان هذا البرنامَجُ يستمرّ حتّى الصّباح. وكأنّ هَيَجانَ مَوْلانا وتوفُّزَه قد بدأ مِن جَديد، إذ لم يكُنْ يَقِرُّ له قرارٌ، لا نهارًا ولا لَيلًا.

---

١ ـ نفسه، ص ١١٤.

٢ ـ جستجو در تصوّف ايران، ص ٢٩١.

ويعتقدُ الأستاذُ الدّكتُر محمّد شفيعي كَدْكَني أنّ «المثْنَوِيَّ أشهَرُ مَثْنَويٍّ في اللّغة الفارسيّة؛ إذْ جُعِلَ مُطْلَقُ عُنوانِ «مثْنَويّ» خاصًّا به. لأنّه أثرٌ عظيمٌ يُذكَرُ إلى جانبِ الكُتُب المقدَّسة. وهو أيضًا مِن جِهةِ البِدايةِ والنّهاية وامتلاكِ نَظْمٍ خاصٍّ خارجٍ عن كُلّ أنظمةِ التّصنيفِ والتأليفِ، وكذا مِن جِهة عَرْضِ المَطالبِ وطريقةِ التّمثيلِ، ينطوي على شَبَهٍ بالكُتُبِ المقدَّسة[١]».

وإذا ما شئنا تَقْسيمَ منظوماتِ جَلال الدّين البَلْخيّ على مَدْرستَيْنِ: العَقْل والعِشْق، أو القال والحال، فإنّنا نستطيعُ أن نُسمِّيَ «المثْنَوِيَّ» كتابَ القالِ المستطابَ، و«ديوانَ شَمْسٍ» كتابَ الحالِ والعِشْق والهُيام. ويقولُ الأستاذُ جَلالُ الدّين هُمائي:

إنّ آخِرَ كتابٍ لِمَدرسةِ العِشْق هو ديوانُ غزليّاتِ شَمْسٍ، وهو هنا لا يريدُ إلّا العِشْقَ والاضطرابَ والجُنونَ والوَجْدَ والحالَ والهيَجانَ والضّجيجَ... وقد أحرقَتْ حَرارةُ شَمْسِ تجلّي شَمْسٍ دَفْعةً واحِدةً كُلّيّةَ وجودِ مَوْلانا، بكُلّ ما انطوى عَلَيه مِن ادّعاءِ العِلْم والعِرْفانِ وكَرامةِ الشَّيخيّة والقُطْبيّة والإمامة[٢].

وإذا ما حَذَفْنا مِن المثْنَويّ الحكاياتِ الجذّابةَ الخليقةَ بالقراءة، التي سَمِعَ أغلَبَها مِن شَمْسٍ التَّبْريزيّ [٣٥٧] ووردَتْ في كتابه «المقالات»، فإنّ صَرْحَ المثْنَويّ سيكونُ مِن دُون أَعْمِدة.

وفي الأَصْل، المثْنَويُّ في الأدَبِ والثقافةِ الفارسيَّيْنِ يُقال شِعْرًا، إذ لِكُلٍّ مِن مِصراعَي البيتِ الواحِدِ عَينُ القافية، ويكونُ مجموعُ الأبياتِ متّحِدًا مِن جِهة الوَزْن.

---

١ ـ من مقدّمة «گزيدهٔ غزليّات شَمْس»، ص ١٤.

٢ ـ مِن مقدّمة الأستاذ جَلال الدّين هُمائي لديوان شَمْس تَبْريزي، ص ٥٣.

ولِناظِمِي المثْنَويّ في إيرانَ سابقةٌ طويلةٌ، فإنّه منذُ زَمانِ رُودَكي وأبو شَكُور البَلْخيّ كان المثْنَويُّ يُستعمَلُ في نَظْمِ حِكاياتِ الحَرْبِ والقِتال وحَفَلاتِ الأُنْس والشّراب، وفي التّعاليمِ الأخلاقيّة والعِرْفانيّة. وقد نُظِمَتْ «**شاهنامةُ**» الحكيمِ أبي القاسم الفِرْدَوسيّ، وبُستانُ سَعْديّ الشّيرازيّ، **وحديقةُ الحقيقةِ** أو إلهي نامه لِسَنائي الغَزْنَويّ، و«**الخَمْسةُ المشهورةُ: مخزَنُ الأَسْرار، وخُسرو وشيرينَ، ولَيلى والمَجْنون، والعَرائسُ السَّبع [هفت پيكر بالفارسيّة] وإسكندر نامه**» لِلنّظامي الگنجَوي، على طريقة المثْنَويّ.

وقد أنفقَ نيكلسون ـ المستَشْرِقُ والعالِمُ العامِلُ الإنكليزيُّ الأَصْلِ ـ ثلاثينَ مِن أعوامِ عُمرِه البالغةِ سبعةً وسبعينَ في تَصحيحِ كتاب المثْنَوِيّ وشَرْحِه والتّعريفِ به. وتولّى تقديمَ أكبرِ خدمةٍ في تعريفِ جَلال الدّين وفِكَره لِلنّاس. ويُعتقَدُ أنّ عددَ أبياتِ الكُتُبِ السّتّةِ المؤلّفة لِمَثنويّ مَوْلانا، وَفقًا لِلرّوايات وكذا وَفقًا للنُّسخ المخطوطة والمطبوعة الموجودة، مختلفٌ متباينٌ. وقد ذكرَ صاحِبُ «**كَشْف الظُّنون**» أنّ مجموعَ أبياتِ المثْنَوِيّ هو ٤٨٠٠٠ بيت. وفي طَبْعةِ نيكلسون بلَغَ ذلكَ ٢٥٦٣٢ بيت؛ وجاء عددُ الأبياتِ في الكُتب السّتّة لِلْمَثْنَويّ على هذا النّحو:

الكتابُ الأوّل ٤٠٠٣ بيت

الكتابُ الثّاني ٣٨١٠ بيت

ـ الكتابُ الثّالث ٤٨١٠ بيت

الكتابُ الرابع ٣٨٥٥ بيت

الكتابُ الخامس ٤٢٣٨ بيت

الكتابُ السّادسُ ٤٩١٦ بيت

وقد نُشِرَ المَثْنَوِيُّ في إيران مِرارًا، مستقِلًّا غالبًا، أو مصحوبًا بتفسيرٍ وشَرْح، وأحيانًا معَ كَشْفِ الأبيات. والمَثْنَويُّ منظومٌ على بَحْرِ الرَّمَل المُسَدَّس، وقد بدأ جَلالُ الدّين نَظْمَه عامَ ٦٥٧هـ، وظلّ منهمِكًا في إكماله حتّى آخِرِ عُمره.

ويعتقِدُ بعضُ المدقِّقينَ في دَرْس مَوْلانا والباحثينَ الكبار، أنّ هَدَفَ مَوْلانا مِن نَظْم المثْنَويّ هو بَيانُ دقائقِ التصوّفِ وتفسيرُ آياتِ القرآن الكريم والأحاديث النَّبويّة. وكذلكَ كان مَوْلانا في تحريرِه الأجزاءَ السّتّةَ ناظِرًا إلى «**مقالات شَمْس**».

[٣٥٨] جاء في كتابِ «**نَفَحات الأُنْس**» لِعَبْد الرّحمن جامي: أنّه عندَما انتهى نَظْمُ الكتابِ الأوّلِ مِن المثْنَويّ تُوفِّيت زوجةُ حُسام الدّين چلبي، وظَلّ حُسامُ الدّين لمدّة سنتَين مُشتّتَ الخاطر. ونتيجةً لذلكَ، تأثّر مَوْلانا أيضًا وأدركَه الملَلُ وتأخّرَ نظْمُ المثْنَويّ طُولَ هذه المدّة، حَتّى حدثَ في آخِرِ الأمرِ أن طلَبَ حُسامُ الدّين إلى مَوْلانا أن يُقْدِمَ عَلَى إكمال المثْنَويّ، فشَرَعَ في نَظْمِ الجزْءِ الثّاني عام ٦٦٢هـ؛ وكان يومُ البَدْء يومَ استفتاحٍ، «منتصف رَجَب»:

لِأَنَّ المثْنَـــوِيَّ كــــان صَـــيقَلًا لِـــلْأَرْواح

كانَـــــتْ عَودتُـــــه يـــــومَ اســــــتفتاح

وكان مطْلَعُ تـاريخ هـذه التِّجـارة وذلـكَ الرِّبْح

في العـام الهِجْـريّ سِـتِّ مئـةٍ واثنَـينِ وسِـتّين[١]

ويذهبُ الأستاذُ فُرُوزانْفَر إلى أنّ مُصاحبةَ حُسامِ الدّين چَلَبي ومَوْلانا امتدّتْ

---

١ ـ المثنوي: ٢/٦ ـ ٧.

خمسةَ عَشَرَ عامًا. وكان مِن تأثير هذه المصاحبةِ أنّ التّعاليمَ والفِكَرَ والعقائدَ الصّوفيّة، الممتزِجةَ بفِكَرِ جلال الدّين البَلْخيّ المتعاليةِ وعقائده، بُنيتْ بطَريقِ التّمثيل على خَيرِ وَجْهٍ. وبمُطالَعةِ المثْنَويِّ وتأمُّله، يمكنُ الوصولُ إلى هذا الاستنتاج: أنّ تصوّفَ مَوْلانا مُتبلْوِرٌ ومتكامِلٌ؛ وربّما يكونُ قُلّةَ العِرْفانِ والتّصوّف الإيرانيّ بعْدَ الإسلام.

والأفلاكيُّ في كتابه «**مناقب العارفين**»، وفي شأن المثْنَوِيّ، نقَلَ عن مَوْلانا أنّه قال:

«مَثْنَويُّنا مَعْشوقٌ مَعْنَوِيٌّ لا نظيرَ له في الجَمال والكَمال، وكذلكَ هو بُستانٌ مُهَيّأٌ وشجَرةٌ مُهَنّأَةٌ، صُنِعا مِن أجْلِ مُستنيري القُلُوبِ وأَصْحابِ النّظَر والعُشّاقِ المحترقي الأكباد. فما أجملَ ذلكَ الرّوحَ الذي يكونُ محفوظًا بِمُشاهدةِ هذا الشّاهدِ الغَيبيّ، ويغدو مَلْحوظًا بنظَرِ عِناية رِجالِ الله؛ لِكَي يُكتَبَ في دفتر «نِعْمَ العَبْدُ إنّه أوّابٌ».

وقد كتَبَ الأستاذُ الدّكتُر ذَبيحُ الله صَفا، في الجزء الثّالث مِن كتابه «**تاريخِ ادبيّات در ايران**»، في شأن المثْنَويّ، ما يأتي:

«بتَحْريضِ حُسامِ الدّين وتَشْويقه، وبالسَّعْي المتواصِل لمَوْلانا في عددٍ مِن السّنينَ في آخِرِ عُمره، ظهَرَ إلى الوجود واحِدٌ مِن الآثارِ البارزة لِلْفِكْر البشَريّ، هو في الوَقْتِ نفسِه مِن أَحَبِّ هذه الآثار إلى القَلْب وأَلْطَفِها. كذلكَ عُرِفَ في زَمانِ الشّاعر بأنّه أَجْملُ المنظوماتِ العِرْفانيّة والحِكْميّة وأَكْمَلُها، وصار منذُ ذلك الوَقْتِ أَنيسًا لِلْعارفينَ، وجَليسًا لَلأَتقياءِ الوَرِعين»[1].

وقد بيّنَ مَوْلانا في **المثْنَويّ** جيّدًا نَظَريّاتِه الرّائعةَ في شأنِ [٣٥٩] السَّيرِ التّحَوُّليّ لِعالَم

١ـ تاريخ ادبيّات در ايران، دكتر ذبيح الله صفا، الجزء ٣، ص ٤٦٤.

الوجود، والفِكَرِ المتعلِّقة بالأضداد، إذ الحياةُ صِراعٌ بينَ الأضداد، ووَحْدةِ الوجود.

وأختِمُ هذا البحْثَ بقَولِ العارفِ والمحقِّقِ المشهور صَدْر الدّين القُونَويّ، الذي هو مِن مُحِبِّي مَوْلانا والمتعلِّقينَ به:

«لو كان أبو يَزيدَ والجُنَيدُ حَيَّيْنِ في ذلك العَهْد، لحَمَلا غاشيةَ سَرْجِه[*] بِكَمالِ الذّوق والحُبّ، ولَوَضَعا المِنّةَ على نَفسَيْهما. فقد كان مُضيفَ مائدةِ الفَقْر المحمّديّ، ونحْنُ نتذوّقُ بفَضْلِ طُفَيْليِّه»[1].

حدَثَتْ وفاةُ مَوْلانا في الخامس مِن جُمادى الآخِرة عام ٦٧٢هـ.

---

* ـ غطاء زِينيّ للسَّرْج، يوضَعُ عليه عندَ نزولِ الفارس العظيم عن جَوادِه والعبارةُ تعني المبالَغةَ في التعظيم [المترجم].

١ ـ نفحات الأنس، لجامي، ص ٤٦٤.

رُؤيةُ مَوْلانا للعالَم

المثْنَوِيُّ واحِدٌ مِن أَنْفَسِ الذّخائرِ الأدبيّة في إيران، وأَثرٌ قَليلُ النّظير، وهو أَسْمَى كتابٍ، وأجدَرُ كتابٍ بالقراءة ،عندَ المتشوِّقينَ إلى العِرْفان والسّالكينَ لِوادي الطّريقة؛ فإنّ المادّةَ الفِكْريّةَ فيه أغنى مِن نظيراتها في الآثارِ الأُخرى لِشُعَراء التصوّف، وهي تُوجِدُ في القارئ حالًا مِن الاهتياج والتأثّرِ والوَجْد والشّوق. وإنّ أحَدَ الرّوافِدِ الأصليّةِ لِفِكَر جَلال الدّين البَلْخيّ، القابلةِ لِلْفَهْم والإدراك، الهجرانُ. وفي هذا الأثَر، خصّصَ شاعِرُ بَلْخَ كانونَ إشراقِه وإلهامِه العجيب لِلْعِشْق. وفي نطاقِ فِكَرِ الوجودِ والجَبْرِ والاختيارِ، سَطّرَ عَلَى صَفَحاتِ الورَق نِتاجَ نُبوغِه الصُّوفيّ في أَسْمى صُورةٍ، على نَحْوٍ هيّأَ لبعضهم أن يقولَ: إنّ آثارَ مَوْلانا غدَتْ منبعَ إلهامِ كثيرٍ مِن الشّعراء والمؤلِّفينَ على امتدادِ قُرونٍ بعْدَ وفاته.

وفي المثْنَوِيّ، يعتقدُ مَوْلانا أنّ الصّوفيَّ المؤمنَ، والسّالِكَ المخْلِصَ المعتقدَ، لا يُثبِتُ وجودَ الله بالعَقْل، بَلْ يُحِسّ بذلكَ عَلَى نَحْوٍ ملموس بالقلب؛ فالحِكْمةُ الصّوفيّةُ حِكْمةٌ ذَوْقيّة.

ولا ينبغي نِسْيانُ أنّ جَلالَ الدّين البَلْخيّ متألِّمٌ، وقد جعلَه أَلَمُ الهِجْرانِ قليلَ الصَّبر. وكان يقولُ: إنّ الإنسانَ له مَبْدَأٌ وأَصْلٌ، وإنّه كالنّاي الذي أُبعِدَ عن أصْلِه «القَصْباء» زَمَنًا طويلًا، إذ أُبعِدَ وفُصِلَ عن عالَمه الرّوحيّ. والأمَلُ النّهائيّ للإنسانِ هو أن يرجِعَ إلى أَصْله. ومِن هذه الوِجْهة يرفَعُ صوتَه ويُنشِد:

[٣٦١] كُــلُّ مَــنْ يبقَــى بعيــدًا عَــنْ أَصْــلِه

يبحَثُ مِن جديدٍ عن زَمانِ وَصْلِه[١]

والسُّؤالُ هو: الأمَلُ النّهائيُّ المقدَّسُ واللّذيذُ، أي نُشْدانُ الوَصْلِ الذي لا يعني إلّا طَلَبَ الأَصْلِ، كيفَ، ومِن أيّ طَريقٍ، يغدو ممكنًا وميسَّرًا؟. أَرَى مِن المناسِب هنا، قبْلَ أن أُوضِحَ طريقَ الرّجوعِ إلى الأَصْلِ مِن قَوْلِ مَوْلانا، أن أذكُرَ في مجال الوَصْلِ والواصِلِ في آراءِ المشايخ والعارفينَ بعضَ النّقاط:

«الواصِلُ» في عَقيدةِ كبارِ الصّوفيّة شَخْصٌ تحرّرَ مِن نفسِه واتّصلَ بالحقّ. وبناءً عَلَى ذلكَ، الوَصْلُ هو نهايةُ السَّيْرِ إلى الله، إذا أنهى السّالِكُ مَراحِلَ السُّلوك، وتطهّرَ مِن الصّفات البشريّة. ويقولُ بعضُهم: الوَصْلُ أن يَفْنَى العَبْدُ عن أَوصافِه، ويبقَى بِأَوصافِ الحقّ[٢].

وطَريقُ الوصولِ إلى ذلكَ، أي إلى الحقيقة، هو التّمسُّكُ بالشّريعة والعُبورُ مِن الطّريقة، إذ يحصُلُ شاهدُ الوَصْل. ومَوْلانا في كُلّ موضِعٍ مِن كُتُب المثْنَويّ، وبمُساعَدةِ العُرْوةِ الوُثْقى للدّين والشّريعة، يبيِّنُ تجلِّياتِه العِرْفانيّةَ في صُورةٍ محبَّبة وعِشْقيّة. وفي كُتُبِ المثْنَوِيّ السّتّة كُلِّها، نَرَى رؤيتَه الخاصّةَ للعالَم، لكن نراها مصحوبةً بتجلّياته الفِكْريّة في فَضاءِ الموجوداتِ ولا محدوديّةِ الوجود. وعندَما يريدُ أن يبيِّنَ العِشْقَ يتّخِذُ سبيلَ أن يظْهَرَ متلفِّفًا باللّطافة. يقولُ:

هناكَ في عالَمِ الغَيبِ عُودٌ، هذا العِشْقُ دُخانٌ مِنه

وُجودٌ واحِدٌ لا لَونَ له، يأتي مِنه كُلُّ وُجود

المطالِبُ الأساسيّةُ في المثْنَوِيّ، التي تؤلّفُ أساسَ فِكَره ورُؤيته لِلْعالَم، ذاتُ

---

١ ـ المثْنَوي: ٤/١.

٢ ـ قال مَوْلانا في المثْنَوي:

فالتَمِسْ أَمْرَ الحقِّ عندَ أَحَدِ الواصلينَ　　　فلَيْسَ كُلُّ قَلْبٍ بمُدْرِكٍ أَمْرَ الحق

تنوّعٍ عجيبٍ، ومُعْرِبةٌ عن هَيَجاناتِه العاطفيّة وانفعالاتِه العِشْقيّة التي تتجلّى عَلَى نَحْوٍ واضحٍ في غزَليّاته ومنظوماتِه الغِنائيّة.

ولِمَوْلانا في موضوعِ «الزّمانِ والمكان» نظَريّةٌ جميلةٌ وابتكاريّة، لا نَراها في آثار سَنائي والعطّار.

وقد كتَبَ الدّكتُر خليفة عبد الحكيم، في مقالةٍ تحقيقيّةٍ له تحتَ عنوان: «مَوْلانا جَلال الدّين الرّوميّ»، قولَه:

«يقولُ مَوْلانا إنّه في ساحةِ لا مَكانِ نُورِ الله لا يمكِنُ تقسيمُ الزّمان عَلَى ماضٍ وحاضِرٍ ومستقبَل؛ فالماضي والمستقبَلُ متعلِّقان بالنّفسِ الجُزْئيّة... ومفهومُ [٣٦٣] الزّمانِ في عَقيدةِ مَوْلانا مرتبطٌ بالمكان، وهي عَينُ الفِكرة التي نُمِّيت في عَصْرنا مِنْ وِجْهةٍ عِلْميّة ورياضيّة عندَ أنشتاين.. ففي فضاءِ لا مكانِ نورِ الله لا يمكِنُ تقسيمُ الزّمان عَلَى ماضٍ وحاضِرٍ ومستقْبَل:

اللّامَكـــانُ الـــذي فيـــهِ نُـــورُ الله

مِـنْ أيـنَ لَـهُ الماضـي والمـستقبَلُ والحـالُ؟

وإنّ ماضِـيَهُ ومـستقبلَه يَكونـانِ نِـسْبةً إليـكَ

وكِلاهُما شيءٌ واحِدٌ، وتظنُّهمـا أنـتَ اثنَين(١)

ومَوْلانا، المنشِدُ لِمَديح الجَمالِ والكَمال، لا علاقةَ تربطُه بالغَمّ والحُزْن غيرُ علاقةِ أَلَمِ الفراق، ولَيْسَ قَرينًا للأَلَم، كالشّيخِ فَريد الدّين العطّار، بَلْ يقولُ:

هـــاتِ تِلْـــكَ الكـــأسَ الطّيّبـــةَ الأَنْفـــاس

١ـ المثنوي: ٣/١١٥١ ـ ٥٢.

التـــــي تقطَـــــعُ عُنُــــقَ الغَـــــمّ

أمّا الأستاذُ الدّكتُر محمّد رضا شفيعي كَدْكَني، الذي أدركَتْه الحَيرةُ مِن المعاني الواسعة التي لا ضِفافَ لها لِلْوجود في آثار مَوْلانا، فقد كتبَ قولَه:

«يمتدُّ فَضاءُ تخيُّلِ مَوْلانا وآفاقُ رُؤيته إلى حَيثُ يجمَعُ الأزَلَ والأبَدَ، ويُبدِعُ تَصْويرًا في سَعة الوجود، وبعضُ تَصاويرِه الشّعريّة ممتازٌ ويعرِّفُ بالناظِم»[١].

نعَمْ، أشعارُ مَوْلانا في المثْنَوِيّ شَبيهةٌ ببَحْرٍ خافيةٍ ضِفافُه، إذ تجعَلُ القارئ العارفَ مجذوبًا ومَسْحورًا بِأَمواجِها الصّاخبة؛ وهذا أيضًا مِن الكَراماتِ الإلهاميّة للشّاعر. وفي المثْنَويّ، الذي هو دُكّانُ الوَحْدة[٢]، كُلُّ ما يُشاهَدُ خَلَا الله الواحِد لَيْسَ إلّا صَنَمًا. كان مَوْلانا يتخطّى ميدانَ الوجود، ويدرِكُ أنّ كُلَّ صُوَر التّناقُضاتِ والتّنافُراتِ لها وظيفةٌ وعَمَلٌ في تَناغُمِ الكُلّ الذي لا يستطيع فهمَه إلّا العارفونَ[٣].

وفي شأنِ الإنسانِ الكامِل، أبرزَ مَوْلانا نظَريّةً خاصّةً في المَثْنَوِيّ. وعندَه أنّ المعرفةَ الكامِلةَ لِلْحَقّ تعالى في الدّنيا ممكنةٌ ومُيسَّرةٌ. ويظهَرُ نَموذَجُها، أي نموذَجُ المعرفةِ الكاملة لِلْحقّ تعالى، في الإنسانِ الكامِلِ الذي كان مَوْلانا يَنشُدُ كشْفَه وتعريفَه. وفي الكتابِ الأوّل مِن المَثْنَويّ، قرأنا في شأن هذه المقولة:

إذا كـــــان اللهُ لا يَظْهَـــــرُ عِيانًـــــا

---

١ ـ مِن مقدّمة «گزيدهٔ غزليّات شَمْس»، ص ١٨.

٢ ـ لِكلّ دكّانٍ تجارتُه الخاصّة ‌ ‌ والمثْنَوِيُّ هو دُكّانُ الفَقْر، أَيْ بُنَي
وإنّ كتابَنا «المثْنَوِيَّ» هو دُكّانُ الوحدة ‌ ‌ وكُلُّ ما تَراه، خلا الواحِد، هو صَنَمٌ
(المثْنَوي: ٦/١٥٣١ ـ ٣٢)

٣ ـ مقدّمة «روى وتفسير مَثْنوى» لنيكلسون، ترجمة أوانيسيان، ص ٢٤.

فـــإنّ هـــؤلاءِ الأنبيـــاءَ هـــم نُـــوّابُ الحـــقّ

[٣٦٣] لا، قُلْـــتُ خَطَـــأً، فإنّـــكَ إذا ظَنَنْـــتَ

أنّ المُنيبَ والنّائبَ اثنانِ، كان ذلك ظَنًّا قَبيحًا، لا حسَنًا

فلَنْ يظْهَرا لكَ اثنَينِ إلّا إذا كُنتَ مِن عُبّادِ الصّورة

فهُمـــا واحِـــدٌ أَمـــامَ مَـــنْ تحـــرّرَ مِـــن الـــصّورة

إنّ اتّحـــادَ الحبيـــبِ بالأحبّـــاءِ جَميـــلٌ

فتمَـــسَّكْ بِقَـــدَمِ المعنـــى، لِأنّ الـــصّورةَ عَنيـــدةٌ

واصهَرْ تِلْكَ الصّورةَ العنيدةَ واجتَهِدْ (في ذلكَ)،

لِكَـــي تَـــرَى الوَحْدانيّـــةَ تحتَهـــا كـــالكَنْز[١]

ومِن وِجْهةٍ أُخْرى، يقولُ كثيرٌ مِن المحقّقينَ الإيرانيّينَ والباحثينَ الأجانب: إنّ فِكْرَ الرّوميّ، وتصوّفَ الرّوميّ، لم يكُنْ جافًّا ونظَرِيًّا، بَلْ هو تجريبيٌّ عَمَليّ وله انشغالٌ بالقَلْبِ أكثرُ منه بالعَقْل.

ويقولُ جلالُ الدّين البَلْخيُّ: إنّه لا يوجَدُ تعارُضٌ بينَ العِشْقِ الكُلّيّ والعَقْلِ الكُلّيّ، والعشقُ الكُلّيّ أكثرُ سَعةً مِن كلّ الأَدْيانِ والمذاهِبِ والفَلْسفات[٢].

ويعتقدُ مَوْلانا أنّ حياةَ الإنسانِ كيمياءُ في حالٍ مِن التغيّرِ والتحوُّلِ الدّائم. وإذا ما

---

١ ـ المثنوي: ٦٧٧/١ وما بعدُ.

٢ ـ إنّ لِلْعِشْقِ غُربةً عن العالَمَيْن | والاثنتانِ والسَّبعونَ فِرْقةً فيه مِن قَبيلِ الجُنُون
وهو خَفيٌّ جِدًّا، لكنّ حَيرتَه واضحةٌ | وأرواحُ سَلاطينِ الرّوحِ في حَسْرتِهِ
ومَذْهَبُه غيرُ الاثنتَينِ والسَّبعينَ فِرْقةً | وعُروشُ الملوكِ إلى جِواره لَيْسَتْ إلّا جَبيرةَ ساقٍ
(المثنويّ: ٤٧٢٢/٣ ـ ٢٤).

نظَرْنا إلى الطّبيعة بدقّةٍ شاهَدْنا أنّ الماءَ والهواءَ والضّياءَ تتحوّلُ إلى الحياة النّباتيّة. والحياةُ النباتيّةُ تتحوّلُ إلى الحياة الحيوانيّة، وهذه أيضًا تغدو فِكْرًا متعاليًا. فلماذا لا يمكِنُ الفِكْرَ أن يتحوّلَ إلى رُوحٍ إلهيّ؟

فـإذا كُنـتَ تُريـدُ أن تُـشْرِقَ مِثْـلَ النّهـار
فـأَحْرِقْ كِيانَـكَ (المظْلِـمَ) الـشّبيهَ باللّيـل
واصـهَرْ وجـودَكَ في وُجـودِ راعـي الوجـود
كمـا يَنْـصَهِرُ النُّحـاسُ في الإِكْـسير[1]

جَلالُ الدّين البَلْخيُّ، الذي يتحدّثُ في كُلّ موضعٍ مِن أَجْزاءِ المثْنَويّ عن العُروة الوُثقى للدّينِ والشّريعة تَفْصيلًا، يعتقدُ أنّ التّجلّيَ الإلهيَّ جَرَيانٌ أبَدِيّ، ولم يوجَدْ أبدًا زَمانٌ عارٍ مِن المعرفة الإلهيّة. ولا يوجَدُ في مملكةِ الطّبيعةِ والحقيقةِ شيءٌ اسْمُه «شَرٌّ»:

ومِـنْ هنـا، لَـيْسَ في الـدّنيا شـرٌّ مُطْلَـقٌ
بَـلْ يكـونُ الـشّرُّ نِـسْبيًّا، فـاعْلَمْ هـذا أيـضًا
ولا يوجَـدُ أبـدًا في وَقْـتٍ واحِـدٍ سـمٌّ وسُـكَّرٌ
لا يكونـانِ قَـدَمًا [قـوّةً] لِأحـدٍ، وقَيْـدًا لِآخَـر
فمـا يكـونُ قَـدَمًا لِأَحَـدٍ يكـونُ قَيْـدًا لِآخَـر
يكـون سـمًّا لِأَحَـدٍ، ولِآخَـرَ كالـسُّكّر
فـسمُّ الحَيّـةِ يكـونُ حَيـاةً لِتلْـكَ الحَيّـة
ويكـونُ نِـسْبةً إلـى الإنـسانِ مَوْتًـا[2]

---

١ ـ المثْنَوي: ١/٣٠٢٣ ـ ٢٤.

٢ ـ المثْنَوي: ٤/٦٥ ـ ٦٨.

ومعظَمُ القُرّاءِ المدقّقينَ والمشتاقينَ يجِدُونَ في أشعارِ أَجْزاءِ المثْنَويّ الصافية نِقاطًا جميلةً و[٣٦٤] دقائقَ عِرْفانيّةً باعثةً عَلَى الاعتبار، مصحوبةً بحِكاياتٍ جديرةٍ بالقراءة وخُرافاتٍ قديمةٍ وذاتِ طابَعٍ دينيّ. وكُلُّ ذلكَ جاء ببيانٍ سَلِسٍ وجَذّابٍ، وأحيانًا بِسُخْرياتٍ وابتساماتٍ صفراءَ مثيرة. ويعتقِدُ بعضُ شُرّاحِ كتابِ **المَثْنَويّ** الجميل أنّه في كثيرٍ مِن أَشْعارِ مَوْلانا يمكِنُ البَحْثُ عن فِكَره وأَشْواقِه وهَيَجاناتِه وأحوالِه وإلهاماته. وفي هذا المعنى يقولُ الأستاذ كَدْكَني: «إنّ أقاليمَ فِكْرِه في سَعة الوجود»، مَباحثُ تُشيرُ إلى معارفَ عميقةٍ في موضوعاتِ عِلْمِ النّفس، وعِلْمِ الاجتماع، والمحيطِ الاجتماعيّ، والثّقافةِ المتعالية الإنسانيّةِ والدّينيّة، ممّا لا يمكنُ مُشاهَدتُه إلّا في قليلٍ مِن الكُتب والرّسائل في السِّنينَ التي سبقَتْ حياتَه.

المَثْنَويُّ رائعةٌ عظيمةُ القَدْر قليلةُ النّظير، ولا يمكنُ الظّفَرُ بِكُلّ هذه المعلوماتِ والمعارفِ التي ينطوي عليها في كُلّ مجموعةٍ شِعْريّة. **المَثْنَويُّ** عندَ أكثَرَ أصحابِ النّظَرِ وأَغلَبِ المشايخِ عمَلٌ عظيمٌ قيِّمٌ قليلُ النّظير، إذ بيّنَ فيه مَوْلانا في القرن السّابع الهجريّ، عقائدَه ونظريّاتِه وآراءَه، مِن دُونِ اهتمامٍ بِمُخالفة أهلِ الظّاهر المتعصِّبينَ وآرائهم.

جَلالُ الدّين البَلْخيّ مخالِفٌ للإفراط والتّفريط. ويجِدُ القارئُ النّبيهُ، ذو القَريحةِ الصّافية، أحيانًا أنّه يشرِّحُ الميولَ الجسَديّةَ للنّاس مِن ذَوي الطّبائعِ المختلفة، ببراعةٍ وأُستاذيّة. وفي بعضِ المباحِثِ يتجاوزُ جَلالُ الدّين البَلْخيّ مستوى المحسوساتِ والمظاهر. وفي فَضاءِ المعقولاتِ وما وراءَ الطّبيعةِ، يتقدَّمُ بالقارئ الفيلسوفِ والعارفِ مِن المعقولاتِ الدّنيا ودهاليزِ العَقْل الجُزْئيّ إلى عالَم ما وراءَ الطّبيعة، حيثُ العظَمةُ والجَلالُ، كأنّه يتعاملُ معَ الكَشْفِ والشّهود والإشراق.

ويَخالُ بعضُ المُحيطينَ خُبْرًا بِمَوْلانا أنّ أجزاءَ **المَثْنَوِيّ** السّتّةَ هي إيضاحٌ وبَيانٌ لِلأبياتِ الثّمانيةَ عشَرَ الأُولى مِن الجزء الأوّل، الذي يبدأ بهذا البيتِ المحبَّب:

استَمِعْ للنّـاي كيـفَ يَقُـصُّ حِكايتَـه إنّـــــهُ يَـــــشْكو آلامَ الفِـــــراق

فِكْرةُ عِشْقِ العَودةِ إلى المكان الذي جاء منه الإنسانُ، في غير المَثْنَويّ، جاءت مِرارًا في الدّيوان الكبير أيضًا. ويُسمّي مَوْلانا وطنَه الأصْليَّ «بُسْتانَ الملَكوت»، ويقولُ:

أنـا طـائرُ بُـستانِ الملَكـوت، لَـسْتُ مِـن عـالَمِ التّراب

وقــد صُــنِعَ قَفَــصٌ مِــن بَــدَني لِعِــدّة أيّــام

وفي المقدّمة التي كتبَها الدّكتُر مُوَحِّد لِكتاب «**مقالات شَمْس تَبْريزي**»، أَبدَى في شأنِ **المثْنَوِيّ** اعتقادًا خاصًّا:

«مَثْنَوِيُّهُ، عَلَى الحقيقة، رِوايةٌ منظومةٌ ومَشْروحةٌ لِكلماتِ الشّيخ التَّبْريزيّ، و«شَرْحٌ رَمْزيٌّ لإنعامه» امتزجَ بالتّجارِب الرّوحيّة لمَوْلانا نفسِه، واستمدّ مِن اطّلاعاته الواسعة والتصرّفاتِ السِّحْريّة لِذِهْنه الوقّاد. ولَيْسَ مصادفةً أن نَجِدَ كُلَّ فِكَرِ «المقالات» في تشريح الدّقائق العِرْفانيّة، وأن نجدَ كثيرًا مِن القِصَص، بَلْ كثيرًا من عباراتها، في المثْنَوِيّ»[1].

١ـ مقدّمة لـ «مقالات شَمْس تَبْريزي» ص ٣٢.

أينَ مَزارُ شَمْس؟

كثيرونَ من كُتّاب التّذاكِرِ المعاصِرين لمَوْلانا، وعَدَدٌ مِن الباحثينَ الإيرانيّينَ والأَتْراك، متّفقونَ عَلَى القَوْلِ بأنّ محمّدًا مُلْكْ دادْ، شَمْسًا التَّبْريزيّ، سافرَ إلى قُونِيةَ مرّتَين: المرّةُ الأُولى في السّادسِ والعشرينَ مِن جُمادَى الثّانية عامَ ٦٤٢هـ، حيثُ أقامَ ستّةَ عشَرَ شهرًا في واحِدةٍ مِن حُجُراتِ منزِلِ جَلالِ الدّين البَلْخيّ، أو صَلاحِ الدّين زَرْكوب. وعندَما انزعجَ مِن سُخرياتِ جماعةٍ مِن سَيِّئي النّوايا، ولم يستَطِع التحمّلَ والمقاومةَ، ترَكَ الرّومَ الشّرقيّةَ في الحادي والعِشْرينَ مِن شوّال عامَ ٦٤٣هـ. فما كان مِن جَلال الدّين إلّا أن أرسَلَ ابنَه الأكبرَ سُلْطان وَلَد معَ جماعةٍ مِن مُحِبّيه إلى مُرادِهِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ في دِمَشْق، وكلّفَه أن يدعوَه إلى العودة إلى قُونِيةَ. أمّا شَمْسٌ الذي كان يحترِقُ في أَتُّونِ هِجْرانِ حبيبه العارِفِ، ابنِ سُلْطان العُلَماء، فإنّه بعْدَ قراءةِ رَسائلِ مَوْلانا الأربع المنظومةِ عاد إلى قُونِيةَ مرّةً أخرى عامَ ٦٤٤هـ. وقد أَتى عَوْدُ شَمْسٍ إلى قُونِيةَ عَلَى هُدوءِ الرّومِ الشّرقيّة مرّةً أخرى. وأزعجَ سَيْلُ اتّهاماتِ المتعصِّبينَ وافتراءاتُهم خاطِرَ الشّيخِ الكبير، المتخطّي لِعَتبةِ السّتّينَ بِبِضْع سِنينَ، أيّما إزعاجٍ، وبعثَ في نفسِه الحُزْنَ. وبَلَغَ مِن ضَغْطِ المخالَفةِ والمبارَزةِ المصحوبةِ بالتّشنيع وجَرْحِ اللّسان أن قالَ شَمْسٌ لِسُلْطان وَلَد ابنِ مَوْلانا: لا طاقةَ لي بعْدَ الآنَ عَلَى الإقامة في هذه المدينة، ولابدّ مِن أن أذهَبَ إلى مكانٍ لا يستطيعُ أحَدٌ في [٣٦٧] المستَقْبَلِ أن يكشِفَ مَحَلَّ إقامتي فيه. صارَ شَمْسٌ إثْرَ وفاةِ زَوْجِه الشّابّةِ الجميلةِ، «كيمياء خاتون»، شديدَ الحساسيّةِ وسريعَ التأثّر وغاضبًا. ومِن ناحيةٍ أُخرى، كان يَرَى

عَلاءَ الدّين، ابنَ مَوْلانا الأصغرَ، متّصِلًا دائمًا بِجَماعةِ المخالِفينَ له، عِنادًا مِنه وعَداوةً، وليسَ له حَتّى بينَ مُريدي جَلالِ الدّين قيمةٌ واعتبارٌ لائقٌ بمَقامِه المعْنويّ. فاضطُرّ إلى أن يعقِدَ العَزْمَ عَلَى أن يترُكَ مَوْلانا ومدينةَ قُونِيةَ المضطَرِبة نهائيًّا. ولهذا السّبب، توارَى عن الأنظار في سنة ٦٥٤هـ. واعتقدَ بعضُهم، مثلَما بيّنتُ قبْلُ، أنّ المخالفينَ له أَجْهَزوا عَلَيه، قَتْلًا. وقد كتَبَ سپَهْسالار ـ الذي في كتابه المُسَمّى «رساله» لَقّبَ شَمْسًا بـ«تاجِ المحْجُوبينَ»، وعرّفَه للنّاس بِتَعبير «مِنْ مَسْتوري حَرَمِ القُدْس»، وكان يظنّ أنّه مِن المقرَّبينَ لجلال الدّين الرّوميّ وأبنائه[1] ـ في شأن هذا الرّجُلِ الغامِضِ وكيفيّة نهاية حياته بغموضٍ، على هذا النَّحْو:

«حَتّى زَمانِ حَضْرة خُداوندگار ـ أي مَوْلانا ـ لم يكُنْ لِأَحَدٍ أبدًا اطّلاعٌ على حاله، ثمّ بعْدَ وفاةِ مَوْلانا لَنْ يقِفَ أحَدٌ البتّةَ على حَقائق أَسْرارِه».

والأَفْلاكيُّ، مؤلِّفُ كتابِ **«مناقب العارفين»**، مِثْلُ سپَهْسالار، غيرُ مُطّلعٍ على كيفية اختفائه ومَحَلّ اختفائه وحَياته وموته، ويعتقِدُ أنّه مُحاطٌ بِغِلالةِ الأسرار.

أمّا حُزْنُ مَوْلانا واضطرابُه لِفِراقِ شَمْسٍ فقد بلَغَ أن كان لَيْلًا ونَهارًا في حالٍ مِن البكاء والأنين، أو منشغلًا في مَجالِسِ السَّماعِ بالرَّقْص والتّصفيق.

ولِأَنّ مُرادَه تركَ الرّومَ الشّرقيّةَ مرّةً ثانيةً منزَعِجًا وغاضبًا، ويمّمَ شطْرَ دِمَشْق، استدعَى ذلكَ أن يُسافِرَ جَلالُ الدّين البَلْخيّ في طَلَبه مرّةً أخرى، ويَرَى مباشرةً

---

١ ـ لمَوْلانا جَلالِ الدّين ثلاثةُ أبناءٍ ذكورٍ وابنةٌ واحدة، أسماؤهم:
ـ ابنُه الأكبرُ بَهاءُ الدّين وَلَد، صاحب كتاب «مثنوى وَلَدى»، وهو مشهورٌ بلَقَبِ سُلْطان وَلَد (ت ٧١٢هـ).
ـ عَلاءُ الدّين محمّد، المخالِف لِشَمْس (ت ٦٦٠هـ).
ـ مظفّرُ الدّين الأميرُ العالِم (ت ٦٧٦هـ).
ـ مَلِكة خاتون (ت ٦٧٣هـ).

مدارسَ تِلْكَ البلاد، ويسألَ الأساتذةَ والطّلبةَ في دُور العِلْم هناك عن مُراده، ولكنّه كلّما زادَ في البَحْث ازدادَ ابتعادُه عَمّن ينشُدُه.

وتُظهِرُ هذه الأسفارُ أنّ مَوْلانا إمّا أنّه لَيْسَ لَدَيه عِلْمٌ يقينيٌّ بقَتْل شَمْسٍ في قُونِيَةَ، ولم يُخبِرْه ابنُه الأكبرُ ومُريدُوه بشيءٍ في هذا الشّأن، وإمّا أنّه كان يَظنُّ أنّ محبوبَه ـ كما حدَثَ له في المرّة الأولى ـ قد ذهبَ إلى دِمَشْق.

صديقي الباحِثُ الأستاذُ الدّكتُر أبو القاسم تَفضُّلي، الذي كثيرًا ما يسافِرُ إلى قُونِيَةَ لِكَي يحضُرَ المؤتمراتِ المتعلّقةَ بمَوْلانا، بِدَعَواتٍ مِن العُلَماء والمُحيطينَ خُبْرًا بِمَوْلانا في تُرْكِيَةَ، كان قد سافرَ في عام [٣٦٨] ١٣٧٤هـ.ش [١٩٩٥م] إلى قُونِيَةَ بِدَعْوةٍ مِن جامعة سَلْجوق ـ التي هي مِن كُبْرَياتِ الجامعاتِ التّركيّة، وموقعُها في قُونِيَةَ ـ للمشاركة في «مؤتمر مؤسّسة الإسلام والغرب»، ذكَرَ في ورَقته التي أعدّها للمؤتمر وأرسلَ إلَيّ بنسخةٍ منها أنّه في أثناء هذا المؤتمر تعرّفَ واحِدًا مِن كِبار مَشاهيرِ المُحيطينَ خُبْرًا بمَوْلانا في تُرْكِيَةَ، واسْمُه «محمّد أُونْدِر»، وكان هذا مستشارًا ثقافيًّا في أَنْقِرةَ، وكان لهما أَحاديثُ مفصّلةٌ في شأن مَوْلانا. وكان محمّد أُونْدِر قد تولّى لِستّ سَنواتٍ ـ ١٩٥٢ ـ ١٩٥٧م ـ رياسةَ مُتْحَفِ مَوْلانا ومكتبته والآثار القديمة في قُونِيَةَ. ثمّ في عام ١٩٥٧م ،عندَما زار المرحومُ الأستاذُ بديعُ الزّمان فُروزانْفَر قُونِيَةَ، كان أُونْدِر دليلَه. ثمّ في عام ١٩٥٩م جاء إلى طَهْران بِدَعْوةٍ مِن جامعة طَهْران، وأقامَ لمدّة ستّة أشْهر في نادي الجامعة. وقد كتَبَ السّيّد تَفضُّلي يقولُ: «تحدّثَ محمّد أُونْدِر بالفارسيّة عن ذكرياته التي لا تُنْسى في طَهْران، وكذلك عن إدارته مُتْحَفَ مَوْلانا في

قُونِيَةَ والأعمالِ التي قام بها. ومن ذلكَ أنّه بيّنَ كيفيّةَ كشْفِ مَحَلّ دَفْنِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ، لي ولِعَدَدٍ مِن الضّيوف الذين دُعُوا إلى المؤتمر وكانوا جالسينَ بقُربي».

وقبْلَ أن أُباشِرَ الكتابةَ عن كيفيّة كَشْفِ مَزارِ شَمْسٍ، أُشيرُ إلى أنّ الأستاذ تَفضُّلي ذكرَ أنّ محمّد أُونْدِر دَوّنَ فِكَرَه في كتابٍ عنوانُه: «تحتَ القُبّة الخَضْراء»، وقد طُبِعَ هذا الكتابُ حتّى الآنَ عدّةَ طَبَعاتٍ في أَنْقِرةَ. ومِن الموضوعات الجميلة التي جاءَتْ في كتاب «تحتَ القُبّة الخَضْراء»، وأصبحَتْ مَحَلَّ اهتمامِ المُحيطينَ خُبْرًا بِمَوْلانا في العالَم، شَرْحُ الاكتشافِ العَرَضيّ لمَحَلّ دَفْنِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ.

مَقامُ شَمْس:

في وَسَطِ قُونِيَةَ، في موضعٍ غيرِ بعيدٍ كثيرًا عن تُرْبة مَوْلانا، أُنشِئ بناءٌ على طِراز فترة سَلاجقةِ تُرْكِيَةَ، وله مئذنةٌ أصغرُ وأقصَرُ مِن المآذنِ القديمة والحديثة المَبْنيّة في قُونِية. وقد أحاطَتْ بالبناءِ أشجارٌ خُضْرٌ مُعَمَّرة. وفي البَوّابة في مدخَلِ هذا البناء، بُنيَ مَحَلٌّ لخَلْعِ الأَحْذية. فَضاءُ البِناءِ أخذَ صُورةَ قاعةٍ، بعشرينَ مترًا لِكُلٍّ مِن الطُّولِ والعَرْض، شبيهةٍ بفضاءاتِ المساجد الأُخَر عندَ المسلمين، معَ مِحْرابٍ جديدٍ واحِدٍ، وينتصبُ قُربَ المِحْراب أيضًا منبرٌ خشبيٌّ مرتفعٌ نسبيًّا.

وفي الطّرَف الغربيّ للقاعة، وَسْطَ سَجّادةٍ فاخرة ببُعدٍ تقريبيّ ٣×٤م، [٣٦٩] يجثُمُ صُندوقٌ خَشَبيّ كبير، عَلَى طِراز صناديق قُبور المرحلة السَّلْجوقيّة، غُطِّي وَجْهُه بقُماشٍ مزيَّنٍ بآياتٍ قرآنيّة. وفوقَ رأسِ هذا الصّندوق المُحَلّى المحاذي لِرأسِ الجَسَد، وُضِعَتْ عِمامةٌ بيضاءُ كبيرة مِن طِراز عَمائم أقطابِ الطّريقةِ المَوْلويّة وشُيوخها. ويُسَمّى هذا المَحَلُّ «مَقامَ شَمْس». وخِلافًا لِضَريحِ مَوْلانا جلال الدّين الذي يذهبُ عددٌ كبيرٌ مِن

الزّائرينَ الآتِينَ مِن كُلّ أنحاءِ تُرْكِيَةَ والسّائحين لِزيارته، عَلَى امتدادِ العام وفي كلّ ساعات النّهار مِن التّاسعةِ صَباحًا حَتّى الخامسةِ بعْدَ الظُّهر، يُرَى عدَدٌ قليلٌ مِن الزّائرين في «مَقام شَمْسٍ» هذا. ولهذا السَّبب، يسيطرُ صَمْتٌ عميقٌ وروحانيّ وسكينةٌ قُدْسيّةٌ وعِرْفانيّة على الفَضاء الدّاخليّ لـ «مَقام شَمْس». وفي القُرونِ الخالية، عندَما كان مُريدُو مَوْلانا والدّراويشُ الدَّوّارونَ (أتباعُ الطّريقة المَوْلويّة) يذهبون إلى قُونِيةَ، كانوا يَرَونَ أنفسَهم مكلَّفين بِأَن يزوروا مقامَ شَمْسٍ، قبْلَ أن يذهبوا إلى ضَريح مَوْلانا. والآنَ أيضًا، يَعملُ خاصّةُ مُريدي مَوْلانا ودَراويشُ المَوْلويّة عَلَى نَفْسِ ترتيبِ الماضي وآدابه ورُسومه. ومثْلَما قال الدّكتُر جَلال الدّين چلبي(١)، الشّيخُ الفِعْليُّ لِلْمَولويّة الذي يَصِلُ نسَبُه إلى مَوْلانا بواحِدٍ وعشرينَ ظَهرًا، للسيّد تَفضُّليّ: إنّه كلّما سافرَ إلى قُونِيةَ، بادرَ ابتداءً إلى زيارةِ مَقامِ شَمْسٍ، ثمّ بعْدَ ذلكَ يسارعُ إلى زيارة مَوْلانا.

وأنقلُ فيما يأتي قِسْمًا ممّا جاء في كتاب «تحتَ القُبّة الخَضْراء»، وهو شَرْحٌ للاكتشافِ العَرَضيّ لِمَدْفَنِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ الحقيقيّ، وقد ترجَمَه الأستاذُ الدّكتُر تَفضُّليّ وأرسلَه إلَيّ، بإذْنٍ منه:

سِرٌّ لم يُكشَفْ:

لا أحَدَ مِن الباحثينَ والمؤلِّفين، الذين كتبوا في شأن سِيرة حَياةِ مَوْلانا كتابًا أو مقالًا، في مُتناوَله أن يُجيبَ عن هذا السُّؤال: في اللّقاء الثاني بينَ شَمْسٍ التَّبْريزيّ ومَوْلانا، الذي حصَلَ برجوع شَمْسٍ مِن دِمَشْقَ بصُحبة سُلْطان وَلَد وتدبيره، هَلِ الذي حدَثَ فعلًا هو أنّ شَمْسًا التَّبْريزيّ، بسببِ الاستياءِ أو الخوفِ مِن غَضَبِ

---

١ ـ سمعتُ أنّه ودّعَ الدّنيا منذُ سنتَين [المؤلِّف].

المخالفينَ المتعصِّبينَ وحِقْدِهم، تركَ قُونِيَةَ مرّةً أُخرى على نَحْوٍ خَفيٍّ غيرِ معلومٍ مِن قبْلُ، أو أنّ أولئكَ الخصومَ قَتلُوه وألقَوا جسَدَه في بئرٍ في إحدى اللّيالي على أَثر مكيدةٍ خُطِّطَ لها مِن قبْلُ؟

ظلّتْ حقيقةُ الأَمْرِ على امتدادِ القُرون الماضية سِرًّا مكتومًا غيرَ قابلٍ للإفشاء. وفي شأن الاختفاءِ المفاجئِ لِشَمْسٍ، كتَبَ كُلُّ كاتبٍ اهتمّ بالموضوع أمرًا استمدّه من تخمينه وظنّه. [٣٧٠] وفي هذا الشّأن يَحسُنُ أن يُوضَحَ الأمرُ بشيءٍ مِن التفصيل:

واضحٌ أنّ شَمْسًا التَّبْريزيّ جاء إلى قُونِيَةَ في السّادس مِن ربيعٍ الأوّل، ونَزَل في خان قوافِلِ بائعي السُّكّر. وفي اليومِ التالي، وعندَ حُلول وقتِ صَلاةِ المغرب تقريبًا،وعندَما كان مَوْلانا ذاهبًا إلى منزله راكبًا بَغْلًا وعددٌ مِن تلاميذِه ومُريديه يصحَبونَه، وعددٌ آخَرُ يمشونَ وراءه، مَرَّ مِن أمامِ خانِ القَوافل، فما كان مِن شَمْسٍ التَّبْريزيّ، الذي كان واقفًا قريبًا من مَحَلّ مُرورِ مَوْلانا أمامَ مَدْخَلِ الخان، إلّا أن يتقدّمَ، ويُوقِفَ مَوْلانا، وفي الوقت نفسِه يعْرِضَ عليه أسئلتَه العِرْفانيّة[1]. ثمّ بعْدَ

١ ـ في كتاب «مَوْلانا جلال الدّين» الذي ألّفَه [بالتركيّة] الأستاذُ عبدُ الباقي گُلْبينارلي، وترجمه [إلى الفارسيّة] الدكتُر توفيق سُبحاني، ونشرَتْه «مؤسّسة مطالعات وتحقيقات فرهنگی»، الطّبعة الثانية في ١٣٧١ صفحة، يكتُبُ المؤلّفُ في شأن أوّلِ لِقاءٍ بينَ مَوْلانا وشَمْسٍ، نقلًا عن كتابَي «مناقب العارفين» لِلْأَفْلاكيّ و«رساله» لِسپهسالار، قولَه: «في يومٍ مِن الأيّام كان حَضْرةُ مَوْلانا خارجًا، مَعَ جماعةٍ مِن الفُضَلاء، مِن مدرسة بائعي القطن، وكانوا يمرّون مِن أمام خان بائعي السُّكّر. فقام حضرةُ مَوْلانا شَمْسُ الدّين وتقدّمَ، وأمسكَ بعِنان مَرْكبِ مَوْلانا، وقال: «يا إمامَ المسلمينَ، أبو يزيدَ [البِسْطاميّ] أعظمُ أو محمّدٌ [عليه الصّلاةُ والسّلام]؟ قال مَوْلانا: مِن هيبة هذا السّؤال أحسَسْتُ كأنّ السّماواتِ السَّبْعَ انفصلَ بعضُها عن بعضٍ وهبطَتْ عَلَى الأرض، وأنّ نارًا عظيمةً اشتعلَتْ مِن باطني إلى أعلى جُمجُمتي، ثمّ مِن هنا رأيتُ أنّ دُخانًا تصاعدَ حتّى ساقِ العَرْش. وأجبتُ: حضرةُ محمّدٍ رسولِ الله أعظمُ أَهْلِ الدّنيا، أيُّ مكانٍ لأبي يَزيدَ؟ فقال: فماذا يعني إذًا أنّه ـ مَعَ كلّ عَظَمته ـ يقولُ: «ما عرَفْناكَ حقَّ معرفتكَ»، وأبا يزيدَ يقولُ: «سُبْحاني ما أعظَمَ شأني»، ويقولُ: «أنا سُلْطانُ السّلاطين»؟ فقُلْتُ: «إنّ لِأَبي يزيدَ ظَمَأً سكَنَ مِن جَرْعةٍ واحِدةٍ، وتحدّثَ عن ارتواءٍ، وكوزُ إدراكِه امتلأَ مِن ذلك المقدار، وكان ذلكَ النُّورُ بقَدْرِ نافذة =

الأسئلةِ والإجاباتِ، ينزِلُ مَوْلانا عن البَغْلِ ويعانقُ شَمْسًا، ويأخُذُه معَه إلى منزله. ومنذُ ذلكَ اليومِ، أخَذَ مَوْلانا وشَمْسٌ يجلسانِ معًا، ويتحدّثانِ على امتدادِ الأيّامِ والأسابيع والأَشْهُرِ في مُخْتَلًى خاصّ بهما في حُجْرةٍ صغيرة، ويُغلِقانِ البابَ أمامَ الأَغْيار. وعندَما كان مُريدو مَوْلانا وتلاميذُه يَرَونَ أنّ مَوْلانا يتركُ التّدريسَ والوَعْظَ، ويُمضي معظمَ أوقاته معَ رَجُلٍ طاعِنٍ في السّنّ غيرِ معروفٍ مغمورٍ، كانوا يضطرِبونَ اضطرابًا شديدًا، وحيثُما كانوا يَرَونَ شَمْسًا كانوا يهدّدونه بالقَتْل، ويشتمونه. ثمّ بعْدَ مدّةٍ مِن مُقاومةِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ هذه التّهديداتِ والإهاناتِ، يتركُ قُونِيَةَ في خَفاءٍ، ومِن دُونِ إطْلاع مَوْلانا على ذلكَ. وبسببِ [٣٧١] غيابِ شَمْسٍ، ينزعجُ مَوْلانا انزعاجًا شديدًا وتضطربُ حالُه، ويُرْسِلُ أَشْخاصًا مِن أَجْلِ البَحْث عن شَمْسٍ. ثمّ بعْدَ فترةٍ، يصِلُ خبرٌ يقولُ إنّ شَمْسًا يقيمُ في الشّام (دِمَشْق). وابتغاءَ إرجاعِه، يكتُبُ مَوْلانا رسائلَ وغزَليّاتٍ مفعمةً بالتأثّر والتحرُّق، وتصوِّرُ غَمَّ الهِجْران والفِراق. وعندَما لا يصِلُه جوابٌ، يُرْسِلُ ابنَه سُلْطانَ وَلَد إلى دِمَشْق، فينجَحُ في الظّفَرِ بِرضا شَمْسٍ بالعودة معَه. فيعودُ شَمْسٌ إلى قُونِيَةَ، ويسارِعُ مَوْلانا إلى استقباله بِوَجْدٍ واشتياق. وفي تجديدِ لقائه، ينشغلُ مَوْلانا بالرَّقْص والدَّوَران، ويُعِدُّ مَجالِسَ السَّماع، ويُنشِدُ الغزَليّاتِ

= بيته. أمّا حضرةُ المصطفى [عليه الصّلاةُ والسّلام] فقد كان لَدَيه استِسْقاءٌ عظيمٌ وظَمَأٌ في ظَمَأ، وقد صار صدْرُه المبارَكُ بِشَرْحِ «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ» أرضَ الله الواسعةَ، فلا جَرَمَ أنّ كلامَه كان مِن ظَمَأ، إذ في كلّ يومٍ كانت لديه زيادةٌ في طلَب القُرْب. ومِن هنا، يكونُ مدلولُ قولِ المصطفى [عَلَيه الصّلاةُ والسّلام] عظيمًا. وبسبب أنّ أبا يزيدَ وصَلَ إلى الحقّ رأى نفسَه مُرتويًا ممتلئًا، ولم ينظُرْ إلى المزيد. أمّا حضرةُ المصطفى [عليه الصّلاةُ والسّلام] فكان في كلّ يومٍ يَرى أكثرَ، ويتقدّمُ أكثرَ، كان يرى تزايدًا في أنوار الحقّ تعالى وعظَمته وقُدْرته وحِكْمته، يومًا بعْدَ يومٍ، وساعةً بعْدَ ساعة؛ ولهذا السّبب كان يقول: «ما عرَفْناكَ حقَّ معرفتك...» فما كان مِن مَوْلانا شَمْسٍ إلّا أن صاحَ، وأخذَ يخطّ على الأرض [الأصل].

المبتهجة. وههنا يُظهِرُ المخالفونَ لِشَمْسٍ النّدَمَ على ما كان منهم قبْلُ مِن تصرّفاتٍ وتهديدات، ويعتذرون منه. ولكنْ شيئًا فشيئًا تبدأُ الفتْنةُ مِن جديد، ويهدِّدونَ شَمْسًا جِهارًا وتَكْرارًا بالقَتْل، وهكذا... إلى أن يختفيَ شَمْسٌ في إحدى اللّيالي، ولا يَفهَمُ أحَدٌ، ولا يُعْلَمُ، أيكونُ الرَّجُلُ ـ مِثْلَ المرّة السّابقة ـ تركَ قُونِيةَ، أم أنّهم قَتلُوه وأخفَوا جسَدَه. ومنذُ ذلكَ الوقتِ، ذُكِرتْ رِواياتٌ مختلفةٌ في شأن هذه الغَيبة المفاجئة.

في مدينة قُونِيةَ موضِعٌ سِرِّيّ يُعْلَنُ بعْدَ مُضيّ قُرونٍ أنّه يُسَمَّى «مَقام شَمْسٍ». ومِن الوِجْهة العمَليّة، يُطلَقُ اسْمُ «المَقام» على بناءٍ تَذْكاريٍّ يُبنى للتّذكير بالمشاهير والعظَماء، ويُنصَبُ فيه صُندوقٌ في صُورةٍ رمزيّة. وفي الرّابعَ عشَرَ مِن كانون الثاني عامَ ١٩٥٥م، المطابِقِ للرّابعِ والعشرينَ مِن شَهْر دَي عامَ ١٣٣٤هـ.ش، وبالاتّفاقِ معَ نجاتي ألگين الذي تولّى مُساعدتي، ذهبتُ لِزيارةِ «مَقام شَمْس». بعْدَ الزّيارة، ذهبْتُ مِن زاوية البِناء لتفتيش الصّندوق الخَشَبيّ الذي نُصِبَ في داخل السّجادة الفاخرة، فنَحَّيناه بتحوّطٍ كامل لِكَي ننظِّفَ ونُصْلِحَ السَّطْحَ الواقعَ تحتَه، إن كان ذلكَ ضَروريًّا. وبغتةً انتبَهْنا إلى أنّ قِسمًا مِن سَطْح الأرض تحتَ الصُّندوق قد غُطِّيَ بألواحٍ خَشَبيّة. وعندَما أزَلْنا بأيدينا التّرابَ مِن فوق الألواح الخشبيّة، ظهرَتْ لنا بوّابةٌ صغيرة ... في عَهْد السّلاجقة، فِعْليًّا، صُنِعَ صُندوقٌ خَشَبيٌّ ونُصِبَ تحتَ القُبّة الأصليّة، إذ كان رَمْزيًّا، ودُفِنَ الجسَدُ في مخزَنٍ أعمقَ جُعِل تحتَ الصّندوق. هذا النّوعُ مِن المخازن كان، عَمَليًّا، يتّصِلُ بالخارج بوساطة دَرَجةٍ. والأجسادُ التي كانَتْ تُودَعُ في هذه المخازن كانَتْ إمّا أن تُدفَنَ تحتَ التّراب، وإمّا أن تُحنّطَ وتُتركَ في تابوتٍ [٣٧٢] ويُدفنَ التّابوتُ تحتَ التّراب.

يُدفَنُ أَئمّةُ الدّينِ وأَشْياخُ الطّريقة دائمًا في التّراب، أمّا الحاكِمونَ ورِجالُ الدُّوَل فيوضعونَ في تَوابيتَ بعْدَ تحنيطهم. ولأنّ «المَقامَ» لم يكُنْ يُبنى فوقَ جَسَدٍ، لا يوجَدُ مخزنٌ تحتَ الصّندوق. وتأسيسًا على ذلكَ، إذا وُجِدَ تحتَ الصّندوق الخشبيّ لـ «مَقام شَمْسٍ» مخزَنٌ، كان ذلكَ دَليلًا على أنّ جسَدَ شَمْسٍ مدفونٌ في المكان عَينه. وعندَما قُلِعَتِ اللّوحاتُ الخشبيّةُ بِمُساعدة قضيبٍ مِن الحديد، ظهرَ نَفَقٌ تُرابيٌّ مظلِمٌ وضيّقٌ يؤدّي مِن خلال دَرَجاتٍ إلى مخزَنٍ في الأسفل. وقد نظّفَ عامِلٌ تُرابَ النّفَق والدَّرجات، ثمّ باستعمالِ مصباحٍ قويّ نزَلْنا مِن النَّفَقِ والدَّرَج. كان المشهَدُ الذي رأيناه مفاجئًا حتّى إنّ العَرَقَ تصبّبَ عَلَى جسَدَيْنا. كان أمامَنا مخزَنٌ بُنيَ بالحجارة؛ وعَلَى مقربةٍ مِن جِداره الجنوبيّ كان يُرى قَبْرٌ، ارتفاعُه ستّونَ إلى سبعينَ سانتي مترًا، بُني بالحجارة والطّين. ويُرى جيّدًا أنّ هذا القبرَ بُني فوقَ مَدْفن جَسَدٍ. وبَدَهيٌّ أنّنا ما كُنّا قادِرِين على فَتْح القبر والبَحْث عن بقايا جَسَد شَمْس. ذلكَ لأنّ أَحْكامَ الإسلامِ المُبينِ، كانَتْ تمنعُ نَبْشَ القبر. لكنّه غدا مُسَلَّمًا عندَنا أنّ جثمانَ التَّبْريزيّ دُفِنَ في الموضع نفسه.

في كتاب «تحْتَ القُبّة الخَضْراء»، يعْرِضُ محمّد أُونْدِر كيفيّةَ قَتْل شَمْسٍ التَّبْريزيّ، وهو ما أثبتُّه أنا في الصّفحات السّابقة. ويُضيفُ: أنّ مَوْلانا، الذي كان يسمَعُ صِياحَ شَمْسٍ في اللّيلة التي كانوا يهجمونَ عليه فيها، يخرجُ مِن الحُجْرة، لكنّه لا يَرَى إلّا قطَراتِ دَمٍ.

ويعتقدُ المؤلِّفُ [محمّد أُونْدِر] أنّ المخالفينَ، الذين كان منهم ابنُ مَوْلانا الأصغَرُ علاءُ الدّين، بعْدَ قَتْلِهم شَمْسًا ألقَوا جسَدَه في بئر مهجورة قريبة جدًّا. في ذلكَ الوَقْت، يذهَبُ مَوْلانا إلى حُجْرة ابنه الأكبر سُلْطان وَلَد، ويطلُبُ إليه أن يفتّشَ عن شمسٍ. وفي ظَنّ محمّد أُونْدِر، أنّ سُلْطان وَلَد عندَما يخرجُ مِن البيت يَطّلِعُ مباشرةً

على جَليّة الأَمْر، ويجِدُ مَحَلَّ القبر، ورُبّما بِمُساعدة قاتِلي شَمْسٍ يَسْتُرونَ القبرَ في اللّيلة نفسِها. ذلكَ لأنّه يعْلَمُ أنّ مَوْلانا لَوِ اطّلعَ على قَتْلِ شَمْسٍ لتألّمَ وحَزِن كثيرًا. وللسّبب نفسِه، وبعْدَ مُدّةٍ، يقولُ لأبيه إنّ شَمْسًا غادرَ قُونِيةَ واختفَى. وإنّ سُلْطان وَلَد، وكذلكَ الأشخاصُ الذين اشتركوا في إزهاق رُوحِ شَمْسٍ، ظلّوا حَتّى نِهاياتِ حَيَواتهم يكتمونَ هذا السِّرَّ [٣٧٣]. مَوْلانا أيضًا، ظَلّ لِسنينَ كثيرةٍ يُنمِّي في قَلْبه أمَلَ عَودة شَمْسٍ، وينوحُ لِفِراق مطلوبِه ومعشوقِه الهارِب مِن الألَمِ والهَجْر، في قالَبِ غزَليّاتِ «**ديوان شَمْس تَبْريز**»، التي تطفَحُ هَيَجانًا وحالًا ووَجْدًا، ويُمْضي وقتَه في الدّوَرانِ والسَّماع، والتّصفيقِ والرَّقْص.

أَيوجَدُ مَزارُ شَمْسِ التَّبريزيّ في قُونِيةَ؟

اكتشافُ مَزارِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ مِن وِجْهة نَظَر المؤلّف:

الأستاذُ محمّد أُونْدِر، الذي تَولّى لِستِّ سَنواتٍ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٧م) رِياسةَ المُتحَفِ والمكتبة عندَ تُرْبة مَوْلانا، أوضحَ كيفيّةَ اكتشافِ مَزارِ شَمْسٍ عَرَضًا، في كتابٍ عنوانُه «تحْتَ القُبّة الخَضْراء»، على نَحْو مُفصَّل. ومِن جُملة ما قال في هذا الشأن: إنّ الأستاذَ العاليَ المقام المُحيطَ خُبرًا بِمَوْلانا عبدَ الباقي گُلْبينارلي، بعْدَ مُشاهدته مدْفَنَ شَمْسٍ، استبدّ به الوَجْدُ، وأيّدَ الرّأيَ الكاشِفَ لمَزار شَمْس.

ويتمنّى المؤلِّفُ أن يكونَ الأمرُ كذلكَ، ولكنْ هناك مَسائلُ أتصوّرُ أنّها ضَروريّةٌ ومثيرةٌ للنّقاش وقابلةٌ للتأمّل عندَ مُحِبِّي صاحِبِ «**مقالات شَمْس**»، الذي يقولُ عنه مَوْلانا جَلالُ الدّين: «لا غَريبَ في هذه الدّنيا مِثْلُ شَمْس».

١ ـ كتَبَ السّيِّد الدّكتُر أبو القاسم تَفضُّلي، الذي ترجَمَ أقسامًا مِن محتويات كتابِ «تحْتَ القُبّة الخَضْراء» إلى الفارسيّة، يقولُ:

«... في القُرونِ الخالية، عندَما كان مُريدُو مَوْلانا ودَراويشُ الطّريقةِ المولويّة يذهبونَ إلى قُونِيةَ، كانوا يَرونَ واجِبًا عَلَيهم ـ قبْلَ أن يذهبوا لِزيارةِ تُرْبة مَوْلانا ـ أن يذهبوا لِزيارة مَقامِ شَمْسٍ... وعَلَى نَحْوِ ما كان الدّكتُر جَلالُ الدّين چَلَبي، الشّيخُ الحاليُّ لِلْمَولَويّة (انتقلَ إلى رحمته تعالى منذُ سنتَين)، الذي يصِلُ نسَبُه إلى حَضْرةِ مَوْلانا بواحِدٍ وعشرينَ ظَهْرًا، يقولُ لي ـ أي للسّيّد تَفضُّلي ـ: «كلّما سافرَ إلى قُونِيةَ [٣٧٥] كان يذهَبُ ابتداءً لِزيارة «مَقامِ شَمْس»، ثمّ بعْدَ ذلكَ يُسارعُ لزيارة ضَريح مَوْلانا».

وإذا كان التُّرْكُ يعتبرونَ «المَقامَ» محَلَّ دَفْنِ الأَوْتادِ والأولياء، فإنّه لم يتحقّقْ

كَشْفٌ جديدٌ في ذلك المَحلّ، إلّا إذا قُلْنا: إنّ المرادَ مِن «المَقام» حالٌ في السَّيْرِ والسُّلوك، كان في زَمانِ الشّيخِ فَريدِ الدّين العَطّار وجَلالِ الدّين البَلْخيّ مَحَلَّ اهتمامٍ كبيرٍ لكثيرٍ من المشايخ. وكان يحصُلُ لِشَمْسٍ في نقطةٍ أو موضعٍ مَشْهورٍ، بينَ الفَينة والأُخرى، حالٌ ومَقامٌ، وكان لِزامًا أن يخبِرَ حبيبَه مَوْلانا بالحادثة، أو المقامِ الذي كان يطّلِعُ عَلَيه في سَيره وسُلوكه. ولهذا السّبب، رُبّما سُمِّيَ ذلكَ الموضِعُ بعْدَ اختفاءِ شَمْسٍ «مَقامَ شَمْس»[1].

٢ ـ لا أحَدَ مِن كُتّابِ التّذاكر في عَصْر مَوْلانا ـ أي شَمْسِ الدّين الأفلاكيّ وسِپَهْسالار ـ كتَبَ في أثَره رأيًا في شأنِ قَتْل شَمْسٍ، حَتّى على نَحْوٍ مبهَم. ذَكّروا فقط بأنّ طَبَقاتِ النّاس المختلفةَ في الرّوم الشّرقيّة، وعَلاءَ الدّين ابنَ مَوْلانا الأصغرَ، كانوا معترِضينَ على إقامة الشّيخِ الكبيرِ الغامِضِ التَّبْريزيّ في قُونِيةَ. وسُلْطانُ وَلَد أيضًا في كتابه «وَلَدْنامه» أخبرَ فقط بِفِكْرة اختفاءِ شَمْس. وحَتّى بعْدَ وفاةِ والِدِه لم يغْدُ مستعِدًّا لِأَن يذكُرَ في «مَثْنَويّه» شيئًا في شأن مَقام شَمْس.

٣ ـ أُخالِفُ رأيَ الأستاذ محمّد أُونْدِر، الذي كتبَ في كتابه «تحْتَ القُبّة الخَضْراء» يقولُ: «إنّه بعْدَ قَتْلِ شَمْسٍ بأيدي الأَشْخاصِ، الذين كان منهم الابنُ الأصغَرُ لمَوْلانا أيضًا، أَلْقَوا جسَدَه سريعًا في بئر مُعَطَّلةٍ قريبةٍ من منزلِ مَوْلانا، ثمّ في اليومِ التّالي، وبمُوافقةِ سُلْطان وَلَد، غطّوا فُوّهةَ البئر بالطّين. وحصَلَ اتّفاقٌ بينَ القاتلينَ وابنِ مَوْلانا

---

١ ـ إنّ هدفَ العارفينَ من صِنْفِ شَمْسٍ، الذين هم واقفونَ على دقائقِ الطّريقة، هو إدراكُ الحقيقة. وفي الأصْل، العارفُ في ثقافةِ المشايخ والعارفينَ هو السّالِكُ الذي يُعطيه اللهُ سُبحانَه مِن طَريق المكاشَفة «مَقامَ» شُهودِ ذاتِه وأسمائه وصِفاته. وإنّ نَيْلَ هذا الهدَفِ المقدَّس يستلزِمُ تحمّلَ الرّياضاتِ والمقامات. وقد عبّرَ الشّيخُ فريدُ الدّين العطّار النّيسابوريّ عن هذه المقامات في مَثْنَويّه «منطِق الطّير» بسبعةِ أوديةٍ، هي: الطّلَبُ والعِشْقُ والمعرفةُ والاستغناءُ والتّوحيدُ والحَيْرةُ والفَناء.

الأكبَرِ على أن لا يُذْكَرَ شيءٌ عن هذه الواقعة لأيّ شَخْصٍ، وتَواصَوا مؤكِّدينَ بأنّه لا ينبغي أن يعْلَمَ مَوْلانا أيضًا بهذه الفاجعة؛ لأنّه ينزعجُ مِن ذلكَ كثيرًا، وستضطرِبُ حالتُه النفسيّة»، وأَعُدُّ ذلكَ غيرَ منطقيّ، بعيدًا عن الصّحّة[1]. وإذا ما قَبِلْنا فكرةَ أنّ جماعةً مِن القِشْريّينَ المتعصِّبين، [٣٧٦] وحتّى طُلّابِ دارِ العِلْم الكُبرى في الرّوم الشّرقيّة، تصوّروا شَمْسًا ضَيفًا يلفُّه الغُموضُ، ومبتدِعًا، وساحِرًا ماهرًا، وكافرًا، حتّى إنّهم أَعَدّوا خُطّةَ قَتْلِه مِن قبْلُ على نَحْوٍ دقيق، وعرفوا الأفرادَ المتطوِّعينَ المأمورينَ بإجراء هذه الفاجعة الدّمويّة، الذين كانوا يَعدّونَ الدّقائقَ في لَيلةِ الواقعةِ مترصِّدينَ لتنفيذ العَمَل، [إذا ما وافَقْنا على ذلكَ كلّه] عَلَينا أن نقبلَ فكرةَ أنّهم بعْدَ تنفيذِ برنامجِ قَتْلِ شَمْسٍ لم يبقَوا متّفقينَ، وأنّهم انطلقوا فَرِحينَ مَسْرورينَ مشتاقين راقصينَ مُسْرعينَ إلى محافلِ قُونِيةَ المختلفة، واستبدّ بهم الفرَحُ واضطَرَبوا أيّما اضطرابٍ، وبَشّروا بِقَتْلِ شَمْسٍ بمُباهاةٍ ومُفاخَرة؛ ورُبّما في اليومِ التالي زَيّنوا المدينةَ بالأضواء، ووزّعوا النَّقْلَ وسُكَّرَ النَّبات على النّاس. ذلكَ لِأَنّ خبرَ قَتْل شَمْسٍ لم يكُنْ خبَرًا عاديًّا لِكَي يظلّ مَخْفيًّا في عاصمة سَلاطينِ السّلاجقة عن فئات النّاس، خاصّةً رِجالَ البَلاط وقادةَ الجيش. والخُطَباءُ والوُعّاظُ مِن دُونِ أن يهتمّوا بكلامِ هذا وذاكَ وبتوصيةِ ابنِ مَوْلانا الأكبر، كانوا مِن فوقِ المنابِرِ يُخبرونَ الأهالي جميعًا بأنّ الشّيطانَ الذي لا يُذْكَر عَلَى اللّسانِ والسّاحِرَ المجهولَ، في النّهاية، تضرّجَ بِدَمه. وجَلالُ الدّين البَلْخيّ أيضًا كان مُطّلعًا

---

١ ـ جاء في كتاب «وَلَدْنامه» ما يأتي:

عَلى حِينِ غِرّةٍ ضاعَ مِن بينِ الجميع ... لِكَي يُزيلَ مِن قَلْبه الهمومَ كلّها
وعندَما اختفَى ليومٍ أو يومَيْن ... أخذَ مَوْلانا يئنّ مِن الألَم
وبعْدَ أن بحثوا عنه بجدّ ... وفتّشوا كلَّ ناحيةٍ وكلَّ بيت
لم يُعطِ أحَدٌ أبدًا خبرًا عنه ... ولم يَصِلْ إلى أحَدٍ رائحةٌ منه، ولا أثَر

على هذه الواقِعة، مِن طَريقِ أصحابه أو خاصّةِ أهله.

٤ ـ تعرّفْتُ جيّدًا الأستاذَ محمّد أُونْدِر المُحيطَ خُبْرًا بِمَوْلانا، الذي هو شخصيّةٌ كبيرةٌ صاحبةُ نَظَرٍ عندَ الأتراك، في الرّحلتَيْنِ اللّتَيْنِ كانتا لي إلى قُونِيَةَ، ومِن خِلال أساتذةٍ آخَرينَ في تلك البلاد، ولكنّي لا أعلَمُ ما إذا كان لَدَيه ـ معَ كُلّ عِلْمه وفَضْله ـ اطّلاعٌ دقيقٌ على عالَم التّصوّفِ النّظريّ والعَمَليّ لِلسّالكينَ، المَوْلَويّينَ خاصّةً، سَواءٌ أكان ذلكَ في زمانِ شَمْسٍ التَّبْريزيّ أم بعْدَ وفاة مَوْلانا.

الأستاذُ تَفضُّليّ أيضًا لم يكتُبْ، ولم يقُلْ شيئًا، في هذه المقولة. ولكنّني أعتقدُ أنّه إذا كان الأستاذُ محمّد أُونْدِر قد طالعَ مِن وِجْهةٍ عِرْفانيّة أجزاءَ المَثْنَويّ السّتّةَ، أي دائرةَ معارِفِ التصوّف والعِرْفان، **والدّيوانَ الكبير**، أي دائرةَ معارِفِ العِشْق، و«**مقالاتِ شَمْس**»، فإنّه يُصنَّفُ عندَئذٍ معَ الأستاذِ بديعِ الزّمان فُروزانْفَرْ والأستاذِ جَلال الدّين هُمائي والعلّامةِ محمّد تقي جَعْفَري، الذين يُقِرّون يقينًا [٣٧٧] القُدراتِ الخارقةَ للعادة لمَوْلانا في فَضاءاتِ الرّوح والإشْراق والعالَم الباطنيّ؛ مَوْلانا الذي يتمتّعُ برؤيةٍ غير عاديّة لِماهيّة الوجودِ وعالَم الغَيب، ويعتقدُ بِضَرْبٍ مِن الوَحْدة الكُلّيّة الكونيّة، مَوْلانا الصّوفيّ المخْلِص الذي كان ينظِمُ مباشرةً ما كان يُحِسّ به في عالَم إلهاماته، وكان يؤمنُ بالدُّعاءَيْنِ: صلاة الإشراق ودُعاء العُشّاق. وفي هذا الشأن قال:

فالهواءُ والتّرابُ والماءُ والنّارُ مِن عُبّادِه،

وهذه تَبدُو مَيتةً لي ولَكَ، أمّا عنْدَ الحقّ فهي حَيّةٌ

وإنّ كُلَّ ذَرّاتِ العالَم، في الخفاء،

تقـــــولُ لَـــــكَ نَهـــــارًا ولَـــــيلًا:

نَحْـــنُ سَـــميعونَ وبـــصيرونَ ومَـــسْرورون

لكنّنا مَعَكُم، يـا مَـنْ لم يُسْمَح لَكُم بالأَسْرار، صامتونَ

فامْـضُوا مِـنَ الجَمـادِ إلـى عـالَم الأرْواح

لِكَـيْ تَـسْمَعوا ضَـجيجَ أجـزاءِ العـالَـم[1]

فلا ينبغي أن يكونَ مَوْلانا غيرَ ذي عِلْمٍ بهذه الواقعة الدّمَويّة التي وقعَتْ بقُرب منزله، وهو الصّوفيُّ المُخْلِصُ المؤمنُ المعتقِدُ، الذي يؤمنُ بأنّ الصّوفيّةَ في حالِ المُراقَبة يحصُلُون على الإشراف على بَواطنِ أَحِبّائهم، وعندَما يبلغونَ درجةَ الكمال يقرؤونَ المكتوبَ في النّفس مِن دُون لَفْظ. وفي هذا المعنى يقولُ:

فَمـــا الألفـــاظُ حَتّـــى تفكّـــرَ فيهـــا

مـا الألفـاظُ؟ ـ إنّهـا أَشْـواكُ حـائطِ الكَـرْم

فَلِأَضْـــرِبَنّ الحَـــرْفَ والكَـــلامَ والـــصّوتَ

حَتّـى أتكلّـمَ معَـكَ مِـن دُونِ هـذه الثلاثـة[2]

أَيمكِنُ أن يكونَ غيرَ مُطَّلعٍ على هذا الذي حدَثَ لِشَمْسٍ، أي شَمْسِه، حبيبه؟ ـ ثمّ يمتدُّ عدَمُ الاطّلاعِ هذا لِعَشَرات السّنوات؟

٥ ـ الأستاذُ محمّد أُونْدِر يدركُ تمامًا أنّه في عَصْرِ مَوْلانا كان السَّفَرُ مِن قُونِيَةَ إلى دِمَشْقَ، بسببِ البُعْد وصُعوبة المسالك، يمتدُّ لِأَسابيعَ، ولا يحصُلُ بسهولة. ومعَ ذلكَ،

١ ـ المثنَويّ: ٨٤٢/١، ١٠١٩/٣ وما بعدُ.

٢ ـ المثنَويّ: ١٧٣٩/١ ـ ٤٠.

يقْبَلُ مَوْلانا المُعَنَّى الممتلئُ القَلْبِ أَلَمًا وحُزْنًا أن يُسافرَ إلى دِمَشْقَ مرّتَين بمَحبّةٍ ورِضا خاطِرٍ، متحمِّلًا وَعْثاءَ هذا السّفَرِ البعيدِ المتطاول المملوء بالمشقّة. والسّؤالُ هو: أَلَا يَجِبُ على أصحابه ومُريديه وخُلَفاءِ مدرسته، مِن وِجْهةٍ أخلاقيّة، أن يقولوا له: أَيْ مَوْلانا، الحبيبُ في البيت وأنتَ تدورُ حولَ العالَم!، شَمْسٌ قُتِلَ وهو مدفونٌ في قُونِيَةَ في موضِعِ كذا... وأنتَ مِن دُون طائلٍ تُوَطِّنُ نفسَكَ على تحمُّلِ السَّفَر؟

٦ ـ ما جاء في كُتُبِ التّذاكِرِ، وأقرَّه الأستاذُ بديعُ الزّمان فُرُوزانْفَر أيضًا وأثبتَه في كتابه الرّائع «رسالة في تحقيق أَحْوال مَوْلانا»(*)، مَبْنِيٌّ على أنّه عندَما امتدّ السَّفَرُ الثّاني لجلال الدّين البَلْخيّ إلى دِمَشْقَ، مِن أَجْلِ لِقاءِ شَمْسٍ، لأشهرٍ [٣٧٨] طلبَتْ جماعةٌ مِن الفُضَلاء والعُلَماء في قُونِيَةَ إلى السُّلْطان السّلجوقيّ أن يرسِلَ عددًا مِن ممثّلي البلاط إلى دِمَشْقَ لإرجاعِ مَوْلانا إلى قُونِيَةَ. وقد وافقَ السُّلْطانُ على ذلكَ، وأرسلَ عددًا من رجال البلاط إلى دِمَشْق. والسُّؤالُ هو: هَلِ السُّلْطانُ السَّلجوقيُّ أيضًا بعْدَ انقضاءِ أَشْهُرٍ على اختفاءِ شَمْسٍ لم يعْلَمْ بِضَرورة أن يُعْلِمَ الفقيهَ غيرَ المنازَعَ ورئيسَ دارِ العِلْم في قُونِيَةَ بحقائق قَتْلِ شمْسٍ، بِطَريقِ ممثّليه الذين أُرسِلُوا، ويُخبرَ مَوْلانا بما حصَلَ لمُراده، ويُعلِنَ مَراسِمَ تعازي البَلاطِ والنّاس المعزّين في قُونِية، مِن أَجْلِ التّخفيف على مَوْلانا؟

٧ ـ مثْلَما ذكَرْتُ في الصّفَحات السّابقة، تعتمدُ أصولُ طَريقةِ شَمْسٍ ومَوْلانا على أساسِ المباحِثِ الرّوحيّة ومعرفةِ النّفس والاطّلاعِ على كثيرٍ مِن الأسرار، والمكاشفةِ

* ـ ترجَمْنا هذا الكتابَ إلى العربيّة، وصدرت التّرجمةُ عن دار الفِكْر في دمشق عامَ ٢٠٠٦م، بعنوان: «مِنْ بَلْخَ إلى قُونِيَةَ» [المترجم].

والشّهودِ، وعلى أنّ ما يوصِلُ السّالِكَ المتعجِّلَ إلى مَقْصِده هو أنّه لا يخشى الحادثاتِ والنّائبات، لا يخشى الموتَ والقَتْلَ العِشْقيّ والعِرْفانيّ.

وفي اعتقادِ مَوْلانا أنّ عاشِقًا صادِقًا مؤمنًا مُخْلِصًا، مِثْلَ شَمْسِ التَّبْريزيّ، عندَما وَصَلَ إلى منزِلِ العِشْق كان مِثْلَ قَطْرةٍ سقطَتْ في البَحْر، أو مِثْلَ ذَرّةٍ ترقصُ في الشّمْس المضيئة للعالَم على الدّوام، أو مِثْلَ الجُزء الذي يفْنَى في الكُلّ. وكثيرًا ما كرّرَ مَوْلانا وشَمْسٌ جِهارًا: نحْنُ عاشقانِ مُغْرَمان؛ لأنّنا رَأينا فيه [العِشْقِ] الحقيقةَ ونراها.

في الرّحلةِ الثانية لمَوْلانا الذي مضى إلى دِمَشْقَ للبَحْث عن كنزه المعْنَويّ، الذي كان لَدَيه رؤيةٌ للعالَم خارقةٌ للعادة، أدركَ مِن طَريق سِحْرِ العِشْقِ وإكسيرِ الشُّهود وبكُلّ فِراسته ودِرايته أنّ مُرادَه ظَفِرَ برَوْضةِ وَرْدِ وصالِ «وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ»(*). ولهذا السَّبب، استعادَ هدوءَه، وأمَرَ أصحابَه بالاستعداد للرّحيل إلى قُونِيَةَ، وقالَ: قبْلَ وفاةِ شَمْسٍ كنتُ أرى نَفْسي في شَخْصِ شَمْسٍ، أمّا الآنَ فأُشاهِدُ شَمْسًا في نفسي. واعْلَموا الآنَ أنّه في كُلّ شَعْرةٍ من شَعَر رأسي هناكَ شَمْسٌ معلّقة. ثمّ ألا يمكِنُ أن نستخلصَ مِن الغزَل الآتي الذي جاء في ديوان شَمْسٍ، أنّ شَمْسًا، أو عالَمَ المعاني عندَ الرّوميّ، تَلَفّعَ بنِقاب التّرابِ المظْلِم؟ وإذا كان مصدِّقًا بأنّه قُتِلَ في قُونِيَةَ بأيدي المعاندين، فهَلْ [٣٧٩] أنشَدَ هذه الأشعارَ في شأن تَرْجُمانِ الحقّ:

عَجَبًــا، ذلــكَ المعــشوقُ الجميــلُ أيــنَ صــارَ،

عَجَبًــا، ذلــكَ الــسَّرْويُّ القَــدِّ أيــنَ صــارَ؟

---

* ـ يريدُ: لَقِي وَجْهَ ربِّه، سُبحانَه، وهو في مرتبة النَّفْسِ المطمئنّة التي يُناديها المولى سُبحانَه: «ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ» [المترجم].

كـــانَ بينَنـــا كالـــشّمَعِ ينثُـــرُ النّـــور

فــأين صــارَ، واعَجَبًــا! مِــن دُوننــا أيــنَ صــارَ؟

إنّ قَلْبـي يهتـزُّ كـالوَرَق كُـلَّ يـومٍ [متسائلًا:]

المعشوقُ، في منتصَفِ اللّيـلِ، وحيدًا أيـنَ صـارَ؟

فاذْهَـبْ إلـى البُـسْتانِ، وأسـألِ البُـسْتانيَّ

عن ذلكَ الشَّبيهِ بغُصْنِ الوَرْد الجميلِ: أينَ صارَ؟

أَهِـــيمُ في الـــصّحراءِ كـــالمجنون [مُتـــسائِلًا:]

ذلــكَ الغَــزالُ، في هــذه الــصّحراء، أيــنَ صــارَ؟

ها قَدْ صارَتْ عَيْنايَ كنَهْرِ جَيْحُونَ مِنَ البُكاء [متسائلتَيْنِ:]

ذلــكَ الجــوهرُ، في هــذا البَحْــر، أيــنَ صــارَ؟

وإنّنـــي أَسْـــأَلُ القمَـــرَ والزُّهَـــرةَ في كُـــلِّ لَيْلـــةٍ:

ذلكَ الذي وجْهُه كالقَمَر فوقَ هذا المرتَفَعِ، أيـنَ صارَ؟

فـــإذا كـــان لَنـــا، فكيـــفَ يكـــونُ مـــعَ الآخَـــرين؟

وإذا لـــم يكُـــنْ هنـــا، هنـــاكَ أيـــنَ صـــارَ؟

وإذا كـــان قَلْبُـــهُ ورُوحُـــه متّـــصلَيْنِ بـــالله

حينَ غـابَ هـذا المـاءُ وهـذا الطّينُ، أيـنَ صـارَ؟

فقُـــلْ بِـــصَراحةٍ: شَـــمْسُ الـــدّين التَّبْريـــزيّ

حـينَ قـالَ: «الـشّمْسُ لا تخفـى» أيـنَ صـارَ؟[1]

أو هَلْ في قُونِيةَ، في إحدى لَيالي السَّماع إذْ سَحَرَه تذكُّرُ شَمْسٍ، قال هكذا:

هـــذا الأجَـــلُ أصَـــمٌّ، لا يَـــسْمَعُ الأنـــينَ

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٦٧٨.

ولَـو لا ذلـكَ لبَكَـى دَمًـا، مِـن دَمِ الكَبِـدِ
وجَـلّادُ المـوتِ هـذا لا قلْـبَ لَدَيـه البتّـةَ
ولَـوْ كـان قلْبُـه مِـن حَجَـرٍ لَبَكَـى
وقـد رَحَـلَ شَـمْسُ التَّبْريـزيّ، فـأينَ الإنسـانُ
لِكَيْ يبكيَ على ذلكَ الذي هـو فخرُ البشَر؟[١]

وههنا آسَفُ أن أذكُرَ ـ مِن أَجْلِ مَزيدِ اطّلاعِ الأستاذ محمّد أُونْدِر ـ روايةَ الأفلاكيّ وتفسيرَ سُلْطان وَلَد المنظومَ، ليتذكّرَهما:

ذكرَ الأفلاكيُّ في شَرْحِ السَّفَر الثاني لمَوْلانا في كتابه «**مناقب العارفين**» قولَه: «معَ أنّ حضرةَ مَوْلانا لم يظفَرْ بِشَمْسِ الدّين مِن جِهة الصّورة والظّاهر في دِمَشْق، وَجَدَ مِن جِهة المَعْنَى عظَمتَه وأشياءَ أُخَر في نفسِه وداخِلِه»[٢].

وهذه المقولةُ نقرؤها في أَشْعارِ سُلْطان وَلَد في «**مَثْنَوى وَلَدى**» على هذا النّحو:

«في بَيانِ أنّه معَ أنّ مَوْلانا ـ قدّسَنا اللهُ بسِرّه العزيز ـ لم يَجِدْ شَمْسَ الدّين التَّبْريزيّ ـ عظّم اللهُ ذِكْرَه ـ في الصّورة، في دِمَشْق، وَجَدَه في المَعْنَى في نفسِه؛ لأنّ تِلْكَ الحالَ التي كانَتْ لِشَمْسِ الدّين حصَلَتْ هي نفسُها لحضرته:

لـم يَـرَ شَـمْسَ تَبْريـزَ في الـشّام
بَـلْ رآهُ في نفـسِه ظـاهِرًا كـالقَمَر
فقـالَ: مـعَ أنّنـا في الجَسَدِ بعيـدونَ عنـه،
مِن دُونِ الجسَدِ والرّوح، نحْنُ كِلانا نُورٌ واحِدٌ

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَليّة ٢٨٩٤.
٢ ـ مناقب العارفين، ص ٦٩٩.

فـانظُرْ إليـه إن شـئتَ، أوِ انظُـرْ إلـيَّ
فأنـا هُـوَ، وهُـوَ أنـا، أيّهـا الباحـثُ
قالَ: عندَما أكونُ أنا إيّاهُ، لماذ أبحَثُ عنه؟
أنـا عَينُـه ، أتحـدّثُ عـن نفـسي
[٣٨٠] كُنـتُ، يقينًـا، أبحـثُ عـن نفـسي
كـالخَمْرةِ التـي تجـيشُ في الـدَّنّ
فـالخمرةُ لا تَجـيشُ مِـنْ أَجْـلِ أَحَـدٍ
بَـلْ تَـسْعى طالِبـةً حُـسْنَها وجَمالَهـا
وقالَ: شَمْسُ الدّين الذي كُنّا نتحدّثُ عنه
عـادَ إلَينـا، فلمـاذا نَحْـنُ نـائمونَ؟
وقَـدْ أبـدَلَ لِباسَـه، وجـاء
لِكَـي يُظْهِـرَ جَمالَـه ويتبختـر(١)

وقد ذكرَ الأستاذُ الدّكتُر محمّد علي مُوَحِّد في مقدِّمته لـ «مقالات شَمْس تَبْريزى» في هذا الشأن قولَه:

«... إنّ مَوْلانا، تَبَعًا لِمَشْربِ التصوّف، يَرَى الأولياءَ مظاهِرَ لحقيقةٍ واحِدة، تظهَرُ في أدوارٍ مختلفةٍ في قوالِبَ متباينة، حِينًا في صُورة نُوحٍ، وحِينًا في صُورة إبراهيمَ، وحِينًا في صُورة موسى، وعيسى، وغيرهم، عليهم السّلام(٢):

ذلكُمُ المُرتدي قَباءً أحمرَ، الذي طَلَع السّنةَ الماضية
طَلَـعَ في هـذه الـسَّنةِ مُرْتَـدِيًا خِرْقـةً زَرْقـاء

---

١ ـ وَلَدْنامه، ص ٦٠ ـ ٦٤.

٢ ـ من مقدّمة «مقالات شمسِ تَبْريزي»، ص ٢٩.

ذلكُـــمْ هـــو الحبيـــبُ عَينُـــه، وإنْ تغيّـــرَ لِباسُـــهُ

فقـــد مـــزّقَ ذلـــكَ الـــرّداءَ، وطَلَـــعَ مـــرّةً أُخْـــرى

فـــإذا صَـــوّبَتِ الـــشّمْسُ لِلْغُـــروبِ فلَـــيْسَ ذاكَ فَنـــاءً لهـــا

فقَدْ طلَعَ ذلكَ الذي هو قَمَرُ الأَنْوارِ مِن بُـرْجٍ آخَـر[١]

إنّ هدَفَ الابنِ الأكبرِ لمَوْلانا ممّا يقولُه، هو أنّ والِدَه الكبيرَ كان يحِسُّ بشمْسٍ في وجوده. ويعني هذا أنّه كان يُشاهِدُ مَعْنَى سُلْطانِ المعشوقين وحقيقتَه في نفسه. إضافةً إلى ذلكَ، كان كلامُه كلامَ شَمْسٍ، وكانَتْ آراءُ شَمْسٍ آراءَه...[٢].. أضاعَ مَوْلانا «أَناهُ»، وصارَ عَيْنَ شَمْس، فإذا أنشَدَ شِعْرًا رأى شَمْسًا في كُلّ كلماته ومَصاريعه:

لِأَنّـي حَيْـرانُ ومنـدَهِشٌ مِـن لِقائِـكَ ... صِـرْتُ كخَيـالٍ مِـن خَيالاتِـك

وإنّ فِكْـري وتـصوُّري مِـن رُوحِـك ... فكـأَنّني ألفاظُـكَ وعِباراتُـك[٣]

نظَمَ مَوْلانا في المَثْنَويّ بَحْثًا كاملًا ومُهِمًّا في شأن مُعجزةِ العِشْق ومعرفةِ الإنسان الكامل. وكتَبَ المرحومُ الأستاذ جلال الدّين هُمائي في تفسير أشعار مَوْلانا، في موضوع معرفة الإنسان الكامل، قولَه: «كما أنّ معرفةَ طَريقِ الحقّ وتمييزَه مِن طُرُق الباطل أمرٌ عَسيرٌ مُشْكِلٌ لا تُحَلّ عُقدتُه إلّا بمَدَد النُّصْرةِ والهداية الإلهية [٣٨١]، تكونُ معرفةُ

---

١ ـ ديوان شَمْس تَبْريز: الغزَلِيّة ٦٤٠.

٢ ـ قال مَوْلانا:

نحنُ أَحياءٌ بِنُورِ الكِبْرياء ... غُرَباءُ، لكنّنا معروفون جدًّا

شَمْسُ تَبْريزَ في ذاتِه ذَريعةٌ ... ونحنُ موجودونَ بالحُسْنِ واللّطْف

إنّ مَحْوَنا بِحُسْنِ شَمْسِ تَبْريز ... وفي المَحْوِ، لا يكونُ هو ولا نكونُ نحنُ

٣ ـ ديوان شمْس تبْريز: الغَزَلِيّة ١٦٨٤.

الإنسانِ الكامل، وتمييزُ أَولياءِ الحقّ مِن المدّعينَ أَهْلِ الباطِلِ، أيضًا مِن المراحِلِ الصّعْبة والخطَرِة جِدًّا في السَّير والسُّلوك... أمّا مَوْلانا فإنّه مِن أَجْلِ النّجاة مِن هذَين الطّريقَين المملوءَينِ بالآفاتِ يقدِّمُ ضابِطًا كُلّيًا ومِصْباحًا هاديًا[1]، على هذا النَّحْو:

إنّ عَمَـــلَ الرّجـــالِ نُـــورٌ وحَـــرارةٌ
وأمّـا عمَـلُ الأَخِـسَّاءِ الـدُّونِ فاحتيـالٌ وتَـواقُحٌ
إنّ شَـرابَ الحـقِّ خِتامُـه المِـسْكُ المـصَفّى
وأَمّـا الخَمْـرُ فخِتامُهـا النَّـتَنُ والعـذابُ[2]

ويجعَلُ جَلالُ الدّينِ البَلْخيُّ النَّكِرةَ التَّبريزيَّ: «مَفْخَرَ الآفاق»، و«الرُّوحَ المُصَوَّر»، و«أصْلَ الوجودِ والإيجاد»، و«شَمْسَ العالَم»، وبروايةِ ابنه سُلْطان وَلَد:

الخَـضِرُ عنـدَه شَـمْسُ التَّبْريـزيّ ذلكُـمُ الـذي إذا مازَجْتَـهُ وخالطتّـهُ
لـم تـشترِ أحَـدًا، أيًّـا كـانَ، بِحَبّـةِ شَـعيرٍ ومزّقْـتَ حُجُـبَ الظّـلام
ذلكَ الـذي كـان مَسْتورًا عَـنِ المـستورينَ الـذي كـان العقْـلَ لِجُمْلـةِ الواصِـلين[3]

والأستاذُ هُمائي في كتابه «**مولوى نامه**» ذكَر، وأعلنَ أنّ مَوْلانا مِن المُصْطَفَينَ الخاصِّينَ لِلْحقّ تعالى، ويَنْسِبُ له مَقامًا مُساويًا تمامًا لمقام شَمْسٍ التَّبْريزيّ.

١ـ يعتقدُ جَلالُ الدّين البَلْخيّ أنّه لا يخلو عَصْرٌ وزمانٌ مِن حُجّةٍ وجودِ الأولياء ورجالِ الله «فلِكُلّ دَورٍ وَليٌّ قائمٌ»:
كُلُّ مَنْ تَراهُ وَرْدِيَّ الوَجْهِ مِنَ الكوثَر هو مُحَمَّدِيُّ الطَّبْع، فاكتسِبْ منهُ العاداتِ الطّيّبة
وهو مِثْلُ النُّور، والعقلُ عندَه مِثْلُ جِبْريل والوَليُّ الذي هو أدنى درجةً منه كالقِنْديل، يستمدُّ منه النّورَ
ومَنْ هو أَقلُّ مِن هذا القِنْديل هو مِشكاتُنا وللأنوارِ دَرَجاتٌ في مراتبها
(المَثْنَويّ: ٢/٨٢٢ وما بعدُ)

٢ـ المثْنويّ: ١/٣٢٧، ٣٢٤.

٣ـ مثْنَوي وَلَدْنامه، تحقيق الأستاذ جلال الدّين هُمائي، ص ٤٢.

وباعترافِ كثيرٍ مِن المشايخ والعارفينَ، أنّ هذا العاشِقَ وهذا المعشوقَ المُخْلِصَيْنِ المعتقدَيْنِ قد وصَلَا في السَّيرِ والسُّلوك يقينًا إلى مَقام «حَقّ اليقين»، فكيفَ يمكِنُ تصديقُ أنّ مَوْلانا، معَ أنّه في هِجْرانِ شَمْسٍ كان يعيشُ في حالٍ مِن هَيَجانِ العِشْقِ والسُّكْرِ والاستغراق الدّائم، لَمْ يكُنْ قادرًا على الاطّلاع على قَتْل مُراده في قُونِيَةَ؟

وبناءً على ذلكَ، ومُراعاةً للأمور السّابقة، أقولُ جازمًا للأستاذ الدّكتُر تَفضُّلي - الذي تلطّفَ بِسَعةِ صَدْرٍ فقدّمَ لي ترجمةً لِقِسْمٍ مِن كتاب «تحْتَ القُبّةِ الخَضْراء»، للعالِم المحترم الأستاذ محمّد أُونْدِر ، ووافقَ بِرِضا خاطِرٍ على أن أَنشُرَه -: في الطّبعة الثانية لهذا الكتاب، سأبيّنُ تفصيلًا أنّه: لا «مَقامُ شَمْسٍ»، ولا مَزارُ شَمْسٍ، المجاوِرُ لِضَريحِ مَوْلانا، هو مَدْفَنُ الشّيخ التَّبْريزيّ. [٣٨٢] وإذا كان الأمرُ كذلكَ، فلا شكّ في أنّه بعْدَ وفاةِ مَوْلانا، ترَكَ صَلاحُ الدّين زَرْكُوب، أو حُسامُ الدّين چلبي، أو شخصٌ آخَرُ مِن أقطاب المَوْلويّة في القُرون الماضية، كتابةً أو لَوْحًا بِقُرْبِ مَدْفَنِ شَمْسٍ؛ لِكَي يخلِّصَ الأجيالَ اللّاحقةَ مِن الشكّ والتردُّدِ والخيالِ والظنّ الذي لا أساسَ له في هذا الشأن. والسّؤالُ هو: أينَ إذًا مَزارُ ذلكَ الشَّخْصِ الذي لم يكُنْ يجِدُ فَضاءً يتّسِعُ لِنُبوغِه وفِراسته في ميدانِ العِرْفان إلّا في قُونِيَةَ؟

فمِنَ الخَيرِ أن تبحَثُوا عن مَزارِ العارِفِ، الذي تمتّعَ بِكُلّ هذه الغَرابةِ في الطَّبْع، في البيتِ الآتي:

بَعْـدَ الوَفـاةِ، لا تبحَـثْ عـن قَبْرِنـا في الأرض

إنّ مَزارَنـــــا في صُـــــدُورِ العـــــارِفين

مصادرُ الكتاب ومراجعُه

- تاريخ ادبيات ايران، تأليف إدوارد براون (بالإنكليزيّة)، ترجمة فارسيّة بعناية علي باشا صالح.

- تاريخ ادبيات ايران، تأليف دكتر رضا زاده شفق.

- تاريخ ادبيات ايران، تأليف هِرْمَنْ إتْه (بالألمانيّة)، ترجمة فارسيّة بعناية دكتر رضا زاده شفق.

- تاريخ ادبيات در ايران (ثلاثة أجزاء)، تأليف دكتر ذبيح الله صفا.

- تاريخ فلسفۀ اسلام، بعناية م. شريف.

- جستجو در تصوّف ايران، تأليف دكتر عبد الحسين زرّين كوب.

- چشمۀ روشن - ديدار باشاعران، تأليف دكتر غلامحسين يوسفي.

- ديوان شمس تبريزى، بتحقيق الأستاذ بديع الزمان فروزانفر.

- ديوان شمس تبريزى، بعناية الأستاذ جلال الدّين هُمائي.

- رسالۀ سپهسالار، در مناقب حضرت خداوندگار، تأليف فريدون بن أحمد سپهسالار.

- رسالۀ عشق، الإمام الغزالي، ترجمة فارسيّة بعناية إيرج أفشار.

- رسالۀ ولدنامه، تأليف بهاء الدّين وَلَد.

- سخنانِ پير هرات، تأليف خواجه عبد الله أنصاريّ.

- سوانح العشّاق، تأليف عين القُضاة الهمذانيّ.

- شرحِ احوال وزندگانى مولانا جلال الدّين محمد بلخي، تأليف الأستاذ بديع

الزمان فروزانفر.

ـ شرحِ مثنوی شریف، تأليف الأستاذ بديع الزمان فروزانفر.

ـ عرفانِ مولوی، تأليف دكتر خليفة عبد الحكيم (بالإنكليزية)، ترجمة فارسيّة بعناية أحمد محمّدي وأحمد مير علايي.

ـ فرهنگ اشعار حافظ، تأليف دكتر أحمد علي رجائي بخارائي.

ـ فرهنگ لغات وتعبيراتِ عرفانی، تأليف دكتر سيّد جعفر سَجّادي.

ـ فيه ما فيه، تأليف جلال الدّين محمد بلخی، بتحقيق محمّد جواد شريعت.

ـ گزيدهٔ ديوان شمس تبريزی بامقدّمه، الأستاذ الدكتر محمّد رضا شفيعي كدْكني.

ـ لوايح، تأليف عبد الرّحمن جامي.

ـ لوايح، تأليف عين القضاة الهمذانيّ.

ـ مثنوی جلال الدّين محمّد بلخی، طبعة علاء الدّولة.

ـ مثنوی جلال الدّين محمّد بلخی، بتحقيق رينولد ألين نيكلسون.

ـ مجموعهٔ آثار فارسی شيخ شهاب الدّين سُهْرَوَرْدِی، بتحقيق دكتر سيّد حسين نصر، وهنري كوربن (المستشرق الفرنسيّ).

ـ مقالات شَمْس تبريزی، بتحقيق دكتر محمّد علي موحّد.

ـ مقدّمهٔ رومی وتفسير مثنوی، تأليف رينولد ألين نيكلسون (بالإنكليزيّة)، ترجمة فارسيّة بعناية أوانيس أوانيسيان.

موضوعُ هذا الكتابِ هو تفاصيلُ العلاقةِ الرّوحيّة والفِكْريّة الخاصّة التي نشأت بينَ الشّاعرِ الصّوفيّ الكبيرِ جلالِ الدّين الرّوميّ (٦٠٤ ـ ٦٧٢هـ)، ومُرْشِدِه شَمْس الدّين التّبْريزيّ (٥٨٢ ـ ٦٤٥هـ تقريبًا). فقد كان جلالُ الدّين الرّوميّ فقيهًا حَنفيًّا ذا شأنٍ في مدينة قُونيةَ التّركيّة، التي كانت في عَصْر الرّجلَين عاصمةَ سلاجقة الرّوم، وكان يدرّسُ العلومَ الإسلاميّة الأساسيّة في عَصْره، عُلومَ القرآنِ والحديث والمباحثِ المتّصِلة بها، وكان يتتلمذُ عليه عددٌ كبيرٌ مِن طُلّاب العِلْم. لكنّه بعْدَ لقائه شَمْسًا التّبْريزيَّ عاش حالاً مِن تغيّر طريقةِ التفكير والنّظر إلى الوجود، فنهَجَ نهجًا مختلفًا تمامًا عن النّهج الذي ترسّمه قبلَ هذا اللّقاء. وأظهر ما جدّ في تفكيره وسُلوكه وحياته أنّه تعلّقَ بشَمْسٍ التّبْريزيّ تعلّقًا مَلَك عليه أقطارَ نفسه، وتحوّلَ إلى شاعرٍ عارفٍ فاق ما أنتجَهُ مِن الشّعْر ما أنتجه أيُّ شاعرٍ آخر في العالَم. ومثْلما كان لِقاءُ شَمْسٍ إيّاهُ متلفّعًا بغِلالةٍ مِن الإبهام، كان فِراقُه إيّاه أكثرَ غموضًا وإبهامًا.

وقد تحدّثَ كثيرون فيما مضى عن لِقاء الرّجُلَين، وما زالت أقلامُ الكاتبينَ في الشّرق والغرب تتحدّثُ عن هذا الأمر، وعن الفضاءِ الفِكْريّ العميق والواسع الذي قدّمَه الرّجُلانِ، وقد شَمِلَ ذلك العالَمَ كلّه في العقود الأخيرة، على نحوٍ يكون فيه جلالُ الدّين الرّوميّ مَحلَّ اهتمامٍ مُشترَكٍ في الثّقافة الإنسانيّة كلّها.

عيسى العاكوب


9789933509989



